سلسلة الأعمال الكاملة للإمام الحسن بن مسعود اليوسي في الفكر الإسلامي
2
مشرب العام والخاص
من كلمة الإخلاص
للإمام
أبي المواهب الحسن بن مسعود اليوسي المغربي الأشعري
المتوفى سنة 1102 هـ
الجزء الثاني
تقديم وتحقيق وفهرسة
حميد حماني اليوسي
أستاذ التعليم العالي بكلية الحقوق - جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء
1440هـ - 2019م
دار الرشاد الحديثة
الدار البيضاء - المغرب

مشارق العام والخاص
من كلمة الإخلاص
الجزء الثاني

سلسلة الأعمال الكاملة للإمام الحسن بن مسعود اليوسي في الفكر الإسلامي
(2)

مشرب العام والخاص

من كلمة الإخلاص

للإمام
أبي المواهب الحسن بن مسعود اليوسي المغربي الأشعري
المتوفى سنة 1102 هـ

الجزء الثاني

تقديم وتحقيق وفهرسة
حميد حماني اليوسي
أستاذ التعليم العالي بكلية الحقوق - جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء

1440هـ - 2019م
دار الرشاد الحديثة
الدار البيضاء - المغرب

المقصد الثاني
فِي بَيانِ مَا فِي هَذِه الكَلِمَة مِنَ اللَّطائِف
وَهُوَ مَنْظَرُ أَهْلِ الحَقائِق وَالمعَارِف

{تَذْكِير بِمباحِث المَقْصِد الأَوَّل}

122 / اعْلَم أَنَّ كَلمَة الإِخْلَاص يَتعَلَّق بِهَا لِلنَّاظِر مَباحِث :

الـمَبْحَث الأَول : بَيَان مَدْلُول لَفْظِها مِنَ التَّوْحِيد.

الثَّانِي : ذِكْر النُّطْق بِهَا.

الثَّالِث : اعْتِقَاد ذَلِك المَدْلُول.

وَعلَى هَذِه الثَّلاثَة تكلَّمْنا فِي المَقْصِد الأَوَّل[1]، لأَنَّـا تَعرَّضْنا لِتفْسِير الكَلِمَة وذَلِك هُوَ بَيَان مَدْلُولِها، وَتعَرَّضْنا لِحُكْمِها وذَلِك هُو ذِكْر النُّطْق بِهَا، وتَعرَّضْنا لِلإِيمَان وحَقِيقَته شَرْعاً، وذَلِك هُو ذِكْر اعْتِقَاد مَدْلُولِها.

{مُكَونَات المَقْصِد الثَّانِي}

وبَقِيَ مِنْ هَذِه الكَلمَة مَبْحثَان آخَرَان :

أَحَدُهُمَا : ذِكْر جَمِيع مَا يَحْتمِلُه اللَّفْظ لُغَة أَوْ عُرْفا فِي النَّفْي والإِثْبَات، زَائِداً عَلى مَا مَرَّ مِنَ الانْفِرَاد بِالأُلوهِية واسْتِحقَاق العِبَادَة.

الثَّانِي : تَمكُّن ذَلِك التَّوْحِيد المُعْتَقد مِنَ القَلْب تَمَكُّنا زَائِدا عَلى مُجرَّدِ الاعْتِقَاد، بِحَيْث يَكُون حَالاً لَهُ غَالِبا عَلَيْه، حَتَّى تَجْرِي الجَوارِح كُلُّها عَلَيْه، ويَسْعَى العَبْد

---

1 ـ يراجع المقصد الأول : في تفسير معنى الكلمة المشرفة وبيان فحواها/ 1 : 387 وما بعدها.

فِي تَصرُّفاتِه عَلى مُقْتضَاه، ولِهَذيْن المَبْحثَيْن وَضعْنا هَذا المَقْصِد الثَّانِي، نَسْأَل الله تَعالَى[1] أَنْ يَرْزُقَنا الفَهْمَ مِنْه والأَخْذَ عَنْه.

{الحَاصِل مِنَ المَقْصدِ الأَوَّل عِلْم مَكْسوب}

واعْلَم أَرْشَدَكَ الله أَنَّ المَقْصِد الأَوَّل كَمَا تَرَى، الحَاصِل مِنْه عِلْمٌ مَكْسوبٌ، قَدِ اسْتَنارَ دَلِيله واتَّضَح سَبِيلُه، وبِالدَّعْوة إِلَيْه بُعِثَت الرُّسُل وتَواطَأَت عَلَيْه صُلَحَاء المِلَل، فَلاَ جَرَم كَانَ لَهُ طَرِيقَان، أَحَدُهمَا الدَّلِيل وَالبُرْهَان، والآخَر[2] السَّمَاع والإِذْعَان.

{الحَاصِل مِنَ المَقْصِد الثَّانِي عِلْم مَوْهوب}

وأَمَّا المَقْصِد الثَّانِي، فَالحَاصِل مِنْه عَلى مَا أَشَرْنا إِلَيْه، عِلْمٌ مَوْهوبٌ مَخْصوصٌ بِخُصوص، فَإِنَّ جَمِيع المُؤْمِنِين مَثلاً يَعْتقِدُون انْفِرَاد الله تَعالَى بِالأُلوهِية، وخَواصِّها مِن اسْتِحقَاق العِبادَة والإِيجَاد والإِعْدَام [والنَّفْع][3] والضُّر وَنَحْو ذَلِك، ولَمْ يَحْصُل لِجَمِيعِهم اليَقِين فِي هَذا الأَمْر، فَتَرَاهُم يَرْجُون ويَخافُون غَيْر الله تَعالَى، ويَسْتنِدُون إِلَى الأَسْبَاب والوَسائِط[4] عَلى غَيْر أَدَب مُتجَاوِزينَ الحَدَّ الَّذِي وَجَب، فَالاعْتِقَاد اعْتِقَاد مُوَحِّد، والعَمَل والتَّصَرف عَمَل مُشْرِك.

وأَمَّا خُصُوص المُؤْمِنينَ الَّذِين حَصَل لَهُم اليَقِين، وغَلَب عَلى قُلوبِهم التَّوْحِيد، فَهُم يَسْعَونَ بِظَواهِرِهم عَلى مُقْتضَى بَواطِنِهم، فَلاَ يَرْجُون إِلاَّ الله، وَلاَ يَخافُون

---

1 ـ ورد في نسخة ح : سبحانه.
2 ـ وردت في نسختي ق و ك : والأخرى.
3 ـ سقطت من نسخة ق.
4 ـ وردت في نسخة ك : والوسائل.

إلاَّ إِيَّاه، ولاَ يَتوَكَّلُون إلاَّ عَليْه، وَلاَ يَلْتفِتُون بِهِمَمِهِم إلاَّ إِلَيْه، قُلوبُهم مَصْروفَة عَنِ الأَغْيَار مُسَلَّمة مِنَ المُنازَعة والاخْتِيَار.

ولِهَذا أَيْضاً طَرِيقَان : أَحدُهمَا، الفَيْض الرَّبانِي والمَوْهِبَة[1] المَحْضَة[2]، كَمَا هُو حَالُ المَجْذوبِين[3]. والثَّانِي، التَّفَكُر مَع الاسْتِعدَاد بِالمُجاهدَة ومُداوَمة الذِّكْر، وصِدْق التَّوَجه، وَغَيْر ذَلِك مِمَّا هُو حَال السَّالِكينَ[4].

وبِالجُمْلَة، فَالمُؤْمِن الذَّاكِر لِلكَلِمَة يَحْصُل لَهُ أَمْرَان : [أَمَّا][5] الأَوَّل أَعْنِي المَكْسُوب فَيكُون إِمَّا بِأدِلَّة مَعْهودَة وأَقِيسَة مَعْلومَة، وهُو حَال المُسْتدِلِّين بِالصَّنْعَة عَلى الصَّانِع. وإِمَّا بِمَحْض التَّقْلِيد لِلشَّرْع، وَهُو حَال سَائِر العَوامِّ. وأَمَّا الثَّانِي أَعْنِي المَوْهُوب، فَيكُون إِمَّا مَع الاسْتِعدَاد السَّابِق، كَمَا هُو حَال السَّالِكينَ، أَوْ بِدُونه كَمَا هُو حَالُ المَجْذوبِين.

وكُلُّ ذَلِك بِالحَقِيقَة مَوْهُوب مِنَ المَلِك الوَهَّاب، لأَنَّه تَعالَى الوَاهِب لِلأَسْبابِ ومُسبَّباتِها، ولاَ تَأْثِير لِلْعَبْد ولاَ لِعَقْلِه وفِكْرتِه، ولاَ مُجاهَدتِه وخِدْمَته.

123 وقَدِ انْقَسَم / الفَرِيق الثَّانِي إِلَى مَجْذُوب وسَالِك، أَمَّا المَجْذُوب فَلاَ يُتعَرَّض لَهُ فِي هَذا، إِذْ لاَ حُكْم يَجْري عَليْه، ولاَ أَمْر يُطْلَب مِنْه مَا دَامَ كَذلِك.

---

1 ـ وردت في نسخة ح : المواهب.

2 ـ ورد في نسخة ك : المختصة.

3 ـ قال اليوسي في تعريفهم : «وليس المجذوب الذي ذكرنا هو كل من ترونه قد ذهب عقله، فقد يكون ذلك من حمق، أو مس أو جن، أو وسواس أو نحو ذلك، ولا نصيب له في الطريق، ولا كل من يتحرك لوارد حب أو خوف أو غير ذلك، ولا يضبط نفسه... فإن المجذوب هو الذي قطع المنازل، واستحصل المقامات، وحصل له الوصول، فهو من أولياء الله». رسائل اليوسي/ 2 : 333.

4 ـ ويقول في تعريف السالك : «هو المكب على دينه، المجتهد في طاعة ربه إما بالماء والسجادة، وإما بالصيام، وإما بإطعام الطعام، وإما بتلاوة القرآن، وإما بالتعلم، وإما بالتعليم، وإما بجهاد العدو، وإما بالإحسان إلى عباد الله...» نفسه/ 2 : 334-333.

5 ـ سقطت من نسخة ق.

وأَمَّا السَّالِك فَمَحَل الخِطَاب، والمَطْلُوب بِالشُّرُوط والآدَاب، والذِّكْر هُوَ عُنْوَانه ومَيْدَانه الَّذِي يُحْرِزُ[1] فِيهِ قَصَب السَّبْق، ومَشْرَبه الَّذِي يَنَال فِيه لَذَّة الذَّوْق.

وَقَد عُلِم أَنَّ كَلِمَة الإِخْلاَص هِيَ مِنَ الذِّكْر، بَلْ هِيَ أَفْضَل الذِّكْر. فَفِي الحَدِيث مِنْ رِوايَة جَابِر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ [2] عَنِ النَّبِي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِله»[3].

فَلاَ جَرَم نَحْتَاج إِلَى مُقدِّمة لِهَذا[4] المَقْصِد، فِي بَيَانِ مَاهِية الذِّكْر مِنْ حَيْث هُو، وفِي ذِكْر التَّرْغِيب فِيهِ عُموماً، وَفِي «لاَ إِلَه إِلاَّ الله» خُصوصاً، فَهذِه ثَلاثَة فُصُول:

---

1 ـ وردت في ح: يحوز.

2 ـ جابر بن عبد الله بن رئاب بن النعمان بن سنان. يجعل في الستة النفر الذين أسلموا من الأنصار أول من أسلم منهم بمكة. شهد بدرا و أحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد روى عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحاديث وتوفي وليس له عقب. الطبقات الكبرى/ 3 : 292.

3 ـ أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب: ما جاء في دعوة المسلم، وقال: «حديث حسن غريب». وابن ماجة في كتاب الأدب، باب: فضل الحامدين.

4 ـ ورد في نسخة ك: هذا.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

فِي بَيانِ حَقيقَةِ الذِّكْر

اعْلَم أَنَّ الذِّكْر فِي اللُّغَة هُو ضِدُ النِّسْيَان، فَهُو حِفْظ الشَّيْء وحُضُور الشَّيْء بِالبَال، قَالَ عَنْتَرَة[1] :

وَلقَد ذَكَرْتُك والرِّمَاح نَوَاهِلٌ ❖ ❖ ❖ مِنِّي وبِيضُ الهِنْد تخضبُ بِالدَّمِ

وَيُطْلَق أَيْضا عَلَى إِجْراء المَذْكُور عَلَى اللِّسَان قَال عَنْتَرة أَيْضاً:

لاَ تَذْكُرِي مَهْرِي ومَا أَطْعَمته ❖ ❖ ❖ فَيكُون جِلْدك مِثْل جِلْد الأَجْرَب

وَهُو إِخْبَار، فَقَد يَكُون بِحُكْم وقَدْ يَكُون بِوَصْف، إِمَّا مَدْح وإِمَّا ذَمٌّ، ولِذَلك كَثِيراً مَا يُطْلَق الذِّكْر ويُرَادُ بِه المَدْح والثَّنَاء لِكَثْرة اسْتِعمَالِه فِيهِ، ويُطْلَق الذِّكْر عَلى الشَّرَف والنَّباهَة لأَنَّ ذَلِك سَبَب الذِّكْر.

{الذِّكْرُ الشَّرْعي هُوَ الثَّنَاء عَليْه تَعالَى}

وأَمَّا الذِّكْر المَأْمُور بِهِ شَرْعا، فَهُو الثَّنَاء عَلَيْه تَعالَى والصَّلاَة لَهُ والعِبادَة كُلها. قَالَ صَاحِب[2] الكَشَّاف فِي قَوْلِه تَعالَى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[3] الآيَة، أَيْ أَثْنُوا عَليْه بِضُروبِ الثَّنَاء، مِنَ التَّقْدِيس والتَّمْجِيد والتَّهْلِيل والتَّكْبِير ومَا هُو أَهْله، وَأَكْثِروا ذَلِك بُكْرَة وأَصِيلاً، أَيْ فِي كَافَّة الأَوْقَات.

1 ـ عنترة بن شداد بن قراد العبسي (525 / 615م)، من كبار شعراء الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات السبع.
2 ـ المقصود به الزمخشري محمود بن عمر بن محمد (.../ 538هـ)، صاحب كتاب «الكشاف» في التفسير و«المفصل» في النحو وغير ذلك من المصنفات. االبداية والنهاية/ 12 : 235.
3 ـ الأحزاب : 41.

قَال رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «ذِكْرُ الله عَلَى فَم كُلِّ مُسْلِم» وعَنْ قَتادَة[1] : «قُلْ[2] سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَالله أَكْبَرُ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ <الْعَلِيِّ الْعَظِيم>[3]»[4]، ثُمَّ قَالَ : «ويَجُوز أَنْ يُريد بِالذِّكْر وإِكْثاره تَكْثِير الطَّاعَات[5]، والإِقْبَال عَلى العِبادَات، فَإِنَّ كُلَّ طَاعَة وكُلَّ خَيْر مِنْ جُمْلَة الذِّكْر»[6] انْتَهى وهَكذَا <عِندَ غَيْره>[7].

{تَفاوُت عِبارَات أَرْباب القُلُوب فِي الذِّكْر}

ولأَرْبَاب القُلُوب فِي الذِّكْر عِبارَات مُتفَاوِتة، قَال فِي الرِّسَالَة[8] : «سُئِل الوَاسِطي[9] عَنِ الذِّكْر فَقالَ : الخُرُوج عَنْ مَيْدَان الغَفْلَة إِلَى فَضَاء المُشاهَدة، عَلَى غَلبَة الخَوْف وشِدَّة الحُبّ»[10] انْتَهى.

وقَال صَاحِب[11] مِفْتَاح الفَلاَح : «الذِّكْر هُو التَّخَلص مِنَ الغَفْلة وَالنِّسْيان بِدوَام حُضُور القَلْب مَع الحَقِّ. وقِيلَ تَرْدِيد[12] اسْم المَذْكُور بالقَلْب واللِّسَان، وَسَواء

1 ـ قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر «ت : 23هـ»، الأمير المجاهد، كان من نجباء الصحابة، وأخو أبي سعيد الخذري لأمه. تهذيب سير أعلام النبلاء/ 1 : 66.

2 ـ ورد في النسخ الخطية والحجرية قولوا بدل قل.

3 ـ ساقط من نسخة : ك.

4 ـ أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب : ما يجزئ الأمي والأعجمي من القراءة.

5 ـ وردت في نسخة ك : الصاعة.

6 ـ نص منقول بتصرف من الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشري/ 3 : 265.

7 ـ ساقط من نسخة : ح.

8 ـ المقصود بها الرسالة القشيرية، نسبة إلى العلامة العارف بالله أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري «465/ 376هـ». وهي مطبوعة ومحققة.

9 ـ محمد بن موسى الواسطي أبو بكر، متصوف من كبار أتباع الجنيد، دخل خراسان وأقام بمرو، فمات بها، لم يتكلم أحد في أصول التصوف مثل ما تكلم هو، وكان عالما بالأصول وعلوم الظاهر. الأعلام/ 7 : 117. طبقات الصوفية : 303.

10 ـ نص منقول من الرسالة القشيرية مع بعض التغييرات : 222.

11 ـ المقصود به : تاج الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الكريم، المعروف بابن عطاء الله الاسكندري (ت:709هـ) المتصوف الشاذلي، أخذ الطريقة عن أبي العباس المرسي عن أبي الحسن الشاذلي، من كتبه : «الحكم العطائية»، «التنوير في إسقاط التدبير»، «مفتاح الفلاح في ذكر الله الكريم الفتاح». الديباج المذهب : 70. شجرة النور : 204.

12 ـ وردت في نسخة ك : تريد.

فِي ذَلِك ذِكْر الله أَوْ صِفَة مِنْ صِفاتِه، أَوْ حُكْم مِنْ أَحْكامِه أَوْ فِعْل مِنْ أَفْعالِه، أَوِ اسْتِدلاَل عَلى شَيْءٍ مِنْ ذَلِك، أَوْ دُعاء أَوْ ذِكْر رُسِله وأَنبِيَائِه وأَوْلِيَائِه، أَوْ مَنِ انْتَسَب إِلَيْه أَوْ تَقرَّب مِنْه بِوجْه مِنَ الوُجوهِ، أَوْ سَبَب مِنَ الأَسْباب، أَوْ فِعْل مِنَ الأَفْعال، بِنَحْو قِراءَة أَوْ ذِكْر أَوْ شِعْر أَوْ غِنَاء أَوْ مُحاضَرة أَوْ حِكايَة. والمُتكلِّم ذَاكِر، والفَقِيه ذَاكِرٌ، والمُدرِّس ذَاكِر، والمُفْتِي ذَاكِر، والواَعِظُ ذَاكِر، والمُتفكِّر فِي عَظمَة الله وَجلاَلِه وجَبرُوته وآياتِه فِي أَرْضِه وسَماوَاتِه ذَاكِر، والمُمْتَثِل[1] مَا أَمَر الله بِه أَوْ نَهى عَنْه ذَاكِرٌ، قَال : والذِّكْر قَدْ يَكُون باللِّسانِ، وقَدْ يَكُون بالجَنانِ، وقَد يَكُون بِأَعْضاء الإِنْسانِ، وقَدْ يَكُون بالإِعْلاَن والإِجْهارِ، والجَامِع لِذَلك كُلِّه ذَاكِر كاملٌ»[2] انْتَهَى.

124 وَقَد تَبيَّن لَكَ مِنْ كَلاَمه، أَنَّ كُلَّ طَاعَة / لله تَعالَى هِيَ ذِكْر، وأَنَّ المُؤْمِن المُوفَّق ذَاكِرٌ لله تَعالَى عَلى كُلِّ أَحْيانِه، ومَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الذِّكْر كَما مَرَّ هُو ضِدُّ النِّسْيان، فكلُّ مَنْ عَمِل طَاعَـة مِنْ قَـوْل أَوْ فِعْـل أَوْ تَرْك[3]، فَما عَمِلَها إِلاَّ وقَد ذَكَر الله <تعالى[4]>، إِذْ لَوْ نَسِيه مَا عَمِلَها. أَلاَ تَرَى أَنَّ الله تَعالَى هُو الَّذِي حَملَه عَلَيْها بِأَمْره ونَهْيِه.

ولِذَلك وَقَع فِي كَلاَم عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5] قَوْله : «وَأَفْضَل مِنْ ذِكْر الله بِاللِّسَان ذِكْر الله عِنْد أَمْره ونَهْيه» أَيْ يَذْكُر[6] الله عِنْد كُلِّ فِعْل، هَلْ أَمَرهُ بِه تَعالَى فَيقُوم عَلَيْه، أَوْ نَهَاه عَنْه فَينْتَهِي. وَكَذا يَذْكُر الله تَعالَى، أَيْ وَعْدَه وَوعِيدَه عِنْد سَمَاع الأَمْر والنَّهْي فَيأْتَمِر

1 ـ وردت في نسخة ق : الممثل.
2 ـ نص منقول مع شيء يسير من التصرف من مقدمة مفتاح الفلاح : 40.
3 ـ وردت في نسخة ك : تركيب.
4 ـ سقطت من نسخة : ح.
5 ـ أمير المؤمنين، أبو حفص العدوي الفاروق، خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن أيد الله به الإسلام (استشهد : 23 هـ) مناقبه لا تعد ولا تحصى، وسيرته لا تخفى. أسد الغابة / 4 : 145 – تذكرة الحفاظ / 1 : 5.
6 ـ ورد في نسخة ك : ذكر.

ويَنْتهِي، وهَذا كُلُّه فِي قَلْبه. وَبِذا تَعْلَم أَنَّ الذِّكْر عَلى الحَقِيقَة هُو مَا فِي القَلْب، وَأَمَّا مَا يُذْكَر مِنَ الأَفْعَال وَالأَقْوَال فَهِي مَظاهِرُه وتَرْجمَتُه، تَنْشَأ عَنْه ويَتقَوَّى بِهَا وتَتقَوَّى بِهِ.

{شَرْحُ كَلاَم عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَفْضَلِية ذِكْر الله عِنْدَ أَمْرِه وَنَهْيِه}

وَشَرْح ذَلِك : أَنَّ التَّوْحِيد مَثلاً إِذَا حَلَّ فِي الصَّدْر اعْتِقاداً وتَصْديقاً، ظَهَر عَلَى اللِّسَان بِالشَّهادَتيْن وعَلى سَائِر الجَوارِح بِالطَّاعَات، ثُمَّ إِنْ سَاعَدَه[1] التَّوْفِيق ودَامَت هَذِه الأَقْوَال والأَفْعَال، تَقوَّى القَلْب بِهَا وذَلِك بِوَجْهَين :

أَحدهُما، أَنَّه كُلَّمَا عَمِل طَاعَة، ارْتَفَع مِنْها نُور بِحكْمَة الله وفَضْلِه إِلَى القَلْب، فَيَتغَذَّى بِه ويَتقَوَّى.

الثَّانِي، أَنَّه بِالدُّؤُوب عَلى الطَّاعَات واجْتِنَاب المُخالَفَات، تَنْغلِق مَجارِي الشَّيْطَان، وَتنْحَسِم مَوادُّ النَّفْس وتَنْقطِع تَغْذِيَتها وتَقْوِية هَوَاها، وَفِي ذَلِك ضُعْف النَّفْس والهَوَى، فَيتَقوَّى الرُّوح والعَقْل، ثُمَّ لاَ يَزَال حَتَّى تَتمَكَّن فِيه الحَقِيقَة وتَرْسَخ، وَيَتطَهَّر مِنَ الخَبَث، ويَمْتلِئ نُوراً، فَعِنْد ذَلِك تَنْبسِط[2] أَنْوارُه عَلى الجَوارِح فَتسْعى فِي طَاعَة الله، وَتَنْشَط إِلَى الخَير غَيْرَ كَزَّة وَلاَ وَانِيَة، كَمَا فِي الخَبَر : «إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَة إِذَا صَلَحَت صَلَحَ سَائِرُ الجَسَدِ»[3] الحَدِيث.

فَأَنْت تَرَى <كَيْف>[4] يَسْتمِدُّ القَلْب مِنَ الجَوارِح فِي الابْتِدَاء، وتَسْتمِد مِنْه فِي الانْتِهَاء. وَإِيَّاك أَنْ تَسْتَغرِب هَذا وَتَتوَهَّم أَنَّ هُنا دَوْرا[5]، فَقَد أَبَان الله تَعالَى لَك [مِنْ هَذا][6] أَمْثِلَة كَثِيرَة مَحسوسَة تُشاهِدُها.

---

1 ـ ورد في نسختي ق و ك : ساعد.

2 ـ وردت في نسخة ق : تبسط.

3 ـ أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب : من استبرأ لدينه. ومسلم في كتاب المساقاة، باب : أخذ الحلال وترك الشبهات. وأحمد في مسند الكوفيين.

4 ـ سقطت من نسخة ك.

5 ـ الدور : هو توقف الشيء على ما يتوقف عليه. التعريفات : 105.

6 ـ ساقط من نسخة ق.

{مِثَال مَحْسُوس فِي اسْتمدَاد القَلْب مِنَ الجَوارِح فِي الابْتِداء واسْتِمدَادِها مِنه فِي الانْتِهَاء}

فَمِنْ ذَلِك : أَنَّ الرَّجُل لَوْ قَامَ لِطلَب المُلْكِ والرِّيَاسَة عَلى النَّاسِ، <فَقَد يَقُوم وَحِيداً لاَ نَاصِر لَهُ، وفَقِيراً لاَ مَالَ لَهُ، وَحَقِيراً لاَ مَنْعَة لَه، ثُمَّ يَسْتعِين بِالنَّاس، فَقَد يُسْعفُونَه>[1] لأَسْبَاب مِنَ المَطامع سَانِحَة، ومَخايِل لِلنُّجْح لاَئِحَة، فَيُعِينُونَه بِالأَمْوَال والعُدَدِ وَالعدَّة، فَلا يَزَال كَذلِك حَتَّى يَتمَكَّن فِي أَمْرِه ويَتقَوَّى فِي مُلْكِه، فَعِنْد ذَلِك يَنْعكِس الأَمْر ويَصِير النَّاس حَوْلَه رَعايَا، يَلْجئُون إِلَى رَفْدِه، ويَسْتعِينُون بِمَالِه، ويَسْتَعزُّون بِجَاهِه، وَقَد أَصْبَح يَوْمِئذ مَلِيّاً وَهُم الفُقَرَاء، وعَزِيزاً وهُمُ الأَذِلاَّء، ومَتْبُوعا وهُمُ التَّابِعُون، وأَصْبَح سَائِسُهم، إِنْ صَلَح صَلَحوا. سُبْحَان المُدبِّر الحَكِيم.

وَإِنْ أَرْدَت أَنْ تَقِفَ عَلَى هَذِه الحَقائِق، فَعليْك بِكُتُب القَوْم، فَإِنَّما أَشرْنَا إِشارَة.

وفِي البُغْية لِلإِمَام السَّاحِلِي[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ بَيان لِهَذا[3] المَعنَى. قَال رَحِمَهُ ٱللَّهُ مَا مَعْنَاه : «اعْلَم أَنَّ الذِّكْر لُغَة هُو ضِدُّ النِّسْيَان، وحَقِيقَته مِنَ الشَّرْع هِيَ[4] قِيَام مَعْنَى التَّوْحِيد فِي النَّفْس، حَتَّى يَصِير صِفَة لَهَا لاَ تَغْفَل عَنْه، وهَذِه الحَقِيقَة هِيَ المَطْلُوب مِنْ جَمِيع العِبَاد، وقِيَام مَعْنَاها بِالنَّفْس قَدْ يَقْوَى وَقَد يَضْعُف، بِحَسَب الوَسائِل الَّتِي تُمِدُّها، وبِحَسبِ البِدايَة والنِّهايَة.

أَمَّا فِي البِدَايَة، فَيَقُوم الاتِّصَاف بِحَقِيقة الذِّكْر عَلى النَّفْس وَقْتاً دُونَ وَقْتٍ، وَالحَقِيقَة إِذْ ذَاكَ تُسْتَمدُّ مِنَ الوَسائِل.

---

1 ـ ساقط من نسخة ك.

2 ـ محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن ابن إبراهيم أبو عبد الله الأنصاري الساحلي، من أهل مالقه، (ت : 753م) قال عن نفسه في كتاب البغية : «كنت أختم القرآن مرة بين الليل والنهار وكنت أؤم الناس في المسجد». من كتبه بغية السالك إلى أشرف المسالك.

3 ـ ورد في نسخة ك : هذا.

4 ـ ورد في نسخة ك : هو.

وَأَمَّا فِي النِّهَايَة، فَتثْبُت حَقِيقَة الذِّكْر فِي النَّفْس، وتَقُوم صِفَة لَهَا لاَ تَنْفَكُّ 125 / عَنْها، فَإِذْ ذَاكَ تُسْتَمدُّ الوَسائِل مِنَ الحَقِيقَة، وَالوَسائِل الَّتِي تُسْتمَدُّ مِنْها هَذِه الحَقِيقَة تَخْتلِف، فَمِنْها البَاطِن ومِنْها الظَّاهِر، ومِنْها القَرِيب وَمِنْها البَعِيد.

أَمَّا البَاطِنَة، فَكإِعْمَال الفِكْر فِيمَا يُحَرِّك النَّفْس للاتِّصَاف بِتلْك الحَقِيقَة. وَأَمَّا الظَّاهِرة[1]، فَكإِعْمَال الجَوارِح أَوْ بَعْضها، فِيمَا يُحرِّك الفِكْر لِما يُحرِّك النَّفْس لِلاتِّصَاف بِتلْك الحَقِيقَة مِنْ أَعْمَال الطَّاعَات، كَحرَكة اللِّسَان بِاسْم مِنْ أَسْمَاء الله تَعالَى، أَوْ صِفَة مِنْ صِفاتِه، أَوْ غَيْر ذَلِك مِمَّا يَجُرّه إِلَى اتِّصَاف النَّفْس مِنْ قَرِيب أَوْ بَعِيد.

قَالَ وَلِذَلك سُمِّيَت الوَسائِل بِحَقِيقَة الذِّكْر ذِكْراً بِنَوْع مِنَ المَجَاز، والعَرَب تُسَمِّي الشَّيْء بِاسْم الشَّيْء إِذَا كَانَ مِنْه بِسَبَب[2] انْتهَى الغَرَض مِنْه مُلخَّصا. وسَنَتعرَّض لأَنْوَاع الذِّكْر وبَقِيَّة مَباحِثه إِنْ شَاءَ [الله][3] عِنْد التَّعَرض لِثَمَرتِه وآدَابِه، والله المُسْتعَان.

1 ـ وردت في نسختي ق و ك : الظاهر.
2 ـ نص منقول مع شيء من التصرف من بغية السالك في أشرف المسالك، مخطوط الخزانة العامة رقم : 1691 د ص : 10 ـ 11.
3 ـ سقطت من نسخة ق

الفَصْلُ الثَّانِي

فِي فَضْل الذِّكْر والتَّرْغِيب فِيه عَلى الجُمْلَة

قَالَ تَعالَى : ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1] وَقالَ تَعالَى : ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[2]، وقَالَ تَعالَى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3]. وَقالَ تَعالَى : ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾... إِلَى قَوْله تَعالَى : ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[4] وقالَ تَعالَى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿41﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[5] الآيَة. إِلَى غَيْر ذَلِك مِنَ الآيَات وَهِيَ كَثِيرَة.

{طَائِفَة مِنَ الأَحَادِيث فِي فَضْل الذِّكْر والتَّرْغِيب فِيه}

وقَالَ نَبِيُّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِيه عَنْ رَبِّه عَزَّوَجَلَّ : «يَقُولُ الله تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»[6] وهَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَعنْه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الله جَلَّ ذِكْرُه : «لاَ يَذْكُرُنِي عَبْدٌ فِي نَفْسِهِ إِلاَّ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ مِنْ مَلائِكَتِي وَلاَ يَذْكُرنِي فِي مَلإٍ إِلاَّ ذَكَرْتُه فِي المَلإِ الأَعْلَى»[7]. وَعَنْه

---

1 ـ العنكبوت : 45.

2 ـ البقرة : 151.

3 ـ الأنفال : 46.

4 ـ الأحزاب : 35.

5 ـ الأحزاب : 41 – 42.

6 ـ أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ وقوله جل ذكره: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾. ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: الحث على ذكر الله.

7 ـ أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب عن معاذ بن أنس/ 2 : 394. وذكره صاحب كنز العمال عن

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ»[1].

وَعَنْ عَبْد الله بْن بُسْر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2] أَنَّ رَجُلا قَالَ يَا رَسُول الله إِنَّ شَرائِع الإِسْلام قَدْ كَثُرَت عَلَيَّ فَأَخْبِرنِي بِشَيْء أَتَشبَّثُ بِهِ، قَالَ : «لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْباً مِنْ ذِكْرِ اللهِ»[3].

وَعَنْ مُعَاذ بْن جَبَل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[4] قَال : إِنَّ آخِر كَلاَم فَارَقْت عَلَيْه رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ قُلْتُ أَيُّ الأَعْمَال أَحب قَالَ : «أَنْ تَمُوتَ وَلِسَانُكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكْر الله»[5]. وَعَنْه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «أَلاَ أُنَبِّئُكُم بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا [فِي][6] دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرٌ لَكُم مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ قَالُوا بَلَى قَالَ ذِكْرُ اللهِ»[7].

وَعنْه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [قَالَ][8] : «لِكُلِّ شَيْءٍ صقَالَة وَأَنَّ صقَالَة القَلْب[9] ذِكْرُ الله، وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَنْجَى مِنْ عَذَاب الله مِنْ ذِكْرِ الله» قَالُوا : وَلاَ الجِهَاد فِي سَبِيل الله، قَالَ : «وَلَوْ أَنْ يَضْرِبَ بِسَيْفِه حَتَّى يَنْقَطِع»[10]. وَرُوِيَ عَنْه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه قَالَ :

مكحول مرسلا، بهامش مسند الإمام أحمد : 326.

1 ـ أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب : قَوْلِ اللهِ تَعَالَى ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ ﴾. وابن ماجه في كتاب الأدب، باب : فضل الذكر. وأحمد في مسند المكثرين.

2 ـ هو ابن أبي بسر، الصحابي المعمر، بركة الشام، أبو صفوان المازني، (ت : 88هـ) نزيل حمص، آخر من مات من الصحابة بالشام، حديثه في الكتب الستة. تهذيب سير الأعلام/ 1 : 109.

3 ـ أخرجه ابن ماجة في كتاب الأدب، باب : فضل الذكر. والترمذي في كتاب الدعوات، باب : ما جاء في فضل الذكر.

4 ـ ابن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي السيد الإمام أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي المدني البدري، (ت : 17هـ)، شهد العقبة أمرد، وله عدة أحاديث. تهذيب سير أعلام النبلاء/ 1 : 44.

5 ـ أخرجه ابن المبارك في كتاب الزهد، باب فضل ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ. وذكره صاحب كنز العمال عن أبي هريرة، بهامش مسند الإمام أحمد : 328.

6 ـ سقطت من نسخة ق.

7 ـ أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب : ما جاء في فضل الذكر. وأحمد في مسند الأنصار.

8 ـ سقطت من نسخة ق.

9 ـ وردت في نسختي ق و ك : القلوب.

10 ـ أخرجه الطبراني في المعجم الصغير بلفظ مغاير. والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء. والمنذري

«سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ قَالُوا وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ الذَّاكِرُونَ الله كَثِيرا»[1]. قَالَ النَّوَوِي[2] : رُوِيَ المُفَرِّدُون بِتَشْدِيد الرَّاء وتَخْفِيفِها[3]، والمَشْهُور الَّذِي قَالَه الجُمْهُور التَّشْدِيد.

126 / وَفِي رِوَايَة التِّرْمِذي : «قَالُوا وَمَا الْمُفرِدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ/ قَالَ الْمُسْتَهْتَرُونَ فِي ذِكْرِ اللهِ يَضَعُ الذِّكْرُ عَنْهُمْ[4] أَثْقَالَهُمْ فَيَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِفَافًا»[5].

قَال الشَّيْخ عَبْد العَظِيم المَنْذَري[6] : «المُفَرِّدُون بِفَتْح الفَاء وكَسْر الرَّاء والمُسْتَهْتَرُون بِفَتْح التَّاءَيْن المُثَنَّاتَيْنِ فَوْق[7] : وَهُم المُولَعُون بِالذِّكْر، المُداوِمُون عَلَيْه، لاَ يُبالُون مَا قِيلَ فِيهِم وَلا مَا فُعِل بِهِم»[8].

<وَرُوِي عَنْه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّه قَالَ : «اذْكُروا الله ذِكْراً، يَقولُ المُنافِقونَ : إِنَّكُم مُراءُونَ»[9]>[10].

وَرُوِي عَنْه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّه قَالَ : «لَوْ أَنَّ رَجُلا فِي حِجْرِه دَراهِم يُقسِّمُها وَآخَر يَذْكُر الله كَانَ الذَّاكِر الله أَفْضَل»[11].

في الترغيب والترهيب/ 2 : 396.

1 ـ أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب : الحث على ذكر الله تعالى. وأحمد في مسند المكثرين.

2 ـ أبو زكرياء محيي الدين يحيى بن شرف بن حزام النووي، (631 / 676هـ) من كتبه : «كتاب الأذكار» و«روضة الطالبين» و«المنهاج في شرح صحيح مسلم». طبقات الحفاظ : 513.

3 ـ صحيح مسلم بشرح النووي/ 17 : 4.

4 ـ ورد في نسخة ق : عند.

5 ـ أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب : العفو والعافية. وورد في النسخ الخطية بشيء من التقديم والتأخير.

6 ـ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (581 / 656هـ) الشامي الأصل، المصري الشافعي، من علماء الحديث والعربية، من كتبه الترغيب والترهيب. الأعلام/ 4 : 30.

7 ـ وردت في نسخة ق : فوقهم.

8 ـ نص نقل بتمامه من كتاب الترغيب والترهيب/ 2 : 399.

9 ـ أورده المنذري في الترغيب والترهيب/ 2 : 399 وقال : «رواه الطبراني والبيهقي عن أبي الجوزاء مرسلا».

10 ـ ساقط من نسخة : ك.

11 ـ ليس بحديث حسبما ذكره صاحب حلية الأولياء وطبقات الأصفياء / 2 : 33.

ورُوِيَ عَنْه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه قَالَ : «مَا مِنْ يَوْم وَلَيْلة إلاَّ وَلله عَزَّ وَجَلَّ [فِيهِ][1] صَدقَة يَمُنُّ بِهَا عَلَى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ، وَمَا مَنَّ الله عَلَى عَبْدٍ بِأَفْضَل[2] مِنْ أَنْ يُلْهِمَه ذِكْرَهُ»[3].

وَرُوِي عَنْه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه قَالَ : «إِنَّ الشَّيْطَان وَاضِعٌ خَطْمَهُ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ فَإِنْ ذَكَرَ الله خَنَسَ وَإِنْ نَسِيَ الْتَقَمَ قَلْبَهُ»[4]. قَالَ المَنْذرِي : «خَطْمَه بِفَتْح الخَاء المُعْجَمة وسُكُون الطَّاء المُهْملَة : هُوَ فَمُه»[5].

ورُوِي عَنْه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه قَالَ : «مَا مِنْ سَاعَة تَمُرُّ بِابْنِ آدَمَ لَمْ يَذْكُر الله فِيهَا بِخَيْر إلاَّ تَحَسَّرَ[6] عَلَيْها يَوْم القِيامَة»[7].

واعْلَم أَنَّ الأَحادِيث الوَارِدَة فِي هَذا المَعْنى، أَكْثَر مِنْ أَنْ تُحْصَى، وَفِي بَعْض مَا ذَكرْنَاه كِفَايَة، ومِنْ كَلامِ أَئِمَّة الدِّين سَلفاً وَخَلفاً، وَمَشايِخ الطَّرِيق فِي هَذَا المَعْنَى أَيْضاً مَا لاَ يُحْصَى.

وَرُوِيَ عَن أَبِي الدَرْداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[8] أَنَّه قِيلَ لَهُ : أَنَّ رَجْلاً أَعْتَقَ مِائَة نَسَمَةٍ، فقَالَ إِنَّ مِائَة نَسمَةٍ مِنْ مَالِ رَجُلٍ لَكَثِيرٌ، وأَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ إِيمَانٌ باللَّيْل والنَّهارِ، وأَنْ لاَ يَزال لِسانُ أَحَدِكُم رَطْباً مِنْ ذِكْرِ اللهِ.

---

1 ـ سقطت من نسخة ق.
2 ـ ورد في نسختي ق و ك : أفضل.
3 ـ أورده المنذري في الترغيب والترهيب/ 2 : 400 وقال رواه ابن أبي الدنيا.
4 ـ أورده المنذري في الترغيب والترهيب / 2 : 400، وقال رواه ابن أبي الدنيا وأبو يعلى، والبيهقي. كما رواه صاحب كنز العمال بهامش مسند أحمد، عن أم هانئ : 328.
5 ـ قاله المنذري في الترغيب والترهيب / 2 : 400.
6 ـ تحسر من الحسرة والندم، أي ندم على ضياعها بلا ذكر الله تعالى.
7 ـ أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب/ 2 : 401. وصاحب كنز العمال عن أم هانئ : 328.
8 ـ الإمام القدوة، قاضي دمشق، وصاحب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو الدرداء عويمر بن زيد الأنصاري الخزرجي، (ت : 32هـ)، حكيم هذه الأمة، وسيد القراء بدمشق. تهذيب السير/ 1 : 67.

وَقالَ كَعْبُ الأَحْبارِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1] : «ذِكْرُ اللهِ فِي جَنْبِ الشَّيْطان كَالأكلَةِ فِي جَنْبِ ابْنِ آدَم».

وقَال الفُضَيْل[2] : «الذَّاكِرُ نَاعِمٌ غَانِمٌ سَالِمٌ، نَاعِمٌ بالذِّكْر، غَانِمٌ بالأَجْرِ، سَالِمٌ مِنَ الوِزْرِ».

وخَرَجَ أبُو هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[3] إِلَى السُّوقِ فَقالَ : «أَراكُم هَاهُنا ومِيراثُ مُحمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقسَمُ فِي المَسْجِدِ، فَتسَارَع النَّاسُ إِلَى المسجِدِ وتَركُوا السُّوقَ، فَلمْ يَرَوا شَيْئاً، فَقالُوا يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا رَأَيْنا ميرَاثاً يُقسَمُ، قَال فَماذَا رأَيْتُم؟ قَالُوا رَأَيْنَا قَوْما يذْكُرونَ الله <تَعالَى>[4]، ويَقْرؤونَ القُرْآنَ، فَقالَ : ذَلِكَ[5] مِيراثُ مُحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وَعَن مَالِكِ بْنِ دِينارٍ[6] : «قرَأْتُ فِي التَّوراةِ : أَيُّها الصِّدِّيقُونَ تَنَعَّمُوا فِي ذِكْري فِي الدُّنيا، فإِنَّهُ لَكُم فِي الدُّنْيا نَعِيمٌ، وفِي الآخِرَة جَزاءٌ».

---

1 ـ كعب بن ماتع الحميري اليماني العلامة الحبر، الذي كان يهوديا فأسلم بعد وفاة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقدم المدينة فجالس الصحابة فكان يحدثهم عن الكتب الإسرائيلية. تهذيب السير / 1 : 118.

2 ـ الفضيل بن عياض ، ابن مسعود بن بشر أبو علي التميمي اليربوعي الخراساني شيخ الإسلام (ت:187هـ)، كان ثقة نبيلا فاضلا عابدا ورعا، كثير الحديث. تهذيب السير/ 1 : 300.

3 ـ أبو هريرة الدوسي اليماني، اختلف في اسمه على أقوال جمة، أرجحها : عبد الرحمن بن صخر، (ت : 60هـ)، سيد الحفاظ الأثبات، وصاحب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حمل عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علما كثيرا طيبا مباركا فيه، قال الشافعي : أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره. تهذيب السير / 1 : 81

4 ـ سقطت من نسخة ك.

5 ـ وردت في نسخة ح : ذاك.

6 ـ علم العلماء الأبرار، (.../ 127هـ) معدود في ثقات التابعين، ومن أعيان كتبة المصاحف، ولد في أيام ابن عباس، له نحو من أربعين حديثا. تهذيب السير/ 1 : 199.

وقَالَ القُشَيْري[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالَى : «سَمِعْتُ الأُسْتاذَ أَبا علِي الدقَّاق[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقُولُ : الذِّكْرُ مَنْشورُ الوِلاَيَة، فَمَنْ وُفِّقَ للذِّكْرِ فَقَد أُعْطِيَ المَنْشُورَ، وَمنْ سُلِبَ الذِّكْرَ فَقَد عُزِلَ»[3].

ومِثْلُ هَذا مِنْ كَلامِ السَّلَفِ والخَلَفِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى، وسَيَأْتِي لِهذَا مَزيدٌ بَعْدُ إِنْ شَاء الله تَعالَى، وهُنالِكَ نَذْكُرُ مَجالِسَ الذِّكْرِ أَيْضاً، وَما وَرَدَ فِي فَضْلِها، والله المُسْتعَانُ.

---

1 ـ الإمام الزاهد القدوة، الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري الخراساني الشافعي الصوفي المفسر صاحب الرسالة (375 / 465هـ)، تقدم في الأصول والفروع، وصحب العارف أبا علي الدقاق، وتزوج بابنته، وجاء منها بأولاد نجباء. تهذيب السير/ 1 : 375.

2 ـ هو الحسن بن علي الأستاذ (ت : 405 أو406 هـ)، الزاهد العارف شيخ الصوفية، برع في الفقه، ثم سلك طريق الصوفية، انتفع به الخلق، منهم القشيري. طبقات الشافعية / 1 : 178.

3 ـ نص منقول بتمامه من الرسالة : 221.

الفَصْلُ الثَّالِث

فِي فَضْل لاَ إِلَه إِلاَّ الله خُصوصاً

وَهِيَ مَقْصودُنا مِنْ هَذَا المَوْضُوع، وإِنَّما ذَكَرْنا مَا قَبْل هَذَا لأَنَّ كُلَّ فَضْل لِلذِّكْر عَلى الإِطْلاَق فَضْل لَهَا، إِذْ هِيَ أَشْرَف الذِّكْر كَمَا مَرَّ، ولِمَا فِي ذَلِك مِنَ الإِمْتَاع بِتمَام الفَائِدَة.

{أَدِلَّة التَّرْغِيب فِي الكَلمَة المُشرفَة مِنَ القُرْآن}

أَمَّا أَدِلَّة التَّرْغِيب فِي الكَلمَة المُشرفَة مِنَ القُرآن فَكَثِيرَة:

قَالَ [الله][1] تَعالَى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾[2]، وَقَال تعالَى: ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ [الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ] ﴾[3] [4]، وقَالَ تعالَى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾[5]، وقَالَ تَعالَى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[6]، إِلَى غَيْر ذَلِك مِنَ الآيَاتِ.

{أَدِلَّة التَّرْغِيب فِي الكَلِمة المُشرفَة مِنَ السُّنة}

127 / وأَمَّا مِنَ السُّنة، فَفِي / الصَّحِيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قُلْت يَا رَسُول الله مَنْ أَسْعَدُ النَّاس بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ[7] مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ

1 ـ سقطت من نسخة ق و ح.
2 ـ محمد : 19.
3 ـ ساقط من نسختي ق و ك.
4 ـ البقرة : 162.
5 ـ البقرة : 255.
6 ـ آل عمران : 18.
7 ـ ورد في نسختي ق و ك : أولى.

مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إلاَّ الله خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»[1].

وَعَن يَعْلى بْن شَدَّاد[2] قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي شَدَّاد بْن أَوْس[3] وَعُبادَة بْن الصَّامِت[4] حَاضِرٌ يُصدِّقه قَالَ: كُنَّا عِند النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «هَلْ فِيكُم غَرِيبٌ يَعْنِي أَهْلَ الكِتَابِ قُلْنا: لاَ يَا رَسُول الله فَأمَر بِغَلْق الأَبْوَاب وَقَال: ارْفَعُوا أَيْدِيكُم وَقولُوا لاَ إِلَه إلاَّ الله فَرفَعْنا أَيْدِينا سَاعَة ثُمَّ قَالَ: الحَمْد للهِ اللهم أَنْت بَعثْتنِي بِهَذِه الكَلمَة وَأَمرْتنِي بِهَا وَوَعدْتنِي عَلَيْها الجَنَّة وَأَنْتَ[5] لاَ تُخْلِف المِيعَاد ثُمَّ قَالَ: أَلاَ أَبْشِرُوا فَإنَّ الله قَدْ غفَرَ لَكُمُ»[6]. ذَكرَه فِي التَّرْغِيب عَنِ الإِمَام أَحْمَد والطَّبرَانِي وغَيْرِهِما.

وفِيه عَنْ أَبِي هُرَيْرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جَدِّدُوا إِيمَانكُمْ قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا قَالَ أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لاَ إِلَهَ إلاَّ الله»[7] وَفِيه أَيْضا قَال رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي لأَعْلَم كَلِمَة لاَ يَقولُها عَبْدٌ حَقًّا مِنْ قَلْبه فَيمُوت عَلَى ذَلِك إلاَّ حُرِّم عَلَى النَّار: لاَ إِلَهَ إلاَّ الله»[8]. وَفِيه أَيْضا قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَكْثِرُوا مِنْ شَهادَة أَنْ لاَ إِلَه إلاَّ الله قَبْل أَنْ يُحَال بَيْنَكُم وَبيْنَها»[9].

---

1 ـ أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب الحرص على الحديث. وأحمد في باقي مسند المكثرين.

2 ـ يعلى بن شداد روى له البيهقي حديثا عن عبادة في بناء مسجد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دلائل البيهقي/ 2 : 450. قال ابن كثير: «وهذا حديث غريب من هذا الوجه». البداية والنهاية / 3 : 262

3 ـ شداد بن أوس ابن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصاري الخزرجي، (ت: 58هـ) و هو ابن أخي حسان بن ثابت، شاعر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من فضلاء الصحابة وعلمائهم. تهذيب السير/ 1 : 83.

4 ـ عبادة بن الصامت ابن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة، (ت: 34هـ)، الإمام القدوة أبو الوليد الأنصاري، أحد النقباء ليلة العقبة، ومن أعيان البدريين. تهذيب السير/ 1 : 49.

5 ـ ورد في نسختي ق و ك: وإنك.

6 ـ أخرجه أحمد في مسند الشاميين. والحاكم في المستدرك كتاب الدعاء.

7 ـ أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين. والمنذري في الترغيب والترهيب / 2 : 415.

8 ـ أخرجه أحمد في مسند العشرة. والحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان. والمنذري في الترغيب والترهيب / 2 : 416.

9 ـ أورده الديلمي في الفردوس/ 1 : 80 رقم: 244. وأخرجه المنذري في الترغيب والترهيب/ 2 : 416، وقال رواه أبو يعلى بإسناد جيد قوي.

<وَفِيه أَيْضا قَال رَسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَفَاتِيح الجَنَّة لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله»[1].>[2] وَفِيه أَيْضا قَال رَسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله فِي سَاعَة مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ إِلاَّ طَمَسَتْ مَا فِي الصَّحِيفَة مِنَ السَّيِئَات، حَتَّى تَسْكُنَ إِلَى مِثْلِها مِنَ الحَسنَاتِ»[3].

وفِيهِ أَيْضا عَنْ أَبِي هُرَيرَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَال : قَال رَسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِنَّ لله تَبارَك وَتعالَى عَمُوداً مِنْ نُورٍ بَيْنَ يَدَيْ العَرْش، فَإِذَا قَالَ العَبْدُ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله اهْتَزَّ ذَلِكَ العَمُودُ، فَيَقُول الله تَبارَك وَتعالَى : أَسْكُنْ، فَيَقُول : كَيْفَ أَسْكُنُ وَلَمْ تَغْفِرْ لِقَائِلِهَا؟ فَيَقُولُ : إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، فَيَسْكُنُ عِنْدَ ذَلِكَ»[4]. قَالَ رَاوِيه البَزَّار وَهُو غَرِيبٌ.

وَفِيه أَيْضا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه قَالَ : «التَّسْبِيحُ نِصْفُ الْمِيزَانِ[5] وَالْحَمْدُ لِلهِ يَمْلَؤُهُ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ الله لَيْسَ لَهَا دُونَ اللهِ حِجَابٌ حَتَّى تَخْلُصَ إِلَيْهِ»[6].

وفِيه أَيْضا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال : «إِنَّ الله يَسْتَخْلِصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوس الخَلاَئِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجلاًّ كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئاً أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ فَيَقُولُ لاَ يَا رَبِّ فَيَقُولُ أَفَلَكَ عُذْرٌ فَيَقُولُ لاَ يَا رَبِّ فَيَقُولُ[7] بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً فَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ احْضُرْ وَزْنَكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ فَقَالَ

---

1 ـ أخرجه أحمد في مسند الأنصار. والمنذري في الترغيب والترهيب/ 2 : 416. والديلمي في الفردوس/ 5 : 374. حديث رقم 8475.

2 ـ ساقط من نسخة ك.

3 ـ أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب/ 2 : 416. والديلمي في الفردوس/ 4 : 71 رقم : 6222.

4 ـ أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد/ 10 : 82، وقال : «رواه البزار وهو غريب، وفيه عبد الله بن إبراهيم بن أبي عمرو وهو ضعيف جدا». وأخرجه المنذري في الترغيب والترهيب/ 2 : 416.

5 ـ ورد في نسختي ق و ك : الإيمان.

6 ـ أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب : ما جاء في عقد التسبيح باليد. والمنذري في الترغيب والترهيب/ 2 : 417.

7 ـ ورد في نسختي ق و ك : فيقول الله تعالى.

فَإِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ»[1].

وَيَكْفِي فِي فَضْلِهَا مَا وَرَدَ مِنْ قَوْلِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَفْضَل مَا قُلْتُه أَنَا وَالنَّبِيُّون مِنْ قَبْلِي : لاَ إِلَه إِلاَّ الله»[2]. وَقَوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ «أَفْضَلَ الذِّكْرِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَفْضَل الدُّعَاءِ الحَمْدُ لِله»[3].

وَقَوْله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»[4].

128 / ومِنْ كِتَاب الفَوائِد التَّامةِ عَن عَلي بْن الحُسَيْن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[5] أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «أَخْبَرَنِي جِبْرِيل عَلَيْه السَّلاَم إِنَّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله أُنْس لِلمُسْلِم عِنْدَ مَوْته وَفِي قَبْره

وَحِينَ يَخْرُج مِنْ قَبْره : يَا مُحَمَّد لَوْ تَراهُم حِينَ يَخْرجُون مِنْ قُبورِهم يَنْفُضون التُّرَاب عَنْ رُؤوسِهم هَذَا يَقُول لاَ إِلَه إِلاَّ الله فَيَبْيَضُّ وَجْهُه وَهَذا يُنَادِي يَا حَسْرتِي عَلَى مَا فَرَّطت فِي جَنْب الله فَيَسْوَدُّ وَجْهُه»[6].

وَفِيهِ أَيْضاً عَنِ ابْنِ عُمَر[7] رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ««لَيْسَ عَلَى أَهْل لاَ إِلَه إِلاَّ الله وَحْشَة عِنْد المَوْت وَلاَ فِي قُبورِهم وَلاَ فِي مَنْشَرِهم كَأَنِّي

---

1 ـ أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان، باب : ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله. والمنذري في الترغيب والترهيب/ 2 : 417.

2 ـ أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب/ 2 : 419. وقال : رواه الترمذي.

3 ـ سبق تخريجه في ص : 8.

4 ـ أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب : عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء. والترمذي في كتاب الإيمان، باب : ما جاء في استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه.

5 ـ علي بن الحسين ابن الإمام علي بن أبي طالب بن عبد المطلب (38 / 64هـ)، السيد الإمام زين العابدين، الهاشمي العلوي، حدث عن أبيه الحسين الشهيد، وكان معه يوم كائنة كربلاء، كان ثقة مأمونا كثير الحديث عاليا رفيعا ورعا. تهذيب السير/ 1 : 154.

6 ـ لم أقف عليه.

7 ـ عبد الله بن عمر ابن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى، الإمام القدوة ، (ت:73هـ) بايع تحت الشجرة، وروى علما كثيرا نافعا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن أبيه، وأبي بكر. تهذيب السير / 1 : 96.

بأَهْل لاَ إِلَه إلاَّ الله يَنْفُضُون التُّرَاب عَنْ رُؤوسِهم وَهُم يَقُولُون : الحَمْد لله الَّذِي أَذْهَب عَنَّا الحُزْنَ»[1].

وَفِيه أَيْضاً قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَنْ قَالَ لاَ إِلَه إلاَّ الله خَرجَ مِنْ فِيهِ طَائِر أَخْضَر لَهُ جَناحَان أَبْيَضان مُكَلَّلان بِالدُّر وَاليَاقُوت يَعْرُج إِلَى السَّمَاء يُسْمَع لَهُ دَوِيٌّ كَدَوِي النَّحْل فَيُقَال لَهُ أُسْكُن فَيقُول لاَ حَتَّى يَغْفِر لِصاحِبي فَيَغْفِر لِقائِلها ثُمَّ يَجْعَل لِذَلِك الطَّائِر سَبْعُون لِساناً يَسْتَغفِر لِصاحِبِه إِلَى يَوْم القِيامَة»[2] قَال وَزَادَ بَعْضُهُم : «فَإِذَا كَانَ يَوْم القِيامَة جَاءَ فَأَخَذ بِيَد صَاحِبه حَتَّى يَكُون قَائِده وَدَلِيله إِلَى الجَنَّة».

وَفِيه أَيْضاً عَنْ بَعْضِ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : «مَنْ قَال لاَ إِلَه إلاَّ الله خَالِصاً مِنْ قَلْبِه وَمَدَّها بِالتَّعْظِيم يَغْفِر لَهُ أَرْبَعة آلاَف ذَنْب مِنَ الكَبائِر» وَقِيلَ لَهُ وَإِنْ لَم يَكُن لَه أَرْبَعة آلاَف ذَنْب مِنَ الكَبائِر قَال : «يَغْفِر مِنْ ذُنوب[3] أَهْلِه وَجِيرانِه»[4].

وَفِيهِ أَيْضاً عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَال : «إِنَّ العَبْدَ إِذَا قَالَ لاَ إِلَه إلاَّ الله لَمْ يَسْتَكمِلها حَتَّى تَخِرَّ سَاجِدَة بَيْنَ يَدَي الله تَعالَى فَيَقُول لَهَا ارْفَعِي رَأْسَك فَقَدْ غَفَرْتُ لِقائِلِك»[5].

واعْلَم أَنَّ الأَحَاديثَ فِي هَذا البَابِ كَثيرَةٌ، ولَسْنَا نُرِيدُ جَمْعَها بَلْ نُرِيدُ الاسْتِشْهادَ بِبَعْضِها مِمَّا فِيه الكِفَاية، وسَيأْتِي شَيْءٌ مِنْها عِنْد ذِكْرِ آدابِها وثَمرَاتِها إِنْ شَاءَ الله تَعالَى.

---

1 ـ أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب/ 2 : 416. وقال : «رواه الطبراني والبيهقي من رواية يحي بن عبد الحميد الحماني، وفي متنه نكارة». ورواه الشافعي في تمييز الطيب من الخبيث : 139.
2 ـ أخرجه الطبراني في المعجم الكبير/ 8 : 135. والديلمي في الفردوس/ 4 : 9 رقم : 623.
3 ـ وردت في نسخة ك : ذنب.
4 ـ أخرجه الحميدي في المسند/ 1 : 181 رقم : 329. والمتقي الهندي في كنز العمال بهامش مسند أحمد : 47 عن أنس، وكلاهما بألفاظ مغايرة.
5 ـ لم أقف عليه.

وَفِي مِفْتَاح الفَلاح عَنِ ابْنِ عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1] عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «يَفْتَح الله أَبْوَاب الجَنَّة، وَيُنَادِي مُنادٍ مِنْ تَحْت العَرْش : أَيَّتُها الجَنَّة وَكُلُّ مَا فِيك مِنَ النَّعِيم لِمَن أَنْتِ ؟ فَتُنادِي الجَنَّة وَمَا فِيهَا نَحْنُ لأَهْل لاَ إِلَه إِلاَّ الله، وَمُشْتَاقونَ لأَهْل لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَلاَ غَلَبَنا إِلاَّ أَهْل لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَنَحْن مُحَرَّمونَ عَلَى مَنْ لَمْ يَقُل لاَ إِلَه إِلاَّ الله، وَلَم يُؤْمِن بِلاَ إِلَه إِلاَّ الله. وَعِنْد هَذَا يَقُول لِلنَّار وَكُلَّ مَا فِيهَا مِنَ العَذاب لِمَن أَنْت؟ فَتقُول : لاَ يَدْخُلنِي إِلاَّ مَنْ أَنْكَر لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَلاَ أَطْلُب إِلاَّ مَنْ كَذَّبَ بِلاَ إِلَه إِلاَّ الله، وَأَنَا حَرامٌ عَلَى مَنْ قَال لاَ إِلَه إِلاَّ الله، وَلاَ أَمْتلِئُ إِلاَّ بِمَن جَحَد أَنْ لاَ إِلَه إِلاَّ الله، وَلَيْس غَيْظِي إِلاَّ عَلَى مَنْ أَنْكَر لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله.

قَالَ : فَتجِيءُ رَحْمَة الله وَمَغفِرَته وَيَقولاَن : إِنَّا لأَهْل لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَناصِرَان لِمَن قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَمُحِبَّان لِمَن قَالَ لاَ إِلَه إِلاَّ الله، وَمُتَفَضِّلان عَلَى مَنْ قَال لاَ إِلَه إِلاَّ الله.

وَيَقُول الله تَعالَى : أَبَحْتُ الجَنَّة لِمَن قَال لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَحَرَّمْت النَّار عَلَى مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَغْفِر كُلَّ ذَنْبٍ لِمَن قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، فَلاَ أَحْجُب رَحْمَةً وَلاَ مَغْفِرَة عَمَّنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَمَا خَلَقْتُ الجَنَّة إِلاَّ لأَهْل لاَ إِلَه إِلاَّ الله، فَلاَ تُخالِطُوا أَهْل لاَ إِلَه إِلاَّ الله، إِلاَّ بِمَا يُوَافِقُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله»[2]»[3].

{تَفْسِير الكَلمَة المُشرفَة عَلَى لِسَانِ العَارِفينَ وَنَظَر أَهْل البَصائِر}

وَلْنَكْتَفِ بِهذا القَدْرِ، فَفيهِ إِنْ شَاءَ الله الغُنْيَة وغَايَةُ المُنْيَة، ولْنَشْرَع فِيما نَحْنُ

---

1 ـ عبد الله بن عباس حبر الأمة، وإمام التفسير، ابن عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العباس بن عبد المطلب «ت : 67 أو 80هـ». صحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحوا من ثلاثين شهرا، غزا ابن عباس إفريقية مع ابن أبي سرح. تهذيب السير/ 1 : 101.

2 ـ لم أقف عليه.

3 ـ نص منقول بتمامه من كتاب مفتاح الفلاح : 65.

بِصَدَدِه مِنْ تَفْسِير هَذِهِ الكَلِمَة عَلى لِسَان العَارِفينَ، ونَظَر أَهْلِ البَصَائِر مِنَ 129 المُوَحِّدينَ، وذِكْر تَمكُّنِ مَعْنَاهَا / في القَلْبِ وَ رُسُوخِه فِيه فَهاهُنا مَطْلبَانِ:

المطلب الأول

فِي تَفْسيرِ مَعْنَاهَا

قَال فِي مِفْتاحِ الفَلاحِ : «ذَكَرَ العَارِفونَ فِي تَفْسيرِ لاَ إِلَه إِلاَّ الله وُجوهاً:

أَحَدُها، قال ابْنُ عبَّاس : <لاَ إِلَه إِلاَّ الله>[1] مَعْناهَا[2] : لاَ نَافِعَ ولاَ ضَار، ولاَ مُعزّ ولاَ مُذِل، وَلاَ مُعْطِي ولاَ مانِع إِلاَّ الله.

ثَانِيهَا، لاَ إِلَه يُرْجى فَضْلُه، ويُخافَ عِقابُه، ويُؤْمَن جَوْرُه، ويُؤْكَل رِزْقُه، ويَنْزلُ أَمْرهُ ويُسْأَل عَفْوُه، ولاَ يُرْتكَب نَهْيه، ولاَ يُحْرمُ فَضْلُه إِلاَّ الله.

وَقَالَ أَيْضا : لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله إِشَارَة إِلَى المَعْرِفَةِ والتَّوْحِيدِ، بلِسَان الحَمْدِ والتَّشْهيدِ إِلَى المَلِك الحَميد، إِذا قَالَ العَبْدُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، فَمعْناهُ : لاَ إِلَهَ لَهُ الآلاَء والنَّعْماءُ، والتَّعالِي والبَقاءُ والعَظَمة والسَّناء، والعِزُّ والثَّناءُ والسَّخَط والرِّضى إِلاَّ الله، الَّذِي هُو ربُّ العَالَمينَ، وخَالِقُ الأَوَّلينَ والآخِرينَ، ودَيَّان يَوْم الدِّين»[3]. انْتهَى الغَرَضُ مِنْه.

{إِنْصَاف اليُوسِي وَتَواضُعهُ رَحِمَهُ اللَّهُ}

ولاَ بُدَّ لَنا مِن شَرْح هَذِه الجُمْلَة، وبَسْط هَذا المَعْنى بِعَوْن الله تَعالَى وإِمْدَادِه، ولَسْنا نتكَلَّم فِي هَذا إِلاَّ بِحَسَبِ مَا انْتَهى إِلَيْه نَظرُنَا عَملاً عَلى المَقايِيسِ السَّالِفَة،

---

1 ـ ساقط من نسخة ك.

2 ـ وردت في نسخة ك : معناه.

3 ـ نص منقول من كتاب مفتاح الفلاح : 65.

وَجَرْيا عَلى الطَّرِيقَة العِلْمِية النَّظرِيةِ، مُتَبرِّئين مِنَ الحَوْلِ والقُوَّة، غَيْر مُدَّعِين فِي ذَلِكَ ذَوْقاً ولاَ تَحلِّياً بالمَقامَاتِ، الَّتي عَسى أَنْ تَبْرُزَ مِنَ الأَلْفاظِ، وتَتجَلَّى فِي مِنصَّات العِبارَاتِ، ونَعوذُ بالله أَنْ نتَعدّى طَوْرَنا فَندَّعِي مَا لَيْس لَنا، وإنما نَحْنُ خَائضُون بِحَسَبِ العُلومِ الرَّسْمِيةِ :

مِنْ مُلاحَظَة المَدْلولاَت اللُّغَوية، والمَدارِك العَقْلية، والمَواقِف الشَّرْعِية، فإِنْ وافَقْنا مَا يَجِدُه العَارِف فِي قَلْبه رَمْيةً لَنا مِنْ غَيْر رَام، فَذلِكَ غَايَةُ المَرَام، والحَمْدُ فِي ذَلِكَ والمِنَّةُ للهِ المَلِك العَلاَّم، وإِنْ زَلَّتِ الأَقْلاَمُ وطَاشَت السِّهام، فَذلِك مِنْ زَلَل الوَهْم وسَفَاهتِه، وقَد برِئْنَا بَادِئ بَدْءٍ مِنْ تَبَاعَتِه.

نَعَم، الذِّهْنُ مُشْرَئِبٌّ إِلَى ذَلِك المِضْمار، وَلاَئح سَنا تِلْك الأَنْوار، فإِنَّ قَلْبَ كُلِّ مُؤْمِن مَشْغوفٌ بِذلِكَ الجَمال، ومُغْرى بِطَلَبِ الكَمال، وَما نَحْنُ فِي ذَلِك إلاَّ كَما قَال أَخُو بَنِي عَامِر:

كَأَنَّ عَلى أَنْيابها الخَمْر شَجَّهَا	❖ ❖ ❖	بِمَاءِ النَّدَى مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ غَابِقُ
وَمَا ذُقْتُهُ إِلاَّ بِعَيْنِي تَفرُّساً	❖ ❖ ❖	كَما شِيمَ فِي أَعلَى السَّحابَة بَارِق

فَنقُولُ : إِنَّ لَنا فِي هَذا المَقَامِ مَسْلَكيْنِ:

{المَسْلَك الأَوَّل : مُلاحَظَةُ تَفْسِير الكَلِمة المُشرفَة بِمعْناهَا السَّابِق فِي المَقْصد الأَوّل}

المَسْلَك الأَوَّل : أَنْ نُلاَحِظ تَفْسيرَ الكَلِمَة بَمَعْنَاهَا السَّابِق فِي المَقْصد الأَوَّل[1]، مِنْ أَنَّ المَنْفِي عَنْ غَيْر الله تَعالَى والمُثْبَت لَه هُو الإِلَهُ الحَقُّ، ثُمَّ نَنْظُر فِي الإِلَهِ

---

1 ـ المقصد الأول المشار إليه هو ما شكل مادة الجزء الأول من الكتاب المحقق برسم سنة 2000م، في طبعته الأولى. ويبتدئ من الصفحة : 387، وينتهي عند الصفحة : 492، في هذه الطبعة الثانية.

الحَقِّ فَنجِدُه عَلى مَا مَرّ فِي بَيانِ الانْدِراجِ، هُو المُسْتَغْني عَنْ كُلِّ مَا سِواه المُفْتَقَر إلَيه كُلُّ مَا عَداهُ، وأَنَّ ذَلكَ يَقْتَضي أَنَّهُ مُتَّصِف بِكذَا، أَعْني الكَمال ومُتَنزِّهٌ عَن كَذَا، أَعْنِي النُّقْصان، فَنعْلَمُ أَنَّ هَذِه الكَلِمَة المُشرِفَة تَقْتَضِي أَنَّ الله تَعالَى مُتَّصِف بالكَمالِ وَمُتنزِّهٌ عَنِ النَقْص، لأَنَّهُ <هُوَ>[1] الإلَهُ الحقُّ، وأَنَّ غَيْرَ الله تَعالَى لَيسَ مُتَّصفاً بِالكَمالِ ولاَ مُتنَزِّهاً عَنِ النَّقْصِ، ثُمَّ نَبْسُط هَذهِ الجُمْلة بِعُقولِنا.

فنقُول : مِنَ الكَمالِ وُجودُ اللهِ تَعالَى ووُجوب وُجُودِه، فَغيْره تَعالَى مُمْكِن مَعْدومٌ أَوْ حَادِثٌ فَانٍ مُتَلاشٍ، وَمِنَ الكَمالِ مُخَالَفتُه تَعالَى لِخَلْقِه، واسْتِغنَاؤُه وانْفِرادُه بِمُلْكِه وأُلُوهِيتِه، فَغيْرُه تَعالَى جَوْهَرٌ أَو عَرَضٌ مُعرَّض لِلعِلَّة والغَرَض، وَمُفْتَقرٌ عَلى الدَّوام، وَداخِل فِي الكِمِّياتِ والأَجْنَاسِ والأَقْسَام.

وَمِنَ الكَمالِ، عِلْمهُ تَعالَى بكلِّ مَعلوم مَوْجودٍ أَو مَعْدومٍ، وَقُدرَتهُ عَلى كُلِّ مُمكِنٍ، وإِرَادتُه لكُلِّ كَائِنٍ، فكُلُّ شَيْء بَرزَ أَو يَبْرزُ مِنَ العَدمِ إِلى الوُجودِ فبِقُدرَتِه تَعالَى وَمشِيئَتِهِ وَعَنْ عِلمِهِ، فَنَعْلَمُ أَنَّهُ تَعالَى هُوَ الخَالِقُ البَارِئ المُصَوِّر، وأَنَّهُ هُوَ الرَزَّاقُ، / وأَنَّهُ هُو الَّذِي يُحْيِي ويُمِيتُ، وأَنَّهُ هُوَ النَّافع الضَّار والمُعِزّ والمُذِلُّ والنَّاصِر والمُعينُ، وأَنَّهُ القَادِرُ عَلى ثَوابِ المُطِيعِينَ وَعلَى مُعاقَبةِ العَاصِينَ، وأَنَّهُ فَاعِلٌ مُخْتَار لاَ يَجِب عَليْه شَيْءٌ ولاَ يَمْتَنِعُ عَليْه شَيْء، فَلاَ يَجِبُ عَليْه نَفْعُ العَبيدِ وَلاَ صَلاحُهمْ ولاَ رَعْيُ صَلاَحِهِم، ولاَ يَمْتَنِعُ في حَقِّه إِضْلالُهم ولاَ خِذْلانُهم ولاَ الغُفْرانلِمَنْ شَاءَ مِنْهُم، وأَنَّهُ باسْتِغْنائِه تَعالَى لاَ يَنتَفِعُ بِطَاعَتِهم ولاَ يَتَضرَّر بِمَعْصيَتِهم. 130

ومِنْ كَمالِه تَعالَى، سَمْعُه وبَصَرُه لِكلِّ مَوْجودٍ، فَهوَ تَعالَى عَلى كُلِّ شَيْء رَقيبٌ، وَعلَى كُلِّ مَوْجودٍ شَهِيدٌ.

---

1 ـ سقطت من نسخة ح.

ومِنْ كَمالِه تَعالَى، اتِّصافُه بالكَلامِ المُتعلِّق بِكُلِّ وَاجِب وجَائِزٍ ومُسْتَحيلٍ، فَهُو الَّذِي أَمَرَ بالطَّاعَة ونَهَى عَنِ المُخالَفة، وَوعَدَ بالجَنَّة وأَوْعَد بالنَّارِ.

{المَسْلَك الثَّانِي : لِلنَّاظِر المُتَفكِّر فِي الكَلِمَة المُشرفَة ثَلاَثُ جِهَات}

فَإذا انْبَسطَت هَذه الجُمْلة، إِلى غَيرِ ذَلكَ مِنَ الكَمالاَتِ الَّتِي تُذْكَر فِي هَذا البَابِ، كَانَ للنَّاظرِ المُتفكِّر فِيها ثَلاث جِهاتٍ مِنَ النَّظرِ:

الأُولَى : أَنْ يُلاحِظَ هَذِه الكَمالاَت مِنْ حَيْثُ نِسْبتُها إِلى اللهِ تَعالَى، وأَنَّها وَصْفٌ لَهُ فَيُثْبِتُها له تَعالَى، ويُنَزِّهُه تَعالَى عَنْ كُلِّ مَا يُقَابِلُها منَ النُّقْصَان، وَهَذا القَدْرُ يَشْتَرِكُ فِيه العَارِفُ والعَالِمُ المُتَكَلِّمُ، لأَنَّ هَذا كُلّه هُوَ مَا مَرَّ مِنَ العَقائِدِ الكَلاَمِية جُمْلةً وَتَفْصيلاً.

{مَا يَلْتقِي فِيه العَارِف مَعَ المُتَكَلِّم وَمَا يَفوتُه فِيه مِنْ أُمورِ التَّوْحِيد}

غَيْرَ أَنَّ العَارِفَ يَفُوت المُتَكلِّم فِي ذَلِكَ بأَمْريْنِ : أَحَدُهمَا، يَرْجِع إِلَى مَدْلولِ الكَلِمَة وَهُو مَا نَحْنُ بِصَدَدِه، والآخَرُ يَرْجِعُ إِلى قَلْبِ المُوحِّد.

أَمَّا مَا يَرْجِعُ إِلَى الكَلِمَة، فهُوَ أَنَّ المُتَكلِّمَ يَعْتقِدُ فِيهَا كَما مَرَّ، أَنَّها سِيقَت لإِثْباتِ الأُلوهِيةِ للهِ تَعالَى واسْتِحقاقِ العِبادَة، وَنَفْي ذَلِكَ عَنْ كُلِّ مَا سِواه، وَهذا هُوَ مَعنَاها عِنْدَ المُتكلِّم، الَّذي يَحْصُل بِه التَّوْحيد المُكلَّف بِه، وَمَا ذُكِرَ مِنَ الكَمالاَتِ المُفصَّلةِ يَعتَقِدُه المُتكلِّمُ للهِ تَعالَى مِنْ خارِجٍ، بِحسَبِ مَا أَدَّاهُ إِليهِ اسْتدْلالُه وَنَظرُه، ولاَ يَتنازَلُ لِتَضْمينِ الهَيْلَلةِ ذَلِكَ في مَدْلولِها الأَصْلي المُراد مِنْها، إِذِ المُرادُ مِنْهَا عِنْده إِبْطالِ الشِّرْكِ الجَلِّي لاَ غَيْرَ.

وأَمَّا العَارِف، فَهُو مَعَ اعْتِقادِه مَا مَرَّ فِيها، وَمَعَ اعْتِقادِه جَميع تِلْك الكَمالاَت للهِ تَعالَى، يَزيدُ عَلى ذَلِك بِأَنْ يَسْتَنْشِق ذَلكَ كُلَّه فِي الهَيْلَلةِ عِنْدَما يَذْكُرها، ويَجْعَل

ذَلِكَ مَعْناهَا، ويُوَسِّع الدَّائِرَة لِمَا خُصَّ بِهِ مِنْ سَعَة النَّظَرِ، وانْشِراحِ الصَّدْر، وَمَزِيدِ الحُضُور واليَقَظَة.

فَإذا قَال : لاَ إِلَه إِلاَّ الله، فَهُوَ يَقول: لاَ مُسْتحِق للْعِبادَة : ولاَ خَالِقَ ولاَ رَازِقَ، ولاَ نَافِع ولاَ ضَار، ولاَ مُثِيب ولاَ مُعاقِب، ولاَ مُعينَ ولاَ هَادي، ونَحْوَ ذَلكَ إلاَّ الله تَعالَى.

وبِذلِكَ يَحْصُل التَّوْحيدُ المُطْلَق، ويَذْهبُ عَنهُ الشِّرْك الجَليُّ والخَفِيُّ، بالنُّطْقِ بالهَيْللَة[1]، لأَنَّهُ يُثْبتُ بِهَا أَنْ لاَ إِلَه يَسْتَحِق العِبَادَة غيرَ الله تَعالَى، وأَنَّه لاَ نَافِع ولاَ ضَار، ولاَ <رَازِق>[2] ولاَ مُعِين ولاَ نَصير غَيْر الله تَعالَى، وإِنْ لَم يَكُن ذَلِك الغَيْر إِلهاً ولاَ مُسْتحِقّاً للعِبادَة، لأَنَّ هَذا مِنْ مَضْمونِ أَنَّه تَعالَى القَادر المُخْتارُ دُون غَيْره.

ويَعْلمُ أَنَّ كُلَّ مَا يَبْرزُ مِنْ نَفْعٍ أَوْ ضُرٍّ في الأَكْوانِ، كالعَطاءِ مِنَ النَّاسِ، والنُّصْرة والإسْعاف مِنْهُم، والرَّي مِنَ المَاءِ، والشَّبَع مِنَ الطَّعام، والسِّتْر وَالتَدفِّي مِنَ اللِّباس، والاِسْتِراحة واللَّذَة مِنَ المَرْكوبِ، والتَّعَزُّز بالعَشيرَة، وسَائِر أَنْواع اللَّذاتِ الحِسِّية وَالمَعْنَوية، وكُلُّ مَا يُقابِل ذَلِكَ مِنَ المَضارِّ والآلاَمِ، كُلُّ ذَلكَ مِنَ الله تَعالَى، لَيْس شَيْءٌ <مِنْه>[3] صَادِراً عَنْ غَيْرِه تَعالَى.

وإِنَّما تِلْك الأَشْياء المَوْجودَة فِيهَا تِلْكَ المَنافِع والمَضار، ظُروفٌ وَأَسْبابٌ عَادِيةٌ، يُبْرِزُ الله تَعالَى مَا شَاءَ عِندَها لاَ بِها، وبِذَلِك كُلِّه اسْتَتَبَّ لِلْعارِف أَنَّه لاَ 131 / يَنبَغِي أَنْ يَرْجُو ولاَ يَخافَ إِلاَّ الله تَعالَى، إِذِ الرَّجاء مَنُوط بالرَّغْبَة، والرَّغْبَة نَفْع، والنَّفْع كُلُّه لله تَعالَى. والخَوْف مَنوطٌ بالرَّهْبَة، والرَّهْبَة ضُرٌّ، وهُوَ كُلُّه لله

1 ـ وردت في نسخة ك : في الهيللة.
2 ـ سقطت من نسخة ك.
3 ـ سقطت من نسخة ك.

تعالَى، ولاَ يَتوَكَّل إلاَّ عَلَيهِ، ولاَ يَفْزَع إلاَّ إليْه، إلى غَيْر ذَلِكَ مِمَّا سَنذْكُرُه إنْ شَاء الله تَعالَى.

وَأَمَّا مَا يَرْجِع إلى اعْتِقاد المُوَحِّد، فَهُو أَنَّ المُتكلِّمَ قَد حَصَلَت لَهُ تِلْكَ الكَمالاَت، المَنْسُوبَة إلى الله تَعالَى، حُصُول تَصْديق وعِلْم.

وأمَّا العَارِف فَقَد حَصَلَت لَهُ مَع ذَلِك حُصول ذَوْقٍ وحالٍ، وَذَلكَ ثَمَرة العِلْم ونَتيجَتُه، كَما سَنُبيِّنه إنْ شَاء الله تَعالَى.

{مُلاحَظةُ ثَمرَة الكَمالاَت الإِلهِية وَحاصِلُها عَلى طَرِيق الإِجْمالِ}

الجِهَة الثَّانية مِنَ النَّظر : أَنْ يُلاحِظ ثَمَرة هَذِه الكَمالاَت، وَحَاصلها عَلَى طَريقِ الإجْمال، وَذَلكَ فِي وَجْهيْنِ:

أَحدُهُما، مَا يَرْجِع إلى الله تَعالَى، والآخَرُ مَا يَرْجِعُ إلَى غَيْره. أَمَّا مَا يَرْجِعُ إلَى اللهِ تَعالَى، فَأَنْ يَسْتشْعِر أَنَّ المُتَّصِف بِهذِه الكَمالاَت كُلِّها، المُتنَزِّه عَنْ هَذه النَّقائِص جَمِيعِهَا، مُتَّصِف بِغايَة العَظَمة وَالكَمالِ، وَنِهايَة الكِبْرياء وَالجَلاَل، وَهذَا هُوَ المُعبَّرُ عَنْه فِي عِلْم الكَلامِ بالصِّفَة الجَامِعة، ولَيْست صِفَة بِعَيْنها، يُقامُ عَليْها بُرْهان تَفْصيلِي، مِثْل الصِّفات السَّوابِق، بَل هِيَ حَاصِل الجَمِيع ونِهايَتُه، وبِحُصولِ ذَلِك حَالاً وَذوْقا يَحْصُل مَقام الهَيْبَة والخُشُوع والخُضُوع، ومَا يُناسِبُ ذَلِك مِنْ أَحْوالِ العَارِفين ومَقامَات الصِّديقِينَ.

وَأَما مَا يَرْجِع إلى غَيْرِه تَعالى، فَأَن يَسْتشعِرَ أَنَّ غَيْرهُ تَعالَى لاِتِّصافِه بالنَّقائِص المَذْكورَة، وَفَقْدِه تِلْك الكَمالاَت بِأَجْمعِها سَاقِطٌ مُتلاَش، مَعْدُومُه مَعدُومٌ وَموْجودُه فِي حُكْم المَعْدوم، فَإنَّ خَاصِّية المَعْدوم أَنْ لاَ يَضُرَّ ولاَ يَنْفَع، ولاَ يَجْلُب ولاَ يَدْفع، وَذَلِكَ[1] هُوَ وَصْف كُلِّ مَوْجودٍ سِوَى الله تَعالَى عَلى التَّحْقيق،

---

1 ـ ورد في نسخة ح : وهذا.

اللهم إلاَّ نِسْبة جَعْلِية مِنَ اللهِ تَعالَى أَوْدَعهَا فِي المَوْجودَاتِ إمَّا للتَّعْريفِ وإمَّا لِلتَّكْليف.

وبِذَلكَ ظَهَرَ الفَضْلُ والعَدْلُ، وَوَقعَ الثَّواب والعِقاب، وبِحَسَب حُصولِ ذَلِكَ المَعْنى لِلعَارِف حَالاً، يَحْصُل لَه التَّخلِّي عَنِ الأَغْيار والفَناء عَنْها، وَيَكون ذَلِك عَلى مَراتِب سَنُشِيرُ إِلَيْها إِنْ شَاء الله تَعَالى.

{حُصولُ عِلْمٍ مَا فِي القَلبِ مِنْ شَأْنِه حُصولُ حَالٍ فِي القَلْب يُناسِبه}

الجِهَة الثَّالِثة مِنَ النَّظَر : أَنْ يُلاحِظ كُلَّ مَا مَرَّ مِنَ الكَمالِ علَى التَّفْصِيل، بِحَسبِ الالْتفَاتِ إِلى ثَمراتِه وَنتَائجِهِ، وحَاصِل ذَلِك أَحْوال تَنْشأُ عَنْ عُلومٍ، فَإِن كُلَّ مَنْ حَصَل فِي قَلْبه عِلْمٌ مَا، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِه أَنْ يَحْصُل به حَالٌ فِي القَلْبِ يُناسِبُه، ومِنْ شَأْنِ ذَلِك الحَال أَنْ يَحْصُل عَنْه مِنَ الأَقْوالِ والأَفْعالِ مَا يُناسِبه.

ولِهَذا يَقول أَهْل هَذا الطَّريق : «العِلْم مُقدِّمَةٌ[1] نَتيجَتُها الحَال، والحَالُ مُقَدِّمَة نَتيجَتُها العَمَل».

{الإِشَارَة إِلَى بَعْض مَا تُثْمِرهُ العَقائِد مِنَ الأَحْوَال فِي قُلوبِ العَارِفينَ}

وَنُرِيدُ الآنَ أَنْ نُشيرَ إِلَى شَيْء مِمَّا تُثْمِرُه تِلْك العَقَائِد مِنَ الأَحْوالِ الشَّرِيفَة فِي قُلوبِ العَارِفِينَ، ومَا يَنْشَأُ عَنْ هَذِه الأَحْوال مِنَ أَحْوالٍ أُخْرى أَوْ أَعْمالٍ تُناسِبُها[2]، مِنْ غَيْر أَنْ نَتعرَّض لاِسْتِقصَاء ذَلِك، فَإِنَّ اسْتقْصَاءَه مَوْكول إِلى أَرْبابِه، وإِنَّما غَرضُنَا نَحْنُ الإِشَارَة إِلى أَنَّ الكَلِمَة المُشَرفة مُوَفِّية بالغَرَضَيْن، كَافِية فِي العَقائِد الظَّاهِرَة وأَحْوالِها بالمَطْلَبيْن، فَفِيهَا مَشْرَبٌ لِلعَامِّ والخَاصِّ مِنَ السَّائِرينَ، وَفِيها غُنْيَة جَمِيع المُؤْمِنينَ.

1 ـ وردة في نسخة ك : المقدمة.
2 ـ وردت في نسخة ك : يناسبها.

فَنقُول وباللهِ تَعالَى التَّوْفِيق : قَال الشَّيْخُ عِزُّ الدِّين[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَواعِدِه :

«جَعلَ الله لِكُلِّ مَعْرِفة حَالاً يَنْشأُ عَنْها، فَمنْ عَرَفَ نِقْمَة الله كَانَ حَالُه الخَوْفُ، وَمنْ عَرَفَ سَعَة رَحْمَة الله كَانَ حَالُه الرَّجاءُ، وَمنْ عَرَفَ تَوحُّدَ الرَّب تَعالَى بالنَّفْع 132 / والضرِّ والرَّفْع والخَفْض، لَمْ يَتوكَّل فِي جَلْب النَّفع ودَفْع الضُّرِّ، والإِعْطاء والحِرْمَان إِلاَّ عَليه، ولَمْ يُفَوِّض أَمْرَه إِلاَّ إِلَيْه، ومَنْ عَرَف عَظَمتَه وَجَلالَه كَانَ حَالُه الإِجْلال والمَهابَة، وَمنْ عَرَف إِطِّلاعَه عَلى أَحْوالِه اسْتَحْيى مِنْه أَنْ يُخالِفَه، وَمَنْ عَرَفَ سَمَاعَهُ لأَقْوالِه اسْتحيَى أَنْ يقُول مَا لاَ يُرْضِيه، وَمَنْ عَرَفَ إِحْسانَه إِلَيه وأَفْضالَه عَلَيْـه كَانَ حَالُه المَحبَّة، «لأَنَّ القُلوبَ جُبِلَت عَلى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْها»[2]، وَمنْ عَرَف جَمالَه كَانَت حَالُه المَحبَّة العُلْيا، وكَانَت مَحبَّتهُ أَفْضَل مِنْ مَحبَّة مَنْ أَحَبَّه لإِحْسانِه وأَفْضالِه.

وأَكْثَرُ مَا تَخْطُر المَعارِف بِالاِسْتِحْضار والأَفْكَار، أَوْ بالسَّماعِ مِنَ الأَبْرارِ والأَخْيَارِ، فَمنِ اسْتَحْضَر صِفَة مِنْ تِلْكَ الصِّفات أَثْمَرَت لَهُ حَالاً يُناسِبُها ويُوافِقُها، ويَنْشَأُ عَن تِلْك الحَالِ مِنَ الأَقْوالِ والأَعْمالِ مَا يُطَابِقُها ويُوافِقُها.

فَمنْ لاَحظَ شِدَّة النِّقْمَة حَصَل لَهُ الخَوْف، ومَا يَنْبَنِي عَلَيْه مِنَ الحُزْنِ والبُكاءِ والانْقِباضِ وتَخْويف العِبادِ. ومَنْ لاَحظَ سَعَة الرَّحْمَة، حَصَل لَه الانْبِساط وتَرْجية النَّاس، مَا يُناسِب مَا حَصَل لَهُ مِنَ الرَّجاءِ.

ومَنْ لاَحَظَ صِفَة الجَمالِ، حَصَل لَهُ الحُبُّ ومَا يَنْبَنِي عَلَيْه مِنَّ الشَّوْقِ، وخَوْف الفِراق وأُنْسِ التَّلاَق، والسُّرُور والفَرَح. وَمنْ لاَحَظَ سَماعَه لأَقْوالِه ورُؤْيته

1 ـ الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام أبو محمد الدمشقي (577 / 660هـ) الملقب بالعز وسلطان العلماء، أحد الأئمة الأعلام، الفقيه الشافعي الذي بلغ رتبة الاجتهاد، من كتبه : «قواعد الأحكام في مصالح الأنام»، المذكور في النص المحقق، وهو في الفقه، و«التفسير الكبير»، و«بداية السول إلى تفضيل الرسول». طبقات الشافعية الكبرى/ 8 : 209. شذرات الذهب/ 5 : 301.

2 ـ تضمين لحديث أخرجه ابن عدي في الكامل، وأبو النعيم في الحلية. فيض القدير/ 3 : 344.

لأَعْمالِه، كَانَت حَالُه الحَياء، المَانِع[1] مِن مُخالَفَتِه فِي الأَقْوال والأَعْمَال وسَائِر الأَحْوالِ»[2] انْتهَى الغَرَض مِنْه.

قُلْتُ : وأَوْرَدْنا كَلامَ هَذا الإمام، لِيَكون لِهَذا المَبْحثِ أَصْلاً يَنْبنِي عَلَيْه، ومَثاباً يَعودُ إِليْه. ونَحْوَه قَوْل بَعْضِهم : «اعْلَم أَنَّ الذِّكْرَ الدَّائِم، هُوَ ذِكْر الله تعالى بِالقَلْبِ، وحُضور القَلْبِ يَطْرُد الشَّيْطان، ويُذْهِب الغَفْلَة والنِّسْيان، وهُوَ أَفْضل مِنَ الذِّكْر اللِّسانِي، <لأَنَّ اللِّسانَ[3]>[4] تَصْحبُه الغَفْلَة، ولِذَلك قَالُوا : لَوْ عَلِم اللِّسان مَنْ يَذْكُر بِحَقيقَة العِلْم لَجفَّ الحَنك، ولَكِن أَجْرى الله سُبْحانَه عَادَتَه أَنْ يَرِقَّ القَلْبُ، ويَصْلُح عِنَد مُداوَمَة العَارِف الذِكْر بِه.

والذِّكْر الدَّائِم عَلى وُجوهٍ : فَتارَة يَذْكُر الله تَعالَى لِعَظَمَتِه وَعلاَئِه وكِبْريائِه، فيَتولَّد مِنْه الهَيْبَة[5] والإِجْلاَل، وتَارَة يَذْكُرُه العَبْد لِعَظِيم قُدْرَتِه، وأَلِيم أَخْذِه وَشَدِيد بَطْشِه، فيُوَرِّثُه[6] ذَلِك الخَوْف والحَذَر. وَتَارةً يَذْكُرهُ بِالفَضْل والرَّحْمَة، فَيُورِّثُه ذَلِكَ الرِّضى. وتَارَةً يَذْكُرُه بوَعْدِهِ فَيتَولَّد مِنه الشَّوْق. وتَارةً يَذْكُره لأَنَّه تَعالَى يَذْكُره إذا ذَكرَه، فيَتولَّد مِنه الشُّكْر. وتَارةً يَذْكُره لأَنَّ لَه الحَمْد والمُلْك والثَّناء الحَسَن والأَسْماء الحُسْنى والصِّفات العُلاَ، والخَلْق والأَمْر، والقُدْرَة النَّافِذَة والمَشِيئة المَاضِية، فَيتولَّد مِنْ ذَلِك الحُبُّ والصَّبْر لَهُ.

وتَارةً يَذْكُره لأَنَّه الكَافِي للمُهِمَّات، المَوْجود وَحْده لاَ شَريكَ لَه فِي جَمِيع المُلِمَّات، المُتكَفِّل بالأَرْزَاق وإِيصَالِها إِلى المُفْتَقِرين وَذَوِي الحَاجات، فَيتَولَّد[7]

1 ـ وردت في نسخة ك : المانعة.

2 ـ نص منقول مع تصرف كبير من «قواعد الأحكام في مصالح الأنام»/ 2 : 213 وما بعدها.

3 ـ وردت في نسخة ق : اللساني .

4 ـ ساقط من نسخة ك.

5 ـ وردت في نسخة ق : الهبة.

6 ـ وردت في نسختي ق و ك : فيورث.

7 ـ وردت في نسخة ك : فتولد.

عَنْ ذَلكَ التَّوكُل والتَّفْويض. وتَارةً يَذْكُره بِما نَصَب مِنَ العِبَر والعَلامَات، وبما اسْتشْهدَ بِه مِنَ الشَّواهِد وأَقامَ مِنَ البَيِّنات، وأَنارَ مِنَ الآيَات، فيَتولَّد عَن ذَلِك زَوائِد اليَقين. وتَارةً يَذْكُره[1] العَبْد لأَنَّ بِيَدِه مَفاتِيح الأُمور ومَبادِيها ونِهايَتها، مِنْه ظَهَرت وإِلَيْه تَعُود، فَيتَولَّد مِنْ ذَلِك فَناؤُه عَنْ نَفْسِه وَبقَاؤُه بِربِّه عَزَّ وجلَّ». انْتهَى المُراد مِنْه.

وَقد ذَكَرا رَحِمَهُمَاٱللَّهُ أَنْواعا مِنْ آثارِ الصِّفاتِ اسْتَثمَرا بِها أَحْوالاً، ونُريدُ نَحْن الآن أَنْ نَبْسُط هَذه الجُمْلة أَيْضا، بِبيَان اتِّصال هَذِه الآثَار بالصِّفَات لِيتَبيَّن 133 / اسْتِنَادُ هَذِه الأحْوَال كُلِّها إِلى الصِّفات، المُنْدرِجَة فِي مَضْمونِ الكَلِمة المُشرفَة، لِيتَّصِل السَّنَد ويَنْساق الأَمْر عَلى جَدِدٍ، ويتَّضِح مَا أَرَدْناهُ مِنْ بَيانِ مَا يُسْتفَاد مِنَ الكَلِمة المُشرفَة، واسْتيضَاح مَا خَفِيَ مِنْ رُمُوزِها، واسْتِثَارَة[2] مَا خَبِئَ[3] مِنْ كُنوزِها، واسْتِثْمار مَا تَهدَّل مِنْ فُرُوعِها، واسْتِصفَاءِ مَا تَفجَّر مِن يَنابِيعها، وَذَلِك هُو مَوْضوع الكِتاب ومَدَار هَذِه الأَبْواب. وَإِنَّا لاَ نُحبُّ أَنْ نَحيدَ عَنِ المَنْهجِ الَّذي تَيمَّمْناه شِبْرا، ولاَ أَنْ نتَزَحْزحَ عَنْ مَوْقفِنا فَتْراً، والله تَعالَى وَليُّ التَّوْفيق وبِه الهِدايَة إِلى سَواء الطَّريق.

{زِيادَةُ تَقْرِير بِأَوْضَح مِمَّا مَرَّ للأُلُوهِية المُثْبَتة لِلَّه تَعالَى فِي الكَلمَة المُشرفَة}

وقَد مَرَّ لَنَا التَّنْبيهُ عَلى أَنَّ الكَمالاَت الإِلَهية، كُلها مُنْدرِجة فِي مَضْمونِ الأُلوهِية، المُثْبَتَة لِلَّه تَعالَى فِي الكَلِمَة المُشرفَة، وَبيَان وَجْه انْدِراجِها فِيها هُنالِك، ونَحْنُ الآنَ نُعِيد تَقْريرَها بأَوْضحِ مِمَّا مَرَّ، لِيتَّصلَ بِذلِك مَا نَحْن بِصَددِه، والله المُسْتَعان.

1 ـ وردت في نسخة ق : يذكر.
2 ـ وردت في نسخة ك : واستنارة.
3 ـ وردت في نسخة ك : ما خفي.

فَنَقول : إنَّ الإلَه إنْ كَان هُو المَعْبود، كَما هُو تَفْسِيره المَشْهور، أَوْ هُو المَعْبود بِحَقّ كَمَا مَرَّ، فلاَ شَكَّ أَنَّ الَّذِي يُخْضَعُ لَهُ ويُطاع، هُوَ الَّذي يُفْتقَر إليْه ويَكون هُو مُسْتغْنِيا عَنْ غَيْرِه، وإنْ كَان هُو الَّذي يَفْزَع إليْه الغَير أَو يَلْجأ إليْه فأَوْضَح، إذْ ذَاكَ هُوَ مَعْنى احْتيَاج الغَيْر، فَتبيَّن أَنَّ الإلَه يَكُون مُسْتغنِيا عَنِ الغَيْر والغَيْر مُفْتقِر إليْه.

وَهَذا إنِ اعْتَبرْنَا مَعْناهُ اللُّغَوي، فإن اعتَبَرناه شَرْعا فَأَوْضحُ، إذِ الإلَه هُو المُسْتَغْني عَن كُلِّ مَا سِواه، المُفْتقِر إليْه كُلُّ مَا سِواه، ومَنْ لَمْ يَكُن كَذَلِك فَباطِلٌ.

ثُمَّ باسْتِغنَائِه تَعالَى عَنْ غَيْره وَجبَ لَه الوُجود والقِدَم، والبَقاء والمُخالَفة لِكُلِّ مَا سِواه، وَكَوْن أَفْعاله لَيْست بِواسِطَة يُتَوقَّف عَليْها أَوْ بِقُوَّة يُعْتَمد عَليْها، والسَّمْع والبَصَر والكَلام ونَحْو ذَلِك.

وبِافْتقَار الغَيْر إليْه، وَجَب أَنْ يَكون تَعالَى وَاحِداً فِي مُلْكِه لاَ شَريكَ لَهُ، وأَنْ تكون لَه القُدْرة والإِرادَة والعِلْم والحَياة، وأَن يَكون جَميع العَالم حَادِثا مِن صُنْعِهِ.

{تَقسِيمُ الصِّفَات عِنْدَ المُتكَلِّمينَ}

ثُمَّ إنَّ المُتكلِّمين قَد قسَّمُوا الصِّفات إلى أرْبعَة أَقْسام : نَفْسيَة، وسَلْبية، ومَعَان، ومَعْنوِية، وَقَد يَجْعلُونَها خَمْسَة، وَيَزيدُون صِفات الأَفْعال، وَقد يَجْعلُونَها سِتَّة، ويَزِيدُون الصِّفات الجَامِعَة.

والمُراد عِنْدهُم بالنَّفْسيَة : الوُجود، لأَنَّهُ مَا لَمْ يَثْبُت لاَ يُنْظَر فِي وَصْفٍ آخَر أَصْلاً، فَكأَنَّه نَفْسُ الذَّات.

والمُراد بِالسَّلْبيَة : مَا يَرْجِع إلى تَنْزيهِ الله تَعالَى، كالقِدَم، والبَقَاء، والمُخالَفة، والقِيَّام بالنَّفْس، والوَحْدانِية.

والمُرَاد بالمَعَانِي : مَا هُوَ صِفَة قَائِمة بالذَّات، كالقُدْرة، والإِرَادة، والعِلْم، والحَياة، والسَّمْع، والبَصَر، والكَلاَم.

والمُرَاد بالمَعْنَوِية : الحَال الوَاجِبة مِنْ قِيام المَعْنى بالذَّات، كَكَوْنِه قَادِراً، وكَوْنِه مُريداً، إِلى آخِر المَعانِي.

والمُرَاد بِصفَات الأَفْعال: مَا يَرْجِع إِلَى تَكْوين الأَشْياء، كالخَلْق، والرِّزْق، والإِحْياء، والإِماتَة، فيُوصَف الله تَعالَى بِذَلك، فيُقال : خَالِقٌ، رَازِقٌ، مُحْيِيٌ، مُميتٌ، ونَحْو ذَلِك.

وهَذانِ القِسْمان لَيسا مُعْتَبَرينِ فِي الصِّفات، عِنْد إِمامِ أَهْل السُّنة أَبِي الحَسَن الأَشْعَري[1] رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أَمَّا المَعْنَوِية، فَهِي عِنْدَهُ عِبارَة عَنْ قِيَام المَعْنَى بالذَّات، وَهُوَ نِسْبَة الصِّفَة إِلَى المَوْصوفِ، ولَيْس بِصِفة فِي نَفْسِه.

وأَمَّا صِفَة الأَفْعال، فَهِي عِنْده عِبارَة عَنِ التَّعلُّق التَّنْجيزي لِلقُدْرة الأَزَلِية، وإِنَّما تَعدَّدتِ الأَسْماء بِتعَدُّد التَّعلُّق، فإِنْ تَعلَّقَت بالإِيجَاد سُمِّيَت خَلْقا، وإِنْ تَعلَّقت بإِيصَال الرِّزْق سُمِّيَت تَرْزيقاً، وإِنْ تَعلَّقت بإِعْطاءِ الحَياة سُمِّيَت إِحْياء، إِلى غَيْر ذَلِكَ، وَلَيْس شَيْء مِنْ ذَلِك صِفَة مَوْجودَة فِي ذَات الله تَعالَى، لأَنَّها آثَارٌ لِلقُدْرة مُتَجدِّدة. إِلاَّ أَنَّه لَمَّا كَانَت أُموراً نِسْبيَة، صَحَّ أَنْ يُوصَف بِها الله تَعَالَى، فَيُقالَ : خَالِقٌ رَازِقٌ، ولاَ يَلْزَم مِنْ ذَلِك قِيَّام الحَوادِث بِذَاتِه تَعالَى، إِذْ لَمْ يَكُن لِشيْءٍ مِنْ ذَلِك قِيامٌ بالذَّات العَليَّة، قِيام الصِّفَة بالمَوْصوفِ. وَقَد أَوْضَحْنا[2] ذَلِكَ فِي غَيْر هَذا المَوْضوع.

---

1 ـ علي بن إسماعيل بن إسحاق أبو الحسن الأشعري، مؤسس مذهب الأشاعرة في العقائد الإسلامية (ت : 324 هـ) من تصانيفه : «الرد على المجسمة»، و«مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين». الأعلام/ 4 : 263.

2 ـ تحدث اليوسي في هذا الموضوع وأطال في حواشيه على شرح كبرى السنوسي / 2 :264 وما بعدها..

نَعَم، القِسْمان ثَابِتان عِنْد غَيْر الأَشْعَري، أَمَّا المَعْنَوية، فَعِنْد مَنْ يَقُول بالحَال 134 / وَالوَاسِطَة بَيْن الوُجود والعَدَم، كَالقَاضِي[1]، وإِمام الحَرَمَين[2]. وأَمَّا الصِّفات الفِعْلية، فَقد اعتَبَرَها الإمَام أَبو مَنْصور الماتُرِيدِي[3] ومَنْ تَبِعَه مِنَ الحَنَفِية، وقَالُوا إنَّ التَّكْوين صِفَة أُخرى غَيْر القُدْرَة وَغَيْر تَعلُّقِها، فَجعَلوا القُدْرة يَتأَتَّى بِها الإيجَاد والإعْدام، وَالتَّكوين يَقَعُ بِهِ الإيجَاد وَالإعْدَام بالفِعْل، إلاَّ أَنَّ جُمْهورهُم قَالوا هُوَ صِفَة وَاحِدة مِنَ المَعانِي، ويُسمَّى باعْتِبار خُصوصِيَّات التَّعلُّقات تَخْلِيقا، وتَرْزِيقاً، وإِحْياء، وإِماتَةً وَنَحْو ذَلِك. وذَهَب قَومٌ مِنْ أَهْل مَا وَراءَ النَّهْر، إلى أَنَّ كُلَّ وَاحِد مِنْ ذَلِك صِفَة، وهَؤُلاء لاَ تَكاد تَنْحَصِر المَعانِي عِنْدهُم، ولَيْس المَوْضِع مَوْضِعَ تَحْرير هَذِه المَذاَهِب، وَالتَّصْحِيح فِيها والإبْطال.

والمُراد بالصِّفات الجَامِعة، مَا هُو حَاصِل الاتِّصاف بالكَمَال كُلِّه، والتَّنَزه عَنِ النَّقْص كُلِّه، وَذَلِك الأُلوهِية، وَكذَا العَظَمة والجَلال والكِبْرياء المُخْتصَّة باللَّه تعالَى.

{عَوْدٌ للحَدِيث عَنِ اعْتِبارِ مَا تُثْمِرُه الكَلمَة المُشرفَة فِي القُلوبِ}

إِذَا تَمهَّد هَذا، فلْنَرجِع إِلَى مَا[4] نَحْن بِصَدَده مِن اعْتِبار مَا تُثْمِرُه الكَلِمَة المُشرفَة فِي القُلوبِ، ومَا تَتَضمَّنه مِنْ مُعامَلاتِ عَلاّم الغُيوبِ.

1 ـ المقصود به : القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت : 403هـ)، المتكلم على مذهب أهل السنة وأهل الحديث، وطريق الأشعرية، من تصانيفه «الإبانة»، و«شرح اللمع»، و«الإمامة الكبيرة» و«الصغيرة». ترتيب المدارك/ 5 : 25. وفيات الأعيان/ 2 : 278.

2 ـ عبد الملك بن عبد الله الجويني أبو المعالي المعروف بإمام الحرمين، (419/ 478هـ). الفقيه الشافعي الأصولي المتكلم. من كتبه : «الشامل»، و«الإرشاد»، و«البرهان». طبقات الشافعية الكبرى/ 5 : 165. شذرات الذهب/ 3 : 358.

3 ـ محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي الفقيه الحنفي المفسر الأصولي، (ت : 333هـ) صاحب المذهب المنسوب إليه في العقيدة والكلام، نسبته إلى ماتريد من سمرقند، من كتبه : «بيان أوهام المعتزلة»، و«الرد على القرامطة». الفكر السامي/ 3 : 93. الأعلام/ 7 : 242.

4 ـ وردت في نسخة ح : لما بدل إلى ما.

فأَوَّل مَا نَلْتَفِت إِليْه مَعْناهَا الظَّاهِر المُطَابِق، وهُو أَنَّ الله جَلَّ اسْمُه مُنْفَرد بالأُلوهِية واسْتِحقَاق العِبادَة كَمَا مَرَّ، فَإِذَا نَظَرْنا فِي اسْتحْقَاق العِبَادَة وأَنَّه لِلَّه تَعالَى لاَ لِغيْرِه[1]، وأَنَّه هُوَ الإِلَه لاَ غَيْرُه، حَصَل لَنَا مِن ذَلِك التَّوْحِيد كَما مَرَّ، وَإِنْ شِئْنا قُلْنا حَصلَ لَنا الإِخْلاَص، وَيَكُون الإِخْلاصُ عَلى مَراتِب.

{مَراتِب الإِخْلاَص}

الأُولَى : الإِخْلاَص فِي الشَّهادَة، وَذَلِك بأَنْ نَقُول الإِلَه وَاحِدٌ لاَ شَرِيكَ لَهُ فِي الأُلُوهِية، ولاَ مَعْبُود بالحَقِّ سِواه، وَذَلِك مَعْنى قَوْلنَا : «لاَ إِلَه إِلاَّ الله»، وبِذَلِكَ يَنْتفِي عَنَّا شِرْكَ التَّثْليث[2] والتَّثْنِية[3] ونَحْوِهِما مِنَ الشِّرْك الجَليِّ.

الثَّانية : الإِخْلاَص فِي الاِعْتقَاد، وهُوَ أَنْ يَكون القَلْب <فِيمَا ذكرَ>[4] مُواطِئاً لِلِّسانِ، وبِذَلكَ يَنْتَفي النِّفاق.

الثَّالِثة : الإِخْلاص فِي العَمَل، وهُوَ أَنْ يَكون امْتِثَال الأَمْر واجْتِناب النَّهْي مَقْصوداً بِه الله تَعالَى وَحْدَه، وبِذَلكَ يَنْتفِي الشِّرْك الخَفِي، وهُوَ المُسَمَّى بالرِّياءِ.

{حَقِيقَة الرِّياءِ}

وحَقِيقة الرِّياءِ المَذْكورِ فِي هَذا البَابِ، أَنْ يَقْصِدَ رُؤْيَةَ النَّاس بِفِعْل الطَّاعَة لِغرَض مِنْ حُصولِ المَنْزِلَة فِي قُلوبِهم بِذلِك مَثلاً، فالرِّياء مِنَ الرُّؤْية، لأَنَّ العَامِل

---

1 ـ وردت في نسخة ق : لا غيره.

2 ـ المثلثة طائفة من النصارى يدعون بأن الله تعالى ثالث ثلاثة، قال الدكتور بوست في تاريخ الكتاب المقدس : «طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية : الله الأب، والله الابن، والله الروح القدس، فإلى الأب ينتمي الخلق بواسطة الابن، وإلى الابن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير». محاضرات في النصرانية : 91.

3 ـ هم الذين أثبتوا وجود إلهين اثنين، مدبرين قديمين، يقتسمان الخير والشر، والنفع والضر، يسمون أحدهما النور والآخر الظلمة، وبالفارسية : يزدان وأهرمن. الملل والنحل : 220.

4 ـ ساقط من نسخة ك.

يُري النَّاسَ أَعمالَه، أَوْ يَعْمل لِيُرَى، فَلمَّا أَدْخَل النَّاسَ فِي عِبادَتِه ولَم يَعْمَلها لله تَعالَى وَحْدَه، كَانَ شِرْكاً، وإنَّما كَانَ خَفِيّاً، لأَنَّ الشِّرْك إذا أُطْلِق، يُفْهم مِنْه إِثْباتُ الشَّريك مَع الله تَعالَى فِي الأُلوهِية أو اسْتِحقَاق العِبادَة، وَهَذا المُرَائِي لاَ يَعْتَقِد فِي النَّاسِ شَيْئا مِنَ الألوهِية، وَلاَ اسْتِحقَاق العِبَادَة، فَلَمْ يُشْرِك فِي الظَّاهِر.

ولَكِن لَمَّا رَاعَاهُم فِي العِبَادَة، فَأَوْقعَها لأَجْلِهم، كان قَد أَثْبَت لَهُم خَاصِيَّة مِنْ خَواصِّ الأُلوهِية وهُوَ لاَ يَشْعُر، فَكانَ مَآلُ أَمْرِه إِلى الشِّرْك، وَهذا إذا اعْتَبَرْنا الشِّرْك الخَاصَّ، أَمَّا إِنِ اعْتَبَرنَا مُجرَّد الإِشْراك فِي العِبادَة، فَهُو ظَاهِر غَيْر خَفِيٍّ.

{للإِنْسانِ فِي التَّوْحيدِ والشِّرْك أَحْوالٌ}

واعْلَم أَنَّ اسْتِيفادَ هَذِه المَسْأَلة، بِحَسَب ما تَتَصوَّرُه الأَفْكار وتَتأَدَّى إِلَيْه الأَنْظار، [أَنْ][1] تَقُول أَنَّ للإِنْسانِ فِي التَّوْحيد والشِّرْك أَحوالاً:

{أَوَّلاً : إِثْباتُ إِلَهٍ آخَر غَيْرُه تَعالَى إِمَّا مَعَ الله أَوْ بِدُونِه}

الأَوَّل : أَنْ يُثْبِت إِلَهاً آخر غَيْر اللهِ تَعالَى، وَذلِك إِمَّا مَع الله تَعالَى أَوْ بِدونِه، وَهذَان الحالاَنِ هُما أَعْظَم الشِّرْك وأَخْبَثُه.

والأَوَّل مِنْهُما هُو الشِّرْك الاِصْطِلاحِي، كشِرْكِ الثَّنوية والمَجُوس[2] والمُثَلِّثة مِنَ النَّصارَى والوَثَنِية[3] ونَحْوهم.

وأَمَّا الثَّانِي مِنْهُما : فَلَيْس بِشرْك إِلاَّ باعْتِبَار التَّرْكيب، والنَّظَر إِلى اعْتِقادِ الكَافِر، مَع مَا فِي نَفْس الأَمْرِ، ولاَ يُعْلَم مَنْ قَال بِهذَا القَوْل، إِلاَّ مَنْ شَذَّ مِنْ

---

1 ـ سقطت من نسخة ق.

2 ـ خص الشهرستاني الفرق المجوسية بفصل مستقل بقوله : «والمجوس الأصلية زعموا أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين، بل النور أزلي والظلمة محدثة». الملل والنحل/ 1 : 233.

3 ـ الوثنية نسبة إلى الوثن، وهو عند العرب في القديم مادة من حجر أو خشب أو طعام يتركونها على حالتها الطبيعية.

135 / غُلاةِ الجَبابِرَة المُتمَرِّدَة، كَقَول فِرْعوْن لَعنَه الله ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾[1] وَلَيْسَ المُجَسِّمة مِنْ هَؤُلاء، لأَنَّ الجِسْم الَّذي يُثْبِتونَه هُو الله المَعْروف عِنْد العُقَلاءِ فِي زَعْمِهم، تَعالَى الله عَنْ ذَلِك عُلوّاً كَبيراً، ولاَ الشِّرْذِمَة المُعَطِّلَة إِذْ هُم لَمْ يُثْبِتُوا إِلَهاً أَصْلاً.

{ثَانِياً : إِثْباتُ مَعَ الله مُسْتحِق للعِبادَة وإِنْ لَمْ يَكُن إِلَها حَقِيقَة}

الحَالُ الثَّانِي : أَنْ يُثْبت مَعَ الله مُسْتَحِقا لِلعِبادَة، وإِنْ لَمْ يَكُن إِلَهاً حَقِيقَة، كَحالِ بَعْضِ الوَثَنِية، وَهؤُلاَء كُلُّهُم كُفَّار مُخلَّدونَ فِي النَّارِ.

{ثَالثاً : تَوْحِيدُ الله تَعالَى وَلَكِن مَعَ النَّظَر إِلَى غَيرِه فِي العِبادَة والطَّاعَة}

الثَّالِث : أَنْ يُوحِّد الله تَعالَى بالأُلوهِية واسْتِحْقاقِ العِبادَة، ولَكِن يَنْظُر إِلَى غَيْرِه تَعالَى فِي عِبادَتِه وَطاعَتِه، ولاَ يَعْتقِد أَنَّ ذَلِكَ الغَيْر إِلَه أَوْ مُستَحِق لِلعِبادَة، وَهذَا يَكون عَلى أَحْوال :

الأَوَّل أَنْ يَنْظُر إِلى النَّاسِ لِيمْدحُوه أَوْ يُعَظِّموه، أَوْ يَنفعُوه بَوجْهٍ، وَهذَا هُو الرِّياء : وفِيه قِسْمانِ.

الأَوَّل : أَنْ يَكونَ هُوَ الحَامِل عَلى العِبادَة، بِحَيْث لاَ يُوجَد مَعَه نِيَّة الاِمْتِثال، وَقَصْدُ التَّقرب إِلى الله أَصْلاً، وَهذا الرِّياء المَحْضُ، والعِبادَة مَعهُ بَاطِلة، بَلْ لاَ عِبادَة أَصْلاً، فَفاعِلُه لَمْ يَمْتثِل، وَمعَ ذَلِك فَهُو عاصٍ آثِمٌ لِوَجْهَيْن آخرَيْن، أَحَدُهما : يَرْجِع[2] إِلى العِبادَ[3]، وَهُو أنه أَوهَمهُم أَنَّه مُطِيع لله تَعالَى عابِدٌ لَهُ، وهُوَ

1 ـ تضمين للآية : 38 من سورة القصص.
2 ـ وردت في نسخة ق : ما يرجع.
3 ـ وردت في نسخة ق : العبادة.

لَيْسَ كَذلِك، فَذلِك خِدَاع وَمَكْر وَتلْبِيس فِي الدِّين وهُوَ حَرام، قَالَه[1] الإِمامُ أَبُو حَامِد[2] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثَّانِي : <مَا>[3] يَرْجِع إِلى الله تَعالَى، وهُوَ أَنَّه حَيْث يَقِف بَيْنَ يَدَيْه بِصورَة الطَّاعَة والخِدْمَة، ومَقْصوده غَيْره تَعالَى، كَان مُسْتَهزِئاً بالله تعَالَى، وفِي حَال مَنْ يَعْتقِد أَنَّ غَيْرَ الله تَعالى أَقْدَر عَلى تَحْصيل المَنافِع مِنَ الله تَعالَى، وَناهِيك بِقُبْح هَذا وَشنَاعتِه.

القِسْم الثَّانِي : أَنْ يَكونَ مَع الرِّياءِ قَصْد الامْتِثال وطَلَب الثَّواب، وفِيه ثَلاثَة أَقْسام : لأَنَّ قَصْد الثَّوابِ إِمَّا أَنْ يَكونَ مَرْجوحاً، أَوْ مُساوِياً، أَوْ راجِحاً. فإِنْ كَان قَصْدُ الثَّواب مَرْجوحاً، بأَنْ يَكونَ لَوْ تَجرَّد عَنِ الرِّياء لَم يَسْتقِل بالحَمل عَلى العَمَل، ولَو تَجرَّد الرِيَّاء وَحْده لاسْتَقلَّ، فَهذَا العَمَل فِيه باطِلٌ والإِثْم حاصِل، كالَّذي مَرَّ. وإِنْ كَانَ مُساوِياً، بِأَنْ يَكون كُلٌّ مِنَ الأَمْرَين لاَ يَسْتقِلُّ بالحَمْلِ، وَعِنْد اجْتِماعِهما انْبَعثَت النَّفْس، فالَّذِي اسْتَظْهرهُ الغَزالِي أَنَّهُما مُتساقِطانِ لاَ لَه ولاَ عَلَيْه، وإِنْ كَان رَاجحاً فَأَصْل العَمَل ثَابِتٌ، ويَنْتقِصُ[4] الأَجْرُ بِما قَد شَابَه مِنَ الرِّياء، أَوْ يُعاقَب عَلى ذَلِك المِقْدار مَعَ حُصول الثَّواب عَلى العَمَل.

الحَالُ الثَّانِي : أَنْ يَنْظُر إِلى حَظٍّ آخَر مِنْ حُظوظِ نَفْسِه العَاجِلَة، إِمَّا مَع النَّظَر إِلَى النَّاس وهُوَ الرِّياء أَوْ بِدونِه، إِمَّا مَع قَصْد التَّقرب أَوْ بِدونِه، ومِثال ذَلِك أَنْ يَصومَ لِيَصِح بَدَنه بالجُوعِ، أَوْ لِيُوفِّر نفقتَهُ وَيَحجَّ لِيكْتسِب بالسَّفَر الصِّحة أَوِ

---

1 ـ قارن بما ورد بالمعنى في كتاب منهاج العابدين : 294.

2 ـ محمد بن محمد أبو حامد حجة الإسلام الغزالي الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي المفسر الفيلسوف، «505/ 450هـ» من كتبه في مختلف الفنون : «البسيط»، و«الوسيط» في الفقه، و«المستصفى»، و«المنخول» في الأصول، و«عقيدة أهل السنة»، وغيرها كثير. طبقات الشافعية الكبرى/ 6 : 161. الأعلام/ 7 : 747.

3 ـ سقطت من نسخة ح.

4 ـ وردت في نسخة ح : ينتقض.

المَال، أَوْ رُؤْية النَّاس وعَجائِب البُلْدان ونَحو ذَلِك، وَيتَوضَّأ لِتبْرد عِظامهُ فِي الحرِّ أَو لِتسْخُن فِي الشِّتاءِ إِلى غَيْر ذَلِك، فَهذَا لاَ يُقال فِيه مُراء، ولَكِنَّه لَيْس بِمُخْلص ولَيْس بِصادِق.

فَإِنَّ الإِخْلاص [فِي النِّية][1] كَما قَال سَهْل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2] أَنْ يَكون سُكُون العَبْد وَحركَاتِه لله تَعالَى خاصَّة، والصِّدْق فِي النِّية أَنْ لاَ يَكون لَهُ بَاعِث فِي الحَركاتِ والسَّكناتِ إلاَّ الله تَعالَى وَحْدهُ، فَهُو رَاجِعٌ إِلَى مَعْنَى الإِخْلاص.

وَهَذا القِسْم أَيْضا فِيه مِنَ الشِّرْك مَا يُناقِض التَّوْحيد، لأَنَّه أَشْرَك مَع اللهِ تَعالَى الغَرَض المَطْلُوب والشَّهْوَةَ المُرادَة.

الحَالُ الثَّالث : أَنْ يَنظُر إِلى حَظٍّ آجِلٍ، مِثْل الثَّواب بِدُخولِ الجَنَّة، والنَّجاة مِنَ النَّار، وَهذَا أَيْضا قَادحٌ فِي صِفات التَّوْحِيد كالَّذِي قَبْله، إِذِ النَّفْسُ هِي النَّفْسُ، وَحُظوظُها هِي حُظوظُها، مُقدِّمُها ومُؤَخِّرها، فَمَن عَبَد لِحَظِّ نَفْسه فَقَد عَبَد نَفْسَه، ولَمْ يَعْبُد رَبَّه، ولَمْ يَصْدُق فِي قَوْله : لاَ مَعْبودَ إِلاَّ الله. إلاَّ أَنَّ الحَظَّ فِي القِسْم 136 الثَّانِي / وهُوَ الأُخْرَوي، مَأْذونٌ فِي طَلبِه شَرْعا، تَرْخِيصا مِنَ الله تَعالَى لِعبَادِه الضُّعفَاء، لأَجل مَا جُبلَت عَلَيْه النُّفوس مِنْ طَلَب الحُظوظ.

فَهُما حَظَّان زَجَر الله [تَعالَى][3] النَّفْس عَنْ أَحَدِهِما، وَأَذِن لَها فِي الآخَر، وإِذا تَأَمَّلتَ وَجَدْت المَأْذون فِيه هُو أَجْوَد الحَظَّيْن وأَبْقاهُما[4]، رِفْقا مِنَ الله تَعالَى وتكرُّما عَلَى عَبْدِه الجَهُول الكَفُور، فَما أَغْزَر كَرَمه تَعالَى، وَأَوْسَع فَضْله، وأَعْظَم مِنَّتهُ، وأَجْزَل طَوْله.

---

1 ـ سقطت من نسختي ق و ك.
2 ـ ابن يونس أبو محمد التستري، شيخ العارفين، الصوفي الزاهد (ت : 283 هـ). لقي في الحج ذا النون. له كلمات نافعة، ومواعظ حسنة منها : «لا معين إلا الله، ولا دليل إلا رسول الله، ولا زاد إلا التقوى، ولا عمل إلا الصبر عليه». تهذيب سير أعلام النبلاء / 1 : 528.
3 ـ سقطت من نسختي ق و ك.
4 ـ وردت في نسختي ق و ح : أبقاها.

{رَابِعا : حَالُ مَنْ يُثْبِت فَاعِلاً غَيْر الله تَعالَى عَلى وَجْه التَّعْلِيل أو الطَّبْع}

الرَّابِع : أَنْ يُثْبِت فَاعِلا غَيْر الله تَعالَى، فَإِنْ كَانَ يَعْتَقِده إِلَهاً أَوْ مُسْتحِقا لِلْعِبادَة، فَقَد مَرَّ فِي القِسْمَين الأَوَّلَيْن [أَنَّه][1] مِنَ الكُفْر الظَّاهِر والشِّرْك الوَاضِح.

وإِنْ لَمْ يَعْتَقِده إِلَهاً ولاَ مُسْتحِقا لِلعِبادَة، فَإِنِ اعْتَقَده عِلَّة فَهُو مِنَ الفَلْسَفِيينَ، وإِنِ اعْتَقَده طَبِيعَة فَهُو مِنَ الطَّبائِعيين، وَحُكْم هَؤُلاءِ مَعْلوم.

وَإِنِ اعْتَقدَه مُختاراً، فَإِنْ كَانَ عَلَى التَّأْثِير وَالاخْتِراع، كالقَدَرِيَّة المُعْتَقِدين فِي نُفُوسِهِم أَنَّهُم يَفْعلُون أَفْعالَهم، ويَخْترِعونَ طَاعَاتِهِم[2]، فَهُو فَاسِقٌ اتِّفاقاً، وفِي كُفْرِه خِلاَفٌ. وإِنْ كَانَ عَلى الاكْتِسابِ فَقَط دُون الاخْتِراع، كَمَذْهَب أَهْل السُّنَّة فَهُو حَقٌّ، ولاَ يُناقِض التَّوْحِيد، إِذْ يَصْدق مَعَه أَنَّه لاَ فَاعِل إِلاَّ الله، ولاَ مَعْبُودَ إِلاَّ هُو، ولاَ إِلَه إِلاَّ هُوَ.

ثُمَّ هَذا إِنْ تَخلَّص عَنْ مُراءَاةِ النَّاسِ، ومُطالَعةِ الحُظوظ، كَانَ مِنَ المُخْلِصينَ العَامِلِينَ لله تَعالَى، وفِيه مَعَ ذَلِك بَقِيَّةٌ مِنَ الشِّرْك بَعْدُ، وَهِي اِلْتِفاتُه إِلى نَفْسِه ورُؤْيَة الأَفْعال لَها، وَمَا دَامَ يَلْتَفِت إِلى نَفْسِه فلاَ يَكَاد يَخْلُو عَنْ لَوازِم ذَلِك، مِنْ طَلبِ الحُظوظِ وإِلاَّ تَكُن[3] عَاجِلة تَكُن آجِلَة.

{خَامِساً : حَال المُقرَّبِين ومَقامُ الإِحْسان}

الخَامِس : أَنْ لاَ يَلْتَفِت إِلى نَفْسِه، ولاَ فَاعِل غَيْر الله تَعالَى أَصْلا، فَيكُون تَحرُّكه[4] بالله وسُكُونه بِه، وهَذِه حَالُ المُقرَّبِين وأَهْل مَقامِ الإِحْسان، وَهَؤُلاء لاَ يَلْتَفِتون إِلى نُفُوسِهِم[5] ولاَ أَعْمالِهِم.

1 ـ سقطت من نسختي ق و ك.
2 ـ وردت في نسخة ك : طاعتهم.
3 ـ وردت في نسخة ق : وإن لا تكون. وفي نسخة ك : وإن لا تكن.
4 ـ وردت في نسخة ك : تحريكه.
5 ـ وردت في نسخة ك : أنفسهم.

وَقَال بَعْضُ المَشايِخ : «مَنْ بَلَغ حَقِيقَة الإِسْلاَم، لَمْ يَقْدِر أَنْ يَفْتُر عَنِ العَمَل، وَمنْ بَلَغَ إِلى حَقِيقَة الإِيمانِ، لَمْ يَقْدِر أَنْ يَلْتَفِت إِلَى العَمَل، وَمَنْ بَلَغ إِلى حَقِيقَة الإِحْسان، لَمْ يَقْدِر أَنْ يَلْتَفِت إِلى أَحدٍ سِوى الله تَعالَى» انْتهَى.

{بَقَاءُ نَفْس العَبْد بالسَّعْي فِي حُظُوظِها حَائِل دُون تَوحِيد الله حَقًّا}

وَاعْلَم أَنَّ العَبْد مَادَامَت نَفْسُه بَاقِيَة مَعَهُ وَهُوَ يَسْعَى فِي حُظوظِها وَحُقوقِها، فَهُوَ لَمْ يُوَحِّد الله تَعالَى بَعْدُ حَقَّ تَوْحِيده، لأَنَّ الله تَعالَى إِذْ ذاكَ يَقول : أَنَا فَعَلْتُ وأَفْعلُ، والعَبْد يَقول : أَنَا فَعَلْتُ وَأَفْعَل، والله تَعالَى يَقول : افْعَلوا كَذا وَكَذا، والعَبْد يَقُول : افْعَلوا كَذا وَكذَا، والله تَعالَى يَطْلُب حُقوقاً، والعَبْد يَطْلُب حُقوقاً؛ فَهذِه مُنازَعَة وتَشْبيه منَ العَبْد المُضْطَر الفَقير لِمَوْلاَه العَلِّي الكَبير.

وبِسَبَبِ هَذِه الوَرْطَة الشَّنِيعَة، الَّتِي وَقَع فِيها العَبْد مِنَ التَّشَبه يَقَع مِنْه التَّكبرُ والتَّجبُّر، مَعَ أَنَّ الكِبْرِياء مِنْ صِفاتِ المَوْلى العَظِيم تَبارَك وَتعالَى، ويَقَع مِنَ العَبْد العُجْب والافْتِخار، والسُّمْعة وحُبُّ الثَّناء، وكَراهَة المَذَمَّة ونَحو ذَلِك، وَذَلِك كُلّه نَتِيجَة رُؤْيَة نَفْسِه فَاعِلاً ومُسْتحِقّاً لِلحُقوق، وَيَقَع مِنْه الحَسَدُ والحِقْدُ والبُخْلُ وَنَحْو ذَلِك، وَذَلِك كُلّه نَتِيجَة طَلبه لِلْحُظوظ، إِذِ التَّزاحُم عَلى الحُظوظِ هُوَ سَبَبُ ثَورَان الحَسَد واسْتِكْنَان الحِقْد وَإِمْسَاك البَال.

وتَجِدُ العَبْد لاَ يَتمَالَك أَنْ يَقُول أَيْن حَقِّي؟ ضَاعَ حَقِّي، أَسْتَحِقُّ كَذا، وَيُحِب أَنْ يَعْلو عَلى غَيْره، ويَسْتَلِّذ أَنْ يُذْعِن إِلَيه الخَلْق، ويَخْضَعوا لَه ويَخْشَعوا، ويَرْجوهُ ويَخافُوه، ويُفْرِدوه بالتَّعْظِيم والاحْتِرام، وذَلِك كُلُّه مِنْ مَعْنى الأُلوهِية وأَوْصاف الرُّبوبِية.

137/ وفِي هَذَا المَعْنى قَال المَشايِخ : «إِنَّ قَوْل فِرْعَون لَعَنَه الله ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[1] مَرْكُوزٌ ومُسْتَكِنٌّ فِي غَيْره مِنْ بَنِي آدَم، إِلاَّ مَنْ طَهَّرَه الله»، غَيْر أَنَّ

1 ـ تضمين للآية : 24 من سورة النازعات.

فِرْعَون وَجَد لَهُ مَجالاً فَأَبْرَزه. فَلَو قَال العَبْد عَلى هَذه الحَال «لاَ إِلَه إلاَّ الله»، لَمْ يَكُن صَادِقاً بِها عَلى مَا يَنْبغِي، إِذْ أَثْبَت لِنَفْسه رُبوبية، وَذلِك يَنْقُض الوَحْدانِية. فَلَو تَطهَّر العَبْدُ مِنْ رُؤْيَة نَفْسِه وتَتبُّع حُظوظِها، تَخلَّص مِنْ هَذِه الوَرْطَة، فَصَفَت أَحْوَاله وَزَكَت أَفْعالُه، وأَسْلَم نَفْسَه لِمَوْلاهَا وتَركَها لَهُ يَتوَلاَّها، فَحِينَئِذٍ يَسْلَم مِنَ الآفَات ويَتخَلَّى مِنِ الرُّعونَات ويَتحلَّى بِمقَاماتِ اليَقِين، ويَكون مِنْ عِبادِ الله المُخْلِصين، فلاَ يُراءِي بِأَعْمالِه ولاَ يُعْجَب بِها، ولاَ يُسْمع بِها إِذْ لاَ يُراءِي أَحَد، وَلاَ يُعْجَب ولا يُسْمع بِفِعْلِ غَيْرِه، وهُو فِعْل ربِّ العَالَمِين. وبِذَلك يَتحَقَّق لَه الرُّجوع إِلى الله تَعالَى فِي كُلِّ حَال، فَيكُون الْتِجاؤُه إِلَيه، وتَوَكُّله عَليْه، وخَوفُه مِنْه، ورَجاؤُه لَهُ، ورِضاهُ بِه، ومَحبَّته لَه.

وكَذا إِذا التَفتْنَا[1] إلى مَعْنَى «لاَ إِلَه إلاَّ الله»، بِحَسَب مُقْتَضى خَواصِّ الأُلوهِية، مِنِ انْفِرادِه تَعالَى بالقُدْرَة والاخْتِيار، والنَّفْع والضَّر، والعَطاء والمَنْع، وغَيْر ذَلِك، فإِنَّه يَحْصُل لَنَا[2] جَمِيع مَقامَات اليَقين، وَذَلك فِي غَايَة الوُضوحِ.

{مَقامَات اليَقِين تِسْعَةٌ}

وَقَد اسْتَنْتَج الشَّيْخ أَبُو العبَّاس بْنُ عَطاء الله[3] مَقامَات اليَقِين، مِنْ إِسْقاطِ التَّدْبير والاخْتِيار، غَيْر أَنَّه بَنَى كَلامَه عَلَى أَنَّ إِسْقاط التَّدْبير أَصْل لَها، وَشَرْط فِي صِحَّتِها[4] وهِيَ تِسْعَة[5] : التَّوْبَة، وَالزُّهْد، وَالصَّبْر، وَالشُّكْر، وَالخَوْف، وَالرَّجاء، وَالتَّوكُل، وَالمَحبَّة، وَالرِّضى.

لأَنَّ التَّائِب كَمَا يَجِب عَليْه أَنْ يَتُوب مِنْ ذَنْبِه، يَجِبُ عليْه أَنْ يتُوب مِنَ التَّدْبير مَع رَبِّه، فإِنَّ التَّدْبير مَع الله مِنْ كَبائِر القُلوب، والتَّوْبَة هِي الرُّجوع إِلَى الله مِنْ كُلِّ

1 ـ ورد في نسخة ك : التفت.
2 ـ وردت في نسخة ك : له.
3 ـ سبقت ترجمته في ص : 10.
4 ـ وردت في نسخة ق : صحته.
5 ـ وردت في نسختي ق و ك : تسع.

شَيْء لاَ يَرْضاه لَكَ، والتَّدْبير لاَ يَرْضاه لَكَ؛ لأَنَّه شِرْكٌ لِلرُّبوبِية وكُفْر لِنِعْمَة العَقْل، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[1].

ولأَنَّ الزُّهْد تَرْكُ الحُظُوظ، والتَّدْبير مِنْها، فلاَ يَصِحّ الزُّهْد إِلاَّ بتَرْكِه.

ولأَنَّ الصَّبْر حَبْس النَّفْس عَنِ الحُظُوظ البَشرِية، وحَبْسها عَلى لَوازِم العُبودِية، وَمِنْ لَوازِم العُبودِيَة إِسْقاط التَّدْبير مَعَ الله تَعالَى.

ولأَنَّ الشُّكر كَما قَال الجُنَيد[2] : «أَنْ لاَ يُعْصى الله بِنِعَمه، والتَّدْبير مَعَه تَعالَى عِصْيان له بِنِعْمَة العَقْل».

ولأَنَّ الخَوْف إِذا نَزَلَت سَطْوَته على القَلْب شَغَلتْه عَن التَّدْبِير.

وكَذا الرَّجَاء يَمْتَلِئ بِه فَرحاً فَيَشْتغِل عَنِ التَّدْبير.

ولأَنَّ التَّوكُل إِنَّما هُو إِلْقاء القِياد إِلى الله تَعالَى، وذَلِك عَيْن إِسْقاط التَّدْبِير.

وَلأَنَّ المَحبَّة إِذا تَمكَّنت مِنَ القَلْب، شَغَلَت عَمَّا سِوَى المَحْبُوب، فَكَيْف يُوجَد تَدْبير.

ولأَنَّ الرِّضى إِنَّما هُو اخْتِيار مَا اخْتارَه الله تَعالَى، وذَلِك هُوَ إِسْقاط التَّدْبير.

هَذا مَعْنَى مَا ذَكَره ابْن عَطاَء الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعالَى، مَع تَلْخِيص وتَقْرِيب، وقَد عَلِمْت أَنَّ غَرَضنا منْ هَذا الكِتَاب، ذِكْر مَا تَتضمَّنُه[3] الكَلِمَة المُشرفَة، وَمَا يَرْجِع إِلى مَعْنَاها، فلاَبُدَّ أَنْ نُبَيِّن رُجُوع هَذِه المَقامَات كُلِّها إِلى مَضْمُون هَذِه الكَلِمَة، وقَد ذَكَرْنا ذَلِك إِجْمالاً قَبْلُ بِما فِيه غُنْية لِلَّبِيب، ونَزِيدُه الآنَ بَياناً وتَفْصيلاً.

---

1 ـ تضمين للآية : 7 من سورة الزمر.

2 ـ الجنيد بن محمد بن الجنيد أبو القاسم البغدادي، «ت : 297هـ» المتصوف الزاهد من أهل العلم والعمل والالتزام بأصول الشرع، كان يقول : «من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة». حلية الأولياء/ 10 : 255. الأعلام/ 2 : 137.

3 ـ وردت في نسخة ح : تضمنته.

{رُجوعُ مَقامَات اليَقِين كُلِّها إِلَى مَضْمُون الكَلمَة المُشرفَة}

فَنقُول : إنَّ إسْقاط التَّدْبِير والاخْتِيار هُو مِنْ مَضْمُون التَّوْحِيد، ومُقْتَضى الوَحْدانية المَدْلولَة لِكَلِمة الإِخْلاص، فإِنَّ الوَحْدانية كَما مَرَّ عَدَم الكَثْرَة فِي الذَّات والصِّفاتِ، وَعَدَم الشَّريك فِي الأَفْعال، وإِنْ شِئْت قُلْت: الانْفِراد بالأُلوهِية وَخَواصِّها، وَالتَّوْحِيد كَمَا مَرَّ فِي كَلام سَعْد الدِّين[1]، هُوَ «انْفِرَاد الله تَعالَى بِالأُلوهِية 138 / وَخَواصِّها» ولاَ خِلاَف عِنْد أَهْل الحَقِّ أَنَّ مِنْ خَواصِّ الإِلَه الحَقِّ الانْفِراد بالتَّأْثِير والاخْتِيَار والتَّدْبير[2]، وَذَلِك بِمُقْتَضى قُدْرَتِه ومَشِيئَته وعِلْمِه.

وكَمَا أَنَّ هَذِه الصِّفات لاَ تَثْبت بِحقِيقَتها عَلى مَا هِيَ، إلاَّ لله تَعالَى[3]، وأَنَّ مَا ثَبَت مِنْ ذَلِك لِغَيْرِه تَعالَى فإِنَّما هُو أَثَر مُسْتَمدٌّ مِنْه تَعالَى، مُشارِك فِي التَّسْمِية لاَ فِي الحَقِيقَة عَلَى مَا هِيَ، كَذلِك آثَار هَذِه الصِّفات مِنَ الإِيجَاد والاخْتِيار، لاَ يَثْبت بِحَقِيقَته إلاَّ لله تَعالَى، فَمَنْ أَثْبَت لِنَفْسِه مِنْ ذَلِكَ شَيْئا زَائِداً عَلى مُجَرَّدِ الكَسْب، الَّذِي هُو مَناط التَّكْليف شَرْعا، فَقَد أَثْبَت لنفسه قِسْطا مِنَ الرُّبوبِية، فَهُوَ مُشْرِك مُنازِع، والمُنازِع أَعْظَم جُرْما مِنْ مُطْلَق المُشْرِك، فإِنَّ كَثِيراً مِنَ المُشْرِكينَ لاَ يُنازِعون.

وَبِتَحقُّق التَّوْحِيد عَلى مَا مَرَّ إِيمَاناً وحالاً، يَصِحُّ لِلْعَبْد تَسْليم المُلْك كُلَّه، والتَّصرفَ فِيه للهِ تَعالَى الوَاحِد القَهَّار، وَمِن المُلْك نَفْسُه وحُظوظه والتّصرف فِي مَصالِحها ودَفْع مضارِّها، فَيَثْبت لَهُ بَتسْلِيم كُلِّ ذَلِك إِلى اللهِ تَعالَى أَنْ لاَ[4] يُدَبِّر

---

1 ـ المقصود به : سعد الدين التفتازاني (ت : 791هـ)، من علماء خراسان، له ملكة راسخة في العلوم، وقدم عالية في سائر الفنون العقلية له : «المقاصد» و«شرحه». شذرات الذهب/ 3 : 312.

2 ـ وردت في نسخة ق : بالتدبير.

3 ـ وردت في نسخة ك : سبحانه.

4 ـ وردت في نسختي ق و ك : ألا.

وَلاَ يَخْتار، وهُوَ ظَاهِر، وأَنْ يَتَوَكَّل عَلى الله تعالى، وَإلاَّ كَانَ مُشْركا[1] غَيْر مُوَحِّد، وأَنْ يَرْضى بِقضَائِه وإلاَّ كَانَ مُنازِعاً، وأَنْ يَرْجِع إلَيه تَعالَى بالتَّوْبَة عَنْ كُلِّ مَا لا يَرْضاه، وإلاَّ كَان مُسْتبِدّاً بِأمْرِه، ومُنازِعاً وَعابِداً لِهَواه، فلاَ يَصِحّ قَوْله «لاَ إلَه إلاَّ الله» لأنَّ مَعَهُ إلَها آخَر هُو الهَوى. قَال تَعالَى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾[2].

وَفِي الحَدِيث «أَبْغَض إلَهٍ عُبِدَ فِي الأَرْضِ الهَوَى»[3]. وأَنْ يَزْهَد فِي الفَانِي بَلْ وَفِي كُلِّ مَا سِوى الله تَعالَى، وإلاَّ كَان مُشْركا له فِي العُبودِية والخِدْمَة والتّعْظِيم، وعَابِدا أَيْضا لِهَوى نَفْسِه كَما مَرَّ، وأَنْ يَصْبِر وإلاَّ كَانَ مُنازِعا غَيْرَ مُسَلِّم، وأَنْ يَشْكُر آلاَءَ الله [تَعالَى][4] وإلاَّ كَان جَاحِدا لَها، وهِيَ أَثَر صِفاتِه تَعالَى، وجَحْد آثَار الصِّفاتِ جَحْدٌ للصِّفاتِ، وذَلِكَ نَقِيض التَّوْحِيد.

وأَنْ يَكُون خَوْفُه ورَجاؤُه مِنَ الله تَعالَى لاَ غَيْر، لأَنَّه المَالِك للنَّفْع والضُّر، وإلاَّ كَانَ مُثْبتا لِنافِع وَضارٍّ غَيْرَ الله تَعالى، وَهُو نَقِيض التَّوْحيد. وأَنْ يُحِبَّ الله تَعالَى وإلاَّ لَمْ يَكُن عارِفاً مَا هُوَ، فإنَّ مَنْ عَرَفَ الله تَعالَى وأَنَّه المُتَّصِف بِجَمِيع المَحاسِنِ والكَمالاَت، المُتَنَزِّه عَنْ جَمِيع الرَّذَائِل والنَقائِص أَحبَّه لاَ مَحالَةَ طَبْعاً، ومَنْ عَرَف أَنَّه المُحْسِن الجَواد المُتَفضِّل أَحبَّه قَطْعاً، إذْ قَدْ جُبِلَت القُلوب عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَن إلَيْها[5].

{أَجلُّ مَقَام أُقِيم فِيهِ العَبْد مَقامُ العُبودِيَة}

قَال ابْنُ عَطاء الله : «واعْلَم أَنَّ أَجَلَّ مَقَام أُقِيمَ فِيه العَبْد مَقَامُ العُبودِية، وكُلُّ المَقامَات إنَّمَا هِيَ كالخَدَمَة لِهَذا المَقامِ، <قَالَ>[6] : والدَّلِيل عَلىَ أَنَّ العُبودِية

1 ـ وردت في نسخة ق : مشاركا.
2 ـ الجاثية : 23.
3 ـ أخرجه الدارمي بالمعنى في سننه، باب اجتنبوا الأهواء والبدع والخصومة. ولفظه : إنما سمي الهوى لأنه يهوي صاحبه.
4 ـ سقطت من نسختي ق و ك.
5 ـ تضمين لحديث سبق تخريجه في ص : 34.
6 ـ سقطت من نسخة ك.

أَشْرَف مَقام قَوْل الحَقِّ سُبْحانَه : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾[1]، ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾[2]. ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾[3]، ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾[4]. ولَمَّا خُيِّرَ رَسُول الله بَيْن أَنْ يَكُون نَبيّاً مَلِكا أَوْ نَبيا عَبْدا فاخْتَار العُبودِية لله [تعَالَى][5]، فَفِي ذَلِكَ أَدَلُّ دَلِيل عَلى أَنَّها مِنْ أَفْضَل المَقامَات وأَعْظَم القُرُبات» انتهى المُراد مِنْه.

قُلْتُ : وإِنَّمَا كَانَت العبُودِية أَشْرَف مَقَام، لأَنَّ فِيها تَحْقِيق التَّوْحِيد المَذْكور، وبَيانُ ذَلِك : أَنَّهُ لَمَّا اسْتَحالَ أَنْ يَكون فِي الوُجودِ إِلَه آخر غَيْر مَوْلاَنا جَلَّ اسْمُه، عَلَى مَا مَرَّ تَقْرِيره فِي الوَحْدانية، عُلِم أَنْ لَيْسَ إِلاَّ إِلَه وَاحِد وَما سِواه فَهُم مَخْلوقَات لَه، وهُم عَبِيدُه ومَمالِيكُه، فَلَيْس إِلاَّ إِلَهٌ وَعَبْدٌ، وَمَالكٌ وَمَمْلوكٌ، وَخَالِقٌ 139 / وَمَخْلُوق، وَرَبٌّ وَمَرْبوبٌ، وَلاَ ثَالِثَ أَصْلاً، وَبَيْنَهُما مِنَ التَّباعُد والتَّقَابُل نَحْوَ مَا بَيْن الضِّدَيْن، ولَمْ يَكُنْ لِيوجَد الرَّب دُون العَبْد، ولاَ العَبْد دُون الرَّب.

أَمَّا أَنَّه لاَ يُوجَد الرَّب دُون العَبْد، فَفِي الأَذْهان عِلْما ومَعْرِفَة عِنْد السَّالِكين، وهَذا بِمُقْتَضى الحِكْمَة ومَحْض الفَضْل، فإِنَّ وُجودَ العَبْد هُوَ مَظْهَرٌ للرَّب ولأَوْصافِه البَاهِرَة، كَما ورَدَ «كُنْتُ كَنْزاً لَمْ أُعْرَف فَخَلَقْتُ الخَلْقَ لِكَيْ أُعْرَف»[6]، أَوْ كَما وَرَد، ولَيْس هَذا عَلى سَبِيل الوُجوبِ، فإِنَّ للهِ تَعالَى الاخْتِيار التَّام، وهُوَ غَنِي عَنِ الظُّهورِ وعَنْ مُوجِباتِه وثَمرَاتِه.

---

1 ـ الإسراء : 1.
2 ـ الأنفال : 41.
3 ـ مريم : 2.
4 ـ الجن : 19.
5 ـ سقطت من نسختي ق وح.
6 ـ أخرجه السخاوي في المقاصد الحسنة : 521 رقم : 838. والزركشي في اللآلىء المنثورة، الباب الثالث في الزهد : 132 رقم : 14.

وأَمَّا أَنَّه لاَ يُوجَد العَبْد بِدُون الرَّب، فَفِي الخَارِج وُجوداً عَيْنِيا، وهَذا بِمُقْتَضَى[1] الوُجوبِ العَقْلِي، لاسْتِحالَة وُجود الأَثَر بِلا مُؤَثِّر، وَكما أَنَّه لوْ تَنازَل الرَّب عَنِ الصِّفات الأُلوهِية[2] إِلَى أَوْصاف العَبيد تَعالَى عَنْ ذَلِك، لَبَطُلَت هَذِه الصُّورَة الثَّانِية، لاخْتِلاَط المَوْجودات حِينَئِذٍ واشْتِبَاهِها وَصَيْرُورَتِها كُلِّها عَبِيدا، وفِي ذَلِك بُطْلاَنُها كُلُّها، لاسْتِحالَة قِيامِها بِدُون ربٍّ يَجلّ عَنْ أَوْصافِها، ويَتَعالَى عَنْ نُقْصانِها واحْتِياجِها.

كَذَلِكَ لَوْ تَعالَى العَبْد عَنْ صِفاتِ العُبُودِية، وتَطاوَل إِلَى أَوْصافِ الأُلوهِية، لَبطُلَت الصُّورَة الأُولَى لِصَيْرورَة الكُلِّ آلِهَة، وَفِي ذَلِك بُطْلان الحِكْمَة مِنْ تَجلِّي الحَقِّ وظُهورِه، ثُمَّ فِي ذَلِكَ بُطْلاَنُها هِيَ أَيْضا، كَمَا مَرَّ فِي التَّمانُع، فَكانَ فِي بَقَاء العَبْد عَلَى عُبودِيتِه صِحَّة التَّوْحيد، وانتِظامُ الحِكْمَة.

أَمَّا صِحَّة التَّوْحِيد، فَلأَنَّ بَقاءَ العَبْد عَلَى عُبودِيَته، فِيهِ انْفِرَاد الرَّب بِالرُّبوبِيَة، إِذْ لاَ مُشارِكَ لَهُ فِي ذَلِك، وَهذَا هُوَ المَطْلُوب مِنَ التَّوْحِيد.

وأَمَّا انْتِظَام[3] الحِكْمَة، فَلأَنَّ العَبْد مَادَام عَبْداً يَظْهَر فِيه تَصرُّف القُدْرَة الأَزَلِية والمَشِيئَة القَدِيمة، ويَظْهَر فِيه الفَضْل تَارَة والعَدْل أُخْرى، وَهَذا هُوَ مُقْتَضى الحِكْمَة.

واعْلَم أَنَّ هَذا المَعْنَى، أَعْنِي بَقاءَ العَبْد عَلى عُبودِيته، حَاصِلٌ فِي نَفْس الأَمْر عَلى الدَّوَام لِلعَبْد، فَإِنَّ العَبْد لاَ يَزَالُ عَبْداً، كَما أَنَّ الرَّب لاَ يَزالُ رَبّاً، وَكَما أَنَّ الوَاجِب يَسْتَحِيل أَنْ يَنْقلِب مُمْكِناً، والمُمْكِن يَسْتَحِيل أَنْ <يَنْقَلِبَ>[4] وَاجِباً،

---

1 ـ وردت في نسخة ك : مقتضى.
2 ـ وردت في نسخة ح : الإلهية.
3 ـ وردت في نسختي ق و ك : انقطاع.
4 ـ سقطت من نسخة ك.

كَذلِكَ الرَّب تَعالَى، يَسْتَحيل أَنْ يَخْرُج مِنْ وَصْف الرُّبوبِية إِلى وَصْف العُبودِية رَأْساً، والعَبْدُ يَسْتَحِيل أَنْ يَخْرُج عَنْ وَصْف العُبودِية إِلى وَصْف الرَّبوُبِية رَأْساً، فالنَّاسُ كُلهُم مُؤْمِنُهم وكَافِرُهُم، مُطِيعُهم وعَاصِيهم، عَارِفهُم وجَاهِلُهم، مُتيقِّظُهُم وغَافِلُهم، فِي مَقَام العُبودِية التَّامَة باعْتِبار نَفْس الأَمْرِ، وَكُلُّهُم باعْتِبار الخَارِج مُنْقاد لِباهِر قُدْرَته تَعالَى، مُسْتَسْلِم لِمشِيئَتِه غَيْر مُتعَاص عَنْ حَوْل الله تَعالَى وقُوَّتِه، بَريءٌ مِنَ الحَوْل والقُوَّة لِنَفْسه.

{تَقْسِيمُ الله تَعالَى عَبِيدَه قِسْمَيْن مِنْ حَيْثُ الإِيمَان وَالكُفْر}

ولَكِنَّ الله تَعالَى بِسابِق مَشِيئَتِه، ونَافِذ حِكْمَتِه قَسَّم عَبِيدَه قِسْمَيْن:

قِسْم أَطْلَعَهم عَلى كُنْه هَذا الأَمْرِ، وأَثْبَته فِي قُلوبِهم، فآمَنُوا بِه وصَدَّقوا وَهُم المُؤْمِنون.

وقِسْم صَرَفَهُم عَنْ هَذا العِلْم وَعَنِ اعْتِقاده، فَكَفرُوا إِمَّا جَهْلاً وإِمَّا جُحوداً، إِمَّا كُفْراً بِوُجودِه تَعالَى كالمُعطِّلَة، أَوْ بِوَحْدانِيتِه فِي ذَاتِه كالثّنْوِية، أَوْ فِي أَفْعالِه كالقَدرِية، وهُوَ كُفْر دُونَ كُفْر.

وَقَسَّم مَنْ آمَن قِسْمَين أَوْجَد لَهُم ذَلِك، وَجَعَله حالاً قَائِماً بِقُلوبِهم، مُترتِّبا عَلَيْه ثَمراتُه، لاَ تَزِيغ بِهِم الآرَاء ولاَ تَسْتَخِفُّهم الأَهْواء، وهُم العَارِفون أَهْل اليَقَظَة، الخَارِجُون عَنِ الدَّعْوى، المُتبَرِّءُون مِنَ الحَوْل والقُوَّة، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ونَفَّعَنا بِهِم وَحَشَرنَا فِي زُمْرَتِهم، وهُم عِباد الله المُخْلصُون، الَّذِين لاَ سَبِيل للشَّيْطانِ عَلَيْهِم.

وَقِسْمٌ مِنْهُم صَرَفهُم عَنِ الذِّكْر، فَجعَلَهُم سُكارَى شَهوَاتِهِم وأَسَارى طِبَاعِهِم، وجَعل نُورانِيتَهم مَغْلُوبة بِظُلْمانِيتِهم، وإِيمَانهُم تَحت سُلْطان بَشَرِيَّتِهم، 140/ وهُم أَهْل الغَفْلَة أَمْثالُنا، تَرَى الوَاحِد مِنَّا إِذَا رَاجَع اعْتِقادَه، وقَطَع التّشَوف عَنْ عَوارِض الشَّهَوات، يَجِد فِيه أَنَّ الله تَعالَى مُنْفَرِد بالمُلْك والتَّدْبِير، والحَوْل

والقُوَّة، وأَنَّ العَبْد مَعْزولٌ لاَ حُكْم لَهُ ولاَ حَوْل ولاَ قُوَّة إلاَّ باللهِ تَعالَى، ولاَ مُعْطِي لِمَا مَنَع ولاَ مَانِع لِما أَعْطَى، ثُمَّ لاَ يَبْرَح مَكانَه حَتَّى يَصول الطَّبْع البَشَرِيُّ بِجُنودِه، فَتحْمل فُرْسان الهَوَى ورُمَاة الوَسْواس، ويَتَراكَم فِي جَوِّ العَقْل غُبَار الالْتِفات إلى الأَغْيار، وتَغِيب فِي ذَلِك شَمْسُ العَقْل، وتَنْزوِي[1] كَتِيبَة الإِيمَان وتَضْطَرِب مَمْلَكَة الرُّوح، فَتجِد النَّفْس مَجالاً لِتَقاضِي شَهوَاتِها مِنْ مَظانِّها المَوْهُومَة.

فإِذَا هُوَ يَتعلَّق بِهَذا المَخْلُوق، ويَرْجُو هَذا ويَخافُ هَذا، ويَسْخَط عَلى هَذا ويَمْدَح هَذَا ويَذُمُّ هَذا <بمُجَرَّد>[2] مُقْتَضى الطَّبْع، ويَتعجَّب ويَتكبَّر وَيدَّعِي فِيما يَفْعَل ويَتْرُك ويَخبُ[3] فِي التَّدْبِير، ويَضَع ويَنْزَع مِنْ الاسْتِبْداد والاسْتِقلاَل إلى كُلِّ مَنْزَع، وذَلِك كُلّه نتِيجَة رُؤْيَة الأُمُور والمَنافِع والمَضارِّ مِنْ غَيْر الله تَعالَى، ورُؤْيَة الفِعْل مِنْ نَفْسِه، فَصارَ مَا عِنْدَه أَوَّلا منَ التَّوْحِيد مَغْلوباً بالطَّبْع، لمْ يَبْق لَهُ كَبِير تَصرُّف كالأَمِير المَسْجون، وصَارَ الحُكْم لأَعْدائِه، ولَمْ تَظْهَر ثَمرة التَّوْحيد، بَلْ ظَهَرَت ثَمَرَة غَيْرِه، فَصارَ اعْتِقاده اعْتِقادَ سُنِّي وحَالُه حَالَ قَدَرِيٍّ أَوْ أَشَرَّ مِنْه.

والعُبُودِية أَنْ يَخْلُص مِنْ ذَلِك كُلِّه، فَلاَ يَرَى غَيْرَ سَيِّده ومَوْلاَه لاَ نَفْسَه ولاَ غَيْرَه، فَإِنَّ العَبْد مَتَى أَثْبَت الأَمْرَ لِنفْسِه فَقَد نَازَع سَيِّدَه وطَاوَلَه، وَمَتى أَثْبَتَه لآخَر غَيْرَ سَيِّدِه فَقَد أَشْرَك بِسيِّدِه، وكِلاَ الأَمْرَيْن يُوجِب مَقْت العَبْد والانْتِقام مِنْه، وإِنَّمَا يَكُون عَبْدا مَرْضِيا بأَنْ يَكون سَلَماً لِربِّه مَطْروحاً بَيْن يَديْه، يُقلِّبه ربُّه كَيْف شَاء عُبودِية تَولَّتْها رُبوبِية، وَهذا هُوَ الذُخْر الأَوْفَر والإِكْسِير[4] الأَكْبَر، وجَمِيع المَقامَات دَائِرَة عَلى هَذا المَعْنَى، بَلْ جَمِيع التَّكالِيف مَرْجِعُها إِلى تَحْقِيق ذَلِك، كالسُّجودِ والرُّكوعِ والزَّكَاة والحَجِّ ونَحْو ذَلِك، عند مَنْ تَأَمَّل ذَلِك بِنُور البَصِيرَة، جَعلَنا الله

---

1 ـ وردت في نسخة ك : تزوى.
2 ـ سقطت من نسخة ح.
3 ـ وردت في نسخة ح ويحث.
4 ـ كلمة يونانية، وتعني ما يلقى على الفضة ونحوها فيحوله إلى ذهب خالص، وذلك من خرافاتهم.

مِنْ أُولِي الفَهْم عَنْه والأَخْذ مِنْه بِمنِّه، ولَعلَّنا سَنُلِمّ بِشَيْء مِنْ ذَلِك فِي مَحَل آخَر إنْ شَاءَ الله تَعالَى.

{للعُبودِية شَرَفٌ مِنْ وَجْهَيْنِ آخَرَيْن : حَقِيقِي وَنِسْبِي}

فَقَد ظَهَر شَرَف العُبودِية، وبَانَت جَلالَة خَطرهَا وفَخامَة قَدْرِها، وللعُبودِية شَرَف مِنْ وَجْهَين آخَريْن تَابِعَيْن لِمَا ذُكْر :

أَحَدُهُما حَقِيقي والآخَر نِسْبِي، أَمَّا الحَقِيقيُّ فَهُوَ أَنْ يُنْظَر إِلَى العُبودِيَة مِنْ حَيْثُ هِيَ، وَمِنْ حَيْثُ إنَّ العَبْدَ عَبْدٌ فِي نَفْسِه، فَنقُول : كَمالُه مِنْ حَيْث هُو عَبْد، إنَّما هُو فِي تَحقُّق العُبودِيه، وبَيان ذَلِك أَن تَعْلَم أَنَّ الكَمالَ أَمْرٌ نِسْبي، فَكمَال كُلِّ شَيْء إِنَّمَا هُو بِحَسَبِ ذَلِك الشَّيء، وإِنْ لَمْ يَكُن كَمالاً بِحَسَبِ غَيْرِه، كَما أَنَّ نَقْصَه بحسَبِه، وإِنْ كَان ذَلِك النَّقْص كَمالاً فِي غَيْرِه. وكَمَال الشَّيْء يَرْجِع فِي الجُمْلَة إلى أَمْرَيْن : أَحَدهُما الكَمال الذَّاتِي : وَمَرْجِعه إلى تَحقُّق مَاهِيَة الشَّيْء وَتكَمُّل ذَاتِه، إمَّا بِحسَب الوُجودِ العَيْنِي أَو[1] الذِّهْنِي، وَالثَّانِي الكَمَال الوَصْفِي، وَمَرْجِعه إِلَى تَحقُّق وَصْفِه اللاَّئِق بِه، وكُلَّما كَمُل ذَلِك الوَصْف فِي جِنْسِه، كَمُلَ ذَلِك المَوْصوف بِه مَثلاً الفَرَس يُرادُ للجَرْي، فكَمالُه بالسَّبْق لاَ بِقوَّة الحَمْل، والحِمَار والجَمَل عَلى العَكْس، والأَمَة المُسْتَفْرَشَة مَثلاً، كَمالُها بِالمَلاحَة وَلِينِ المَجَسَّة وثِقْل الرِّدْف، 141 / ونَحْو ذَلِك، لاَ بالصَّرامَة فِي العَمَل والخِفَّة للخِدْمَة والمُسْتَخْدَمة عَلى العَكْس، والعَبْد المُشْتَرى للخِدْمَة كَمالُه بكَمَالِ الطَّوْع لِسيِّده، <وخِفَّة الأَعْضاء للخِدْمَة، وحُسْن التَّأَدُّب والتَّواضُع لِسيِّدِه[2]،>[3] لاَ بعِزَّة النَّفْس وشُمُوخ الأَنْف، فإِنَّ ذَلِك نُقْصان، لاَ سِيَما بَيْنَه وبَيْن سَيِّده، يُوجِب أَنْ يَرْغَب عَنه بِسَبَبِه مُرِيد شِرَائِه، وأَنْ يَمْقُته سَيِّده ويُعرِّضُه للتَّعْنِيف والإِرْغامِ.

---

1 ـ وردت في نسخة ك : و.
2 ـ وردت في نسخة ك : للسيد.
3 ـ ساقط من نسخة ك.

وَلَوْ عُرِض ذَلِك الوَصْف عَلى ذَوِي العُقُول، لَقالُوا إِنَّهُ لَيْسَ بِوصْفٍ لاَئِقٍ، مَع أَنَّ عِزَّةَ النَّفْس قَد تكونُ فِي غَيْرِه كَمالاً، ولَوْ اجْتَمَع عَبْدٌ وسَيِّدٌ مُطْلَق لاَ يَكون عَبْداً لِغَيْرِه، لَكانَت عِزَّةُ النَّفْسِ والتَّمَنُّع فِي حَقِّ السَّيد كَمَالاً، وفِي العَبْد نُقْصاناً، <والتَّواضُع والتَّذلُل فِي العَبْد كَمالاً إِذْ ذَاك هُو الوَصْف اللاَّئِق بِه، وفِي سَيِّدِه نُقْصاناً>[1] عَلىَ التَّقابُل، ولاَ تَنْظُر إِلى سَادَات النَّاسِ مَع عَبِيدِهم، وَأَنَّ التَّواضُع مَطْلُوب مِنْهُم، لأَنَّهُم لَيْسُوا بِسادَات مُطْلَقِين، بَلْ بالإِضافَة إِلى عَبِيدِهم، وهُم فِي أَنْفُسِهم عَبيدٌ لِسَيِّدِهِم الحَقِيقِي، مَلِك المُلُوك تَبارَك وَتَعالَى، فَكَان التَّواضُع مَطْلوباً مِنْهُم، مِنْ حَيْث إِنَّهُم عَبِيدٌ، وهُوَ[2] وَصْفُهم اللاَّزِم لاَ مِنْ حَيْث إِنَّهُم سَادَات، وهُوَ وَصْفٌ عارِضٌ مَجازِي، لَمْ يَسْتحِقُّوا بِسبَبِه عَظمَة ولاَ كِبْرياء، وإِلاَّ فَحقُّ السَّيد العِزَّة والكِبْريَاء والعَظَمة، وَأَمَّا الذِّلة والتَّواضُع فَحقُّ العَبْد، إِذْ ذَاك سِرُّ حَقِيقَته ورُوح مَعْناه.

{الإِنْسانُ كُلُّهُ عَبْدٌ لله تَعالَى}

إِذَا فهِمْت هَذا، فاعْلَم أَنَّ الإِنْسَان كُلُّه عَبْد لله تَعالَى، مَلِك المُلوكِ لاَ شَرِيك للهِ تَعالَى فِيه، وَكمَا أَنَّ حَقَّ الله تَعالَى مِنْ حَيْث إِنَّه إِلَه العَظَمَة والجَلاَل والكِبْرِياء، وذَلِك رِداؤُه تَعالَى وإِزاره، وَلَيْس إِلاَّ كَذَلِك، فَحقُّ الإِنْسان مِنْ حَيْث إِنَّه عَبْد الذِّلة والافْتِقار إِلى سَيِّده، والتَّواضُع والتَّسْلِيم والانْقِياد والطَّوْع، وبِذَلِك يَحْسُن حَالُه ويَكْمُل أَمْره، ويُقَال إِنَّه عَبْد عَلى الحَقِيقَة، ولَوْ خَرَج عَنْ ذَلِكَ كان مَعِيباً نَاقِصاً مَذْموماً، ومَا هُوَ بِخارِج عَنْ ذَلِك الوَصْفِ أَبدا كَمَا مَرَّ، وإِنَّما يَغْلط

---

1 ـ ساقط من نسخة ك.

2 ـ وردت في نسخة ق : وهم.

المِسْكِين ويَتوَهَّم أَنَّه يَتَّصِفُ بالكَمالِ والعِزَّة، وإنَّما يَجُره إِلَى ذَلِكَ فَرْط عِشْقِه لِلْعِزَّة والعَظَمَة، لِما يَرَى أَنَّها كَمالٌ فَيُحبُّ الاتِّصافَ بِها، لِما يتوهَّمُه[1] مِنْ أَنَّه يَتَكَمَّل[2] بِها.

وفِي الحَدِيث «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ»[3] وهَيْهات، فإِنَّ العِزَّة والعَظَمة وكَمال الاقْتِدار ونَحْو ذَلِكَ، كَمال لِمَنْ يَلِيقُ بِه ذَلِك، وهُوَ المَلِك الكَبِير، لاَ لِمَنْ لاَ يَلِيق بِه ذَلِك، وهُوَ العَبْد الذَّلِيل الحَقِير، وإِلَى تَحْقِيق هَذا الوَجْه الإِشَارَة بِما فِي الحَدِيث مِنْ أَنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «خُيِّر بَيْن أَنْ يَكُون نَبِيا مَلِكا أَوْ نَبِيا عَبْدا فَاخْتَار أَنْ يَكونَ نَبِيا عَبْداً»[4].

ويُرْوَى أَنَّه أَشَار إِلَيْه جِبْرِيل عَلَيْه السَّلام عِنْدَمَا خُيِّرَ : أَنْ تَواضَع لِربِّك، فاخْتارَ العُبودِية وَفِيها حَصَل لَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَايَة الشَّرَف ونِهايَة الكَمال، نَسْأَلُ الله تَعالَى الوُقوفَ عِنْدَها، وَأَنْ لاَ نَتعدَّى طَوْرَنا بِجَاه نَبِيِّه وعَبْدِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَأَمَّا المَعْنَى النِّسْبِي، فَهُو أَنْ يَنْظُر إِلى العُبودِية مِنْ حَيْث الإِضَافَة إِلَى السَّيد الكَبِير، المَلِك العَظِيم جَلَّ وَتعالَى، فَنقُول إِنَّ العَبْد لاَ مَحالَة، قِيامُه إِنَّما هُو بِسيِّدِه لِعَدمِ اسْتِقْلالِه واسْتِغنَائِه بِنَفْسِه، فلاَ جَرمَ يَتقوَّى ويَعْظُم بِعَظَمة سَيِّدِه، ويَضْعُف بِضُعْفِه، فإِذَا كَانَ السَّيد فِي غَايَة العَظَمَة ونِهايَة العِزَّة، وَكانَ السَّيد أَعْظَم السَّادَات، ولَيْس ذَلِكَ إِلاَّ الله تَعالَى، فَلابُدَّ أَنْ يَكون عَبْدُه أَعْظَم العَبِيد، لأَنَّ عَبْد العَظِيم عَظيمٌ.

142 / وقَدْ قَال عُلماء البَلاغَة : إِنَّ مِنْ فَوائِد الإِضافَة أَنْ يَكْتسِب المُضَاف

1 ـ وردت في نسخة ك : يتوهم.
2 ـ وردت في نسخة ح : يكمل.
3 ـ أخرجه أبو داود في السنن كتاب الأدب. وأحمد في المسند. والسخاوي في المقاصد الحسنة رقم : 381. والزركشي في اللآلئ المنثورة، باب : 2 رقم : 1.
4 ـ أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين.

مِنَ المُضَاف إِليْه تَعْظيما، كَقوْلِكَ عَبْد السُّلْطان حَاضِر، فَيعْظم العَبْد بِكَوْنه عَبْدا للسُّلْطان، وقَد تكون الإِضافَة فِي نَحْو[1] هَذا للتَّحْبِيب[2] والتَّقْريب، كَما تَقولُ وَلدِي وبَنِي[3] وعَبْدي، وفِي هَذا أَيْضا مِنَ كَمَال المَزِيَّة وَشُفوفِ المَنْزِلَة وَعَظِيم الحُظْوَة، إذا وَقَعت الإِضَافَة إِلى مَلِك المُلوك، المُسْتَغْني عَن كُلِّ مَا سِواه مَا لاَ يَخْفى، فإِنَّ التَّحَبب مِنْه تَعالَى لِعَبْده يَطِير بِه العَبْد، حتَّى ينْشَقَّ قَلْبه فَرحاً، ويَعلُو عَلى السِّمَاكَيْن[4] مَرَحا، وإِلى نَحْو هَذا كُلِّه الإِشارَة بِمَا فِي الآيَات المَذْكورَات فِي حَقِّ الأَنْبيَاء عليهِم الصَّلاة والسَّلام، نَحْو قَوْلِه تَعالَى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾[5] وَقَدْ مَرَّت مَع آيَات أُخْرى مِثْلُها. وقَال الشَّاعِر :

لاَ تَدْعُنِي إِلاَّ بِيَا عَبْدها ❖❖❖ فـإِنَّـه أَشْـرَف أَسْـمـاء[6]

فَإِنْ قُلْتَ : إِذا اعْتُبِر هَذا الوَجْه الثَّانِي، كَانَت العُبودِية مَنْزِلَة كَبِيرَة، ودَرَجَة رَفِيعَة، تَخْرُج عَنْ وَصْف العَبْد مِنَ الذِّلة والافْتِقار، فَكيْفَ يَلِيق بِه أَنْ يَدَّعِيها أوْ يَعْتَبِرها؟

قُلْنا : هِيَ[7] كَذلِك، ولاَ تُنافِي الوَصْف الأَوَّل، لأَنَّهما وَاقِعَانِ عَلى العَبْد لاعْتِبارَين مُخْتلِفَيْن، فالعَبْد مِنْ حَيْث نَفْسُه ذَلِيلٌ حَقِيرٌ، ومِنْ حَيْث إِنَّه عَبْد للمَلِك الكَبِير كَبِيرٌ، وهُوَ مِنْ حَيْث نَفْسُه فَقِيرٌ وَقِيرٌ[8]، ومِنْ حَيْث إِنَّه عَبْد للغَنِي تَعالَى غَنِيٌّ

1 ـ وردت في نسخة ك : مثل.
2 ـ وردت في نسختي ق و ك : للتحبب.
3 ـ وردت في نسخة ك : وابني.
4 ـ السماكان كوكبان نيران، يقال لأحدهما السماك الرامح، لأن أمامه كوكبا صغيرا يقال له راية السماك ورمحه. وللآخر السماك الأعزل لأن ليس أمامه شيء. والعرب تقول في السماك الأعزل : إذا طلعت السماك ذهب العكاك. وفي نوئه ينصرم النخل ويقطع العنب ويأتي المطر وهو خير المنازل الشامية.
5 ـ الإسراء : 1.
6 ـ وردت في نسخة ح : أسمائي.
7 ـ وردت في نسخة ح : هو.
8 ـ يعني ذليل مهان.

مَلِي، وَهُوَ مِنْ حَيْث نَفْسُه ضَعِيفٌ، ومِنْ حَيْث إِنَّه عَبْدٌ لِلمَلِك القَوِيِّ قَوِيٌّ، وسِرْ عَلى هَذا القِياس.

وعَلى هَذا الاخْتِلاف، مَا يُرَى منْ أَحْوالِ الصُّوفِيَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ منَ القَبْض والبَسْط، ومَا يَنشَأُ عَن ذَلِك مِنَ الحُزْن والخُشُوع والبُكاءِ مَثلاً، ومِنَ الأُنْس والطَّرَب والصَّوْلَـة، وَقَـدْ يَنْشَـان عَـنِ النَّظَـر إِلى الصِّفاتِ كَصِفَتَيْ العَدْلِ والفَضْلِ، أَوْ عَنِ النَّظَر إِلى مَا دُون ذَلِك كالمُخَالَفة والمُوافَقَة.

واعْلَم أَنَّا مَا ذَكَرْنا مِنَ الوَجْهَيْنِ فِي العُبودِية، قَد يَنْعكِسانِ بِنَظر آخَر، وَهُو أَنْ يُقَال : إِنَّ العَبْد إِذَا لاَحَظ نَفْسه، أَيْ لاَ مِنْ حَيْث إِنَّهُ عَبْدٌ، بَلْ مِنْ حَيْثُ إِنَّه مَوْجودٌ قَائِمٌ بنَفْسهِ، كَانَ قَوِيّاً عَزِيزاً، وإِذَا لاَحَظ نَفْسَه مِنْ حَيْثُ إِنَّه عَبْد لِمَلِكٍ قاهِرٍ، كَانَ ضَعِيفاً مُتلاَشِياً، إِذْ هُوَ مَملُوك مَقْهور ولاَ مَنْعَة لَهُ، وأَيْضا فَإِنَّه حادِثٌ فانٍ، والفَانِي إِذَا نُسِب إِلَى البَاقِي، بَقيَ البَاقِي وَذهَب الفَانِي.

وبِهَذا تَعْلَم أَنَّ العُبودِية المُضَافَة، يَصِحُّ الاعْتِبارَانِ فِيهَا بِنَفْسِها، فَمَنْ قَال إِنَّه عَبْد الله، أَمْكَن أَنْ يَكونَ قَدِ افْتَخَر بالله تَعالَى وتَعظَّم[1]، لأَنَّ عَبْد العَظِيم عَظِيمٌ، وَعبْد السُّلْطان لَيْسَ كَعَبْد الفَلاَّح، وإِلاَّ كَانَ[2] ولله المَثَل الأَعْلَى، وأَمْكَن أَنْ يَكونَ قَدْ تَواضَعَ وتَذلَّلَ، لأَنَّه عَبْدٌ مَمْلوكٌ، وعَبْد السُّلْطان وإِنْ عَظُمَ عِنْد الرَّعِية فِي غَيْبَة السُّلْطان، فَهُو إِذَا كَانَ بِحَضْرَة سَيِّدِه يَصِير كَلاَ شَيْء، لِتلاَشِيه فِي جَانِب عَظمَة السَّيد[3].

ومَعْلوم أَنَّ عَبْد الله تَعالَى حَاضِرٌ مَع الله دَائِماً، لاَ يَغِيب عَنْه طَرْفَة عَيْن، فَأَيُّ عَظَمة تَبْقى لَهُ مَع مَلِك المُلُوك؟ الَّذِي خَضعَت لِكِبْرِيَائِه الرِّقَاب، وذُلَّت لِعظَمَتِه السَّمَاواتِ

1 ـ وردت في نسخة ح : تعاظم.

2 ـ كذا في الأصل.

3 ـ وردت في نسخة ك : السلطان.

والأَرْض ومَا فِيهمَا، تَبَارَكَ الله رَبُّ العَالَمِين، فالعَبْد إِذَا لاَحَظ رَبَّه تَبارَك وتَعالَى مُعِيناً لَه ونَاصِرا ومُمِدّاً تَقوَّى وتَعزَّز، حَتَّى كَأَنَّه لَيْس عَبْداً مَقْهوراً، وإذا لاَحَظ رَبَّه [تَبارَك][1] وَتعَالَى مَالِكاً لَهُ قَاهِراً تَلاَشَى، حَتَّى كَأَنَّه لَيْس شَيْئاً مَذْكوراً.

والعَبْد الصَّالِح لاَ يَزَال يَتقَلَّب بَيْن هَذَيْن الحَالَيْن، بِحَسَب مَا أَشْهَده الله تَعالَى مِنْهُما فِي الوَقْت، وكِلاهُما حَالٌ شَرِيفٌ حَسَنٌ، لِمَنْ أُقِيم فِيه. ومَتَى خَرَج 143 / العَبْد عَنْهُما، بأَنْ يَتعظَّم بِنَفْسه وحَوْلِه وقُوَّتِه، أَوْ يَذِل مَع رَبِّه لِعَدَم مَعْرِفَتِه بَاهِرَ قُدْرَته عَلى نَصْرِه، أو عَدَم الثِّقَة بِه فَقَد هَلَك مَع الهَالِكين، وَخَسِر مع الخَاسِرِينَ، نَسْأَل الله [تَعالَى][2] التَّوْفِيق والهِدايَة إِلى أَقْوَم طَرِيق.

{مُتابَعَة الكَلاَم فِيمَا يَقْتَضِيه التَّوْحِيد المَضْمون لِكَلمَة الإِخْلاَص مِنْ سَنِيِّ الحَالاَت وَرَفِيع المَقامَات}

وَقَد كِدْنا نَخْرُج عَنِ الغَرَض، فلْنَرجِع إِلَى مَا نَحْن بصدَدِه، مِنْ ذِكْر مَا يَقْتَضِيه التَّوْحيد المَضْمونِ لكَلِمَة الإِخْلاص، مِنْ سَنِيِّ الحَالاَت ورَفِيع المَقَامَات، وَقَد ذَكَرْناهَا قَبْلُ بِحَسبِ مَعْناهَا المُتعَارَف عِنْد القَوْم، ورَأَيْنا أَنْ نَذْكُر مَا وَقَع مِنْ ذَلِك فِي كَلاَم المَاهِر [العَرِيف][3] الشَّيْخ أَبِي العَبَّاس بْنَ العَرِيف[4] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ونُلَخِّصُه بالمَعْنَى، لِيَكونَ لِمَا مَرَّ مَزِيد بَيان، ويُرَى الأَمْر إِنْ شَاء الله رُؤْيَة عِيَّان، فإِنَّه والله مِنَ الثَّمِين[5] الغَالِي والطِّرازِ العَالِي. وَقَد عَبَّر هُوَ بالمَنازِل، وَجعَلَها عَشَرَة وهِيَ : الإِرَادَة، والزُّهْد، والتَّوكُّل، والصَّبْر، والحُزْن، والخَوْف، والرَّجاء، والشُّكْر، والمَحبَّة، والشَّوْق.

---

1 ـ سقطت من نسخة ق.

2 ـ سقطت من نسخة ق.

3 ـ سقطت من نسخة ق.

4 ـ أبو العباس أحمد بن محمد الصنهاجي الأندلسي المعروف بابن العريف، (ت:563هـ) أحد العلماء المتسمين بالعمل والعلم والزهد، وأحد أعلام الصوفية ورجال الكمال. شجرة النور : 133.

5 ـ وردت في نسختي ق و ك : الثمن.

أَمَّا الإِرَادة، فَهِيَ جِبِلَّة للْعوَام، لأَنَّها تَجْدِيد القَصْد وجَزْم النّية واللُّجْأُ فِي الطَّلَب، وذَلِك فِي طَرِيق الخَواصِّ نَقْص وتَفرُّق، ورُجوع إِلى النَّفْس، فإِنَّ إِرادَة العَبْد عَيْن حَظِّه، وَذَلِكَ رَأْس الدَّعْوَى، وإِنَّما الجَمْعُ والوُجود فِيمَا يُرادُ بالعَبْد لاَ فِيمَا يُرِيده ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ [1] فَيَكون مُرادُه مَا يُرادُ بِه، واخْتِيارُه مَا يُخْتار لَه، إِذْ لاَ اخْتيَار ولاَ إِرَادَة للعَبْد مَع اخْتِيار سَيِّدِه وإِرَادَته، فَتَصِحُّ الإِرَادَة بِتَرْك الاخْتِيار، والسُّكون إِلَى مَجارِي الأَقْدار، لِيكُون كالمَيِّت بيْن يَدَي الغَاسِل يُقلِّبه كَيْف يَشَاء.

قُلْتُ : وَهذَا مَعْنى التَّوْحيد، وهُوَ إِفْرادُ الله تَعالَى بالمُلْك والتَّصرفِ، فلاَ إِلَه ولاَ خَالِق ولاَ مُدبِّر إِلاَّ الله.

وأَمَّا الزُّهْد، فَهُو مِنْ مَنازِل العَوامِّ أَيْضا، لأَنَّه حَبْس النَّفْس عَنْ مُرادِها، وإِمْساكُها عَنْ فُضولِ الشَّهوَات، ومُخالَفة دَواعِي الهَوَى، وَتَرْك مَا لاَ يَعْنِي مِنَ الأَشْياءِ، وَهذَا أَيْضاً نَقْصٌ فِي طَرِيق الخَواصِّ، لأَنَّه تَعْظيم للدُّنْيا ومُبالاَة بِها، ورُجوع مِنَ العَبْد إِلى ذَاتِه وشُهودِه لِحسِّه، وإِنَّما الزُّهْد صَرْف الرَّغْبَة إِليْه تَعالَى، وتَعْلِيق الهِمَّة بِه، والاشْتِغال بِه عَنْ كُلِّ شَيْء يَشْغَل عَنْه، وهُو تَعالَى المُتولِّي لِحَسْم الشَّواغِل والكَافِي عَبْدَه ذَلِكَ.

قُلْتُ : وَهذَا أَيْضا منْ نَتائج التَّوْحيد، والعِلْم بأَنْ لاَ مَعبُود إِلاَّ الله تَعالَى، فَغيْره تَعالَى بَاطِلٌ مُتلاشٍ، لاَ يَسْتحقُّ أَنْ يُلتَفَت إِليْه فَضْلا عَنْ أَنْ يُبالَى بِه ويُعَظَّم، ولاَ فَاعِل إِلاَّ هُوَ تَعالَى، فَلاَ أَثَر للنَّفْسِ إِقْبالاً ولاَ إِدْباراً.

وأَمَّا التَّوكلُ، فَهُو للعَوام أَيْضاً، لأَنَّك تَكِلُ أَمْرَك إِلَى مَوْلاَك، وتَلْتجِئُ إِليْه لِيدَبِّر أَمْرَك ويَكْفِيك هَمَّك، وهَذا عِنْد الخَواصِّ خُروجٌ عَنِ التَوكلِ إِلَى الأَسْباب، لأَنَّك

1 ـ تضمين للآية : 107 من سورة يونس.

رَفَضْت الأَسْباب ووقَفْت مَع التَّوكُّل، فَصارَ التَّوكُّل بَدلاً عَنِ الأَسْباب، لأَنَّه صَارَ بِعيْنه هُوَ السَّبَب والحِرْفَة.

وحَقِيقَة التَّوكل عْنَد القَوْم، تَخْلِيص القَلْب مِنْ عِلَّة التَّوكُّل، وذَلِك أَنْ يُعْلَم أَنَّ الله لَمْ يَتْرُك أَمْراً مُهملاً، بَلْ فَرَغ مِنَ الأَشْياء وَقَدَّرَها، فَهُو تَعالَى يُدبِّر الأُمورَ وَيسُوق المَقادِير إِلَى أَوْقاتِها، فَلاَ يَنْفَع طَلَب ولاَ يَمْنَع تَوكُّل، فَلَم يَبْقَ للعَبْد إلاَّ السُّكون إِلَى سَابِق حِكْمتِه، وانْتظَار قِسْمتِه قَضاءً لِحقِّه تَعالَى، لاَ طَلَباً لِعِوَض.

قُلْتُ : وهَذا أَيْضا مِنْ نتائج التَّوْحيد، والعِلْم بانْفِرادِ الله تَعالَى بالمُلْك والتَّقْدِير، وأَنَّ عِلْمه تَعالَى ومَشِيئَته سَابِقان بِكُلِّ شَيْء، فَلَم يَبْقَ للعَبْد فِي سَعْيِه إلاَّ تَحْصيل حَاصِل، أَوْ طَلَب مَا لاَ يَحْصل، وكِلاهُما عَبثٌ وَضلاَل، فلاَ فَائِدَة فِي الأَسْبابِ مِنْ جِهَة الحَقِيقَة أَصْلاً، لَكِن مَنْ طُلِبَت مِنْه شَرْعا، بأَن أُقِيم فِيهَا، فَلاَبُدَّ 144 أَنْ يَشْتغِل بِها قَضاءً لِحقِّ الحِكْمَة التَّكْلِيفِية، غَيْر مُعْتَمِد عَليْها / ولاَ مُلْتفت بعقْلِه إِلَيْها، لأَنَّها لاَ أَثَر لَها جَلْبًا ولاَ دَفْعا، فَيكُون المُتسبِّب بِهذَا المَعْنَى مُتوكِّلا عَلى الله تَعالَى فِي سَببِه لاَ عَلَى سَبَبِه، فَيصِحُّ التَّوكلُ مَعَ وُجودِ الأَسْبابِ، كَما يَصِح مَع التَّجَرد[1] عَنْها.

وأَمَّا الصَّبْر، فَهُو مِنْ مَنازِل العَوامِّ أَيْضا، لأَنَّ الصَّبْر حَبْس النَّفْس عَلى مَكْروهِها، واللِّسانِ عَنِ الشَّكْوى وانْتِظارِ الفَرَج عِنْد عاقِبَتِه، وهُو فِي طَرِيق الخَاصَّة تَجلُّد ومُقاواةُ وجُرْأَة ومُنازَعة، فإِنَّ حاصِله رَاجِعٌ إِلى كِتْمانِ الشَّكْوى، والصَّبْر فِي الحَقِيقَة الخُروُج عَنِ الشَّكْوى، والتَّلذذِ بالبَلْوى والاسْتِبْشار باخْتيارِ المَوْلَى.

{مَراتِبُ الصَّبْر ثَلاَث}

وقَالُوا : إِنَّه عَلى ثَلاَثِ مَراتِب :

---

1 ـ وردت في نسختي ك و ح : التجريد.

الأُولَى، تَجرُّع مَرارَة المَكارِه رَجَاء الثَّوابِ وحَمِيد العَاقِبَة، وهَذا هُوَ التَّصبُّر لله، ومِثَاله أَنْ يُمْزَج للمَرِيضِ شُرْبَة مِنْ عَلْقَم وَضَرِيعٍ فِي غَايَة المَرارَة، فيَتَكلَّف شُرْبَها رَجاء البُرْء، وهُو صَبْر العَوَامِّ.

الثَّانِية، شُهود يُخفِّف بَعْض الأَلَم، وَيَذْهب بِبعْض المَرارَة، وهُوَ الصَّبْر بالله، ومِثَاله أَنْ يُمْزَج لِلْمَرِيض شُرْبَة مِنْ عَلْقَم وعَسَل، وهَذا صَبْر المُرِيدين.

الثَّالِثة، التَّلذذُ بالبَلْوى، والاسْتِبشَار باخْتِيار المَوْلى، وَهَذا هُو الصَّبْر عَلى الله، ومِثَاله أَنْ تمزَج[1] الشُّرْبَة مِنْ عَسَل وسُكَّر، ويُقال لَه الاصْطِبار، وهُوَ صَبْر العَارِفين.

قُلْتُ: وهُوَ نَتِيجَة التَّوْحِيد الخَاصِّ، وهُوَ الاسْتِغرَاق فِي الله تَعالَى، ونِسْيان النَّفْس وحُظوظِها، فَلاَ يَبْقى سُرُور إِلاَّ فِي اخْتيَار الله تَعالَى، ومَواقِع القَدَر ومَا قَبْلَه مَعْلوم.

وَأَمَّا الحُزْن، فَهُوَ مِنْ مَنازِل العَوامِّ أَيْضا، لأَنَّه تَوجُّع عَلى[2] الفَائِت، وفِيه نِسْيان المِنَّة والبَقاء مَعَ الطَّبْع، وذَلِك عِنْد الخَاصَّة حِجابٌ، فإِنَّ مَعْرِفة الله تَعالَى جَلاَّ نُورهَا كُلَّ ظُلْمَة، وكَشَف سُرُورها كُلَّ غُمَّة، ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾[3]. وَخَرَج عُتْبَة الغُلام[4] عَلى رَابعة العَدَوِية[5] وهُوَ فِي قَمِيصٍ جَدِيدٍ، يَتَبخْتَر فِيه ويَمْشِي عَلى خِلافِ عادَتِه، فَقالَت لَهُ : يا عُتْبَة مَا هَذا العُجْب الَّذي لَمْ أَرَ فِي شَمائِلك قَبْل اليَوْم ؟، فَقال : يَا رَابِعة، ومَنْ أَوْلى مِنِّي بِهذَا وقَدْ أَصْبَح لِي مَوْلى وأَصْبَحت لَهُ عَبْداً.

---

1 ـ وردت في نسخة ح : يمزج.

2 ـ وردت في نسخة ك : إلى.

3 ـ تضمين للآية : 58 من سورة يونس.

4 ـ عتبة الغلام الزاهد الخاشع الخائف، عتبة بن أبان البصري، كان يشبه في حزنه بالحسن البصري، استشهد في غزوة الروم. تهذيب السير/ 1 : 247.

5 ـ رابعة العدوية البصرية، الزاهدة العابدة الخاشعة، رابعة بنت إسماعيل، لها سيرة في جزء لابن الجوزي، قيل : عاشت ثمانين سنة. تهذيب السير/ 1 : 288.

قُلْتُ : وَذلِك مِنْ نَتائِج التَّوْحِيد، ومَعْرِفَة الله تَعالَى، فَمَنْ عَرَف الله وَجَده، ومَنْ وَجَد الله لَمْ يَفْتَقِد شَيْئا، كَمَا أَنَّ مَنْ فَقَد الله لَمْ يَجِدْ شَيْئا، إِذْ فِي اللَّهِ الكِفَايَة عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، ولاَ يَكْفي عَنِ اللَّهِ شَيْءٌ كَما قِيلَ :

لِكُلِّ شَيْء إِذَا فَارقْته عِوَض ❖❖❖ ولَيْس للهِ إِنْ فَارَقْت مِنْ عِوَض

وأَمَّا الخَوْف، فَهُو أَيْضا مِنْ مَنازِل العَوامِّ، لأَنَّه حَذَر مِنْ سَطوَات العَذاب، ونُفوذِ الوَعِيد، ولَيْس عِنْد الخَواصِّ خَوفٌ، لأَنَّهُم شَاهدُوا المَبْلِي فِي البَلاَء وَالمُعذَّب فِي العَذاب، فَصارَ الوَعِيد وَعْداً والعَذَاب عَذْباً فِي جَنْب مَا شَاهَدُوا، ورُبَّما يُؤَدِّيهم ذَلِك إِلى أَنْ يَطْلُبوا العَذَاب ويَلْتَمِسوا العِقَاب، كَمَا قِيل وتُروَى[1] لأَبِي يَزِيد[2] :

أُرِيـدُك لاَ أُرِيـدُك للثَّـوَابِ ❖❖❖ ولَكِنِّـي أُرِيـدُك لِلْعِقــابِ
فَكُلُّ مئَاربي قَدْ[3] نِلْتُ مِنْها ❖❖❖ سِوى مَلْذُوذ وَجْدٍ بالعَـذَاب
وكَيْف أَرَى مُرادَكُم بَلاءً ❖❖❖ وفِي مَضْمونه كَشْفُ الحِجاب[4]

ولِلْعَارِفين الهَيْبَة، وهِيَ أَقْصى دَرَجة يُشَار إِلَيْها فِي غَايَة الخَوْف، ولَيْسَت كالخَوْف، فإِنَّ الخَوْفَ يَزولُ بالأَمْرِ، والهَيْبَة لاَ تَزولُ أَبداً، لأَنَّها مُسْتَحقَّة للهِ تَعالَى بِوصْف التَّعْظيمِ والإِجْلالِ.

145 / قُلْتُ : وقَدْ مَرَّ ذَلِك، وأَنَّ مَعْرِفَة عَظَمة الله تَعالَى، وهِي مَعْنى مَجْمُوع مَا وَجَب لَهُ تَعالَى منَ الاتِّصافِ بالكَمالِ كُلِّه، والتَّنَزه عَنِ النَّقْص كُلِّه، تُوجِب

1 ـ وردت في نسخة ق : وترى.
2 ـ طيفور بن عيسى أبو يزيد البسطامي سلطان العارفين، (188 / 261هـ)، شيخ الصوفية الزاهد من بسطام ببلاد خراسان، يعرف أتباعه بالبسطامية، له مقالات كثيرة. تهذيب السير/ 1 : 506. حلية الأولياء/ 10 : 33
3 ـ ورد في نسخة : ح : وقد.
4 ـ نسبت الأبيات للحسن بن منصور الحلاج حسبما جاء في تاريخ بغداد.

الهَيْبَة، وذَلِك بَعْدَ الغَيْبَة عَنْ نَفْسِه ونوازِع حُظوظِه، حَتَّى لاَ يَبْقَى إلاَّ الله تَعالَى عَلَى نَعْت الكَشْفِ والمُشاهَدة، فَيحْصُل ذَلِك، ونَحْنُ لَمْ نَصِل إلى هَذِه المَدارِج، ولَكِنَّا نَفْهَم ذَلِك بالمُقايَسة فِي المِثَال المَشْهود.

فَنقُول ولله المَثَل الأَعْلى : لَوْ أَنَّ رَجُلا مُسافِرا اسْتَقبَل أَجَمَة، فَقِيل لَهُ إِنَّ بِها الأَسَد وهُو بَعْد لَمْ يَسْمَع زَئِير الأَسَد، ولاَ رَأَى شَخْصَه، فَهُو إِنْ صَدَّق المُخْبِر يَحْصُل[1] لَه تَوقُّع وحَذَر عَلى نَفْسِه وعَلى دَابَّته أنْ يَفْتَرِسَه الأَسَد، وهَذا هُو حَقِيقة الخَوْف.

ثُمَّ إِذَا دَنا مِنَ الأَجَمَة فَسَمِع زَئِير الأَسَد، تَحْصُل لَه حَالَةٌ أُخْرى مِنَ الخَوْفِ قَوِيَّة، فَرُبَّما غَلَبَ عَلْيه الخَوْف حَتَّى يَنْسى دَابَّته، ولاَ يَبْقى إلاَّ فِي نَفْسه، ورُبَّما يَنْسى نَفْسَه أَيْضا. ثُمَّ إذا دَخَل الأَجَمَة فَخرَج عَلْيه الأَسَد فَاغِراً فَاه ضارِبا بِذَيْله، فَهُو إِنْ لَمْ يَكُن قَوِيَّ الجَأْشِ مُتعوِّدا ذَلِكَ، تَحْصُل لَهُ حَالَة أُخْرى، وهِيَ أَنْ يَبْقى مَرْعُوبا مَبْهوتاً يَنْسى نَفْسَه ودَابَّته ورَفِيقَه، وإِذَا نَسِيَ نَفْسَه لَمْ يَحْذَر عَلَيْها، فلاَ مَعْنى للخَوْفِ عِنْده، إِذِ الخَوْف إِنَّما هُوَ تَوقُّع شَرٍّ مُسْتَقبل، وَهذَا لاَ يَتوقَّع شَرّاً، إِذ قَدْ ذَهَب عَنْه محَل الشَّر المُتوقَّع، وهُو نَفْسه ودَابَّته ونَحْوهُما، بِما شَغَل بَاطِنَه مِنْ عَظمَة الشَّخْص المَرْئِي، فَلَم يَتفرَّغ بَاطِنُه للحَذَر عَلى شَيْء، وهَذا هُو مِثال الهَيْبة المُشَار إِلَيْها.

وأَمَّا الرَّجاء، فَهُو انْتِظَار غَائِب وطَلَب مَفْقود، وهَذا أَيْضا مِنْ أَضْعَف مَنازِل العَوامِّ، وإِنَّما ذُكِرَ فِي التَّنْزيل ووَقَع فِي السُّنة لِفائِدَة وَاحِدَة، وهِيَ تَبْريد نَار الخَوْف، لِئلاَّ يُفْضِيَ بِصاحِبه إلى اليَأْس، فَهُو دَواء لِمَرَض الخَوْف، وهَذا المَرَض لاَ يَعْرِض إلاَّ لِعوامِّ أَهْل هَذِه الطَّرِيقَة. وأَمَّا الخَواصُّ فالرَّجاء عِنْدَهم شَكْوى

1 ـ ورد في نسخة ق : يجعل.

وَعَمى، لأَنَّ العَبْد مِنْ سَيِّده عَلى سَبِيل البِرِّ والجُود غَرِيق فِي ذَلِك، وَلَم يَدَعْ لَهُ مَا شَاهَد مِنْ مَوْلاَه مُسْتزاداً، ولاَ تَرَكَ لَهُ وجُودُه غَرضاً. وسُئِل بَعْضُهم مَا مُرادُ العَارِف؟ فَقالَ دَوامُ المَعْروفِ، أَشَار بِذَلك إِلَى أَنَّ مُرادَه بَاقٍ، لأَنَّ مَعْروفَه دَائِم لاَ يَفْنى.

قُلْتُ : وَهذَا أَيْضا مِنْ نَتائِج التَّوْحيد عَلى مَا مَرَّ تَقْرِيره فِي الحُزْن.

وأَمَّا الشُّكْر، فرُؤْيَة النِّعَم تَوالَت عَلى مُعْطاهَا، والقِيَّام بِحقِّها والإِقْرار بِوجُودِها، ويَفْتقِر الشُّكْر إِلى مَعْرِفة النِّعْمَة وقُبولِها والثَّناءِ بِها، وهُوَ مِنْ مَنازِل العَوامِّ، لأَنَّه مُعاوَضة طَوْلِه بِحوْلِك، ومُقابَلة نِعْمتِه بِقَوْلِك، وإِنَّما لَمْ يَكُنْ مِنْ مَنازِل الخَواصِّ، لأَنَّهُم رَأَوْه قِياماً بِمُكافَأَة المُعْطي وَهرباً[1] مِنْ رِقِّ المِنَّة.

فَالشُّكْر عِنْد القَوْم أَنْ لاَ[2] يُشاهَد فِي حَالِ النِّعْمَة سِوَى المُنْعِم، فَإِذا شَاهدَه عَبُودِية اسْتَعْظَم مِنْه النِّعْمة، وَإِذَا شَاهدَه حَياءً اسْتَحلَى فِيه الشِّدة، وإِذَا شاهَده تَفْريداً، لَمْ يُشاهِد مِنْه شِدَّة ولاَ نِعْمَة، فَيكُون فِي شُغْلِه بِه واسْتِغْراقِه فِيه وغَيْبَته فِي حَالِ شُهودِه، شُغْلٌ لَهُ عَنْ مَعْرِفَة المِنْحَة والمِحْنَة.

قُلْتُ : وهَذا أَيْضاً مِنْ نَتائِج التَّوْحِيد، ومَعْرِفة الله تَعالَى، والاسْتِغرَاق فِيه، والفَناء بِه عَمَّا سِوَاه كَمَا مَرَّ.

وأَمَّا المَحبَّة، فَهِيَ آخِر مَنْزِلَة تَلْتقِي فِيهَا مُقدِّمَة العَامَّة بِسَاقَة الخَاصَّة. وقَد اخْتَلَفَت إِشارَات أَهْل التَّحْقِيق فِي العِبارَة عَنْها، وكُل نَطَقَ بِحَسبِ ذَوْقِه، وانْفسَحَ لَه مِقدَار شَوْقه، وهِي عَلى الإِجْمال قَبْل أَنْ تَنْتهِي إِلى التَّفْصيل، وُجُود 146 / تَعْظِيم فِي القَلْب يَمْنَع الشَّخْص الانْقِياد لِغَيْر مَحْبوبِه، وقِيل : إِيثار المَحْبوب عَلى غَيْرِه، وقِيل : غَيْر ذَلِكَ.

1 ـ وردت في نسخة ق : هرب.
2 ـ ردت في نسختي ق و ك : ألا.

فأَمَّا مَحبَّة العَوامِّ، فَهِي مَحبَّة تَثْبُت مِنْ مُطالَعة المِنَّة، تَقْطَع الوَسْواس، وتَلِذُّ الخِدْمة، وتُسَلِّي عَنِ المَصائِب.

قُلْتُ : وهَذِه أَيْضا مِنْ نَتائج التَّوْحيد، غَيْر أَنَّ الأُولَى مِنْ مَعْرِفة ذَاتِه، واسْتِطْلاع جَمالِه. والثَّانِية مِنْ مَعْرِفَة صِفاتِه، والنَّظَر إِلى إِحْسانِه وإِنْعامِه، والكُلُّ دَاخِل فِي مَضْمون الكَلِمَة المُشرفَة.

وأَمَّا الشَّوْق، فهُو انْتِظار إِلى غَائِب وَإِعْوَاز الصَّبْر عَلى فَقْده، وهُوَ مِنْ مَقامَات[1] العَوامِّ. وأَمَّا الخَواصُّ، فالشَّوْق عِنْدَهم عِلَّة عَظِيمة، لأَنَّه إِنَّمَا يَكُون إِلى غَائِب، ومَذْهَب هَذِه الطَّائِفة إِنَّمَا قَام عَلى المُشاهَدة، ولِهذَا المَعْنَى لَمْ يَنْطِق بالشَّوْق كِتابٌ ولاَ سُنَّةٌ صَحِيحةٌ، لأَنَّ الشَّوْقَ مُخْبِرٌ عَنْ بُعْد، ومُشِيرٌ إِلى غَائِبٍ ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[2].

وقَال قَائِلهم :

ولاَ مَعْنى لِشكْوى الشَّوْق يَوْماً ❖❖❖ إِلَى مَنْ لاَ يَزُول عَنِ العِيانِ

{وُجُوهُ النَّظَر فِيمَا يَفْهَمُه الذَّاكِرُ عِنْدَ التَّأَمُّلِ فِي الكَلِمَة المُشرفَة وَاسْتِحضَارُه مِمَّا يَتقرَّرُ مِنْها وَيَتحَصَّلُ}

قُلْتُ : وهَذا أَيْضا كالَّذي قَبْله، تَحْرِيرٌ بِذِكْر وُجوهٍ منَ التَّقْرير، وإِذْ فَرَشْنا فِيمَا مَرَّ بَعْض مَا يَنْطَوِي تَحْتَ ذَيْل الكَلِمَة المُشرفَة، مِنْ عَلِيِّ الصِّفات وسَنِيِّ الحَالاَت، وظَهرَ مِنْ ذَلِك مَا يَفْهَمه الذَّاكِر عِنْد النُّطْق بِها، ومَا يَسْتَثْمِره[3] بِسَببها، فَلْنَستَأْنِف الآنَ النَّظَر ثَانِيا فِي كُلِّ مَا يَفْهَمه الذَّاكِر عِنْدها إِذَا تَأَمَّل، ومَا يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَحْضِره مِمَّا يَتقرَّر مِنْها ومَا يَتَحصَّل، وذَلِك وُجُوه :

1 ـ وردت في نسخة ق : مقدمات.
2 ـ تضمين للآية : 4 من سورة الحديد.
3 ـ وردت في نسخة ق : يستمده.

الوَجْهُ الأَوَّل : أَنْ نَعْتبرَ[1] مَا مَرَّ مِنَ الكَمالاَت الثَّابتة للهِ تَعالَى، <وأَنَّها مُنْدرجة فِي طَيِّ الأُلوهِية المَقْصُورَة عَلى الله تَعالَى، المَنْفِية عَنْ غَيْره، فإِذَا ذَكَر الذَّاكِر الكَلِمة المُشرفَة فَهِم أَنَّ تِلْك الكَمالاَت كُلِّها ثَابتة لله تَعالَى،>[2] وعَلِمَ مِمَّا مَرَّ فِي التَّقْرير أَنَّ كُلاًّ مِنْها يَسْتَثْمِر حَالاً تُناسِبه، فَلاَ يَزَال الذَّاكِر مَع المُداوَمة إِنْ أُيِّد بالتَّوْفِيق، يَتجلَّى قَلْبه بِتْلكَ الاعْتِقادَات وبِنتَائِجها المَذْكُورات، حَتَّى يَنْصَبِغ بذَلِك وَهُوَ فَائِدَة دَوَام الذِّكْر، فَيَتَّفِق قَلْبُه وَقالَبُه، وَيَجْتَمِع شَاهِدُه وَغائِبُه، وعِنْد ذَلِك يُحْرِز[3] المَقامَات ويَبْلُغ النِّهايَات.

الوَجْه الثَّانِي : أَنْ نَعْتبر[4] أَنَّ الإِلَه لُغَة، هُو المَعْبود كَما مَرّ، والعِبادَة الخُضوع والانْقِياد، ويَكون الخُضُوع تَارَة بالقَلْب وتَارةً بالقَالَب، أَمَّا الأَوَّل فَيرْجِع إِلى المَحبَّة والمَيْل، والإِذْعان والتَّعْظِيم والإِجْلاَل. وأَمَّا الثَّانِي فَيرْجِع إِلى الخِدْمة والطَّاعَة والامْتِثال والإِقْبال، وذَلِك نَتِيجَة مَا فِي القَلْب، فإِنَّ القَلْب هُو أَمِير الجَسَد.

إِذا تَقرَّر هَذا، فَمتَى قَال الذَّاكِر «لاَ إِلَه إِلاَّ الله»، فكَأَنَّه يَقُول لاَ مَحْبوب ولاَ مُمِيلا إِليْه، ولاَ مُعَظَّم ولاَ مَخْدوم، ولاَ مُطَاع إِلاَّ الله تَعالَى، وعِنْد ذَلِك نَقُول : مَتى أَحبَّ غَيْر الله تَعالَى أَوْ مَال إِلَى غَيْر الله، أَوْ خَدَم غَيْر الله، أَوْ أَذْعَن، أَوْ خَضَع لِغيْر الله فِي الجُمْلَة، فَقَد انْتَقَض عَليْه هَذا النَّفْي، ولَم يَصْدُق فِي دَعْواه أَنْ «لاَ إِله إِلاَّ الله».

فإِذَا وجَدْناه يَمِيل إِلى الدُّنْيا والدِّرْهم، والزَّوْجَة والوَلَد، والجَاه والرِّياسَة، وغَيْر هَذا مِنَ الشَّهوَات، عَلِمْنا أَنَّه أَثْبَت إِلهاً آخَر، بَلِ آلِهة كَثِيرَة، وكَيْف إِذا كَانَ مَشْغولاً بِها مشْغُوفاً بِمَطايِبها وَمُنْتَشِباً طُول دَهْرِه فِي مَخالِبها، فلاَ يَخْدم غَيْرها،

1 ـ وردت في نسخة ح : تعتبر.
2 ـ ساقط من نسخة ك.
3 ـ وردت في نسخة ح : يحوز.
4 ـ وردت في نسخة ح : تعتبر.

ولاَ يَسِير إلاَّ سَيْرَها، فَأَيُّ مَعْنى للعِبادَة إلاَّ ذَلِك، وأَيُّ مَعْنى للإِلَه إلاَّ تِلْك الشَّهْوة المَعْبودَة، ولِهذَا سُمِيَّ الهَوَى إلِها، قالَ تَعالَى :﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾[1].

147 / وعَلى مُقْتَضى هَذا، كَانَ عَلى الذَّاكِر لِهذِه الكَلِمة المُشرفَة، أَنْ يُشمِّر عَنْ سَاق الجِدِّ فِي تَفْريغ قَلْبه وقَالَبه مِنَ الشَّهوَات الَّتِي يَعْبُدها، والرُّعونَات[2] الَّتِي هُو أَسِيرُها، لِيَصحَّ بِذلِكَ أَنَّه لَيْس لَهُ معْبُود غَيْر الله تَعالَى، فَيصْدُق فِي قَولِه «لاَ إلَه إلاَّ الله»، وإلاَّ كَان قَائِلاً بِلسَانه مَا لَيْس فِي قَلْبِه، فَيكُون مُنافِقا، نَسْأَل الله التَّوْفِيق والعِصَمة مِنَ الهَوى، فإِنَّه شَرُّ رَفِيقٍ.

{انْقِسَامُ النَّاسِ فِي ذِكْر الكَلمَة المُشرفَة إلَى عَامَّة وَخاصَّة}

فانْقَسم النَّاس فِي ذِكْر هَذِه الكَلِمَة المُشرفَة عَلى قِسْمَيْن:

القِسْم الأَوَّل : العَامَّة، ومُرادُهم منْها نَفْي الشِّرْك الظَّاهِر، وذَلِك بِتنْزِيه الله تَعالَى عَنْ أَنْ يَكون لَه شَرِيك فِي الأُلوهِية، وفِي اسْتحقَاقِ العِبادَة، فَمشْرَبُهم مِنْها غَسْل البَاطِن مِن كُلِّ شِرْك صُراح، كَشِرْك الثِّنْويَة والوَثنِية والمُثلِّثة مِنَ النَّصارَى ونَحوهم، وبِذَلك يَثْبُت لَهُم الإِسْلام، فَيخْرجون مِنْ سَوادِ الكُفَّار[3]، وينْجَوْن بِفضْل الله مِنَ الخُلودِ فِي النَّار، وهَذا المَعْنى الظَّاهِر هُو الَّذِي قَرَّرناهُ[4] فِي المَقْصِد الأَوَّل، بِناءً عَلى أَنَّ الإِلَهَ هُو المُسْتَغْنِي عَنْ كُلِّ مَا سِواه، المُفْتَقَر إلَيْه كُلّ مَا عَدَاه، أَو هُوَ المُستَحق للعِبادَة.وهَذا القَدْر قَدْ حَصلَ لِعوامِّ المُؤْمِنين، وقَد حَصَل لَهُم فِيه تَخْلِية وتَحْلِية تُناسِب مَقامَهم، بِحسَب مَا اشْتمَلت عَليْه الكَلِمة المُشرفَة مِنْ نَفْي وإِثْبات، فالنَّفْي يَقْتَضي التَّخَلي عَنِ الشِّرْك، وذَلِك باعْتِقاد أَنَّ لَيْس مَعَ الله مُتَّصِف بِالأُلوهِية وَلاَ مُسْتَحِق لِلعِبَادَة، وَالإِثْبات يَقْتَضِي التَّحَلي بِالتَّوْحِيد،

1 ـ الجاثية : 23.
2 ـ وردت في نسخة ك : الرعونة.
3 ـ وردت في نسخة ك : الكفر.
4 ـ وردت في نسخة ح : قررنا.

وَذَلِك بِاعْتِقَاد أَنَّ الله جَلَّ اسْمُه هُوَ المُتَّصِف بالأُلوهِية المُسْتحِق للْعبَادَة، ومَنْ لَمْ يَحْصُل لَه هَذا القَدْر، لَمْ يُضْرَب لَه فِي الإِسْلام بِنصِيبٍ.

القِسْم الثَّانِي : الخَاصَّة، ومُرادُهم مِنْها نَفْي الشِّرْك الخَفِي، زِيادَة عَلى نَفْي الشِّرْك الظَّاهِر، وذَلِك بتَنْزِيه الله تَعالَى عَنْ أَنْ يَكونَ مَعه مَنْ يَسْتحِق أَنْ يُلْتفَت إِليْه ويُشْتغَل بِه إِلاَّ بإِذْن الله [تَعَالَى][1]، فمَشْرَبهُم[2] مِنْها غَسْل البَاطِن مِنَ الالْتفَات إِلى الأَغْيار، والاسْترقَاق لِغَير الوَاحِد القَهَّار، وتَحْصُل لَهُم[3] فِي هَذا المَطْلَبِ التَّخْلِية والتَّحْلِية، الَّتِي تُناسِب مَقامَهم الشَّرِيف ومَنْصِبَهُم المُنِيف.

وذَلِك أَيْضا بِحَسبِ النَّفْي والإِثْبات :

فالنَّفْي يَقْتَضي انْتِفاء كُلِّ مَأْلوه أَيْ مَعْبود، فيَتَخلَّى القَلْب مِنْ كُلِّ مَا يَسْتعبده مِنَ الأَغْيار، كالمَالِ والوَلَد والجَاه وجَمِيع الحُظوظِ، وهُوَ كُلُّ مَا فِيه للنَّفْس مَنْصِب، إِمَّا حِسِّي كالدِّينار والدِّرْهم، والمَرْكوبِ والمَلْبوسِ ونَحْو ذَلِك. وإِمَّا مَعْنوِي، كالجَاه والحُظْوَة والعِزِّ، وكالوِلايَة وظُهور الكَرامَة، وارْتِفاع المَقامَة[4]، ومَزِيد القُرْب، وصَفاء الشُّرْب ونَحْو ذَلِك، ويَتفرَّغ مِنْ جَمِيع ذَلِك، <بَلْ>[5] ومِنَ الكَوْنيْنِ جَمِيعا، ويَرى الكُلَّ عَدماً فتَنْغسِل[6] مِنْ بَاطِنه أَدْرانُها، ويَضْمحِلُّ دُخَّانُها.

والإِثْبات يَقْتَضي وُجود الله تَعالَى المَلْك الحَق، لاَ إِلَه إِلاَّ هُو، فَيَتحلَّى القَلْب باعْتِقاده، مَوْصوفاً بِأَوْصافِ الكَمالِ، مُرْتدِيا[7] بِردَاء الجَلاَل والجَمالِ، لاَ إِلَه غَيْره، ولاَ مَعْبُود سِوَاه، تَبارَك الله ربُّ العَالَمِينَ.

---

1 ـ سقطت من نسختي ق و ح.
2 ـ وردت في نسخة ك : ومشربهم.
3 ـ وردت في نسخة ك : له.
4 ـ وردت في نسخة ح : المقامات.
5 ـ سقطت من نسخة ك.
6 ـ وردت في نسختي ق و ك : فينغسل.
7 ـ وردت في نسختي ق و ك : مترديا.

تَنْبِيــه : {طَاعَة رَسُول الله وَأُولِي الأَمْر وَتَعْظِيم حُرُمات الله أُمُورٌ مَحْمُودَةٌ غَيْر مُناقِضَة للتَوْحِيد}

ومَا ذَكَرْنا فِي هَذا المَطْلَب، مِنْ تَخلِّي القَلْب عَنِ الأَغْيار، وتَفرُّغِه مِنَ الالْتِفَات إِلَى مَا سِوى الفَاعِل المُخْتار، إِنَّما هُو مَطْلوبٌ حَيْث يَكون الالتِفات إِلى الأَغْيارِ مَذْموماً، مُوجِبا للشِّرْك الخَفِيِّ، وذَلِك حَيْث لَمْ يَكُن مِنَ اللهِ إِذْن فِيه ولاَ أَمْرٌ بِه، وإِنَّما العَبْد سَاعٍ لِنفْسِه بِنفْسِه، وعَابِد لِهوَاه.

148 / أَمَّا إِذا كَان مِنَ الله طَلَبٌ فِي ذَلِك، فَلَيْس بِمذْموم ولاَ مُناقِض لِلتَّوْحِيد،ولاَ مُوجِب للشِّرْك، لأَنَّ الالتِفَات إِذْ ذَاك امْتِثال لأَمْر الله تَعالَى وطَاعَة[1] لَه، فالمُطَاعُ حِينَئِذ والمَعْبود وَاحِد وَهُو الله تَعالَى، وإِنَّما تَنوَّعَت العِبادَة واخْتَلَفت الخِدْمَة، والرَّب فَاعِل مُخْتار، يَأْمُر بِأَيِ نَوْع شَاء مِنَ العِبادَة، ويَطْلُب أَيَّ صِنْف شَاء مِنَ الخِدْمة﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[2].

ولِهذَا لَمَّا أَمَر الله تَعالَى بِطَاعَة الرُّسُل وطَاعَة أولِي الأَمْر، وتَعْظِيم حُرُمَات الله عَلَى الجُمْلَة، كَان ذَلِك كُلُّه مَحموداً غَيْر مُناقِض للتَّوْحِيد، لأَنَّ المُطَاعَ فِي الكُلِّ والمُعظَّم هُو الله تَعالَى، وكَذا القَوْل فِي الأَسْباب العَادِية، وهِيَ كُلُّ مَا يُسْتَجلَب بِه نَفْعٌ أَوْ يُستَدْرَأُ به ضُرٌّ فِي العَادَة، كالطَّعام للإِشْبَاع، والمَاء للإِرْواء، واللِّباس للسِّتْر، والسَّيْف للقَطْع، والتِّجارَة لتَنْمِيَة المَال، والزِّراعَة لتَنْمِيَة الزَّرْع، والنِّكاح لِبقَاء النَّوْع، والعِلاَج لِذهَاب المَرَض، إِلى غَيْر ذَلِك، مَتَى كَان الأَمْرُ مِنَ اللهِ تَعالَى، أو الإِذْنُ بالنَّظَر إِلِيْها نَوْعاً مِنَ النَّظَر، فَلَيْس النَّظَر إِلِيْها مُناقِضا للتَّوْحِيد كَمَا ذَكَرْنا.

{أَحْوالُ النَّاس فِي النَّظَر إِلَى الأَسْبَابِ العَادِيَة}

واعْلَم أَنَّ لِلنَّاسِ فِي جَمِيعِ ذَلِك أَحْوالاً :

1 ـ وردت في نسخة ك : طاعته.

2 ـ تضمين للآية : 23 من سورة الأنبياء.

الحَالَة الأُولَى : حَالَة أَنْ يَلْتفِت إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِك، عَلى أَنَّه يَسْتحِق أَنْ يُعْبَدَ، كالنَّصارى فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكالجَاهِلية فِي أَصْنامِهم، وفِي مَعْناه مَنْ يَلْتفِت إِلَى شَيْءٍ منْ ذَلِك عَلى أَنَّه مُؤَثِّر كالطَّبائِعيين فِي الطَّبائِع، والفَلْسفِيين فِي العِلَل، فَهذَا كُلُّه كُفْر، لأَنَّه إِبْطال للْوحْدَانية، إِمَّا وَحْدانِية الذَّات وإِمَّا وَحْدانِية الصِّفاتِ، وفِي مَعْنى ذَلِك <أَيْضاً>[1] مَنْ يَلْتفِت إِلى شَيْءٍ مِنْ تِلْك الأَسْباب، عَلى أَنَّها ارْتبَطَت بِمنَافِعها ارْتِباطاً عَقْليا، لاَ يَصِح[2] فِيه الاِنْفِكاك عَقْلاً، لأَنَّ ذَلِك والعِياذُ بالله سَلْبٌ للاخْتِيار عَنِ الفَاعِل المُخْتارِ.

الحَالَة الثَّانِية : حَالَة مَنْ يَلتَفِت إِلى ذَلِك، عَلى أَنَّه أَمْر عَادِي ولاَ تَأْثِير لَه ولاَ أُلوهِية، لانْفِراد المَوْلى تَبارَك وتَعالَى بالأُلوهِية وخَواصِّها، ولَكِن لِفرْط غَفْلَتِه واسْتِيلاَء الحُظُوظ النَّفْسانية عَليْه، يَهْتَم بِه ويَعْكِف عَلَيْه، ويَعْتبِره اعْتِبار مَنْ يَرى أَنَّه إِلَهٌ، أَوْ مُؤثِّرٌ، فَهَذا مُوحِّد بِقلْبه وبَاطِن اعْتِقادِه، مُشْرِك بِفعْلِه ووَهْمِه، وهَذِه حَالَة أَهْل الغَفْلَة مِنْ عَوامِّ المُؤْمِنينَ أَمْثالنا. وتَقدَّم تَقْرير هَذِه الحَالَة، وسَبَبُها عَدَم تَمكُّن الإِيمَان والتَّوْحِيد مِنَ القَلْب، بِحَيْث يَرْسَخ فِيه رُسوخاً حَالِياً ذَوْقِيا، فَيغْلُب عَلَيْه.

وإِنَّما وَقعَ التَّصْدِيق فِي القَلْب، وهُو مَشْحون بالشَّهوَات والرُّعونَات، مَغْلوب بِها، وتِلْك الشَّهوَات والرُّعونَات مِنْ نَتائِج الكُفْر، وثَمرَات الجَهْل لاَ الإِيمَان وَالمَعْرِفَة، فَصارَت[3] الأَعْمَال جَارِيَة عَلْيها لأَنَّها هِيَ الغَالِبَة، وبَقِي الإِيمَان الَّذِي فِي القَلْبِ لاَ ثَمرَة لَهُ، فَصارَ العَمَل عَمَل كَافِر، وَالاعْتِقَاد اعْتِقَادَ مُؤْمِن.

ومِثَال هَذا وَالٍ فِي البَلَد يُسْتضعَفُ ويُتمرَّدُ عَلَيْه، حَتَّى لاَ يَبْقى لَه تَصرُّف، بَلِ النَّاس يَتصرَّفون عَلى مُقْتَضى هَواهُم، وهُمْ لاَ يقدرون مَثلا على قَتْلِه وَلاَ عَزْلِه،

---

1 ـ سقطت من نسخة ح.

2 ـ وردت في نسخة ك : يصلح.

3 ـ وردت في نسختي ق و ك : فصار.

لِتوَقُّع عَادية الخَليفَة، أَوْ لِتحَصُّنِه مَثلاً، فَتجِد هَؤُلاء يُنادُون بِاسْم الوَالِي، وفِعْلُهم فِعْل مَنْ لاَ وَالِي لَهُ.

وكَذا رُوح هَذا العَامِّي الغَافِل، تَمرَّدَت عَليْها الجَوارِح، وجَرَت عَلى حُكْم الهَوى والشَّيْطَان، ولَوْ سُلِّط الشَّيْطان عَلى رُوحِه لَكانَ كَافِراً، ولكِن تَحصَّن 149 / بِعصْمَة الله تَعالَى ولُطْفِه، فَصارَت الجَوارِح جَوارِح المُؤْمِن، وهِي كَأَنَّها جَوارِح مَنْ لاَ إِيمَان لَه.

الحَالَة الثَّالِثة : حَالَة مَنْ لاَ يَلتَفِت إِلى ذَلِك، امْتِثالاً لأَمْرِ الله تَعالَى فِي الالْتِفاتِ إِليْه، واقْتِضاءً لِحكْمَة الله تَعالَى فِي اعْتِبارِه، والنَّظَر إِليْه، وهَذا لاَ يَرى لِشَيْء مِنْ هَذِه الأَكْوانِ أُلوهِية ولاَ تَأْثِيراً لِصحَّة تَوْحِيده، وسَلاَمتِه مِنَ الشُّكوكِ، ولاَ يَكِبُّ عَليْها بِمُقتَضى شَهْوَتِه وإِلْفِ طَبْعِه، لِتيَقُّظِه وسَلامَتِه مِنَ الغَفْلَة، وهَؤُلاء هُم خَاصَّة المُؤْمِنين، أَوْلِياء الله تَعالَى، فَهُم وإِنْ نَظرُوا إِلَى هَذِه الكَائِنات بِعيُون الأَبْصارِ مَوْجودَة، يَنْظُرون إِليْها بِعيُون البَصائِر مَعْدُومَة مُتلاَشِية، إِذِ العَدَم لَها مِنْ ذَاتِهَا، فَلَم يَقِفُوا عِنْدَها بَلْ نَفَذُوا إِلَى خَالِقهَا ومُبرِزها، وهُوَ الله تَعالَى، الَّذِي لَهُ المُلْك والأَمْر، وبِيَدِه النَّفْع والضُّر، كَمَا قَال قَائِلُهم :

مَا أُبِينَـت لَـكَ المَعالِـم إِلاَّ ❖❖❖ لِترَاها بِعَيْن مَنْ لاَ يَراهَـا
فَارْقَ عَنْها رُقِيَّ مَنْ لَيس يَرْضى ❖❖❖ حَالةً دُونَ أَنْ يَرَى مَوْلاَها

وعَلِموا أَنَّها مَا أُبْرِزت لِلوُجودِ، إِلاَّ لِيتَجلَّى فِيهَا الحَقُّ تَعالَى لِعبَادِه المُتفَكِّرِين، وتُعْرَف أَوْصافُه وأَحْكامُه وحِكَمُه، تَفضُّلا مِنْه تَعالَى عَلى عِبادِه بِهذِه الحِكَم والمَصالِح، فَجعلُوا يَسْتثْمِرون هَذِه الثِّمار، ويَسْتَنتِجون هَذِه النَّتائِج عَلى الدَّوامِ، وهِي البِحَار الَّتِي غَاصَ فِيها أُولُوا النُّهَى، وخَاضَ فِيها العَارِفونَ، فَمقِلٌّ ومُكْثِر،

ولَيْس لِهذِه البِحَار سَاحِلٌ، نَسْأَل الله تَعالَى أَنْ يُنِيلنَا مِنْها الحَظَّ الأَوْفَى، وأَنْ يُنْقع غُلَّتنَا مِنْ وِرْدِها الأَصْفى، وأَنْ يَجْعلَنا مِنْ عِبادِه الَّذِينَ خَلقَهُم لِيرْبحُوا عَليْه. فَهؤُلاَء مَتى قَالُوا «لاَ إِلَه إلاَّ الله»، فَهُم صَادِقون فِي قَوْلِهم[1]، إِذْ لَيْس لَهُم مَعبُود سِوى الله تَعالَى، وكُلُّ مَا سِوَى الله تَعالَى فَليْسَ بِمعْبودٍ لَهُم، إِذْ لَمْ تَسْتعبِدْهم الكَائِنات كَما اسْتعبَدَت الغَافِلِين، ولاَ خَدمُوها بَلْ هِيَ الَّتِي تَخْدِمهم، فَقوْلُهم «لاَ إِلَه إلاَّ الله» تَطابَق فِيه اعْتِقادُهم ومَا فِي نَفْس الأَمْر، وجَرَت عَليْه أَفْعالُهم وأَحْوالُهم، فَقَد صَدَّقوا قَوْلَهم بِفعْلِهم واعْتِقادِهم، واسْتَوى ظَاهِرُهم وبَاطِنُهم، فَسلِموا مِنَ النِّفَاق، فَهُم الصَّادِقون المُخْلصُون، نَسْأَل الله تَعالَى أَنْ يَجْعلَنا مِنْهُم.

وأَمَّا الغَافِلون، فَمتَى قَالُوا «لاَ إِلَه إلاَّ الله»، كَان بِحسَب نَفْس الأَمْر حَقًّا، وهَذا لاَ مَزِيَّة فِيه لِقائِل، إِذْ لَوْ قَالَه المُنافِق الصِّرْف كَان كَذلِك، وأَمَّا بِحَسبِ اعْتِقادِهم وفِعْلِهم فَليْس كَذلِك، إِذْ لَهُم مَعْبودَات كَثِيرَة عَلى عَدَد شَهواتِهِم، قد تَمَكَّنَت مِنْ قُلوبِهم، وجَرَت عَليْها أَفْعالُهم وأَحْوالُهم، فَقَد كَذَّبوا قَوْلَهم بِفعْلِهم واعْتِقادِهم، فكَأَنَّهُم يَقولُون مَا نَقولُه لَيْس بِحقٍّ، فَهُم كَاذِبونَ، كَمَا قَال تَعالَى فِي المُنافِقين : ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[2] أَيْ حَيْث شَهدُوا بِمَا لَيْس فِي قُلوبِهم، فَهُم كَاذِبون فِي اعْتقَادِهم، وإِنْ كَان المَشْهود بِه حَقّاً وصِدقا بالنَّظَر إِلى نَفْس الأَمْر.

وكَذَا[3] «لاَ إِلَه إلاَّ الله»، كُلُّ مَنْ قالَها فَقَد صَدَق بِحسَبِ الصِّدْق المُتعارَف، وهُوَ النَّظَر إِلَى أَنَّ صِدْق الخَبَر مُطابَقتُه للوَاقِع، طَابَق الاعْتِقاد أَمْ لاَ، غَيْر أَنه قَد يُسَجِّل عَلى نَفْسِه بِالصِّدْق، وذَلِك حَيْث تَجْري أَحْوالُه عَلى وِفْق قَوْلِه، وقَد 150 / يُسَجِّل عَلى نَفْسه بالكَذِب، وذَلِك حَيْث تكونُ أَفْعالُه وأَحْوالُه عَلى خِلاَف

1 ـ وردت في نسخة ك : قلوبهم.
2 ـ المنافقون : 1.
3 ـ وردت في نسخة ح : كذلك.

التَّوْحِيد الَّذِي يَنْطِق بِهِ لِسانُه، فَيكُون إِذْ ذَاكَ بِلسَان مَقالِه مُثْبِتا وَحْدانِية الله تَعالَى، وبِلسَان حَالِه نَافِياً لَها ومُكذِّبا نَفْسَه فِيمَا يَقُول.

{تَفاوُت دَرجَات خَاصَّة المُؤْمِنينَ فِي النَّظَرِ إِلَى الأَكْوانِ الإِلهِيةِ}

واعْلَم أَنَّ هَذِه الحَالَة الثَّالِثة، أَعْنِي حَالَة أَهْل اليَقظَة، تَتفَاوتُ الدَّرجَات فِيها تَفاوُتاً عَظِيما، وذَلِك بِحسَب التَّخلِّي عَنِ الكَوْن، فَقَد يَكُون كُلِّيا، وَقَدْ يَكُون جُزْئياً، إِمَّا كَثِيرًا وَإِمَّا قَلِيلاً، فإِنَّ النَّفْس أَشْبَه شَيْء بِها فِي الْتِياطِها[1] بالأَكْوانِ، وعُسْر تَخلِّيها عَنْها الحِرْباءِ[2]

أَنَّى أُتِيحَ لَهُ حِرْبَاءُ تَنْضُبَةٍ ❖❖❖ لاَيُرْسِلُ السَّاقَ إِلاَّ مُمْسِكاً سَاقاً

فالنَّفْس مَتَى جَذَبها السَّالِك عَنْ حَظٍّ مِنَ الحُظُوظ، لَمْ تَتخلَّص مِنْه حَتَّى تتشَبَّث بِحظٍّ آخَر مِثْله <أَو أَعلَى مِنْه>[3] أَوْ أَدْنى، وهَكذَا حَتَّى يُخلِّصها مِنَ الجَمِيع سَابِق القِسْمَة، لِمَن سَبقَت لَه مِنَ العِبادِ، وقَلِيل مَا هُم.

ومِثَال ذَلِك مِنْ أَوَّل المَراتِب، أَنَّ المَرْء مَثلاً يَكونُ مَطْبوعاً عَلى حُبِّ المَال وعَلى الشُّح بِه، كَما قَال تَعالَى : ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾[4] وحُبُّه لِلمَال شَاغِل لَه عَنِ الله تَعالَى، وحِجابٌ بَيْنه وبَيْنه، لأَنَّه يُصَيِّر القَلْب مُشْتركاً لَيْس بِسلِيم لله تَعالَى، وذَلِك ضِدُّ التَّوْحيد المَطْلوب مِنَ العَبِيد، وبِتلْك الشِّرْكة تَصْدُر عَنِ الجَوارِح الأَفْعال والأَقْوال والأَحْوال القَبِيحَة، المُبْعَدة عَنِ الله تَعالَى.

فَأُمِرَ العَبْد بِسبَب هَذا كُلِّه أَنْ يَجود بالمَال، لِيكُون خُروجُه مِنَ اليَدِ سَبباً لِخُروجِه مِنَ القَلْب، بِحَوْل الله وتَوْفيقِه، فَيعْسُر ذَلِك عَلى النَّفْس، لِما فِيها مِنَ

---

1 ـ وردت في نسخة ق : التياط وفي نسخة ح : الارتباط.

2 ـ راجع شرح البيت ومناسبة قوله في زهر الأكم / 2:116.

3 ـ ساقط من نسخة ح.

4 ـ النساء : 127.

الشُّح الحَاضِر، فإذا كَلَّفها صَاحِبُها الجود، وجَاهدَها فِي الخُروج عَنِ المَالِ، والانْتِقال مِنْ هَذا الحَظِّ، فَقهَرها بإِذْن الله تَعالَى وأَعْطى المَالَ، تَشبَّثَت لَه بِطَلب المِدْحَة والثَّنَاء عَليْه، إنْ سَلِمَت مِنْ طَلَب الأَعْواض الحِسِّيات، والمِدْحة والثَّناء حَظٌّ آخَر انْتَقلَت إليْه مِنَ الأَوَّل، وهُوَ أَيْضا شاغِلٌ عَنِ الله تَعالَى، ومُخِلٌّ بالتَّوْحيد كالأَوَّل أوْ أَكْثَر.

فلاَبُدَّ أَيْضاً أَنْ يُجاهِدَها فِي الخُروجِ عَنْ هَذا الحَظِّ، والانْتِقال عَنْ هَذا الشَّاغِل الآخَر، ورُبَّما كَانَ أَصْعَب مِنَ الأَوَّل، لأَنَّ دَفْع المَالِ رُبَّما يُسهِّلُه وُجود الإخْلاَف أَوْ تَوَقُّعُه، ولَيْس للنَّفْس عَنْ فَوات الثَّنَاء والجَاه والمَزِيَّة خَلَف يَظْهَر لَها، فَيصْعُب عَلْيها الخُروج مِنْه، حَتَّى إذَا جَاهدَها وكَلَّفهَا الإِخْلاَص، وخَوَّفها فَوات الدُّنْيا والآخِرَة بذهَاب المَالِ، وذَهابِ أَجْرِه مِنَ الله تَعالَى، فَحينَئذٍ تَنْتقِل لَه إِلَى طَلَب الثَّوابِ الأُخْرَوي، وهُوَ حَظٌّ آخر شاغِلٌ عَنِ الله تَعالَى، فإِنَّ الله تَعالَى لَوْلاَ أَنَّه أَباحَ طَلَب الحَظِّ الأُخِرَوي رِفْقا بِعبَادِه الضُّعفَاء، لَمْ يَكُن بَيْنَه وبَيْن الدُّنْيوِي فَرْق، بَلِ الأُخْرَوي هُوَ أَلَذُّ الحَظَّيْن وأَشْهاهُما وأَشْغلُهما، إلاَّ أنَّ فِيه صُعوبَة عَلى النَّفْس مِنْ غَيْبتِه وتَأَخُّره.

ولِذَلكَ مَدَح الله تَعالَى الَّذِين يُؤْمنونَ بالغَيْب، ومَع ذَلِك فَهُو حَظٌّ مِنَ الحُظُوظ النَّفْسانِية، أُذِن فِي طَلبِه لِلْعُبَّادِ والزُّهَاد، وذَلِك مَنْصبهُم، ولَمْ يُؤْذَن فِيه للعَارِفين المُوحِّدين، اللهم إلاَّ قَدْر اقْتِضاء الحِكْمة الشَّرْعيَة، منَ التَّعبُّد وإظْهار الفَاقَة والعُبودِية، وَقَد تَنْتقِل لَهُ عَنْ ذَلِك إلى طَلَب الكَرامَات وظُهور الوِلاَيَة، وهَذا أَيْضا حَظٌّ شَاغِلٌ عَن الله تعالى، وَلَوْ جَاهَدهَا فِي الخُرُوج عَنْ ذَلِك كُلِّه، أَوْشَك أَنْ تَنْتَقِل إِلَى حُبِّ الوُصُول، وَطَلَبِ الدُّنُو وَالقُرْب، لاسْتِشعَارِها أَنَّهَا :

تَرَكْتُ هَوَى سُعْدَى وَلَيْلَى بِمَعْزِل ❖❖❖ وَسارَت إِلَى تَصْحِيح أَوَّلِ مَنْزِل[1]

151 / وَهَذا أَيْضاً حَظٌّ شَاغِلٌ، فَإِنَّ حُبَّ الوُصُول شَاغِلٌ عنِ الوُصُول.

وَقَد قَال المَشايِخ : «لاَ يَصِل المُرِيد حَتَّى تَنْقطِع عَنْه شَهْوَة الوُصُول»، أَيْ انْقِطَاع أَدَب لا انقطاع مَلَل، وهَذا والله أَعلم حَيْث يَكُون بَاعِثاً عَلى العَمَل، لأَنَّ العَمَل إِذْ ذَاكَ يَكُون مَعْلُولاً فَيخْتَلُّ الإخْلاَص، الَّذِي هُو شَرْط فِي قُبَول الأَعْمَال، قالَ الله تَعالَى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾[2] الآيَة.

وعَلى هَذا مَا وَقَع للشَّيْخ أَبِي الحَسَن الشَّاذِلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3] قال : «كُنْت أَنَا وَصَاحِبٌ لِي نَتعبَّد فِي مَوْضِع، ونَقُول : غَداً نَصِل إِلَى الله تَعالَى، فَبيْنَما نَحْن كَذلِك إِذْ دَخَل عَلَيْنا يَوْما رَجُل، فَوقَف بِباب المَغارَة وسَلَّم، فَقُلْنا لَهُ : مَنْ أَنْت؟ فَقالَ : عَبْد المَلِك، فَعلِمْنا أَنَّه وَلِيٌّ، فقُلْنا لَه : كَيْف أَنْتَ؟ فَقالَ : كَيْف أَنْت؟ كَيْف أَنْت ؟ بِصفَة الإِنْكار، ثُمَّ قالَ : كَيْف حَالُ مَنْ يَقُول أَصِل غَداً، فلاَ وُصولَ ولاَ فَلاَح ولاَ دُنْيا ولاَ آخِرَة، يَا نَفْسي لِمَ لاَ تَعْبُدين الله تَعالَى مُخْلِصَة، وانْصَرَف عنَّا.

ـ قَال الشَّيْخ أَبُو الحَسَن : ـ فَعلِمْنا مِنْ أَيْن أُوتِينَا[4]، قَال : وَرجَعْتُ عَلى نَفْسِي باللَّوْم والتَّوْبِيخ وقُلْتُ لَها : أَي شَيْء أَنْتِ؟ ومَا قَدْرُك حَتَّى تَطْلبِي مَا تَطْلُبين، قَال : فَجاءَ الله تَعالَى بالفَتْح عَنْ قَرِيب»[5].

---

1 ـ جاء هذا البيت في مظان أخرى، ومنها رسائل اليوسي / 1 : 180 منسوبا ضمن أبيات أخرى للإمام الغزالي بقوله :

تركت هوى سعدي وليلى بمعزل	وصرت إلى تصحيح أول منزل
فنادتني الأطلال أهلا ومرحبا	ألا أيها الساري رويدك فانزل
غزلت لهم غزلا رقيقا فلم أجد	لغزلي نساجا فكسرت مغزل

2 ـ البينة : 5.

3 ـ علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي المغربي أبو الحسن (591 / 656هـ) رأس الطائفة الشاذلية من المتصوفة، وصاحب الأوراد المسماة : حزب الشاذلية، ولد بالريف، تصوف وتفقه بتونس، كان ضريرا، له : «رسالة الأمين»، و«نزهة القلوب وبغية المطلوب». الأعلام/ 4 : 305.

4 ـ وردت في نسخة ق : أتانا وفي نسخة ك : أتينا.

5 ـ نص منقول بتصرف من كتاب لطائف المنن : 61.

ومِنْ هَذا المَنْحى قَوْل أَبِي العَبَّاس بْنَ العَرِيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1] : «عَلِقَ العُبَّاد بالأعْمال، والمُرِيدون بالأَحْوَال، والعَارِفون بالهِمَم، والحَقُّ ورَاء ذَلِك كُلِّه. ثُمَّ قَال : فالأَعْمَال للجَزَاء، والأَحْوَال للكَرامَات، والهِمَم لِلوُصول، وإِنَّما يَبْدُو الحَقُّ عِنْد اضْمِحلاَل الرَّسْم. ثُمَّ قَالَ : ومَا سِوَى الله حِجابٌ عَنْه» انْتهَى.

وَمِنْ جُمْلَة مَا سِوَى الله، الوُصُول إِلَيْه وَطَلبُه فَافْهَم، فَذلِك كُلُّه حِجَابٌ.

وَقَال الشَّيْخ أَبُو العَبَّاس المُرْسِي[2] : «عَبْدٌ فِي الحَال بالحَال، وعَبْدٌ فِي الحَالِ بِالمُحَوِّل، فالَّذِي هُوَ فِي الحَالِ بِالحَالِ، هُوَ عَبْد الحَال، وَالَّذِي هُوَ فِي الحَال بالمُحَوِّل، هُوَ عَبْد المُحَوِّل»[3].

قَال أَبُو العَبَّاس بْنُ عَطاءَ الله[4] : «ومَعْنَى كَلام الشَّيْخ، أَنَّ الَّذِي يَكون فِي الحَالِ بالحَالِ، هُوَ الَّذِي يَكونُ لَهُ اسْتشْراف لَهَا قَبْل وَجْدهَا[5]، يَفْرَح بِها عِنْد وَجْدِها، ويَحْزَن عَليْها عِنْد فَقْدِها، فَهَذا هُوَ عَبْد الحَال، وهُوَ للحَال، ولَيْسَت الحَال لَه. ولَوْ كَان عَبْداً لِلهِ لَمْ يَكُن لَه اسْتِشْرَاف لِغَيْرِه، ولاَ فَرَح بِغَيْرِه، ولاَ حُزْن عَلى فَقْد غَيْره، فَلا يَشْغَلُك[6] الفَرَح بِالْعَطَاءِ عَنِ المُعْطِي، وإِنْ أَرَدْت أَنْ تَكُون إِبْراهِيمياً، فَكُن كَمَا قَال : ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾[7] والحَالَة آفِلَة وَزَائِلَةٌ». انْتهَى الغَرَض مِنْه.

وَقالَ فِي قَوْلِه تَعالَى : ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ﴾[8] «أَي اطْمأن بِذَلك الخَيْر،

---

1 ـ سبقت ترجمته في ص : 60.

2 ـ أحمد بن عمر المرسي أبو العباس شهاب الدين، «ت : 686هـ»، فقيه متصوف من أهل الإسكندرية، أصله من مرسية في الأندلس. الأعلام/ 1 : 186.

3 ـ ورد هذا النص بتمامه في كتاب لطائف المنن : 166.

4 ـ سبقت ترجمته في ص : 10.

5 ـ وردت في نسخة ك : وجودها.

6 ـ وردت في نسخة ح : يشغله.

7 ـ تضمين للآية : 76 من سورة الأنعام.

8 ـ الحج : 11.

ولَوْ فَهم عَنِ الله لَمَا اطْمأَنَّ بِشيْءِ دُونَه، ولَكانَت طُمأْنِينَته بالله وَحْدَه» انْتَهى.
وَهذَا المَعْنى، مُقرَّرٌ مَشْروحٌ فِي كُتُب القَوْم غَايَة الشَّرْح.

تَنْبيـه : {تَحلِّي قَلْبُ الذَّاكِـر بالكَلمَة المُشرفَة يَسْتَلزِمُ التَخلِّي عَنِ الصِّفات المَذْمُومَة}

واعْلَم أَنَّ الذَّاكِر لِهذِه الكَلِمَة المُشرفَة، مَتَى تَحلَّى قَلْبُه بالله تَعَالَى وَتَخلَّى عَنْ غَيْرِه تَعالَى، بِأَنْ انْغَسل بَاطِنُه مِنَ الالْتِفاتِ إِلَى الأَغْيار عَلى مَا قَرَّرْنا أَوَّلاً، لَزِم مِنْ ذَلِك بِفضْل الله تَعالَى أَنْ يتَخلَّى عَنْ جَميع الصِّفَات المَذْمُومة، ويتَحلَّى بِجَميع الصِّفات المَحْمُودَة.

فالصِّفات المَذْمُومة كَالكِبْر والعُجْب، والرِّياء والسُّمْعة، والحِقْد والحَسَد، وَحُبِّ الجَاه والمَال، وما يَتفرَّع عَنْ هَذِه الأَوْصاف، كالبَطَر، والأَشَر، والغِلْظَة، وَالفَظاظَـة، وقِلَّة الرَّحْمَة، والعَداوَة، والبَغْضاء، والتَذلُّل للأَغْنِياء، واسْتِحقَار الفُقرَاء، وَعَدم الثِّقَة بِمَضمُون الرِّزْق، وخَوْف سُقوط المَنْزِلة مِنْ قُلوبِ الخَلْق، 152 والشُّح، والبُخْل، وطُول الأَمَل، والغِلِّ، / والغِشِّ، والمُباهَاة، والتَّصنُّع والمُداهَنَة والقَسْوة، والغَفْلَة، والجَفاء، والطَّيْش، والعَجلَة، والحِدَّة، والحَميَّة، وضَيْق الصَّدْر، وقِلَّة الحَياء، وعَدَم القَناعَة، وحُبِّ الرِّياسَة، والانْتِصار للنَّفْس، إِلى غَيْر ذَلِك مِنَ الأَوْصافِ الذَّمِيمَة.

وَإِنَّما قُلْنا : إِنَّ التَّخلِي المَذْكور، يُوجِب بِفَضل الله تَعالَى الطَّهارَة مِنْ هَذِه الأَوْصافِ، لأَنَّ هَذِه الأَوْصاف الخَبِيثَة، كُلُّها نَاشِئة عَنْ عَدَم تَحْقِيق التَّوْحِيد، وذَلِك بالالْتِفَات إِلى الدُّنْيا والنَّفْس، ومُراعَاتِها والرِّضى عَنْها.

{مِنَ الالْتِفاتِ إِلَى النَّفْس بِعَيْن الكَمَال تَتوَلَّدُ الأَوْصافُ الخَبِيثَة}

فَمِنَ الالْتفَات إِلَى النَّفْس والنَّظَر إِلَيْها بِعَيْن الكَمال، تَولُّد التَّكبُّر فِيها، إِمَّا عَلَى

الله تَعالَى، كَتكَبُّر نَمْرُود[1] وَفِرعْوَن وَغَيْرِهما مِنَ الجَبابِرَة الكَافِرينَ، وإِمَّا عَلَى عِبَاد الله تَعالَى وهُوَ الأَكْثر.

ومِنْ نِسْبَة الأَفْعال إلَيْها تَولُّد العُجْب، وحُبُّ الثَّناءِ ونَحْو ذَلِك. ومِنَ الالْتفَات إِلَى الدُّنْيا وأَهْلِها جَلْباً ودَفْعا، تَولد الرِّياء والسُّمْعة، والحَسَد وحُبّ الجَاه والمَال، وذَلِك كُلُّه رَاجِع بالأَخِيرَة إِلى النَّفْس، فَهِي الَّتِي يُعَظِّم ويُبجِّل ويُرفِّه ويسْعى لَها فِي جَلْب المَنافِع، ودَفْع المَضارِّ، ومِنَ الجَلْب لَها والدَّفْع عَنْها نَشأَ جَمِيعُ مَا مَرَّ مِنَ الأَخْلاَق الذَّمِيمَة الَّتِي رَسَمْناهَا.

ولَوْ قَد تَخلَّى العَبْد عَنْها وقصَّر نَظَره وَسَعْيه وَكَدْحه عَلى الله تَعالَى، وَفِيمَا يُرْضِي رَبَّه عَزَّ وجَلَّ، لَسلِمَ مِنْها كُلِّها، فَصحَّت عُبودِيتُه لِربِّه، وثَبتَ لَه التَّوْحِيد والسَّلامَة مِنَ الشِّرْك.

وَلذَلِك قالَ الإِمَام الوَاسِطي رَضِيَ اللهُ عَنهُ[2]: «النَّفْس صنَمٌ والنَّظَر إلَيْها شِرْك فِي العِبادَة».

وقَالَ أَبُو طَالِب المَكِّي رَضِيَ اللهُ عَنهُ[3] بَعْد أَنْ ذَكَر أَنَّ النَّفْس مُبْتلاَة بِصفَاتِ الرُّبوبية كالكِبَر، والجَبْرية، وحُبِّ المَدْح، والعَزِّ والغِنَى، ومُبْتلاَة بأَخْلاَق الشَّيْطان، منَ الخِداع والخيَّانَة والحِيلَـة، والحَسَـد والظِّنـة، ومُبْتلاَة بِطبَائِع البَهائِم وهِي: حُبُّ الأَكْل والشُّرْب والنِّكاح، وهِيَ مَع ذَلِك مَطْلُوبَة بِأَوْصاف العُبودِية مِثْل: الافْتِقار والخَوْف، والتَّواضُع والذِّلة.

قَالَ: «فلاَ يَكون العَبْد عَبْداً مُخْلِصا، حَتَّى يَكُون للمَعانِي الثَّلاثَة مُخَلِّصا، فإِذَا

1 ـ هو ابن كوش بن حام، جاء ذكره في سفر التكوين وكتب العرب، ضرب به المثل في الجبروت.

2 ـ سبقت ترجمته في ص: 10.

3 ـ محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي ويكنى أبا طالب. كان المكي واعظا، ولم يكن شيخا للطريق، ويروى أنه خلط في كلامه فهجره الناس وابتعدوا عنه ونسبوه إلى البدع، وقد لقي كثيرا من الصوفية، ولكنه تتلمذ على أبي الحسن بن سالم البصري، شيخ السالمية، «ت: 386 هـ»، ودفن ببغداد. له: «قوت القلوب»، و«علم القلوب». سير أعلام النبلاء/ 16: 536.

تَحقَّق بِأَوْصاف العُبودِية، كَان خَالِصاً مِنَ المَعانِي الَّتِي هِيَ بلاؤُه مِنْ صِفَات الرُّبوبِية.

قَال : والإِخْلاَص بالعُبودِية للوَحْدانية عِنْد العَبيد المُوحِّدين، أَشدُّ مِنَ الإِخْلاَص فِي المُعامَلَة عِنْد العَامِلِين، وبِذلِك رُفِعوا إِلى مَقامَات القُرْب، وذَلِك أَنه لاَ يَكُون عِنْدَهم عَبْدا، حَتَّى يَكُون مِمَّا سِوَى الله [عَزَّ وجَلَّ][1] حُرّاً، فَكَيْف[2] يَكُون عَبْد رَبٍّ مَنْ هُوَ عَبْد عَبْدٍ؟ لأَنَّ مَا تَأَلَّه إِلَيْه فَهُو إِلَهُه، ومَا تَرَبَّبَ عَلَيْه فَهُو رَبُّه، وهَذا شِرْك فِي الأُلوهِية عِنْد المُتأَلِّهين، ومَزْج بالرُّبُوبِية عِنْد الرَّبانِيين، فَهُو مَتْعُوس مَنْكوس بِدعَاء الرَّسُول عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ يَقُول : «تَعِسَ عَبْد الدِّينَار، تَعِس عَبْد الزَّوْجَة، تَعِسَ عَبْد الحُلَّة»[3] فَهؤُلاء عَبِيد العَدَد الَّذين قَال مَوْلاَهم : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿93﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿94﴾ ﴾[4] [5] انْتهَى.

وَقَال ابْن عَربي[6] الحَاتِمي[7] فِي رِسالَة الأَنْوار : «اعْلَم وَفَّقنَا الله وإِيَّاك، أَنَّك إِذا أَرَدْت الدُّخول إِلى حَضْرة الحَقِّ سُبْحانَه، والأَخْذ مِنْه بِتَرْك الوَسائِط والأُنْس بِه، فإِنَّه لاَ يَصِحُّ لَكَ ذَلِك، وفِي قَلْبِك رَبَّانِية لِغيْره فَإِنك لِمَن حَكَم عَلَيْك سُلْطانُه، هَذا لاَ شَكَّ فِيه»[8] انتهَى.

---

1 ـ ساقط من نسخة ق.

2 ـ وردت في نسخة ق : كيف.

3 ـ أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب : مَا يُتَّقَى مِنْ فِتْنَةِ الْمَالِ وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى ﴿ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ بألفاظ مغايرة. وابن ماجة في كتاب الزهد، باب : في المكثرين.

4 ـ تضمين للآيتين : 93 - 94 من سورة مريم.

5 ـ نص منقول من كتاب قوت القلوب في معاملة المحبوب/ 1 : 177.

6 ـ ورد في جميع النسخ : ابن العربي.

7 ـ هو محي الدين بن عربي الحاتمي، الطائي الأندلسي (560 / 638هـ) ولد بمرسية وانتقل إلى إشبيلية طلبا للعلم، ثم سافر إلى مصر ودمشق وبغداد وجاور في مكة، توفي بالشام. من كتبه : «الفتوحات المكية»، و«أوراد الأيام والليالي»، و«شرح الأسماء الحسنى». شذرات الذهب/ 5 : 190.

8 ـ نص منقول من كتاب رسائل ابن عربي، باب رسالة الأنوار : 161.

153 / وَقالَ الشَّيْخ أَبُو عَبْد الله مُحمَّد بْن عَلي التِّرْمذِي رَضِيَ اللهُ عَنهُ[1]: «كَيْف[2] يَطْمَع قَلْب أَنْ يَصِل إِلى الله مَع شَهْوَة نَفْس، فإِنَّ شَهْوَة النَّفْس هِيَ الدُّنيا، فَتطْمَع أَنْ َسِير إِلَى الله تَعالَى مَعَ الدُّنْيا، إِنَّ هَذا لَحُمْق. ثُمَّ قَال : فَإِنْ أَرَدْت أَنْ تُقِّر له سُبْحانَه بالعُبودِية، فاجْتَهِد فِي خُرُوجِك مِنْ رِقِّ النَّفْس إِلى رِقِّه»[3] انْتَهى.

وَهذا المَعْنى مِمَّا أَجْمَع عَليْه أَرْباب الْقُلُوب[4]، واتَّضَح مَعْنَاه لِجَميع أَرْبابِ البَصائِر، نَسْأَل الله تَعالَى أَنْ يَجْعلَنا مِنْهم بِمَنِّه وطَوْلِه.

فإِذَا خَلَّص الله تَعالَى بِفضْلِه العَبْد مِنْ لَوْث نَفْسِه ودُنْياه، وطَهَّره مِنْ كُلِّ وَصْف ذَمِيم عَلى مَا رَسمْناه، فعِنْد ذَلِك يتَحلَّى بِمحَامِد الصِّفاتِ، ويتَعلَّى[5] فِي المَقامَات.

فَيتَّصِف بَيْنهُ وبَيْن الله تَعالَى بالاِنْتبَاه وبالتَّوْبَة، وبالإِنَابَة وبالوَرَع وبالإِرَادَة، وبالزُّهْد وبالإِيثَار، وبالصِّدْق وبالتَّصبُّرِ، ثُمَّ بالصَّبْر والرِّضى، والإِخْلاَص والتَّوكُّل، إِلى غَيْر ذَلِك مِنَ المَقامَات، وبالمَحبَّة والرَّجاء، والخَوْف والحَياء، والشَّوْق والأُنْس، والطُّمَأْنِينَة واليَقِين، والمُشاهَدة، إِلى غَيْر ذَلِك مِنَ الأَحْوال الشَّرِيفَة، والوَارِدات اللَّطِيفة.

ويَتَّصِف بَيْنه وبَيْن عِباد الله تَعالَى بالرَّأْفَة والرَّحْمَة، واللِّين والرِّفْق، وَسِعَة الصَّدْر والحِلْم، والاحْتِمال والصِّيانَة، والنَّزاهَة والأَمانَة، والشَّفقَة والعَطْف، والتَّأَنِّي والوَقار، والسَّخاء والحَياء، والبَشَاشة والنَّصِيحة، وسَلامَة الصَّدْر، إِلى غَيْر ذَلِك مِنْ أَخْلاَق المُؤْمنِين وأَوْصافِ الرَّبانِيين.

---

1 ـ محمد بن علي بن الحسين الملقب بالحكيم الترمذي، (ت : 320هـ) الصوفي العالم بالحديث وأصول الدين، نفي من ترمذ بلده بسبب تصنيفه كتاب في الصوفية. من كتبه : «الأكياس والمفترين» في التصوف. و«المسائل المكنونة». وكتاب «الرياضة وأدب النفس» حلية الأولياء/ 10 : 233. الأعلام/ 7 : 156.

2 ـ وردت في نسخة ك : فكيف.

3 ـ نقل هذا النص بالمعنى من كتاب الرياضة وأدب النفس، باب : كتاب الرياضة : 62.

4 ـ وردت في نسخة ك : العقول.

5 ـ وردت في نسخة ح : يتعالى.

{التَّخْلِية والتَّحْلِية فِي عِلْم التَّصوُّفِ}

واعْلَم أَنّ هَذا المَعْنى الَّذِي أَشَرْنا إِلَيْه فِي هَذا المَحلِّ، هُو المُعبَّر عَنْه فِي عِلْم التَّصوُّف[1] بالتَّخلِّي والتَّحلِّي، وقَدْيُقَال التَّخْلِية والتَّحْلِية، وقَدْيُقَال التَّزْكِية والتحلية، أَيْ التَّخلِّي مِنَ الوَصْف المَذْمومِ، والتَّحلِّي بالوَصْف المَحْمود، وفِي هَذاالمَعْنى يَقَع مَا يَذْكُرونَه مِنَ السُّلُوك، وعِنْده يَصِير العَبْد بَدلاً، إِذْ بُدِّلَت أَوْصافه السَّيئَة بالحَسَنة.

قَال أَبُو طَالِب المَكِّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «ولاَ يَكون العَبْد المُريد بَدلاً[3]، حَتَّى يُبَدِّل بِمعَانِي صِفاتِ الرُّبوبِية صِفَات العُبودِية، وبِأَخْلاَق الشَّياطِين أَوْصافَ المُؤْمِنين، وبِطبَائِع البَهائِم أَوْصاف الرَّبانِيين مِنَ الأَذْكَار والعُلوم، فعِنْدَها كَان بَدلاً مُقرَّباً، قَال : والطَّرِيق إِلَى هَذا بأَنْ يُملَّك بِنفْسِه فيَمْلِكها وتُسخَّر لَه فيُسلَّط عَليْها، فَإِنْ[4] أَرَدْت أَنْ تَمْلك نَفْسَك فلاَ تُملِّكْها، وضَيِّق عَليْها ولاَ تُوسِّع لَها، فإن مَلَّكْتَها مَلَكتْكَ، وَإِنْ لَمْ تُضيِّق عَليْها اتَّسعَت عَليْك، فَإِنْ أَرَدْت الظَّفَر بِهَا، فَلاَ تُعرِّضْها لِهوَاها، واحْبِسهَا عَنْ مُعْتاد بَلاَئِها، فإِنْ لَمْ تُمْسِكها انْطَلقَت بِكَ، وإِنْ أَرَدْت أَنْ تَقْوى عَليْها فَأَضْعِفها بَقطْع أَسْبابِ هَواهَا، وحَبْس مَوادِّ شَهوَاتِها، وإِلاَّ قَوِيَت عَليْك فَصرَعتْك»[5] انْتهَى.

واعْلَم أَنَّ مَا ذُكِر مِنَ التَّحلِّي بَعْد التَّخلِّي، هُو بِطَرِيق التَّقابُل، بِمَعْنى أَنَّه يَنْتفِي الوَصْف المَذْموم عَنِ العَبْد، فَيخْلُفه ضِدُّه المَحْمود، فإِذَا انْتفَى الكِبْر مَثلاً خَلَفَه

---

1 ـ تعرض اليوسي بإسهاب للتعريف بعلم التصوف وموضوعه ومتعلقاته وتاريخه في كتاب القانون في أحكام العلم العالم والمتعلم : 185- 191، بتحقيقنا، طبعة 2013.

2 ـ سبقت ترجمته في ص : 81.

3 ـ بدلا من الأبدال : وهم قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم، فإذا مات واحد أبدل الله تعالى آخر. الرسالة القشيرية : 362.

4 ـ وردت في نسخة ك : فإذا.

5 ـ نص منقول بأمانة من كتاب قوت القلوب./ 1 : 177.

التَّواضُع، وإِذا انْتَفَى الرِّياءُ خَلَفه الإِخْلاَص وهَكَذا، فَقَد يَتبدَّل الجَمِيع وقَد يَتبدَّل البَعْض دُون البَعْض، وقَد يَكُون العَبْد مَجْبولاً عَلى بَعْض الخِصالِ المَحْمودَة، كالسَّخَاء والشَّجاعَة، والحَيَاء والحِلْم مِنْ أَوَّل، فلاَ يَحْتاجُ فِيها إِلى تكلُّف الرِّياضَة، والمَجْبُول عَلى الذَّمِيم قَدْ يَسْهُل عِلاَجُه لِكرَمِ طَبِيعتِه، وقَد يَصْعُب عَليْه العِلاَج لِخُبْث طِينَتِه ودَناءَة هِمَّتِه، نَسْأَل الله العَافِيَة.

154 وقَال الإِمَامُ / الغَزالِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «إِنْ سَلَّطْتَ[2] سُلْطان «لاَ إِلَه إِلاَّ الله» عَلى مَدِينَة إِنْسانِيتِكَ، لَمْ يَبْق فِي دائِرَة دَارِكَ دِيار، ولَمْ يَسْلُكها[3] أَحَدٌ مِنَ العُمَّار، ولَمْ يَبْقَ لَك مَعَه مِنْ قَرَار لاَ تُبْقِي ولاَ تَذَر، ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾[4] فَيصِير عِز كِبْرك مَذلَّة وتَواضُعا، وعِزُّ كَثْرتِك قِلَّة، وعِزُّ وُجودِكَ مَحْواً، وعِزَّ بَقائِك فَناء، وتَبدَّل كُلُّ صِفَة مَذْمُومة بِصفَة مَحْمودَة، وتَنْتقِل مِنْ عِزٍّ هُوَ ذُلٌّ إِلَى ذُلٍّ هُوَ عِزٌّ، ويُقْطَع مِنْها شَجَر صِفاتِك المَذْمُومة، ويُزَال عَنْها عَواسِج الكُفْر والتَّعْطِيل، ويَذْهَب مِنْها شوْك التَّشْبِيه والتَّمْثِيل، ويُغْرَس فِيها رَيْحان الإِيمَان والتَّوْحِيد، ويَنْبُت فِيها التَّنْزِيه والتَّفْرِيد، وتَتنَوَّع صِفاتك المَحْمودَة ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾[5]»[6] انْتهى.

قُلْتُ: المُلُوك الرَّبانِية دَخَلوا قَرْيَة النَّفْس، فَأَفْسدوا مَمْلكَة الهَوى، واسْترجَعوا للرُّوح مَمْلكَته، وللعَقْل وِزارَته، فَرجَع الإِفْساد إِصْلاحاً، وَالإِذْلاَلُ إِعْزازاً، فَتبَارَك الله أَحْسَن الخَالِقِين.

1 ـ سبقت ترجمته في ص: 43.
2 ـ وردت في نسخة ح: سلط وفي نسخة ك: إن تسلط.
3 ـ وردت في ح: يملكها.
4 ـ تضمين للآية: 34 من سورة النمل.
5 ـ تضمين للآية: 58 من سورة الأعراف.
6 ـ نص منقول من «رسالة جمال الإسلام للغزالي في حديث لا إله إلا الله حصني»، وما يتعلق بالكلمة المشرفة: 29. مخطوط الخزانة العامة رقم: 2530د.

وَقَال شَيْخ مَشايِخِنا أَبُو العَبَّاس زَرُّوق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [1] : «المَحارِم القَلْبِية أَرْبَعة : الرِّيَاء وأَصْلُه الطَّمَع ودَواؤُه الوَرَع. والعُجْبُ وأَصْلُه الكِبر ودَواؤُه رُؤْيَة المِنَّة لله تَعالَى، وأَنَّك لاَ تَسْتحِقّ شَيْئا مِنْ حَيْث أَنْتَ. والبُخْل وأَصْلُه خَوْف الفَقْر ودَواؤُه العِلْم بأَنَّ الدُّنْيا زَائِلَة، وحَالُها حَائِلٌ. والغَضَب وأَصْلُه رُؤْيَة حَقِّ النَّفْس، ودَواؤُه النَّظَر فِي مُقبحَاتِه فِكْرا ونَقْلا.

فَمِنَ الكِبْرِ يَتولَّد : عَدَم الإِنْصَاف، وبَطَر الحَقِّ، واحْتِقار الخَلْق، والتَرفُّع عَلى عِباد الله، واتِّبَاع الهَوَى، وإِنْكار الكَرامَات وادِّعاؤُها، إِلى غَيْر ذَلِك.

ومِنْ خَوْف الفَقْر يَتولَّد : الحَسَد، والشُّح، والغَضْب، والتَّعدِي، والسَّرقَة، وأَكْل مَال اليَتِيم، والرِّبا، وأَكْل المَال بالبَاطِل، إِلَى غَيْر ذَلِك مِنَ الإِذايَات المُتعلِّقَة بالمَالِ.

ومِنْ رُؤْيَة النَّفْس والشَّفقَة عَليْها يَتولَّد : الحِقْد، والمَكْر، والخَدِيعَة، وطَلَب التَّشفِّي، ونَحْو ذَلِكَ» انْتَهى.

وذَكَر حُجَّة الإِسْلام فِي مِنْهاجِه : «أَنَّ عُلمَاء الآخِرَة قَد عَدُّوا فِي الخِصالِ المَحْمُودة، نَحْو تِسْعِين خِصْلَة، وفِي أَضْدادِها المَذْمُومة نَحْو ذَلِك، وفِي الأَفْعالِ والمَساعِي الوَاجِبَة والمَحْظُورَة نَحْو ذَلِك، وذَكَر أَنَّ الأَشْيَاء الَّتِي لاَ بُدَّ مِنْها فِي عِلاَج القَلْب، ولاَ غُنْيَة عَنِ التَّحرزِ مِنْها أَرْبَعة وهِيَ : طُول الأَمَل، والاسْتِعجَال، والحَسَد، والكِبر، فَهَذه مَدَاحِض القُلُوب وأُصولُ البَلِيَّات.

وتُقابِلُها أَرْبَعة هِيَ الأُصُول فِي صَلاَح القُلوبِ وهِيَ : قِصَر الأَمَل، والتَّأَنِي فِي الأُمُور، والنَّصِيحَة للخَلْق، والتَّواضُع والخُشوع.

---

1 ـ أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق «846/ 899هـ» الشيخ الكامل العارف بالله، شيخ الطريقة وإمام الحقيقة، عرف قدره في العلوم الظاهرية والباطنية، من كتبه تسعة وعشرون شرحا على الحكم العطائية، وشرح على أسماء الله الحسنى وغيرها. شجرة النور الزكية : 267.

أَمَّا طُولُ الأَمَل : فَيُورِث التَّكاسُل عَنِ الخَيْر، وتَسْوِيف التَّوْبَة، والحِرْص عَلى الدُّنْيا، والغَفْلَة والقَساوَة بِنسْيَان الآخِرَة.

وأَمَّا الاسْتِعجَال : فَيُورِث عَدَم الرِّفْق وعَدَم التَّثَبُّت وعَدَم التَّيقُّظ، ويُثْمِر ذَلِك كُلُّه الإِفْراط والتَّفْرِيط، وبِهِما تَفوتُ المَقاصِد ويَقَع فِي المَعاصِي.

وأَمَّا الحَسَد : فيُورِث إِفْسَاد الطَّاعَات، كَمَا وَرَد أَنَّه يَأْكُل الحَسنَات كَمَا تَأْكُل النّار الحَطَب، وفِعْل المَعاصِي بالاغْتِياب والشَّماتَة ونَحِوْهما، وتَعَب القَلْب والغَم اللاَّزِم بلاَ فَائِدَة، والخِذْلاَن والحِرْمان.

وأَمَّا الكِبْر : فَيُورِث العَمى عَنِ الحَقِّ، وحِرْمانِه بالإِعْراض[1]، كَمَا قَالَ تَعالَى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ﴾[2] الآيَة. / 155 ومَقت الله تَعالَى لَهُ وبُغْضه، قَال تَعالَى : ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾[3] والخِزْي فِي الدُّنْيا»[4].

رُوِي عَنْ حَاتِم رَضِيَ اللهُ عَنهُ[5] قَالَ : «أَحْبَبتُ المَوْتى عَلى ثَلاَثة : عَلى الكِبْر والحِرْص أَهْلِه وخُدَّامِه. والحَرِيص لاَ يُخرِجُه الله مِنَ الدُّنْيا، حَتَّى يُحْوِجَه إِلَى كِسْرَة أَوْ شُرْبَة، ولاَ يَجِد مَساغاً. والمُخْتال لاَ يُخْرِجُه الله مِنَ الدُّنْيا، حَتَّى يُمرِّغَه الله بِبولِه وَقَذَرِه، والنَّار والعَذاب فِي الآخِرَة».

وقَد رُوِي أَنَّ الله تَعالَى يَقول : «الكِبْرِيَاء رِدَائِي وَالعَظْمَة إِزارِي، فَمَن نَازَعنِي فِي وَاحِد مِنْهُما أَدْخلتُه نَارَ جَهنَّم»[6]، والمَعْنَى أَنَّ الكِبْرِيَاء والعَظمَة، مُخْتصَّان بالله

1 ـ وردت في نسخة ك : والإعراض.
2 ـ الأعراف : 146.
3 ـ النحل : 23.
4 ـ نص منقول بتصرف من كتاب منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين : 146 ـ 155.
5 ـ حاتم بن عنوان بن يوسف، المعروف بالأصم، «ت : 237هـ»، متصوف زاهد، من أهل خراسان، اشتهر بالورع والتقشف، له كلام ونصائح وإرشادات في التربية والزهد، قال فيه السلف : «حاتم الأصم لقمان هذه الأمة». لأنه كان يمثل التصوف الإسلامي الصحيح المتفق مع القرآن والسنة. الأعلام/ 1 : 26.
6 ـ حديث قدسي أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب : تحريم الكبر. وابن ماجة في كتاب الزهد

تَعالَى، لاَ يَكُونَان لِغَيْرِه، كَمَا يَخْتَصُّ باللاَّبِس لِباسه. وانْظُر تَفْصيل هذَا المَحَلّ فِي كَلامِه.

وهَذا المَقَام يَحْتاج إِلَى بَسْط كَبِير، وتَفْصيل شَاف فِي ذِكْر جميع المُهْلِكات والمُنْجِيات، ومَا لَها مِنَ الحَقائِق، ومَا لَها مِنَ الأَسْبَاب والثَّمَرات، ولَو اشْتَغَلْنا بذلك احْتَجْنا إِلَى دِيوَان آخَر، ولَيْس مِنْ غَرَضنا فِي هَذا الكِتَاب ذِكْر التَّصَوف بالقَصْد الأَوَّل، وإِنَّمَا نُشِير إِلَى شَيْء عِنْد انْجرَار الحَدِيث إِلَيْه، مَع التَّحرزِ عَنِ الإِطْنابِ والمُحافَظة عَلى مَوْضوع الكِتاب. والله المُسْتعَان.

الوَجْهُ الثَّالِث : أَنَّا لاَ نَعْتَبِر ثُبوتَ الله تَعالَى بِذَاتِه، ولاَ انْتفَاء غَيْره بِذَاتِه، ولَكِن نَعْتَبر الاعْتِدَاد بِه تَعالَى بِثبُوت حُكْمِه، واعْتِبارِ شَأْنِه، وَعَدم الاعْتِدَاد بِغَيْره تَعالَى، وقَد أَشَرْنا إِلى هَذا المَعْنى فِي وُجوه تَقْرِير الكَلِمة المُشرفَة قَبْل، وضَربْنا هُنالِك مِثالاً[1] يَتَّضِح بِه <الغَرَض، ولاَبُدَّ أَنْ نَرْسِم هُنا مِثالاً آخَر، نَسْتَوضِح بِه>[2] المُرَام، ونَبْنِي[3] عَلَيْه مَا قَصدْنا إِلَيْه مِنَ الكَلاَم.

فَنقُول : أَنَّه لَوْ بَعَث أَمِير رُسُلَه إِلَى بَلَد فِي إِقْلِيمه، فَكلَّفوهُم أَنْ يَقولُوا : لاَ أَمِيرَ إِلاَّ فُلاَن، وهُوَ اسْمُ ذَلِك الأَمِير البَاعِث، فَإِنَّ هَذا الكَلاَم وهُوَ قَوْل أَهْل البَلَد : لاَ أَمِير إِلاَّ فُلاَن، يَصْدُق بِصُورَتَين، إِحْداهُما : أَنْ لاَ يُوجَد أَمِير فِي ذَلِك الإِقْلِيم أَصْلا غَيْر ذَلِك المَذْكُور، ويَكُون مَعْنى الكَلاَم : لاَ أَمِيرَ مَوْجُود إِلاَّ فُلاَن. الصُّورَة الثَّانِية : أَنْ يُوجَد أَمِير آخَرَ أَوْ أُمرَاء، إِلاَّ أَنَّه لاَ عِبْرَة بِهِم، ولاَ اعْتِدَاد بِهِم، إِمَّا منْ أَوَّل وَهْلَة، وإِمَّا أَنَّه أُرِيد الآن خَلْعهُم والتَبَرِّي منْهُم، ويَكُون مَعْنى ذَلِك الكَلاَم : لاَ أَمِير يُعْتدُّ بِه ويُنفَّذ حُكْمه إِلاَّ فُلاَن، وَقَد عَلِمْت مَا فِيه عَلى الاعْتِبار الثَّانِي مِنْ هَذيْن من مَعْنى الإِنْشاءِ.

والتواضع، باب : البراءة من الكبر. وأبو داود في كتاب اللباس، باب : ما جاء في الكبر.

1 ـ وردت في نسخة ك : هناك مثلا.

2 ـ ساقط من نسخة ك.

3 ـ وردت في نسخة ق : ينبني.

فَكذَا الكَلِمَة المُشرفَة، إذَا قُلْنا «لاَ إِلَه إلاَّ الله»، احْتَمَل أَنْ يَكون المُرَاد : لاَ إِلَه مَوْجُود أَوْ مَعْبُود بحقٍّ إلاَّ الله، واحْتَمَل أَنْ يَكُون المُرَاد : لاَ إِلَه مُعْتَبر ومُعْتدٌّ به إلاَّ الله. <أَمَّا الأَوَّل>[1] فَقَد فَرغْنا مِنْ تَقْرِيره. وأَمَّا الثَّانِي فَهُو الَّذِي نُرِيد أَنْ نَذْكُره الآنَ.

{تَقْرِير وَجْهُ المُرَاد مِنَ الكَلمَة المُشرفَة : لاَ إِلَه مُعْتبَرٌ وَمُعتَدٌّ بِهِ إلاَّ الله}

فَنقُول : مَتَى أُرِيدَ بِعدَم الاعْتِدادِ والاعْتِبَار بغَيْر الله، مَا يَرْجِع إِلى ذَات الغَيْر ووُجودهُ، بِمَعْنى أَنَّه لَمْ يُوجَد غَيْر الله، أَوْ لَمْ يُعْتَبر وُجودهُ، لِكَوْنه جَائِزا لَيْس بواجِبِ الوُجودِ، فَلاَ يَسْتحِقُّ الأُلوهِية، فَقَد رَجَع إِلى المَعْنى الأَوَّل بِنفْسِه. ومَتَى أُرِيد بِه عَدَم الاعْتِداد بِشَأْنِه وأَمْرِه وحُكْمِه، والاعْتِدَاد بالله تَعالَى هُو الاعْتِدَاد بِشَأْنه وحُكْمِه وطَاعَتِه، فَهَذا مَقْصودُنا مِنْ هَذا الوَجْه.

فَنقُول : إِنَّه مَتَى تَعدَّد الأُمَراء فِي الظَّاهِر، أَوْ تُوهِّم تَعدُّدُهم فَقالَ : منْ يُرِيد الانْتِمَاء إِلى أَمِيرٍ مَخْصوص والتَّبري مِنْ غَيْره، لاَ أَمِير إلاَّ فُلاَن، وهُوَ ذَلِك 156 المَخْصُوص، فَمُراده لاَ طَاعَة إلاَّ طَاعَة / هَذا الأَمِير، ولاَ أَمْر إلاَّ أَمْرُه، ومَتَى تَعدَّد القُضَاة أَو تُوهِّمَ تَعدُّدهم فَقالَ : مَنْ يُرِيد الاقْتِصار عَلى قَاضٍ مَخْصُوص لاَ يَتحَاكَم لِغيْره، لاَ قَاضٍ إلاَّ فُلاَن، فَمُراده لاَ حُكْم إلاَّ حُكْم هَذا القَاضِي، ولاَ دَعْوى إلاَّ إِلَيْه، وَمتَى تَعدَّد الأَوْلِياء عَلى المَرْأَة المَخطُوبَة، أَو تُوهِّم تَعدُّدهم فَقالَت : لاَ وَلِي إلاَّ فُلاَن، فَمُرادُها لاَ قَوْل إلاَّ قَوْلُه، وهَكذَا مَا يَقَع مِنْ مِثْل هَذَا.

فهَكذَا إِذَا عُبِدت آلِهَة مِنْ دُون الله تَعالَى كالأَصْنامِ والأَوْثانِ، والنُّجوم والمَلائِكَة، والجَبابِرَة مِنَ الإِنْس والجِنِّ، فَيقُول : مَنْ يُرِيد الاقْتِصار عَلى عِبَادَة الله تَعالَى، والْتِزام طَاعَتِه، والبَراءَة مِنْ طَاعَة غَيْره وعِبادَتِه، «لاَ إِلَه إِلاَّ الله»، فَمُراده أَيْضاً لاَ عِبَادَة إِلاَّ عِبادَة الله، ولاَ طَاعَة إِلاَّ طَاعَته.

---

1 ـ ساقط من نسخة ك.

فَنقُول : إِذَا وَقَع هَذَا المَعْنى فِي فَهْم الذَّاكِر لِهذِه الكَلِمَة المشرفَة، فَكأَنَّه يَقُول : لاَ حُكْم إلاَّ حَكْم الله، ولاَ أَمْرَ إلاَّ أَمْر الله، ولاَ نَهْيَ إلاَّ نَهْي الله، ولاَ دِينَ إلاَّ دِين الله، ولاَ شَرْع إلاَّ شَرْع الله، ولاَ طَاعَة إلاَّ طَاعَة الله، ولاَ عَطَاء إلاَّ عَطَاء الله، ولاَ مَنْع إلاَّ مَنْع الله، ولاَ رَجَاء إلاَّ رَجَاء الله، ولاَ خَوْف إلاَّ خَوْف الله، ولاَ عِزَّ إلاَّ عِزَّ الله، إلى آخر مَا يُقَدِّره الفِكْر ويَتصوَّرُه العَقْل.

فإنْ قُلْتَ : هَذا التَّفْسير ونَحْوَه للكَلِمَة المُشرفَة، أَلَيْس مِنْ بَابِ إِحالَة النُّصوص التَّوْقِيفِيَة عَنْ ظَواهِرها، وهُوَ لاَ يَجُوز.

قُلْنَا : لاَ نَسْلُك مَسْلَك الإِحالَة ولاَ نُرِيدُها، وَلَكِن مَا نَذْكُره مِنْ الوُجوهِ هَاهُنَا وَفِيمَا مَرَّ إِنِ اسْتُفِيدَ به[1] دِلاَلَة الكَلِمة عَلى التَّوْحِيد، ولَوْ بطَريق الاسْتِلزَام البَيِّن، فلاَ نُسلِّم أَنَّها بِذلِك خَرَجت عَنْ مَعْناهَا المُرَاد مِنها، لأَنَّها وَرَدَت مِنَ الشَّارِع للتَّوْحِيد، ولَمْ يَرِدِ التَّوْقِيف بِتقْرير مَخْصوص لاَ يَتعَدَّى إِلَى غَيْره، وإِنْ لَمْ يُسْتَفَد بِه التَّوْحيد بَلْ فَائِدَة أُخْرى، فالمُرَاد حِينَئِذٍ أَنَّها تَدلُّ عَلى تِلْك الفَائِدَة زِيادَة عَلى مَعْنَاهَا، ويَكُون ذَلِك مِنْ بَاب مَا يُفْهَم مِنَ اللَّفْظِ عَلى طَرِيق الإِشارَات، وهُوَ وَاقِعٌ فِي الآيَات القُرْآنِية والأَحَادِيث وكَلاَم الحُكمَاء، ولاَ يُنْكَر.

وَنحْنُ فِي هَذا الكِتَاب غَرضُنا ذِكْر مَدْلولِ الكَلمَة عِنْد العَامَّة، وذِكْر جَمِيع مَا يَتلمَّح مِنْها عِنْد الخَاصَّة، فَكُل مَا يَصِحّ أَنْ يَسْنَح ببالِ الذَّاكِر لَها مِنَ اللَّطائِف، ويَصِل إِلَيْه فِكْره عِنْدَها مِنَ المَعارِف، فلاَ بَأْس أَنْ يُذْكَر هُنَا ويُوصَف لِيُتنَبَّه لَهُ ويُعْرَف.

{الكَلمَة المُشرفَة تَرْجَمة فِي كُلِّ مَطْلَب وَمُستَندٌ فِي كُلِّ مَأْرب}

وإِذا تَمهَّد مَا قَرَّرْنا فِيها مِنَ المَعْنى آنِفاً، فَهِي تَصِير بِذلِك تَرْجَمة فِي كُلِّ مَطْلَب ومُسْتندا فِي كُلِّ مَأْربِ، وتَصِير بِذَلك هَجِيراً ودَيْدناً لِكلِّ مُوفَّق رَشِيد، وعُدَّة

1 ـ وردت في نسخة ك : منه.

يَأْوي بِها مِنْ وَسَاوِس الشَّيْطان إِلَى قَصْر مَشِيدٍ، وذَلِك عَلى مَا أَشرْنا إِلَيْه آنِفا عِنْد التَّقْرير، مِمَّا لاَ يُحتَاج معَه عِنْد اللَّبِيب إِلَى مَزِيد تَحْرير. مَثلاً إِذا تَردَّد النَّاظِر فِي أَنْ يَسْلُك سَبِيلَ الإِسْلام أَوِ الكُفْر، فَلْيقُل : «لاَ إِلَه إِلاَّ الله»، أَيْ لاَ حُكْمَ إِلاَّ حُكْم الله، ولاَ دِين إِلاَّ دِين الله، ولاَ[1] شَرْع إِلاَّ شَرْع الله، وهُو الإِسْلام لاَ الكُفْر، فَيأْخُذ الإِسْلام ويَدَع الكُفْر، وهَكَذا فِي التَّوْحيد وأَمْر العَقائِد كُلِّها.

وإِذَا تَردَّد بِمُقتَضى عَارِض الوَسْواس الشَّيْطاني، أَوِ الكَسَل فِي أَنْ يُصلِّي أَوْ لاَ، فَلْيقُل : «لاَ إِلَه إِلاَّ الله»، أَيْ لاَ حُكْم إِلاَّ حُكْم الله، أَوْ لاَ أَمْر إِلاَّ أَمْر الله، وهُوَ الأَمْر بالصَّلاةِ فيُصلِّي. وإِذا تَردَّد فِي أَنْ يُصلِّيها بِطهَارَة أَوْ لاَ، فَلْيقُل : «لاَ إِلَه إِلاَّ الله»، أَيْ لاَ أَمْر إِلاَّ أَمْر الله، وهُوَ الأَمْر بالطَّهارة [فَيتطهَّر][2]. وإِذا تَردَّد فِي أَنْ يَتطهَّر بالمُطْلَق أَوْ بِكُلِّ مَا وَجد، فلْيقُل : «لاَ إِلَه إِلاَّ الله»، أَيْ لاَ أَمْر إِلاَّ أَمْر الله وهُوَ التَطهُّر بالمَاء المُطْلَق فَيطْلُبه.

157 وهَكذَا / القَوْل فِي الاسْتِقْبَال والتَّستُّر، وجَمِيع شَرائِط الصَّلاةِ وفَرائِضها وسُنَنِها وآدابِها. وكَذا فِي الزَّكَاة، والصِّيامِ، والحَجِّ، وَجَمِيع العِبادَات. وكَذا فِي الإِيقَاعَات : مِنَ النِّكَاح، والطَّلاَق، والعِتْق. والمُعامَلات : مِنَ البَيْع، والقِرَاض، والشِّرْكَة، وأَنْواع التَّصرُّف، وحُكْم القَاضِي بالعَدْل أَوِ الجَوْر، والتَنزُّه عَنِ الرَّشْوَة أَوَ قَبْضها، وتَصرُّف الوَصي والوَكِيل بالسَّدَاد أَوْ غَيْرِه وغَيْر ذَلِك.

فَفِي كُلِّ ذَلِك يَرِد عَلى العَبْد الأَمْر مِنَ الله تَعالَى، ويَرِد عَلَيْه الأَمْر بِخلاَفه مِنَ النَّفْس أَوِ الشَّيْطان، فيَقُول : «لاَ إِلَه إِلاَّ الله»، أَيْ لاَ أَمْر إِلاَّ أَمْر الله، وَلاَ حُكْم إِلاَّ حُكْمَهُ، ولاَ طَاعَة إِلاَّ طَاعَتَهُ، لِيتنبَّه بِذَلِك وَيَتذَكَّر فيَمْتثِل أَمْرَ الله تَعالَى فِيمَا

---

1 ـ وردت في نسختي ق و ك : أو لا.

2 ـ سقطت من نسختي ق و ك.

يَرُومه، ويَعْصي أَمْر الشَّيْطان والنَّفْس والهَوَى إِنْ كَانَ مُوفَّقا. وكَذا فِي أَمْر البَاطِن، وفِي مُراعَاة الحَالاَت ومُنازَلة المَقَامات، ولاَ نَحْتاج إِلَى مَزِيد بَسْط وتَقْرِير، فَقَد زِدْنا عَلى الإِشَارة الَّتِي فِيها للَّبِيب مَقْنَعُ.

فانْظُر كَيْف صَارَت هَذِه الكَلِمَة المُشرفَة، الفَذَّة[1] الجَامِعة مَفْزعاً لِكُلِّ مُوفَّقٍ، ومَلْجأً فِي كُلِّ حَالَة، ومِفْتاحا لِكلِّ بَاب، وعُنْوانَا لِكلِّ كِتابٍ، ومِقْياساً لِكلِّ مَدْرَك وَمِقْباساً فِي كُلِّ مَسْلَك، فَما أَعْظَم قَدْرَها وأَجلَّ خَطَرها، جَعلَنا الله مِنْ أَهْلِها المُنْتَظِمين فِي شَمْلِها، ولَعلَّك تَفْهَم مِنْ هَذا إِشَارة قَوْله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَفْضَل مَا قُلتُه أَنَا وَالنَّبِيونَ مِنْ قَبْلِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله»[2]. وَفِي الحَدِيث يَقُول الله تَعالَى : «لاَ إِلَه إِلاَّ الله حِصْنِي <فَمَنْ قَالَها دَخَل حِصْنِي>[3] وَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذابِي»[4].

واعْلَم أَنَّه بَعْد كَتْبِي لِهَذا الوَجْه، عَلى حَسَب مَا وَقَع فِي فَهْمي، رَأيْت فِي تَفْسير الإِمَام الثَّعلبِي[5] نَحْوه، قَال فِي قَوْله تَعالَى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾[6] «قِيلَ : الخِطَاب للنَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمُرَاد[7] غَيْره. وَقِيل : المَعْنى فاثْبُت عَلى ذَلك مِنْ عِلْمِك»[8].

وقَال الكناني[9] «هُوَ أَنَّ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَان يَضْجَر، وَيَضِيق صَدْرُه مِنْ طَعْن

---

1 ـ وردت في نسخة ح : الفاذة.
2 ـ سبق تخريجه في ص : 24.
3 ـ ساقط من نسخة ك.
4 ـ أخرجه القضاعي في مسند الشهاب، الباب : 16، ص : 323 رقم : 885. والديلمي في الفردوس/ 5 : 251 رقم : 810.
5 ـ أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النسابوري المقرئ المفسر (ت : 427هـ)، نقل السمعاني عن بعضهم أنه يقال له : الثعلبي والثعالبي، كان رأسا في التفسير والعربية، متين الديانة، من مؤلفاته : «العرائس في قصص الأنبياء»، و«الكشف والبيان في تفسير القرآن». التفسير والمفسرون/ 1 : 221.
6 ـ محمد : 19.
7 ـ وردت في نسخة ك : والمرد.
8 ـ نص منقول من كتاب الكشف والبيان في تفسير القرآن، الذي قال في شأنه صاحب التفسير والمفسرون : «عثرت على هذا التفسير بمكتبة الأزهر، فوجدته مخطوطا غير كامل، وجدت منه أربع مجلدات ضخام، وباقي الكتاب مفقود». التفسير والمفسرون/ 1 : 223.
9 ـ عبد العزيز بن يحيى الكناني المكي (ت : 240هـ)، فقيه مناظر من تلامذة الإمام الشافعي، قدم بغداد أيام المأمون فجرت بينه وبين بشر المريسي مناظرة في القرآن. الأعلام/ 4 : 29.

الكُفَّار والمُنافِقين فِيه، فَنَزَلت أي : فاعْلَم أنه لاَ كَاشِف لِمَا بِك إلاَّ الله تَعالَى، فلاَ تُعلِّق قَلْبَك بِمخْلُوق».

وَقالَ أَبُو العَالِية[1] وابْنُ عُيَيْنَة[2] : «هُوَ مُتَّصِل بِما قَبْلَه، أَيْ فاعْلَم أَنَّه لاَ مَلْجأَ ولاَ مَفْزَع عِنْد قِيَّام السَّاعَة إلاَّ إلى الله تَعالَى».

وقَال ابْن غُنْذُشٍ : «مَعنَاه فاعْلَم أَنَّه لاَ قَاضِي ذلكَ اليَومَ إلاَّ الله تَعالَى، نَظِيره مَلِك يَوْم الدِّين» انتهى.

فانْظُر فإِنَّه فِي القَوْلَيْن الأَوَّليْن، حَيْث أَرَاد التَّفْسير المَشْهُور، احْتاجَ إِلى تَأْويل فِي حَقِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِيما بَعْدَه مِنَ التَّفاسِير لَمْ يَحْتَج لِصحَّته فِيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الوَجْه الرَّابِع : أَنْ نَعْتَبِر أَنَّ الإِلَه هُو المَعْبود، والعِبادَة الخُضُوع والمَيْلُ كَمَا مَرَّ، ونَعْتبِر أَنَّ المَوْجود لاَبُدَّ أَنْ يُمَال إِلَيْه فِي الجُملَة، ويُحبَّ نَوْع مَحبَّة، إِذْ لاَ يَخْلو مَوْجود مِنْ[3] فَائِدَة مَا لِمُسْتَفِيد مَا، فَيُحبُّ لأَجْلِها، وَ«حُبّك الشَّيْءَ يَعْمي ويُصِمُّ»[4] فَيصِير مَعْبُودا بِذلِك المِقْدار، فَكلُّ مَوْجود يُمْكِن أَنْ يَصيرَ إِلهاً عِنْد غَافِل ما، فَنقْصِد نَفْي المَوْجود عَلى العُمومِ سِوَى الله تَعالَى، لِيتَحقَّق التَّوْحِيد، فإِذا قُلْنا : «لاَ إِلَه إلاَّ الله»، فَكَأَنَّا قُلْنا : لاَ مَوْجودَ إِلاَّ الله، ولاَ يَخْلو الذَّاكر حِينَئذٍ مِنْ حَالتَيْن:

الأُولَى، أَنْ يَكُون فِي الغَيْبَة والاصْطِلام عَنِ الأَكْوان رَأْسا، ظَاهِرا وبَاطِنا، كالَّذِي مَرَّ بالسُّوق فَقِيل لَه : مَنْ لَقِيْتَ فِي طَرِيقك ؟ فَقالَ : لاَ أَحَد فِي القِصَّة المَشْهورَة، فَهَذا إِنْ قَال «لاَ إِلَه إِلاَّ الله»، أَيْ لاَ مَوْجود إِلاَّ الله، فَقَد قَالَه عَلى

---

1 ـ رفيع بن مهران الرياحي البصري (ت : 92هـ) قيل فيه : «ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية». وهو من ثقات التابعين. طبقات الحفاظ للسيوطي : 48.

2 ـ ابن عيينة يكنى أبا محمد، وهو مولى لبني عبد الله بن رويبة (107 / 198هـ)، حافظ ثقة واسع العلم كبير القدر، أسند عن جمهور أعلام التابعين، كالزهري والأعمش. صفوة الصفوة/ 2 : 141.

3 ـ وردت في نسختي ق و ك : عن.

4 ـ تضمين لحديث سبق تخريجه ص : 57.

158 الحَقِيقَة لاَ المَجاز، لأَنَّه[1] يُخَبِّر عَمَّا فِي ضَمِيره، ولَيْس / عِنْدَه مَوْجود أَصْلا غَيْر الله تَعالَى، مَادَامَ فِي هَذِه الحَالَة لِغَيْبَته عَنْ سَائِر المَوْجودَات الكَوْنِية، وإِنَّما يَتِمُّ[2] هَذا بِأَنْ يَغِيبَ عَنْ نَفْسِه أَيْضا فِي جُمْلَة الأَكْوَان.

الحَالَة الثَّانِية، أَنْ يَكونَ مِنْ أَهْل الصَّحْو والبَقاءِ، بِحيْث يُشاهِد المُكونَات، غَيْر أَنَّه غَائِبٌ عَنْها فِي المَعْنى، وهِيَ مَعْدومةٌ عِنْدَه حُكْماً، وإِنْ وُجِدَت صُورَةً، فَيقُول : «لاَ إِلَه إِلاَّ الله»، أَيْ لاَ مَوْجودَ إِلاَّ الله نَظراً إِلَى التَّحْقِيق وبَاطِن الأَمْر، وإِلْغاء للظَّاهِر الَّذِي هُوَ مَنْظَر الغَافِلِين. وتَقْرِير ذَلِك عِنْده مِنْ وَجْهَين:

أَحدُهُما، أَنَّ هَذِه المُكَوناتِ كُلُّها مَسْبوقَة بالعَدَم مَلْحوقَة بِه حُصُولا أَوْ قُبولاً، فالعَدَم لَها مِنْ ذَاتِها كُلِّها، وإِنَّما الوُجودُ أَمْرٌ عَارِض لَهَا مِنْ خَارِجٍ، وهُو فِعْل الفَاعِل المُخْتار، فَيكُون اسْم العَدَم أَوْلى بِها مِنَ اسْمِ الوُجودِ، لأَنَّ مَا بِالذَّات أَوْلى مِمَّا بالعَرَض.

وَقَال الشَّيْخ أَبُو العَبَّاس [المُرْسي] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[3]: «كَانَ الإِنْسانُ بَعْد أَنْ لَمْ يَكُن، وسَيفْنى بَعْد أَنْ كَان، ومِنْ كِلاَ طَرفَيْه عَدمٌ فَهُو عَدَم»[4].

قَال ابْنَ عَطاء الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[5]: «ومَعْنى كَلاَم الشَّيْخ هَذا، أَنَّ الكَائِنات لاَ تَثْبُت لَها رُتْبَة الوَجودِ المُطْلَق، لأَنَّ الوُجودَ الحَقَّ هُوَ لله ولَه الأَحدِية فيه، وإِنَّما للعَوالِم الوُجود مِنْ حَيْثُ مَا أُثْبِتَ لَها»[6]. «واعْلَم أَنَّ مَنِ الوُجُودُ لَه مِنْ غَيْره، فالعَدَم وَصْفُه فِي نَفْسِه» انْتَهى. ولأَنَّ الوُجُود العَارِض لَها بِصدَد الزَّوالِ ولَوْ بَعْدَ حِين، والشَّيْء إِذا تَحقَّق إِتْيانُه يُعْتَبر وَاقِعاً، كَما قالَ تَعالَى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴾[7] وقَال تَعالَى: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾[8].

---

1 ـ وردت في نسخة ك : إنما.

2 ـ وردت في نسخة ك : يتسم.

3 ـ سقطت من نسخة ق. وأبو العباس المرسي سبقت ترجمته في ص : 79.

4 ـ نص منقول بتصرف من كتاب لطائف المنن، الباب الثامن : 160.

5 ـ سبقت ترجمته في ص : 10.

6 ـ نص منقول بتمامه من لطائف المنن، الباب الثامن : 160.

7 ـ الزمر : 30.

8 ـ النحل : 1.

الوَجْه الثَّانِي، أَنَّ الكَائِنات، وإِنْ كَانَت لَها صُورَة الوُجُود هِي فِي حُكْم المَعْدوم، وذَلِك أَنَّها مُفْتقِرةٌ مُتلاَشِيةٌ، لاَ قِيامَ لَها بِنَفْسها ولاَ غِنَاء لَها، وتَنْزِيل المَوْجُود مَنْزلَة المَعْدوم لِعدَم غِنَائِه كَثِير، كَمَا قَال تَعالَى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[1]. فَنفَى العِلْمَ عَنْهُم فِي تَأْوِيل بَعْد أَنْ أَثْبتَه، إِذْ لَمْ يَنْتَفِعوا بِه <فَكأَنَّه غَيْر مَوْجود>[2].

وَقالَ الشَّاعِر :

وَذُو الجَهْل مَيْتٌ وهُوَ يَمْشِي عَلى الثَّرَى ❖❖❖ يُعدُّ مِنَ الأَحْيـاءِ وهُـوَ عَدِيـمُ[3]

وَقَال آخَر :

خُلِقـوا ومَـا خُلِقـوا لِمكْرُمَـة ❖❖❖ فَكأَنَّهُـم خُـلِقـوا ومَـا خُلِقوا
رُزِقـوا وَمَا رُزِقـوا سَمَاح يَـدِ ❖❖❖ فَكأَنَّهُـم رُزِقـوا ومـا رُزِقـوا

فَمَنْ رَأَى الكَائِنات بِهذِه الصِّفَة[4]، فَهُو يَرَاها مَعْدومَة بِبصِيرَته، فَيصِحُّ لَه أَنْ يُخْبِر بأَنَّه لاَ مَوْجودَ إِلاَّ الله، كَمَن يَخْبرُ رِجال البَلَد فَلَمْ يَجِد فِي أَحدِهِم خَيْراً ولاَ غَناءً، فإِنَّه يَصحُّ أَنْ يَقولَ : لاَ رَجُل فِي البَلَد إِلاَّ فُلاَن، ويَصْدُق كَلاَمُه وإِنْ كَثُر الرِّجَال فِي البَلَد، لأَنَّ مَقْصِده أَنَّ مَوْجودَهم كالمَعْدوم، ولله دَرُّ القَائِل فِي نَحْو هذا المَعْنى :

مَا أَكْثَرَ النَّاسَ لاَ بَـل مَـا أَقَلَّهُـم ❖❖❖ والـلـه يَعْلَم أَنِّـي لَـمْ أَقُـل فَـنَدَا
إِنِّـي لأَفْتَح عَيْني حِيـنَ أَفْتحُهـا ❖❖❖ عَلى كَثِير ولَـكِـنْ لاَ أَرَى أَحَـدَا

---

1 ـ البقرة : 102.
2 ـ ساقط من نسخة ك.
3 ـ البيت ينسب لابن السيد البطليوسي أبو محمد (ت: 521هـ) العالم باللغات والأدب، له اليد في العلوم القديمة، الصلة/ 1: 293. الديباج/ 1 : 441.
4 ـ وردت في نسخة ك : الصفات.

وَقالَ الشَّيْخُ أَبُو الحَسَن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1] : «وإنَّا لاَ نَرى[2] أَحداً مِنَ الخَلْق، هَلْ فِي 159 الوُجودِ أَحدٌ سوَى المَلِك / الحَقّ، وإِنْ كَانَ لاَبُدَّ فَكَالهَبَاء فِي الهَواء، إنْ فَتَّشْتَه لَمْ تَجِدْ شَيْئاً»[3].

ولِهذَا قَال ابْن عَطاء اللهرَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَا حَجَبَك عَنِ الله وُجود مَوْجُود مَعَهُ، إذْ لاَ مَوْجُود مَعَه، وإِنَّما حَجبَك عَنْه تَوهُّم مَوْجود مَعَهُ، وذَلِك كَرجُل بَاتَ[4] فِي مَكانٍ وأَرَاد البُرازَ، فَسمِع صَوْت الرِّياحِ مِنْ كُوَّة هُنالِك، فَظنَّه زَئِير أَسدٍ، فَمنَعه ذَلِك عَنِ البُراز، فَلمَّا أَصْبَح لَمْ يَجِد هُنالِك أَسداً، وإِنَّما هُو صَوْت الرِّياح انْضَغَط فِي تِلْك الكُوَّة، فَمَا حَجبَه وُجود أَسَدٍ، وإِنَّما حَجَبَه تَوهُّم الأَسَد»[5] انْتهَى.

فَمَن كَانَ فِي إِحْدى هَاتيْن الحَالَتيْن اللَّتيْن فَسَّرْنا، صَحَّ مِنْه أَنْ يَقُول : «لاَ إِلَه إلاَّ الله»، ويُرِيد مِنْها نَفْيَ كُلِّ مَوْجودٍ سِوَى الله تَعالَى، وَقَد تَيسَّر هَذا المَعْنى لِمَنْ يَقُول أَنَّ الأُلوهِية هِيَ الوُجود المُطْلَق، مَعَ أَنَّ هَذا القَوْل بَاطِلٌ مَرْدودٌ عَلَى زَاعِمِه مِنَ الحُكمَاء، كَمَا تَقرَّر ذَلِكَ فِي عِلْم الكَلاَم، ومَنْ لَمْ يَكُنْ عَلى شَيْءٍ مِنْ هَاتَيْن الحَالَتيْن، بأَنْ يَكُون مِنَ الغَافِلين أَوِ المُشْرِكين، لَمْ يَصِح مِنْه أَنْ يَقُول : «لاَ إِلَه إلاَّ الله» بِهَذا التَّفْسِير، لأن المَوْجودَات عِنْده سِوَى الله تَعالَى كَثِيرةٌ، فَلَوْ أَخْبَر بأَنْ لاَ مَوْجودَ سِوَى الله تَعالَى، كان مُتعَمِّداً للكَذِب فِي زَعْمِه، كَمَا قَال تَعالَى : ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾[6].

واعْلَم أَنَّ هَذِه الأَوْجُه الثَّلاَثة الَّتِي ذَكرْناهَا فِي الكَلِمَة المُشرفَة، وَقَعتِ الإشارَة إليْها فِي كَلاَم القَوْم، حَيْث تكلَّمُوا عَلى الفَناءِ، فَقالُوا : الفَنَاء عَلى ثَلاَثة أَوْجُه :

1 ـ سبقت ترجمته في ص : 78.
2 ـ وردت في نسخة ك : أرى.
3 ـ نص منقول من لطائف المنن، المقدمة : 52.
4 ـ وردت في نسخة ك : يأتي.
5 ـ نص منقول من لطائف المنن : 134. وورد كذلك في حكم ابن عطاء الله، شرح العارف بالله الشيخ زروق، الباب : 14. ص : 241.
6 ـ المنافقون : 1.

فَناء فِي الأَفْعالِ ومِنْه قَوْلهُم : «لاَ فَاعِل إِلاَّ الله»، وفَناء فِي الصِّفَات لاَ حَي ولاَ عَالِم ولاَ قَادِر ولاَ مُرِيد إِلاَّ الله، وفَناء فِي الذَّاتِ لاَ مَوْجُود عَلى الإِطْلاَق إِلاَّ الله.

حِـكَايَـة : {مِحْنَة الإِمَام الشَّافِعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ}

ذَكَر القَاضِي أَبُو بَكْر بْنُ العَرَبي[1] فِي سِرَاج المُرِيدِينَ مِحْنَةَ الإِمَام الشَّافِعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2] وأَنَّه حُمِل إِلَى الرَّشِيد مُقيَّداً، وأُحْضِر بَيْن يَدَيْه، وأَجْلَسَ لَه بِشْراً المْرِيسِي[3]، فَسأَلَه عَنِ التَّوْحِيد، فقَال الشَّافِعي : «أَنْ لاَ تَتَّهِمَه ولاَ تَتَوهَّمُه»، فَبُهِت بِشْر، قَال القَاضي : «ولله دَرُّه، فَلقَد جَمَع العِلْم بالله فِي كَلِمتيْن» انْتهَى.

{تَفْسِيرُ اليُوسي لِكَلامِ الشَّافِعي فِي التَّوْحِيد عَلَى وَجْهِ الإِشارَةِ}

قُلْتُ : بَلْ جَمَع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي هَاتيْن الكَلِمتَين عُلُوم التَّصوف وعُلُوم التَّوْحِيد جَمِيعاً، وبَيَان ذَلِك بِالإِشَارة، أَنَّ عَدَم الاتِّهَام هُوَ الثِّقَة بِضَمانِه، والتَّوَكل عَلَيْه، والتَّفْوِيض لَه والتَّسْلِيم، وَهذَا هُو جَوْهَر التَّصوف وحَقِيقته. وعَدَم التَّوهم هُوَ العِلْم بِأَنَّه مُتَنزِّه عَنْ سِماتِ المُحْدثَات، مُتعَال عَنْ جَمِيع التَّغيرَات، مُخَالِف لِجَمِيع الكَائِنات، مُبايِن لِكُلِّ مَا يَخْطُر فِي الأَوْهام والتَّخَيلاَت[4]، وهذَا هُو سِر[5] التَّوْحِيد، والغَرَض المَطْلُوب اعْتقَاده، إِذِ العُقُول مَحْجوبَة عَنِ الكُنْه، فَلَمْ يَبْقَ لَها إِلاَّ التَّنْزِيه، فَقَد احْتَوت الكَلِمتَان عَلى العِلْمَيْن مَعاً.

1 ـ أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي الإشبيلي، (468 / 543هـ)، رأس المالكية في زمنه، والحافظ المتبحر، من كتبه التي تدل على غزارة علمه وفضله : «الأمد الأقصى في أسماء الله الحسنى»، و«المتوسط في معرفة صحة الاعتقاد»، و«المحصول في علم الأصول». شجرة النور : 136.

2 ـ محمد بن إدريس بن العباس المطلبي القرشي (150 / 204هـ)، أحد الأئمة الأربعة في الفقه عند أهل السنة، وإليه ينسب المذهب الشافعي وعلماء الشافعية. طبقات الشافعية الكبرى/ 1 : 192.

3 ـ بشر بن غياث المريسي البغدادي (ت : 218هـ)، الفقيه الحنفي المتكلم المعتزلي، من أهل بغداد، مال إلى علم الكلام، وقال بخلق القرآن كالمعتزلة، ورأس الطائفة المريسية. الأعلام/ 2 : 27.

4 ـ وردت في نسخة ح : الخيالات.

5 ـ وردت في نسخة ح : أمر.

ثُمَّ إِذَا رَجعْنا إِلى الأُولَى وجَدْناهَا وَحْدَها كَافِية فِي البَابيْن، مُحِيطَة بالمَطْلبَيْن، وذَلِك أَنَّك لاَ يَنْتفِي عَنْك اتِّهامه، ولاَ يَثْبُت فِي قَلْبك الوُثُوق بضمَانه، إلاَّ بَعْد أَنْ تَعْلَم أَنَّه مَوْجود، إِذِ المَعْدوم لاَ ضَمانَ لَه. وتَعلَم أَنَّه قَدِيم بَاقٍ، إِذْ لَوْ كَان حَادِثاً لافْتَقرَ إِلَى غَيْره، وكَان ذَلِك الغَيْر هُوَ الرَبُّ، الَّذِي يَجِب التَّسْلِيم إِلَيْه والتَّفْوِيض.

وتَعْلَم أَنَّه مُخالِف لِخلْقِه، إِذْ لَوْ كَان مِثْلَك لاحْتاجَ كَما احْتَجْت، فلاَ يَصحُّ الوُثوق بِه ولاَ التَّسْلِيم لَه. وَأَنَّ تَعْلَم أَنَّه غَنِي بِالإِطْلاق، إِذْلَوْ كَان مُحتَاجا لَمَا قَامَ بِما 160 وَعَد. وأَنْ تَعْلَم أَنَّه وَاحِدٌ فِي مُلْكِه / لاَ مُنازِع لَه، إِذْ لَوْ كَان مَعه شَرِيك لَما وَثِقْت بِه دُون شَرِيكه، ولأَنَّ الشِّرْكَة تَقْتضِي التَّمانُع وتَعطُّل الفِعْل كَمَا مَرَّ، فَلاَ يَتأَتَّى لَه أَنْ يُوَصِّل إِلَيْك مَا ضَمِن لَك.

وأَنْ تَعْلَم أَنَّه قَادِرٌ مُرِيد، إِذْ لَوْ كَان عاجِزاً أَوْ مُسْتكرَها، لَتعذَّر عَليْه إِنْفَاذُ مَا وَعدَ بِه، فَلاَ تَثِقْ به. وأَنَّه عَالِمٌ، إِذْ لَوْ كَانَ جَاهِلا بِالأَشْياءِ، لَتعذَّر عَلَيْه تَخْصِيصُها وَإِيجَادُها لَكَ. وَأَنَّهُ حَيٌّ، إِذْ لَوْ كَان مَيِّتا لَمَا عَلِم ولاَ خَصَّصَ. وأَنَّه صَادِقٌ فِي كَلامِه، إِذْ لَوْ تَطرَّق إِليْه الكَذِب تَعالَى <عَن ذَلِك>[1] لَمَا وَثِقْت به. وأَنَّه أَرْسَل الرُّسُل وأَيَّدهُم بالمُعجِزات، وعَصمَهم مِنَ الكَذِب والخِيانَة، إِذْ لَوْلاَ ذَلِك كُلِّه، لَما ثَبَتَ عِنْدَكَ مَا بَلغَك عَنْه تَعالَى حَتَّى تَثِق بِه. فَقَد عَلِمْت أَنَّ الوُثوقَ بِوعْدِه وضَمانِه يسْتلزِم جَمِيع عَقائِد الإِيمان مما ذَكرْنا ومَا لَمْ نَذْكُر، ولاَ حَاجَة بِنا إِلى تَفْصيلِها مَعَ وُضوحِها، جَعلَنا الله تَعالَى مِنْ أُولِي الفَهْم.

وتَعْلَم بِهذَا أَنَّ مَا أُعطِيَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جَوامِع الكَلِم، يَكُون لأَهْلِ الوراثَة مِنْ أُمَّتِه، كالشَّافِعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَصِيبٌ مِنه ومَشْرَبٌ، وفِي الحَدِيث: «إِنَّ الأَنْبِيَاء لَمْ يُوَرِّثُوا دِيناراًوَلاَدِرْهماًوَإِنَّمَاوَرَّثُواالعِلْمَ»[2] الحَدِيث. رَزَقَنا الله وإِيَّاكُم مِنْه أَوْفَر نَصِيب بِمنِّه.

---

1 ـ ساقط من نسخة ح.

2 ـ أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب: العلم قبل القول والعمل. وابن ماجه في المقدمة، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم. وغيرهما.

وإنْ شِئْنا قُلْنا الكَلِمَة الأُولَى تَتضمَّن التَّحْلِية كَمَا قَرَّرْنا، والثَّانِية تَتضمَّنُ التَّخْلِية عَنِ النَّقَائِص، والله المُوفِّق لاَ رَبَّ غَيْرَه.

المَطْلَب الثَّانِي : فِي ذِكْر تَمكُّنِ هَذِه الكَلِمَة المُشرفَة فِي قَلْب ذَاكرِها

اعْلَم أَنَّ ذَاكِرَ هَذِه الكَلِمَة، لاَ يَخْلُو، إِمَّا أَنْ يَكُون نَاطقاً بِها، غَيْر مُعْتقِد لِمعْناهَا، وذَلِك إِمَّا لِكوْنِه لَمْ يَتصوَّره أَصْلاً، أَوْ تصوَّرَه ولَمْ يُصدِّق بِه، فَهذَا يَصْدُق عَلَيْه بِمُقْتضَى ظَاهِرِه الَّذِي يَبْدو للنَّاس اسْم الإِسْلام، وتَجْرِي عَلَيْه أَحْكامُه الدُّنْيوِية كَما مَرَّ، ولاَ يَنْتفِع بِها فِي الآخِرَة أَصلاً. وَإِمَّا أَنْ يَنْطِق بِها ويَعْتقِد مَعْناهَا، أَيْ انْفِراد الله تَعالَى بالأُلوهِية، وذَلِك بَعْد تَصوُّر هَذا المَعْنى فَهذَا مُؤْمِن، وقَدْ مَرَّ تَفْسِير الإِيمَان وأَنَّه هُو التَّصْدِيق. والمُعْتَبر كَوْن التَّصْدِيق حَاصلاً فِي النَّفْس حُصولاً اتِّصافِياً لاَ تَصوُّرِيا فَقَط.

ولاَبُدَّ أَنْ تَعْلَم فِي هَذا المَحلِّ، أَنَّ الكَيْفيَات النَّفْسانِية إِذَا حَصلَت فِي النَّفْس، فَقَد تَحْصُل <فِيها>[1] بأَعْيانِها، وهُو[2] المُسمَّى بالحُصول الاتِّصافِي، وَيُقَال لَهُ الوُجُود المُتَأَصِّل، وَقَدْ تَحْصُل بِصُورِها، وَهُوَ الحُصولُ التَّصوُّرِي، وَالوُجُود غَيْر المُتأَصِّل، كَنِسْبَة ظِلِّ الشَّجرَة مِنَ الشَّجرَة عَلى مَا مَرَّ، مِنْ أَنَّ للشَّيْء وُجوداً فِي الأَذْهانِ، وبَيْن الأَمْرَيْنِ المَذْكورَين عُمومٌ وخُصوصٌ مِنْ وَجْه، فإِنَّ النَّفْس قَد تَتصوَّر الشَّيْ وتَتَّصِف بِه، كالمُؤْمن العَارِف يَتصوَّر مَعْنى الإِيمَان ويَتَّصِف بِه، وقَدْ تَتَصَوَّر الشَّيْء، وَلاَ تَتَّصِف بِهِ، كَالكَافِر يَتَصوَّر مَعْنَى الإِيمَان وَلاَ يَتَّصِف بِهِ، وَقَدْ تَتَّصِف بالشَّيْء ولاَ تَتصوَّره، كَبعْض المُؤْمِنين يَتَّصِف بالإِيمَان ولاَ يَتصوَّر حَقِيقَته، وكَذَا الإِنْسان قَدْ يَتَّصِف بالكَرَمِ ولاَ يَعْرِف مَعْناه، وقَد يَعْرِف مَعْناه وهُو بَخِيلٌ.

1 ـ سقطت من نسخة ك.

2 ـ وردت في نسخة ك : وهي.

{الإِيمَانُ الحَاصِل مِنَ التَّصْدِيق بِمضْمُون الكَلِمَة المُشرفَة ثَلاثُ دَرجَاتٍ}

إِذَا عَلِمْت هَذا، فاعْلَم أَنَّ الإِيمَان الحَاصِل مِنَ التَّصْدِيق بِمضْمونِ الكَلِمة المُشرفَة، لَهُ ثَلاث دَرجَات :

الأُولَى : الجَزْم تَقْليدا للشَّريعة وللعُلمَاء الدَّالين عَلى الله تَعالَى، كَمَا هُو إِيمَان عَوامِّ المُؤْمنِين، ولاَ أَقلَّ مِنْ هَذِه الدَّرجَة، إِذْ لَيْس دُونَ الجَزْم إِلاَّ الشَّك والظَّن والوَهْم، ولَيْس شَيْء / مِنْ ذَلِك بِمُعتَبَر اتِّفاقاً. 161

الثَّانية : الجَزْمُ المُسْتنِد إِلى الاسْتِدلاَل، كَمَا هُوَ إِيمَان المُتكلِّمين.

الثَّالِثة : المُشاهَدة بِنُور اليَقِين، وهُو إِيمَان العَارِفين.

وبَيْن الدَّرجَات الثَّلاَث التَّفاوُت البَيِّن فِي الثَّبَات وعَدَمِه.

{مِثالٌ مَحْسُوسٌ فِي التَّفاوُت البَيِّن فِي التَّصْديقِ مِنْ حَيْثُ الثَّباتُ وَعَدمُه}

وَقَد ضَرَب أَرْباب القُلُوب لِذَلك مِثالاً يَتبيَّن به التَّفاوُت، وهُو أَنَّك لَوْ صَدَّقْت بِوجُود زَيْد فِي الدَّار مَثلاً، فَتارَة يَكُون تَصْديقُك بِسبَب أَنْ أَخبرَك مُخْبِر وَثِقْت بِصدْقِه، فاعْتقَدتَ مَا أَخْبرَك بِه ولَمْ تَشُك فِيه، وهَذا هُو التَّقْليد.

ومِثْله إِيمَان العَوامِّ، فإِنَّهم لَمَّا بَلغُوا سِنَّ التَّمْييز، سَمِعوا مِنْ آبَائِهم وأَهْلِيهم وُجودَ الله تَعالَى وقِدَمه، وَبَقَاءَهُ وقُدْرتَه، وعِلْمه وإِرَادتَه، وسَائِرَ صِفاتِه، وَبِعثَةَ الرُّسُل، وخُصوصاً نَبِينا مُحمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وثُبوت القِيامَة، والحَشْر والجَنَّة والنَّار، وغَيْر ذَلِك مِنَ العَقائِد، فَآمنُوا بِذلِك وصدَّقُوا بِه، ولَمْ يَشُكُّوا فِيه ثِقةً بِصدْق آبائِهم وأُمَّهَاتهم ومُعلِّميهم، وحُسْن ظَنٍّ بهم مِنْ غَيْر تَبصُّر ولاَ اسْتنَاد إِلى شَيْء، غَيْر مُجرَّد سَماع الخَبَر الفَاشِي، ولاَشَكَّ أَنَّ هَذا جَزْمٌ لَيْس مَعهُ كَشْف ولاَ بَصِيرَة، وتَطرُّق الخَطأ مُمْكِن فِي مِثْله، لِجوَاز الخَطَأ فِيمَا يُسْمَع مِنَ الآحَاد، <بَلْ>[1] ومِنَ الأَعْداد، لَكنَّهم يَنْجون بِه عِنْد المُحقِّقِين، وإِنْ لَمْ يَكونُوا مِنَ الفَائِزين.

---

1 ـ سقطت من نسخة ك.

وتَارَة يَكُون تَصْديقكَ بِوُجود زَيْد، بِسبَب إِنْ قَرَّبْت مِنَ الدَّار فَسمِعْت صَوْتَه مِنْ خَارِجٍ، فَاسْتَدلَلْت بِه عَلى وُجودِه فِيهَا، ولَمْ تَكْتفِ بِسمَاع ذَلِك مِنَ الثِّقَة، ولاَشَكَّ أَنَّ الاعْتِقاد فِي هَذا أَقْوى، والجَزْم فِيه أَثْبَت مِنَ الَّذِي قَبْله، فإِنَّك[1] إِذَا سَمِعْت مِنَ الثِّقَة أَنَّه فِي الدَّار، ثُمَّ دَنوْت فَسمِعْت كَلامَه، فإِنَّك لاَ مَحالَة تَزْدادُ يَقِيناً وطُمأْنِينة وانْشِراح صَدْر، غَيْرَ أَنَّ الخَطَأَ فِي مِثْل هَذا أَيْضا مُمْكِن، إِذِ الصَّوْت قَد يُشْبِه الصَّوْت، ولكِنَّه أَبْعَد مِنَ الَّذِي قَبْلَه.

ومِثْله إِيمَان أَرْبابِ الاسْتِدْلاَل، فإِنَّهُم بَعْدمَا سَمِعوا مِنَ الحَقِّ مَا سَمِعه <العَوامّ>[2]، تَنبَّهوا لأَدِلة اسْتدلوا بِها أَفَادَتْهم قُوَّة وطُمأْنِينة، وقَد تظنُّ الشُّبْهة بُرهاناً، وذَلِك عِنْد السَّلامَة مِنَ الهَوى بَعِيد.

وقَد يَكون التَّصْديق المَذْكور، بِسبَب أَنْ دَخلْت الدَّارَ وَشاهَدْت زَيْدا بِعيْنَيك، فَهذِه مَعْرِفة يَقِينِية وكَشْفٌ حَقِيقي.

ومِثْله إِيمَان المُقرَّبين والصِّديقِين، فَإِنَّهم صَدَّقوا عَنْ مُشاهَدة وانْشِراح تَامٍّ، فَانْطوَى فِي إِيمَانِهم إِيمَان العَوامِّ والمُتكلِّمين، وتَميَّزوا بِرُتبَة يَسْتحِيل فِيها الخَطأ والغَلَط، واسْتَغنوا فِيها عَنِ الاسْتِدلاَل والاعْتِبارِ، وفِي ذَلِك قَال الشَّيْخ أَبُو الحَسَن الشَّاذِلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «إِنَّا لَنَنْظُر إِلى الله تَعالَى بِبصِيرَة الإِيمَان والإِيقَان، فَأَغْنانَا ذَلِك عَنِ الدَّلِيل والبُرْهان»[4] انْتَهى.

نَعَم، تَتفاوَت دَرجَات هَؤُلاء أَيْضا، فإِنَّ مَنْ دَخلَ الدَّار فِي ذَلِك المِثال، فَرأَى زَيْدا قَدْ يَراهُ <نَهاراً كِفافاً نَظرَ المُتوسِّم المُتمهِّل، وقَد يَراهُ نَظَر مُسْتعجِل، وقَد يَراهُ لَيْلا وقَد يَراه فِي الغَبَش، وقَد يَراهُ مِنْ بَعِيد، وقَد يَراه>[5] مِنْ قَرِيب، وقَد يَرى

1 ـ وردت في نسخة ك : فإنه.
2 ـ سقطت من نسخة ك.
3 ـ سبقت ترجمته في ص : 78.
4 ـ نص منقول من لطائف المنن، المقدمة : 51.
5 ـ ساقط من نسخة ك.

بَعْضه، وقَد يَرى كُلَّه، وكَمَا تَخْتلِف أَحْوال المَرْئي، تَخْتلِف أَحْوال الرَّائِي أَيْضا فِي حِدَّة البَصرِ وضَعْفِه، وفِي الفِطْنَة والغرَّة وغَير ذَلِك، فَيتفاوُت الإِدْراك بِسبَب ذَلِك فِي القُوَّة والضُّعْف، والكَمال والنُّقْصان، وهَكذَا المَعارِف الرَّبانِية.

{الفَرْقُ بَيْن طَرِيق الصُّوفِية وَطَرِيق المُتكَلِّمينَ فِي اسْتِكشَاف الحَقِّ}

162 والفَرْق بَيْن طَرِيق الصُّوفِية فِي اسْتكْشافِ الحَقِّ، / وبَيْن طَرِيق أَهْل الاسْتدلاَل مِنَ المُتكلِّمين، أَنْ تَعْلَم أَنَّ العُلومَ الَّتِي لَيْسَت بِضرُورِيَة، إِذَا وَردَت عَلى القَلْب فَتارَة تَرِد عَليْه بِواسِطَة الاسْتدْلاَل والاعْتِبار والتَّعلُّم، وهَذا طَرِيق العُلمَاء أَهْل النَّظَر، وتَارَة تَهْجُم عَليْه مِنْ غَيْر اسْتِعمَال وَلاَ تَكَسُّب.

وهَذا يَنْقسِم إِلى قِسْميْن : الأَوَّل، أَنْ يَهْجُم الشَّيْء عَلى القَلْب بِلاَ مُشاهَدة وَاسِطة أَصلاً، كَأَنَّه وَقعَ فِيه مِنْ حَيْث لاَ يَدْرِي، وهَذا يُقال لَه الإِلْهام والنَّفَث فِي الرَّوْع. الثَّانِي، أَنْ يَكون مَعَهُ الإِطِّلاَع عَلى السَّبَب والوَاسِطة، وهُو المَلَك المُلْقى فِي القَلْب، وهَذا يُقال لَه الوَحْي، وَيَخْتصُّ بِه الأَنْبياء عَليْهِم الصَّلاَة والسَّلام، والَّذِي قَبْلَه يَكون للأَوْلِياء أَيْضا، وَهِي المَعارِف الَّتِي يَخْتصُّون بِها عَن النُّظَّار، وهِيَ وَهْبِية لاَ تُنَال بالتَّكسُّبِ والتَّعلُّم والاسْتِدلاَل، وإِنَّما هِي مَحْض فَضْل بَعْد تَصْحِيح التَّوبَة والإِنَابَة، وصِدْق الرُّجُوع إِلَى الله تَعالَى والانْقِطَاع إِليْه، ورَفْض مَا سِواه عَلى مَا مَرَّ. ولِذَا قَال إِمَام الطَّائِفَة أَبُو القَاسِم الجُنَيْد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1] : «التَّوْحِيد الَّذِي انْفَرَدَت بِه الصُّوفِية، هُوَ إِفْراد القِدَم عَنِ الحُدُوث، والخُروجِ عَنِ الأَوْطَان، وَقَطْع المَحَاب، وتَرْك مَا علمَ وجهلَ، وأَنْ يَكُون الحَقُّ مَكَان الجَمِيع»[2].

1 ـ سبقت ترجمته في ص : 48.
2 ـ نص منقول بتمامه من الرسالة القشيرية : 300.

وَقَالَ بَعْضهم : «التَّوْحِيد إِسْقاط اليَاءَات[1] لاَ تَقُول لِي وبِي ومِنِّي وَإِلَيَّ»[2].

وَقَال أَبُو مُحمَّد رُوَيْم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3] : «التَّوْحِيد مَحْو البَشرِية وتَجرُّد الأُلوهِية»[4].

وَقالَ القُشَيْري : قالَ الجُنَيْد : «أَشْرَف كَلِمَة فِي التَّوْحِيد مَا قَال أَبُو بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5] : سُبْحانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلْ لِخلْقِه سَبِيلاً إِلى مَعْرفَته إِلاَّ بالعَجْز عَنْ مَعْرِفَته. قالَ الأُسْتاذُ الإِمَام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَيْس يُرِيد الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ لاَ يُعْرَف، لأَنَّ عِنْد المُحقِّقِين العَجْز عَجْز عَنِ المَوْجود دُونَ المَعْدومِ، كالمُقْعَد عَاجِز عَنْ قُعودِه، إِذْ لَيْس بِكسْب لَه ولاَ فِعْل، والقُعود مَوْجود فِيه، وكَذلِك العَارِف عَاجِز عَنْ مَعرِفَته، والمَعْرِفَة مَوْجودَة فِيه، لأَنَّها ضَرورِية، وعِنْد هَذِه الطَّائِفَة : المَعْرِفة بالله سُبحَانه فِي الانْتِهاء ضَرورِية، فالمَعْرِفَة الكَسْبِيَة فِي الابْتِدَاء، وإِنْ كَانَت مَعْرِفة عَلى التَّحْقِيق، فَلَمْ يَعدَّها الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَيْئاً بالنِّسْبة إِلى المَعْرِفة الضَّرُورِية، كالسِّراج عِنْد طُلُوع الشَّمْسِ، وانبِساطِ شُعاعِها عَلَيْه»[6] انْتَهَى.

قُلْتُ : وكَلاَم الصِّدِّيق المَذْكُور مَشْهُور عِنْد المُتكلِّمِين، وهُم يَفْهمُون لَفْظ المَعْرِفة الوَاقِع فِيه عَلى مَا هُوَ المُتَعارَف عِنْدهُم، مِنْ أَنَّها الاعْتِقَاد[7] المُرْتَفِع عَنْ دَرَجة التَّقْلِيد بِأَنْ كَانَ لِمُوجِب، ويَحْملُون الكَلاَم عَلى أَنَّ المُرادَ : أَنَّ الخَلْق بَعْد إِثْباتِهم للهِ تَعالَى الكَمالاَت ونَفْي النَّقائِص، قُصارَى أَمْرِهم العَجْز، لأَنَّ العُقُول مَحْجوبَة عَنِ الكُنْه، فلاَ يَبْقى إِلاَّ التَّحَير والتَّوقُّفُ، وذَلِك هُوَ المَعْرِفة كَمَا وَقَع فِي الكَلاَم الآخَر «العَجْزُ عَنِ الإِدْرَاك إِدْراكٌ».

---

1 ـ المقصود بالياءات : حروف الجر التي تتصل بياء المتكلم.

2 ـ نص منقول بتمامه من الرسالة القشيرية : 302.

3 ـ هو أبو محمد رؤيم بن أحمد (ت : 303هـ) بغدادي، من أعظم المشايخ، كان مقرئا وفقيها على مذهب داود. طبقات الصوفية : 180. حلية الأولياء/ 1 : 296.

4 ـ نص منقول بتمامه من الرسالة القشيرية : 302.

5 ـ الصديق، أفضل الأمة، وخليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والصاحب في الغار، عبد الله بن أبي قحافة القرشي التيمي، توفي سنة 13هـ بعد سنتين من الخلافة. وقد أفردت سيرته بالتصنيف. أسد الغابة/ 3 : 309 – تذكرة الحفاظ/ 1 : 2.

6 ـ نص منقول بتمامه من الرسالة القشيرية : 300.

7 ـ وردت في نسخة ك : العلم.

فانْظُر رَحِمَكَ الله الآنَ، إِلَى لَطافَة أَذْهَان الصُّوفِية ورَجاحَة أَفْكارهم، كَيْف فَهِموا هَذا الكَلاَم عَلى مُقْتضَى أَصْلِهم، وَحَملُوه على وِفْق طَرِيقهم، وهُوَ أَنَّ سَبيل المَعْرِفَة الوَهْبُ[1] المَحْض، والإِلْهَام الرَّبانِي، فلاَ يَكُون العَبْد عَارِفا إلاَّ حَيْث يَكُون عَاجِزا، أَيْ غير مُكْتسَب باسْتِدلاَل ولاَ نَظَر، فَتأْتِيه المَعْرِفة مِنَ اللهِ تَعالَى إِكْراماً مِنْ أَكْرَم الأَكْرَمين، وتُفْرَغ عَليْه[2] إِفْراغاً مِنْ أَحْسَن الخَالِقين، وذَلِك بأَنْ حَمَلوا المَعْرِفة عَلى مَا هُوَ المُتعَارَف عِنْدَهم، مِنْ أَنَّها مَا يَحْصُل للعَبْد مِنَ الله تَعالَى بِلاَ تَعلُّم ولاَ اسْتِدلاَل.

163 / وَعلَى هَذا فَقوْله: «بالعَجْز عَنْ مَعرِفَته»، مَعْناه مَعَ العَجْز عَنْ مَعْرِفته، بِمعْنَى أَنَّ المَعْرِفة تَحْصُل مَع هَذِه الحَالَة وهِيَ العَجْز، لاَ مَع حَالَة أُخْرى كالاسْتدلاَل وكَالإِعْراض، أَوْ مَعْناهُ بِسبَب العَجْز، وهُوَ عَلى حَذْف، كَأَنَّه قِيل: بِسبَب الاعْتِراف بالعَجْز، بِمَعْنى أَنَّه إِنَّما تَحْصُل هَذِه المَعرفة بِسبَب الاعْتِرَاف بالعَجْز، والتَّبَري مِنَ الحَوْل والقُوَّة، وصِدْق الافْتِقار وَاللُّجْأ إِلَى اللهِ تَعالَى، وَلاشَكَّ أَنَّهُ كَذلِك، وَمَا وَجَّهَه بِهِ الشَّيْخ المَذْكُور، مِنْ أَنَّ العَجْزَ إِنَّمَا يَتعَلَّق بالمَوْجُود دُونَ المَعْدوم، بَيانُه أَنَّ أَهْل الكَلاَم اخْتلَفُوا فِي صِفَة العَجْز، فَقِيل: مَعْنَى وُجُودي يُضَاد القُدْرَة، وَإِلَيْه ذَهَبَ الجُمهُور. وقِيلَ: هُوَ عَدَم القُدْرَة عَمَّا مِنْ شَأْنِه.

وَعلَى الأَوَّل ذَهَب الشَّيْخُ أَبُو الحَسَن الأَشْعرِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إِلَى أَنَّ العَجْزَ إِنَّما يَتعلَّق بالمَوْجود لاَ المَعدُوم، لأَنَّ تَعلُّق المَوْجود بالعَدَمي لاَ مَعْنى لَه، فَقالَ: إِنَّ المُقْعَد مَثلاً عاجِزٌ عَنِ القُعودِ الحَاصِل لَه، إِذْ لَمْ تَتعلَّق بِه قُدْرَتُه، ولَيْس عاجِزاً عَنِ القِيَّام، إِذْ هُوَ عَدَم لاَ وُجودَ لَه.

وذَهَب غَيْره إِلى خِلاَف ذَلِك، وقَالَ: لاَ مَانِع مِنْ تَعلُّق العَجْز بَعْد صِحَّة كَوْنه وُجودِيا بِأَمْر عَدمِي، كالعِلْم والإِرَادة. ولِهذَا أَطْبَق العُقلاَء عَلى أَنَّ عَجْز العَرَب،

---

1 ـ وردت في نسخة ق: الوهاب.

2 ـ وردت في نسخة ح: عليهم.

حَيْث تَحدَّاهُم الشَّارِع أَنْ يَأْتُوا بِمثْل القُرآن[1]، إِنَّما هُوَ عَنِ الإِتْيان بالمِثْل، وهُو لَمْ يَقَع لاَ عَنِ السُّكُوت وتَركِ المُعارَضة الوَاقِع لَهُم، فالتَّأْوِيل المَذْكور مَبْني عَلى رَأْيِ أَبِي الحَسَن كَمَا رَأَيْتَ، وتَأْوِيل المُتكلِّمين مَبْني عَلى هَذا الثَّانِي.

وَقالَ الغزالِي رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ[2]: «إِذَا قُلْت "لاَ إِلَه إلاَّ الله"، إِنْ[3] كَانَ مَسْكنُها مِنْك اللِّسَان ولاَ ثَمرَة لَها فِي القَلْب، فَأَنْت مُنافِق، وإِنْ كَانَ مَسْكنُها مِنْك القَلْب، فَأَنْتَ مُؤْمِن. وإِنْ كَان مَسْكنُها مِنْك الرُّوح، فَأَنْت عَاشِقٌ. وإِنْ كَانَ مَسْكنُها مِنْك السِّر، فَأَنْت مُكَاشِف.

فالإِيمَان الأَوَّل إِيمَان العَوامِّ. والثَّانِي إِيمَان الخَواصِّ. والثَّالِث إِيمَان خَواصِّ الخَواصِّ، فَالأَوَّل خَبَر صِدْق مُجرَّد، والثَّانِي ثَمرة بَصِيرة وانْشِراح صَدْر، والثَّالِث ثَمرة مُشاهَدة ومُكاشَفة»[4] انْتَهى.

{تَميُّزُ أَوْلياءِ الله فِي دَرجَاتِ التَّوْحِيد وَتَميُّزهُم بِوِجْدانِ ثَمَرَاتِ الكَلمَة المُشرفَة بَاطِناً وَظاهِراً}

إِذَا عَلِمْت هَذا، وبَانَ لَك مَا تَميَّز[5] به أَهْل المَعْرِفة مِنْ أَوْلِيَاء الله تَعالَى فِي دَرجَات التَّوْحِيد، واخْتصُّوا به فِي مَضْمونِ هَذِه الكَلِمَة، فاعْلَم أَنَّهُم قَد تَميَّزُوا أَيْضا بِوجْدان ثَمرَاتِها بَاطِناً وظَاهِراً، وذَلِك أَنَّ الكَلِمة المُشرفَة عِنْد دَوام ذِكْرها مَع التَّجرُّد التَّام، وصِدْق التَّوَجه، تَتشَبَّث بِسُوَيْداءِ القَلْب، ويَنْصبغ بِمعْناهَا[6]، ويَصِير ذَلِك لَهُ حَالاً، فَتجْرِي الجَوارِح كُلُّها عَلى مُقْتضَاها، فالبَاطِنَة بالإِقْبال عَلَيْه تَعالَى،

1 ـ كقوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ البقرة : 23. وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ هود : 13.

2 ـ سبقت ترجمته في ص : 43.

3 ـ وردت في نسخة ك : إذا.

4 ـ رسالة جمال الإسلام في حديث لا إله إلا الله حصني وما يتعلق بالكلمة المشرفة، مخطوط الخزانة العامة تحت رقم : 2530د، ص : 24.

5 ـ وردت في نسخة ح : يتميز.

6 ـ وردت في نسخة ح : معناها.

والعُكوف عَليْه، والتَّخلِّي عَنْ جَمِيع الأَغْيار إِلَى غَيْر ذَلك. والظَّاهِرَة بالسَّعْي فِي مَرْضاتِه، والمُسارَعة فِي مَحَابِّه، وَقَد قَرَّرنا ذَلِك فِي المَطْلَب الأَوَّل.

قَالَ الغَزالِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أترَ إِذَا قُلْتَ : «لاَ إِلَه إِلاَّ الله»، وأَنْتَ عَابد هَواكَ ودِرْهَمك ودِينَارك، مَاذَا يَكُون جَوابُك يَا عَبْدي لِمَ تَقُول مَا لَمْ يَكُن؟ ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ② كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1] وأَنْتَ عَابد هَوَاك ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[2] وأَنْت عَابِد دِينَارك ودِرْهَمك «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَة»[3] تَعِس وانْتَكسَ، وإِذَا شِيكَ فلاَ انْتَقَش مَادُمْت تَقُول : «لاَ إِلَه إِلاَّ الله»، وأَنْتَ تَسْكُن إِلَى أَهْل ومَال وَوَطَن، وتَركُن إِلى وَلَد ومَسْكَن، 164 فَلسْتَ بِقائِل، كُل قَوْل كَذَّبه الفِعْل فَهُو مُرْدود بِلسَان الحَال/ ، ولِسان الحَال أَفْصَح مِنْ لِسَان المَقالِ.

إِنْ كَان قَوْلُك لاَ إِلَه إِلاَّ الله يُثْمِر مَعْنى فِي القَلْب، فَلِمَ تَتعوَّذ بِفُلان؟ وتَرْجُو فُلاناً، وَتخَافُ فُلاناً، مَا دُمْتَ تَقُول لاَ إِلَه إِلاَّ الله، وتَأْنَس بِغَيْرنا فَلسْنا لَك ولَسْتَ لَنَا، مَنْ كَان لله كَان الله لَه ، وكَانُوا لَنا خَاشِعين وكُنَّا لَهُم حَافِظِين، كَانُوا لَنَا وكُنَّا لَهُم، يَا عَبْدي لِمَ تَلُوذ بِغيْري وأَزِمَّة الأُمُور كُلُّها بيَدي؟، أَنا مَالِك المُلْك أَتصرَّفُ فِي مُلْكِي كَيْف أَشَاء، ولاَ يَكُون فِي هَذا العَالَم إِلاَّ مَا أَشَاء، ولاَ يَقَع فِي الكَوْن إِلاَّ مَا أُرِيد، فلاَ تَلُذ بِسوَاي ولاَ تَيْأَس مِنْ رَحْمَتي، فإِنَّه لاَ يَقْنَط مِنْ رَحْمتِي إِلاَّ الكَافِر، ولاَ يَأْمَن مِنْ مَكْري إِلاَّ الخَاسِر، إِنَّه لاَ يَيأَس مِنْ رَوح الله إِلاَّ القَوْم الكَافِرون ولاَ يَأْمَن مَكْر الله إِلاَّ القَوْم الخَاسِرون»[4].

---

1 ـ تضمين للآيتين : 2-3 من سورة الصف.
2 ـ تضمين للآية : 23 من سورة الجاثية.
3 ـ تضمين لحديث سبق تخريجه في ص : 82.
4 ـ رسالة في حديث لا إله إلا الله حصني، مخطوط الخزانة العامة رقم : 2530د. ص : 23 ـ 24.

وقَال أَيْضا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «كَلِمَة لاَ إِلَه إِلاَّ الله هِي الحِصْن الأَكْبَر، وهِي كَلِمَة التَّوْحِيد، مَنْ تَحصَّن بِها فَقَد حَصَّل سَعادَة الأَبَد والنَّعِيم السَّرْمَد، وَمَنْ تَخلَّف عَنِ التَّحَصُّن بها فَقَد حَصَّل شقَاوَة الأَبَد وعَذابَه السَّرْمَد، ومَهْما لَمْ تَكُن هَذِه الكَلِمة حِصْناً دَائِراً عَلى دَائِرَة قَلْبك، ورُوحهَا نُقْطَة تِلْك الدَّائِرَة، وسُلْطانُها حَارِسا يَمْنَع نَفْسكَ وهَوَاك وشَيْطانكَ مِنَ الدُّخُول إِلَى تِلْك النُّقْطة، وإِلاَّ فأَنْت خَارِج عَنِ الحِصْن، ومُجرَّد قَوْلِك «لاَ إِلَه إِلاَّ الله»، لاَ يَزِن مِثْقَال ذَرَّة، ولاَ يَعْدِل جَناحَ بَعوضَة»[1] انْتَهى.

وقَال الشَّيْخ طَاهِر بْن زَيَّان[2] رَحِمَهُ اللهُ : «اعْلَم وَفَّقنِي الله وإِيَّاك، أَنَّ مُنازَلة «لاَ إِلَه إِلاَّ الله» لِذاكِرها المُوحِّد لله بِها، هُوَ <نَوْع مِنْ>[3] ذَوْق مَعانِيها التَّقْدِيسيَة والإِثْباتِية، وقِيام ذَلِك بالقَلْب، وثُبوتِه لَه ثُبوتا حَالِياً، لاَ اعْتِقَادِياً فَقطْ، ولاَ مَقالِياً» انْتهى.

وَقالَ الإِمَام السَّاحِلِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[4] : «فَإِنْ قُلْت : لِمَ كَانَت أَعْمَال البِرِّ كُلُّها دُونَ الجِهاد، والجِهاد وسَائِر أَعْمَال البِرِّ دُونَ الذِّكْر؟.

فالجَوابُ أَنَّ أَعْمَال البِرِّ كُلَّهَا إِنَّما مَقْصودُها الأَعْظَم، تَصْفِية النَّفْس وتَطْهِيرها، بإِتْلافِها عَنْ مَأْلُوفَاتِها وإِخراجِها عَنْ هَواهَا، حَتَّى تَلْحَق بعالَمِها خَالِية مِنَ[5] الالْتِفَات إِلى شَيْء مِنْ مُتعلَّقاتِها، فما كَان مِنَ الأَعْمال أَقْرَب لِهذَا المَعْنى، وأَعْوَن عَلَيْه فَهُو أَفْضل، مَع أَنَّ عِلَل النَّفْس، مِنْها مَا يَظْهَر لأَوَّل تَأَمُّل، ومِنْها مَا هُو أَخْفى مِنْ ذَبِيب النَّمْل، وأَعْمَال البِرِّ مُسلَّطة عَلى مَحْو هَذِه العِلَل وَإِذْهَاب آثَارها بِطهَارَة النَّفْس، لَكِن أَعْمَال البِرِّ مُتفَاضِلَة فِي أَحْكَام هَذِه الطَّهارَة، مِنْها مَا يُذْهِب مِنَ العِلَل مَا ظَهرَ دُونَ مَا خَفِيَ ، ومِنْها مَا يُذْهِب الظَّاهِر والخَفِيَّ دُون الآثَار،

1 ـ رسالة في حديث لا إله إلا الله حصني، مخطوط الخزانة العامة رقم : 2530د. ص : 22.
2 ـ طاهر بن زيان الزواوي القسنطيني «ت : بعد 940هـ»، الشيخ الفقيه الصوفي الصالح العارف بالله، نزيل المدينة المنورة، من تآليفه : «نزهة المريد في معاني كلمة التوحيد». شجرة النور : 277.
3 ـ ساقط من نسخة ك.
4 ـ سبقت ترجمته في ص : 13.
5 ـ وردت في نسختي ق و ك : عن.

ومِنْها مَا يُذْهِب الظَّاهِر والخَفيَّ وأَثرهما، حَتَّى تَعود النَّفْس إِلَى نِهايَة صَفائِها[1] مُطْمئنَّة بِربِّها.

ولاَشَكَّ أَنَّ الجِهَاد الحَقِيقي مُؤذِنٌ بإِتْلافِ النَّفْس عَنْ مَأْلوفِها، وإِخْراجِها عَنْ عَالَم الحِسِّ إِلَى عَالَم الغَيْب، لَكِن لاَ يَعْرَى ذَلِك عَنِ العِلَل الخَفِيَّة، المَعْروفَة بالإِبْقاء عَلى النَّفْس بَعْض أَوْهامِها، والنَّفْس تَتحمَّل المَشاقَّ العِظَام، مَعَ الإِبْقاءِ عَلَيْها ولَوْ بَعْض أَوْهامِها.

وبِهذَا الاعْتِبار قَصُر الجِهَاد عَنِ الالْتحَاق بِفضِيلَة الذِّكْر، لأَنَّ الذِّكْر إِذَا اسْتُعمِل فِي طَرِيقه المَعْروف وَمَهْيَعِهِ المَأْلُوف، مَبْنِياً عَلى قَواعِد الشَّرْع، مَحْفُوظاً منْ خَطِرَات الزَّيْغ، فإِنَّه لاَ يَدَع <مِنْ>[2] عِلَلِ[3] النَّفْس شَاذَّةً ولاَ فَاذَّة ولاَ أَثرا، إلاَّ أَتَى عَلَى ذَلِك بالذَّهاب، حَتَّى تَبْلُغ النَّفْس غَايَة طَهارَتها، ولاَ يَبْقى عِنْدها الْتفَات لِغيْر الله تَعالَى، كُلُّ ذَلِكَ عَنْ عِلْم وذَوْق.

165 ولِذَلك سُمِّي طَرِيق الذِّكْر، المُؤذِن بخلاَص/ النَّفْس جِهاداً أَكْبَر، وسُمِّي الضَّرْب بالسُّيوف والطَّعْن بالرِّمَاح جِهاداً أَصْغَر، ولِمَا فِي طَرِيق الذِّكْر مِنْ قَطْع المَفاوِز والمَخاوِف، الَّتِي تُخْرِج النَّفْس عَنْ جَمِيع مَتعلَّقات الجِسْم، كَخُروج الشَّعْرَة مِنَ العَجِين، ولَيْس يُدْركُ ذَلِك بِسائِر أَعْمالِ البِرِّ جِهاداً أَوْ غَيْره، وإِنْ كَانَ مِنْ سَائِر أَعْمال البِرِّ مَا يُؤذِن بِخلاَص النَّفْس وتَصْفِيتِها، فَلِلذِّكْر خَاصِيَّة فِي ذَهَاب الأَثَر، إِذْ لاَ يَكُون تَخْلِيص إِبْرِيزها مِنْ كَدُورَات[4] أَوْهامِها أَوْ أَثَرها إِلاَّ بِتَشْحِيرة الذِّكْر.

فَظهَر لَك أَنَّ للذِّكْر اخْتِصَاصاً عَجِيباً فِي طَهارَة النَّفْس، الطَّهارَة التَّامة، وتَصْفِيتها التَّصْفِية العَامَّة، حَتَّى تَصِير لَها الطَّهَارة صِفَة ذَاتِية، وغَيْر الذِّكْر[5] قَدْ يَبْقى

1 - وردت في نسخة ك : صفاتها.
2 - سقطت من نسخة ح.
3 - وردت في نسخة ح : على.
4 - وردت في نسخة ح : كدرات.
5 - وردت في نسخة ح : ذلك.

مَعَه مِنْ عِلَل النَّفْس مَا هُو حِجابٌ عَنِ الله، وإِنْ كَان خَفِيا، وقَد تَقْنَع النَّفْس بِذَلك الخَفِيِّ، وتَتحمَّل لأَجْلِه المَشاقَّ، وتَقْتَحِم المَضايِق مِنَ الطَّاعَات[1] رَاضِية بِذلِك، لأَنَّ إِخْرَاجها عَنْ جَمِيع هَواهَا البَلاَء العَظِيم، لَكِن وراءَه مِنَ المَعارِف الإِلَهِية، والأَسْرار القُدُسِيَّة والحِكَم الرَّبانِية مَا تَقَرُّ به الأَعْيُن، وتَنْتَظِم بِه الأَفْراح، وتَذْهَب بِه الأَحْزَان، فلاَ مَخْلَص مِنْ عِلَل النَّفْس إِلاَّ بالذِّكْر.

وبَيان ذَلِك، أَنَّ العَبْد إِذَا دَاوَم عَلى الذِّكْر، حَتَّى انْطَبَع مَعْناه فِي النَّفْس وقَام بِها، فَإِنَّ النَّفْس تَنْقَلِب إِلَى مُقْتَضى الذِّكْر مُتَّصِفَة بِمَعْناه، وإِنْ كَانَت الأَذْكَار مُخْتلِفَة المَعانِي، فَلِكلِّ ذِكْر اخْتِصاص بِصِفَة حَمِيدَة <فَأَكْثَر>[2] تَتحلَّى[3] به النَّفْس، وتَتزكَّى عَنْ أَضْدادِها، فلاَ تَزَال الأَذْكَار تُصفِّي النَّفْس مِنْ كَدُورَاتِها، وتُخلِّصُها مِنْ عِلَلها، حَتَّى تَطْمئِن بِخالِقها، فلاَ تَجِد أُنْسا بِغَيْرِه.

قَال الله تَعالَى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (27) ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28) فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى (29) وَٱدْخُلِى جَنَّتِى (30) ﴾[4] وَليْس المُرَاد مِنَّ الذِّكْر هُنَا دَورَانه عَلى اللِّسانِ فَقَط، لَكِن المُرَاد مِنْه تَلمُّح مَعْناه بِعيْن الفِكْرَة، حَتَّى يَنْطبِع مَعْناه فِي النَّفْس فَتتَحلَّى بِه، وتَتَّصِف بِمُقتضَاه اتِّصافاً ذَاتِيا أَوْ كالذَّاتِي»[5] انْتَهى.

وَهذَا هُوَ غَرضُنا مِنْ هَذا الكَلاَم، وهُوَ أَنَّ النَّفْس تَتحلَّى بِمُقتَضى الذِّكْر، حَتَّى يَصِير حَالاً لَهَا، وَتَصِير كَأَنَّها جُبِلَت عَلَيْه، كَما جُبِلَت عَلى أَوْصافِها الذَّاتِية. ونَحْو هَذا للإِمام الغَزالِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا ذَكَر خَطَر الخَاتِمة، ومَا يُخافُ فِيها لِمَنْ لَمْ يَتجرَّد

---

1 ـ وردت في نسخة ك : الطاعة.

2 ـ سقطت من نسخة ح.

3 ـ وردت في نسخة ك : تتجلى.

4 ـ الفجر : 27 – 30.

5 ـ نص منقول من كتاب بغية السالك في أشرف المسالك، باب الذكر وبيانه باعتبار العامة والخاصة، مخطوط الخزانة العامة رقم 1691د، ص : 9 – 10.

عَنِ الحُظوظِ، مِنْ أَنْ يَقَع لَه الالْتِفات فِي ذَلِك المَوْطِن إِلى الدُّنْيا، فَيتَمنَّى والعِياذ بالله الرُّجوع إِليْها.

قَال : «وَأَسْلَم الأَحْوَال عَنْ هَذا الخَطَر خَاتِمَة الشَّهادَة، إِذَا لَمْ يَكُن قَصْد الشَّهِيد نَيْل مَال، أَوْ أَنْ يُقالَ شُجاعٌ أَوْ غَيْر ذَلِك، كَما وَرَد بِه الخَبَر[1]، بَلْ حُبُّ الله وإِعْلاَء كَلِمَته، فَهذِه الحَالَة هِي الَّتِي عَبَّر عَنْها القُرْآن بـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[2]. ومِثْل هَذا الشَّخْص هُو البَائِع للدُّنْيا بالآخِرَة، وحَالَة الشَّهِيد تُوافِق مَعْنى قَوْلِك «لاَ إِلَه إِلاَّ الله»، فإِنَّه لاَ مَقْصودَ لَه سِوَى الله تَعالَى، وكُل مَقْصُود مَعْبُود وكُلُّ مَعْبود إِلَه، فَهذَا الشَّهِيد قَائِل بِلسَان حَالِه لاَ إِلَه إِلاَّ الله، إِذْ لاَ مَقْصود لَه سِوَاه، ولِسانُ الحَال أَفْصَح مِنْ لِسَان المَقَال، ومَنْ يَقُول ذَلِك بِلسَانِه[3]، ولَمْ يُساعِده حَالُه فِي مَشِيئة الله، ولاَ يُؤْمَن فِي حَقِّه الخَطَر، وَلِذَلك فُضِّل قَوْل «لاَ إِلَه إِلاَّ الله» عَلَى سَائِر الأَذْكَار، وَذَكَر ذلك مُطْلَقا

166 / فِي مَواضِع التَّرْغيب[4]، ثُمَّ ذَكَرفِي بَعْض المَواضِع الصِّدْق والإِخْلاص، فَقالَ مَرَّة : مَنْ قَال «لاَ إِلَه إِلاَّ الله» مُخْلِصا، ومَعْنى الإِخْلاص مُسَاعدَة الحَال لِلمَقَال» انْتهَى.

{قِصَّة يَظْهَرُ مِنْها كَوْنُ الجِهَاد قَدْ لاَ يَخْلُو عَنِ العِلَلِ الخَفيَّة}

وَمَا ذَكَرَه السَّاحِلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعالَى، مِنْ كَوْن الجِهَاد لاَ يَخْلو عنَ العِلَل الخَفيَّة، يَتبيَّن لَك بالقِصَّة الَّتي ذَكَر الأَئِمَّة عَنْ أَحْمَد بْن أَرْقَم البَلْخي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حَيْث قَال :

1 ـ وردت في نسخة ك : الخير.
2 ـ تضمين للآية : 111 من سورة التوبة.
3 ـ وردت في نسخة ح : بلسان حاله.
4 ـ وردت في نسختي ق و ك : للترغيب.

«دَعتْني نَفْسي إِلى الجِهادِ سَنَة مِنَ السِّنين، فَقُلْت : شَأْنُ النَّفْس الدُّعَاء إِلى الشَّر، وهَذِه تَدْعو إِلى الخَيْر، لاَ والله، ولَكِن تُرِيد أَنْ أَخْرُج إِلى المَعارِف، فَتُلْقى وَتُكْرَم، فَقُلْت لها : إِنِّي لاَ أَسْأَلُكِ طَرِيق العُمْرَان ولاَ أَنْزِل عَلى أَحَدٍ، فَأَجَابَت إِلَى ذَلِك، فقُلْت لَها : إِنِّي أَلْقى العَدُو حَاسِرا[1]، فتكُونِين أَوَّل قَتِيل، فَأَجابَت إِلى ذَلِك، فَقُلتُ : يَا رَبِّ أَنا لَها مُتَّهم فَنبّهني، فَأَلْهمَنِي الله تَعالَى أَنَّها تَقُول : إِنَّك تَقْتلُني بِتَرْك شَهوَاتي كُلَّ يَوْم مِراراً، وخَيْر مِنْ ذَلِك أَنْ أُقْتَل قَتْلَة وَاحِدَة، فَيُقال قُتِل فُلاَن شَهِيداً[2] فِي سَبِيل الله، فَأَرَادت[3] أَنْ تَسْترِيح مِنْ كلَفِ العِبَادَة وتَبْقى لَها شُهْرَةٌ ومَزِيَّةٌ ولَوْ بَعْدَ المَوْت»[4]. نَسْأَل الله النَّجَاة مِنْ خُدَع النَّفْس ودَسائِسِها.

وقَالَ فِي مِفْتاح الفَلاح مَا نَصُّه : «البَحْث التَّاسِع فِي قَوْل هَذِه الكَلِمة عَلى أَحْوال : أَدنَاها التَّلفظ بها يَحْقِن[5] دَم صَاحِبِها، وَيَحْرِزُ[6] مَالَه، قَال رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أُمِرت أَنْ أُقَاتِل النَّاس حَتَّى يَقولُوا لاَ إِلَه إِلاَّ الله فَإِذَا قَالُوهَا عَصمُوا مِنِّي دِمَاءَهُم وَأَمْوَالَهُم إِلاَّ بِحَقِّها وَحِسَابُهُم عَلَى الله»[7]، وَيَشْترِك فِي ذَلِك المُخْلِصون والمُنافِقون، فَكُل مَنْ تَعلَّق بِهذِه الكَلِمَة نَال مِنْ بَركَتِها، وحَازَ حَظًّا مِنْ فَوائِدها، فَمَن طَلَب بِها الدُّنْيا نَال الأَمْن فِيها والسَّلاَمة، ومَنْ طَلَب الآخِرَة فقد جَمَع بَيْن الحَظَّيْن، وحَازَ السَّعَادَة فِي الدَّارَيْن، ولَيْس للإِقْرار[8] باللِّسَان سِوى دَرَجَة وَاحِدَة.

---

1 ـ وردت في نسخة ق : حاسدا.
2 ـ وردت في نسخة ق : شهيد.
3 ـ وردت في نسخة ق : فإن أردت.
4 ـ ورد هذا النص في شرح ابن عباد النفزي على متن الحكم : 125-124.
5 ـ وردت في نسخة ح : لحقن.
6 ـ وردت في نسخة ح : لحرز.
7 ـ رواه البخاري في الجهاد والسير، باب : دعاء النبي الناس إلى الإسلام والنبوة. ومسلم في كتاب الإيمان، باب : الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله.
8 ـ وردت في نسخة ح : الإقرار.

الحَال الثَّانِي، أَنْ يَضُمَّ إِلَى القَوْل الاعْتِقَاد بِالقَلْب عَلَى سَبِيل التَّقْلِيد، فالمُقلِّد لَيْس بِعالِم ولاَ عَارِف، بَلِ اخْتلَفوا أَنْ يَكون مُسْلماً أَمْ لاَ؟ والاعْتِقاد بالقَلْب دَرَجَات، بِحسَب قُوَّة الاعْتِقَاد وضُعْفِه، وكَثْرَة الاعْتقَادَات وقِلَّتها.

الحَال الثَّالِث : أَنْ يَضُم إِلى الاعْتِقاد بالقَلْب، مَعْرِفة الدَّلاَئِل الإِقْناعِية المُقوِية لَه، والخَلْق فِيها مُتفَاوِتون تَفاوُتا غَيْر مَضْبوط.

الحَال الرَّابِع : أَنْ يَثْبُت اعْتِقاده[1] بالبَرَاهِين القَطْعِية، إِلاَّ أَنَّه لَيْس مِنْ أَهْل المُشاهَدات والمُكاشَفات والتَّجلِّيات.

[الحَال الخَامِس : أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْل المُشَاهـدَات والمُكاشَفـات والتَّجلِّيات][2] ونِسْبتُهم إِلى أَصْحاب البَراهِين القَطْعِية، كَنِسْبة أَصْحاب البَراهِين إِلى عَوامِّ الخَلْق ـ قَال ـ : واعْلَم أَنَّ عُلُوم المُكاشفَات لاَ نِهايَة لَها، لأَنَّها عِبارَة عَنْ سَفَر العَقْل فِي مَقامَات الجَلاَل والجَمالِ، والعَظَمة والكِبْرياء والقُدُس.

تنْبيـــــه :

مَنِ انْكَشَف[3] لَهُ أَسْرَار «لاَ إِلهَ إِلاَّ الله»، [أَقْبَل عَلى الله][4] وأَخْلَص فِي عِبَادَته لله، ولَمْ يَلْتفِت إِلى أَحَدٍ سِوَاه، فَلاَ يَرْجو ولاَ يَخاف غَيْره، ولاَ يَرى الضُّر والنَّفْع إِلاَّ مِنْه، وتَرَك مَا سِواه وتَبرَّأَ مِنَ الشِّرْك الظَّاهِر والبَاطِن»[5] انْتَهى.

وهَذا كُلُّه وَاضِح فَلاَ مَعْنى للإِطَالَة بِجَلْب النُّقُول. نَسْأَل الله تَعالَى التَّوْفِيق والهِدايَة إِلى العمل، والتَّخلُّق[6] والتَّحقُّق.

---

1 ـ وردت في نسختي ق و ك : اعتقاد.
2 ـ ساقط من جميع النسخ الخطية والحجرية، والزيادة من كتاب مفتاح الفلاح : 55.
3 ـ وردت في نسخة ح : انكشفت.
4 ـ ساقط من جميع النسخ الخطية والحجرية، والزيادة من كتاب مفتاح الفلاح : 55.
5 ـ نص منقول بتمامه مع بعض التصرف من كتاب مفتاح الفلاح : 56-55.
6 ـ وردت في نسخة ح : التخلص.

وَحاصِل الأَمْر أَنَّ كَلمَة الإِخْلاص، مُتضمِّنَة لِمَا يَنْبغِي لله تَعالَى مِنَ 167 الكَمالاَت، قَد بَيّنا ذَلِك فِي آخِر المَقْصِد / الأَوَّل[1]، وَأَقْمنا البَراهِين عَليْه، وَتِلْك الكَمالاَت تُثْمِر أَحْوالاً شَرِيفة، وقد بَيَّنّا ذَلِك فِي أَوَّل هَذا المَقْصِد الثَّانِي، ومقْصِد المُتكلِّمين اعْتِقاد تِلْك الكَمالاَت، ومَقْصِد العَارِفين اسْتِثْمار هَذِه الأَحْوال، وإِنَّما يَكُون كَمَال الأَمْر عِنْد الفَرِيقيْن باليَقِين، وهُو مُخْتلِف.

{كَمَالُ الأَمْرِ عِنْدَ المُتكلِّمِينَ وَالعَارِفينَ بِاليَقِينِ وَهُوَ مُخْتلِفٌ عِنْدهُم}

أَماً عِنْد المُتكلِّمين، فبِالاسْتنَاد إِلى البَراهِين العَقْلِية والنَّقْلِية، فِيمَا تُفِيد فيه النَّقْلِية. وأَمَّا عِنْد العَارِفين فبِالكَشْف والمُشَاهَدة، وذَلِك عِنْد المُتكلِّمين كَسْب، لأَنَّه نَظَر وفِكْر، بِتَرْتِيب أُمُور مَعْلومَة عَلى وَجْهٍ يُسْتَعلَم بِهِ مَا لَيْسَ بِمَعْلُوم، وَعِنْدَ العَارِفِينَ وَهْبٌ وَفَضْلٌ مِنَ اللهِ تَعالَى، إِمَّا جَذْباً كَمَا هُوَ حَال المُرادِين، وإِمَّا بَعد سُلُوك كَمَا هُو حَال المُرِيدين.

فإِنَّ العَبْد بَعْد أَنْ يُصحِّح تَوجُّهه، ويُفْرِغ نَفْسَه مِنَ الخَبائِث، الَّتِي هِي الحِجَابُ عَلى مَا مَرَّ فِي ذِكْر التَّخْلِية، يُلْقِي نَفْسه بيْن يَدَي مَولاَه مُنتَظْرا مِنَّته ومَوْهِبتَه، كَمَنْ يَغْسِل الصَّهرِيج ويَنْتظِر المَاء، فَعِنْد ذَلِك يُفِيض المَوْلى جَلَّ جلاَله عَليْه مَا هُوَ اللاَّئِق بِكرَمِه وَفَضْلِه مِنَ المَعارِف وَالأَسْرَار، وَلاَ يَكُون ذَلِكَ إِلاَّ بَعْدَ صِحَّة الإِيمَان أَوَّلاً، باعْتِقاد الكَمال إِمَّا تَقْلِيدا إِنْ اكْتفيْنا بِه، وإِمَّا عَنِ النَّظَر إِنْ اشْترطْنَاه، فَعِنْد ذَلِك يَنْشرِح صَدْر الوَلِي، وتَرْسخ المَعارِف فِي قَلْبِه، ويَنْطبِع بِذلِك وتَجْري عَليْه أَحْوالُه وأَقْوالُه وأَفْعالُه.

ولَيْس بالبَراهِين العَقْلِية يَحْصُل هَذا الشَّرْح، فإِنَّ البَراهِين إِنَّما فَائِدَتها دَفْع

---

1 ـ ورد ذلك على وجه التحديد في الفصلين السادس والسابع، واستغرق تفصيل الكلام فيه الصفحات : من 693 إلى 717 من الجزء الأول من الكتاب، فلينظر هناك.

الوَسَاوس، وحِراسَة المُعتَقدَات مِنْ تَشْغيبَات شَيْطان الإنْس والجنّ، ولَيْسَت تَزيد عَلى الجَزْم الحَاصِل مَعَها شَرْحا ولاَ فَتْحا، وإنَّما الفَتْح طَريقه التَّوجُّه إلَى الله تَعالَى بِصدْق العَزِيمَة، والإعْراض عَنِ العلائِق، ولُزوم التَّقْوى ظَاهِرا وبَاطِنا. قَال تَعالَى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[1]، وقَال تَعالَى : ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[2]، وفِي الحَدِيث «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثه الله عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»[3].

وفِي الرِّسالَة : «سَمِعْت أَبَا عَلِي الدقَّاق[4] رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُول : مَنْ زَيَّن ظَاهِره بالمُجاهَدة حَسَّن الله بَاطِنه بالمُشَاهدَة»[5].

وَقَال الإمَام أَحْمد بْن حَنْبَل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[6] لابْنِ أَبِي الحَواري[7] : يَا أَحْمَد حَدِّثْنا بِحكَايَة سَمِعْتها مِنْ أُسْتاذِك <أَبِي>[8] سُليْمان[9] فَقالَ : «يَا أَحْمَد، قُلْ سُبْحان الله بلاَ عُجْب، فَقال أَحْمد ابْن حَنْبَل : سُبْحان الله وطَوَّلها بلاَ عَجْب، فَقالَ أَحْمَد ابْن أَبِي الحَواري : سَمِعْت أَبَا سُليْمان يَقُول : إذَا انْعقَدتْ النُّفُوس عَلَى تَرْك[10] الآثَام جَالَت فِي المَلكُوت، وعَادَت إلى ذَلِك العَبْد بطرَائف الحِكْمة، مِنْ غَيْر أَنْ يُؤَدِّي إلَيْها عَالِمٌ عِلْما، فَقامَ الإمَام أَحْمَد ثلاَثاً وجَلَس ثَلاثاً، وقَال : مَا سَمِعْتُ

---

1 ـ البقرة : 282.

2 ـ الأنفال : 29.

3 ـ أخرجه الألباني في الأحاديث الضعيفة والموضوعة : 423 رقم : 422. وقال : موضوع. وذكره الزرقاني في مناهل العرفان في علوم القرآن/ 1 : 311، قال : قال الحافظ العراقي في هذا الحديث رواه أبو نعيم في الحلية بسند ضعيف. والشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة : 286.

4 ـ سبقت ترجمته في ص : 20.

5 ـ نص منقول من الرسالة القشيرية : 98.

6 ـ هو أبو عبد الله الشيباني الوائلي، (164 / 241هـ) إمام المذهب الحنبلي، وأحد الأئمة الأربعة في الفقه وإمام السنة. من كتبه : الزهد، وفضائل الصحابة، والمسند. طبقات الحنابلة/ 1 : 4.

7 ـ أبو الحسن الثعلبي الدمشقي الزاهد، (160 / 246هـ)، والإمام القدوة الحافظ، من قوله : «من عمل بلا اتباع سنة فعمله باطل». تهذيب سير الأعلام/ 1 : 451 – طبقات الصوفية : 99.

8 ـ سقطت من نسخة ك.

9 ـ المقصود به : أبو سليمان الداراني (140 / 210هـ) الإمام الكبير، زاهد العصر، قال فيه الجنيد : «شيء يروى عن أبي سليمان أنا استحسنه كثيرا». تهذيب سير أعلام النبلاء/ 1 : 361.

10 ـ وردت في نسخة ق : تلك.

فِي الإِسْلام بِحكَاية أَعْجَب إِليَّ مِنْ هَذِه، ثُمَّ ذَكَر الحَدِيث المَذكُور «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثه الله عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» ثُمَّ قَال لابْن أَبِي الحَواري : صَدقْت يَا أَحْمَد وَصَدَق شَيْخُك»[1].

وَقِيل لأَبي[2] يَزِيد[3] : بِمَ وَجدْت هَذِه المَعْرِفة ؟ فَقَال : «بِبطْن جَائِع وبَدَن عَارٍ»[4].

وقِيل للجُنيْد[5] نَحْو ذَلِك فَقالَ : «بالجُلُوس بَيْن يَدَي الله»[6].

{الفَرْقُ بيْنَ العِلْمِ وَالمَعْرفَة عِنْد الصُّوفِيَة}

والفَرْق بَيْن المَعْرِفة والعِلْم عِنْد الصُّوفِية هُوَ مَا أَشرْنا إِليْه، مِنْ أَنَّ المَعْرِفة مَا حَصلَ فِي القَلْب عَنِ الله إِلْهاماً، والعِلْم هُو مَا حَصَل مِنَ الطَّرِيق[7] الظَّاهِرَة نَقْلا أَوْ عَقلاً، وتَقدَّم هَذا المَعْنى.

وفِي الرِّسالَة «المَعْرِفة عَلى لِسانِ العُلَمَاء هِي[8] العِلْم، فَكُلُّ عِلْم مَعْرِفة وكُلُّ مَعرفة عِلْمٌ، وكُلُّ عَالِم بالله تعالى عَارِف، وكُلُّ عَارِف / عَالِم بالله، وعِنْد هَؤُلاَء القَوْم : المَعْرِفة صِفَةُ مَنْ عَرَف الحَقَّ سُبْحانَه بِأَسْمائِه وصِفاتِه، ثُمَّ صَدَق الله فِي مُعامَلاتِه، ثُمَّ تَنقَّى عَنْ أَخْلاقِه الرَّدِيئة وآفَاتِه، ثُمَّ طَال بِالبَاب وُقوفُه، ودَام بالقَلْب اعْتِكَافُه، فَحظِي مِنَ الله تعالى بِجَمِيل إِقْبَاله، وصَدَق الله فِي جَمِيع أَحْوالِه، وانْقَطَعت عَنْه هَواجِس نَفْسِه، ولَمْ يُصْغ بِقلْبه إِلَى خَاطِر يَدْعوه إِلى غَيْره. فإِذَا صَارَ بَيْن الخَلْق أَجْنبياً، ومِنْ آفَاتِ نَفْسِه بَرِياً، ومِنَ المُساكَنات والمُلاَحظَات نَقيّاً، وأَدامَت فِي السِّر مَعَ الله تعالى مُنَاجَاتُه، وَحُقَّ فِي كُلِّ لَحْظَة إِليْه رُجوعُه،

168

1 ـ ورد هذا النص في كتاب صفوة الصفوة / 4 : 161.
2 ـ وردت في نسخة ك : ابن.
3 ـ سبقت ترجمته في ص : 64.
4 ـ نص منقول من الرسالة القشيرية : 396.
5 ـ سبقت ترجمته في ص : 48.
6 ـ نص منقول من الرسالة القشيرية : 431.
7 ـ ورد في نسخة ق : الطرق.
8 ـ وردت في نسختي ق و ك : هو.

وصَارَ مُحدَّثا مِنْ قِبَلِ الحَقِّ سُبْحانهُ بِتَعْرِيف أَسْرارِه، فِيما يُجْريه مِنْ تَصارِيف[1] أَقْدارِه، يُسَمَّى عِنْد ذَلِكَ عَارِفاً، وَتُسمَّى حَالَته مَعْرِفة. وبِالجُمْلَة، فَبِمقْدار أَجْنَبِيته مِنْ نَفْسِه تَحْصُل مَعْرِفته بِربِّه»[2].

وَأَرادَ بالعُلَماء عُلَماء الظَّاهِر، وأَشَار فِي تَعْرِيف العِلْم عِنْدَهم إِلى قَوْل القَاضِي [أَبي بَكْر][3] البَاقِلانِي[4] رَحِمَهُ اللهُ : «العِلْم هُوَ المَعْرِفة، ولَوْ قِيلَ مَا المَعْرِفَة؟ لَقُلْنا العِلْم، فَإِنْ جَهِل السَّائِل العِبارَات كُلِّها فَسُحْقا سُحْقاً».

هَذا كَلاَمه، فَلَم يُفرِّق بَيْن العِلْم والمَعْرِفة، وكَذا غَيْره مِنَ المُتكلِّمين، لاَ يُفرِّقون بَيْن العِلْم والمَعْرِفة، فإِنَّه هُو الجَزْم المُطابِق لِموجِب، والمُوجِب إِمَّا البُرْهان أَوِ الضَّرُورَة.

نَعَم، قَدْ يُفرِّقون بَيْن العِلْم والمَعْرِفة بِشيْئَين آخَرَين : أَحدُهما، أَنَّ العِلْم كَثِيرا مَا يَتعلَّق بالكُلِّيات، والمَعْرِفة بالجُزْئِيات. ثَانِيهما، أَنَّ المَعْرِفة كَثِيرا مَا تُسْتعمَل فِي العِلْم الحَاصِل بَعْد جَهْل. قَال[5] : «وَلذَلِك يُقال الله عَالِمٌ، ولاَ يُقالُ عَارِفٌ» مَعَ أَنَّ التَّوْقِيف لَم يَرِدْ بِه، وَأَرادَ بِالقَوْم : الصُّوفِية، وهُم المُعرِّفون للمَعْرِفة بِما ذَكَر، فَفرَّقوا بَيْنها وبَيْن العِلْم.

فَإِنْ قُلْتَ : أَيُّ الأَمْرَين أَوْلَى باعْتِبار الفَرْق الصُّوفِي العِلْمُ أَمِ المَعْرِفةُ ؟.

قُلْتُ : العِلْم أَضْبَط وأَعمُّ نَفْعاً، والمَعْرِفة أَقْوى وأَوْضَح، وبَيان ذَلِك : أَنَّ العِلْم مَرْجعه إِلى ضوابِط وقَوانِين أُخِذَت بِمحْض العَقْل، أَو[6] اسْتُنبِطَت بالعَقْل مِنَ

1 ـ وردت في نسخة ق : تصريف.
2 ـ نص منقول بتمامه مع تصرف طفيف من الرسالة القشيرية : 311 - 312.
3 ـ ساقط من نسختي ق و ك، وفيهما ابن.
4 ـ سبقت ترجمته في ص : 39.
5 ـ وردت في نسختي ق و ك : قالوا.
6 ـ وردت في نسخة ح : واستنبطت.

النَّقْل، كُلُّ ضَابِط مِنْها يَشْمَل جُزْئِيات لاَ تَكادُ تَنْحصِر شُمولاً لاَ يَقَع فِيه انْخِرام، ولاَ يُتوهَّم عَليْه اخْتِلاَل.

وأَمَّا المَعْرِفة، فَمرْجِعُها إِلَى أَمُور ذَوْقِية جُزْئِية. شَهِد كُلُّ عَارِفٍ مِنْها فِي نَفْسِه ما شَهِدَه، فَلِذا تَجِد العَالِم أَقْدَر عَلى تَحْقِيق الحَقائِق، وتَفْصِيل الطَّرائِق مِنَ العَارِف غَيْر العَالِم، فإِنَّ العَارِف إِذَا نَطَقَ نَطَقَ عَمَّا فِي ضَمِيره ولاَ يَتعدَّاه، وقَدْ يَكُون مُخْتصًا بِه فَلا يَطَّرِد فِي حَقِّ غَيْره. والعَالِم يَنْطِق بِمَا تَقرَّر فِي الخَارِج مِنَ الحَقائِق الشَّامِلَة العَامَّة، ومَنْ تَأَمَّل كَلاَم الصُّوفِية فِي التَعْبِير عَنْ حَقائِق الأَحْوال والمَقامَات وَنحْوها عَرَف ذَلِكَ.

وقَد أَشَار الشَّيْخ أَبُو حَامِد فِي الإِحْياء، إِلَى هَذا المَعْنى وهُوَ وَاضِح، ولِكَوْن العَالِم يُعبِّر عَمَّا تَقرَّرَ فِي الخَارِج، قَدْ لاَ يَتخلَّق بِه ولاَ يَتحقَّق فِيه، بَلْ ولاَ يَعْتقِده رَأْسا، ولِهذَا صَحَّ أَنْ يُوجَد فِي أَهْل الظَّاهِر مَنْ هُو عَلِيم اللِّسان المُسْتَعَاذ[1] مِنْه نَسْأَل الله العَافِية. ولِكَوْن العَارِف يُعبِّر عَمَّا وَجدَ فِي بَاطِنه، وَشاهَد فِي قَلْبه، يَكُون كَلاَمه عَنْ بَصِيرة وَاضِحة، وأَمْرٍ رَاسِخٍ قَوِيٍّ، ولِذَا يَكُون نَافِعا شافيا، لأَنَّ الكَلاَم الخَارِج مِنَ القَلْب يَصِير إِلَى القَلْب[2].

وقَدْ رُوِي أَنَّه كَانَ رَجُلٌ يَجْلِس قَرِيبا مِنْ مُحمَّد بْنَ وَاسِع[3] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَسَمِعَهُ ابْنُ وَاسِع يَوْماً يَعِظُ أَصْحابَه ويُوبِّخُهم، وَهُو يَقُول : « مَا لِي أَرَى القُلوبَ لاَ تَخْشَع،

1 ـ0 تضمين لحديث ورد عند الإمام أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة ولفظه : «عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ ».

2 ـ ورد في نسَختي ق و ك : القلوب.

3 ـ محمد بن واسع ابن جابر (ت : 127هـ) الإمام الرباني، القدوة أبو بكر البصري. قليل الرواية. حدث عنه: سفيان الثوري، وحماد بن سلمة وآخرون. تهذيب سير أعلام النبلاء/ 1 : 217.

169 ومَا لِي أَرَى العُيونَ / لاَ تَدْمَع، ومَا لِي أَرَى الجُلودَ لاَ تَقْشعِرُّ، فَقالَ لَه ابْنُ وَاسع : يَا عَبْد الله، مَا أَرَى القَوْم أُتُوا إلاَّ مِنْ قِبَلِك، إِنَّ الذِّكْر إِذَا خَرَج مِنَ القَلْب وَقَع فِي القَلْب»[1].

وقِيل لِحَمْدون القَصَّار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2] : «مَا بَال كَلاَم السَّلَف الصَّالِح أَنْفَع مِنْ كَلاَمنَا؟ قَال : لأَنَّهُم تَكلَّمُوا لِعِزِّ الإِسْلام، ونَجَاة النُّفُوس ورِضَى الرَّحْمن، ونَحْنُ نَتكلَّمُ لِعِزِّ النَّفْس وطَلَب الدُّنْيا وقَبُول الخَلْق»[3] انْتهَى.

ولِذَا قَال صَاحِبُ الحِكَم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «كُلُّ كَلاَم يَبْرزُ وعَلَيْه كِسْوَة القَلْب الَّذِي مِنْه بَرَز»[4].

وقَال قَائِلُهُم:

يَا أَيُّهَا الرَّجُل المُعلِّمُ غَيْرَه ... هَلاَّ لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمُ
تَصفُ الدَّوَاء لِذِي السِّقَام مِنَ الضَّنَا ... كَيْمَا يَصِّحُ بِه وَأَنْتَ سَقِيمُ
وأَرَاكَ تُلْقِحُ بالرَّشَاد عُقُولَنَا ... أَبَداً وَأَنْتَ مِنَ الرَّشَادِ عَدِيمُ
فَابْدَأْ بِنفْسِك فَانْهِهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْه فَأَنْتَ حَكِيمُ
فَهُنَاكَ يُسْمَعُ مَا تَقُولُ ويُهْتَدَى ... بِالقَوْلِ مِنْكَ ويَنْفَعُ التَّعْلِيمُ
لاَ تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

---

1 ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/ 2 : 320.

2 ـ شيخ الصوفية، أبو صالح، حمدون بن أحمد النيسابوري (ت : 271هـ)، قدوة الملامتية : وهو تخريب الظاهر، وعمارة الباطن، مع التزام الشريعة، كان من الأبدال. تهذيب السير/ 1 : 503.

3 ـ نص منقول مع بعض التصرف، من كتاب صفوة الصفوة / 4 : 82.

4 ـ الحكمة الثالثة والثمانون بعد المائة من كتاب الحكم العطائية : 75.
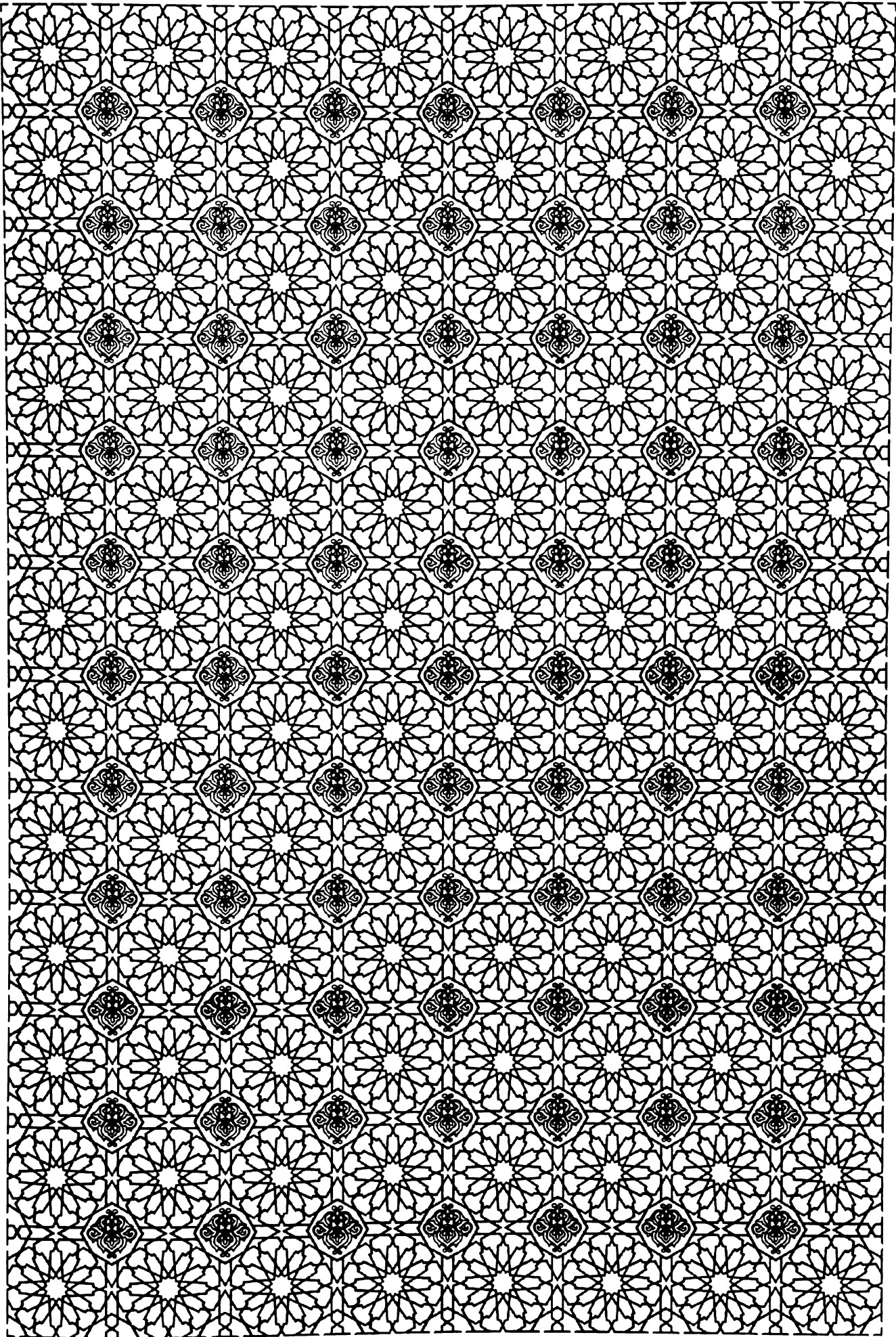
خَاتِمَة تَشْتَمِل عَلى فُصُول :

الفَصْلُ الأوّل

{مَعْرِفَة مَضْمونُ الكَلمَة المُشرفَة هِيَ حِكْمَةُ خَلْق العَالم}

اعْلَم أَنَّ مَعْرِفَة مَضْمون هَذه الكَلِمة المُشرفَة، هِيَ حِكْمة خَلْق العَالَم، وإِيجَاد الكَائِنات كُلِّها عُلْوياتِها وسُفْلِياتِها، نُورَانِياتِها وظُلْمانِيتِها، جَواهِرها وأَعْرَاضِها ومُجرَّداتِها إنْ وُجِدَت، والدَّلِيل عَلى ذَلِك مِنَ الكِتابِ المَجِيد قوْله تَعالَى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [1] إنْ عُلِّقَ المَجْرُورُ بِالخَلْقِ، أَوْ بِيتَنزَّل[2] ويُرادُ بالأَمْر تَصارِيف القَضاء، كَإِنْزال المَطَر وإِخْراج النَّبات ونَحْو ذَلِك، والمَعْنى أَنَّه فَعَل ذَلِك، لِيَحصُل لَكُم العِلْم بِكمَال قُدْرتِه وإِحاطَة عِلْمه، ومَنْ عَلِمَ أَنَّه تَعالَى قَادِرٌ عَالِمٌ، عَلِمَ أَنَّه مَوجودٌ حَيٌّ مُخالِفٌ للمَخلوقَات النَّاقِصات، فَاطَّلَع بِذَلك عَلى سَائِر الكَمال. وقَوْله تَعالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [3] قَال مُجاهِد[4] : « إِلاَّ لِيَعْرِفُونَ».

قَال الثَّعْلبي[5] فِي تَفْسيرِه : «وهَذا قَوْلٌ حَسنٌ لأَنَّه لَوْ لَمْ يَخْلُقهُم لَما عُرِف وُجُودهُ وتَوْحيدُه» انتَهَى.

---

1 ـ الطلاق : 12.

2 ـ وردت في نسخة ح : يتنـزل.

3 ـ الذاريات : 56.

4 ـ مجاهد بن جبر المكي (ت : 102هـ) الإمام شيخ القراء والمفسرين، أبو الحجاج المكي، روى عن ابن عباس فأكثر وأطال، قال يحي بن معين وطائفة : مجاهد ثقة. تهذيب السير/1 : 158.

5 ـ سبقت ترجمته في ص : 92.

وفِي الأَحادِيث القَدسِية المَرْوِية : «كُنْتُ كَنْزاً لَمْ أُعْرَف فَخَلَقْتُ الخَلْقَ لِكَيْ أُعْرَف»[1] أَوْ كَمَا وَرَد.

ويَتعلَّق بالكَلاَم فِي هَذا الفَصْل مَبَاحِث.

المَبْحَث الأَوَّل

{خَلْقُ العَالَم لِمَعرِفَة اللهِ تَعالَى هُوَ بِمَحضِ كَرَمِه وَفَضْلِه}

اعْلَم أَنَّ مَا ذَكَرْنا مِنَ الحِكْمَة فِي خَلْق العَالَم، مِنَ التَّوصُّل بِه إِلى مَعْرِفة الله تَعالَى، هُوَ بِمَحْض كَرمِه وفَضْلِه، مِنْ غَيْر وُجوب عَلى الله تَعالَى، فَإِنَّه تَعالَى لاَ يَجبُ عَليْه خَلْق العَالَم أَصْلاً، ولاَ يَعْترِيه فِي عَدَم خَلْقِه شَيْءٌ، إِذْ لاَ يَنْجلِب لَه تَعالَى بِخلْقِه كَمالٌ ولاَ شَيْء مِنَ المَنافِع، كَيْف وهُوَ تَعالَى الكَامِلُ بِذاتِه الغَنِيُّ بالإِطْلاَق أَزلاً وأَبداً، ولاَ يَنْدفِع عَنْه بِخلْقِه سُوء ولاَ ضَرَر ولاَ ضَيْم، كَيْف وهُو تَعالَى المُتنَزِّه عَنْ كُلِّ نَقْص أَزلاً وأَبداً، القَاهِر فَوْق عِبادِه، فَلوْ شَاءَ لَمْ يخلق العَالَم ولاَ شَيْئا[2] مِنه أصلاً، ولَوْ شَاء إِذْ خَلقَه لَمْ يَجْعَل فِيه مَنْ يَسْتعِدُّ لِمعْرِفتِه والاهْتِداء إِليْه مِنَ العُقلاَء، وإِذْ جَعلَهم فِيه، فلَوْ شَاء لَمْ يَهْدِهم ولَمْ يُعرِّفْهم بِه، ولَو ظَهَرتِ الدَّلاَئِل واتّضحَت البَراهِين.

فَكُلٌّ مِنْ خَلْقِه تَعالَى لِلعَالَم، وَمِنْ جَعْل بَعْضِه عُقلاَء، ومِنْ تَعْلِيم العُقلاَء مَا لَمْ يَعلَمُوا مِنْ أَوْصافِه تَعالَى وأَحْكامِه / وحِكَمِه، فَضْل ومَحْض كَرَم، لاَ يَجب عَليْه شَيْء مِنْ ذَلِك ولاَ يَمْتنِع، وكَذا عِنْدَنا لاَ يَجب عَلى الله تَعالَى شَيْءٌ لِعَبِيدِه، ولاَ يَثْبُت علَيْه حَقٌّ لأَحَدٍ إِلاَّ مَا أَثْبَته تَبارَك وَتعالَى عَلى نَفْسِه بالفَضْل والامْتِنان،

1 ـ سبق تخريجه في ص : 51.

2 ـ وردت في نسختي ق و ك : شيء.

يَهْدي مَنْ يَشَاء وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاء، ويَرْحَم مَنْ يَشاء ويُعذِّب مَنْ يَشَاء، ويُوفِّق مَنْ يَشَاء ويَخْذُل مَنْ يَشَاء، لَهُ المُلْك والأَمْر، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

المَبْحَثُ الثَّانِي

{خَلْقُ الكَائِنَات لإِرْشَاد العِبَاد فِيهِ أَمْرٌ بالنَّظرِ والتَّفكُّرِ}

أَنَّه تَعالَى لَمَّا خَلَق الكَائِنات لإِرْشَاد عِبادِه العُقَلاَء وهِدايَتهم بِها، نَدَب تَعالَى عِبَادَه إِلى اسْتِحْضَار تِلْك الفَائِدة، واسْتِفادَة تِلْك الحِكْمَة[2]، فَأَمرَهُم بالنَّظَر فِي المَخْلُوقات والتَّفكُّر فِي المَصْنوعَات. فَقال تَعالَى : ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾[3] الآية. وقالَ تَعالَى : ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾[4] الآيَة. وذَمَّ تَعالَى مَنْ تَعامَى عَنِ النَّظَر فِي آيَاتِه، فَقالَ جَلَّ اسْمُه : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[5] إِلى غَيْر هَذا مِنَ الآيَات الدَّالَة عَلى الأَمْر بالنَّظَر، والتَّفكُّرِ فِي آيَات رَبِّ العَالَمِين.

ولِهَذا ذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ مِنْ أَهْلِ الكَلاَم، إِلَى أَنَّ أَوَّل وَاجِب النَّظَر، ولاَ شَكَّ أَنَّ النَّظَر مَطْلوب ولَه مَبْدَأ وَغَايَة، فَمبْدأه القَصْد إِلَيْه، بِقطْع العَلائِق الظَّاهِرة والبَاطِنة الشَّاغِلَة عَنْه، وغَايَته المَعْرِفة، وهِيَ المقْصِد والنَّظَر وَسِيلة[6]. فَمَن اعْتبَر المَقاصِد قَال : أَوَّل وَاجِب المَعْرِفة، ومَنِ اعْتَبَر الوَسائِل قَال : أَوَّل وَاجِب النَّظَر، ومَنْ اعْتَبَر وَسائِل الوَسائِل قَال : أَوَّل وَاجِب القَصْد إِلى النَّظَر.

---

1 ـ تضمين للآية : 120 من سورة المائدة والآية : 4 من سورة هود، والآية : 50 من سورة الروم، والآية : 9 من سورة الشورى، والآية : 2 من سورة الحديد، والآية : 1 من سورة التغابن، والآية : 1 من سورة الملك.
2 ـ وردت في نسخة ك : الكلمة.
3 ـ يونس : 101.
4 ـ الأعراف : 185.
5 ـ يوسف : 105.
6 ـ وردت في نسخة ك : وسيلته.

وقَد أَمَر المَوْلى تَبارَك وتَعالَى بالأُمور الثَّلاثَة فِي كِتابه، فَأَمَّا النَّظَر فتقدَّم دَلِيله، وأَمَّا المَعْرِفة فقال <تعَالَى>[1] : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[2] ونَحْوه فِي القُرآنِ كَثير، وأَمَّا القَصْد بِقَطْع العَلائِق فَقالَ تعالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[3] الآية. والنَّهْي عَنِ الشَّيْء أمْرٌ بِضِدِّه، ونَحْو هَذا فِي القُرْآن كَثِير أَيْضا.

{الاعْتبَارُ مَأْمورٌ به فِي نَيِّف مِنْ سَبْعمِائَة آيَة}

وذَكَر بَعْض العُلَمَاء، أَنَّ الاعْتِبارَ قَد أُمِر به فِي كِتاب الله تَعالَى فِي نَيِّف مِنْ سَبْعمِائة آيَة، وفِي كَلاَم النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْضاً مِنَ التَّحْضِيض علَى المَعْرِفَة وَعلَى النَّظَر، وَعلَى قَطْع العَلائِق مَا لاَ يَنْحصِر، وقَد جَاءه رَجُل فَقال : «يَا رَسُول الله عَلِّمْني مِنْ غَرائِب العِلْم فَقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَا فَعَلْتَ فِي رَأْسِ العِلْم ؟ قَالَ : مَا هُوَ؟ قَالَ : هَلْ عَرَفْت الله »[4] الحَدِيث. وَقَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «تَفَكَّرُوا فِي مَخْلوقَاتِه وَلاَ تَتفكَّرُوا فِي ذَاتِه»[5]. وَقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار تَعِسَ عَبْد الدِّرْهَم تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَة»[6] الحَدِيث.

المَبْحَث الثَّالِث

{فِي النَّظَر فِي مَوضُوعَات الله دِلالَةٌ لِمَا يَرْجُونَ وكِفَايَةٌ لِمَا يَطْلُبونَ}

أَنَّه تَعالَى عِنْدَمَا نَدَب عِبادَه إلى النَّظَر فِي مَوْضوعَاته، لاسْتِفَادَة العِلْم بِكَمَالِه،

---

1 ـ سقطت من نسخة ح.

2 ـ محمد : 19.

3 ـ المنافقون : 9.

4 ـ أخرجه ابن السني وأبو نعيم في كتاب الرياضة لهما، وابن عبد البر من حديث عبد الله بن المسور مرسلا، وهو ضعيف جدا. المغني للحافظ العراقي على هامش الإحياء/ 1 : 57.

5 ـ أخرجه السخاوي في المقاصد الحسنة : 260 رقم : 342. والزركشي في اللآلئ المنثورة : 136 رقم : 20. وقد قال : «قال بعض الحفاظ : ليس هذا من كلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يعرف له إسناد صحيح ولا ضعيف». وابن فورك في مشكل الحديث : 456 من حديث بن خبير عن ابن عباس.

6 ـ سبق تخريجه في ص : 82.

أَعْلَمهُم أَنَّ فِيها دِلاَلَة لِما يَرْجون وكِفايَة لِمَا يَطْلُبون، فَقال تَعالَى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾...إلى قَوْله ﴿لَآيَاتٍ﴾[1]، وقَال تَعالَى فِي الآيَة الأُخْرى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[2] وَقالَ تَعالَى : ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21)﴾[3] إِلى غَيْر هَذا مِنَ الآيِ.

ثُمَّ وَعدَهم تَعالَى بِأَنَّه مُعْطِيهم مَا يَطْلُبون مِنْها، فَقالَ تَعالَى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[4] وفِي الحدِيث مِنْ هَذا أَيْضا قَوْله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»[5].

المَبْحَث الرَّابِع

{مِنَ المَخْلوقَات مَا خُلِق لِيَعْرِف وَمَا خُلِقَ لِيُعْرَفَ به}

اعْلَم أَنَّهُما مُخْلوقَان، مَخْلوق خُلِق لِيَعْرِف، ومَخْلُوق خُلِق لِيُعْرَف بِه، فالمَخْلُوق الَّذِي خُلْق لِيعْرِف هُو العَاقْل مِنَ الإِنْس والجِنِّ والمَلَك. والمَخْلُوق

171 الَّذِي خُلِق لِيُعْرَفَ بِه هُوَ غَيْر العَاقِل ومِنْ جُمْلَة غَيْر العَاقْل / فِي المَعْنى ذَات العَاقِل، فَإِنَّه يعْرَفُ بِها ولِذلِـك قَال الله تَعالَى : ﴿[سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا][6] فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وقَال : ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ فَافْهَم.

---

1 ـ البقرة : 164.
2 ـ آل عمران : 190.
3 ـ الذاريات : 20.
4 ـ فصلت : 53.
5 ـ أخرجه السخاوي في المقاصد الحسنة : 257 رقم : 1149. والزركشي في اللآلئ المنثورة، الباب الثالث في الزهد : 129 رقم : 10.
6 ـ ساقط من نسختي ق و ك.

المَبْحَثُ الخَامِسُ

{مَشْرَبُ المُتَكَلِّمينَ وَالعَارِفينَ مِنْ وُجودِ الكَائِنات}

لَمَّا كَانَت هَذِه الكَائِنات خُلِقَت مَظاهِر ودَلائِل للأُلوهِية، ومَا يَنْبغِي لَها مِنَ الأَوْصَاف، كَان لِكُلٍّ مِنَ الفَرِيقَين : أَعْنِي المُتكلِّمين والعَارِفين فِيها مَشْرب ومَنْزَع ومَنْصِب، لأَنَّها خُلِقَت رَحْمَة للجَمِيع، وهِدايَة للوَضِيع والرَّفِيع، ووَجْه الاسْتِدلاَل بها لِكُلٍّ مِنَ الفَرِيقين تَقدَّم فِي بَيانِ أَدِلَّته، ولاَبُدَّ أَنْ نُشِير هُنا إِلى ذَلِك بِأَبْين مِمَّا مَرَّ، عَلى سَبِيل الإِيجَاز والاخْتصَار، إِنْ شَاءَ الله وبالله التَّوْفيق.

فَنقُول : أَمَّا المُتكلِّم، فَغرَضه الاطِّلاَع عَلى صِفاتِ الله تَعالَى الَّتِي سَبقَ ذِكْرُها، فَإِذا نَظَر فِي وُجودِ الكَائِنات، وعَلِم أَنَّها حَادِثة بِما شُوهِد فِيها <مِنَ التَّغيُّر>[1]، عَلِمَ أَنَّ لَها مُحْدِثا، إِذْ لاَ تُحْدِث نَفْسها، ولاَ تحْدث بِغيْر شَيْء، فَحصَل لَه وُجُود الفَاعِل، ثُمَّ ينْظُر فِي ذَلِك الفَاعِل فيقُول : إِنَّها جَائِزة الوُجود، فلاَ بُدَّ أَنْ يَكونَ فَاعِلُها وَاجِب الوُجُود أَزلِياً، إِذْ لَو كَانَ جَائِزاً لاَفْتقَرَ كَما افْتقَرَت، فَيتَسلْسَلُ الأَمْر إِلى غَيْر نِهايَة، وهُوَ مُحَال، وَإِذَا وَجَب وُجودُه كَانَ قَدِيماً بَاقِياً مُسْتغنِياً عَنِ الفَاعِل، غَيْر جِرْمٍ وَلاَ عَرَضٍ، ولاَ مُماثِل لِشيْء مِنْ خَلْقه، وإِلاَّ وَجَب لَه الحُدوث كَمَا وَجَب لَها.

ثُمَّ يَنْظُر فِي وَجْه إِيجَاده لِهَذِه الكَائِنات فيقُول : إِنَّهُ لَوْ كَانَ ذَلِك بِذَاته عَلى طَرِيق التَّعْلِيل أَو الطَّبْع، لَكَانَت الكَائِنات قَدِيمة مَعَه أَزلِيَّة، لِوُجوب اقْتِران العِلَّة بمَعْلُولها والطَّبِيعة بِمطْبُوعها، وإِذَا تَبيَّن حُدوثُها، وأَنْ لاَ وُجودَ لَها فِي الأَزَل وفَاعِلها أَزلِيٌّ، عُلِمَ أَنَّه لَيْس بِذاتِه أَوْجَدها، بَلِ بالصِّفَة وهِي القُدْرَة، إِذْ هِيَ الصِّفَة الَّتِي يَتأَتَّى بِها الإِيجَاد.

ثُمَّ يَنْظُر فِي وُقُوع التَّخْصِيصَات المُخْتلِفة، فَيعْلَم أَنَّ الفَاعِل مُخْتارٌ، وإِذا كَان

---

1 ـ ساقط من نسخة ح.

كَذَلِكَ فَهُو عَالِمٌ وحَيٌّ. ثُمَّ يَقولُ لاَبُدَّ أَنْ يَكونَ وَاحِداً، إِذْ لَوْ كَان مَعهُ شَرِيك لَنازَعهُ ومَانَعهُ فَيخْتَلُّ النِّظَام.

ثُمَّ إِذَا كَان خَالِقا لَنا قَادِرا عَلى التَّصَرف فِينَا بكلِّ وَجْه أَرَادَه، كَان مَالِكا لَنَا عَلى الحَقِيقة، فَجازَ أَنْ يَأْمُرنَا ويَنْهانَا ويَسْتخدِمنَا ويَسْتسخِرَنا مُباشَرة، وجَازَ أَنْ يَكُون ذَلِك بواسِطَة بَعْض عَبِيده، فَإِذَا جَاء أَحد عَبِيده وادَّعى أَنَّه أَرْسلَه، وقَال : عَلامَة صِدْقه[1] أَنْ يَخْرِق لِي عَادَته بِكذَا، كَشقِّ القَمرِ، وفَلَق البَحْر مَثلاً، فَفعَل لَه ذَلِك، ونَحْنُ نَعْلَم أَنَّه هُو فَعلَه بِاخْتيَاره، تَنَزَّل مَنْزِلَة قَوْله : صَدَق عَبْدي فِيما يَدَّعِي عَنِّي فَنُصدِّقُه.

فَإِذَا أَخْبرَنا ذَلِك العَبْد المُرْسل أَنَّ الفَاعِل سَمِيعٌ بَصِيرٌ مُتكلِّمٌ صَدَّقْناه، وإِذَا أَخْبرَنا أَنَّه أَمَر بِكذَا ونَهَى عَنْ كَذا، وأَنَّه أَعدَّ الجَنَّة لِمَن أَطاعَ ثَواباً، وأَعدَّ النَّارَ لِمَنْ عَصَى عِقاباً صَدَّقْناهُ فِي جَمِيع ذَلِك، وَفِي غَيْره مِمَّا يُخْبر بِه، مِنَ الصِّرَاط والمِيزَان والشَّفَاعَة وغَيْر ذَلِك.

{لِنَظَرِ المُتَكَلِّمِ فِي الكَائِنَاتِ طَرِيقَانِ : النَّظَرُ في العَالم والنَّظَرُ في نَفْسِه}

هَذَا نَظَر المُتكلِّم، ولَهُ فِي جَمِيع ذَلِك طَرِيقان : أَحدُهما النَّظَر فِي العَالَم، والأُخْرى النَّظَر فِي نَفْسه كَمَا قَال تَعالَى : ﴿ فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ وإِنَّما كَانَ ذَلِك، لأَنَّ نَفْس الإِنْسان فِيها كُلُّ مَا فِي العَالَم، فَقَد احْتوَت ذَاتُه مِنَ الخِلْقَة الإِبْداعيَة، والحِكْمة الإِنْشائِية، عَلَى جَمِيع مَا احْتوَى عَلَيْه العَالَم، مِنَ العَرْش إِلى الفَرْش، وذَلِك بِطَرِيق المُقايَسة والمُقابَلة والمُحاكَاة، فَهُو نُسْخَة مِنْ سَائِر العَالَم، 172 فَهُمَا نُسْختَان:كُبْرَى وهِي[2] العَالَم بِرُمَّته، وصُغْرى وهِيَ / ذَات الإِنْسان

1 ـ وردت في نسخة ح : صدقي.
2 ـ وردت في نسخة ك : وهو.

وَحْده، فَهُو العَالَم الأَصْغَر، وهَذا أَمْر قَد تَبيَّن لأَرْباب القُلوبِ رِضْوان الله عَلَيْهِم فَبيَّنوهُ. قَال الإِمَام أَبُو بَكْر بْنُ العَربي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1] فِي أَحْكام القُرْآن عِنْد قَوْلِه تَعالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2] الآية، مَا نَصُّه: «لَيْس للهِ تَعالَى خَلْق هُوَ أَحْسَن مِنَ الإِنْسان، فإِنَّ الله خَلقَه حَيّاً قَادراً، مُريداً عَالِماً، مُتكلِّماً سَميعاً، بَصيراً مُدبِّراً حَكيماً، وهَذِه صِفاتُ الرَّب تَبارَك وتَعالَى، وعَنْها عِنْد بَعْض العُلَمَاء، وَقَع البَيَان بِقَوْلِه عَليْه السَّلام: «إِنَّ الله خَلقَ آدَم عَلَى صُورَتِه»[3] يَعْنِي عَلى صِفَاتِه الَّتِي قَدَّمْنا ذِكْرها. وفِي رِواية عَلى صُورَة الرَّحْمن[4]، ومِنَ المُحالِ أَنْ تَكُون للرَّحْمن صُورَة مُشخَّصة صِفَة، فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَنْ تكُون مَعانِي، وقَدْ تكلَّمْنَا عَلى الحَدِيث فِي مَوْضعِه بِمَا فِيه بَيانُه.

قَال: وَقَد أَخْبَرنا المُبارك بْنُ عَبْد الجَبَّار الأَزْدِي[5]، أَخْبرَنا القَاضِي أَبُو القَاسِم عَلي بن أَبِي عَلي القَاضِي المُحْسِن[6] عَنْ أَبِيه قال: كَان عِيسى بن مُوسى الهَاشِمي يُحِبُّ زَوْجه حُبّاً شَدِيدا، فَقال لَها يوما: أَنْتِ طَالِق ثَلاثاً إِنْ لَمْ تكونِي أَحْسَن مِنَ القَمَر، فَنهَضت واحْتجبَت عَنْه وَقالَت: طَلَّقتَنِي وبَات بِلَيلَة عَظِيمَة، فَلمَّا أَصْبَح غَدا إِلَى دَار المَنْصورِ[7] فَأَخْبرَه الخَبرَ وَقالَ: يَا أَمِير المُؤْمِنين إِنْ تَمَّ عَليَّ طَلاقُها تُلفَتْ نَفْسي غَمّاً، وكَان المَوْت أَحبَّ إِليَّ مِن الحَياةِ، وأَظْهرَ للمَنْصورِ جَزعاً عَظِيماً، فاسْتحضَر

---

1 ـ سبقت ترجمته في ص: 96.

2 ـ التين: 4.

3 ـ أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان، باب: بدء السلام. ومسلم في كتاب البر والصلة والأدب، باب: خلق الإنسان خلقا لا يتهالك.

4 ـ بهذه الرواية ورد عند الإمام أحمد في مسنده، كتاب باقي مسند المكثرين.

5 ـ أبو الحسين عبد الجبار الأزدي البغدادي ابن الطيوري (ت: 1107م / 500هـ)، عالم بالحديث، ثقة مكثر. الأعلام/ 5: 271. تهذيب سير أعلام النبلاء / 2:471.

6 ـ القاضي العالم المعمر أبو القاسم التنوخي البصري ثم البغدادي «365 / 447هـ». له كتاب «الطوالات». تهذيب السير / 2:342.

7 ـ الخليفة عبد الله بن محمد أبو جعفر المنصور العباسي (95 هـ 158-هـ). أول من عني بالعلوم من ملوك العرب. كان عارفا بالفقه والأدب، مقدما في الفلسفة والفلك. الأعلام/ 4: 259.

الفُقهاء واسْتفتَاهُم، فقالَ جَمِيع مَنْ حَضرَ : قَد طُلِّقَت، إلاَّ رَجُلا وَاحِدا مِنْ أَصْحابِ أَبِي حَنِيفة[1]، فإنَّه كَانَ سَاكِتاً، فَقالَ لَه المَنْصُور : مَالَك لاَ تَتكلَّم ؟ فَقالَ له الرَّجُل : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④﴾[2] يَا أَمِير المُؤمِنين، فَالإِنْسان أَحْسَن الأَشْياء، ولاَ شَيْء أَحْسَن مِنْه.

فَقالَ المَنْصُور لِعيسَى بْن مُوسَى : الأَمْر كَما قَال، فَأَقْبِل عَلَى زَوْجِك، فَأَرْسلَ أَبُو جَعْفَر المَنْصور إِلى زَوْجه أَنْ أَطِيعي[3] زَوْجَك ولاَ تَعْصِيه، فَمَا طَلَّقَك، فَهذَا يَدُلُّك عَلَى أَنَّ الإِنْسانَ أَحْسَن خَلْق الله بَاطِناً، وهُوَ أَحْسَن خَلْق الله ظَاهِراً، جَمال هَيْئَه، وَبَدِيعَ تَرْكِيب : الرَّأْس بِمَا فِيه، والصَّدر بِمَا جَمعَه، والبَطْن بما حَوَاه، والفَرْج وَما طَوَاه، واليَدَان وَمَا بَطَشتَاه، والرِّجْلاَن ومَا احتملَتاهُ، وبِذَلك قَالَت الفَلاسِفَة : إِنَّه العَالَم الأَصْغَر، إِذْ كُلُّ مَا فِي المَخْلُوقات أُجْمع فِيه.

هَذا عَلى الجُمْلَة، فَكيْفَ مَعَ التَّفْصِيل بِتنَاسب المَحاسِن، فهُوَ أَحْسَن مِنَ الشَّمْس والقَمَر بالمَعْنيَيْن جَمِيعا، وقَدْ بَيَّنا القَوْل فِي ذَلِك فِي كِتابِ المُشْكلَين. قَال : وبِهَذه الصِّفاتِ الجَلِيلة الَّتِي رُكِّب عَليْها الإِنْسَان، اسْتَوْلى عَلى جَمِيع الكُفْرانِ، وغَلَب عَلَى طَائِفة الطُّغْيان، حَتَّى قَالُوا : «أَنَا الله»، وَ ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[4]. وحِينَ عَلِم الله هَذا مِنْ عَبْدِه، وقَضاؤُه صَادِراً مِنْ عِنْده، رَدَّهُ أَسْفَل سَافِلين، بِأَنْ جَعلَه مَمْلوءاً قَذَارَة مَشْحوناً نَجاسَة»[5] انْتهَى.

---

1 ـ الإمام فقيه الملة، عالم العراق وإمام أصحاب الرأي أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي التابعي (80-150هـ) صاحب المذهب، وهو غني عن التعريف، وترجمته أفردت بالتصنيف. سير أعلام النبلاء/ 6: 390.

2 ـ التين : 1 – 4.

3 ـ وردت في نسخة ك : أطيع.

4 ـ النازعات : 24.

5 ـ أحكام القرآن/ 4 : 1952.

وقَال صَاحِب التَّدْبِيرات الإِلَهِيَة[1] مَا نَصُّه : «اعْلَم وَفَّقكَ الله لِطاعَتِه، أَنَّ الله سُبْحانَه قَدْ شَاء أَنْ يُبْرِز العَالَم فِي الشَّفْعِية، لِيَنْفَرد سُبْحانَه بالوَتْرِية، فَيَصِحُّ اسْمُ الوَاحِد الفَرْد ويَتميَّز السَّيد مِنَ العَبْد، قَال : ولَمَّا وَقَفْتُ أَوْقفكَم الله عَلى حَقائِق نُفوسِكم، وأَطْلَعَكُم على مَا أَوْدَع فِيكُم مِنْ لَطِيف حِكْمَته، وغَرِيب صَنْعتِه، عَلى قَوْلِه تعالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2].

173 فَأَخذْتُ / فِي الفِكْر والاعْتِبَار فِي هذِه الآيَة، فَرأَيْت الإِنْسانَ مِنْ جُمْلَةِ الثَّمرَات يَنْمو كَنمَائِها، ويَتغذَّى كَغذَائِها، ثُمَّ يَنْتهِي كَنِهايَتها، وتُؤْخَذ مِنْه الفَوائِد كَالأَخْذ مِنْها، ثُمَّ يَأْخذ فِي النَّقْص كَنُقصانِها، ثُمَّ يَهْرَم كَهرَمِها، ثُمَّ يَمُوت كَموْتِها، ثُمَّ رَأَيْته يُولَد كَتوْلِيدها، فَيُؤْخذ بَذر مِنْها فَيُزْرَع، فَيحْدُث فِيه الشَّباب كَذلِك، حَتَّى يَصِير إِلى مِثْل حَالِها، فَقَد يُؤْخَذ مِنْه كَمَا يُؤْخذُ مِنْها وقد يُتْرَك، فَينْقَطِع النَّسْل مِنْ تِلْك الثَّمرَة المُعيَّنة، وكَذلِك الإِنْسان فِي التَّوالُد والتَّناسُل عَلى ذَلِك المَهْيَع. فَقُلْنا هَذِه شَجَرة فَأَيْن أُخْتها الَّتِي تَصِحُّ بِها شَفْعِيتُها، وإِطْلاَق هَذِه الآيَة عَليْها فِكْراً واعْتِباراً، فَتتَبَّعْنا وُجُود الحِكْمة فِي الإِنْسان وتَفْضِيله عَلى سَائِر الحَيَوان، وتَقصَّيْنا أَسْرارَه وحِكمَه ولَطائِفَه، فَرأَيْناهَا بِأَعْيانِها فِي العَالَم المُحِيط الأَكْبَر قَدماً بِقدَم، فَلَم نَزَل نُقابله حَرْفا حَرْفا ومَعْنًى مَعْنًى، حَتَّى وَجدْته كَأَنَّه هُو، فَعلِمْنا أَنَّ الثَّمَرَة الوَاحِدة العَالَم الأَكْبَر المُحِيطُ، والثَّمرة الأُخْرَى الإِنْسان الَّذِي هُو العَالَم الأَصْغَر، فَطلبْنا عَلى ذَلِك شبيهاً مِنَ الكِتاب العَزِيز، فَوقَفْنا عَلى آيَاتٍ نَيِّراتٍ مِنْها ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[3] وَ﴿ سَنُرِيهِمْ

---

1 ـ هو : كتاب التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية. لصاحبه : محي الدين ابن عربي الحاتمي، سبقت ترجمته في ص : 82.

2 ـ الرعد : 3.

3 ـ تضمين للآية : 21 من سورة الذاريات.

ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[1]، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴾[2]، ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾[3] ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾[4] فَحمِدْنا الله تَعالَى عَلى مَا أَلْهَم، وأَنْ عَلَّمنَا مَا لَمْ نكُن نَعْلَم، وكَان فَضْل الله عَلَيْنا عَظِيما.

{تَشْبيه الإِنْسَان بالعَالَم الأَكْبَر}

فانْظُر نَوَّر الله بَصِيرتَك إلى مَا تَفرَّق فِي العَالَم الأَكْبَر، تَجِدُه فِي هَذا العَالَم الإِنْسَاني مِنْ مَلَك وَملَكوت، حَتَّى إِذَا ظَهَر فِي العَالَم مِثْل النَّمَاء، وَجدْتَه فِي الإِنْسانِ كالشَّعَر والأَظْفارِ وشِبْه ذَلِك، وكَمَا أَنَّ فِي العَالَم مَاءً مَالِحاً وعَذْبا وزُعاقاً[5] ومُرّاً، وذَلِك مَوْجُود كُلُّه فِي الإِنْسانِ، فالمَالح فِي عَيْنيْه، والزُّعَاق فِي مِنْخرَيْه، والمُرُّ فِي أُذنَيْه، والعَذْب فِي فِيهِ، وَكَمَا أَنَّ فِي العَالَم تُراباً ومَاءً وهَواءً ونَاراً، فَفِي الإِنْسانِ ذَلِك بِعيْنه.

ومِنْها خَلْق جِسْمه، وَقَد نَبَّه عَليْه الحَكِيم سُبْحانَه فِي الكِتابِ العَزِيز، وَهُو قَوْله تَعالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾[6] ثُمَّ قَال : ﴿ مِّن طِينٍ ﴾[7] وَهُو امْتِزاجُ المَاءِ بالتُّرَابِ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[8] وهُوَ المَتغيِّر الرِّيح، وهُوَ الجُزْء الهَوائِي الَّذِي فِيه، ثُمَّ قَال : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾[9] وهُوَ الجُزْء النَّارِي، وهَذِه حِكْمَة مِنْه سُبْحانَه يَخْلُق مَا يَشَاء وهُوَ العَلِيم القَدِير.

---

1 ـ تضمين للآية : 53 من سورة فصلت.
2 ـ تضمين للآية : 27 من سورة ص.
3 ـ تضمين للآية : 115 من سورة المؤمنون.
4 ـ تضمين للآية : 12 من سورة الطلاق.
5 ـ الزعاق : الماء المر لا يطاق شربه.
6 ـ غافر : 67.
7 ـ الأنعام : 2.
8 ـ الحجر : 26.
9 ـ الرحمن : 14.

وكَمَا أَنَّ فِي العَالَم رِياحاً أَرْبَعا : شَمالاً وجَنوباً وصَبا ودُبوراً، فَفِي الإِنْسان أَرْبَع قِوَى : جَاذِبة ومَاسِكَة وهَاضِمة ودَافِعة. وكَمَا أَنَّ فِي العَالَم سِباعاً وشَياطِين وبَهائِم، فَفِي الإِنْسان افْتِراس وطَلَب القَهْر، والغَلبَة والغَضَب، والحِقْد والحَسَد، والفُجور والأَكْل والشُّرْب، والنِّكَاح والتَّمتُّع، كَمَا قَال الله عَزَّ وَجلَّ : ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾[1].

وَكَما أَنَّ فِي العَالَم مَلائِكة بَرَرة سَفرَة، فَفِي الإِنْسان طَهارَة وطَاعَة واسْتقَامَة. وكَمَا أَنَّ فِي العَالَم مَنْ يَظْهر للأَبْصار ومَنْ يَخْفَى، فَفِي الإِنْسانِ ظَاهِر وبَاطِنٌ، عَالَمُ الحِسِّ وَعالَم القَلْب، فَظاهِرُه مُلكٌ وبَاطِنُه مَلكُوت. وَكَما أَنَّ فِي العَالَم سَماء وأَرْضا، فَفِي الإِنْسان عُلوٌّ وسُفْل، وامْشِ بِهذَا الاعْتِبارِ عَلى العَالَم تَجِد النُّسْخَة الإِلَهيَة صحِيحَة، مَا اخْتلَّ حَرْف ولاَ نَقَص مَعنَى، ولَمْ تَجِد لَه فِي 174 مُقابَلة الأَزَل إِلاَّ الأَبَد، فَهُو مُتَناه الطَّرَف الآخَر[2] شَرْعا، وَبِسبْق عِلْم قَدِيم / بَاقٍ بِبقاءِ الله عَزَّ وَجلَّ»[3] انْتهَى.

فَقَد ظَهَر لَك مِنَ النُّسختيْن، أَنَّ كُلَّ مَا يَجِدُه المُسْتدِل فِي العَالَم مِنَ التَّكْوين الدَّال عَلى قُدْرَة الله تَعالَى، والتَّخْصِيص الدَّال عَلى إِرادَته، والإِتْقانِ الدَّال عَلى عِلْمه وحَياتِه، والانْتظَام الدَّال عَلى وَحْدانِيته، إِلَى آخِر الاسْتِدلاَلات يَجِدُه كُلُّه فِي ذَاتِه، ويَتحقَّقه فِي نَفْسِه، لأَنَّه بِنفْسِه لَمْ يَكُن ثُمَّ كَانَ، وقَد وَقَع فِي ذَاتِه مِنَ التَّخْصِيص المُتفَاوَت والإِتْقَان البَاهِر مَا لاَ يُنْكَر، وذَلِك أَمْر ضَروري عِنْد كُلِّ عَاقِل.

ثُمَّ إِذَا تَأَمَّل المُسْتدِل العَاقِل عَلِم أَنَّ الله تَعالَى جَعلَ لَهُ فِي نَفْسِه مَا يعْرف بِه مَعْنَى الكَمال، الَّذِي يُرِيد أَنْ يُثْبِته للهِ تَعالَى، ومَا يُعْرَف بِه ثُبوت ذَلِك الكَمَال، فَقدْ

---

1 ـ محمد : 12.

2 ـ وردت في نسخة ق : الأخير.

3 ـ النص منقول مع بعض التصرف اليسير جدا من التدبيرات الإلهية في التمهيد : 107 ـ 109.

أَقَام المَوْلَى جَلَّ جَلالُه لَهُ مِنْ نَفْسِه مَا يَعْرِف بِهِ التَّصورَ والتَّصْدِيق، ومَا يُنَال بِه مِنْ مَعْرِفة الله التَّحْقِيق[1].

فَسُبْحانه مِنْ لَطِيف مَا أَكْرَمه، ومِنْ كَرِيم مَا أَحْلَمه، ومِنْ حَلِيم مَا أَعْلَمه، ومِنْ عَلِيم ما أَحْكَمه، و مِنْ حَكِيم مَا أَعْظَمه، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[2]

وَبيَانُ ذَلِك أَنْ تَعْلم أَنَّ العَقْل، لَم يُجْعَل لَهُ بِحسَب العَادةِ ومُقْتَضَى اكْتسَابه، الوُصول إِلى الغَيْب المَحْض، وهُوَ مَا لَمْ يَكُن مَشْهوداً ظَاهِراً ولاَ بَاطِناً، ولاَ مُتعلِّقا بالمَشْهودِ نَوْع تَعلُّق، فإِنَّ العَقْلَ إِنَّما لَهُ التَّصرف فِيمَا حَصَل فِي الفِكْرة مِنَ الأُمُور الفِطْريَة أَو[3] الحِسية أَو الوَهْمِيَة، والوَهْم إِنَّما يَحْتَطِب[4] مَا لَه مَادَّة[5] فِي الحِسِّ أَوْ تَعلُّق مَا بِه، أَمَّا مَا هُو غَيْب مَحْض فلاَ اكْتسَاب للعَقْل فِي تَصوُّره ولاَ الحُكْم عَليْه، إِلاَّ أَنْ يُلْقَى فِيه بِطَريق الوَحْي أَوِ الإِلْهام كَمَا مَرَّ.

ولاَشَكَّ أَنَّ ذَات الله تَعالَى وصِفاتِه هِيَ مِنَ الأَمْر الغَيْبِي، فَشَأْن العُقول أَنْ تَعجز عَنْها، فلاَ تَجد سَبِيلاً إِلى تَصوُّر الذَّات، ولاَ شَيْء مِنَ الصِّفاتِ ولاَ الشُّعُور بِها أَصْلاً، لأَنَّها غَيْب، فلاَ يُمْكنُها أَنْ تُثْبتها رَأْساً، لأَنَّ الحُكْم مَشْروطٌ بالشُّعُور، وقَد تَعذَّرَ عَلى العَقْل الشُّعُور بِمَا غَابَ عَنْه، فلمَّا أَنْ سَبقَت مَشِيئة الله تَعالَى، وجَرَت حِكْمته بِأَنْ يُكلِّفَ عِبادَه العُقلاَء معْرِفتِه تَعالَى، وأَنْ يُثْبتوا ذَاته وَصِفاته، أَوْجَدهُم تَعالَى بِمحْض فَضْله وكَرمِه عَلى صِفَة اسْتعدُّوا بِها للمَعْرفَة، الَّتِي تُطْلَب مِنْهم، بِأَن خَلَق لَهُم فِي أَنْفسِهم وفِي ذَواتِهم أُموراً بَيْنَها وبَيْن هَذا الأَمْر المَغِيب

1 ـ وردت في نسخة ق : الحقيق.
2 ـ تضمين للآية : 14 من سورة المؤمنون.
3 ـ وردت في نسخة ق : و بدل أو.
4 ـ وردت في نسخة ك : يختطب.
5 ـ وردت في نسخة ح : عادة.

ضَرْبٌ مِنَ الشَّبَه، تَصِحُّ بِه المُقايَسة، ويُمْكِن بِه التَّوصُّل حَتَّى يُفْهَم ذَلِك الشَّيْء نَوعاً مِنَ الفَهْم، ويُشْعَر بِه نَوْعا مِنَ الشُّعُور، إِمَّا إِثْباتاً وإِمَّا نَفْياً، فإِنَّ الشَّيءَ يُعْرَف بِنِدِّه [تَارَة][1] و<يُعْرَف>[2] بِضدِّه أُخْرى.

فَخلَق لَنا سُبحَانه ذَواتا، وأَوْجَد فِي قُلوبِنا قَضايَا فِطْرِيَة أَوَّلِية، مِثْل كَوْن النَّفْي والإِثْبات لاَ يَجتَمِعان، وكَوْن الشَّيْئَيْنِ إِمَّا أَنْ يَتشابَها أَوْ يَتخَالفَا ونَحْو ذَلِك، فَلمَّا أَرَدْنا مَعْرِفَة الله تَعالَى وإِثْبات ذَاتِه العَلِيَّة، فَهِمْنا مَعنَى الإِثْبَات، لأَنَّ الإِثْباتَ والنَّفْيَ مِمَّا جُعِل فِي أَنْفُسِنا مِنَ الضَّرورِيات، وكَانَ مِنْ فَوائِد جَعْلِه التَّمْهيد لِهَذا الغَرَض الأَسْنى. ولَمَّا وَصَفْنَاه[3] تَعالَى بالوُجُود فَهِمْنا مَعنَى الوَجُود مِنْ وُجودِنا، إِلاَّ أَنَّا نَظرْنا بِعقُولِنا فِي أَنَّ ذَلِك الوُجود وهَذا الوُجُود أهُما مُتماثِلان أَمْ مُتخَالِفان؟ فَظهَر لَنا تَخالُفُهُمَا بالوُجُوب فِي حَقِّه تَعالَى، والجَواز فِي حَقِّنا.

ثُمَّ قُلْنا : إِنَّه تَعالَى ذَات مَوْصُوف بالصِّفات لاَ صِفَةٌ، وفَهِمْنا مَعْنى الذَّات مِنْ ذَواتِنا، لأَنَّا نَقُول : هُوَ مَوْجود قَائِم بِنفْسه، أَيْ غَيْر مُفْتقِرٌ إِلى ذَات أُخْرى يَقُوم بِها، وهَذا المَعْنَى شَاهدْناه فِي ذَواتِنا[4] : أَنَّها مَوْجودَة مُسْتغْنِية عَنِ المَحلٌ، غَيْر 175 أَنَّا / نَظرْنا بَعْدُ فِي أَنَّ ذَاته كَذواتِنا أَمْ لاَ ؟ فَعلِمْنا أَنَّها مُخالِفة، لأَنَّ ذَواتَنا أَجْرام مُتحيِّزَة قَدْ وَجَب لَها الحُدُوث، وَذَلِك مُسْتحِيل عَلى الله تَعالَى، فَلَمْ يَبْق فِي أَيْدينَا مِنْ ذَاتِه تَعالَى إِلاَّ المَعْنَى الأَوَّل، وهُوَ أَنَّه[5] مَوْجود مُسْتقِل بِنفْسه مَعَ زِيادَة السَّلْب والتَّنْزيه، وهُوَ أَنَّها لَيْست بِجِرْم ولاَ حالٌّ فِي جِرْم ولاَ مُتقيِّدة بِمكَان ولاَ

1 ـ سقطت من نسخة ق.
2 ـ سقطت من نسخة ح.
3 ـ وردت في نسخة ح : وصفنه.
4 ـ وردت في نسخة ك : ذاتنا.
5 ـ وردت في نسخة ح : وهو أنها.

زَمَان، إِلَى غَيْر ذَلِك. وهَذا القَدْر يَكْفِينا فِي الخُرُوج عَنْ عُهْدة التَّكْلِيف، والكُنْه لَمْ نُكلَّف بِطلَبِه بالدَّلِيل، وهَذِه الأُمُور الَّتِي نَسْلُبها قَدْ فَهِمْناها، لأَنَّها كُلُّها عِنْدنا.

ثُمَّ فَهِمْنَا قِدَمه تَعالَى مِنْ مُقابِله وهُو الحُدوثُ، المَوْجودُ عِنْدنا وَ مِنَ القِدَم الإِضافِي أَيْضا. وفَهِمْنا بَقاءَه تَعالَى مِمَّا نُشاهِد عِنْدنا مِنْ بَقاء المَوْجود زَماناً بَعْد زَمانٍ.

وَفهِمْنا اسْتغنَاءه مِن اسْتغنَاء بَعضِنا عَنْ بَعْض، وفَهِمْنا وَحْدتَه مِمَّا عَرفْنا مِنَ الوَحْدَة والكَثْرَة عِنْدنا.

وفَهِمْنا قُدْرَته مِمَّا نَتخيَّلُه فِي أَنفُسِنا مِنَ القُدْرَة عَلى شَيْء دُون شَيْء، وإِرادَته مِمَّا نَجد فِي أَنْفُسنا مِنْ إِرادَة الشَّيْء وَالقَصْد إِليْه، وعِلْمه مِمَّا نَجد مِن اطِّلاعِنا عَلى بَعْض المَعلُومات، وكَذا حَياتَه مِنْ حَيَاتنا، وسَمْعه وبَصرَه وكَلاَمه مِنْ كَلاَمِنَا.

وقَدْ فَهِمْنا ذَلِك أَيْضا مِنَ الأَضْدادِ المَوْجودَة عِنْدنا.

فَفهِمْنا القُدْرة مِنَ العَجْز، والعِلْم مِنَ الجَهْل، إِلى غَيْر هَذا مِمَّا لاَ نَحْتاجُ إِلى بَسْطه، وفِي الإِشَارة للَّبِيب مقْنعٌ.

وبِالجُمْلة، فَلَمْ نُثْبِت فِي حَقِّه تَعالَى إِلاَّ مَا لَه مَظْهَرٌ فِي نُفوسِنا، وكَذا قَالَ تَعالَى : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[1] وقَال نَبِيُّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَنْ عَرفَ نَفْسَه عَرفَ رَبَّهُ»[2]، وَلَوْ أَرَدْنا أَنْ نُثْبِت شَيْئا وَراءَ مَا نُشاهِد لَعجَزْنا، ولَمْ نَسْتطِع «مِنْه»[3] قُلاَمة ظُفْر، إِلاَّ أَنْ يَخْتصَّ الله تَعالَى مِنْ ذَلِكَ مَنْ شاءَ مِنْ أَصْفيَاء عَبِيده بِشيْء يُلْقِيه فِي قَلْبه، فَليْس بِمُستَغرَب مِنْ كَرمِه، حَتَّى إِنَّ الأُمُور الَّتِي وَعدَ الله تَعالَى بِها

---

1 ـ الذاريات : 21.

2 ـ سبق تخريجه في ص : 123.

3 ـ سقطت من نسخة ك.

مِنَ النَّعِيم، وأَوْعدَ مِنَ الجَحِيم فِي تِلْك الدَّار، مَا عُرِفَت إلاَّ بِأَنْ خَلَق الله تَعالَى أَشْباهَها فِي هَذِه الدَّار، فَهِمْناها بِها، فَخلَق لَنا المَاء واللَّبَن، والعَسَل، واللَّحْم، والحَرِيرَ، والنِّساء، والمَراكِب، والغُرَف، وغَيْر ذَلِك، لِنتَوصَّل بِمَا نُشَاهِد إِلَى مَا لاَ نُشاهِد، وخَلَق النَّار، والأَغْلاَل، والسَّلاسِل، والحَيَّات، والعَقارِب، لِنتوَصَّل بِها أَيْضا إِلى فَهْم تِلْك[1].

ولَمَّا ذَكَر النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكَلاَلِيب، وأَنَّها مِثْل شَوْك السَّعْدان قَال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأَصْحابه : «أَرَأَيْتُم شَوْك السَّعْدَان؟» قَالُوا : نَعَم يَا رَسُول الله. قَالَ : «فَإِنَّها مِثْل شَوْك السَّعْدَان إلاَّ أَنَّهُ لاَ يَعْلَم قَدْر عِظَمِها إلاَّ الله تَعالَى» ، فَأَشارَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالاسْتِثْنَاءِ إِلى أَنَّ المِثْلِيَة لَيسَت مِنْ كُلِّ وَجْه، وإِنَّما هُو تَشَابُه فِي الجُمْلَة، عَلى قَدْر مَا يَكُون وَصْلة إِلى الفَهْم، وَإِلاَّ فَشَتَّان مَا بَيْن الشَّيْء وَالشَّيْء. وهَكذَا فِي أَصْنافِ العَذابِ وأَصْنافِ النَّعِيم.

وَلِذَا وَرَد فِي الحَدِيث أَنَّ «نَارُ الدُّنْيَا جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نَارِ الآخِرَةِ»[2] فَقَد فَاتَتْها نارُ الآخِرَة بِتسْعَة وسِتِّين جُزْءاً.

ولِذا يُقالُ إِنَّ نِعَم الجَنَّة لَمْ تُشَارك نِعَم الدُّنْيا إِلاَّ فِي الاسْم. وإِذَا فُهِم هَذا التُّباعُد العَظِيم بَيْن الأَشْيَاء الأُخْروِية والدُّنْيوِية، مَعَ أَنَّ الجَمِيع حَادِث مَخْلوق، فَمَا بَالُك بالتَّباعُد بَيْن صِفَات القَدِيم وصِفَات[3] الحَادِث، فَمَا أَبْعد مَا بَيْن الخَالِق والمَخْلُوق والرَّب والمَرْبوب، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[4].

---

1 ـ وردت في نسخة ك : ذلك.

2 ـ أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب : صفة النار وأنها مخلوقة. وفي كتاب التوحيد، باب : كلام الرب مع أهل الجنة. ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب : إحلال الرضوان على أهل الجنة.

3 ـ ورد في نسخة ك : صفة.

4 ـ تضمين للآية : 11 من سورة الشورى.

فَقَد اسْتبَان بِهَذه المُكوِّنَات مَفْهومَات الصِّفَات، وَوقَع بِها الشُّعُور عَنِ[1] 176 / القَدْر الَّذِي يُمْكِن مَعهُ الحُكْم، واسْتبَانَ بِهَا [أَيْضا][2] الحُكْم وصِحَّته، واتَّضحَ ذَلِكَ اتِّضاحاً لَمْ يَدَعْ لِلشَّك مَحلاً ولاَ لِلرَّيْب مَدْخلاً، فَمَا مِنْ كَائِن نَنْظُر إِلَيْه، إِلاَّ رَأَيْنَا فِيه وُجُود الله تَعالَى، وعِلْمَه وإِرادَته، وَحَيَاتِهِ ووَحْدتَه.[3]

ولله دِرُّ القَائِل :

وفِي كُـلِّ شَيْء لَـهُ آيـةٌ ❖❖❖ تَـدُلُّ عَلَـى أَنَّـهُ وَاحِـد

وَقالَ أَبُو نُوَّاس[4] :

تَأَمَّـل فِي نَبَـاتِ الأَرْضِ وانْظُـرْ ❖ إِلَـى آثَـارِ مَا صَنَـعَ المَلِيـك
عُيُـونٌ مِـنْ لُجَيْـنٍ نَاظِـراتٌ ❖ عَلَى أَحْدَاقِها الذَّهَبُ السَّبِيـكُ[5]
عَلى قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِـداتٌ ❖ بِـأَنَّ الله لَيْـسَ لَـهُ شَرِيـكُ

وَقَد أَشْرَقت شَمْسُ البَيانِ فِي هَذا المَعنَى، فَضْلا مِنَ الله وامْتِناناً، حَتَّى بَلغَت العَامَّ بَعْد الخَاصِّ، كَمَا قَال الأَعْرابِي : «البَعْرَة تَدُلّ عَلى البَعِير، وَأَثَر الأَقْدام يَدُلُّ عَلى المَسِير، فَسمَاء ذَات أَبْراج، وبُحُور ذَات أَمْواج، وأَرْض ذَات فِجَاج، أَلاَ تَدُلُّ عَلى اللَّطِيف الخَبِير؟».

وقَد تَفطَّنَت العَرَب إِلَى هَذه الدِّلاَلَة قَبْل مَبْعثِ النَّبي ﷺ، كَمَا وَقعَ فِي أَخْبارِ القسِّ بْن سَاعِدة، وَأَشْعار أُميَّة بْن أَبِي الصَّلْت[6]، وزَيْد بْن عمرو بْن نُفيْل[7] وغيرهم.

1 ـ وردت في نسختي ق و ك : على.
2 ـ سقطت من نسخة ق.
3 ـ وردت في نسخة ق : الواحد.
4 ـ هو الحسن بن هانئ (139 – 195 هـ)، ولد في الأهواز، من كبار شعراء العصر العباسي، تعلم في البصرة، وتلقى الحديث عن كثير من العلماء، دخل بغداد وجعله الأمين شاعره. طبقات الشعراء : 193 – 194.
5 ـ وردت في نسخة ق : السبك.
6 ـ أمية بن عبد الله أبي الصلت الثقفي، شاعر جاهلي حكيم، من أهل الطائف، وهو ممن حرموا على أنفسهم الخمر ونبذوا عبادة الأوثان في الجاهلية. الأعلام/ 2 : 23.
7 ـ زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى القرشي العدوي، نصير المرأة الجاهلية، وهو ابن عم عمر بن الخطاب،

رُوِيَ أَنَّه لَمَّا وفَدَت عَبْد القَيْس[1] عَلى رَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ : «أَيُّكُم يَعْرِف قسَّ بْنَ ساعِدَة ؟» وكَانَ حَكِيم العَرَب وخَطِيبَها، وكان مُعمَّراً يُقالُ عَاشَ نحواً مِنْ سَبْعمِائَة سَنة، فَقالُوا : يَا رَسُول الله كُلُّنا نَعْرِفه، فَقالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ : «لَقَد رَأَيْتُه بِعُكاظ يَعِظُ النَّاسَ عَلى جَملٍ لَهُ أَوْرَق» ويَقُول : يَا أَيُّها النَّاس اسْمَعوا[2] وَعُوا، وإِذَا سَمْعتُم[3] فانْتفِعوا، مَنْ عَاشَ مَاتَ، وَمنْ مَاتَ فَاتَ، وكُلُّ مَا هُو آتٍ آت، إِنَّ فِي السَّمَاء لَخبَرا، وإِنَّ فِي الأَرْض لَعِبَرا، مِهَاد مَوْضُوع، وسَقْفٌ مَرْفوعٌ، ونُجُومٌ تَدُور، وبِحَار تَمُور... إِلَى آخِر خُطْبَتِه[4].

وقَال زَيْد بْن عَمْرو بْنُ نُفَيْل[5]، وَقِيلَ إِنَّ أَكْثَرها لأُمَيَّة بْنِ أَبِي الصِّلْت.

إلى الله أهـدِي مِدْحَتِي وثَناءَيـا	وَقَوْلا رَصِيناً لاَ يَنِي الدَّهْـرَ باقِيـاً
إلى المَلِك الأَعْلى الَّذِي لَيْس فَوْقـه	إِلَـهٌ ولاَ ربٌّ يَكُـون مُـدانِيـاً
أَلاَ أَيُّهـا الإنْسانُ إِيَّـاك والـرَّدَى	فإِنَّـك لاَ تَخْفى مِـنَ الله خَافِيـا
فإِيَّـاك لاَ تَجْعَـل مَـع الله غَيْره	فإِنَّ سَبِيل الرُّشْـد أَصْبَـح بَادِيـاً
حَنانَيْك إِنَّ الجِنَّ كَانَت رجَاءَهُـم	وأَنْـت إِلَهِـي رَبُّنـا ورَجائِيـا

لم يدرك الإسلام، وكان يكره عبادة الأوثان، ولا يأكل مما ذبح عليها، وكان عدوا لوأد البنات، يعبد الله على دين إبراهيم، رآه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قبل النبوة، وسئل عنه بعدها فقال : «يبعث يوم القيامة أمة وحده». توفي قبل البعثة بخمس سنين وله شعر قليل منه البيت المشهور :

أربا واحد أم ألف رب — أدين إذا تقسمت الأمور.

الأعلام/ 5 : 320.

1 ـ المقصود بها : وفود ربيعة : عبد القيس، وهم عشرون رجلا، قدموا على رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عام الفتح، فقال فيهم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ : «مرحبا بهم، نعم القوم عبد القيس... اللهم اغفر لعبد القيس أتوني لا يسألوني مالا، هم خير أهل المشرق». الطبقات الكبرى/ 1 : 152.

2 ـ ورد في نسختي ق و ك : اجتمعوا.

3 ـ وردت في نسختي ق و ك : وعيتم.

4 ـ الخطبة لم ترد كاملة في مصدر واحد، ولذلك يلاحظ فيها بعض التقديم والتأخير في بعض الكلمات، والسقط في أخرى. البيان والتبيين/ 1 : 42. الأغاني/ 15 : 246.

5 ـ وقيل إن أكثرها لأمية بن أبي الصلت.

رَضِيتُ بِك اللهمَّ رَبّاً فلَنْ أُرَى أَدِينُ إلهاً غَيْرَك اللَّهُ ثانِيا
وأَنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْل مَنٍّ ورَحْمَة بَعثْتَ إِلَى مُوسَى رَسولاً مُنادِيا
فَقُلْتَ لَه فاذْهَب وهَارُون فادْعوا إلى الله فِرْعوْن الَّذِي كَانَ طَاغِيا
وَقُولاَ لَهُ أَأَنْتَ رَفعْتَ هَذِه بِلاَ عَمدٍ ارْفِق إِذَا بِكَ بَانِيا
وَقُولاَ لَهُ أَأَنْتَ سَوَّيْتَ وَسْطَهَا مُنِيراً إِذَا مَا جَنَّه اللَّيْلُ هَادِياً
وَقُولاَ لَهُ مَنْ يُرْسِل الشَّمْسَ غُدْوَةً فَيُصبِحُ مَا مَسَّت مِنَ الأَرْضِ ضَاحيا
وَقُولاَ لَهُ مَنْ يُنْبِتُ الحَبَّ فِي الثَّرى فَيُصْبح مِنْه البَقْل يَهْتزُّ رابِيا
وَيَخْرُج مِنْه حَبّه فِي رُؤوسِه وفِي ذَاكَ آيَات لِمَن كَانَ واعِيا
177/ وأَنْتَ بِفضْلٍ مِنْكَ نَجَّيْتَ يُونُسا وقَدْ بَاتَ فِي أَضْعافِ حُوت لَيالِيا
وإِنِّي وإِنْ سَبَّحْتُ باسْمِك رَبَّنا لأُكْثِرَ إِلاَّ مَا غَفَرْتَ خَطَائِيَا

وَقَال زَيْد بْنُ عَمْرو أَيْضا :

وأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَن أَسْلَمَتْ لَه الأَرْض تَحْمِل صَخْرا ثِقالاَ
دَحاهَا فَلمّا رَآهَا اسْتَوَتْ عَلى المَاءِ أَرْسَى عَلَيْها الجِبالاَ
وأَسْلمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَه المُزْن تَحْمِل عَذْبا زُلالاَ
إِذَا هِي سِيقَتْ إِلَى بَلْدَةٍ أَطاعَتْ فَصبَّت عَلَيْها سِجالا

إِلى غَيْر هَذا مِمَّا لاَ يُحْصى كَثْرَة.

وبِالجُمْلَة، فَكلِمَة التَّوْحِيد مُسطَّرَة عَلى صَفحَات ذَواتِ الكَائِنات كُلِّها، يَقْرؤُها بأَبْصار البَصائِر ذَوُو الأَلْباب كَمَا قَالَ تَعالَى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَٰتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَٰبِ ﴾[1] ورُبَّمَا سُطِّرَت بالخَطِّ

1 ـ آل عمران : 190.

المُدْرَك بالعُيُون النَّاظِرَة رِفْقاً مِنَ اللهِ تَعالَى بِضُعفَاء العِبَاد، ومُبالَغة فِي الإِرْشَاد، وإِقامَة لِلحُجَّة عَلى الخَاصِّ والعَامِّ، الَّذِين لَمْ يتَأَيَّدُوا بِمَدارِك الأَفْهامِ.

{كَلمَة التَّوحِيد مُسطَّرة عَلَى صَفحَات ذَواتِ الكَائِناتِ}

فَقَد ذَكرَ المُؤرِّخونَ فِي عَجائِب بِلاَد الهِنْد، أَنَّ فِي جَبَل «سَرَنْدِيب» شَجراً لَهُ أَوْراق، لِلوَرَقة وَجْه أَحْمَر وَبَاطِنُه أَخْضَر، مَكْتُوب فِي الحُمرَة بالبَياضِ «لاَ إِلَه إِلاَّ الله وَحده لاَ شَرِيكَ لَهُ»، وفِي الخُضْرَة مَكْتوبٌ بالحُمْرَةِ «سُبْحان الله العَظِيم الأَعْظَم وبِحمْدِهِ»، كُلُّ وَرقَة فِي الشَّجرَة عَلى هَذِه الصِّفَة، قَالُوا : وفِي الشَّجَرة أَطْيار عَلى قَدْر اليَمَام، مُرقَّشة أَلْوانُها تُسَبِّح الله تَعالَى بأَلْسِنة عَربِيَّة وسُرْيانِية، قَالُوا : وفِي هَذا الجَبَل أَيْضا وَرْدٌ أَحْمَرُ عَتِيدُ الحُمْرَة مَكْتوبٌ فِي الوَرقَة بالصُّفْرَة بِيَد القُدْرَة «لاَ إِلَه إِلاَّ الله»، وفِي بَاطِنهَا مَكْتوبٌ بالخُضْرة «سُبْحان الكَبِير المُتعَال». وذَكرُوا كَثِيرا مِنْ هَذا المَعنَى.

{إِقَامَة المُؤَلِّف بالزَّاوِية البَكْرِية وَرُؤيَتُه لِكَلمَة التَّوْحِيد «لاَ إِلَه إِلاَّ الله» مَكْتُوبَةً فِي وَرْدَة حَمْراءَ}

وقَد خَرجَتْ جُوَيْرِيات إِلى بَعْض البَساتِين، أَيَّام كُنَّا بالزَّاوِية البَكْرِية، فَوجدْن وَرْدةً حَمْراء مَكْتُوباً فِيها مِثْل ذَلِك، وقَد أَتيْنَ بها ورَأَيْتُها أَنَا بَعْد مَا ذَبُلَت، وكَادَت تَتنَاثَر، فَرأَيْتُ فِيها مَكْتوباً «لاَ إِلَه إِلاَّ الله» بِخطٍّ أَبْيَض رَقِيق مَا رَأَيْتُ أَجْوَد مِنْه قَطُّ، ولاَ أَحْسَن رَوْنقاً، ولَمْ أَدْرِ مَا ذَهبَ فِي السَّاقِط مِنَ الوَرقَة غَيْر ذَلِك، ورَأَيْتُ مِثْل ذَلك أَيْضا فِي حَجرٍ مَجلُوبٍ مِنْ بَعْض السَّواحِل، وهُو خَطٌّ أَبْيَض أَيْضا، إِلاَّ أَنَّه غَلِيظٌ جِدّاً.

وذَكَر المُفسِّرون أَنَّ آدَم عَليْه السَّلاَم، لَمَّا أَكلَ مِنَ الشَّجرَة «تَوسَّل بنَبِيِّنا مُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلى الله تَعالَى أَنْ يَغفِر لَه، فَأَوْحى الله تَعالَى إِليْه وَمَن مُحمَّد؟ فَقالَ : يَا رَبِّ لمَّا خَلقْتنِي رَفعْتُ رَأْسِي إِلى عَرْشِك، فإِذا فِيه مَكْتوبٌ : «لاَ إِلَه

إلاَّ الله مُحمَّد رَسُول الله»، فَعلِمْت أَنَّه أَحبُّ خَلْقِك»[1]. وَلْنَكْتَفِ بِهذَا القَدْر، فإِنَّ الأَمْر أَوْضَح مِنْ أَنْ يُفْتقَر إِلى الإِطْناب، والله وَلي التَّوْفِيق، ومُلْهِم الصَّواب.

وكَمَا أَنَّا[2] قَدْ عَلِمْنا مِنْ وُجودِ الكَائِنات، مَا للهِ تَعالَى مِنَ الكَمالِ وسَنيِّ الصِّفات، كَذلِك عَلِمْنا بوُجودِها مَا للهِ تَعالَى أَنْ يَفْعلهُ مِنَ الأَفْعالِ الجَائِزات، كالبَعْث مَثلاً، وقَد نبَّه المَوْلى تَبارَك وتَعالَى عَلى ذَلِك فِي كِتابه العَزِيز بالآيَات البَيِّنات، قالَ تَبارَك وتَعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ / 178 وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾[3] أَيْ لِنُبَيِّن لَكُم أَمْرَ البَعْث وأَنَّه جَائِزٌ.

فإِنَّ الَّذِي هُو قَادِر عَلى أَنْ يَجْمَع بَيْن العَناصِر المُخْتلِفة، أَعْنِي التُّراب والمَاء والنَّار والهَواء، ويُؤَلِّف بَيْن الكَيْفيَات المُتضادَّة، مِنَ البُرودَة واليُبوسَة والرُّطُوبَة والحَرارَة، ويُسوِّي مِنْ ذَلِك خَلْقاً، ثُمَّ ينْقُله فِي الأَطْوار المُخْتلِفة طَوراً بعْدَ طَوْر، من النُّطْفة إِلى العَلقَة إِلى المُضْغة إِلى الجَنِين المُخلَّق، قَادِر عَلى أَنْ يُعِيد البَدَن بَعْد إِعْدامِه، أَوْ يَجْمَعه بَعْد تَفْريقه، فإِنَّ هَذا أَوْضَح في الإِمْكان وأَبْيَن فِي تَعلُّق القُدْرَة، ولِذا قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾[4] «أَيْ بِحسَب مَا يَتعَاهَدُه البَشَر مِنْ أَنَّ الإِعادَة أَيْسَر مِنَ البَدْء» قَالَه ابْنُ عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَال تَعالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾[5] الآيَة. وهَذا مِثَال آخَر يَتبيَّن بِه المُرادُ، وهُو صِحَّة إِحْياء المَوْتى، ولِذَلك قَال تَعالَى

---

1 ـ رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين عن عمر بن الخطاب، وقال: «هذا الحديث صحيح الإسناد». ورواه البيهقي في دلائل النبوة، وزاد فيه: «وهو آخر الأنبياء من ذريتك».

2 ـ وردت في نسخة ق: أن.

3 ـ الحج: 5.

4 ـ تضمين للآية: 27 من سورة الروم.

5 ـ الحج: 5.

بَعْده : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] وقَال تَعالَى فِي الآيَة الأُخْرى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[2] الآيَة. فَأَشَار تَعالَى بِكوْنه أَنْشأَها أَوَّل مَرَّة، إِلى أَنَّها قابِلةٌ للحَياةِ كَما قَبِلتْها أَوَّلا، وأَنَّه تَعالَى قَادِرٌ عَليْها كَما قَدَر عَليْها أَوَّلا، إِذِ الحَقِيقة <الوَاحِدة>[3] لاَ تَتبدَّل ولاَ تَنْقلِب بِتبدُّل الزَّمانِ، وأَشَار تَعالَى بِقوْله : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ إِلى دَفْع مَا يُسْتبعَد مِنْ جَمعِ الأَجْزاء البَدنِيَّة بَعْد تَفرُّقِها، واخْتِلاَطها بأَجْزاءَ أُخْرى، فَأَخْبَر أَنَّه تَعالَى عَلِيمٌ بِكلِّ شَيْء عَلى زِنَة المُبالَغة، فلاَ يُعوِزُه أَمْرٌ ولاَ يَشْتبِه عَليْه شَيْءٌ بِشيْءٍ.

وذَكر <المُفسِّرون[4]>[5] أَنَّ سَبَب نُزُول الآيَة، أَنَّ أُبَيَّ بْنَ خَلَف، أَو العَاصي بْن وَائِل مَرَّ بِعَظْم بَالٍ فَقالَ : اليَوْم أَغْلب مُحمَّداً، ثُمَّ جَاء إِليْه فَقال : يَا مُحمَّد أَنْتَ الَّذِي تَزْعُم أَنَّ الله يُعِيد هَذا كَما بَدأَه؟ وفَتَّه بِيدِه حَتَّى صَارَ رَمِيماً، فَأَنْزلَ الله تعَالَى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ﴾[6] إِلى آخِرها وأَشَار تَعالَى بِقوْله : ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾[7] إِلى دَفْع شُبْهة المُنْكرِين للبَعْث، وذَلِك أَنَّهُم قَالُوا : إِنَّ البدَن إِذا صَارَت أَجْزاؤُه تُراباً، فَقَد تَغيَّرَت عَنْ طَبْع الحَياةِ الَّتِي هِيَ الحَرارَة والرُّطُوبَة، فَردَّ الله تَعالَى عَليْهم بِأَنَّه إِذا قَدَر أَنْ يُخْرِج النَّار مِنَ العُود الأَخْضر المُرْتوِي مَاءً، فَقَد تَبيَّن اقْتِدارُه عَلى إِخْراجِ الحَيِّ مِنَ التُّراب، إِلى غَيْر ذَلِك مِنَ الآيِ فِي هَذا البَابِ وَهِي كَثِيرةٌ، فَقَد بَيَّن الله تَعالَى لَنَا

1 ـ الحج : 6.
2 ـ يس : 79.
3 ـ سقطت من نسخة ك.
4 ـ يراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير/ 6 : 579 وما بعدها. وكذا تفسير الطبري/ 23 : 21.
5 ـ سقطت من نسخة ك.
6 ـ يس : 78.
7 ـ يس : 80.

بالخِلْقة الوَاحِدَة وُجُوب الوَاجبَات، وجَوَاز الجَائِزات، وَالله وَاسِعٌ عَلِيم، فلَهُ[1] الحَمْد عَلى مَا أَنْعَم، ولَهُ الشُّكْر عَلى مَا أَلْهَم.

{نَظَرُ العَارِف يَزِيدُ عَلَى مَا مَرَّ ذِكْرُهُ عِنْد المُتكَلِّم لِمَزِيد انْشِراح بَصِيرَتهِ}

وأَمَّا العَارِف، فَبَعد أَنْ يُلاحِظ جَمِيع مَا مَرَّ، يَزِيدُ لِمزِيد انْشِراح بَصِيرَته، واتِّسَاع نَظَره فَيقُول : إِنَّ الله تَبارَك وتَعالَى ظَهرَت مِنْه النِّعَم الكَثِيرَة الجَلِيلَة:

مِنْها فِي هَذِه الدَّار مَا لاَ يُحْصى مِنَ النِّعَم الدِّينِية : كالإِيمَانِ والمَعْرِفة، واليَقِين والتَّقْوى، والاسْتِقامَة ونَحْو ذَلِك. والدُّنْيوِية الحِسِّية المُتَّصِلة : كالعَقْل، والعَيْن، واليَـد، والرِّجْـل، وسَائِـر الأَعْضاء. والمُنْفصِلة : كالمَآكِل والمَشارِب، والمَلابِس والمَناكِح، والمَراكِب والمَساكِن ونَحْوها.

والمَعْنوِية : كالقِـوَى الظَّاهِـرَة والبَاطِنـة، وتَمَام الخِلْقَة، وجَمَال الصُّورَة، والعَافِية والعِزَّة، والجَاه والفَرَح والسُّرور، وغَيْر ذَلِك مِمَّا لاَ يُحصى، إِلى مَا يُكمِّل ذَلِك كُلِّه أَوْ يَحْفظُه : كالإِخْـوان، والأَعْـوانِ، والأَخدان، والعَشائِر، والحُصُون،

179 والأَسْوَار، والسِّلاَح، والزَّمان/ والمَكان، ونَحْو ذَلِك. ومِنْها فِي الآخِرَة : مَا وَعَد بِه مِنَ النَّعِيم المُقِيم، إِلى «مَا لاَ عَيْن رَأَت ولاَ أُذُن سَمِعت ولاَ خَطَر عَلى قَلْب بَشَر»[2]، إِلى النِّعْمة العُظْمى، والمِنَّة الكُبْرى، وهِي النَّظَر إِلى وَجْه الله الكَرِيم فِي الدُّنْيا بالبَصائِر وفِي الآخِرَة بِالأَبْصار.

وظَهَرت مِنْه تَعالَى النِّقَم العَظِيمَة الفَظِيعَة، مِنْها فِي الدُّنْيا مَا لاَ يُحصى مِنَ النِّقَم الدِّينِية : كالكُفْر، والجَهْل، والمَعْصية، والتَّهاوُن بالدِّين، والاسْتِرْسال مَع الشَّهْوة،

1 ـ وردت في نسخة ح : فلله.
2 ـ تضمين لحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب : قوله ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾. وأخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

والغَفْلة، ونَحْو ذَلِك. والدُّنْيوية الحِسِّية المُتَّصلَة: كَالعِوَر، والعَرَج، والعَمى، والشَّلل، والبَرَص، والجُذام، وغَيْر ذَلِك مِمَّا يَكْثُر. والمُنْفصِلة: كالأَعْداء المُضرَّة بالنَّفْس أَوْ بالمَال، أَوْ بالحَرِيم، والسِّباع العَادِية، والكِلاَب العَاقِرة، والحَيَّات، والعَقارِب، والحَدِيد القَاطِع، والنَّار المُحْرِقة، والجَرَاد، والفَأْر، والبَق، وغَيْر ذَلِك مِمَّا يَكْثر. والمَعْنوِية: كالمَرَض، والجُوع، والعَطَش، والشَّبق، والعُري، والذُّل، والهَوان، والفَقْر، والغَمِّ، وغَيْر ذَلِك.

ومِنْها فِي الآخِرَة: مَا وَعد بِه مِنَ العَذاب الأَلِيم بالنَّارِ، والسَّلاسِل، والأَغْلاَل، والمَقامع، والحَيَّات، والصَّدِيد، وغَيْر ذَلِك، إِلى النِّقْمة العُظْمى، والمُصِيبة الكُبْرى، وهي مُصِيبة الحِجَاب فِي الدَّارَين، نَسْأَل الله العَافِية.

فإِذا نَظَر النَّاظِر فِي النِّعَم العَظِيمة، عَلِم بِذَلك قُوَّة كَرَم الله تَعالَى، واتِّسَاع فَضْله، وكَثْرة جُودِه، وعِظَم مِنَّته، وَوُفور إِحْسانِه، فَيحْدُث لَه الرَّجاء عِنْد ذَلِك، ويَتقوَّى بِكثْرَة الالْتفَات إِلى الفَضْل والكَرَم.

وإِذا نَظَر فِي النِّقَم والمَصائِب الكَثِيرَة، عَلِمَ بِذَلك قُوَّة انْتِقام الله تَعالَى وشِدَّة بَطْشِه، وعَظَمَة قَهْره، فيَحْدُث الخَوْف عِنْد ذَلِك، ويَتقوَّى بِكثْرَة الالْتفَات إِلى العُقوبَات وإِلى أَسْبابِها، وحَينئذ يَتلوَّن العَبْد، ويَتقلَّب مَا بَيْن الرَّجاءِ والخَوْف.

وَمِنْ أَعْظَم مَا يَلْتفِت إِليْه صُورتَان:

إِحْدَاهُما: أَنْ يَرى الله تَعالَى قَدْ تَوجَّه إِلى شَخْص كَافِر جَاحِد، مُتلبِّس بِكُلِّ مَعْصيَة وشَرٍّ، بَعِيد عَنْ كُلِّ طَاعةٍ وخَيْر، مُحادٌّ لله ورَسُوله، سَاعٍ فِي الإِفْسَاد والشِّقاق، فَيشْرَح فِي لَحْظَة صَدْرَه للإِيمَان، ويَجْعل فِي الحِين كُفْره إِيمَانا، وجُحودَه اعْتِرافاً، ومَعْصِيته طَاعةً، وشَرَّه خَيْرا، فإِذَا هُو صَدِيقٌ مُصافٍ، مُناصِح لله ورَسُوله، سَيْفٌ مِنْ سُيوفِ الله تَعالَى عَلى أَعْدائِه.

الصُّورَة الثَّانِية : عَلى عَكْس هَذِه، أنْ يَتوجَّه والعِياذُ بالله إلِى شَخْصٍ مُؤْمِنٍ عَارِفٍ عَالِمٍ، فَيخذُله ويَنْزع مِنه الإيمَان والمَعْرفة، وخَيْر الدُّنْيا والآخِرة فِي لَحْظَة، ويَتركُه كَ ﴿ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[1] نَسْأَل [الله][2] العَافِية.

فَإِذَا نَظَر إِلى هَاتيْن الصُّورَتين، تَقوَّى رَجاؤُه وخَوفُه، ولَمْ يَبْق لِقلْبه مِنْ دُون الله قَرارٌ، ولاَ اغْتِرار بِدُنْيا ولاَ مَقامٌ ولاَ حَال، فَأَثْمَر ذَلِك ارْتياحَه إِلى الطَّاعَة، ونَشاطَه إِلى الخِدْمة، وانْقِباضه عَنِ المَعْصيَة، وشِدَّة التَّوقِّي والتَّورع، والتَّيقظِ والمُراقَبة والمُحاسَبة، ونَحْو ذَلِك.

وإِذا تَأَمَّل عَلِم أَنَّه لاَ يَنْبغِي أَنْ يَكُون المُلْك إلاَّ هَكذَا، فإِنَّ المُلْك فِي الشَّاهِد لاَ يَسْتقِيم إِلاَّ بِقوَّة الرَّغْبة، والرَّغْبَة مَوْرِدُها[3] الإِكْرَام والإِحْسَان، والفَيْض والجُودُ. والرَّهْبة مَدَدُهَا القُوَّة والشِّدة، والانْتِقام والنِّكايَة، وبالرَّغْبَة يَقَع ارْتيَاح الرَّعِية إِلى الطَّاعَة، ونَشاطُهم إِلى الخِدْمة، بانْعطَافِ القُلُـوب وغَايَـة المَحبَّة، وبِـذلِك تَكُونُ 180 النَّصِيحة والحَفاوَة، وبالرَّهْبَة / يَكُون الانْقيَاد والإِذْعَان، والتَّسْليم والسُّكون تَحْت الحُكْم، وبِذَلك تَنْحسِم الشَّوْكة، ويَنْقطِع الشِّقَاق، وتَخْمد الفِتَن، وَمَتى لَمْ تَكُنالرَّغْبَة، تَقَع البَغْضاء والشَّحْناء والنُّفُـور، ومَتَى لَمْ تَكُـن الرَّهْبَة، يَقَـع التَّمَرد والتَّعاصِي، وطَلَب الظُّهُور.

فإِذَا اجْتمَعت الرَّغْبة والرَّهْبَة تَـمَّ المُلْـك، واسْتقامَت السِّياسَة، فإِذَا تَأَمَّل النَّاظِر، عَلِمَ أَنَّ اجْتمَاعَهما عَلى الحَقِيقَة، إِنَّمَا هُو للهِ عَزَّ وجَلَّ، وأَنَّ المُلْك إِنَّمَا هُوَ مُلْكُه سُبْحانَه وحْدَه لاَ شَرِيك لَه.

---

1 ـ تضمين للآية 176 من سورة الأعراف.
2 ـ سقطت من نسخة : ق.
3 ـ وردت في نسختي ق و ك : مددها.

فإِذَا عَلِم أَنَّه هُوَ المَلك الحَقُّ المُبِين، تَولَّد لَهُ مِنْ ذَلِك التَّعْظِيم والإِجْلاَل لله تَعالَى، لأَنَّ ذَلِك مُقْتضَى عَظمَتِه <تَعالَى>[1] وكِبْريَائِه، والتَّفْوِيض والتَّسْلِيم، لأَنَّ ذَلِك مُقْتضَى مُلْكِه تَعالَى، والتَّوكُّل عَليْه تَعالَى، والتَّبرِي مِنَ الحَوْل والقُوَّة إِليْه، لأَنَّ ذَلِك وَصْف العَبْد مَعَ سَيِّده، والرِّضَى بِما يَجْرِي عَلَيْه مِنْ مَوْلاَه، لأَنَّ حَقَّ المَملُوك الرِّضَى بِفعْل مَالِكه.

وإِذَا تَأَمَّل النَّاظِر فِيمَا يَقَع لَه مِنَ الخَيْر والشَّر، والنَّفْع والضُّر، وعَلِم أَنَّ ذَلِك مِنَ اللهِ تَعالَى، وأنَّه هُو المَالِك لِذَلك لاَ شَرِيك لَه، «مَا شَاء كَانَ ومَا لَمْ يَشَأ لَمْ يَكُن»[2]، تَوكَّل عَليْه وانْقَطعَ بالكُلِّية إِليْه، وفَرَغ قَلْبُه مِنْ جَمِيع الكَائِنات، فَلاَ يَخافُ ولاَ يَرجُو إِلاَّ الله، ولاَ يَلْتفِت إِلاَّ إِليْه، ولاَ يَعْتمِد فِي الأُمورِ إِلاَّ عَليْه.

وإِذَا رَأَى مَا وَقعَ عَليْه مِنَ الإِحْسانِ، مِنْ لَدُن نَشْأَتِه فِي الرَّحِم إِلى أَنْ أَخْرجَه طِفْلا، ولَمْ يَجْعَله مُسْتَسْقَطاً ثُمَّ غَذَّاه، وَعطَّفَ عَليْه أَبوَيْه، يَسْعيَان لَه ويَجْعلاَن نُحورَهُما دُون نَحْرِه، ثُمَّ رَزقَه عَقْل التَّمْيِيز، ثُمَّ عَقْل الإِدْراك، وكَمْ مِنْ مِثْله أَحْمَق مُطْبِق أَوْ جَاهِل، ثُمَّ أَلْهمَه الإِيمَان، وكَمْ عَبْد مِثْله لَمْ يُلْهَم بَلْ أُلْهِم الكُفْران.

ثُمَّ رَفعَه فِي النَّظَر إِلى أَنْ أَطْلعَه تَعالَى عَلى كَمالِه وجَلالِه وجَمالِه، إِلَى غَيْر هَذا مِنَ النِّعَم، وعَلِمَ أَنَّ ذَلِك كُلُّه مِنْ مَوْلاَه تَعالَى لاَ شَرِيك لَه، أَحبَّه لاَ مَحالَة، «فإِنَّ القُلُوب جُبِلَت عَلى حُبِّ مَنْ أَحْسَن إِليْها»[3]، ولاَ مُحْسِن بالحَقِيقة إِلاَّ الله تَعالَى، وإِذَا أَحبَّه تَعالَى لإِحْسانِه بَالَغ فِي خِدْمتِه، لأَنَّ ذَلِك شُكْر نِعْمَة الإِحْسان، وعَسَى أَنْ يَنْقُله الله تَعالَى عِنْد ذَلِك بِفَضْله إِلى أَنْ يُحِبَّه تَعالَى لِمَا لَهُ مِنَ الكَمال وغَايَة

1 ـ سقطت من نسخة ح.
2 ـ أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب: لزوم السنة.
3 ـ تضمين لحديث سبق تخريجه في ص: 34.

الجَمالِ، وشَتَّان بَيْن مَنْ يُحبُّه لإِحْسانِه الوَاصِل، وبَيْن مَنْ يُحبُّه لِوصْفِه الكَامِل، فالأَوَّل يَنْتَقِصُ حُبُّه بانْتقَاص الإِحْسَان، والثَّانِي لاَ يَنْتقِص حُبُّه أَبداً، لاسْتِحَالة انْتقَاص الكَمَال، واسْتحَالَة التَّغير عَلى وَاجِب الوُجود، وعَلى صِفَاته، وكَذلِك الخَوْف والرَّجَاء يَتبدَّلاَن، إذَا كَان مَناطُهما[1] الأَعْمَال المُتبدلَة.

وهَذا الكَلاَم كُلُّه مِنَّا فُضُول نَسْتغفِر الله مِنْه، وإِنَّما غَرضُنا أَنْ نُشِيرَ إِلى وَجْه الاسْتنبَاط، وكَيْف تَحصُل المَعارِف لأَرْبابِها، جَعلنَا الله مِنْهم بِفضْله، فَقَد جَعلَ الله تَعالَى لَهُم فِي تَصارِيف أَحْكامِه عِلْما بِجمَالِه وجَلاَلِه، بَلْ جَعلَ لَهُم فِيما يُورِد عَليْهم مَا يَفْهمُون بِه عَنْه مَا يَنبَغي مِنَ الأَدب بَيْن يَديْه، وبَيْنهُم وبَيْن خَلْقِه، ومَا يَفْهمُون بِه الإِذْن فِي التَّصَرف وعَدَم الإِذْن فِيه، وبَسْطُ هَذِه الأُمُور مَوْكولٌ إِلى أَرْبابِه، نَسْأَل الله تَعالَى أَنْ يَتوفَّانَا مُسْلِمين، ويُلحِقنَا بالصَّالِحين بِمنِّه وكَرمِه، إِنَّه قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

---

1 ـ وردت في نسخة ك : مناطها.
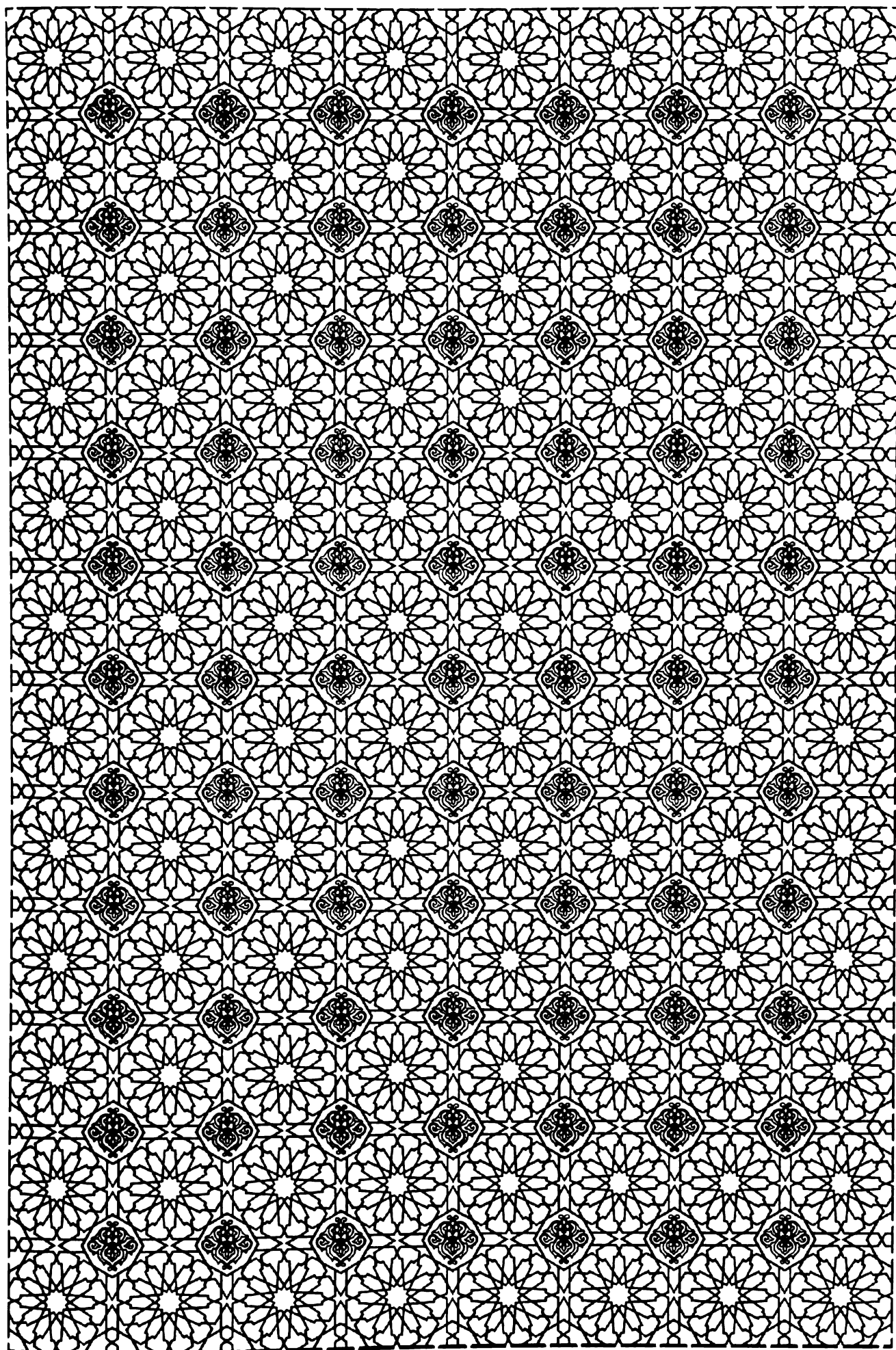
الفَصْلُ الثَّانِي

{كُلٌّ مِنْ أَفْعالِه تَعالَى وأَحْكَامِه تَدُلُّ عَلَى رُبوبِيتِه وأُلوهِيتِه}

اعْلَم أَنّه كَمَا أَنَّ أَفْعالَه تَعالَى تَدلُّ عَلى رُبوبِيتِه، وتَوَحُّدِه فِي مُلْكه، ومَا لَهُ مِنْ نُعوتِ الجَمالِ والجَلاَل، عَلى مَا هُو مَضْمون كَلِمة الشَّهادَة، كَذلِك أَحْكامُه 181 / الَّتِي [أَنْزَلَها وشرَائِعه الَّتِي فَصَّلها][1]، تَدلُّ عَلى ذَلِك، ويُفْهَم هَذا مِنْ قَوْله تَعالَى : ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] الخ.

إِذَا تَعلَّق المَجْرور بـ «يَتنَزَّلُ»، ويَكُون الأَمْر هُوَ الوَحْي، قَال الثَّعْلبي[3] : «والمَعْنى يَتنَزَّل بَيْنهُنَّ الوَحْي[4] مِنَ السَّماءِ السَّابِعة إِلى الأَرْض السُّفْلى» والإِشَارة إِلَى ذَلِكَ بِقوْله تَعالَى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾[5] وفِي الحَدِيث : «إِنَّما فُرِضَت الصَّلاَة وَأُمِرَ بِالحَجِّ وَالطَّوَاف وَأُشْعِرَت المَناسِك لإِقَامَة ذِكْر الله عَزَّ وَجَلَّ»[6] ذَكرَهُ فِي القُوتِ.

وَلْنَذكُر لِهَذا ولِمَا ذَكَرْنا فِي الفَصْل قَبْله مِثالاً يَتَّضِح به، وهُوَ أَنَّ مَلِكاً مِنَ المُلُوك لَو انْتَصَب للسِّياسَة، وانْتهَض لافْتِتَاح البِلاَد وتَملُّكِها، فإِذَا اسْتَقبَل إِقْلِيما ولَمْ يَدْر أَهْلُه مَا هُوَ، وَلاَ مَا قُوَّتُه وَبَطْشُه، وَلاَ مَا كَرَمُه وَإِحْسانُه، وَلاَ مَا عَقْلُه وَفِطْنَتُه وَضَبْطُه لِلأُمُور، فَإِنَّ ذَوِي العُقُول مِنْهُم يُلاحِظُون أَفْعالَه وَأَقْواله فَبِهَا يَسْتَدِلُّون عَلَى أَمْرِه،

1 ـ ساقط من نسخة ق.
2 ـ الطلاق : 12.
3 ـ سبقت ترجمته في ص : 91.
4 ـ وردت في نسخة ح : بالوحي.
5 ـ طه : 14.
6 ـ ذكره الترمذي من حديث عائشة دون ذكر الصلاة. المغني بذيل الإحياء/ 1 : 134.

فَإِذَا نَظَرُوا كَيْفَ فَتْكُه وَبَطْشُه بِأَعْدائِه، وَكَيْف كَرَمُه وَإِحْسَانُه لأَوْلِيائِه، وَكَيْف وَعْدُه وَوَعِيدُه، وَإِبْرَامُه وَسِياسَتُه فِيمَا يَأْمُر بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ، عَلِمُوا حَالَه، وَلَمْ تَخْف عَنْهُم أَوْصَافُه، وَاطَّلَعُوا عَلَى مَا يُوجِب لَهُم الاشْمِئزَاز عَنْ مُوالاَتِه، وَرَفْض تَكْلِيفَاتِه.

فَإِذَا عَلِمْنَا هَذِه الحِكْمَة المَجْعولَة فِي مُلْك الشَّاهِد، كَانَت لَنَا مَرْقَاة إِلَى أَغْراضِنا، وَمنْمَاة لِمَعْرِفَتِنا، وَكانَت مِنْ آيات الله الَّتِي نَعْرِف[1] بِهَا عَلَى مَا ذُكِر فِي الفَصْلِ قَبْلَه، فنَعْلَم أَنَّ الله تَعالَى كَمَا تعرَّف إِلَيْنا بِأَفْعالِه تَعَرَّف إِلَيْنا بِأَحْكامِه، وَقَدْ اسْتَدَلَّ الأُسْتَاذ[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعالَى، عَلَى إِثْبات الكَلاَم بِجواز تَرَدُّد الخَلاَئِق بيْن أَمْرِ مُطَاعٍ وَنَهْي مُتَّبَعٍ.

وَالَّذِي يَظْهَر فِي العَقْل الآنَ وَالعِلْم عِنْد الله تَعالَى، أَنَّ التَّعرُّف بِالأَفْعَال ذَرِيعَة إِلَى ثُبوتِ الأَحْكَام، وَذَلِك حَظُّ العَوَام، وَتَقَدَّم بيَـان ذَلِك فِي اسْتِدلاَل المُتكَلِّمينَ، وَالأَحْكَام عُنْوَان الجَلاَل وَالجَمَال، وَذلِك حَظُّ الخَوَاص، وَلِلْخَوَاص أَيْضا فِي الأَفْعَال، ذَلِك كَمَا مَرَّ في الفَصْلِ قَبْلَه، وَلِلمُتكَلِّمينَ أَيْضا مَنْصِب فِي الأَحْكَام، مِنْ حَيْث إِنَّها أَفْعَال اعْتِباراً بِالتَّعلُّقات القَائِمَة بِذوَات المُكلَّفِين، لاَ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا كَلاَم، وَإِلاَّ رَجَع إِلَى الأَدِلَّة الإِقْناعِيَة لاَ البُرهَانِية.

{بَيانُ مَا أُشِيرَ إِلَيْه فِي الفَصْل الثَّانِي يَسْتلزِمُ اعْتِبار ثَلاثَة أَوْجُهٍ}

وَبَيان مَا أَشَرْنا إِلَيْه فِي هَذَا الفَصْل، أَنْ نَعْتَبر ثَلاَثَة أَوْجُه :

{أَوَّلاً : مُلاحَظةُ الأَحْكَامُ جُمْلَة مِنْ غَيْر تَفْصِيل}

الأَوَّل : أَنْ نُلاحِظ الأَحْكَام[3] جُمْلَة مِنْ غَيْر تَفْصِيل، فَنقُول : إِنَّ بُرُوز الأَحْكَام مِنَ اللهِ تَعالَى لِخَلْقه، دَلِيل كَوْنه مَالِكاً لَهُم وَهُم العَبِيدُ، لأَنَّ السِّيَاسَة شَأْن السَّادَات

1 ـ وردت في نسخة ك : تعرف.

2 ـ يعني أبو إسحاق الإسفرايني، ستأتي ترجمته لاحقا.

3 ـ جمع حكم : وهو في اللغة المنع وفي الاصطلاح إثبات أمر لأمر، ونفيه عنه وهو ينقسم بدليل الاستقراء إلى ثلاثة أنواع : حكم عقلي وحكم عادي وحكم شرعي.

والمُلُوك، فَشأْنُ السَّيد أَنْ يَكُون آمِرا نَاهِيا، وَاعِدا مُتوعِّدا، وَشأْن العَبْد أَنْ يَكُون مَأْمُورا مَنْهِياً. وَلاَ يَكُون السَّيد آمِرا نَاهِيا إِلاَّ وَهُو قَاهِرٌ، وَلاَ يَكُون وَاعِدا مُتوعِّدا إِلاَّ وَهُو مَالِك لِلنَّفْع والضُّر، وذَلِك مُقْتضَى الوَعْد والوَعِيد، وهُمَا مِنْ مَادَّة الجَمَال والجَلاَل، وعُنْوَان الفَضْل والعَدْل.

ولاَ تَظُن أَيُّها السَّامِع أَنَّ هَذا اسْتِدلاَل عَلَى ثُبُوت هَذِه الكَمالاَت فِي حَقِّ مَنْ يُنْكِرها حَتَّى تَقُول : إِنَّها إِقْناعَات، كَلاَّ، وَإِنَّما هِيَ اسْتِدلاَل لِلاسْتِشعَار وَالتَنبُّه فِي حَقِّ عَارِفهَا إِماًّ بدلاَلاَت الأَفْعَال كَمَا مَرَّ، وإِمَّا بِالوَهْب مِنَ الله تَعالَى، وإِنَّمَا غَرَض العَارِف أَنْ يَكُون بِحَيْث لاَ يَلْتفِت إِلَى شَيْء، إِلاَّ رَأَى الله تَعالَى ومَا لَهُ مِنَ الكَمَال فِيه، فَافْهَم.

{ثَانِياً : مُلاحَظةُ الأَحْكام بِتفْصِيلٍ مَا}

الوَجْه الثَّانِي : أَنْ نُلاحِظ الأَحْكَام بِتَفْصِيل مَّا، فَنقُول : إِنَّها كُلُّها رَاجعَة إِلَى 182 قِسْمَين : أَحَدُهما، الإِذْن، والآخَر الحَظْر، فَإِذا الْتَفتْنَا إِلَى الإِذْن عَلِمْنَا أَنَّه مِنْ / مَادَّة الفَضْل والجُود، وَمَا يَرْجِع إِلِيْه مِنْ أَوْصَاف الكَمَال، وَمِنْ هَذا البَاب يَنْبَعِث الرَّجَاء والبَسْط والأُنْس ونَحْوها مِنَ الأَحْوَال، وإِذَا الْتَفتْنَا إِلَى الحَظْر، عَلِمْنا أَنَّه مِنْ مَادَّة القَهْر وَالشِّدَة، وَمِنْ ذَلِك يَنْبعِثُ الخَوْف والقَبْض ونَحوِهمَا مِنَ الأَحْوَال.

ثُمَّ إِنَّا نَجد كُلاًّ مِنَ الأَمْرَيْن فِي كُلٍّ مِنَ القِسْمَين، فَإِنَّا إِذَا لاَحَظْنا قِسْمَ الإِذْن وَجدْنَاه كَثِيراً مَا يَكُون مَعَه الحَظْر فِي جَانِب التَّرْك، إِمَّا جَزْما كَمَا فِي الوُجُوب[1]، وَإِمَّا رُجْحاناً كَما فِي النَّدْب[2]، فَنجِد الغَرَضَيْن فِي الحُكْم الوَاحِد : وَهُو أَنَّه نُلاَحِظه

---

1 ـ الوجوب : هو ما يعبر عنه الأصوليون بالواجب، وفي الاصطلاح ما يمدح فاعله ويذم تاركه. إرشاد الفحول : 63. وعرفه الشنكيطي في مذكرته بقوله : «ما أمر به أمرا جازما، وضابطه أن فاعله موعود بالثواب، وتاركه متوعد بالعقاب كالصلاة والزكاة والصوم» وهو تعريف جامع شامل.

2 ـ الندب : هو ما يعبر عنه الأصوليون بالمندوب، وفي الاصطلاح ما يمدح فاعله ولا يذم تاركه، وقيل هو الذي يكون فعله راجحا في نظر الشرع «وهو ما قصده المؤلف بقوله وإما رجحانا» ويقال له مرغب فيه ومستحب، ونفل، وتطوع، وإحسان. إرشاد الفحول : 63.

مِنْ جَانِب فَنَتذَكَّر فَضْل الله تَعالَى وَسِعَة رَحْمَته، وَوُفورَ إِحْسانِه. وَنُلاَحِظُه مِنْ جَانِبٍ فَنَتَذَكَّر قَهْرَه تَعالَى وشِدَّة انْتِقامِه، وَقُوَّة عَظمَتِه، فَسُبْحَان المُدبِّر الحَكِيم.

وَكَذا إِذَا لاَحَظْنا[1] قِسْم الحَظْر، فَإِنَّا نَجِد مَعَه الإِذْن فِي الضِدِّ، إِمَّا جَزْما كَمَا فِي التَّحْرِيم، فَإِنَّه [مَنْع][2] مِنَ الشَّيْء وإِيجَاب لِتَرْكِه، وَإِمَّا رُجْحاناً كَمَا فِي الكَرَاهَة، وطَرَفِ الإِيجَاب وَحْدَه نَتعَرَّف مِنْه فَضْل الله تَعالَى، مِنْ حَيْث إِنَّه إِذْن فِي مُباشَرة الشَّيْء، وقَهْرِه مِنْ حَيْث ذَلِك الإِلْزَام[3].

فَسُبْحَان الحَكِيم العَلِيم المُتَفضِّل الكَرِيم، الَّذِي أَوْسَع عَلى هَذَا العَبْد الكَفُور مَعالِم العِلْم، وفَسَح لَه فِي مَجارِي الحِكْمَة، وتَرَاءَى لَه فِي كُلِّ شَيْء، حَتَّى لاَ يَلْتَفِت إِلَى شَيْء إِلاَّ وَجَد رَبَّه وَمَوْلاَه، وَذلِك غَايَة فِي اعْتِنَاء المَوْلَى الكَرِيم فَضْلا مِنْه، وامْتِناناً بِعَبْده، ومُسارَعَة إِلَى مَا يُفِيده إِنْ سَبقَت لَهُ السَّعادَة المُعَرِّفة بِرَبِّه، والوَصْلَة بِه، فَلاَ يَهْلَكُ عَلى الله إِلاَّ هَالِكٌ.

{ثَالِثاً : مُلاَحظَة الأَحْكام مُفصَّلة حُكماً حُكماً}

الوَجْه الثَّالِث : أَنْ نُلاحِظَ الأَحْكَامَ مُفَصَّلة حُكْماً حُكْماً، فَمَا مِنْ حُكْم نُلاحِظُه بِعَيْنِه إِلاَّ وَجدْنا فِيه بُغْيَتنَا مِنْ مَعْرِفَة الله تَعالَى، وَفِي هَذَا بَحْرٌ لأَهْل النَّظَر والاعْتِبَار لاَ سَاحِل لَه، وَلَسْنا نَقْدِر عَلى اسْتِقصَائِه فِي الكِتَاب، لَوْ حَصَل لَنَا بِتَمامه، كَيْف وَلَمْ يَحصُل لَنَا مِنْه إِلاَّ شَمَّةٌ وَلَمْحَةٌ. ولَسْنا نَسْتَطِيع شَرْح تِلْك اللَّمْحَة شَرْحا شَافِيا، ولَكِن نُشِير إِلَيْها إِشارَة.

1 ـ وردت في نسخة ك : لاحظت.
2 ـ سقطت من نسخة ق.
3 ـ الإلزام : الوجوب ويعني به إلزام الله تعالى عبده بفعل الشيء الواجب، كالإلزام بأداء الصلاة والزكاة وغيرها من الطاعات الواجبة.

{الأَحكَام تَرْجِع أَوّلاً إِلَى الأَمْرِ وَالنّهْيِ وَآخِراً إِلَى خَمْسةِ أَقْسَام}

فَنقُول : إِنَّ الأَحْكَامَ تَرْجِع أَوّلاً إِلَى الأَمْر والنَّهْي، وآخِراً إِلَى خَمْسَة أَقْسَام[1] وَهِي : الإِيجَاب، والنَّدْب، والتَّحْرِيم، والكَراهَة[2]، والإِبَاحَة. فَإِذا اعْتَبرنَاهَا مِنْ حَيْث مَفْهومَاتُهَا المَعْقُولَة، حَصَل مِنْ ذَلِك مَا أَشَرْنا إِلَيْه فِي الوَجْه الثَّانِي، وَإِنِ اعْتَبَرنَاهَا مِنْ حَيْث مَا صَدُقاتُها، فَذلِك إِنَّمَا هُو بِالالْتِفاتِ إِلَى أَعْيَان الوَاجِبات، والمَنْدُوبَات، والمَكْرُوهَات، والمُباحَات.

فَنقُول : إِنَّها تَرْجِع إِلَى ثَلاثَة أَقْسَام : مَأْمُورَات، ومَنْهِيَات، ومُباحَات.

أَمَّا المُباحَات، فَلاَ حَاجَة بِنَا إِلَى التَّعرض لَهَا، لأَنَّهَا مِنْ حَيْث ذَواتُها، وَهُو مَا اعْتَبَرنَاه فِي هَذا القِسْم أَفْعَال حَادِثَة، وَقَد مَرَّتِ الإِشَارَة إِلَيْها فِي الفَصْل الأَوَّل، وَمِنْ حَيْث وَصْف الإِبَاحَة تَقدَّم أَمْرها فِي الوَجْه الثَّانِي، وَمَا يُسْتَفاد مِنْها مِنَ الفَضْل والجُودِ، لأَنَّها دَاخِلَة فِي الإِذْن المَذْكورِ هُنَاكَ.

{الإِشَارَة إِلَى أُمَّهاتِ المَأْمورَات الَّتِي بُنِي عَلَيْهَا الإِسْلاَم}

وَأَمَّا المَأْمورَات فَكَثِيرَة، وَنَحْن نُشِير إِلَى أُمَّهاتِها، وَهِي الخَمْس الَّتِي بُنِيَ عَلَيْها الإِسْلام، وَهِي شَهادَة أَلاَّ إِلَه إِلاَّ الله، وَأَنَّ مُحمَّداً رَسُول الله، وَإِقَام الصَّلاَة، وإِيتَاء الزَّكَاة، وَصَوْم رَمَضَان، وَحَجِّ بَيْت الله الحَرَام لِمَن اسْتَطَاع إِلَيْه سَبِيلاً[3].

---

1 ـ قال الشوكاني في كتابه «إرشاد الفحول» : 6 «الأحكام ثمانية خمسة تكليفية وثلاثة وضعية» وقد قسم علماء الأصول الأحكام التكليفية إلى خمسة : واجب، محرم، مندوب، مكروه، ومباح.

2 ـ سبق تعريف الواجب والندب، أما التحريم فهو ضد الوجوب، والحرام في اللغة هو الممنوع وفي الاصطلاح هو ما في تركه الثواب وفي فعله العقاب أو ما نهي عنه نهيا جازما. الكراهة في الاصطلاح ما تركه خير من فعله أو ما نهي عنه نهيا غير جازم.

3 ـ الأصل في هذا حديث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «بني الإسلام على خمس على أن يعبد الله ويكفر بما دونه وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصيام رمضان» رواه مسلم في كتاب الإيمان.

وَأَمَّا الشَّهادَة، فَلَسْنا نَنْظُر فِيهَا أَوْ نَسْتدِلُّ بِهَا لأَنَّها عَينُ المَدْلُول، فَهِي المَقْصُود الَّذِي نُرِيد أَنْ نُدْرِكَه، وإِنَّما غَرضُنا أَنْ نَتعرَّف مَعْنَى الشَّهادَة فِي غَيْرِها مِنَ المَأْمورَات، حَتَّى إِنَّا لاَ نَنْظُر إِلَى شَيْءٍ مِمَّا أَمَر اللهُ به إلاَّ دَلَّنا عَلَى/183 وَحْدانية[1] [الله][2] تَعالَى والإِذْعَان لَه، والاعْتِرَاف لَهُ بِالرُّبوبِيَّة، أَوْ دَلَّنا عَلَى شَيْء مِنْ كَمالاَتِه تَعالَى، الَّتِي تَلِيق بِجَلالِه وتَرْجِع إِلَى صِفَاته أَوْ مُتعَلَّقَات صِفَاته، وذَلِك كُله هُوَ مَضْمُون الشَّهادَة عَلى مَا رَأَيْت تَقْرِيرَه فِي المَقْصِد الثَّانِي.

{الصَّلاَة مِنْ أُمَّهاتِ المَأْمُوراتِ}

وَأَمَّا الصَّلاَة، فَإِنَّنا نَنْظُر فِيهَا بِحَسَب نَظَرِنا القَاصِر، وفَهْمِنا الفَاتِر، بَعْدَ أَنْ تَعْلَم المَقْصُود الأَعْظَم عِنْدَنا الآنَ هُوَ التَّوْحِيد، وهُوَ مَضْمُون الشَّهادَة، وهُو كَمَا مَرَّ إِفْرَاد الله تَعالَى بِالأُلوهِية وبِخَواصِّها، مِن اسْتِحقَاق العِبَادَة والإِيجَاد والإِعْدَام، ونَحْو ذَلِك، وإِنَّما يَتِمُّ ذَلِك بِأَن يَكُون قَوْلاً واعْتِقاداً، وحَالاً وفِعْلاً، بِأَن يَنْطِق بِالشَّهادَة الدَّالَة عَلى التَّوْحِيد وَيَعْتَقِد مَضْمُونَها، ويَصِير ذَلِك المُعْتَقَد حَالاً لِقَلْبِه غَالِبا عَلَيْه.

وعَلامَة ذَلِك أَنْ يَعْمَل بِه ظَاهِرا وبَاطِنا، فَلا يَعْبُد غَيْر الله تَعالَى، <كَمَا لاَ يَعتَقِد أَنَّ غَيْرَه يَسْتحِقُّ أَنْ يُعْبَد، وَلاَ يَلْتَفِتُ إِلَى غَيرِه تَعالَى إِلاَّ بِإِذنٍ مِنَ الله تَعالَى>[3] إِذْ مَا الْتَفَت إِلَى شَيْءٍ بِمَحْض شَهْوَتِه، إِلاَّ كَانَ مَعْبُوداً لَهُ مِنْ دُونِ الله تَعالَى، فَينْتَقِصُ تَوْحِيدُه ويُكَذِّب مَقَالُه بِشَاهِد حَالِه.

{الصَّلاَة هَيْأَةٌ وَصورَةٌ مُوفِّيَةٌ بالتَّوْحيدِ مَضْمُون الشَّهادَة}

فَنقُول : إِنَّ الصَّلاَة بِحَسب هَيْأَتِها وصُورَتِها مُوَفِّيَة بِهَذا الغَرَض، فَإِنَّها وُقُوف العَبْد بَيْن يَدَيْ مَوْلاَه مُتخَلِّيا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِذْ لَيْس يَشْتغِل حَالَة الصَّلاَة بِأَكْل وَلاَ

---

1 ـ وقعت في نسخة :ق بلفظ : وحدانيته.

2 ـ سقطت من نسخة ق.

3 ـ ساقط من نسخة ح.

شُرْب، وَلاَ نِكَاح وَلاَ تِجارَة، ولاَ غَيْر ذَلِك، فَقَد أَفْرَد مَوْلاَه فِي تِلْك الحَالَة، وَلَمْ يُشْرِك مَعَه شَيْئاً أَصْلا، فَهُو قَائِل بِلسَان حَالِه «لاَ إِلَه إِلاَّ الله»، وَلاَ مَعْبُود إِلاَّ هُوَ تَعالَى، وَلَمْ يَكُن فَرْق بَيْنَ الصَّلاَة والشَّهادَة، إِلاَّ أَنَّ الشَّهادَة الدِّلاَلَة فِيهَا قَوْلِية، والدِّلاَلة فِي الصَّلاَة حَالِيَة وفِعْلِيَة، وَقَد يَكُون لِسَان الحَالِ أَفْصَح مِنْ لِسَان المَقَال، والبَيَان بِالفِعْل أَوْضَح، ولِهَذا كَانَت الصَّلاة أُمُّ العِبادَات البَدَنِيَة[1] وبِذَلك قُدِّمَت فِي الذِّكْر وَفِي الفَرْض، وكَانَت عَلَى الرِّجَال والنِّسَاء والأَحْرَار والعَبِيد كَالإِيمَان.

وَبِذَلك يُقَال : الصَّلاَة وَصْلَة بَيْن العَبْد وبَيْن رَبِّه، وقَال ﷺ : «وَجُعِلَت قُرَّة عَيْنِي فِي الصَّلاَة»[2]، وَكَمَا أَنَّ الشَّهادَة يَكُون مَعَها الإِيمَان الخَالِص، ويَكُون مَعَها النِّفَاق، إِمَّا بِعدَم اعْتِقادِها وهُو نِفَاق الكُفْر المَشْهُور، وَإِمَّا بِعَدم الجَريَان عَلَيْه وهُوَ نِفَاق الغَفْلَة، والأَوَّل فِي الدَّرَك الأَسْفَل مِنْ نَارِ جهنَّم، والثَّانِي فِي الدَّرَك الأَسْفَل مِنْ نَارِ الشَّهْوَة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾[3].

اللَّهُم أَخْرِجْنا مِنْ هَذِه النَّارِ عَاجِلا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِين، بِشَفاعَة رَسُولِك النُّورِ المُبين، الهَادِي إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيم، ﷺ وَعلَى آلِه وَصَحْبِه.

كَذَلِك الصَّلاة، يَكُون مَعَها الإِخْلاَص، وهِي صَلاَة الخَاشِعين أَهْل الحُضُور[4]، ويَكُون مَعَها النِّفَاق، إِمَّا بِعَدَم إِرَادَتِها رَأْسا، وعَدَم الإِيمَان بِهَا، وهِيَ صَلاَة المُنافِقِين الَّذِين ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ

---

1 ـ الأصل في ذلك قوله ﷺ : «أَوَّل مَا يُحاسَب بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيامَة صَلاَتُهُ» أخرجه النسائي في كتاب الصلاة، باب : المحاسبة على الصلاة.

2 ـ أخرجه النسائي في كتاب عشرة النساء، باب : حب النساء. وأحمد في باقي مسند المكثرين.

3 ـ تضمين للآيتين : 4 ـ 5 من سورة التين.

4 ـ أهل الحضور هم : من كانت قلوبهم وعقولهم حاضرة في صلواتهم، خاشعة فيها لا يلتفتون إلى شيء غير الله سبحانه وتعالى.

وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴾[1]. ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾[2]، وَإِمَّا بِالغَفْلَة فِيهَا وَعدَم الحُضورِ، وَهِي صَلاَة الغَافِلِينَ.

وَلاَشَكَّ أَنَّ الَّذي يُصلِّي وَهُو حَاضِر بِمَنْزِلَة مَنْ يَتشَهَّد وَهُو مُؤْمِن، إِذْ تَوَاطَأ ظَاهِرُه وبَاطِنُه، والَّذي يُصلِّي وَهُو غَيْر مُؤْمِن بِمَنْزِلَة مَنْ يَتشَهَّد وَهُو غَيْر مُعْتَقِد، إِذْ لَيْس عِنْدَه إلاَّ الظَّاهِر[3]، والَّذي يُصلِّي وَهُو غَافِل بِمَنْزِلَة مَنْ يُوَحِّد الله وَهُو مَشْغُول بالالْتِفَات إِلَى غَيْرِه، إِذْ مَقَالَه يُكَذِّبه حَالُه، وَكَذا فِعْلُه[4] هُنَا يُكذِّبُه حَالُ قَلْبه، إِذْ 184 / وُقوفُه بيْن يَدَيْ مَوْلاَه يَقْتَضِي أَنَّه مُنْقطِعٌ <إلَيْه>[5]، وَقَلْبه بمَا فِيه مِنَ الشُّغْل عَن الله تَعالَى بالوَسَاوِس وَحَدِيث النَّفْس يُنَاقِضُه، «فَإِنَّ الله لاَ يَنْظُر إِلَى صُوَرِكُم وَإِنَّما يَنْظُر إِلَى قُلوبِكُم وَإِنَّما لَكَ مِنْ صَلوَاتِك مَا عَقَلْتَ»[6] كَمَا وَرَد ذَلِك فِي الحَدِيث.

{شَرائِطُ الصَّلاةِ وَفرَائِضُها}

ثُمَّ إِنَّ لِلصَّلاَة شَرائِط : كَالطَّهارَة، وسِتْر العَوْرَة، واسْتِقبَال البَيْت، وفَرائِض : كَالتَّكْبير، والقِراءَة، والقِيَام، والرُّكُوع، والسُّجُود، والسَّلاَم، وَنَحْو ذَلِك.

{فِي الطَّهارَة الإِشَارَة إِلَى فَضْل الله وَكَرمِه وإِلَى التَّحلِّي المَعْنوِي}

فَأَمَّا الطَّهارَة، فَيُفْهَم مِنْها مِنْ حَيْث إِنَّها عِبادَة مِنَ العِبادَات[7] المَطْلُوبة، فَضْلُ الله تَعالَى وكَرَمُه، بِاعْتنَائِه بِتَنْظِيف عَبْدِه، وتَعْلِيمِه تَعالَى لَهُ[8] كَيْفِية ذَلِك، وتَهْيِئَته لَهُ

1 ـ تضمين للآية 54 من سورة التوبة.
2 ـ تضمين للآية 108 من سورة النساء.
3 ـ وردت في نسخة ح : المظاهر.
4 ـ وردت في نسختي ق و ك : فعاله.
5 ـ سقطت من نسخة ك.
6 ـ حديث «إن الله لا ينظر» أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب : تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ». وابن المبارك في كتاب الزهد. والديلمي في الفردوس : 166 رقم : 614.
7 ـ الأصل في ذلك قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «الطهور شطر الإيمان» رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري.
8 ـ وردت في نسخة ك : تعليمه له تعالى.

أَسْبابه، وَقَهْر الله تَعالَى وَعظَمَته، مِنْ حَيْث إِلْزَامُه ذَلِك، وَالتَّكْلِيف بِه. وَمِنْ حَيْث إِنَّها شَرْط لِلصَّلاَة، يُفْهَم مِنْها الإِشَارَة إِلَى الطَّهارَة المَعْنوِية، فَإِنَّ سِرَّ الصَّلاَة كَمَا ذَكرْنا التَّوْحِيد، وَهُو مَطْلَب المُؤْمِن أَنْ يَتحَلَّى بِه، وَهُو مَوْقُوف عَلَى التَّخَلي مِنَ القَبَائِح والرَّذائِل، فَجُعِلَت الصَّلاة مَوْقوفَة عَلى الطَّهارَة الحِسِّيَة، لِيَكُون الحِسِّي عُنْوَان المَعْنوِي فِيهِمَا.

فَالصَّلاَة عُنْوَان التَّحلِّي والطَّهارَة عُنْوان التَّحلِّي وَالتَّخلِّي، وَهُو الطَّهارَة المَعْنوِية، يَكُون مِنْ شَيْئَين، لأَنَّ الخَبائِث إِمَّا بَاطِنة كَالكِبْر والعُجْب والرِّيَاء والحَسَد وَنَحْوِها، وَإِمَّا ظَاهِرَة كَالزِّنَى والسَّرِقَة وشُرْب الخَمْر وَنَحْوِها، فَخُصَّت الأَعْضَاء المَخْصُوصَة، وَهِيَ الفَرْج واليَد والرِّجْل والوَجْه وَنَحْوها بِالغُسْل[1]، لأَنَّها مَواقِع الخَبائِث الظَّاهِرَة، ومَظاهِر الخَبائِث البَاطِنة.

وقُدِّم غَسْل النَّجاسَة بِالاسْتِنجَاء مَثلاً، لِلإِشَارة إِلَى أَنَّ الاجْتِهَاد فِي الرِّياضَة وتَزْكِية النَّفْس، إِنَّما يَتَأَتَّى بَعْد الإِعْرَاض عَنِ الدُّنْيا والتَّجرُّد عَنْها، لأَنَّها مَنْبت جَمِيع الأَخْلاَق الدَّنِية، وحُبُّها رَأْس كُلِّ خَطِيئَة، والدُّنْيا هِيَ النَّجاسَة وَالعَذَرَة القَذِرَة، كَمَا جَاء وَصْفُها بِذَلِك فِي كَلاَم الأَنْبِيَاء والحُكمَاء خَلَفاً عَنْ سَلَف، حَتَّى إِنَّ أَهْل التَّعْبِير[2] يُفسِّرُون العَذَرة فِي الرُّؤْيا بِالمَال، وجَعْل الوَجْه أَوَّل الفَرائِض إِشَارَة إِلَى أَوَّلِية التَّوجُّه إِلَى الله تَعالَى بِالعَزْم، ولأَنَّ فِيه العَيْن وَهِي السَّبَب الأَوَّل، فَإِنَّ العَيْن إِذَا وَقعَت عَلَى شَيْء وَصَل بِذَلك إِلَى القَلْب، فَحرَّكَ القَلْبُ الجَوارِح لِتَعاطِيه، وَلِذَلك يُقَال العَيْن رَائِد القَلْب. وَفِي كَلاَم الحُكمَاء «مَنْ أَرْسَل طَرْفَه جَلَب حَتْفَه».

1 ـ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ﴾ المائدة: 7.

2 ـ وردت في نسخة ك: التفسير.

وقَال الشَّاعِر :

وَأَنْـتَ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرفَك رَائِـداً لِقَلْبِكَ يَوْماً أَتْعَبَتْـكَ المَناظِـرُ
رَأَيْـتَ الَّـذِي لاَ كُلَّه أَنْـتَ قَـادِرٌ عَلَيْه وَلاَ عَنْ بَعْضِـه أَنْتَ صَابِـرُ

آخَرَ :

وَاللهِ يَا طَرْفِي الجَانِي عَلى بَدنِـي لَتشْفِينَّ بِدَمْعِي لَـوْعَـةَ الْحَزَن

{فِي طَهارَة الثَّوْبِ مَعْنَى طَهارَة القَلْبِ}

وَيُفْهَم مِنْ طَهارَة الثَّوْبِ، طَهارَة القَلْبِ، وطَهارَة الأَوْصَاف الَّتِي يَتحَلَّى بِهَا مِنْ شَوائِب النُّقْصَان، فَإِن أَوْصَاف العَبْد الحَسنَة هِيَ جَمالهُ وَسِتْره عِنْد النَّاسِ، وَعِنْد اللهِ تَعالَى، كمَا يَسْتَتِر بِالثَّوْب ويَتجَمَّل بِهِ، ولِذَا يُعبَّر بِالثَّوْب عَنِ القَلْب فِي كَلامِ العَرَب كَثِيراً :

{تَعْبِيرُ العَرَب بالثَّوْب عَنِ القَلْب}

قَال امْرؤ القَيْس[1] :

وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكِ مِنِّي خَلِيقَـةٌ فَسُلِّي ثِيابِي مِنْ ثِيابِكِ تَنْسُلِ[2]

وَقَال أَيْضاً :

ثِيابُ بَنِي عَـوْفٍ طَهارَى نَقِيَّـةٌ وَأَوْجُههُم عِنْد المَشاهِد غُـرَّانُ[3]

---

1 ـ هو امرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث الكندي، ولد نحو سنة 500م من أصل يمني، نشأ نشأة ترف ومجون ونظم الشعر الإباحي فردعه أبوه فلم يرتدع، فطرده من بيته، فراح يجوب الآفاق إلى أن ثار بنو أسد على أبيه وقتلوه فهب امرؤ القيس للأخذ بثأر أبيه وإعادة عرشه المنهار لكنه فشل في ذلك ومات نحو سنة 540م إثر إصابته بداء الجدري. طبقات الشعراء : 13.

2 ـ هذا البيت مقتطف من معلقته المشهورة :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

3 ـ هذا البيت من قصيدة لمرئ القيس في مدح بني عوف ومطلعها :

أحنظل لو حاميتم وصبرتم لأثنيت خيرا صالحا ولأرضان

وَقَال عَنْتَرَة :

فَشَكَكْتُ بِالرُّمْح الأَصَمِّ ثِيابَـهُ ... لَيْسَ الكَرِيمَ عَلى القَنا بِمُحرَّمِ[1]

185/ وَفِي لَطائِف المِنَن قَال الشَّيْخ أَبُو العَبَّاس[2] : «كُنْت مَع الشَّيْخ أَبِي الحَسَن بِالقَيْروَان، وَكَان شَهْر رَمضَان وَكَانَت لَيْلَة الجُمُعَة، وَكَانَت لَيْلَة سَبْع وعِشْرِينَ، فَذهَب الشَّيْخ إِلَى الجَامِع، وذَهَبْت مَعهُ، فَلَمَّا دَخَل الجَامِع وأَحْرَم، رَأَيْت الأَوْلِياء يَتساقَطُون عَلَيْه كَمَا يَتساقَط الذُّبَاب عَلى العَسَل، فَلَمَّا أَصْبَحنَا وخَرجْنَا مِنَ الجَامِع قَالَ الشَّيْخ : مَا كَانَت البَارِحَة إِلاَّ لَيْلَة عَظِيمَة وَكانَت لَيْلَة القَدْر، وَرَأَيْت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُو يَقُول : يَا عَلِي[3] طَهِّر ثِيَابَك مِنَ الدَّنَس تَحْظَ بِمَدَد الله فِي كُلِّ نَفَسٍ.

قُلْتُ يَا رَسُول الله : وَما ثِيابِي الَّتِي أَمَرْتنِي بِتَطْهِيرِهَا، قَالَ : <إِنَّ>[4] اللهَ <قَدْ>[5] خَلَع عَلَيْك خَمْس خِلَع، خِلْعَة المَحبَّة، وخِلْعَة المَعْرِفَة، وخِلْعَة التَّوْحِيد، وَخِلْعَة الإِيمَان، وَخِلْعَة الإِسْلاَم، فَمْن أَحبَّ الله هَانَ عَلَيْه كُلُّ شَيْءٍ، وَمَنْ عَرَفَ الله صَغُر لَدَيْه كُلُّ شَيْءٍ، وَمَنْ وَحَّدَ اللهَ لَمْ يُشْرِكْ بِهِ شَيْئاً، وَمَنْ آمَنَ بِاللهِ أَمِنَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ أَسْلَم لِله قَلَّمَا يَعْصِيهِ، وَإِنْ عَصَـاه اعْتَـذَر إِلَيْه، وَمَن اعْتـذَر إِلَيْه قَبِل عُذْرَه، فَعرَفْت مَعْنَى قَوْله تَعالَى :﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[6]»[7] انْتَهَى.

---

1 ـ هذا البيت من قصيدة للشاعر عنترة مطلعها

هل غـادر الشعراء من متردم ... أم هل عرفت الـدار بعد توهم

2 ـ سبقت ترجمته في ص : 78.

3 ـ المقصود به : أبو الحسن الشاذلي، سبقت ترجمته في ص : 78.

4 ـ سقطت من نسخة ك.

5 ـ سقطت من نسختي ك و ح.

6 ـ المدثر : 4.

7 ـ نص منقول مع تصرف يسير من كتاب لطائف المنن : 54.

{يُفْهَمُ مِنَ الصَّلاةِ الحَياءَ الَّذِي يَقْتَضِي التَّعْظِيمَ والإِجْلاَل}

وَيُفْهَم مِنْها بِحَسَب الأَمْرِ بِهَا مَا مَرَّ فِي الطَّهارَة كُلِّها، وَشَيْء آخَرَ وَهُو الحَيَاء، إِذِ السِّتْر شَأْن الحَيَاء، والحَيَاء يَقْتَضِي التَّعْظِيم وَالإِجْلال، وَذلِك نَاشِئٌ عَنْ مَعْرفَة جَلالِ الرَّب، وَكمَالِه وعَظمَتِه، ثُمَّ يَخْتلِف حَالُ المُصلِّي، فَقَد يَغْلُب عَليْه الاِلْتِفَات إِلَى أَنَّه عَبْد حَقِير وَقَف إِلَى مَوْلاَه، فَشأْنه الخُضُوع والذِّلة والتَّواضُع، ويُناسِبُه التَبذُّل فِي اللِّبَاس، والاِمْتِهَان والسُّجود عَلى الأَرْض، ونَحْو ذَلِك، وَقَد يَلْتفِت إِلَى أَنَّه عَبْد السُّلْطان العَظِيم، تَهيَّأَ لِلقَاء المَلِك، فَشأْنه العَظمَة بِسيِّدِه والتَّجمُّل لِلقَاء المَلِك بِاللِّبَاسِ الفَاخِر، وَتَحْسِين الهَيْئَة، إِظْهَاراً لِنعْمَة السَّيد عَلى نَفْسِه.

وَيُفْهَم شَيْء آخَر، وَهُو أَنَّه مَع تَجرُّدِه عَنِ الدُّنْيا، مُحْتَاج إِلَى مَا لاَبُدَّ لَهُ مِنْها، وَيَخْتلِف ذَلِك أَيْضا بِاخْتِلاَف النَّاس واخْتِلاَف الأَحْوَال.

{الطَّهارَةُ المَعْنَوِيَة إِنَّمَا تكُون بالعِلْم فَإِنَّهُ حَيَاة القُلوب}

ويُفْهَم مِنْ كَوْن الطَّهارَة بِالمَاء المُطْلَق، أَنَّ الطَّهارَة المَعْنوِيَة الَّتِي هِيَ[1] عُنْوان عَليْها، إِنَّماتكُون بِالعِلْم، فَإِنَّه حَيَاة القُلوب كَمَا أَنَّ المَاء بِهِ حَيَاة الأَبْدَان. <قَالَ تَعالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾[2] كَذَلِك العِلْم هُوَ حَيَاة القُلوب، فالعَالِمُ حَيٌّ>[3] والجَاهِلُ مَيِّتٌ، قَالَ تَعالَى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾[4] أَيْ ضَالاًّ فَهدَيْنَاه، وَلِذا شَبَّه النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القُلُوب بِالأَرْض، والعِلْم الَّذِي جَاءَ بِهِ بِالغَيْث، فَقَال : «مَثَل مَابَعَثنِي الله بِهِ كَمَثَل غَيْث أَصابَ أَرْضاً فَكانَت مِنْها نَقِيَّةٌ»[5] الحَدِيث المَشْهُور فِي الصَّحِيح.

---

1 ـ وردت في نسخة ك : هذه.

2 ـ الأنبياء : 30.

3 ـ ساقط من نسخة ح.

4 ـ الأنعام : 123.

5 ـ أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب : فضل من علم وعلم. وهو حديث طويل. ومسلم في كتاب الفضائل.

وَكَمَا أَنَّ مِنَ المَاءِ مَا هُوَ مُسْتَحصلٌ بِالعَمَل مِنْ أَصْل مُشَاهد كَالمُجْرَى بِالحَفْر، والنَّقْل مِنَ الأَنْهَار والبِحَار، وَما هُوَ حَاصِل بِلاَ عَمَل وَلاَ مُشاهَدَة أَصْل، كَالأَمْطَار وَالأَنْهَار، كَذلِك العِلْم مِنْه المَكْسُوب، وَهُو المَأْخُوذ بِالتَّعلمِ وَالمُتَلقَّى مِنَ السُّطورِ والصُّدورِ، وَمِنْه المَوْهُوب وَهُو غَيْره كَمَا مَرَّ.

وَكَمَا أَنَّ الأَرْض قَدْ يَرِد المَاء عَلَيْها مِنْ خَارِج كَالمَطرِ وَالسَّيْح، وَقَد يُوجَد فِي بَاطِنهَا، كَذلِك القَلْب قَدْ يَرِد عَلَيْه العِلْم مِنْ خَارِج بِالسَّماعِ والنَّظَر، وَقَد يَخْرُج مِنْه العِلْم إِذَا انْفتَح وَأشْرَق بِلاَ تَعلُّم، كَما وَرَد فِي الأَحادِيث القُدُسِية مِمَّا 186 قِيلَ لِبنِي إِسْرائِيل : «لاَ تَقُولُوا العِلْم فِي السَّمَاء فَمَنْ يَنْزِل/ بِه وَلاَ فِي الأَرْض فَمَنْ يَصْعَد بِهِ وَلَكِنَّ العِلْمَ فِي قُلوبِكُم»[1] <إِلَى آخِرِه>[2] وَهُو كَلامٌ مَشْهُور. وَقَد تَقَدَّمَت حِكايَة أَحْمَد بْن أَبِي الحَوارِي[3] عَنْ شَيْخِه أَبِي سُلَيْمَان الدَّارانِي[4] فِي هَذا المَعْنَى.

{العِلْمُ عِلْمَان : مَكْسُوبٌ وَمَوْهوبٌ}

فَالعِلْم الَّذِي تَقَع بِهِ حَيَاة القُلوبِ، والاهْتِدَاء إِلى عَلاَّمِ الغُيوبِ عِلْمَان : مَكْسُوب وَمَوْهُوب، وَكِلاَهُما يَقَع بِه التَّطهُّر، الظَّاهِر بِالظَّاهِر، وَالبَاطِن بِالبَاطِن، ويُفْهَم مِنْ شَرْط المَاء المُطْلَق، وَهُو غَيْر النَّجِس، والمُضَاف أَنَّ الَّذِي يَقَع بِهِ التَّطهُّر المَعْنوِي إِنَّما هُو العِلْم الصَّحِيح الصَّافِي، دُونَ الأَباطِيل والوَساوِس.

---

1 ـ هذا الحديث ذكره المكي أبو طالب في كتابه علم القلوب : 53 بقوله : «روينا في بعض الأخبار أن في بعض الكتب المنزلة : يا بني إسرائيل لا تقولوا العلم في السماء من ينزل به ولا في تخوم الأرض من يصعد به ولا من وراء البحار من يعبر ليأتي به. العلم مجعول في قلوبكم. تأدبوا بين يدي بآداب الروحانيين وتخلقوا إلي بأخلاق الصديقين. أظهر العلم من قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم».
وبنفس اللفظ أيضا ذكره صاحب عوارف المعارف الإمام السهروردي بقوله : «أوحى الله تعالى في بعض الكتب المنزلة «يا بني إسرائيل... » الحديث. ملحق إحياء علوم الدين/ 5 : 57.

2 ـ ساقط من نسخة ح.

3 ـ سبقت ترجمته في ص : 113.

4 ـ سبقت ترجمته في ص : 113.

أَمَّا المَكْسُوب فَقِسْمَان : ظَاهِر وبَاطِن، أَمَّا الظَّاهِر، فَالمُعْتبَر مِنْه مَا أُخِذ مِنْ أُصولِ الأَحْكَام وَهِي : الكِتَاب، والسُّنة، والإِجْمَاع، والقِيَاس، بِشَرْط أَنْ يَكُون ذَلِك كُلَّه جَارِياً عَلَى سَنَن تَأْوِيل الرَّاسِخِينَ والفُقهَاء المُعْتبرِين، وَأَنْ يَكُون كُلُّ وَاحِد بَانِياً عَلَى أَساسِه، رَاجِعاً إِلَى أَصْلِه، فَالمُجْتهد المُطْلَق يَرْجِع إِلَى الكِتَابِ والسُّنة، وَما يَنْبنِي عَليْهِما مِنَ الإِجْمَاع والقِيَاس، وَأَنْوَاع الاسْتِدلاَل.

وَمُجْتَهِد المَذْهَب يَرْجِع إِلَى قَواعِد إِمَامِه مِمَّا ذُكِرَ. وَمُجْتهِدُ الفُتْيا، والمُقَلِّد المَحْض يَرْجِع إِلَى رَأْي مُقلِّدِه.

وَأَمَّا البَاطِن، فالمُعْتبَرُ مِنْه مَا أُخِذ أَيْضاً مِنَ الكِتابِ والسُّنةِ، عَلَى حَسبِ مَا فَهِمَه وَقَرَّرَه أَرْبَاب القُلُوب مِنَ الصُّوفِيَة <العَارِفِينَ>[1]، وَأَهْل البَصائِر المُحقِّقِينَ لاَ الجَهلَة المُدَّعِينَ.

وَلِهَذا مَا ذَكَر الشَّيخ أَبُو القَاسِم القُشَيْري[2] جَماعَة مِنَ الصُّوفِية فِي صَدْرِ رِسَالتِه[3] لِيُعْلَم أَمْثَال مَنْ يُقْتدَى بِهِم، وَيُسارَ بِسِيرَتِهم، وَيُهْتدَى بِأَقْوالِهِم <وَأَفْهَامِهِم وَمَواجِدِهم> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[4].

وَأَمَّا العِلْمُ المَوْهُوب فَالمُعْتَبَر مِنْه، مَا هُو مِنْ جِنْس مَا يَحْصُل لِهَؤلاَء العَارِفِين، مِمَّا هُوَ وَارِدٌ رَبَّانِي أَوْ مَلَكِي لاَ شَيْطَانِي وَلاَ نَفْسانِي، وَهذَا هُوَ مَاء الغَيْب المُشَار إِلَى التَّطهُّر بِهِ فِي قَوْل قَائِلِهم، وَيُنْسَب لِلإِمَام الجُنَيْد[5] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «تَطهَّر بِمَاءِ الغَيْب إِنْ كُنْتَ ذَا سِرٍّ»[6] الأَبْيَات المَشْهورَة.

---

1 ـ سقطت من نسخة ح.

2 ـ سبقت ترجمته في ص : 20.

3 ـ الرسالة القشيرية هي رسالة وجهها القشيري رحمه الله إلى الذين عادوا التصوف، كما وجهها إلى أهل التصوف يبين لهم حقيقة هذه الطريقة وما دخل عليها من انحراف وأباطيل. الرسالة القشيرية : 19.

4 ـ ساقط من نسخة ح.

5 ـ سبقت ترجمته في ص : 48.

6 ـ تمام البيت : وإلا تيمم بالصعيد والصخر. وقد خص الأبيات الثلاثة المنسوبة للإمام الجنيد المدعو

وَفِي هَذا المَاءِ تَقَع الإِضافَة وَالنَّجاسَة، بِوُرودِ الوَارِدَات النَّفْسانِية والشَّيْطانِية، بِمَا يَضُر أَوْ بِمَا لاَ يَضُر وَلاَ يَنْفَع.

وَيُفْهَم أَيْضا مِن اشْتِرَاطِ طَهورِيَّة المَاء لِكَوْنِه مُصَحِّحا لِلطَّهارَة[1] <المُصَحِّحَة>[2] لِلعبَادَة، أنَّ العِبادَة الَّتِي هِيَ طَرِيق الوُصُول، وَالمُجاهَدَة الَّتِي هِيَ سَبَب القُرْب، لاَبُدَّ أَنْ تَكُون صَافِية غَيْر مَشُوبَة بِمَا يُفْسِدُها، مِن اخْتِلاَل شَرْطٍ أَوْ فَرْضٍ أَوْ أَدَبٍ ظَاهِرٍ أَوْ بَاطِنٍ، سَالِمَة مِنَ الزِّيادَة الَّتِي لاَ تَنْبغِي، وَإِلاَّ لَمْ تُوَصِّل إِلَى الغَرَضِ، ولَمْ تُفِدِ المَطْلُوب.

وَيُفْهَم مِنَ الاسْتِقبَال بِالتَّوجُّه إِلَى الجِهَة الوَاحِدَة، التَّوَجُّه إِلَى الوَاحِد الحَقِّ تَعالَى، وَالإِعْرَاض عَنْ كُلِّ مَا سِوَاه، فَوَجْه الجَسَد يَتوَجَّه إِلَى البَيْت الحَرام، وَوَجْه القَلْب يَتوجَّه إِلَى رَبِّ البَيْت، وَالأَوَّل تَوجُّه مَحْسُوس إِلَى ذِي جِهَة وَمَسافَة، وَالثَّانِي تَوجُّه مَعْنوِي إِلَى مَنْ لاَ جِهَة لَهُ وَلاَ مَسافَة، وَلاَ أَيْنَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[3].

{مَا يُفْهَمُ مِنْ فَرَائِض الصَّلاةِ مِنْ مَعانِي الطَّاعَة والانْقِياد ظَاهِراً وَباطِناً}

وَيُفْهَم مِنَ القِيَام الطَّاعَة والاسْتِسلاَم والانْقِيَاد، وَالتأَتِّي لِلْخِدْمَة مَعَ الإِعْظَام وَالإِجْلاَل، فَإِنَّ ذَلِك هُوَ فِعْل العَبْد، يَقُوم بَيْن يَدَيْ سَيِّدِه مُمْتَثِلاً لِمَا أَمَر، مُنْتظِراً

عبد الكبير بن عبد المجيد الكثيري المراكشي «عليوات» بشرح سماه : «سراج الغيوب في أعمال القلوب» الذي ألفه على إثر ليلة اجتمع فيها بالحسن اليوسي بزاوية وزان، كما جاء على حد قوله : «وكان سبب وضعي لهذا الشرح، أنه لما ورد الشيخ الإمام العلامة الأكمل الولي الصالح، أبو محمد سيدي الحسن بن مسعود اليوسي، على شيخنا ووسيلتنا إلى الله سبحانه، الإمام الخاشع، الولي العارف بالله المتواضع، القطب الجامع، سيدي عبد الله بن إبراهيم الشريف.. فاستحضرني لحضرته وخصني بالجلوس مع الشيخ المذكور، وجمع يميني مع يمينه...» سراج الغيوب في أعمال القلوب مخطوط الخزانة العامة رقم : 445ك.

1 ـ وردت في نسخة ق : الطاهرة.

2 ـ سقطت من نسخة ك.

3 ـ تضمين للآية : 11 من سورة الشورى.

لِمَا يَأمُر، وَذلِك نَتِيجَة العِلْم بِأنَّه هُوَ المَالِك لاَ شَرِيكَ لَهُ، لِكوْنِه هُوَ الخَالِق الرَّازِق المُحْيِي المُمِيت، إِلَى غَيْر ذَلِكَ .

187 / وَيُفْهَم مِنَ التَّكْبِير مَا هُوَ مَعْنَاه، وَطَلَب الاعْتِرَاف بِذَلك، واعْتِقَاده بَاطِناً وَالتَّخَلق بِه، وَمَعْنَى «أَكْبَر» إِنْ لَمْ يُقْصَدِ التَّفْضِيل، أَنَّهُ الكَبِير تَعالَى لِتعَالِيه عَنِ النَّقْص كُلِّه، وَاتِّصافِه بِالكَمَال كُلِّه، وَلَيْس كَذلِك إِلاَّ هُو تَعالَى، فَغَيْره حَقِيْر ذَلِيلٌ نَاقِصٌ، مُحْتاجٌ مُتَلاَشٍ مَعْدُومٌ عَلَى التَّحْقِيقِ، لاَ يَضُر وَلاَ يَنْفَع.

وَكَذا إِنْ لُوحِظَ التَّفْضِيل وَفِي ذَلِك عَلى كُلِّ مَشْرَبٍ لِلمُصلِّي، وَهُو أَنَّه إِذَا اسْتَحضَر عَظمَة الله تَعالَى وَكِبْرياءَه، وحَقارَة كُلِّ مَا سِوَاه تعالى وَتَلاشِيه، تَوجَّه إِلَيْه تَعالَى وَعَكَف بِالهِمَّة عَليْه، وَأَعْرَض عَنْ غَيْرِه بِالجُمْلَة، وَهَذا هُو التَّوْحِيد الَّذِي هُوَ سِرُّ هَذِه العِبادَة، وَهُو مَضْمُون كَلِمَة الشَّهادَة، وَلِهَذا جُعِل التَّكْبِيرُ مَلْزُوماً مِنْ أَوَّلِ الصَّلاَة إِلَى آخِرهَا، اسْتِذْكَاراً وَتَنْبِيهاً لِلْقَلب عَلى هَذَا المَعْنَى، لِئَلاَّ يَغْفَل عَنْه، وَهُو أَيْضاً قد يُصَدقُ لِسَانُه قَلْبه[1]، وَقَدْ يُكذِّبه، إِذَا كَانَ عِنْدَه كَبِير غَيْرَ الله تَعالَى.

قَالَ الإِمَام أَبُو طَالِب[2] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «وَمَنْ كَانَ فِي قَلْبه المَلِكُ الصَّغِير الفَانِي، أَكْبَر مِنْ نَصِيبِه مِنَ المَلِك الأَكْبَر، فَمَا عَمِلَ بِقَوِله الله أَكْبَر؟».

وَقَال أَيْضاً : «حُدِّثْتُ أَنَّ المُؤْمِنَ إِذَا تَوضَّأَ لِلصَّلاَة، تَباعَدَت مِنْه الشَّياطِين فِي أَقْطَار الأَرْضَين خَوْفاً مِنْهُ، لأَنَّهُ يَتأَهَّب لِلدُّخولِ علَى المَلِك، فَإِذَا كَبَّر حجبَ عَنْه إِبْلِيس وَضُرِبَت[3] بَيْنَه وَبَيْنَه سُرَادِقٌ[4]، لاَ يَنْظُر إِلَيْه، وَوَاجَهه الجَبَّار عَزَّ وَجَلَّ بِوَجْهِه، فَإِذَا قَالَ : الله أَكْبَر، اطَّلَع المَلِك فِي قَلْبِه، فَإِذا لَيْس فِي قَلْبِه أَكْبَر مِنَ الله

1 ـ وردت في نسختي ق و ك : بقلبه.
2 ـ سبقت ترجمته في ص : 80.
3 ـ وردت في نسختي ق و ك : ضرب.
4 ـ السرادق : جمع سرادقات : الفسطاط الذي يمد فوق صحن البيت. أصلها فارسية.

عَزَّ وَجَلَّ، فَيقُول : صَدَقْتَ الله عَزَّ وَجَلَّ فِي قَلْبِكَ كَمَا تَقُول، <قَالَ>[1] فَيَتَشَعْشَع مِنْ قَلْبِه نُورٌ، فَيَلْحَق بِمَلَكُوت العَرْشِ فَيَنْكَشِف لَهُ بِذَلِك النُّور مَلَكُوت السَّماوَات وَالأَرْض، وَيُكْتَب لَهُ حَشْو ذَلِك النُّورِ حَسَنات.

قَالَ : وَإِنَّ الغَافِلَ الجَاهِلَ إِذَا قَامَ لِلْوُضوءِ[2]، احْتَوشَتْه الشَّياطِين، كَمَا يَحْتَوشُ الذُّبَاب عَلَى نُقْطَة العَسَل، فَإِذَا كَبَّر اطَّلَع المَلِك فِي قَلْبِه، فَإِذَا كُلُّ شَيْءٍ فِي قَلْبه أَكْبَر مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَه، فيقُول المَلِكُ لَهُ كَذَبْتَ، لَيْس الله عَزَّ وَجَلَّ فِي قَلْبك كَمَا قُلْتَ، فَيَثُور مِنْ قَلْبِه دُخَّان يَلْحَق بِعِنَان السَّمَاء، فَيَكُون حِجَاباً لِقَلْبه عَنِ المَلَكُوت، قَالَ فَيَرُد ذَلِك الحِجَاب صَلاَتَه وَيَلْقمُ الشَّيْطَان قَلْبَه، فَلا يَزَال يَنْفُخ فِيهِ وَيَنْفُث، وَيُوَسْوِسُ إِلَيْه وَيُزَيِّن لَهُ، حَتَّى يَنْصرِفَ مِنْ صَلاتِه لاَ يَعْقِل مَا كَانَ فِيهِ»[3] انْتهَى.

وَإِذَا رُوعِيَ[4] التَّفْضِيل، كَانَ لِلعَارِف أَنْ يَفْهَمَ أَنَّ كُلَّ مَا يَقَعُ بِبَالِه مِنْ جَلالِ الله وَجمَالِه، وَعَظمَتِه وَكِبْرِيَائِه، فَالله تَعالَى أَكْبَر مِنْ ذَلِكَ، وَهذَا حَقّ، «فَإِنَّ العَجْزَ عَنِ الإِدْرَاك إِدْرَاكٌ»، وَلاَ يَعْرِفُ الله إِلاَّ الله، وَقَالَتِ المَلاَئِكَة : سُبْحانَك مَا عَرَفْنَاكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ، وَأَيْضاً كُلُّ مَا يَقَعُ لَهُ مِنْ غَرائِب الفُتوحَات وَعَجائِب النَّفَحَات، وَسَابِغ الإِحْسَان، وَغَزِير الفَضْل. فاللهَ تَعالَى أَكْبَر مِنْ ذَلِك <كُلِّه>[5]، جُوداً وَكَرماً، وَكُلُّ[6] مَا يَقَعُ لِلْبُعدَاء مِنْ عَظِيم الحِجَاب، وَأَلِيم العِقَاب، وَغَرِيب الافْتِتَانِ، وَبَلِيغ الامْتِحَان، فَالله تَعالَى أَكْبَر مِنْ ذَلِك قُوَّة وَبَطْشاً.

---

1 ـ سقطت من نسخة ك.
2 ـ وردت في نسخة ك : للصلاة.
3 ـ علم القلوب : 146.
4 ـ وردت في نسختي ق و ك : رعي.
5 ـ سقطت من نسخة ك.
6 ـ وردت في نسختي ق و ح : وكذا.

وَاعْلَم أَنَّ لَكَ هَاهُنا نَحْواً مِمَّا فَهِمْتَ[1] فِي الهَيْلَلة من التَّقْدِيرَات، فَتارَة تَفْهَم كَوْن الله تَعالَى بِذَاتِه أَكْبَر، بِمَا لَهُ مِنْ غَايَة الجَلاَل وَالجَمَال كَمَا مَرَّ، وَتَارَة كَوْن مُلْكِه أَكْبَر، وَتَارَة كَوْن مَا عِنْدَه أَكْبَر، وَتَارَة كَوْنُ فَضْلِه أَكْبَر، وَتَارَة كَوْنُ عَدْلِه 188 / أَكْبَر، وَتَارَة كَوْن أَمْرِه أَكْبَر وَتَارَة كَوْنُ طَاعَتِه أَكْبَر، إِلَى غَيْرِ هَذَا.

وَيُفْهَم مِنَ القِرَاءَة مَضْمُونُها أَيْضاً، وَلِذَا شُرِعَت فِيهَا الفَاتِحَة المُشْتَمِلَة عَلَى المَقْصُود كُلِّه، لِتَصْدِيرِهَا بِالحَمْدِ المُضَافِ لِلاسْم الخَاصِّ به تَعالَى، الَّذِي لاَ يَقَعُ فِيهِ اشْتِرَاك كَمَا وَقَع فِي الهَيْلَلَة، وَالحَمْد ثَنَاءٌ عَلَيْه تَعالَى بِجَمِيع الكَمالاَت، عَلَى سَبِيل الحَصْر المُسْتَفَاد مِنْ كَوْنِ المُسْنَد إِلَيْه مَعْرِفَة، وَذَلِك هُوَ إِثْبَات الأُلوهِيَة لَهُ تَعالَى، وَنَفْيها عَنْ مَنْ[2] سِوَاه كَمَا فِي كَلِمَة الشَّهادَة سَوَاء، إِذِ الأُلُوهِيَة[3] هِيَ مَجْمَع تِلْك الكَمالاَت المُثَنَّى بِهَا فَهُمَا كَمُجْمَل وَمُفَصَّل.

وَفِي الوَصْف بِـ ﴿ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[4]، إِشَارَة إِلَى الاسْتِدلاَل عَلَى ذَلِك كُلِّه، فَإِنَّ العَالَمِينَ أَجْنَاسٌ مُخْتلِفَة، قَد اخْتَصَ كُلٌّ مِنْهَا بِوُجُود وَمِقْدَار، وَصِفَة وَزَمانٍ وَمَكَان وَجِهَة، فَنَفْس إِيجَادِهَا[5] دَلِيلٌ عَلَى وُجودِ الله تَعالَى، وَعلَى قُدْرتِه وَعلَى وَحْدَتِه، إِذْ لَوْ كَانَ مَعَهُ شَرِيكٌ لَمَانَعَه عَنِ الفِعْل، وَمَا فِيهَا مِنَ التَّخْصِيص المُخْتَلِف، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ أَوْجَدَها بِإِرَادَتِه وَمَشِيئَتِه[6] لاَ بِتَعْلِيلٍ وَلاَ طَبْعٍ، وَالمَشِيئَة دَلِيلُ العِلْمِ، وَالعِلْمُ دَلِيلُ الحَيَاةِ.

---

1 ـ وردت في نسخة ك : فهمته.
2 ـ وردت في نسخة ك : ما.
3 ـ وردت في نسخة ك : الإلهية.
4 ـ تضمين للآية : 2 من سورة الفاتحة.
5 ـ وردت في نسختي ق و ك : إيجاد هذا.
6 ـ وردت في نسختي ق و ك : بإرادة ومشيئة.

وَكَوْنُه رَبًّا لَهَا دَلِيلٌ عَلَى كَوْنِه مُخَالِفاً لَهَا، فَهُوَ وَاجِبُ الوُجُودِ، قَدِيمٌ بَاقٍ، غَنِيٌّ عَنْ خَلْقِه، غَيْر جِرْمٍ وَلاَ عَرَضٍ.

وَبِكَوْنِه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[1]، عُلِمَ أَنَّه لَهُ الفَضْلُ [العَتِيدُ][2]، وَبِكَوْنِـه ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[3] أَيْ الجَزَاء، عُلِمَ أَنَّ لَهُ البَطْش الشَّدِيدُ، وَأَيْضـاً أُشِيـرَ بِـ ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ إِلَى أَنَّه مُوجِدُهُم، وَبِـ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إِلَى أَنَّه مُمِدُّهُم، وَبِـ ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ إِلَى أَنَّه مُرْجِعُهُم، ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ﴾[4].

وَأَيْضاً لَمَّا كَانَ المَطْلُوبُ مِنَ العَبْد، أَنْ يَعْرِفَ رَبَّه وَيُوحِّدَه، وَأَنْ يَعْبُدَه وَيَخْدِمَه، وَهُوَ ثَمَرَة المَعْرِفَة، وَهُو الجَمْع بَيْن الحَقِيقَة والشَّرِيعَة، وَذَلِك بِاعْتِبَار المنْشَأ إِيجَاداً لِلذَّوَات، وَلِلعُقولِ وَلِلعُلومِ وَالشَّرائِع، وَالمَعَادُ إِيجَاداً[5] لِلثَّوَابِ والعِقَابِ، ومَا بَيْنَهُما، وَهُو مَيْدَان التَّكالِيف، وَمَجَال التَّعبدَات إِيجَاداً لِلهُدَى وَالتَّوْفِيق وَالإِرْشَاد، أُشِيرَ إِلَى الأَوَّل بِـ ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وَإِلَى الثَّانِي بِـ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، وَإِلَى الثَّالث بِـ ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾.

وَفِي المَحْكِي مِنْ كَلاَم عَلي[6] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي خُطْبَةٍ لَهُ : «رَحِمَ الله امْرِئا عَمِلَ لِنَفْسِهِ، وَاسْتَعَدَّ لِحُلولِ رَمْسِه، وَعَلِمَ مِنْ أَيْنَ، وَفِي أَيْنَ، وَإِلَى أَيْنَ» انْتَهَى.

---

1 ـ تضمين للآية : 1 من سورة الفاتحة.

2 ـ سقطت من نسخة ق.

3 ـ تضمين للآية : 4 من سورة الفاتحة.

4 ـ تضمين للآية : 3 من سورة الحديد.

5 ـ وردت في نسختي ق و ك : إيجاد.

6 ـ علي بن أبي طالب (23 ق.هـ ـ 40 هـ/ 600 ـ 621م) بن عبد المطلب، الهاشمي القرشي أبو الحسن، رابع الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المبشرين. جمعت خطبه وأقواله ورسائله في كتاب سمي «نهج البلاغة». الأعلام للزركلي/ 3 : 223.

وَإِذَا تَأَمَّل المُصَلِّي فِي هَذَا الأَمْرِ، واطَّلَع عَلَى هَذَا المَعْنَى، فَعَلِمَ أَنَّ الله تَعالَى هُوَ الَّذِي بِيَدِه الإِيجَاد وَبِيَدِه الإِمْدَاد، وَبِيَدِه الإِرْشَاد، وَالتَّقْرِيبُ وَالإِبْعَاد، وَالإِشْقاء وَالإِسْعَاد، تَوَجَّه بِكُلِّيَة قَلْبه إِلَيْه، وَمَد يَد الضَّرَاعَة إِلَيْه، قَائِلاً : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[1] أَيْ قِيَاماً بِالشَّرِيعَة وَفِي طَيِّهَا الحَقِيقَة، لأَنَّا إِنَّما لَمْ نَعْبُد إِلاَّ إِيَّاه، لأَنَّهُ لاَ مَعْبُود إِلاَّ هُوَ، إِذْ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ. ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أَيْ قِيَاماً بِالحَقِيقَة ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2]، وَفِي طَيِّهَا الشَّرِيعَة، لأَنَّا إِنَّمَا اسْتَعَنَّا بِه امْتِثَالاً لأَمْرِه ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[3] وَهُو لِكُلِّ أَحَد بِحَسَب مَنْزِلَتِه وَحَالِه، وَذَلِك مِنْ مَنْزِلَة مُجَرَّد الإِسْلاَم إِلَى أَعَالِي مَنَازِلِ الإِحْسَان.

وَهَذِه إِشَارَة لَطِيفَة بِاخْتِصَار، فَإِنَّ تَحْتَ كُلِّ آيَة بَلْ كُلِّ جُمْلَة، بَلْ كُلِّ كَلِمَة بِحاراً مِنَ العُلومِ وَالمَعارِف، تَضِلُّ فِيهَا سُفُن العُقولِ، كَيْفَ وَهِيَ فَاتِحَة الكِتَاب، الَّذِي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[4] سُبْحانَه وَتَعالَى.

189 وَيُفْهَمُ مِنَ الرُّكُوع، التَّبْجِيل وَالتَّعْظِيم، وَالخُشُوع/ وَالخُضُوع، لأَنَّه تَحِيَّة المُلُوك وفِعْلُ العَبيدِ بَيْنَ يَدَيْ المَوْلَى، وَهُوَ كِنَايَة عَنِ انْخِفَاض دَرجَة الرَّاكِع، وارْتِفَاع دَرجَة المَرْكُوع لَهُ، وَلَيْس ذَلِك حَقّاً إِلاَّ هُنَا، فَإِنَّ الرَّب فِي غَايَة الرِّفْعَة لِوُجوبِ وُجودِه واسْتِغنَائِه، وَاتِّصَافِه عَلى الانْفِرَاد بِغايَة الكَمَال، وَالعَبْد فِي غَايَة الانْخِفَاض، لِجَوَازِه وَحُدوثِه وافْتِقَارِه ونُقْصَانِه، وَهَذا هُوَ التَّوْحِيد المُعْتَبَر فِي الشَّهادَة، فَالرُّكُوع دَالٌّ عَلَيْه بِالدِّلالَة الفِعْلِيَة، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْه كَلِمَة التَّوْحِيد بِالدِّلالَة القَوْلِيَة.

---

1 ـ تضمين للآية : 5 من سورة الفاتحة.
2 ـ تضمين للآية : 96 من سورة الصافات.
3 ـ تضمين للآية : 6 من سورة الفاتحة.
4 ـ تضمين للآية : 41 من سورة فصلت.

وَيُفْهَم مِنَ السُّجودِ النِّهايَة فِي هَذَا المَعْنَى، فَفِيه سُقُوط مَنْزِلَة العَبْدِ رَأْساً وَاضمِحْلاَل نَفْسِه وَبُطْلاَن كَوْنِه، وَذَهابُ اعْتِبَاره، إِذْ وَضْعُ أَشْرَف أَعْضائِه وَهُو الوَجْه، عَلَى أَحَطِّ المَوْجودَات وَأَسْفَلِها وَهُو الأَرْض، وَآخِر مَا يَبْقَى بِيَد العَبْد مِنَ الأَكْوَان نَفْسُه، فَإِذَا أَبْطَلَها وَأَسْقَطَها كَمُلَ التَّوْحِيد، بِذَهابِ مَا يَفْنَى وَبَقاءِ مَا يَبْقَى، وَهُوَ الوَاحِدُ القَيُّومُ ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1]، وَلِهَذا وَرَدَ «أَقْرَبُ مَا يَكُون العَبْدُ مِنْ رَبِّه وَهُوَ سَاجِد»[2].

وَلِهَذا السِّر، مُنِع شرعا السُّجُود لِغَيْر اللهِ تَعالَى، مَعَ الإِذْن فِي تَعْظِيم مَنْ أَمَرَ الله تَعالَى بِتَعْظِيمِه، وَلَمْ يُؤْذن فِي السُّجُود لأَحَدٍ غَيْر الله تَعالَى، حَتَّى إِنَّ خَيْر العَالَمِين حَبِيبُ الله مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّم، اسْتَأْذَنَه الأَعْرَابِي أَنْ يَسْجُدَ لَهُ فَمَنَعَهُ، وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «لَوْ أَذِنْت لأَحَد أَنْ يَسْجُد لأَحَدٍ لأَذِنْت لِلمَرْأَة أَنْ تَسْجُد لِزَوْجِها»[3]، أَوْ كَمَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أَيْ وَلَمْ يَقَع ذَلِك وَلاَ يَقَع، كَمَا لاَ يُوصَف أَحَد بِالرُّبوبِية وَالعَظمَة وَالتَّوْحِيد كَذلِك غَيْر الله تَعالَى، لاَ يُسْجَد لأَحَد إِلاَّ لله تَعالَى. وَلِنَكْتَفِ بِهَذا القَدْرِ مِنَ التَّنْبِيه فِي كِتَاب الصَّلاَة، فَإِنَّ الكَلامَ فِيهَا لاَ يَنْحَصِر.

{الزَّكَاة أُخْتُ الصَّلاةِ، فَالأُولَى حَقُّ المَال والثَّانِية حَقُّ البَدَنِ}

وَأَمَّا الزَّكَاة : فَإِنَّا نَنْظُر فِيهَا فَنَقُول : إِنَّ المَطْلُوب مِنَ التَّوْحِيد الَّذِي هُوَ مَضْمُون كَلِمَة الإِخْلاَص، هُوَ إِفْرَاد الله تَعَالَى بِالأُلوهِية وَاسْتِحقَاق العِبَادَة، وَمِنْ لاَزِمَ ذَلِك إِفْرَاده بِالعبَادَة، فَلا تَصِحّ عِبَادَة غَيْره تَعالَى، وَلاَ المَيْل وَلاَ التَّعلُّق بِغَيْره، لأَنَّ ذَلِكَ كُلُّه عِبَادَة كَمَا مَرَّ.

---

1 ـ تضمين للآية : 16 من سورة غافر.

2 ـ تضمين لحديث أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب : فضل السجود. وأحمد في باقي مسند المكثرين.

3 ـ أخرجه الترمذي في كتاب الرضاع، باب : ما جاء في حق الزوج على المرأة. وابن ماجة في كتاب النكاح، باب : حق الزوج على المرأة.

{الأَمْرُ بإِخْراجِ المَالِ مِنَ اليَدِ عُنْوانٌ عَلى إِخْراجِه مِنَ القَلْبِ}

وَلَمَّا كَانَ المَالُ مُتعَلِّقا بِالقَلْب، كَانَ مَعْبُوداً لابْنِ آدم، فَأَمَر بِالزَّكَاة إِخْراجاً لَهُ مِنَ اليَدِ، لِيَكُون إِخْرَاجُه مِنَ اليَدِ عُنْواناً عَلَى إِخْراجِه مِنَ القَلْبِ، وَكانَتِ الزَّكَاة كَالجُزْء مِنَ الصَّلاَة، مِنْ حَيْثُ إِنَّ الصَّلاَة نَبذَ فِيهَا كُلَّ شَيْءٍ، وَالزَّكَاة نُبذ فِيهَا بَعْض الأَشْيَاء، وَهُو المَال، فَلِذا كَانَتِ الصَّلاَة مُقَدَّمَة عَلَيْها، غَيْر أَنَّه لَمَّا كَانَ المَالُ هُوَ أَعْظَم العَلاَئِق فِي القَلْب، إِذْ هُوَ مَجْمَع مَآرِب النَّفْسِ وَقَيِّم شَهَوَاتِهَا كُلِّهَا، كَانَتِ الزَّكَاة قَرِيبَة مِنَ الصَّلاَة، فَلِذَا قُرِنَتْ بِهَا فِي الأَمْرِ[1]. وَهِيَ أُخْتُها مِنْ حَيْثُ إِنَّ الصَّلاة حَقُّ البَدَنِ، وَالزَّكَاة حَقُّ المَال، وَلِذَا قَالَ الصِّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ»[2].

{فِي الصَّوْمِ نَبذٌ لِبَعْضِ عَلاَئِق القَلْبِ}

وَأَمَّا الصَّوْم: فَنَنْظُر فِيه كَالنَّظَر فِي الزَّكَاةِ، فَنقوُل: إِنَّه أَيْضا نَبْذٌ لِبَعْض عَلائِق القَلْب، وَهِيَ شَهْوَة الأَجْوفَيْن[3]، وَلَمْ يَبلُغ ذَلِك مَبْلَغ الزَّكَاة، مِنْ حَيْث إِنَّ دَفْع المَالِ دَفْعٌ أَبدِي، فَهُوَ أَصْعَب عَلى النَّفس، وَلِذَا جُعِل عُشُراً أَوْ رُبُعَ عُشُر، وَفِي الصَّوْم تَرْك مُؤَقَّت، فَهُو أَسْهَل، غَيْر أَنَّ شَهْوَة الأَجْوفَيْن أَقْوَى الشَّهوَات بَعْد الشَّهْوَة المَالِية المُطْلقَة، إِذْ هِيَ مَخْرَج مُعْظَم المَالِ، مَعَ أَنَّ صُورَة الصَّوْم لَوْ دَامَ صُورَة 190 / مَلَكِيَة، وَلاَ سِيمَا صَوْم أَهْل اليَقظَة المُحافِظينَ المُتورِّعينَ، فَكانَ لِلصَّوْم الفَضِيلَة وَفِي الحَدِيث «الصَّوْمُ جُنَّةٌ مَا لَمْ يَخْرِقْها، قِيلَ بِمَ يَخْرِقها، قَالَ: بِكذْبَة أَوْ غَيْبَة»[4]، فَمَنْ حَافَظ فِي صَوْمِه، بِأَنْ صَانَ جَوارِحَه زِيادَة عَلَى صَوْنِ البَطْنِ وَالفَرْجِ،

---

1 ـ الأصل في ذلك: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ البقرة: 43.

2 ـ أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة.

3 ـ يعني البطن والفرج.

4 ـ رواه البخاري في كتاب الصوم، باب فضل الصوم. وكذا الطبراني وغيرهما.

الْتَحقَ بِالمَلاَئِكَة المُطهَّرِين، وَخَرَج عَنْ رِقِّ الشَّهوَات، وَصَار عَبْداً لله تَعالَى لاَ لِغَيْره، وَذَلِك هُوَ ثَمَرَة التَّوْحِيد المَدْلُول لِكَلمَة الشَّهادَة.

{فِي الحَجِّ إِظْهَارٌ للعُبودِيةِ وإِذْعانٌ للرُّبوبِيةِ}

وَأَمَّا الحَجُّ فَفِيهِ زِيادَة عَلَى مَا يَدْفَع مِنَ المَالِ فِي الإِنْفَاق فِيه، وَمَا يُخَلِّف مِنَ الشَّهوَات، وَيَرْفُض مِنَ العَلائِق، التَّوَجه إِلَى بَيْتِ الله الحَرَام، وَهُوَ عُنْوَان التَّوَجه إِلَى رَبِّ البَيْت <بِقَلْبِه>[1] كَمَا فِي الصَّلاَة، وَفِي ذَلِك إِظْهَار لِلْعبُودِية، وَإِذْعَان لِلرُّبوبِية، وَلِذَا كَانَت أَكْثَر مَناسِك الحَجِّ أُموراً تَعبُّدِية غَيْر مَعْقُولَة المَعْنَى.

وَهذَا النَّوْع عِنْد الفَقِيه لاَ تَظْهَر فِيهِ حِكْمَة وَلاَ تَتَبَيَّنُ[2] فِيهِ عِلَّة، لأَنَّ الغَرَض مِنْهُ عِنْدَهُ عِلَّةٌ يَجْمَع بِهَا بَيْن فَرْع وَأَصْلٍ، وَيَسْتَنبِطُ حكْماً مِنْ حُكْمٍ، وَلاَ يُوجَد هَذَا إِلاَّ فِي النَّوْع الآخَر، وَهُوَ مَا تَعلَّقَت فِيهِ العِلَّة، فَهُوَ أَعْجَب النَّوْعَيْنِ عِنْدَ الفَقِيه.

وَأَمَّا العَارِف فَأَعْجَب النَّوْعَيْن إِلَيْه، هَذَا الَّذِي لَمْ تَظْهَرْ فِيهِ العِلَّة، لأَنَّ غَرَضَه تَبَيُّن الرُّبوبِية فِي أَطْوَار العُبودِيَة، وَلاَشَكَّ أَنَّ هَذَا <النَّوْعَ>[3] أَبْيَن دِلاَلَة وَأَبْهَر حِكْمَة، لأَنَّ مَعْنَاه إِنْ كُنْتَ عَبْدي، فَافْعَل مَا أَمَرْتُك، فَهِيَ عُبودِيَة مَحْضَة تَوَلَّتْها رُبوبِية، مِنْ غَيْر الْتِبَاس بِشُبْهَة، وَلاَ تَعْرِيج عَلَى عِلَّة، وِلاَ الْتِفَات إِلَى عَارِضٍ.

وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي إِحْرامِه «لَبَّيْكَ اللَّهُم بِحَجَّة حَقّاً تَعَبُّداً وَرِقّاً»[4]، هكَذَا نَسَب هَذَا الكَلاَم إِلَى النَّبِي ﷺ أَبُو حَامِد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَنُسِب نَحْوَه فِي

1 ـ سقطت من نسخة ك.

2 ـ وردت في نسختي ق و ح : تبين.

3 ـ سقطت من نسخة ح.

4 ـ ذكره الإمام الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» كتاب الزكاة/ 1 : 266. قال عنه الإمام زين الدين العراقي : «أخرجه البزار والدارقطني من حديث أنس». المغني بذيل الإحياء.

السِّيرَة لِزَيْد بْن عَمْرُو بْن نُفَيْل[1]. قَالَ أَبُو الرَّبِيع الكَلاعِي[2] فِي الاكْتِفَاء : «وَيُرْوَى أَنَّ زَيْداً كَانَ إِذَا اسْتَقبَل الكَعْبَة دَاخِل المَسْجِد قَالَ : لَبَّيْك حَقّاً حَقّاً تَعَبُّداً وَرِقّاً، عُذْتُ مِمَّا عَاذَ بِهِ إِبْرَاهِيم، مُسْتَقْبِل القِبْلَة وَهُوَ قَائِم، إِذْ قَالَ أَنْفِي لَكَ عَانٍ رَاغِم، مَهْمَا تُجَشِّمْنِي فَإِنِّي جَاشِمٌ البِرُّ أَبْقَى لاَ الحَال[3] لَيْسَ مُهَجِّر كمَنْ قَالَ»[4] انْتَهَى.

{مَعْنَى التَّوْحِيد المَدْلول لِكلمَة الإِخْلاَص سَارٍ فِي جَمِيع التَّكالِيف وأَنْواعِ العِبادَات}

وَإِذَا فَهِمْتَ مَا أَشَرْنَا إِلَيْه مِنَ التَّعَبد، والخُرُوج عَنْ رِقِّ الأَغْيَار، وَالإِذْعَان لِلرُّبوبية، قِياماً بِحَقِّ الوَحْدانية، المَدْلُولَة لِكَلِمَة الإِخْلاَص، عَلِمْتَ أَنَّ هَذَا المَعْنَى سَارٍ فِي جَمِيع التَّكاليف وَأَنْوَاع العِبادَات، مِنْ جِهَادٍ وَصَدقةٍ، وَأَمْرٍ بِمَعرُوف وَنَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ، وَغَيْر ذَلِك، فَلاَ مَعْنَى لِتَتبُّعِهَا وَإِطَالَة الكَلاَم فِي تَقْرِيرهَا.

وَإِذَا فَهِمْت مَا فِي العِبادَات مِنْ مَعْنَى «لاَ إِلَه إِلاَّ الله»، فَاعْلَم أَنَّ فِيهَا أَيْضاً صُورَتها مِنَ النَّفْي وَالإِثْبَات، فَالإِيمَان مَثلاً فِيهِ انْتِفَاء الجُحودِ وَثُبُوت الإِذْعَان، وَالطَّهارَة فِيهَا انْتِفَاء الخَبَث وَالحَدَث وَثُبُوت الطَّهارَة. وَالزَّكَاة فِيهَا انْتِفَاء حُبِّ المَال وَثُبُوت حُبِّ الله تَعالَى وَمَا عِنْدَه، وَهكَذا فَافْهَم.

وَأَمَّا المَنْهِيَات فَلَسْنا نَنْظُر فِيهَا مِنْ حَيْثُ ذَواتُها، إِذْ لَيْسَت بِعبَادَات، وَإِنَّمَا هِيَ أَفْعَال، وَلَكِنَّا نَنْظُر فِيهَا مِنْ حَيْثُ النَّهْي، وَقَدْ تَقدَّم ذَلِك فِي الوَجْهِ الثَّانِي، وَنَزِيدُ هُنَا شَيْئاً فَنقُول : إِنَّ النَّهْي عَنِ الشَّهوَات، كَشُرْب الخَمْر والزِّنَى وَسَفْك الدَّم بِغَيْر

---

1 ـ سبقت ترجمته في ص : 135.

2 ـ هو سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الكلاعي الحميري (565 / 634هـ). محدث الأندلس وبليغها، ولي قضاء بلنسية وحمدت سيرته. من كتبه : «الاكتفاء بسيرة المصطفى والثلاثة الخلفاء» وغيره. توفي شهيدا والراية في يديه في وقعة أيشة. أعلام الزركلي/ 3 : 136.

3 ـ وردت في نسخة ق : الخلل وفي ك : الخال.

4 ـ انظر سيرة ابن هشام أيضا.

حَقٍّ، وَنَحو ذَلك، مِنْ حَيْث إِنَّ ذَلِك مَنْع لِلنَّفْس عَنْ شَهْوَتِهَا وَحَيْلولَة بَيْنَهاوَبَيْنَ لَذَّتِها، وَهُوَ نَزْعُ الرُّوحِ فِي حَقِّهَا هُوَ سَطْوَة عَظِيمَة، وَمِحْنَة شَدِيدَة مِنَ الجَبَّار جَلَّ جَلالُه، وَذَلِك دَلِيل مَا لَهُ مِنْ عَظِيم القَهْرِ، وَشَدِيد البَطْشِ، وَبَلِيغ النِّكَايَة، 191 وَوَبِيل العَذَاب، وَمِنْ حَيْثُ إِنَّ ذَلِك/ سَبَب النَّجَاة مِنْ عَذَاب النَّارِ، وَسَبَب النَّعِيم فِي دَارِ القَرَار، لُطْف عَظِيم، وَفَضْل جَسِيم، وَاحْتِفَاء كَبِير، وَاعْتِنَاء بِهَذا العَبْد الضَّعِيف مِنْ مَوْلاَه اللَّطِيف الخَبِير. وذَلِك دَلِيل مَا لَهُ مِنَ الفَضْل وَالجُودِ، وَالامْتنَان الَّذِي قَدْ غَمَر كُلَّ مَوْجُود.

ثُمَّ إِذَا نَظَر العَارِف فِي خِلْقَة النَّفْس وَتَرَامِيها عَلَى هَذِه الشَّهوَات، وَتَهالُكِها عَلَيْها، وَانْحِياشِها بِكُلِّيَة الهِمَّة إِلَيْها، رَأَى مِنْ هَذِه الخِلْقَة أَمْراً غَرِيباً، وَشَكْلا عَجِيباً، شَاهِداً بِالقُدْرَة القَاهِرَة، وَالمَشِيئَة البَاهِرَة، وَالعِلْم المُحِيط بِالمَعْلومَات، وَبَدِيع الإِتْقان فِي المَصْنوعَات.

ثُمَّ إِذَا نَظَر إِلَى إِفَاضَة التَّقْوَى عَلَيْها حَتَّى ترْفُض هَذِه الشَّهوَات، وَتَزْهَد فِي هَذِه اللَّذَات، حَتَّى تَسْتَحِيل عِنْدَها قَاذُورَات، وَقَبائح مَكْروهَات، رَأَى مِنْ ذَلِك أَغْرَب وَأَعْجَب، وَأَدَل عَلَى غَايَة الاقْتِدَار وبَاهِر الاخْتِيَار، وَبَالِغ الفَضْل وَسَابِغ البَذْل، فَلاَ يَزَال العَارِف يَتَروَّى مِنْ هَذِه الأَقْدَاح، وَيُغْدَى عَلَيْه بِثمَار معارِفِها وَيُرَاح ﴿ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ تُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1].

1 ـ تضمين للآية : 4 من سورة الرعد.
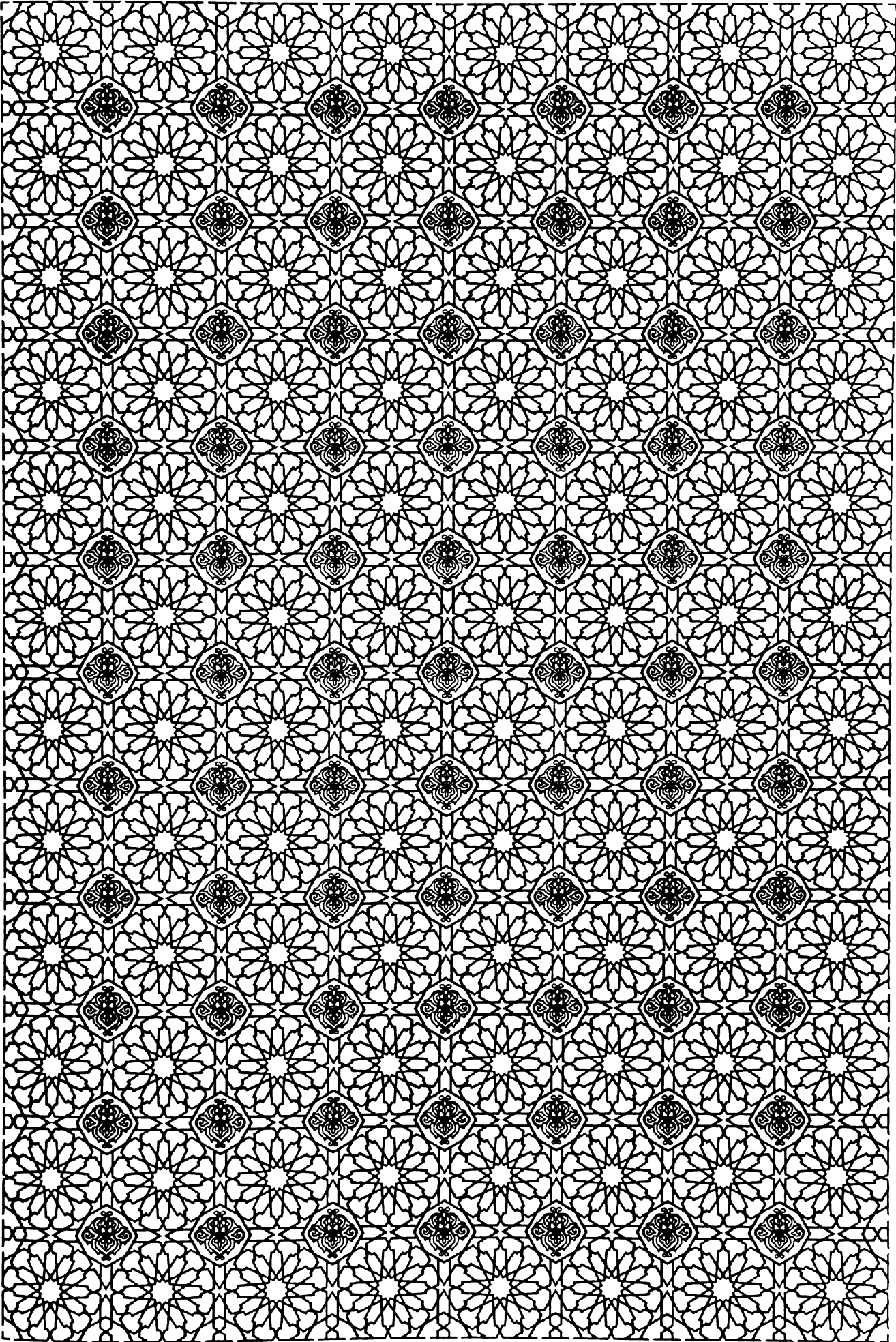
الفَصْلُ الثَّالِث

{كُلُّ المَوْجودَات نَاطِقَة وَشَاهِدَة بِمُقتَضى الكَلمَة المشرفَة إِمَّا مَقالاً وإِمَّا حالاً}

اعْلَم أَنَّهُ كَمَا أَنَّك نَاطِقٌ بِهَذه الكَلِمَة المُشرفَة، شَاهِدٌ بِمُقْتَضاهَا، كَذَلِك كُلُّ مَوْجُودٍ شَاهِدٌ بِهَا وَنَاطِقٌ بِهَا، إِمَّا مَقَالاً وَإِمَّا حَالاً، فَأَمَّا المَلَك وَمُؤْمِن الإِنْس والجِنِّ، فَإِنَّه يَنْطِق بِهَا صَرِيحاً، وَأَمَّا غَيْرهُم فَإِنَّه يَنْطِق بِهَا فَهْماً بِلِسَان الحَالِ، لِدلاَلَة[1] الكُلِّ عَلَى وُجُود الله تَعالَى، وَتَنَزُّهِه تَعالَى عَنْ جَمِيع النَّقَّائِص، وَاتِّصَافِه تَعالَى بِجَمِيع الكَمالِ، كَمَا مَرَّ فِي الكِتَاب، وَدَخَلَت ذَوَات المُوحِّدِين مِنَ العُقَلاءِ فِي هَذَا العُمومِ، فَإِنَّها دَالَّة أَيْضاً.

فَإِنْ قُلْتَ : إِنَّ كَوْن الكَائِنَات دَالَّة عَلَى وُجودِ الصَّانِع، وَمَا لَهُ مِنَ الكَمالِ، قَدْ تَقدَّم فِي الفَصْلِ الأَوَّل، فَمَا فَائِدَة هَذَا الكَلام ؟.

قُلْنَا : هَذَا نَظَر آخَرَ، فَإِنَّا اعْتبَرْنا فِيمَا مَرَّ هَذِه الدِّلالَة، مِنْ حَيْثُ حُصُول العِلْم بِهَا لِلغَافِلِ النَّاظِر، وَهَاهُنَا اعْتبَرْنَاها مِنْ حَيْثُ تَنَزَّلَت[2] مَنْزِلَة النُّطْق وَالكَلاَم، وَالشَّهادَة وَالإِقْرَار، فَكانَ النَّظرُ هُنَا مُخالِفاً لِلنَّظَرِ هُنَاك مِن اعْتِبارَيْن :

الأَوَّل : أَنَّا هُنالِك نَظرْنا فِي الكَائِنَات، مِنْ حَيْث إِنَّ النَّاظِر يَسْتَفِيد مِنْها وُجُودَ الله تَعالَى بِالدِّلالَة العَقْلِية، وَالنَّظَر الَّذِي هُوَ الفِكْر المُرَتَّبُ فِي النَّفْس عَلَى طَرِيق تُفْضِي إِلَى العِلْم، وَهَاهُنَا نَظَرْنَا إِلَيْها فِي أَنْفُسِها فَوَجدْناهَا بِمنْزِلَة مَنْ يَعْترِف عَلَى نَفْسِه أَنَّ لَهُ رَبّاً قَادِراً مُرِيداً، وَيَشْهَد بِذَلِك، وَهَذِه الشَّهادَة بِلِسَان الحَالِ، كَمَا يَكُون

---

1 ـ وردت في نسخة ك : لدلالته.

2 ـ وردت في نسخة ح : نزلت.

الدُّعَاء وَالطَّلَب بِلِسَان الحَال، أَلاَ تَرَى أَنَّ الجَائِع وَالعَطْشَان وَالعُرْيَان طَالِب[1] بِلسَان حَالِه لِلطَّعَام[2] وَالمَاءِ وَالسُّتْرَة، وَكَذا الكَائِنَات كُلُّها مُفْتَقِرَة، فَهِي طَالِبَة لِفَاعِل يُوجِدُها وَيُمِدُّها، وَإِذَا حَصَل لَهَا ذَلِك الإِيجَاد وَالإِمدَاد، فَهِيَ شَاهِدَة بِلسَان حَالِها، أَنَّ الفَاعِلَ المُوجِدَ[3] المُمِدَّ لِلعَالَم[4] القَادِر المُخْتَار الحَي مَوْجُودٌ.

الاعْتِبَار الثَّانِي : إِنَّا نَظرْنا هُنالِك، فِي أَنَّ العَاقِل قَدْ حَصلَت لَهُ مَعْرِفَة الله تَعالَى وَتَوْحِيده والشَّهادَة لله بِذَلِك، إِمَّا نَظراً وَإِمَّا إِلْهاماً، وَهَاهُنَا نَظرْنَا فِي أَنَّهُ هَلْ هُوَ مَخْصُوص بِهَذِه الفَضِيلَة، أَعْنِي الشَّهادَة بِالوَحْدانية.

فَقُلْنا إِنَّه غَيْر مَخْصُوص بَلِ الكَائِنَات كُلها شَاهِدَة بِذَلِك، وَهَذَا كُلّه إِنِ اعْتَبَرنَا اخْتِصَاص النُّطْق بِالحَي أَوْ بِالعَاقِل[5]، وَأَمَّا إِنْ جَوَّزْنا ذَلِك فِي كُلِّ مَوْجُود، فَلا سُؤَال وَلاَ إِشْكَال، إِذْ لاَ نَحْتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَى ذِكْر الدِّلالَة لاَ عَقْلِية وَلاَ حَالِيَة.

192 وَفِي هَذَا المَقَام لِلعُلَمَاء كَلاَم، قَالَ تَعالَى/ : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[6].

قَالَ الإِمَام الوَاحِدي[7] : «المُرَاد بِالتَّسْبِيح فِي هَذِه الآيَة، الدِّلالَة عَلَى أَنَّ اللهَ تَعالَى خَالِقٌ حَكِيمٌ مُبَرَّأ مِنَ الأَسْوَاء، وَالمَخْلُوقُون وَالمَخْلوقَات كُلُّها تَدُل عَلَى هَذَا» انْتهَى.

وَقالَ فِي الكَشَّاف : «المُرَاد أَنَّها تُسَبِّح لَهُ بِلِسَان الحَالِ، حَيْثُ تَدُل عَلَى الصَّانِع وَعَلَى قُدْرتِه وَحِكْمتِه، فَكأَنَّها تَنْطِق بِذَلِك، وَكَأَنَّها تُنَزِّه الله سُبْحانَه مِمَّا لاَ يَجُوز عَلَيْه مِنَ الشُّرَكَاء وَغَيْرهَا.

---

1 ـ وردت في نسخة ك : طالبا.
2 ـ وردت في نسخة ك : طعام.
3 ـ وردت في نسختي ق و ح : الموجود.
4 ـ وردت في نسخة ك : العالم.
5 ـ وردت في نسخة ق : بالعقل.
6 ـ الإسراء : 44.
7 ـ علي بن أحمد أبو الحسن الواحدي (ت : 1076م) مفسر عالم بالأدب، نعته الذهبي بإمام علماء التأويل. من مؤلفاته : «الوسيط» و«البسيط»، و«الوجيز». الأعلام/ 4 : 255.

فَإِنْ قُلْتَ : كَيْفَ تَصْنَع بِقَوْله ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ وَهَذا التَّسْبِيح مَفْقُوه مَعْلُوم؟.

قُلْنَا : الخِطَاب لِلْمُشْرِكِين، وَهُم وإِنْ كَانُوا إِذَا سُئِلُوا عَنْ خَالِق السَّمَاوَات وَالأَرْض قَالُوا الله، إلاَّ أنَّهُم لَمَّا جَعلُوا مَعَه آلِهَة مَعَ إِقْرارِهم، فَكأَنَّهُم لَمْ يَنْظُروا وَلَمْ يَقِرُّوا، لأَنَّ نَتِيجَة النَّظَر الصَّحِيح وَالإِقْرَار الثَّابِت خِلاَف مَا كَانُوا عَلَيْه، فَإِذاً لَمْ يَفْقهُوا التَّسْبِيح وَلَمْ يَسْتَوْضِحُوا الدِّلاَلَة عَلَى الخَالِقِ.

قَالَ : فَإِنْ قُلْتَ : مَنْ فِيهِن يُسَبِّحُون عَلَى الحَقِيقَة وَهُم المَلاَئِكَة وَالثَّقَلاَن وَقَدْ عُطِفُوا عَلَى السَّماوَات وَالأَرْض فَمَا وَجْهه؟.

قُلْتُ : التَّسْبِيح المَجَازِي حَاصِل فِي الجَمِيع، فَوجَب الحَمْل عَلَيْه وَإِلاَّ كَانَتِ الكَلِمَة الوَاحِدَة فِي حَالَة وَاحِدَة مَحْمُولَة عَلى الحَقِيقَة وَالمَجَاز»[1] انْتَهى.

وَقَال البَيْضَاوِي[2] : «وَيَجُوز أَنْ يُحْمَل التَّسْبِيح عَلَى المُشْتَرك بَيْنَ اللَّفْظِ وَالدِّلاَلَة، لإِسْنَادِه إِلَى مَا يُتَصوَّر مِنْه اللَّفْظ وَإِلَى مَا لا يُتَصوَّر مِنْه، وَعَلَيْهِما مَنْ جَوَّزَ إِطْلاَق اللَّفْظِ عَلَى مَعْنَيَيْهِ»[3] انْتَهَى. أَيْ مِنَ الأُصُولِيِّينَ، وَهُم كَثِير يُجَوِّزونَ إِطْلاق المُشْتَرك عَلَى مَعْنَيَيْه مَعاً، وَكَذَا الحَقِيقَة وَالمَجَاز، وَمَثَل هَذَا فِي تَفْسِير البَكري[4].

وَقَال الثَّعْلَبِي[5] فِي تَفْسِيره قَالَ ابْنُ عَبَّاس[6] : «وَإِنَّ مِنْ شَيْءٍ حَي». وَقَالَ

1 ـ قارن بالكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري/ 2 : 451.
2 ـ عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي أبو سعيد البيضاوي، (ت : 685هـ) قاض مفسر علامة، من تصانيفه : «منهاج الأصول في علم الأصول». الأعلام/ 4 : 110.
3 ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل : 376.
4 ـ أبو علي الحسن بن محمد القرشي التيمي النيسابوري الصوفي، (574 / 656هـ). قال فيه ابن الحاجب : «كان إماما، عالما، لسنا، فصيحا، مليح الشكل». تهذيب سير الأعلام/ 3 : 308.
5 ـ سبقت ترجمته في ص : 92.
6 ـ سبقت ترجمته في ص : 26.

الضَّحَاك[1] وَالحَسَن «كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ الرُّوح». وَقَال قَتَادَة[2] : «يَعْنِي الحَيَوَانَات وَالنَّامِيَات». وَقَال عِكْرِمَة[3] : «الشَّجرَة تُسبِّح وَالأُسْطُوانَة تُسبِّح».

{التُرابُ يُسبِّح مَا لَمْ يَبْتَل}

ثُمَّ قَالَ : «وَقَال المِقْدَام بْنِ مَعْدِي كَرب[4] : «إِنَّ التُّرَاب يُسَبِّح مَا لَمْ يَبْتَل، فَإِذَا ابْتَل تَرَكَ التَّسْبِيح، وَإِنَّ الطَّيْرَ لَتُسَبِّح مَا دَامَت تَصِيحُ، فَإِذَا سَكَتَت تَرَكَتِ التَّسْبِيح، وَإِنَّ الخَرزَةَ لَتُسبِّح مَا لَمْ تُرْفَع مِنْ مَوْضِعِها، فَإِذَا رُفِعَت تَرَكَتِ التَّسْبِيح، وَإِنَّ الوَرَق لَتُسبِّح مَا دَامَت عَلَى الشَّجرَة، فَإِذَا سَقَطَت تَرَكَتِ التَّسْبِيح، وَإِنَّ المَاء لَيُسبِّح مَا دَامَ جَارِياً، فَإِذَا رَكَد تَرَكَ التَّسْبِيح، وَإِنَّ الثَّوْب لَيُسبِّح مَا دَامَ جَدِيداً، فَإِذَا وَسِخَ تَرَك التَّسْبِيح، وَإِنَّ الوُحُوشَ إِذَا صَاحَت سَبَّحَت، فَإِذَا سَكَتَت تَرَكتِ التَّسْبِيح، وَإِنَّ الثَّوْبَ لَيُنادِي فِي أَوَّل النَّهَار اللَّهُم اغْفِرْ لِمَنْ أَفْنانِي».

وَقَال أَنَس[5] : «كُنَّا عِنْدَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخَذ كَفّاً مِنْ حَصَى فَسَبَّحْن فِي يَدِ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى سَمِعْنا التَّسْبِيح، <ثُمَّ صَبَّهُن فِي يَدِ أَبِي بَكْر فَسَبَّحْن[6] فِي يَدِ أَبِي بَكْر حَتَّى سَمِعْنَا التَّسْبِيح>[7]، ثُمَّ صَبَّهُن فِي يَدِ عُمَر فَسبَّحْن فِي يَدِه حَتَّى

---

1 ـ الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني أبو القاسم، مفسر، كان يؤدب الأطفال ويقال كان في مدرسته ثلاثة آلاف صبي. قال الذهبي : «كان يطوف عليهم على حمار»، وله كتاب في «التفسير». توفي بخرسان سنة 720 هـ. الأعلام/ 3 : 215.

2 ـ سبقت ترجمته في ص : 10.

3 ـ عكرمة بن عبد الله البربري المدني مولى عبد الله بن عباس تابعي (25 هـ/ 105 هـ). كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي، روى عنه زهاء ثلاثمائة رجل، منهم أكثر من سبعين تابعا. كانت وفاته بالمدينة هو وكثير عزة في يوم واحد، فقيل : مات أعلم الناس وأشعر الناس. نفسه/ 4 : 244.

4 ـ ابن عمر بن يزيد بن معد كرب بن يسار ، الصحابي، قدم في صباه من اليمن مع وفد كندة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانوا ثمانين راكبا، له أربعون حديثا. الأعلام/ 6 : 230.

5 ـ أنس بن مالك بن النضر الخزرجي الأنصاري، صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخادمه، أسلم صغيرا، وهو آخر من مات من الصحابة بالبصرة سنة 12 هـ. روى عنه رجال الحديث. الأعلام/ 2 : 34.

6 ـ وردت في نسخة ك : فسبح.

7 ـ ساقط من نسخة ك.

سَمِعْنا التَّسْبيح، ثُمَّ صَبَّهُن فِي يَدِ عُثْمَان فَسَبَّحْن فِي يَدِهِ حَتَّى سَمِعْنا التَّسْبِيح، ثُمَّ صَبَّهُن فِي أَيْدِينَا فَمَا سَبَّحْنَ فِي أَيْدِينَا»[1].

وَعَنْ جَعْفَر بْنُ مُحمَّد[2] عَنْ أَبِيه قَالَ : «مَرِضَ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَاه جِبْرِيل بِطَبَقٍ فِيهِ رُمَّان وَعِنَب، فَأَكَل النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسبَّح، ثُمَّ دَخَل الحَسَن وَالحُسَيْن فتناوَلاَ مِنْه فَسَبَّح العِنَب وَالرُّمَان، ثُمَّ دَخَل عَلِي فَتناوَل مِنه فَسبَّح أَيْضاً، ثُمَّ دخل رَجُل مِنَ الصَّحابَة فَتنَاوَل مِنْه فَلَمْ يُسبِّح، فقَالَ جِبْرِيل عَلَيْه السَّلاَم : إِنَّما يَأْكُل هَذَا نَبِي أَوْ وَصِي[3] أَوْ 193 وَلَدُ نَبِي»[4] انْتهَى/ . وَظَاهِر هَذِه الأَنْقَال، أَنَّ التَّسْبِيح عَلَى ظَاهِرِه وَهُوَ الكَلاَم.

وَقَال أَبُو حَيَّان[5] : «نِسْبَة التَّسْبِيح لِلسَّماوَات وَالأَرْض وَمَنْ فِيهِنَّ مِنْ مَلَك وَإِنْس وَجِن، حَمَلَه بَعْضُهم عَلى النُّطْق بِالتَّسْبِيح حَقِيقَة، وَأَنَّ مَا لاَ حَيَاة لَهُ وَلاَ نُمُو يُحْدِث الله تَعالَى لَهُ نُطْقا، وَهذَا هُوَ ظَاهِر اللَّفْظ، وَلِذَلِك جَاءَ ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[6] انْتَهَى.

وَاعْلَم أَنَّ مَنْ حَمَل التَّسْبِيح عَلَى المَعْنوِي، وَهُو الدِّلاَلَة، قَدِ اسْتَدَّل بِقَوْلِه تَعالَى : ﴿لَّا تَفْقَهُونَ﴾ فَقَال لَوْ أُرِيدَ النُّطْق لَقِيلَ : لاَ تَسْمَعونَ وَلَمْ يَقُلْ لاَ تَفْقَهُون، لأَنَّ النُّطْق مَسْمُوع لاَ مَفْقُوه.

---

1 ـ أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب علامات النبوة، باب : تسبيح الحصى/ 8 : 296 299. وقال : «هو حديث ضعيف وإن اشتهر».

2 ـ جعفر بن محمد بن المعتز بن محمد ابن المساغفر النسفي أبو العباس (350 / 432هـ). فقيه له اشتغال بالتاريخ، من رجال الحديث وله «الدعوات»، «فضائل القرآن »، «الشمائل والدلائل ومعرفة الصحابة الأوائل» و«السلسلات» في الحديث. الأعلام/ 2 : 141.

3 ـ وردت في نسخة ك : ولي.

4 ـ كتاب الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعالبي، وهو لا يزال مخطوطا. قال عنه الذهبي في التفسير والمفسرون : «عثرت على هذا التفسير بمكتبة الأزهر، فوجدته مخطوطا غير كامل وجدت منه أربع مجلدات ضخام : الأول والثاني والثالث والرابع. والرابع ينتهي عند أواخر سورة الفرقان وباقي الكتاب مفقود لم أعثر عليه بحال» : 223. مخطوط بمكتبة الأزهر تحت رقم : «136» 5561.

5 ـ أثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي (654 / 745هـ) كان ملما بالقراءات وعلوم اللغة، وكانت له اليد الطولى في التفسير والحديث، وتراجم الرجال ومعرفة طبقاتهم، خصوصا المغاربة. له : «تفسير البحر المحيط»، و«غريب القرآن». التفسير والمفسرون :301.

6 ـ تفسير البحر المحيط/ 6 : 40.

وَقَال الآخَرُون لَوْ أُرِيد الدِّلالَة، لَمْ يَقُلْ لاَ تَفْقهُون أَصْلاً، لأَنَّها مَفْقُوهَة بِنَظَر العُقُول، وَتَقدَّم الجَوَاب، وَهُو «أَنَّ هَذَا خِطَابٌ لِلمُشْرِكينَ الَّذِينَ لَمْ يَفْقَهُوهَا أَصْلاً، أَوْ نُزِّلُوا مَنْزِلَة مَنْ لَمْ يَفْقَهْها لِعدَم جَرْيِهم عَلَى مُوجِب ذَلِك» كَمَا قَرَّر فِي الكَشَّاف[1]، وَمَثَل هَذِه الآيَة قَوْله تَعالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾[2].

قَالَ حُجَّة الإِسْلاَم[3] فِي كَلام لَهُ: «أَتَظُن أَنَّ شَمْسَ التَّوْحِيد إِنَّما طَلعَت عَلَيْك، كَلاَّ وَحاشَى، ﴿ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ وَلَكِن خُصِّصْتُم بِالتَّكْلِيف تَكْرِيماً وَتَعْظِيماً، وَتَفْضِيلاً لَكُم عَلَى غَيْرِكُم، لاَ حَاجَة إِلَيْكُم، فَتَكْرِيمُكم مِنَّا وَتَفْضِيلُكُم بِنَا ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ إِلَى قَوْلِه ﴿ تَفْضِيلًا ﴾[4]»[5] انتَهَى.

وَاعْلَم أَنَّ هَذَا الفَصْل، أَعْنِي تَسْبِيح الطَّعَام وَالحَصَى وَنَحْو ذَلِكَ مِنَ الجمادَات، وَكَذا[6] وُقُوع تَنْزِيه الله وَتَقَدِيسه مِنَ الحَيوَانَات العَجْمَاوَات كَالطَّيْر وَنَحوه، كُلُّ ذَلِك مِنْ مَغارِس الأَوْهَام وَمدَاحِض الأَحْلاَم، وَمَثَار الخِصَام واللّجَاج وَالجِدَال وَالحِجَاج[7].

فَقَد يَقُوم رَاوِي الآثَار وَنَاقِل الأَخْبَار، مِنْ عَوَامِّ المُحدِّثينَ وَالمُتَفقِّهين فَيَقُول: إِنَّ ذَلِك كُلُّه وَاقِعٌ عَلَى حَقِيقَتِه جُمْلَة، مِنْ غَيْر تَفْصِيل وَلاَ تَوقُّف عَلَى اعْتِبَار وَلا تَعْلِيل، لِوُرودِه فِي الخَبَر وَشُيوعِه فِي الأَثَر.

---

1 ـ قارن بالكشاف/ 2 : 451 كما سبقت الإشارة إلى ذلك.
2 ـ النور : 41.
3 ـ يعني به الإمام محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي أبو حامد، سبقت ترجمته في ص : 43.
4 ـ تضمين للآية : 70 من سورة الإسراء.
5 ـ رسالة جمال الإسلام الغزالي في حديث «لا إله إلا الله وما يتعلق بالكلمة المشرفة» مخطوط الخزانة العامة بالرباط تحت رقم : 2530 د.
6 ـ وردت في نسخة ك : وكذلك.
7 ـ وردت في نسخة ك : والمحاج.

وَيقُوم آخَر مِمَّن يَتعاطَى عُلُوم النَّظَر، وَيُنوِّع المَوْجودَات بِالفُصُول، أَوْ يَشْترِط لِلقِوَى البِنْيَة وَالمَحَل المَخْصُوص، فَيُنْكِر ذَلِك جُمْلَة وَيَقُول : <إِنَّ>[1] إِثْبَات الكَلام لِلجَمادِ وَإِثْبَات إِدْرَاك المَعانِي العَقْلِية لِلعَجْماوَات سَفْسَطَة.

{حَلُّ الإِشْكَال النَّاتِج عَنِ النَّظَرِ المُتعَارِض فِي إِثْباتِ الكَلاَم للجَماد وإِدْرَاك المَعانِي العَقْلِيَة للعَجْمَاوَات}

وَنَحْن نَذْكُر هُنَا إِشارَة مُوجزَة يَنْحَل بِهَا إِنْ شَاء الله كُلُّ إِشْكَال، وَيَنْزَاح بِهَا كُلُّ الْتِبَاس وَاحْتِمَال، بَعْدَ أَنْ نرْسُم لَكَ [هُنَا][2] مَسائِل لاَبُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهَا :

الأُولَى : الأَجْرَام عِنْدَنا كُلُّها مُتمَاثِلة فِي المَاهِية الجِرمِية، وُكُلُّ مَا يُعْتَبَر لَهَا وَرَاء هَذِه المَاهِيَة، فَهُو عَرَض لَهَا وَارِد عَلَيْها، مِنْ حَيْثُ إِنَّها أَجْرَام، وَمِنْ ذَلِك وُجُود الحَيَاة فِيهَا أو الإِدْرَاك، أَوِ النُّطْق أَوْ نَحْو ذَلِكَ.

الثَّانِيَة : هَذِه الأَعْرَاض الَّتِي ذَكرْنَاها وَنَحْوها، كُلُّها جَائِزَة مُتَعَلِّقَة لِلقُدْرَة وَالإِرادَة الرَّبَانية، كَمَا أَنَّ الأَجْرَام كَذلِك.

الثَّالِثَة : يَصِحُّ مِنَ الله تَعالَى فِعْل مَا لَمْ تَجْرِ العَادَة بِفِعْله، كَخَلْق الحَيَاة فِي الحَجَر مَثَلا، لأَنَّ مُصحِّح تَعلُّق القُدْرَة الإِمْكَان لاَ الاعْتِيَاد، وَمِنَ هَذَا النَّوْع كَانَتِ المُعْجزَات وَالكَرامَات.

الرَّابِعَة : الحَيَاة وَالإِدْرَاك وَنَحْوهُما مِنَ الأَعْرَاض، لاَ يُشْتَرَط لِشَيْءٍ مِنْها بِنْيَة مَخْصُوصَة، وَإِنَّما يُشْتَرَطُ لَهَا المَحَل فِي الجُمْلَة، لاسْتِحالَة قِيَام العَرَض بِنَفْسه، خِلافاً لِمَن ضَلَّ.

الخَامِسَة : الحَيَاة شَرْط فِي جَمِيع الإِدْرَاك، فَحَيْث لاَ حَيَاة لاَ إِدْرَاك أَصْلاً، 194 لاسْتِحالَة وُجودِ المَشْرُوط/ بِدُون شَرْطِه.

1 ـ سقطت من نسخة ك.

2 ـ سقطت من نسخة ق.

إِذَا عَلِمْت هَذَا، فَاعْلَم أَنَّ التَّسْبِيح المُسْنَد إِلَى الحَصَى أَوِ التُّرَاب أَوِ الطَّيْر أَوْ نَحْو ذَلِك، إِنْ أُرِيدَ بِهَا الدِّلالَة عَلَى مَا مَرَّ فَلا إِشْكَال.

وَأَمَّا إِنْ أُرِيدَ النُّطْق، فَإِنْ أُرِيدَ بِذَلك بُروزُ الصَّوْت المُجرَّد، مِنْ غَيْر وُجودِ عِلْم وَلا إِدْرَاك أَصْلاً، فَلاَشَكَّ أَنَّ هَذَا يَصِحُّ فِي التُّرَاب وَغَيْره مِنَ الجَمَاد، لأَنَّ خَلْق الصَّوْت فِيهِ أَمْر جَائِز، كَمَا يُسْمَع مِنْ طَنِين البَابِ، وَصَلِيل الحَدِيد، وَخَرِير المَاءِ وَغَيْر ذَلِك، وَجَائِز أَنْ يَكُون لَفْظُه مُشْتمِلا عَلَى الحُروفِ، لأَنَّ كَوْن الحُرُوف مِنَ الحَلْق لَيْس بِأَمْر طَبعِي وَعَقْلِي وَاجِب، وَإِنَّما هُوَ أَمْرٌ جَعْلي[1] بِمُقْتَضى المَشِيئَة، فَلاَ مَانِع أَنْ يَخْلُقَها الله فِي أَيِّ مَحَل شَاءَ، وَأَيِّ جِرْمٍ أَرادَ، كَمَا يُسْمَع بَعْضُها مِنْسَائِر الأَجْرَام مُشاهَدة، وَإِذَا جَازَ ذَلِك فِي الجَمادِ فَفِي الحَيوَان الأَعْجَم أَحْرَى، وَيَجُوز أَنْ يَكُون ذَلِك فِي الحَيوَان مَعَ إِرادَة وَإِلْهَام لاَ يَنْتَهِي إِلاَّ إِدْرَاك المَعانِي الكُلِّية الَّذِي هُوَ خَاصِّيَة العَقْلِ.

وَأَمَّا إِنْ أُرِيدَ بِذَلِك الكَلاَم النَّفْسانِي، فَهَذا لاَ يَكُون لِلجَمادِ مَادَامَ جَماداً، لِتَوقُّفه عَلَى الحَيَاة، وَلاَ حَيَاة لِلجَمادِ، لأَنَّا لاَ نَعْنِي بِالجَمادِ إِلاَّ مَا لَيْس بِحَيٍّ مِنَ الأَجْرَام، كَالتُّرَاب وَالحَجَرِ وَالمَاء وَالنَّار وَنَحْوِها.

وَإِنْ أُرِيدَ مَعَ ذَلِك العِلْم وَإِدْرَاك المَعانِي الكُلِّية، كَالعِلْم بِتَنَزُّهِ الله تَعالَى عَنْ كُلِّ نَقْص، وَاتِّصَافِه بِكُلِّ كَمَال، فَهَذا لاَ يَكُون لِلجَمادِ وَلاَ لِلحيَوانِ الأَعْجَم، لِتَوقُّفه عَلَى العَقْل، وَالأَعْجَم لاَ عَقْلَ لَهُ، وَلِذَلِك لَمْ يُكَلَّف.

نَعَم، يَجُوزُ أَنْ يَخْرقَ الله عَادَته، فَيَخْلُق الحَيَاة فِي شَيْءٍ مِنَ الجَمادَات أَوِ الحَيَاة وَالعَقْل مَعاً، وَكَذا فِي العَجْماوَات، فَيَقَع مِنْه الإِدْرَاك وَالكَلام النَّاشِئ عَنْه، وَيخْرُج فِي تِلْك الحَالَة عَنْ كَوْنِه جَماداً أَوْ أَعْجَم، وَلاَ نَقُول إِنَّ ذَلِك مَوْجُود فِي

١ ـ وردت في نسخة ح : جعل.

كُلِّ جَمَاد وَفِي كُلِّ زَمَان، وَإِلاَّ بَطُل هَذَا القِسْم مِنَ المَوْجودَات، كَيْفَ ولَوْ كَانَ كَذلِك لَمْ يَكُن بِمُعجِزَة لِنَبِي وَلا كَرَامَة لِوَلِي، لأَنَّه مُعْتَادٌ حِينَئِذٍ. لاَ يُقَال لاَ مَحْذُور فِي بُطْلاَن هَذَا القِسْم، وَالمُعْجِزَة إِنَّما هِيَ النُّطْق، وَهُو غَيْر مُعْتَاد لاَ العِلْم.

لأَنَّا نَقُول أَمَّا أَوَّلا، فَإِنَّه لاَ مَحْذُور لَوْ لَمْ يَكُن ابْتِدَاء، أَمَّا بَعْد إِذْ وُجِدَ، فَلاَ مَعْنَى لادِّعَاء عَدمِه، وَهُو مَوْجُود بِضَرورَة الحِسِّ، وَإِنْكَاره مُكابَرَة.

وَأَمَّا ثَانِياً، فَلأَنَّ بَحْثَنا فِي كَلامِها النَّفْسِي، وَلاَ يَكُون إِلاَّ عَنْ عِلْم، وَرُبَّما وَقَع التَّصْريح مِنْها بِمَا هُوَ كَلام العُقَلاء المُشْتَمِل عَلَى المَعانِي، الَّتِي هِيَ مَدارِك العُقُول، كَمَا وَقَع ذَلِك لِلضَّب[1] بَيْنَ يَدَيْ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَذِلك البَعِير[2] وَالظَّبْيَة[3]، وَكُلُّ ذَلِك مَشْهُور <مَعْلُوم>[4] فِي السِّيَر.

وَبِالجُمْلَة، فَكُلُّ مَا تَقدَّم مِنْ تَسْبِيح الطَّعَام وَالحَصَى وَكَلام الضَّب وَنحْوه، جَائِز لاَ مَانِع مِنْه عَقْلا، وَقَدْ ثَبَت بِالنَّقْل الصَّحِيح وُقُوعُه فَوجَب القَوْل بِهِ، وَتَأْوِيلُه عَلَى مَا مَرَّ مِنَ الوُجوهِ، فَإِنْ كَانَ صَوْتاً أَوْ كَلاماً خُلِق مِنْ غَيْر شُعُور المُتَّصِف بِهِ، فَالإِعْجَاز وَقَع بِوُقوعِه عَلَى خِلاَف العَادَة، وَإِنَ كُنَّا نُجوِّز أَنْ يَكُونَ ذَلِك الكَلام مُودَعاً فِيهِ عَلَى الدَّوَام، فَلاَشَكَّ أَنَّ بُروزَه حَتَّى يُسْمَع غَيْر مُعْتَاد بِالضَّرورَة فَهُوَ خَارِق، وَإِنْ كَانَ كَلاماً نَفْسانِيا عَنْ عِلْم وَإِدْرَاك، فَفِي الجَمَاد ثَلاَثُ مُعْجِزَات: خَلْق الحَيَاة، وَخَلْقُ العِلْم، وَخَلْقُ الكَلاَم، وَفِي الحَيوَان الأَعْجَم مُعْجِزَتَان، وَهُمَا الأَخِيرَتانِ.

وَقَد جَرَيْنَا فِي هَذَا الكَلام كُلِّه عَلَى مَا هُوَ المَعْرُوف مِن اخْتِصَاص العَقْل 195 / بِالمَلَك وَالإِنْسَان وَالجِنِّ، وَهُم المُحمَّلُون أَعْبَاء التَّكالِيف، وَإِنَّ مَا سِوَى

1 ـ قصة كلام الضب تراجع في حياة الحيوان الكبرى/ 1 : 426 ـ 427.
2 ـ قارن ما ورد من كلام البعير بما جاء في حياة الحيوان الكبرى/ 1 : 130 ـ 131.
3 ـ قصة كلام الظبية تراجع في حياة الحيوان الكبرى/ 1 : 451.
4 ـ سقطت من نسخة ك.

هَؤُلاَء مِنَ الحَيوانَات لاَ عَقْلَ[1] لَهَا، وَقَدْ يَقَع فِي عِبارَات بَعْضِ العُلَمَاء مَا يُوهِم خِلاَف ذَلِك، وَقَدْ قَالَ <الله>[2] تَعالَى إِخْباراً عَنْ سُليْمَان عَليْه السَّلامِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾[3] الآيَة.

{مَناطِق الطَّيْر}

فَقالَ المُفَسِّرونَ صَاحَ وَرَشَان[4] عِنْد سُليْمَان، فَقَال أَتَدْرُون مَا يَقُول إِنَّه يَقُول: «لِدُوا لِلمَوْت وَابْنُوا لِلْخرَاب»[5] وَصَاحَ طَاوُوس فَقالَ إِنَّه يَقُول: «كَمَا تَدِينُ تُدَان»، وَصَاح هُدْهُد فَقالَ إِنَّه يَقُول: «مَنْ لاَ يَرْحَم لاَ يُرْحَم»، وَهَدرَت حَمامَة فَقالَ إِنَّها تَقُول: «سُبْحَان الأَعْلَى فِي سَمائِه وَأَرْضِه»، وَالحدأَة تَقُول: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِك إِلاَّ وَجْهَه»، وَالقَطَاةُ تَقُول: «مَنْ سَكَت سَلِم»، وَالبَبَّغَاء تَقُول: «وَيْلٌ لِمَن الدُّنْيَا هَمُّه» إِلَى غَيْر هَذَا مِمَّا ذَكَروا مِنْ أَنْوَاع الحَيوانَات وَمَا تَنطِقُ بِهِ[6]. وَهُوَ كُلُّهُ كَلاَم العُقَلاء، وَظاهِر كَلاَمِهِم أَنَّ ذَلِك قَدْ صَدَر مِنْها عَلَى الحَقِيقَة.

وَقَالَ القَاضِي أَبُو بَكْر بْن العَرَبِي[7] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلاَ خِلاَف عِنْد العُلَمَاء، أَنَّ الحَيوانَات كُلَّها لَهَا أَفْهَام وَعُقُول، وَقَدْ قَالَ الشَّافِعي[8]: «الحَمَام أَعْقَل الطَّيْر». وَقَد قَالَ عُلَمَاء الأُصولِيينَ: انْظُرُوا إِلَى النَّمْل كَيْفَ تَقْسِم كُلَّ حَبَّة تَدَّخِرُها نِصْفَيْن، لِئَلاَّ يَنْبُت الحَبُّ، إِلاَّ حَبُّ الكُزْبُر، فَإِنَّها تَقْسِم الحَبَّة مِنْه بِأَرْبَع، لأَنَّها إِذَا قُسِّمَت بِنِصْفَين نَبَتَت، وَإِذَا قُسِّمَت بِأَرْبَعة أَنْصَاف لَمْ تَنْبُت، وَهَذا مِنْ غَوامِض العُلُوم عِنْدَنا، وَأَدْرَكتْها النَّمْل، بِخَلْق الله ذَلِك لَهَا.

---

1 ـ وردت في نسختي ق و ك : عقول.
2 ـ سقطت من نسخة ح.
3 ـ تضمين للآية : 16 من سورة النمل.
4 ـ ما يتصل به من معلومات ينظر في حياة الحيوان الكبرى/ 2 : 210.
5 ـ راجع حياة الحيوان الكبرى/ 2 : 210.
6 ـ ذكر ما تنطق به الحيوانات ذكره الزمخشري في كتابه الكشاف/ 3 : 140.
7 ـ سبقت ترجمته في ص : 96.
8 ـ سبقت ترجمته في ص : 96.

قَال : قَالَ الأُسْتَاذ أَبُو المُظَفَّر شَاهْ فُور الإِسْفَرايِنِي[1] : وَلاَ يَبْعُدُ أَنْ تُدْرِك البَهائِم حُدُوث العَالَم، وَخَلْق المَخْلوقَات وَوَحْدانِية الإِلَه، وَلَكِنَّا لاَ نَفْهَم عَنْها وَلاَ تَفْهَمُ عَنَّا»[2] انْتَهى.

فَانْظُر هَذَا، وَالظَّاهِر أَنَّ البَهائِم مِنْ حَيْث إِنَّها بَهائِم، لاَ مَعْنَى لإِدْرَاكِها [مَعْنَى][3] حُدُوث العَالَم، وَإِنَ خُرِقَت العَادَة فِي شَيْء مِنْها، فَخُلِق لَهُ العَقْل، فَلاَ إِشْكَال فِي صِحَّة إِدْراكِه لِذَلِك، وَلاَ مَعْنَى لِلتَّعْبِير بلا يَبْعُد، وَأَمَّا مَا وَقَع مِنْ نِسْبَة العَقْل إِلَى البَهائِم فِي كَلاَم أَهْل العِلَم، فَالظَّاهِر أَنَّ المُرَاد بِهِ الإِلْهَام، لاَ مَا هُو مَادَّة العِلْم، وَلاَشَكَّ أَنَّ المُدبِّر الحَكِيم تَبارَك وتَعالَى قَدْ أَلْهَم كُلَّ حَي إِلَى مَصالِحِه الحَالِيَة فِي مَعاشِه وَمُتَقلَّبه وَمَثْوَاه، وَقْد تَسْبق الحِكْمَة الإِرَادِية فِي شَيْء مِنْ ذَلك بِأَمْر فِيهِ دِقَّة وَغُمُوض، فَيُلْهِمُه الله ذَلِك لِتَقُوم بِنيَتِه وَلاَ يَلْزَم مِنْ ذَلِك أَنْ يَطَّلِع عَلَى تِلْك الدَّقَائِق، مِنْ حَيْثُ إِنَّها كُلِّيات، وَهُوَ نَظَر العَقْلِ.

{اعْتِراضُ ابْنُ التِّلْمْساتِي عَلى الفَخْر الرَّازِي[4]}

وَلَمَّا ذَكَر الفَخْرُ فِي المَعالِم أَنَّ تَرَجُّح أَحَد طَرَفَيْ المُمْكِن المُساوِي، لاَ يَكُون إِلاَّ بِمُرجِّح، وَأَنَّ ذَلِك أَمْر ضَرُورِي، لأَنَّه مَرْكُوز فِي فِطَر الصِّبْيَان، بَلْ وَفِي فِطَر البَهائِم، فَإِنَّ الحِمَار إِذَا أَحَسَّ بِصَوْت الخَشَبة جَزِع، لأَنَّه تَقرَّر فِي فِطْرَته أَنَّ حُصُول صَوْت الخَشبَة بِدُون الخَشبَة مُحَال، أَنْكَر عَلَيْه ذَلِك شَرَفُ الدِّين بْنُ التِّلْمْسَاني[5]

1 ـ طاهر بن محمد الإسفرايني أبو المظفر، (... ـ 471) عالم بالأصول، مفسر من فقهاء الشافعية. صنف «التفسير» الكبير المشهور، وصنف في الأصول «التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين». الأعلام/ 6 : 46.

2 ـ من كتاب أحكام القرآن لابن العربي/ 3 : 449.

3 ـ سقطت من نسختي ق و ك.

4 ـ الإمام فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر، التيمي البكري الرازي (544 ـ 606هـ) إمام المتكلمين، وقدوة المفسرين وكبير الفقهاء الشافعيين، له : «البرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان». سير أعلام النبلاء/ 21 : 500 ـ وفيات الأعيان/ 4 : 248.

5 ـ عبد الله بن محمد بن علي شرف الدين أبو محمد الفهري المعروف بابن التلمساني (ت : 658هـ وقيل :

حَتَّى قَالَ : «وَأَمَّا المُبالَغة بِأَنَّه[1] مَرْكُوز أَيْضا فِي فِطْرَة البَهائِم، بِدَلِيل أَنَّها تَعْلَم أَنَّ صَوْت الخَشبَة بِدُون الخَشبَة مُحَال.

فَمِنْ أَعْجَب مَا يُذْكَرُ أَنَّ البَهائِم تُدْرِك قَضايَا كُلِّية وَلَوازِمها، وَلَوْ قُدِّر حِمَار أَوْ حَيوَان غَيْرُه لَمْ يُضْرَب قَطُّ بِخشَبة، لَمْ يَنْفُر مِنْ صَوْتِها البَتَّة، وَلَكِن إِذَا تكرَّر عَليْه ذَلِك التَّأَلُّم عِنْد سَمَاع حِسِّها تَخَيَّل مِنْ حِسِّها الأَلَم لِمُقارَنة[2] المُؤْلِم، وَعَدَم تَميُّز الانْفِكَاك فِي خَيالِه، كَمَا أَنَّ السَّلِيم يَنْفُر مِنَ الحَبْل المُبْرقَش لِمُقارَنة الأَذَى عِنْدَه لِهَذا الشَّكل/ 196، وَهَذا مِنَ الخَيالاَت لاَ مِنَ التَّمْييز العِلْمِي، وَالله أَعْلَم»[3] انْتَهى.

وَأَمَّا مَا تَقدَّم مِنْ مَنْطِق الطَّيْر المَحْكِي ومَا يُشْبِهُه، فَالجَوَاب عَنْه يُعْلَم مِمَّا مَرَّ، وَهُوَ أَنَّ ذَلِك شَيْء يُعْلَم مِنْ حَالِها فِيمَا زَادَ عَلَى القَدْر الَّذِي تَتخيَّلَه[4]، وَأَصْوَاتُها جَارِيَة عَلَى خَيالِها، وَيَجُوز أَنْ تَخْرق فِيهَا العَادَة أَحْياناً، فَيُخْلَق لَهَا العَقْل وَالعِلْم، وَقَد نَبَّهَ المُفَسِّرون عَلى نَحْو مِنْ هَذَا المَعْنَى.

قَالَ الإِمَام البَيْضَاوي فِي تَفْسِير الآيَة المَذْكورَة[5] : «النُّطْق وَالمَنْطِق فِي التَّعَارف كُلُّ لَفْظٍ، وَيُعَبَّر بِهِ عَمَّا فِي الضَّمِير مُفْرَداً كَانَ أَوْ مُركَّباً، وَقَد يُطْلَق لِكُلِّ مَا يُصوِّت <بِهِ>[6] عَلَى التَّشْبيه، كَقوْلِهِم نَطَقَت الحَمامَة، وَمِنْه النَّاطِق وَالصَّامِت لِلحَيوَان وَالجَمَاد، فَإِنَّ الأَصْوَات الحَيوانِيَة مِنْ حَيْثُ إِنَّها تَابِعَة لِلتَّخيُّلات بِمَنْزِلَة العِبارَات، سِيَمَا وَفِيهَا مَا يَتفَاوَت بِاخْتِلاَف الأَغْرَاض بِحَيْث يَعُمُّها مِنْ جِنْسِه.

644هـ). كان أصوليا متكلما دينا ، أخذ عن تقي الدين المقترح. من تصانيفه : «إرشاد السالك إلى أبين المسالك» في الخلاف. طبقات الشافعية لابن السبكي/ 5 : 60.

1 ـ وردت في نسخة ح : فإنه.

2 ـ وردت في نسختي ق و ك : لمقارنته.

3 ـ نص منقول مع بعض التصرف من شرح المعالم مخطوط الخزانة العامة رقم : 230 ق. ص : 74.

4 ـ وردت في نسخة ح : تخيله.

5 ـ المقصود بها قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾.

6 ـ سقطت من نسخة ح.

وَلَعَل سُلَيْمَان عَلَيْه الصَّلاَة وَالسَّلام مَهْمَا سَمِعَ صَوْت حَيَوَان، عَلِمَ بِقُوَّتِه القُدُسِيةِ التَّخيُّل الَّذِي صَوَّتَه وَالغَرَض الَّذِي تَوخَّاه بِهِ، قَالَ : وَمِنْ ذَلِك مَا حُكِيَ أَنَّه مَرَّ بِبُلْبُل يُصَوِّت وَيَتَرَقصُ فَقَالَ : يَقُول «إِذَا أَكَلْتَ نِصْفَ ثَمَرة فَعَلَى الدُّنْيَا العَفَاءُ»، وَصَاحَت فَاخِتَة[1] فَقَال إِنَّها[2] تَقُول «لَيْتَ الخَلْق لَمْ يُخْلَقُوا» وَلَعلَّه كَانَ صَوْتَ البُلْبُل عَنْ شَبَع وَفَرَاغ بَالٍ، وَصِيَاح الفَاخِتَة كَانَ عَنْ مُقَاسَاة شِدَّة وَتَأَلُّم قَلْب»[3] انْتَهَى.

وَقَال فِي قَوْلِه تَعالَى بَعْدَه :«﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ﴾[4] الآيَة، كَأَنَّها لَمَّا رَأَتْهُم مُتَوجِّهينَ إِلَى الوَادِي نَفَرَت عَنْهُم مَخافَةَ[5] حَطْمِهم، فَتَبِعَها غَيْرها، فَصاحَت صَيْحَة نَبَّهَت[6] بِهَا ما بِحَضْرتِها مِنَ النَّمْل فَتَبِعَها، فَشَبَّه ذَلِك بِمُخاطَبة العُقَلاء وَمُنَاصَحتِهِم، وَلِذَلكَ اجْرُوا مَجْرَاهُم، مَعَ أَنَّه لاَ يَمْتَنِع خَلْق الله فِيهَا العَقْل وَالنُّطْق»[7] انْتَهَى.

وَقَد انْجَرَّ بِنَا القَوْل حَتَّى كِدْنا نَخْرُج عَمَّا نَحْنُ فِيهِ، فَلْنَرجِع إِلَى غَرَضِنا، وَهُو أَنَّ الكَائِنَات كُلَّها شَاهِدَة بِوجُود الله تَعالَى، وَوَحْدانِيته، وَاتِّصَافه بِغَايَة الكَمَال، وَمُفْصِحَة بِذَلِك كُلِّها، إِمَّا مَقالاً وَإِمَّا حَالاً، وَهِيَ كُلُّها مُسْتَسْلِمَة لِقَهْرِه تَعالَى، مُنْقادَة لِقُدْرتِه، خَاضِعَة لِعَظمَتِه، مُنادِيَة عَلَى نَفْسِهَا بِالافْتِقَار، وَغايَة الاحْتِيَاج إِلَيْه، وَدَوَام الالْتِجَاء وَالاسْتِنَاد إِلَيْه، بَرِيئَة مِنَ التَّعاصِي عَنْ حَوْلِه وَقُوَّتِه، وَالخُرُوجِ عَنْ حِيطَتِه وَكَفالَتِه، وَالاسْتِخفَاء عَنْ عِلْمِه وَكِلاَءَتِه، وَخَرَج عَنْ هَذِه الجُمْلَة كَافِر

1 ـ للوقوف على تعريف الفاختة وخصائصها يراجع كتاب حياة الحيوان الكبرى/ 2 : 27.
2 ـ وردت في نسخة ك : إنه.
3 ـ أنوار التنـزيل وأسرار التأويل : 501.
4 ـ النمل : 18.
5 ـ في ق : مخالفة.
6 ـ في ق : تنبهت.
7 ـ أنوار التنـزيل وأسرار التأويل : 501.

الإِنس وَالجِنِّ، لِمَا سَبَق مِنْ حِكْمَة الله تَعالَى وَمَشِيئتِه أَنْ يَمْلأَ جَهنَّم مِنَ الجِنَّة وَالنَّاس أَجْمَعِين، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[1].

{ذَاتُ الكَافِر كُلُّها شَاهِدَة بِمَا جَحَد}

وَاعْلَم أَنَّ الكَافِرَ وَإِنَ جَحَد، فَإِنَّ ذَاتَه كُلَّها شَاهِدَةٌ بِمَا جَحَد، وَمُعْتَرِفَة بِمَا أَنْكَر مِنْ وَحْدانِيَة الله تَعالَى، وَمَا لَهُ مِنَ الكَمالِ، وَهِي خَاضِعَة لله تَعالَى، مُسْتَسلِمَة لَهُ كَرْهاً مِنْه، كَمَا قَالَ تَعالَى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ (15)﴾[2]، وَمَنَعَه الله [تَعالَى][3] الاعْتِرَاف بِذَلِك لِتَنْفذ مَشِيئَته فِيهِ فِي الدَّارَيْن، فَفِي الدُّنْيا لِيَكُون جَزَرَة لِسُيُوف الله تَعالَى وَنَهْبَة لِلْغانِمِينَ، وَفِي الآخِرَة لِيَكُون مِنَ الخَاسِرِينَ، وَلَمْ يَتَوقَّف شَيْء عَلَى شَهادَتِه فَإِنَّ الله تَعالَى قَدِ اسْتَغنَى عَنْ شَهادَة الكُفَّار وُجُوداً وَعِلْماً:

{اسْتِغْناءُ الله تَعالَى عَنْ شَهادَة الكُفَّار وُجوداً وَعِلْماً}

أَمَّا وُجوداً: فَلأَنَّه تَعالَى قَائِم بِنَفْسِه، مُسْتَغْنٍ عَنْ تَعرُّف المُتَعرِّفِين، وَعِلْم العَالِمِين، وَإِيمَان المُؤْمِنِين، وَعِبَادَةِ العَابِدِينَ، وَإِنَّما/ [197] أَوْجَد الخَلْق وَتَعرَّف إِلَيْهِم، لِمَا يَعُود إِلَيْهِم مِنْ رِضْوانِه وَسَوابِغ فَضْلِه، وَأَوَارِد كَرَمِه، لاَ لِشَيْء يَعُود إِلَيْه تَعالَى، لِتَعالِيه عَنِ الأَغْرَاض وَالإِعْرَاض، وَاسْتِغنَائِه عَنِ النَّفْع وَالدَّفْع، تَبارَك الله رَبُّ العَالَمِينَ.

وَأَمَّا عِلْماً: فَلأَنَّه تَعالَى مَعْلُوم عِنْد العَارِفِينَ الوَاصِلِين، بِمَا أَشْهدَهُم وَكَشَف الحُجُبَ[4] عَنْ بَصائِرِهِم، حَتَّى رَأَوْه بِعُيُون قُلوبِهِم، وَعِنْد السَّائِرِينَ إِلَيْه بِآثَار[5] قُدْرتِه

---

1 ـ تضمين للآية: 99 من سورة يونس.

2 ـ الرعد: 15.

3 ـ سقطت من نسختي ق و ك.

4 ـ وردت في نسخة ك: الحجاب.

5 ـ في ق: بأثر.

مِنْ بَدائِع صَنْعتِه، وَقَدْ قَامَتِ الشَّهادَة عَلَى ذَلِكَ مِنَ المَلائِكَة أَجْمَعِين، وَالأَنْبِيَاء وَالمُرْسلِين، وَجَمِيع عِبَاد الله المُؤْمِنِين، وَالكَائِنَات كُلِّها كَمَا مَرَّ مِنَ الشَّاهِدِينَ، وَلاَ حَاجَة إِلَى اعْتِرَاف الكَافِرِينَ، فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾[1] وَسَيُنْطِق الله تَعالَى الكَافِر فِي الآخِرَة، لِيَكُون اعْتِرَافُه[2] عَلَى نَفْسِه بِالكُفْر حُجَّة عَلَيْه وَسَبَباً يَجُرُّ الوَبَال إِلَيْه، فَسُبْحَان مَنْ جَعَل لِسَانَه حُجَّة عَلَيْه فِي الدَّارَيْن بِالسُّكُوت فِي الدُّنْيَا وَبِالنُّطْق فِي الآخِرَة، وَذَلِك أَوَّل دَلِيل عَلَى انْقِيَادِه لِحُكْم الله تَعالَى، وَجَرَيَانِه عَلَى مُقْتَضَى مَشِيئَتِه، نَسْأَله سُبْحانَه أَنْ يُعامِلَنا بِفَضْلِه، وَيُدْخِلَنا مِنَ البَابِ الأَيْمَن بِجُودِهِ وَطَوْلِه.

---

1 ـ تضمين للآية : 38 من سورة فصلت.

2 ـ وردت في نسخة ق : إعرافه.
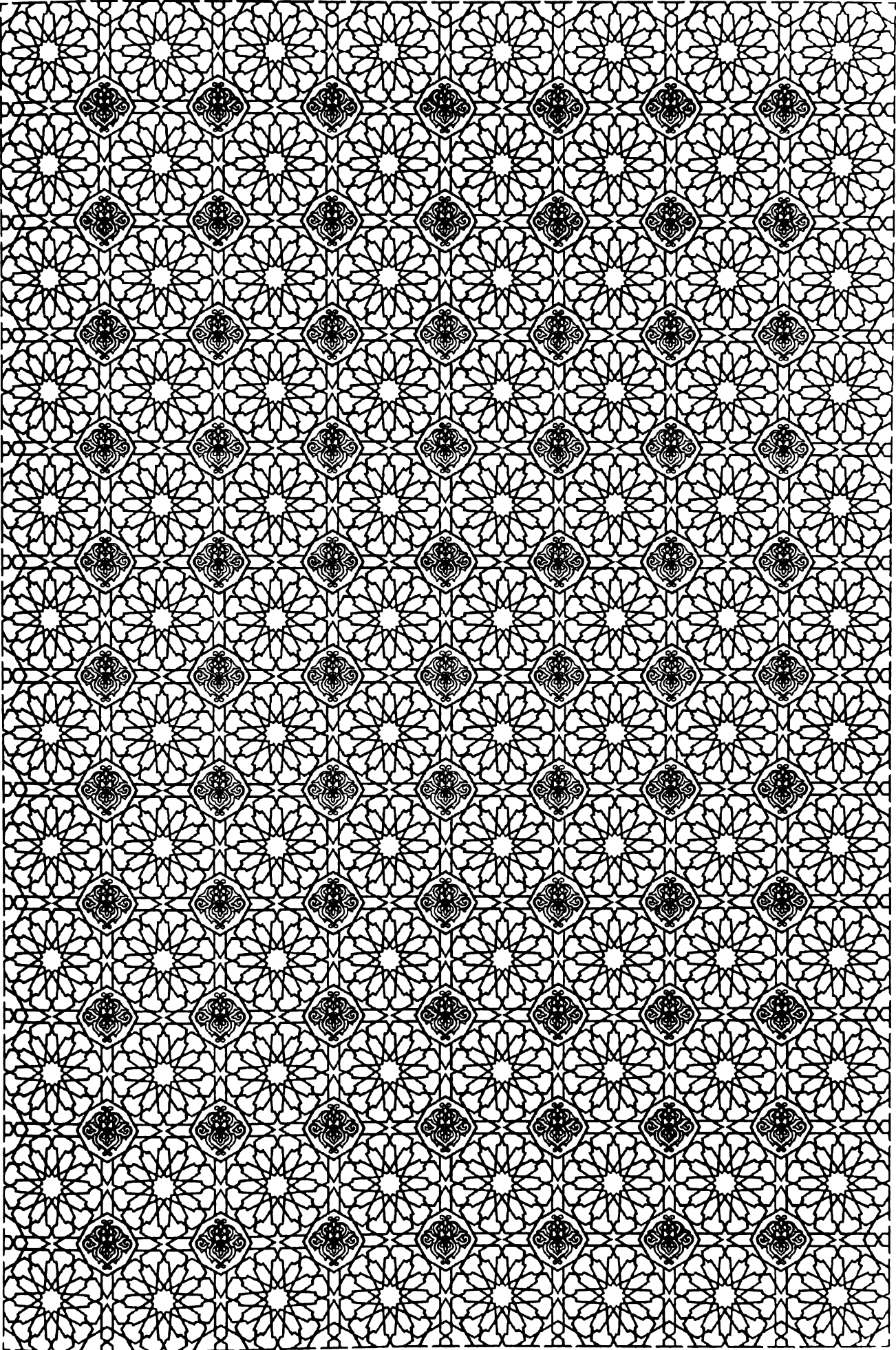
الفَصْلُ الرَّابِعُ

فِي بَيَانِ احْتِوَاء هَذِه الكَلِمَة المُشرفَة عَلَى مَعانِي سَائِر الأَذْكارِ وَدِلالَتِهَا عَلَيْها كُلِّها مُطابَقَة أَوْ تَضمُّنا أَوْ الْتِزامًا[1]

فَهِي الفَائِدَة الجَامِعَة المُحِيطَة، وَبذَلِك شَرُفَت كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَفْضَل مَا قُلْتُه أَنَا وَالنَّبِيئُون مِنْ قَبْلِي لاَ إِلَه إِلاَّ الله»[2].

قَالَ بَعْض المَشايِخ : «وَهَذِه الكَلِمَة نِسْبتُها مِنَ الأَذْكَار كُلِّها، <نِسْبَة>[3] اسْم الله الأَعْظَم مِنَ الأَسْمَاء الحُسْنَى، فَإِنَّه سَارٍ فِيهَا كُلها، وَهِي كَذَلِك سَارِيَة فِي الأَذْكَار كُلِّها»، فَقَد ثَبَتَت لَهَا مَزِيَتَانِ : إِحْدَاهُما، الأَشْرفِية : أَيْ أَنَّها أَشْرَف مِنْ غَيْرِها، وَالأُخْرى، الكِفايَة : بِمَعنَى أَنَّها تَكْفِي عَنْ كُلِّ مَا سِواهَا، وَلَيْس كُلُّ مَا سِواهَا يَكْفِي عَنْها.

{النَّظَرُ فِي الكَلمَة المُشرفَة مَعَ غَيْرِها إِفْراداً وَتَرْكِيباً}

وَبَيان الأَمْرَيْن مَعاً : أَنْ نَنْظُر فِيهَا مَع غَيْرِها إِفْراداً وَتَرْكِيباً.

أَمَّا إِفْراداً، فَهُو أَنَّا نَقُول : كُلَّ ذِكْر مِنَ الأَذْكَار، أَوْ دُعَاء أَوِ اسْتِغفَار، أَوْ تَعوُّذ أَوْ غَيْر ذَلِك، فَلاَبُدَّ أَنْ يُضَاف إِلَى الله تَعالَى، بِذِكْر اسْم مِنْ أَسْمائِه جَلَّ وَعَزَّ، إِمَّا الاسْم الأَعْظَم وَهُو الله، وَإِمَّا اسْم آخَر كَالعَزِيز أَوِ الكَرِيم مَثلاً، ولاَشَكَّ أَنَّ الكَلِمَة المُشرفَة قَدِ اشْتمَلَت عَلى الاسْمِ الأَعْظَم وَهُو الله تَعالَى، فَإِنَّ كُلَّ شَيْء مِمَّا

---

1 ـ دلالة المطابقة والمطابقية هي : دلالة اللفظ على تمام مسماه، كدلالة لفظ البيت على جميعه، وهي تشمل الحقائق، أي استعمال الكلمات في معانيها الحقيقية، وضعا أو عرفا أو شرعا.
ـ دلالة التضمن هي دلالة اللفظ على الجزء اللازم لمسماه، كدلالة لفظ البيت على سقفه.
ـ دلالة الالتزام هي دلالة اللفظ على لازم مسماه الخارج منه، كدلالة السقف على الحائط.

2 ـ سبق تخريجه في ص : 24.

3 ـ سقطت من نسخة ح.

سِوَاها مُشْتمِلا عَليْه أيْضا، فَقَد كَفَت عَنْه، وَإنْ كَان مُشْتمِلا عَلَى غَيْره مِنَ الأَسْمَاء، فَلا شَكَّ أَنَّ هَذا الاِسْم أَشْرَف وَأَعَمّ، وَسَيأْتِي بيَان هَذا فِي فَصْل عَلى حِدَتِه.

وَأَمَّا تَرْكِيباً : فَيكْفِينَا بيَان أَخوَات هَذِه الكَلمَة المُشرفَة، وَبيَان أَنَّها مُنْطوِية فِيهَا، وَهِي : سُبْحَان الله، وَالحَمْد لله، وَالله أَكْبَر، وَلاَ حَوْلَ وَلا قُوَّة إلاَّ بِالله العَلِّي العَظِيم، وَهذِه الأَرْبَع مَعَ الكَلمَة المُشرفَة، هِي الأَذْكَار الخَمْسَة، الَّتِي هِيَ أَفْضَل الكَلاَم وَغِرَاس الجِنَان، وَهِي البَاقِيَات الصَّالِحَات، وَقَدْ وَرَد فِيهَا الفَضْل العَظِيم فِي الأَحادِيث الكَثِيرَة.

{تَفْسِيرُ مَعانِي البَاقِياتُ الصَّالِحَات}

فَمَعْنَى سُبْحَان الله، تَنْزِيه الله تَعالَى عَنْ كُلِّ عَيْب، وَتَبرِئَته منْ كُلِّ نَقْص، وَذَلِك هُو الشَّطْر الأَوَّل مِنْ مَضْمُون الهَيْلَلَة.

وَمَعْنَى الحَمْد لِله، الثَّنَاء عَليْه تَعالَى بِكُلِّ كَمَال، وَذَلِك هُوَ الشَّطَر الآخَر.

198 وَمَعْنَى الله أَكْبَر، إِثْبَاتُ/ الرِّفْعَة وَالمَكانَة وَالعَظْمَة، وَذلِك لاَزِم عَمَّا وَجَب لَهُ تَعالَى مِنَ التَّنَزه عَنْ جَمِيع النَّقَائِص، وَالاتِّصَاف بِجَمِيع الكَمالاَت، الَّذِي هُو مَدْلُول الهَيْلَلَة.

وَمَعنَى لاَ حَوْل وَلاَ قُوَّة إلاَّ بالله، التَّبرِّي مِنَ الاقْتِدَار، وَالتَّأْثِير فِي شَيْء، وَإِفْرَادُ الله تَعالَى بِالقُدْرَة وَجَمِيع آثَارِها، وَذَلِك بَعْض مَا يَنْدرِج فِي الهَيْللَة.

فَقَد بَانَ لَكَ رُجُوع الكَلِمَات الأَرْبَع إِلَى الكَلِمة المُشرفَة، إمَّا بِطَرِيق الجُزْئية وَإِمَّا بِطرِيق المُساوَاة، وَبِذَلِك تَوَسَّطتْها كَمَا رَسَمْنا، وَهُو أَكْثَر مَا تَجِيء عَليْه مُرَتَّبة، وَإِنْ وَرَد لاَ يَضُرك بِأَيَّتِهِن بَدَأْت[1]، فَهِي وَاسِطَة عِقْدِها وَنُقْطَة دَائِرَتِها.

1 ـ يقصد به حديث سمرة بن جندب الذي ستأتي ترجمته لاحقا.

وَاعْلَم أَنَّ هَذِه البَاقِيَات الصَّالِحَات، قَد اشْتَمَلَت عَلَى جَمِيع عُلُوم التَّوْحِيد، عَلى الاسْتِيفَاء وَالاسْتِقصَاء، كَمَا فَهِمْت مِنْ هَذِه الزُّمْرة الَّتِي أَشَرْنا بِها فِي تَفْسِيرهَا، وَقَد تَنبَّه لِذِكْر ذَلِك صَاحِب[1] الأَسْرَار العَقْلِية رَحْمَة الله عَليْه، وَمَباحِث ذَلِك مَوْكُولَة إِلَى عِلْم الكَلاَم، وَالقَدْر الَّذِي يَحْتَاج إِليْه الفَقِير السَّالِك بِهَا هَاهُنا يَتقَرَّر بِالاخْتِصَار فِي ثَلاثَة مَباحِث :

المَبْحَث الأَوَّل

{للذَّاكِر فِي الأَذْكَار الخَمْسَة وَجْهيْن مِنَ الفَهْم}

اعْلَم أَنَّ لِلذَّاكِر فِي هَذِه الأَذْكَار الخَمْسَة وَجْهَين مِنَ الفَهْم، إِذَا رَتَّبَها كَمَا رَتَّبْناهَا أَوَّلا فِي الكِتَاب :

الأَوَّل، أَنْ يَسْتَحضِر عِنْد التَّسْبِيح تَنْزِيه الله تَعالَى، أَوْ تَنَزُّهه عَنْ جَمِيع النَّقَائِص، مَا عَلِمْنا مِنْها وَمَا لَمْ نَعْلَم.

وَعِنْد ذِكْر التَّحْمِيد الثَّنَاء عَلَى الله تَعالَى، بِجَمِيع الكَمالاَت، مَا عَلِمْنا مِنْها وَمَا لَمْ نَعْلَم، وَاتِّصافِه بِذَلِك.

وَعِنْد ذِكْر التَّهْلِيل، الحُكْم بِأَنَّ المَوْصُوف بِمَا ذُكِر مِنَ التَّنَزه عَنْ جَمِيع النَّقْص، وَثُبُوت كُل الكَمَال وَاحِد، لاَ شَرِيك لَهُ فِي ذَاتِه وَلاَ صِفَاتِه، أَوْ ثُبُوت ذَلِك التَّفَرُّد لَهُ تَعالَى.

---

1 ـ مظفر عبد الله بن علي بن الحسين أبو الفتح تقي الدين، المعروف بالمقترح (560 / 612هـ)، من فقهاء الشافعية بمصر، برع في أصول الدين والخلاف، من تصانيفه : شرح المقترح في المصطلح للبروي، وشرح الإرشاد في أصول الدين. الأعلام/ 7 : 256.

وَعِنْد ذِكْر التَّكْبِير، الحُكْم بِأَنَّ الله تَعالَى المُنْفَرِد بِمَا ذُكِر مِنَ الكَمَال، أَكْبَر كَمالاً وَعَظَمَة وَجَلالاً مِمَّا نَظُن وَنَعْتَقِد ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[1]، «لاَ أُحْصِي ثَنَاء عَلَيْك»[2]، «سُبْحانَك مَا عَرَفْنَاك حَقَّ مَعْرِفَتِك»، «العَجْز عَنِ الإِدْرَاك إِدْرَاكٌ».

فَإِذا بَلَغ الذَّاكِر إِلَى هَذَا المَقَام، وَبَلَغ مِنَ التَّوْحِيد مُنْتهَى المَرَام، أَوْشَك أَنْ تَظُنَّ نَفْسه الجَاهِلَة النَّاقِصَة، أَنَّها قَدْ أَحْرَزَت قَصَب السَّبْق فِي مَيْدَان الأَدَب، وَأَنَّها قَدْ قَضَت مِنَ الحُقُوق مَا وَجَب، وَبَلغَت مِنَ المَعْرِفَة كُل أَرَب، وَهَذا هُو مِفْتَاح بَاب الدَّعْوَى، وَالخُرُوج عَنِ التَّقْوَى، فَيأْتِي عِنْد ذَلِك بِالحَوْقَلة[3] إِشْعاراً لِنَفْسِه، أَنَّ كُلَّ ذَلِك مِنَ الله تَعالَى لاَ مِنْ نَفْسِه وَلاَ عَقْلِه وَحَدْسِه، وَأَنَّ كُلَّ مَا وَقَعَ لَهُ مِنَ الأَدَب أَوِ المَعْرِفَة أَوِ الرُّشْد فَفَضْلٌ مِنَ الله تَعالَى وَكَرمٌ مَحْض ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[4]، «وَالله لَوْلا الله مَا اهْتَدَيْنا»[5]، فَيُزِيل نَفْسَه مِنَ البَيْن، وَلاَ يُثْبِت لَها فِعْلا وَلاَ حَوْلاً وَلاَ قُوَّة، فَكَمَا لاَ يَجعَل لِغَيْرِه مِنْ سَائِر المَوْجودَات شِرْكَة مَعَ الله تَعالَى، كَذلِك لاَ يَجْعَل لِنَفْسِه شِرْكَة مَعَ الله تَعالَى، وَبِذَلِك يَكْمُل التَّوْحِيد، وَلِهَذا كَانَتِ الحَوْقَلَة خِتَاماً.

وَقَدعَلِمْت مِمَّا قَرَّرْنا، أَنَّ التَّوْحِيد قَدْ كَمُل بِدُونِها، أَعْنِي تَوْحِيد العَامَّة، وَأَمَّا تَوْحِيد الخَاصَّة، فَقَد كَمُل بِدُونِها أَيْضاً فِي حَقِّ المُخْلِصِين، أَرْبَاب النُّفُوس القُدُسِية، لاَ فِي حَقِّ غَيْرِهم، وَلِهَذا تَسْقُط الحَوْقلَة فِي بَعْض الرِّوَايَات، وَتُذْكَر فِي بَعْض، وَالله أَعْلَم.

1 ـ تضمين للآية : 91 من سورة الأنعام.
2 ـ تضمين لحديث أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب : ما يقال في الركوع والسجود. والترمذي في كتاب الدعوات، باب : ما جاء في عقد التسبيح باليد.
3 ـ أي قوله : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.
4 ـ تضمين للآية : 43 من سورة الأعراف.
5 ـ تضمين لبيت ينسب لعامر بن الأكوع الصحابي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ونصه :

اللهُـمَّ لَوْلاَ أَنْـتَ مَا اهْتَدَيْنَـا   وَلاَ تَصدَّقْنـا وَلاَ صَلَّيْـنَـا

الطبقات الكبرى/ 4 : 470.

199 الوَجْه الثَّانِي : أَنْ يَسْتَحضِر عِنْد ذِكْر التَّسْبِيح، تَنَزُّه الله تَعالَى/ عَنِ النَّقائِص كُلِّها، وَفِي ذَلِك اتِّصافه بِجَمِيع الكَمَال، إِذْ لَوِ انْتَفَى شَيْء مِنَ الكَمَال لَزِم ثُبُوت مُقابِلِه، وَهُوَ نُقْصَان، مَثلاً إِذَا انْتَفَى العِلْم ثَبت[1] الجَهْل وَهَكَذا، فَيَلْزَم مِن انْتِفَاء جَمِيع النَّقائِص عَلَى العُمُوم الاتِّصَاف بِجَمِيع الكَمَال، فَيكُون التَّسْبِيح مُوفِياً بِجَمِيع مَا يَعْتَقِد فِي جَانِب الله تَعالَى.

فَإِذا قَالَ الذَّاكِر ذَلِك مُعْتَقِدا لَهُ، كَانَ قَدْ وَحَّد الله تَعالَى، وَمَجَّدَه بِكُلِّ مَا يَنْبَغِي لَهُ، وَهذِه نِعْمَة عَظِيمَة يُطْلَب مِنْه شُكْرُها، فَيقُول الحَمْد لله شُكْرا لِهَذِه النِّعْمَة، وَعَلَى مَا أَسْدَى مِنَ المَعْرِفَة، وَأَلْهَم مِنَ الحَقِّ، وَوَفَّق للاعْتِرَاف بِذَلِك وَالإِفْصَاح بِه.

ثُمَّ إِذَا عَمِلَ بِمَا يَحِق لَهُ مِنْ تَوْحِيد الله تَعالَى، وَمِنَ الشُّكْر عَلَى ذَلِك، أَوْشَك أَنْ تَدَّعِي نَفْسه شِرْكَة فِي هَذَا العَمَل، وحِينَئذ يَقُول : «لاَ إِلَه إِلاَّ الله» إِعْلاَما لِنَفْسِه أَنَّ الله تَعالَى مُنْفرِد فِي مُلْكِه، وَأَنَّ كُلَّ مَا وَقَع مِنَ العَبْدِ مِنَ العَمَل اللِّسَانِي[2] أَوِ الجناني[3] [أَوْ غَيْرهُما][4] فَمِنَ الله تَعالَى إِلْهاماً وَتَوْفِيقاً وَاخْتِراعاً، لاَ شَرِيك لَهُ فِي ذَلِك.

فَإِذا أَتَى بِمَا ذُكِرَ مِنْ كَمَال الله تَعالَى، وَانْفِرادِه فِي مُلْكِه وَتَوَحُّده بِالكَمَال، أَوْشَك أَنْ تَسْتَعظِم النَّفْس أَحْكَام الرُّبُوبِية المَذْكورَة وَتَسْتَغرِب مَا أُضِيف إِلَى الله تَعالَى مِنْ ذَلِك الكَمالِ، وَرُبَّما تَوهَّمَت أَنَّه لاَ مزِيد عَلى ذَلِك، فَحِينئِذ يَقُول : «الله أَكْبَر»، إِشْعاراً لِنَفْسِه أَنَّ عَظمَة الله تَعالَى فَوْقَ مَا تَسْمُو إِلَيْه العُقُول، وَورَاء مَا تَصِل إِلَيْه الأَوْهَام وَالظُّنُون.

---

1 ـ وردت في نسختي ق و ك : أثبت.

2 ـ العمل اللساني هو الراجع إلى القول باللسان، ويتمثل في التسبيح والتهليل.

3 ـ العمل الجناني هو المتصل بالجنان وما ينطوي عليه من عقائد إيمانية، تأخذ مظهرا لها وترجمانا عنها : الصلاة والزكاة والصدقات مثلا.

4 ـ ساقط من نسخة ق.

وَهَذا القَدْر هُوَ مُنْتهَى سَيْر السَّائِرينَ، وَمَطْمَح النَّاظِرِينَ، فَيُوشِكُ[1] أَنْ يَخْتَلج فِي النَّفْس <أَيْضاً>[2] عُجْبٌ وَدَعْوى كَمَا فِي الوَجْه الأَوَّل، فَيأْتِي بِالحَوْقَلَة مَحْوا لبَقايَا النَّفْسِ وَاسْتِئصَالاً لِعلَلِهَا.

وَاعْلَم أَنَّ الأَنْسَب فِي هَذا الوَجْه فَصْل الجُمَل، وَالأَنْسَب فِي الوَجْه الأَوَّل وَصْلهَا، فتَدَبَّر ذَلِك تَجدْه بيِّناً.

فَإِنْ قُلْتَ : إِذَا كَانَ التَّكْبير يَدُلُّ عَلَى كَوْن الله تَعالَى أَعْظَم مِمَّا ذُكِر قَبْلَه، كَانَ التَّكْبير دَالاًّ عَلَى أَزْيَد مِمَّا يَدُل عَليْه التَّهْلِيل، وَذلِك خِلاَف مَا قَرَّرْتُم فِي الهَيْللَة، أَنَّها تكْفِي عَنْ غَيْرِهَا.

قُلْنا : لَيْس مَعْنَى الهَيْلَلَة، الدِّلالَة عَلَى انْفِرَاد الله تَعالَى بِمَضْمُون[3] مَا عَلِمْنا مِنَ الكَمالِ فقَط، بَلِ الدِّلالَة عَلَى انْفِرَاد الله تَعالَى بِالأُلوهِية، وَالأُلوهِية تَقْتضِي ثُبُوت جَمِيع الكَمَال، مَا عَلِمْنا وَمَا لَمْ نَعْلَم، وَانْتِفَاء جَمِيع النَّقْص مَا عَلِمْنا وَمَا لَمْ نَعْلَم، وَالتَّكْبير مَلْحُوظ فِيه مَا عَلِمْنا، بِمَعْنَى أَنَّ الله تَعالَى أَعْظَم وَأَجَّل مِمَّا عَلِمْنا، وَكُل مَا عَلِمْنا وَمَا لَمْ نَعْلَم دَاخِلٌ فِي مَضْمُون الأُلُوهِية، الَّتِي اقْتَضَت الهَيْلَلة انْفِرَاده تَعالَى بِهَا، <فَالتَّكْبِير>[4] إِمَّا جُزْء وَإِمَّا مُسَاوٍ وَلاَ زَائِد فَافْهَم.

---

1 ـ وردت في نسخة ح : فأوشك.
2 ـ سقطت من نسخة ح.
3 ـ وردت في نسخة ق : بمضمن.
4 ـ سقطت من نسخة ك.

المَبحث الثَّاني

{اخْتلاَف مَشارِب وَمفْهُومَات الأَذْكَار الخَمْسَة}

اعْلَم أَنَّ هَذِه الأَذْكَار الخَمْسَة، وَإِنْ كَانَت كُلُّها دَائِرَة عَلَى مَرْكَز التَّوْحِيد، وَمُدَنْدِنَة حَوْلَ التَّفْرِيد والتَّمْجِيد، هِيَ مُخْتَلِفة المَفْهُومَات، وَمُتفَاوِتَة الاعْتِبارَات، كَمَا عَلِمْت مِنْ تَفْسِيرِها[1]، فَلَزِم مِنْ ذَلِك اخْتِلاَفُ مَشارِبِها، وَاخْتِلاَف أَحْوَال ذَاكِرِيهَا، فكَان لِكُلٍّ مِنْها مَذَاق غَيْر مَذَاق الآخَر، وَثَمرة غَيْر ثَمَرة الآخَر، وَلاَ رَيْب أَنَّ مَشْرَب كَلْمَة الإِخْلاَص هُوَ أَعْذَبُ[2] المَشارِب، وَمَذْهَبها هُوَ أَوْضَح المَذاهِب، وَمَنْصِبُها أَجَلُّ المَنَاصِب، وَمَنْقَبتُها أَشْرَف المَناقِب، وَهُو مَشْرَب الصِّدِيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الَّذِي لَمْ تَطْلع الشَّمْس وَلاَ غَرُبَت بَعْد النبيئِينَ وَالمُرْسَلِين عَلَى أَفْضَل مِنْه، فَقَد رُوِيَ <أَنَّ>[3] هِجِّيرَى أَبِي بَكْر : «لاَ إِلَه إِلاَّ الله».

{أَذْكَار الخُلفَاء الأَرْبعَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ}

200 / وَقَال الإِمَام السَّاحِلي[4] فِي بُغْيَتِه[5] : «وَقَد وَرَد عَن السَّلَف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، مَا يَدُلُّك عَلَى أَنَّ الأَذْكَار بِحَسَب الأَحْوَال، فَمِنْ ذَلِك مَا رُوِيَ أَنَّ هِجِّيرَى[6] أَبِي بَكْر «لاَ إِلَه إِلاَّ الله»، وَذَلِك أَنَّه <كَانَ>[7] لاَ يَرَى فِي الدَّارَيْن غَيْر الله تَعالَى، فَكَانَ هِجِّيرَاهُ يَحْفَظ عَليْه مَقامَه مِنْ عِلَلِ النَّفْس فِي ذَلِك.

1 ـ وردت في نسخة ق : بتفسيرها.
2 ـ وردت في نسخة ك : أعظم.
3 ـ سقطت من نسخة ك.
4 ـ سبق التعريف به في ص : 13.
5 ـ هو كتاب «بغية السالك في أشرف المسالك» مخطوط الخزانة العامة رقم : 1691 د.
6 ـ الهجير هو الدأب والعادة.
7 ـ سقطت من نسخة ك.

وَمِنْ ذَلِك مَا رُوِيَ أَنَّ هِجِّيرَى عُمَر، كَانَ «الله أَكْبَر»، وَذَلِك لأَنَّه كَانَ يَرَى مَا دُونَ الله صَغِيراً حَقِيراً، فِي جَنْب عَظَمَة اللهِ [تَعالَى][1]، فَكَان هِجِّيرَى يَحْفَظ عَلَيْه مَقامَه مِنْ عِلَلِ النَّفْسِ فِي ذَلِك.

وَمِنْ ذَلِك مَا رُوِيَ أَنَّ هِجِّيرَى عُثْمَان كَانَ «سُبْحَان الله»، لأَنَّهُ كَانَ لاَ يَرَى الكَمَال إِلاَّ لِله تَعالَى، وَأَنَّ المَوْجُودَات قَائِمَة بِهِ مُفْتَقِرَة إِلَيْه، خَاضِعَة بَيْن يَدَيْه، فَكانَ هِجِّيرَاهُ يَحْفَظ عَلَيْه مَقامَه مِنْ عِلَل النَّفْس فِي ذَلِك.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا رُوِيَ أَنَّ هِجِّيرَى عَلِي كَانَ «الحَمْد لِله»، وَذَلِك لأَنَّه كَانَ لاَ يَرَى النِّعَم فِي النَّفْع، وَلاَ فِي الدَّفْع وَالإِعْطَاء، وَالمَنْع وَالمَحْبُوب وَالمَكْرُوه، إِلاَّ مِنَ اللهِ، فَكَانَ هِجِّيرَاهُ يَحْفَظ عَلَيْه مَقامَه مِنْ عِلَل النَّفْس فِي ذَلِك.

فَلَيْس مَنْ نَفَى المَوْجُودَات حَتَّى لَمْ يَرَ مَعَ المَوْجُود غَيْرَه، كَمَنْ رَأَى المَوْجُودَات صَغِيرَة حَقِيرَة، وَلَيْس مَنْ رَأَى المَوْجُودَات صَغِيرَة حَقِيرَة، كَمَنْ رَآهَا عَلَى حَالِهَا لَكِن نَاقِصَة، وَلَيَسْ مَنْ رَآهَا نَاقِصَة كَمَنْ رَآهَا، لَكِن حَمِدَ الله المُوجِد لَهَا.

فَاخْتِلاَف أَذْكَار الخُلَفَاء الرَّاشِدِين، مِمَّا يَدُلُّك عَلَى اسْتِعمَال الأَذْكَار بِحَسَب الأَحْوَال، لأَنَّ كُلَّ وَاحِد مِنْهُم رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، الْتَزَم الذِّكْر الَّذِي يُناسِب حَالَه الغَالِب عَلَيْه، فِي وَقْتِ اسْتِعمَالِه إِيَّاه.

وَهُم وَإِن اخْتَلَفَت أَحْوَالُهم، وَتَنوَّعَت مَشارِبُهم، فَكُلُّهم قَدْ بَلَغ إِلَى ذِرْوَة الفَضْل، وَوَصَل إِلَى رَبْوَة التَّخْصِيص بِصِدْق اليَقِين وَصَحِيح التَّوْحِيد، فَلاَ يُدْرَك شَأْوُهُم وَلاَ يُشَقُّ غُبَارُهم، فَظهَر لَكَ مِنْ مَجْمُوع هَذَا الكَلام، أَنَّ اسْتِعْمَالَ الأَذْكَار بِحَسَب الأَحْوَال، هُوَ مِنَ الحِكْمَة الَّتِي تَتضَمَّن صَلاحَ الحَالِ، وَتَقْضِي بِطَهَارَة النَّفْس وَتَصْفِيَتِهَا فِي جَمِيع عِلَلِها وَأَوْصافِها»[2] انْتَهَى.

---

1 ـ سقطت من نسختي ق و ك.

2 ـ نص منقول مع بعض التصرف من «بغية السالك في أشرف المسالك»، مخطوط الخزانة العامة رقم: 1691 د. ص: 21 ـ 20.

وَهذَا الكَلاَم، كَمَا فُهِمَت بِهِ أَحْوَال الخُلفَاء رَضِيَ اللهُ عَنهُم، قَدْ فُهِمَت بِهِ دَرجَات هَذِه الأَذْكَار، وَأَنَّ «لاَ إِلَه إِلاَّ الله»، هُوَ أَعْلاَها وَأَكْمَلها مَنْصِباً، وَأَوْفاهَا مَشْرباً، وَالله المُسْتعَان.

المَبْحَث الثَّالِث

{تَسْمِيَة الأَذْكَار الخَمْسَة بالبَاقِيات الصَّالِحات مِنْ حَيْثُ مَعانِيهَا لاَ مِنْ حَيْث أَلْفاظُها}

اعْلَم أَنَّ هَذِه الأَذْكَار تُسمَّى البَاقِيَات الصَّالِحَات كَمَا مَرَّ، وَلَيْس مِنْ حَيْثُ أَلْفاظُها تُسمَّى بذَلِك، بَلْ مِنْ حَيْثُ مَعانِيهَا، وَذلِك أَنَّ الصَّالح هُوَ مَا يَعُود نَفْعُه، وَالبَاقِي مِنْه هُوَ مَا لاَ يُفارَق بِالمَوْت، وَلاَشَكَّ أَنَّ هَذِه الأَذْكَار حَاصِلها مَعارِف يَتحلَّى[1] بهَا الرُّوح، فَتبْقَى مَعَه، فَإِنَّ الإِنْسَان إِذَا مَاتَ ذَهَب بَدنُه لِلتُّرَاب والدِّيدَان، وَبَقِي مَالُه لِلوَرثَة، وَذَهبَت رُوحُه إِلَى رَبِّها، وَلاَ يُصاحِبُها إِلاَّ مَا اكْتَسبَت فِي هَذا البَدَن مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَذلِك العِلْم وَالجَهْل وَالطَّاعَة وَالمَعْصِية، وَلاَ شَكَّ أَنَّ الصَّالِح مِنْ هَذَا البَاقِي هُوَ العِلْم وَالطَّاعَة، وَالعِلْم هُوَ مَضْمُون هَذِه الأَذْكَار.

وَقَدْ عَلِمْت مِمَّا ذَكرْنَا أَنَّ الخَيْرَات كُلَّها بَاقِيَة، وَهِي كُلُّها صَالِحَة، وَلِهَذا يَخْتَلِف المُفسِّرُون فِي قَوْله [تَعالَى][2] : ﴿وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾[3] الآيَة. فَمِنْهُم مَنْ يُفَسِّره بِهذِه الأَذْكَار، وَمِنْهُم مَنْ يَحمِلُه عَلَى العُمُوم، وَوَجْه التَّعْمِيم ظَاهِر، وَوَجْه التَّخْصِيص فِيهَا يُظْهِر أَرْبَعَة أَشْيَاء :

---

1 ـ وردت في نسخة ح : يتجلى.
2 ـ سقطت من نسخة ق.
3 ـ مريم : 76.

أَحَدُها : أَنَّ العُلُوم وَالمَعارِف أَشْرَف قَدْرا وَأَنْفَس قِيمَة، فَاعْتبَارُها أَوْلَى.

201 الثَّانِي : أَنَّها مَادَّة الأَعْمَال/ ، وَهِي مَقْصُودها وَثِمَارها، كَمَا مَرَّ التَّنْبِيه عَلَيْهِ.

الثَّالِث : أَنَّ المَعارِفَ حِلْيَة الرُّوح وَالرُّوح بَاقِيَة، فَحَسُن ذِكْرها بِالبَقَاء، وَالأَعْمَال حِلْيَة البَدَن وَالبَدَن فَانٍ.

الرَّابِع : أَنَّ الكَلاَم لَيْس فِيه حَصْر وَلاَ مَفْهُوم يُعْتَبَر، فَالمُرَاد أَنَّ هَذِه المَعارِف بَاقِيَات صَالِحَات وَنُوِّه بِهَا وَمُدِحَت، وَلاَ يُنَافِي ذَلِك أَنْ يَكُون غَيْرُها أَيْضاً بَاقِياً صَالِحاً، وَالله المُوَفِّق.

فائدتـــان : {فِي اسْتِعْمَالِ هَذِه الأَذْكَار عَلَى الجَمْع والتَّفْرِيق وَفَضائِلُها إِجْمالاً وَتَفْصيلاً}

الأُولَى : اسْتِعمَال هَذِه الأَذْكَار الفَاضِلَة، يَكُون عَلَى الجَمْع، وَيَكُون انْتِظامُها عَلَى نَحْو مَا فَسَّرْناهَا أَوَّلا، وَيَكُون عَلَى التَّفْرِيق، لأَنَّ كُلاًّ مِنْها كَافٍ فِي بَابِه وَافٍ بِمُرادِه، وَذُو الفَهْم يَعْتنِي بِكُلٍّ مِنْها، وَيَسْتَنشِق مِنْه مَعْنَى البَواقِي اسْتِنْشاقاً بَيِّناً يَكْتفِي به، وَلاَ سِيَما الأَرْبَع الأُولَى[1]، وَشَرْح ذَلِك يَطُول، مَعَ أَنَّ ذَلِك مَفْهُوم مِمَّا فَسَّرْنا أَوَّلا، وَالله المُوفِّق.

الثَّانِية : فِي ذِكْر شَيْء مِمَّا وَرَد فِي فَضَائِل هَذِه الأَذْكار الخَمْسَة إِجْمَالا وَتَفْصِيلا.

أَمَّا إِجْمالاً، فَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاء[2] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «قُلْ سُبْحَان الله وَالحَمْد لله وَلاَ إِلَه إِلاَّ الله وَالله أَكْبَر وَلاَ حَوْل وَلاَ قُوَّة إِلاَّ بِالله، فَإِنَّها

---

1 ـ وردت في نسخة ح : الأول.

2 ـ سبق التعريف به في ص : 18.

البَاقِيَات الصَّالِحَات، وَهُنَّ يَحْطُطْن الخَطايَا كَمَا تَحُطُّ الشَّجرَة وَرقَها وَهِيَ مِنْ كُنوزِ الجَنَّة»[1].

وَعَنْ أَبِي سَعِيد الخُذرِي[2] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «اسْتَكْثِروا مِنَ البَاقِياتِ الصَّالِحَات، قِيلَ وَمَا هُنَّ يَا رَسُول الله ؟، قَال التَّكْبير وَالتَّهْلِيل وَالتَّسْبِيح وَالحَمْد لله وَلاَ حَوْل وَلاَ قُوَّة إِلاَّ بِالله»[3].

وَعَنْ أَبِي المنذر الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : «قُلْت يَا نَبِي الله عَلِّمْنِي أَفْضَل الكَلاَم، قَالَ : «يَا أَبَا المُنْذر قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَه لاَ شَرِيكَ له، لَهُ المُلْك وَلَهُ الحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيت، بِيَدِه الخَيْر وَهُوَ علَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير، مِائَةَ مَرَّة فِي كُلِّ يَوْمٍ، فَإِنَّك يَوْمَئِذ أَفْضَل النَّاس عَمَلاً، إِلاَّ مَنْ قَالَ مِثْل مَا قُلْتَ، وَأَكْثَر مِنْ قَوْلِ : سُبْحَانَ الله وَالحَمْدُ لله وَلاَ إِلَه إِلاَّ الله وَالله أَكْبَر وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّة إِلاَّ بِالله فَإِنَّها سَيِّدَة الاسْتِغفَار وَإِنَّها مَمْحَاة لِلخَطايَا أَحْسِبُه قَالَ مُوجِبَة لِلجَنَّة»[4].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَة[5] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمع النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول : «مَنْ قَالَ سُبْحَان الله، وَالحَمْد لله، وَلاَ إِلَه إِلاَّ الله، وَالله أَكْبَر، وَلاَ حَوْل وَلاَ قُوَّة إِلاَّ بِالله العَلِّي العَظِيم، قَالَ الله : أَسْلَم عَبْدِي وَاسْتَسْلَم»[6]، وَالأَحادِيث فِي هَذا كَثِيرَة.

---

1 ـ أخرجه الهيثمي في كتابه مجمع الزوائد، قال رواه ابن ماجة باختصار، ورواه الطبراني بإسنادين، في أحدهما عمر بن راشد اليمامي، وقد وثق على ضعفه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

2 ـ هو سعد بن مالك بن سنان الخذري الأنصاري الخزرجي أبو سعيد (10 ق هـ/ 74هـ). صحابي كبير كان من ملازمي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وروى عنه أحاديث كثيرة. غزا اثنتي عشرة غزوة وله 1170 حديثا. الأعلام/ 3 : 87.

3 ـ رواه أحمد في مسنده. والهيثمي في موارد الظمآن، كتاب الأذكار، باب : فضل التسبيح، والتهليل، والتحميد. حديث رقم : 2332.

4 ـ أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب : فضل التهليل. وابن ماجة في باب فضل الذكر. والهيثمي في مجمع الزوائد قال رواه البزار وفيه جابر الجعفي وهو ضعيف/ 10 : 88.

5 ـ سبق التعريف به في ص : 19.

6 ـ أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين بألفاظ مغايرة.

وَأَمَّا تَفْصِيلا، فَمِن ذَلِك مَا وَرَد فِي الأَرْبَع الأَوَّل، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ، أَنَّ الرَّسُول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَال : «خُذُوا جَنَّتَكُم»، قَالُوا يَا رَسُول الله مِنْ عَدُوٍّ حَضَر ؟ قَالَ : «لاَ، وَلَكِن خُذُوا جَنَّتَكُم مِنَ النَّارِ قُولُوا : سُبْحَان الله، وَالحَمْد لله، وَلاَ إِلَه إِلاَّ الله، وَالله أَكْبَر، فَإِنَّهُن يَأْتِينَ يَوْم القِيامَة مُجَنِّبَات وَمُعَقِّبَات، وَهُنَّ البَاقِيات الصَّالِحات»[1] أَوْ كَمَا قَالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وَعَنْه أَيْضا قَالَ : قَالَ رَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ : «لأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ للهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَالله أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»[2].

وَعَنْ سَمَرة بْن جُنْدُب[3] رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ : «أَحَبُّ الكَلام إِلَى الله أَرْبَعٌ : سُبْحَان الله وَالحَمْد لله وَلاَ إِلَه إِلاَّ الله وَالله أَكْبَر لاَ يَضُرُّك بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ»[4] زَادَ النِّسائِي فِي رِوَايَةٍ «وَهُنَّ مِنَ القُرْآن».

202 وَرُوِيَ أَيْضا عَنِ النَبِي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّه قَالَ : «أَفْضَلُ/ الكَلاَم : سُبْحَان الله، وَالحَمْدُ لله، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَالله أَكْبَر»[5].

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُود[6] رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ «لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي[7] السَّلاَمَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ

1 ـ حديث رواه الحاكم في مستدركه، باب : كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح. والطبراني في المعجم الصغير : 174. والديلمي في الفردوس/ 2 : 165.

2 ـ أخرجه مسلم في كتاب الذكر، باب : فضل التهليل والتسبيح. والترمذي في كتاب الدعوات، باب : ما جاء في فضل التسبيح. والنسائي في عمل اليوم والليلة : 485.

3 ـ سمرة بن جندب بن هلال الفزاري صحابي جليل من الشجعان القادة، نشأ في المدينة ونزل البصرة فكان زياد يستخلفه عليها إذا سار ولما مات زياد أقره معاوية عاما أو نحوه ثم عزله وكان شديدا على الحرورية. له أحاديث رواها عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. مات سنة 60 هـ. الأعلام/ 3 : 139.

4 ـ رواه مسلم في كتاب الآداب، باب : كراهة التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه. وابن ماجة في كتاب الآداب، باب : فضل التسبيح. والمنذري في الترغيب والترهيب/ 2 : 422.

5 ـ أخرجه أحمد في مسند المدنيين. وابن ماجة في كتاب الأدب، باب : فضل التسبيح.

6 ـ الصحابي الجليل أبو عبد الرحمن عبد الله بن أم عبد الهذلي، صاحب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وخادمه وأحد السابقين الأولين ومن كبار البدريين، ومن العشرة المبشرين، ومن نبلاء الفقهاء والمقرئين، فهو من سادة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين (ت : 32هـ). أسد الغابة/ 3 : 384.

7 ـ وردت في نسخة ك : منا.

التُّرْبَةِ عَذْبَةُ المَاءِ وَأَنَّهَا قِيعَانٌ وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ لِلهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَالله أَكْبَرُ»[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَة وَأَبِي سَعِيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «إِنَّ الله اصْطَفَى مِنَ الكَلاَمِ أَرْبَعًا سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ لِلهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَالله أَكْبَرُ فَمَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ كَتَبَ الله لَهُ عِشْرِينَ حَسَنَةً أَوْ حَطَّ عَنْهُ عِشْرِينَ سَيِّئَةً وَمَنْ قَالَ الله أَكْبَرُ فَمِثْلُ ذَلِكَ وَمَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله فَمِثْلُ ذَلِكَ وَمَنْ قَالَ الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ كُتِبَتْ لَهُ ثَلاَثُونَ حَسَنَةً وَحُطَّ عَنْهُ ثَلاَثُونَ سَيِّئَةً»[2].

وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ فِي التَّهْلِيل وَحْدَه، وَقَدْ مَرَّتْ مِنْهُ جُمْلَة كَافِيَة.

وَمَا وَرَدَ فِي التَّسْبِيح وَحْدَه، فَعَنْ أَبِي ذَرّ[3] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَلاَ أُخْبِرُك بِأَحَبِّ الكَلاَمِ إِلَى الله : سُبْحَان الله وَبِحَمْدِه»[4].

وَمَا وَرَد فِي التَّهْلِيل وَالتَّكْبِير وَالحَوْقَلَة، فَعَنْ عَبْد الله بْن عُمَر[5] رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ : قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَا عَلَى الأَرْضِ أَحَدٌ يَقُولُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَالله أَكْبَرُ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ إِلاَّ كُفِّرَتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ»[6].

---

1 ـ أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب : ما جاء في فضل التسبيح والتهليل والتكبير. والهيثمي في كتابه مجمع الزوائد باب ما جاء في الباقيات الصالحات/ 10 : 91.

2 ـ أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين. والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح/ 1 : 512.

3 ـ هو أبو ذر الغفاري جندب بن جنادة، (ت : 32 هـ). أحد السابقين الأولين، كان رأسا في العلم والزهد والجهاد وكان يصدع بالحق. أسد الغابة/ 1 : 357 ـ تذكرة الحفاظ/ 1 : 17.

4 ـ أخرجه مسلم في كتاب الذكر، باب فضل سبحان الله وبحمده.

5 ـ سبق التعريف به في ص : 24.

6 ـ أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب : ما جاء في فضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد. والحاكم في كتاب الدعاء والتكبير والتسبيح/ 1 : 682.

وَفِي الحَوْقَلَة وَحْدَها، عَنْ أَبِي مُوسَى[1] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ: «قُلْ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ»[2].

وَالأَحَادِيث فِي هَذَا البَاب تَكْثُر، وَمَنْ أَرَادَ الاسْتِيفَاء فَعلَيْه بِكتَاب[3] «التَّرْغِيب»، وَإِنَّمَا غَرَضُنا الإِشَارَة بِمَا لاَ بُدَّ مِنْهُ، والله المُوَفق.

---

1 ـ عبد الله بن قيس بن سليم بن حرب أبو موسى (21 ق. هـ/ 44 هـ) من بني الأشعر من قحطان صحابي، من الشجعان الولاة الفاتحين، كان أحسن الصحابة صوتا في التلاوة، خفيف الجسم قصيرا، وفي الحديث «سيد الفوراس أبو موسى» الأعلام/ 4 : 114.

2 ـ أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب : الدعاء إذا علا عقبة. ومسلم في كتاب الذكر، باب : استحباب خفض الصوت. وابن ماجة في كتاب الأدب، باب : ما جاء في الحوقلة.

3 ـ وردت في نسخة ق : كتب.

الفَصْلُ الخَامِسُ

فِي بيَانِ كَوْن الاسْمِ الوَاقع فِي هَذِه الكَلمَة المُشرفَة أَشْرَف الأَسْمَاء الحُسْنَى وَأَعْظَمُها وَأَعَمُّـها

وَفِي هَذَا مَطْلَبَان، أَحدُهُما : كَوْنُه أَشْرَف. الثَّانِي : كَوْنُه أَعَم.

أَمَّا كَوْنُه أَشْرَف الأَسْمَاء وَأَعْظَمُها، فَهُوَ قَوْل العُلمَاء قَدِيماً وَحدِيثاً.

قَالَ حُجَّة الإِسْلام الغَزالِي فِي كَلامِه عَلى هَذا الاسْمِ الشَّرِيف، وَهُوَ «الله» مَا نَصُّه : «وَاعْلَم أَيَّدَكَ الله بِمَوَاد المَزِيد، وَفَهَّمَك مَعانِي أَسْرَار التَّوْحِيد بِفَضْلِه مِنْ فَضْلِه، أَنَّ هَذَا الاسْم المُفْرَد المُقَدَّم المُجَرَّد أَعْنِي : «الله» عَزَّ ذِكْرُه، هُوَ اسْم الذَّات العَلِيَّة، المَوْصُوف بِصِفَات الأُلوهِية، المَعْرُوف بِنُعوتِ الرُّبُوبِيَة، المُتَّصِف بِصِفَة الأَحدِيَة، المُنْفَرِد بِوَحْدَة الوَحْدانِية، المَنْعُوت بِصَمدَانِية الصَّمدِيَة، المُنَزَّه عَنْ جِنْس الكَيْفِيَة وَأَنْوَاع المِثْلِيَة، المُقَدَّس أَنْ يُحِيط بِمَعْرِفَة كُنْهِه إِدْرَاك عُقُول البَشرِية.

فَهُوَ «الله»، اسْمُ الإِلَه الوَاحِد القَدِيم، الحَيِّ القَيُّوم، العَلِيِّ العَظِيم، الدَّائِم البَاقِي السَّرْمَدِي، مَالِك المُلْك، الكَبِير المُتَعالِي، المَوْجُود المُطْلَق الوُجُود، الأَزَلِي الَّذِي لَمْ يَزَل أَوَّلا وَآخِراً بَاطِناً وَظَاهِراً، وَلاَ يَزَال المُتَحقق بِالوُجُود الحَقِيقِي، الوَاجِب الوُجُود، وَكُل مَوْجُود سِوَاه اسْتَفَادَ مِنه الوُجُود، فَهُو مِنْ حَيْث ذَاتُه هَالِك فَانٍ، وَمِنْ حَيْثُ مُوجِدُه ثَابِت مَوْجُود، وَهُو أَعْظَم الأَسْمَاء، لأَنَّه دَالٌّ عَلَى الذَّاتِ العَلِية، الجَامِعَة لِكَمَال صِفَات الأُلوهِية» انْتَهى الغَرَض مِنْهُ.

وَقَال أَيْضاً فِي قَوْلِه تَعالَى : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[1] : «فِيهِ خَمْسَة أَوْجُه : 203 أَحَدُها : أَنَّ ذِكْرَ الله لِنَفْسِه/ بِتَوْحِيدِه وَتَعْظِيمِه وَتَمْجِيدِه، أَكْبَر وَأَعْظَم مِنْ ذِكْر خَلْقِه الضُّعفَاء الفُقرَاء، وَتَوْحِيدِهِم لَهُ، لأَنَّه الغَنِيُّ الحَمِيد. الثَّانِي : أَنَّ ذِكْرَ هَذَا الاسْم «الله»، أَكْبَر وَأَعْظَم مِنْ ذِكْرِ غَيْرِه مِنْ أَسْمائِه تَعالَى.» انْتَهَى.

وَقَال الشَّيْخُ أَبُو العَبَّاس المُرْسِي[2] لِبَعْض أَصْحابِه : «لِيَكُن ذِكْرُكَ الله سُبْحانَه، فَإِنَّ هَذَا الاسْمَ الكَرِيم سُلْطَان الأَسْمَاء، وَلَهُ بِسَاطٌ وَثَمَرَةٌ بِسَاطِه العِلْم، وَثَمرَته النُّور، ثُمَّ النُّورُ لَيْس مَقْصُودا لِنَفْسِه، وَإِنَّما هُوَ لِيَقَع بِه الكَشْفُ وَ<العِيَّان>[3]» انْتَهَى.

وَقَال فِي مِفْتَاح الفَلاَح : «وَهَذا الاسْمُ الأَعْظَم هُوَ أَعْظَم التِّسْعَة وَالتِّسْعِين اسْماً، لأَنَّه دَالٌّ عَلَى الذَّاتِ الجَامِعَة لِجَمِيع صِفَات الأُلُوهِية، وَسَائِر الأَسْمَاء لاَ يَدُل إِيجَادُها إِلاَّ عَلَى إِيجَاد المَعْنَى[4] مِنْ عِلْمٍ وَنَحْوِه»[5] انْتَهَى.

وَقَال بَعْضُ الأَئِمَّة : «وَأَسْمَاؤُه تَعالَى وَصِفَاته، كُلُّها فَاضِلَة عَظِيمَة، إِلاَّ أَنَّ هَذَا الاسْم لَهُ تَخْصِيصٌ زَائِد تَامٌّ كَامِل عَلَى سَائِرِها، كَمَا أَنَّ التَّوْرَاة وَالإِنْجِيل وَالزَّبُور وَالصُّحُف وَالفُرْقَان، الكُلُّ كَلاَمُه عَزَّ وَجَلَّ، وَلَكِنَّه اخْتَصَّ مِنْها الفُرْقَان، وَفَضَّلَه عَلى سَائِرِهَا، فَكَذَلِك هَذَا الاسْم مِنْ بَيْن سَائِر أَسْمَائِه، خَصَّصَه وَفَضَّلَه وَشَرَّفَه» انْتَهَى.

وَقَال ابْنُ عَطِيَّة[6] : «وَالمَكْتُوبَة الَّتِي لَفَظَها «الله» أَبْهَر أَسْمَاءِ الله تَعالَى وَأَكْثَرُها اسْتِعمَالاً، وَهُوَ المُتَقَدِّم عَلَى سَائِرِهَا فِي الأَغْلَب، وَإِنَّما يَجِيءُ الآخَر أَوْصافاً» انْتَهَى.

---

1 ـ العنكبوت : 45.
2 ـ سبقت ترجمته في ص : 78.
3 ـ سقطت من نسخة ح.
4 ـ وردت في نسخة ق : الغنى.
5 ـ نص منقول من مفتاح الفلاح : 72.
6 ـ هو أبو محمد عبد الحق بن غالب. بن عطية المحاربي الغرناطي الأندلسي، (480 / 541هـ). القاضي الإمام، قدوة المفسرين، كان من أوعية العلم وكان يتوقد ذكاء. وله التفسير المشهور المسمى : «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز». سير أعلام النبلاء/ 19 : 587.

وَلِهَذا كَانَ الأَشْهَر أَنَّه اسْم الله الأَعْظَم. قَالُوا : وَإِنَّما لَمْ تَحْصُل الإِجَابَة فِي أَكْثَر الأَحْيَان، لِعَدَم اسْتِجْمَاع الشَّرَائِط، وَقَدْ ذَكَرُوا لِهَذا الاِسْم الشَّرِيف مِنَ الخَصائِص وَالمَزايَا كَثِيراً، يَتَبَيَّن بِهِ وَجْهُ أَعْظَمِيَتِه :

{الخَصائِص والمَزَايا المُبيِّنَة لِوَجْه أَعْظَمِيَّة الاسْم الشَّرِيف}

مِنْهَا، أَنَّه جَامِع لِلذَّاتِ وَالصِّفَات، كَمَا مَرَّ فِي كَلاَم الأَئِمَّة، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلنا أَنَّه أَعَمّ، وَسَيأْتِي شَرْحُ ذَلِك فِي المَطْلَب الثَّانِي إِنْ شَاءَ الله <تَعالَى>[1].

وَمِنْهَا، أَنَّه <هُوَ>[2] الاِسْم الخَاصُّ بِهِ تَعالَى، وَقَد حَقَّقَ الله تَعالَى الخُصوصِيَة، فَلَمْ يُمَكِّن أَحداً مِنَ التَّسَمِّي[3] بِهِ، مَعَ كَثْرَة الجَبابِرَة وَالفراعِنَة المُدَّعِين لِلأُلوهِية، وَفِي هَذَا آيَة بَاهِرَة وَحُجَّة ظَاهِرَة.

وَمِنْهَا، أَنَّه يُضَاف إِلَيْه غَيْرُه مِنَ الأَسْمَاء، وَيُعْرَف بِهِ، فَيُقَال : العَزِيزُ أَوِ الرَّحِيمُ مِنْ أَسْمَاء الله، وَلاَ يُضَاف هُوَ إِلَى غَيْره، وَلاَ يُتَعرَّف بِشَيْءٍ، فَلاَ يُقَال مَثَلا الله مِنْ أَسْمَاء الرَّحِيم، وَذَلِك دَلِيل أَنَّهُ أَظْهَر وَأَبْهَر.

فَإِنْ قِيلَ : مَتَى قُلْنَا مَثَلاً العَزِيزُ مِنْ أَسْمَاء الله، فَلَسْنَا نُرِيد بِالله الاِسْم الَّذِي الكَلاَم فِيهِ، بَلِ المُسمَّى وَهُو الذَّات الوَاجِب الوُجُوب.

قُلْنَا : الأَمْرُ كَذلِك، وَلَكِن مَا المَانِع أَنْ يُقَال : الله مِنْ أَسْمَاء العَزِيز، وَيُرَاد أَيْضاً بِالعَزِيزِ مُسَمَّاه، لَوْلاَ أَنَّ دَلاَلَة الله عَلَى الذَّاتِ أَظْهَر وَأَوْضَح، وَهَذا مَعْنَى كَوْنه أَعْظَم.

وَمِنْها أَنَّه يُوصَفُ بِغَيْره وَلاَ يُوصَفُ بِهِ، وَهَذَا كُلُّه مَبْنِي عَلَى أَنَّه الاِسْم الخَاصُّ. وَفِي هَذَا الوَجْهِ أَيْضاً مِنَ البَحْثِ مِثْل مَا فِي الَّذِي قَبْلَه وَالجَوَاب هُوَ الجَوابُ.

---

1 ـ سقطت من نسخة ح.
2 ـ سقطت من نسخة ك.
3 ـ وردت في نسخة ك : التسمية.

وَمِنْها، أَنَّ كُلَّ اسْمٍ يَصْلُحِ لِلتَّعَلقِ وَالتَّخلقِ، سِوَى هَذَا الاِسْم الأَشْرَف، فَإِنَّه يَصْلُح لِلتَّعَلُّق فَقَطْ، وَلاَ يَصْلُحُ[1] لِلتَّخلُّقِ، وَمَعْنَى التَّخلُّق : الاتِّصَاف، فَالعَبْد يَتَّصِف مَثَلاً بِمَعْنَى الغَفُور الرَّحِيم الحَلِيم العَدْل الكَرِيم، فَيَسْتَفِيد فِي نَفْسِه كَرماً وَعَدْلاً وَرَحْمَة وَحِلْماً، إِلَى غَيْر ذَلِك، وَعِنْدَ ذَلِك يَكُون رَبَّانِيا، كَمَا قَالَ تعالَى : ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾[2] أَيْ مُتَخلِّقِين.

وَرُوِيَ فِي الحَدِيث : «تَخلَّقُوا بِأَخْلاَق الرَّب»[3]، وَفِي حَدِيثٍ آخَر : «إِنَّ لله مِائَة خُلُق فَمَنْ تَخَلَّق بِوَاحِد مِنْها/ 204 دَخل الجَنَّة»[4]، أَوْ كَمَا قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَمَعْنَى كَوْن هَذَا الاسْم الأَعْظَم لاَ يَجُوز التَّخلُّق بِهِ، أَنَّ الأُلوهِية لَيْسَ لِمَخْلُوقٍ أَنْ يَتَخلَّق بِهَا، وَإِنَّما لِلْعِبَاد التَّعلُّق بِهَا، تَعَلُّق الاِحْتِيَاج وَالاِسْتِنَاد لِلإِيجَاد وَالإِمْدَاد، ثُمَّ التَّخلُّق وَإِنْ جَازَ فِي سَائِر الأَسْمَاء، فَلَيْسَ مَعْنَاه أَنَّ العَبْدَ يَتَّصِفُ بِأَوْصَافِ الرَّب عَلَى الحَقِيقَة، هَيْهَات هَيْهَات، أَيْنَ صِفَات المَخْلُوق المُحْتَاج النَّاقِص، مِنْ صِفَات الخَالِق الغَنِيّ الحَمِيد. وَإِنَّما ذَلِك ضَرْبٌ مِنَ التَّشَبُّه[5] وَالتَقَرُّبِ، يَسْتَفِيدُه العَبْدُ مِنْ سَيِّدِه الكَرِيم المُتَفضِّل.

وَمِنْها، أَنَّ هَذَا الاِسْم العَظِيم، قَدِ اخْتَصَّ بِخَاصِيَّة غَرِيبَة عَنْ سَائِرِ الأَسْمَاء، وَهِيَ أَنَّ مَعْنَاه يُفْهَم وَلَوْ فُكَّ تَرْكِيبُه[6] وَنَقَص مِنْه شَيْء، أَلاَ تَرَى أَنَّه لَوْ أُزِيلَت الأَلِفُ الأُولَى مَثَلا يَبْقَى «لله»، وَلَو أُزِيلَتِ اللاَّم الأُولَى بَقِيَ «لَهُ»، وَلَوْ أُزِيلَتِ اللاَّمُ

---

1 ـ وردت في نسخة ك : لا يصح.
2 ـ آل عمران : 79.
3 ـ لم أعثر عليه بهذه الصيغة، والوارد في المظان تخلقوا بأخلاق الله، وفي صحته اختلاف.
4 ـ أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال، بهامش مسند أحمد : 39.
5 ـ وردت في نسخة ح : التشبيه.
6 ـ وردت في نسخة ح : بتر كتبه.

الثَّانِيَة بَقِيَ «هُ»[1]، وَهُوَ كِنايَة عَنْهُ تَعالَى، فَإِذَا أُشْبِعَت ضَمَّتُه صَارَ «هُوَ»، وَهُوَ كِنَايَة مُسْتَقِلَّة، وَالكِنَايَة وَإِنِ احْتَاجَت إِلَى خَبَرٍ تَتِمُّ بِهِ فَائِدَتُها وَمَعادٍ يُفَسِّرُها، فَهِيَ عِنْد هَذِه الطَّائِفَة غَنِيَّة عَنْ ذَلِكَ، لأَنَّ المُشَار إِلَيْه حَاضِر عِنْدَهُم، وَهُو الأَوَّل وَالآخِر، فَلاَ خَبَر وَلاَ مَطْلَب.

وَانْظُر فِي هَذَا إِلَى مَا وَقَع لِبَعْضِ الوَالِهِين رَضِيَ الله عنهُم : «قِيلَ لَهُ مَا اسْمُك ؟ فَقَال : «هُوَ»، فَقِيل مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَال : «هُوَ»، فَقِيل مِنْ أَيْنَ جِئْت ؟، فَقالَ : «هُوَ»، فَقِيل مَا تَعْنِي بِقَوْلِك «هُوَ» ؟ قَال : «هُوَ»، فَمَا سُئِل عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ قَال «هُوَ»، فَقِيلَ : لَعلَّك تُرِيدُ الله تَعالَى، فَصَاحَ صَيْحَة وَسَقَط إِلَى الأَرْضِ مَيِّتاً».

وَمِنْها، أَنَّ كُلَّ حَرْفٍ مِنْه قَدِ اشْتَمَل عَلَى مَعانٍ وَأَسْرارٍ، كَمَا أَنَّ كُلَّ اِسْم مِنْ أَسْمائِه تَعالَى مُشْتَمِل عَلى المَعْنَى، وَقَدْ كَشَفُوا فِي ذَلِك عَنْ أَسْرَار وَلَطائِف، لاَ يَنْبغِي لأَمْثالِنَا الخَوْضُ فِيهَا، وَلَكِن حَيْثُ انْجَرَّ الحَدِيث إِلَى ذَلِك، فَلاَبُدَّ أَنْ نَذْكُر طَرَفاً مِمَّا ذَكرُوا عَلَى طَرِيق الحكايَة لِكَلاَمِهِم.

فَنَقُول : إِنَّ الحُرُوف أَرْبَعَةٌ : أَلِفٌ ـ لاَمٌ ـ لاَمٌ ـ هَاءٌ، وَهَذِه أَسْمَاء، مُسَمَّيَاتها الحُرُوف المَلْفُوظَة فِي اسْمِ الجَلالَة.

فَالأَلِفُ مِنْ حَيْثُ إِنَّها اسْم، فِيهَا مَعْنَى الأُلْفَة وَالتَّآلُف وَالتَّأْلِيف، وَبِهَذا المَعْنَى أَلَّف الله تَعالَى جَمِيعَ خَلْقِه عَلَى تَوْحِيدِه، وَالمَعْرِفَة أَنَّه إِلهُهُم وَرَبُّهم وَمُوجِدُهُم.

قَالَ تَعالَى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[2]، وقال تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (87)﴾[3]، وَتَقَدَّم تَقْرِير أَنَّ جَمِيعَ الكَائِنَات حَتَّى الجَمادَات تَشْهَد بِهَذا.

---

1 ـ نفس هذا الكلام يستدل به البوني في تقرير اسم الله. شمس المعارف الكبرى : 92.

2 ـ لقمان : 25 ـ الزمر : 38.

3 ـ الزخرف : 87.

وَأَلَّف <تعالى>[1] بَيْن عِبَادِهِ المُؤْمِنِين عَلَى الإِيمَان بِه وَبِرَسُولِه، وَالتَّناصُر وَالتَّعاوُن وَالتَّراحُم.

قَال تَعالَى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63)﴾[2].

قُلْت: وَأَلَّف أَيْضاً بَيْن الأَجْسَاد وَالأَرْوَاح، وَهُو مِنْ أَبْدَع التَّأْلِيف الجَمْع بَيْن السَّمَاوِي وَالأَرْضِي وَالنُّورَانِي وَالظُّلْمَانِي.

وَمِنْ حَيْثُ إِنَّها حَرْفٌ، هِيَ اسْتِفْتَاح لِحُرُوف المُعْجَم كُلِّها، وَلاَ شَيْء قَبْلَه، وَفِيهِ إِشَارَة مِنْ جِهَة الحَقِّ سُبْحَانَه، إِلَى أَنَّه هُوَ الأَوَّل وَلاَ شَيْءَ قَبْلَه، وَالأَشْيَاء كُلُّها بَعْدَه، وَمِنْه كَانَت، وَالوَحْدَة لَهُ وَالشَّفْعِية لِغَيْرِه.

وَالأَلِفُ غَيْبٌ، إِذْ لاَ يَظْهَر لَهُ مَخْرَج، وَهُو وَاحِدٌ وَلَيْس بِعَدَدٍ، وَلَكِنَّه [هُوَ][3] مُفْنِي الأَعْدَاد كُلِّهَا، وَهُوَ مَبْدَؤُها، وَكَذا الحَقُّ وَاحِدٌ فَرْدٌ، وَهُو مَبْدَأ الأَعْدَادِ إِيجَاداً وَاخْتِراعاً وَهُوَ مُفْنِيهَا ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[4].

205 / وَمِنْ جِهَة الخَلْق، فِيهِ إِشَارَة إِلَى آدَم هُوَ أَوَّل النَّوْع، وَالأَفْرَاد مِنْه تَوَلَّدَت، وَ[هُو][5] مَبْدَأ الأَلِف نُقْطَة، وَهُوَ إِشَارَة إِلَى الجَوْهَر الفَرْد[6] الَّذِي هُوَ مَبْدَأ ذَوَات العَالَم كُلِّها.

وَفِي اللاَّمِ الأُولَى بَعْدَ إِسْقَاط الأَلِف، إِشَارَة إِلَى لاَمِ المِلْك، لأَنَّ البَاقِي هُوَ صُورَة لله.

---

1 ـ سقطت من نسخة ح.

2 ـ الأنفال : 63.

3 ـ سقطت من نسخة ق.

4 ـ تضمين للآية : 88 من سورة القصص.

5 ـ سقطت من نسختي ق و ك.

6 ـ هو الجزء الذي لا يتجزأ، ونظريته قديمة عند الفلاسفة والمتكلمين الذين يوظفونه في مباحثهم الكلامية، للبرهنة على مسألة حدوث العالم وعلم الله وقدرته والمعاد الجسماني.

قَالَ تَعالَى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾[1] الآيَة. وقَال: ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾[2] الآيَة. وقَال: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ ﴾[3] الآيَة. وقَال تَعالَى: ﴿ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾[4] الآيَة. وقَال تَعالَى: ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾[5]. وقَالَ تَعالَى: ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾[6].

واللام َالثَّانِي، إِشَارَة إِلَى لاَمِ المُلْك، بَعْد حَذْف اللاَّمِ الأُولَى، فَيَصِير «لَهُ».

قَال تَعالَى: ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[7]. وقَال تَعالَى: ﴿ لَّهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[8]، ﴿ لَّهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ ﴾[9]، ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[10]، ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾[11] الآيَة، ﴿ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾[12] الآيَة، ﴿ لَهُ مُلْكُ

---

1 ـ البقرة: 284 ـ آل عمران: 109 ـ النساء: 126 ـ النجم: 31 ـ الحشر: 1 ـ الصف: 1 ـ الجمعة: 1 ـ التغابن: 1.
2 ـ المؤمنون: 84.
3 ـ الأنعام: 16.
4 ـ النساء: 131.
5 ـ يونس: 55 ـ النور: 64.
6 ـ الروم: 4.
7 ـ الزخرف: 85.
8 ـ الزمر: 44.
9 ـ الحديد: 5.
10 ـ الزمر: 6.
11 ـ الزخرف: 85.
12 ـ المائدة: 40.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾[1]، ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾[2].

فَهَذا كُلُّه وَنَحْوه، إِشَارَة إِلَى لاَم المُلْك، فَهُو تَعالَى المَالِك وَالمَلِكُ حَقِيقَة.

قَالَ تَعالَى : ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[3] قُرِءَ بِالأَلِف وَبِحذْفِها عَلَى المَعْنَيَيْن.

وَالهَاء : هَاءُ الإِشَارَة إِلَى مُطْلَق وُجُود الحَقّ، وَإِثْبَات وَحْدَانِيته، وَإِحَاطَته بِجَمِيع الأَشْيَاء كُلِّها عِلْما وَإِرَادَة وَقُدْرَة وَمُلْكا، وَهِي مِنْ هَاءِ هَيْبَة البَهَاء، وَعَظَمة الأُلوهِية، وَذَلِك بَعْد حَذْف الأَلِف وَاللاَّمَيْن، يَبْقَى «ـــهُ»، وَإِذَا أُشْبِعَت حَرَكَتُها تَوَلَّدَت الوَاوُ وَصَار هُوَ.

قَالَ تَعالَى : ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾[4] الآيَة، ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[5]، ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[6]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ (22) هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[7]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾[8] وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[9].

---

1 ـ الأعراف : 158.
2 ـ الأنعام : 73.
3 ـ الفاتحة : 4.
4 ـ الرعد : 30.
5 ـ الأنعام : 19 ـ النحل : 51.
6 ـ الحديد : 3.
7 ـ الحشر : 22 ـ 23.
8 ـ الحشر : 24.
9 ـ الإخلاص : 1.

وَهُو اسْم مُضْمَر يُبيّن عِنْد أَهْل الظَّاهِر بِمَا بَعْدَه، وَلاَ يَحْتَاج عِنْد الخَوَاص إِلَى بيَان، لأَنَّه كِنَايَة عَنِ الحَقِّ، وَالحَق تَعالَى حَاضِر عِنْدَهم، وَهُو السَّابق إِلَى قُلوبِهِم، قَالُوا وَهُو حَرْفَان : هَاء مَخْرَجُها أَقْصَى الحَلْق، وَوَاو مَخْرَجُها الشَّفَتَان، فَالأُولَى مِنْ أَوَّل المَخارِج، وَالثَّانِية مِنْ آخِرِها، وَذَلِك إِشَارَة إِلَى أَنَّه تعالَى هُوَ الأَوَّل وَالآخِر، وَأَنَّ مَبْدأ كُلَّ شَيْء مِنْه وَمَرْجِعُه إِلَيْهِ.

قَالَ البوني[1] فِي شَمْس المَعارِف : «الله هُوَ أَخَصُّ الأَسْمَاء وَأَعْظَمُها اتِّفاقاً، وَهُو اسْم سُرْيانِي وَ تَفْسِيره مُخْرِج الأَشْيَاء مِنَ العَدَم إِلَى الوُجُود، وَلَهُ مَعانِي يَجب عَلَى أَهْلِ البَاطِن[2] فِيهَا كَتْمُها عَنِ السُّفهَاء، لِئَلاَّ يَتوَصَّلوا بِهَا إِلَى فِعْل المُنْكَرات وَالمُحَرَّمَات، فَيَسْقطُوا مِنْ عَيْن الله، كَمَا سَقَط بلْعَام بْنُ بَاعُورا[3] لَمَّا أَرَاد بِهِ مَعْصِية الله، نَعُوذ بِالله مِنْ غَضبِه، وَأَنْ لاَ يَجْعلَنا مِمَّن يَسْتعِين بِاسْمِه العَظِيم عَلَى مَعْصيَتِه.

وَذَلِك أَنَّ هَذا الاسْم العَظِيم لَهُ حُرُوف أَرْبَعة : الأَلِف وَلاَمَانِ وَهَاء. وَلِذَلِك كَانَتِ الطَّبائِع أَرْبَعة، وَالأَقْطَار أَرْبَعَة : شَرْق وَغَرْب وَجَوْف وَقِبْلَة. وَكَانَت مَلاَئِكة التَّسْخِير أَرْبَعة : جِبْرِيل وَإِسْرَافِيل وعَزْرَائِيل وَمِكائِيل»[4].وَقَد أَطَال فِي هَذِه المُناسَبَات.

{الاسْمُ الأَعْظَم جَامعٌ لِجَمِيع مَعانِي الأَسْماء}

206 وَأَمَّا كَوْن هَذا الاِسْم العَظِيم أَعمُّ / الأَسْمَاء، فَمَعْنَاه أَنَّه جَامِع لِجَمِيع مَعانِي الأَسْمَاء، وَتَقدَّم ذَلِك فِي كَلام الغَزالِي.

---

1 ـ أحمد بن علي بن يوسف البوني القرشي أبو العباس عالم بعلم الحروف. من تصانيفه «مفاتيح أسرار الحروف ومصابيح أنوار الظروف» «شمس المعارف الكبرى» معجم المؤلفين/ 2 : 26.

2 ـ وردت في نسختي ق و ك : الناظر.

3 ـ بلعام بن باعورا أحد علماء بني إسرئيل. علم القلوب : 3.

4 ـ نص منقول مع تغييرات طفيفة في بعض العبارات، من كتاب شمس المعارف الكبرى : 9.

وَقَال أَيْضاً : «وَاعْلَم أَنَّ الأَسْمَاء الحُسْنَى هِيَ أَلْفَ اسْم، مِنْها فِي التَّوْرَاة ثَلاَثُمِائَة، وَفِي الإِنْجِيل ثَلاَثُمِائَة، وَفِي الزَّبُور ثَلاَثُمِائَة، وَوَاحِد فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيم، وَتِسْعَة وَتِسْعُون فِي الفُرْقَان»[1].

وَقَد جُمِعَت مَعانِي تِلْك الأَسْمَاء كُلها، وَأُدْخِلَت فِي التِّسْعَة وَالتِّسْعِين اسْماً، الَّتِي فِي القُرْآن، وَاشْتَمَلَت عَلَى فَضائِلِها وَأَسْرارِها وَثَوابِها، وَأَنَّ الأَسْمَاء كُلَّها الَّتِي فِي جَمِيع الكُتُب أَوَّلُها «الله»، وَلِهَذا كَانَ هَذَا الاِسْم أَكْثَر جَرَياناً عَلَى أَلْسُن النَّاسِ فِي جَمِيع الأُمورِ، مِنْ كُلِّ مَا يُحَاوَل مِنَ الأَشْيَاء، لاَ فِي الأَقْوَال وَلاَ فِي الأَفْعَال وَلاَ فِي الأَسْبَاب، كُلها يُبْدَأ فِيهَا بِاسْم الله تَعالَى.

وَقَال البُوني فِي شَمْس المَعارِف : «فَأَمَّا الله تَعالَى، فَهُو الاِسْم الأَعْظَم الجَامِع لِسائِر الأَسْمَاء، وَلِذَلِك بَدَأ بِهِ كِتابَه وَخَتَم بِهِ كِتابَه، وَتَعبَّد بِهِ عِبَاده، وَأَشَار إِلَيْه وَعَرَّفَ بِه بِقَوْلِه ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ [أَحَدٌ]﴾[2]»[3] انْتَهَى.

وَيُقَال هُوَ الاِسْم الجَامِع لِلذَّاتِ وَالصِّفَات، وَرُبَّما قِيلَ لِلذَّاتِ وَالصِّفَات وَالأَفْعَال، وَهَذا[4] كَلاَم مَشْهُور مُتَداوَل عَلَى الأَلْسِنَة، مُسْتَوْدَع فِي بُطُون التَّصَانِيف كَثِيرا، وَكَثِيرا مَا يَغْلط فِيهِ مَنْ لاَ نُفُوذ لَهُ فِي حَقائِق الأَشْيَاء، فَيَتوَهَّم أَنَّ مَعْنَى جَمْعِه لِذَلِك، أَنَّه دَالٌّ عَلَى تِلْك الجُمْلَة كُلِّها، دِلاَلَة اللَّفْظ عَلَى مَا وُضِعَ لَهُ.

{اللَّفْظُ الدَّالُ إِمَّا أَنْ يَكونَ دَالاًّ عَلَى جُزْئِي أَوْ عَلَى كُلِّي}

فَلاَبُدَّ مِنْ تَحْرِير هَذَا المَقَام، بَعْد أَنْ تَعْلَم أَنَّ اللَّفْظ الدَّال، إِمَّا أَنْ يَكُون دَالاًّ عَلَى جُزْئِي وَهُو العَلَم، إِمَّا شَخْصِي كَزَيْد وَعَمْرو، وَإِمَّا جِنْسِي كَأُسَامَة وَثُعَالَة،

1 ـ شمس المعارف : 32.
2 ـ سقط من ق.
3 ـ شمس المعارف : 56.
4 ـ في نسخة ق : كذا.

أَوْ دَالاً عَلَى كُلِّي، وَهُو إِمَّا مُشْتَق كَقائِم وَمَضْرُوب وَعَلِيم وَرَزَّاق، وَإِمَّا جَامِد، وَالجَامِد إِمَّا اسْم عَيْن كَرَجُل وَفَرَس، وَإِمَّا اسْم مَعْنَى كَقِيَام وَقُعُود وَقُدْرَة وَحيَاة.

فَإِنْ كَانَ اللَّفْظ عَلَماً، فَلَهُ مَفْهُومٌ هُوَ الشَّخْصُ المَوْضُوعُ هُوَ لَهُ، وَذَلِك المَفْهُوم هُوَ المَصْدُوق بِعَيْنِه، فَقَد اتَّحَد فِي حَقِّ الجُزْئِي المَفْهُوم وَالمَصْدُوق، فَإِذَا أُطْلِق ذَلِك اللَّفْظ فَالمَفْهُوم مِنْه : هُوَ الشَّخص عَلَى سَبِيل المُطابَقَة، وَإِذا حَضَر الشَّخص، فَقَد حَضَرَت أَوْصَافُه وَخَواصُّه، وَجَمِيع مَا يُلازِمُه.

فَاللَّفْظُ مَوْضُوع لِلشَّخْص المَوْصُوف بِذَلِك، لَكِن لاَ يُرَاد مِنْه الدِّلالَة بِطَرِيق العَلمِيَة إِلاَّ عَلَى الشَّخْص، فَعلَيْه يَدُلُّ مُطابَقَة، وَمَا سِوَى ذَلِك مِنَ اللَّوازِم وَالعَوارِض مَوْجُود مَعَه، غَيْر مَدْلُول <لَهُ>[1] عِنْد التَّخاطُب، إِلاَّ أَنْ يَكُون شَيْء مِنْ ذَلِك مَشْهُور الخُطُور بِالبَال عِنْد فَهْم المُسمَّى، فَيدُلُّ اللَّفْظ عَلَيْه بِطَرِيق الالْتِزَام، إِمَّا عَقْلِيا ذِهْنِيا أَوْ عُرْفِيا.

وَقَد يُلاَحظ مَعَ العَلَمِية شَيْء آخَر، مِنْ أَصْل أَوْ وَصْف حَاصِل أَوْ مَطْمُوع، فَيُفْهَم ذَلِك زِيَادَة عَلَيْها، كَمَا يُلاحَظ فِي الحَرَّاث مَعْنَى الحَرْث، وَفِي الفَضْل وَأَبِي الفَضْل مَعْنَاه الأَصْلِي، وَفِي حَاتِم مَعْنَى السَّخَاء لاشْتِهارِه بِهِ، وَفِي حُجَّة الإِسْلام كَوْنه حُجَّة لَهُ، إِمَّا بَعْد الحُصُول وَإِمَّا طَمَعاً وَتَفاؤُلا.

وَلِهَذا قَال الشَّاعِر :

أَتَيْتُ أَبَـا المَحَاسِـن كَـيْ أَرَاه بِشَوْق كَـادَ يَجْذِبُـنِي إِلَيْـه
فَلَمَّا أَنْ أَتَيْت رَأَيْـتُ فَـرْداً وَلَـم أَرَ مِـنْ بَنِيه ابْنـاً لَدَيْه

يُرِيدُ أَنَّه لَمْ يَجِد المَحاسِن.

207 وَمِنْ هَذَا المَعْنَى، تَخَيَّر النَّاسُ فِي الأَسامِي عِنْد تَسْمِية المَوْلُود/ ، وَالمَمْلُوك، وَالبَلَد، وَالفَرَس، وَنَحْو ذَلِك، قِيلَ لأَعْرَابِي : لِمَ تُسمُّون غِلْمانَكم

1 ـ سقطت من نسخة ح.

صَالِحاً وَمَرْزُوقاً ؟ وَأَبْنَاءَكُم حَرْبا وَمُرَّة وَحَنْظَلَة ؟ فَقَالَ : إِنَّا نُسَمِّي غِلْمَانَنا لأَنْفُسِنَا وَأَبْنَاءَنَا لأَعْدَائِنَا.

وَمِن هَذَا قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِذَا أَبْرَدْتُم إِلَيَّ بَرِيداً فَأَبْرِدُوهُ حَسَنَ الوَجْه حَسَنَ الاسْم»[1]. وَكَان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُغَيِّر الأَسْمَاء الَّتِي لاَ يَسْتَحْسِنُهَا، قَالَ لِرَجُلٍ «مَا اسْمُك ؟» فَقالَ غَاوٍ بْن عَبْد العُزَّى، فَقالَ : «بَلْ أَنْتَ رَاشِد بْن عَبْد رَبِّه».

وَقَالَ لآخَر «مَا اسْمُك ؟ فَقَال : حَزَن، فَقَالَ : «بَلْ أَنْتَ سَهْل»[2]، فَقالَ : مَا كُنْت لأُغَيِّر اسْماً سَمَّانِيه أَبِي. فَقَالَ : سَعِيد بْن المُسَيِّب[3] : وَكَان مِنْ نَسْل هَذَا الرَّجُل، فَمَا زَالَت الحُزونَة فِينَا بَعْدُ».

وَسَأَل عَنِ اسْمِ مَاءٍ، فَقِيلَ لَهُ : اسْمُه بَيْسَان وَمَاؤُه مِلْح، فَقَال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «بَلْ هُوَ نُعْمَان وَمَاؤُه عَذْب» ، فَكَان كَذَلِك بِبَرَكَته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[وَقَالَتِ العَرَبُ فِي مَثَل لَهُم : إِنَّما سُمِّيْتَ هَانِئاً لِتَهْنَأ[4].

وَقَال الشَّاعِر :

---

1 ـ أخرجه الشوكاني في الفوائد المجموعة : 220 رقم : 12. والديلمي في الفردوس / 1 : 371 رقم : 1054. ورواه البزار من عدة طرق عن بريده بن الحصيب الأسلم بلفظ «فابعثوه». قال الهيثمي : «وطرق البزار كلها ضعيفة». ورواه الطبراني عن أبي هريرة، فيه عمر بن راشد وثقه الحجلي وضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات. فيض القدير/ 1 : 237.

2 ـ أخرجه البخاري في كتاب الأدب الفرد، باب : تحويل الاسم إلى اسم. وأبو داود في كتاب الأدب، باب : تغيير الاسم القبيح.

3 ـ سعيد بن المسيب ابن حزن بن أبي وهب (ت : 94هـ)، عالم أهل المدينة، وسيد التابعين في زمانه، كان ممن برز في العلم والعمل، ويفتي والصحابة أحياء. تهذيب سير أعلام النبلاء/ 1 : 143.

4 ـ يضرب هذا المثل في الحض على البذل والإفضال، وعن الكسائي : «وسمعت أعرابيا يقول : إنما سميت هانئا لتهنأ، أي لتعول وتكفي». قال اليوسي رحمه الله : «وينبغي أن يضرب عند تحريض كل ذي وصف، أو لقب أو حرفة على فعل ما يوجبه ذلك الوصف، إما حقيقة كالقاضي للقضاء بين الناس، والمحتسب للاحتساب، والمعلم للتعليم، والصائغ للصياغة، ونحو ذلك. وإما على الاشتقاق فقط، كالإفضال لمن اسمه فضل، والحرث لمن اسمه حارث، والهنِيءُ لمن اسمه هانيء، فإن ذلك هو أصل المثل. فيقال للذي تسمى بالقاضي وتأبى عن الحكم : إنما سميت هانئا لتهنأ، أي : قيل لك قاض لتقضي بين الناس، ونحو هذا». زهر الأكم/ 1 : 132.

وَلِلْحَرْب سَمينَا فَكَانَ مُحَارِباً إِذَا مَا الْقَنَا أَمْسَى مِنَ الطَّعْنِ أَحْمَرا

وَأَمْثِلَة هَذَا كَثِيرَة، لَوْ تَتَبَّعْنَاهَا خَرَجْنَا عَنِ الغَرَضِ][1].

وَإِنْ كَانَ اللَّفْظُ كُلِيًّا، أَيْ دَالاً عَلَى كُلِّي، فَلَهُ مَفْهُوم وَهُو ذَلِك الكُلِّي المُشْتَرَك، وَلَهُ مَصْدُوق هُوَ جُزْئِيَات ذَلِك الكُلِّي، أَيْ أَفْرَادُه الَّتِي يَصْدق عَلَيْها، فَالمَفْهُوم فِي هَذَا القِسْمِ خِلاَف المَصْدُوق، وَمَدْلُول اللَّفْظ فِيهِ إِنَّمَا هُوَ المَفْهُوم، وَهُوَ الَّذِي وُضِع لَهُ لاَ المَصْدُوق، فَالقَائِم مَثَلاً مَعْنَاه : ذَاتٌ اتَّصَفَت بِالقِيَام، فَمَفْهُومُه القَائِم الكُلِّي، المَفْهُوم فِي الذِّهْن. وَمَصْدُوقُه قَائِمٌ خَاصٌّ مَوْجُود فِي الخَارِج، كَزَيْد وَعَمْرو مَثَلا، فَالمَفْهُوم مُتَّحِد دَائِماً، وَالمَصْدُوق يَصِحُّ تَعَدُّده.

وَكَذا رَجُل مَثَلا، مَفْهُومه الرَّجُل الكُلِّي المَوْجُود فِي جَمِيع الأَفْرَاد، أَوْ فَرْد مَا مُبْهَم، عَلَى الخِلاَف المُتَقَرَّر عِنْدَهُم فِي وَضْع النَّكِرَة، وَمَصْدُوقه كُلُّ رَجُل بِعَيْنِه، كَزَيْد وَعَمْرو، وَمَدْلُوله إِنَّما هُوَ الأَوَّل، وَهُوَ مَوْضُوعه دُونَ الثَّانِي.

وَكَذَا الضَّرْب مَثَلا، مَفْهُومُه هَذَا المَعْنَى المَفْهُوم فِي العُقُول الكُلِّي، وَمَصْدُوقه أَفْرَاده الوَاقِعَة فِي الوُجُود، كَضَرْب زَيْد لِعَمْرو، وَضَرْب خَالِد لِبكْر مَثَلا، وَالضَّرْب بِالسَّيْف، وَالضَّرْب بِالعَصَا، وَنَحو ذَلِك، وَمَدْلُولُه أَيْضا هُوَ مَفْهُوم الكُلِّي لاَ الأَفْرَاد.

غَيْر أَنَّ التَّلاَزُم وَاقِع فِي الوُجُود بَيْن هَذِه الأُمُور، فَإِنَّه كَمَا تَسْتَلْزِم الذَّات الصِّفَات الَّتِي تَتَّصِفُ بِهَا، كَذلِك الصِّفَات تَقْتَضِي ذَاتاً تَقُوم بِهَا، وَالكُلِّي إِنْ حَصَل لَهُ وُجُود فِي الخَارِج، اقْتَضى أَفْرَاداً يُوجَد فِيهَا، إِذْ لاَ يُوجَد لِنَفْسِه، وَالدِّلاَلَةَ وَالفَهْم شَيْء آخَر، فَالشَّيْء يَدُلُّ عَلَى الشَّيْء مُطَابَقَة، بِشَرْط أَنْ يُوضَع لَهُ، وَيَدُل عَلَى لاَزِمِه بِالاِلْتِزَام، إِنْ كَانَ اللُّزُوم بيِّناً، وَإِلاَّ فَلاَ.

1 ـ ساقط من نسختي ق و ك.

{تَحْرِيرُ مَذْهَب القَائِلينَ بِأَنَّ الاسْمَ الأَعْظَم جَامِعٌ للذَّات والصِّفات}

إِذَا عَلِمْت هَذَا، فَاعْلَم أَنَّ الاِسْم الأَعْظَم وَهُو الله، إِنْ اعْتَبَرْنَاه عَلَماً، سَوَاء كَانَ بِالأَصَالَة أَوْ بِالغَلَبَة، وَلَمْ نُلاحظ[1] فِيهِ شَيْئاً مِنَ الاشْتِقَاق أَصْلاً، فَهُو دَالٌّ عَلَى الذَّات العَلِيَّة المَوْجُودَة فِي الخَارِج، الجُزْئِيَة الَّتِي لاَ يُتَصوَّر أَنْ يَكُون لَهَا ثَانٍ، وَهَذا هُو دِلاَلَتُه لاَ غَيْر، كَدِلاَلَة لَفْظ زَيْد <عَلَى شَخْصِ زَيْد>[2]، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[3].

لَكِن الذَّات العَلِيَّة مُقْتَضِية لأَوْصَاف مِنَ التَّنْزِيهَات، وَالصِّفَات الوُجُودِية وَالثُّبُوتِية وَالفِعْلِية، دَلَّ العَقْل وَالشَّرْع عَلَى ثُبُوتِها كُلِّها لِلذَّاتِ العَلِيَّة، وَهِيَ مَعَ الذَّاتِ لاَ تُفارِقُها، فَالاِسْم الأَعْظَم دَالٌّ عَلَى الذَّاتِ المُتَّصِفَة بِهَذِه الأَوْصَاف كُلِّها.

وَهذَا مَعْنَى كَوْنه جَامِعاً لِلذَّاتِ وَالصِّفَات، وَالأَسْمَاء الحُسْنَى كُلُّها رَاجِعَة 208 / إِلَى هَذِه الصِّفَات، الدَّاخِلَة فِي هَذِه الجُمْلَة.

وَلَمَّا كَانَتِ الصِّفَات العُلْيَا وَالأَسْمَاء الحُسْنَى، كُلُّهَا ثَابِتَة لِلذَّاتِ العَلِيَّة، ثُبوتاً لاَ خَفَاء بِهِ عِنْد المُوَحِّد، حَتَّى كَأَنَّه بِهَذِه الصِّفَات، كَانَتِ الذَّاتُ الإِلَهِية ذَاتاً، كَانَ الاِسْمُ الأَعْظَم إِذَا أُطْلِقَ عِنْد العَارِف تُفْهَم مِنْه الذَّات العَلِيَّة، بِكُلِّ مَا لَهَا مِنَ الأَوْصَاف، كَمَا تُفْهَم مَاهِيَة الشَّيْء بِمَا لَهَا مِنَ الذَّاتِيَات، عِنْد سَمَاع اللَّفْظ المَوْضُوع لَهَا، فَيَصِحُّ بِهَذَا الاعْتِبَار، أَنَّ الاِسْم <الأَعْظَم>[4] دَالٌّ[5] عَلَى الذَّاتِ وَالصِّفَات.

---

1 ـ وردت في نسخة ح : تلاحظ.
2 ـ ساقط من نسخة ح.
3 ـ تضمين للآية : 60 من سورة النحل.
4 ـ سقطت من نسخة ح.
5 ـ وردت في نسخة ك : دلَّ.

وَمِثَاله فِي الشَّاهِد، أَنْ يُذكَر الاِسْم العَلَم الدَّال عَلَى مَلِك المُلُوك، فَإِنَّ مَنْ سَمِعَه وَكَانَ عَارِفاً بِذَلِك المَلِك وَأَوْصَافِه وَأَحْوَالِه، فِي زَيِّه وَحَشَمِه وَسِيرَته وَقُوته، يفْهَم عِنْد سَمَاع اسْمه ذَاتَه، وَيفْهَم أَحْوَالَه مَعَها لِمُقارَنَتِها لَهُ فِي الخَيَال، وَلأَنَّه مَا صَارَ مَلِكاً إِلاَّ بِهَا.

وَهَذا نَوْعٌ مِنَ الدِّلاَلاَت الاِلْتِزَامِيَات العُرْفِيَات، وَهِي فِي حَقِّ العَارِف. أَمَّا الجَاهِل بِالصِّفَات وَالغَافِل عَنْها، فَاللَّفْظ عِنْدَه دَالٌّ عَلَى الذَّاتِ، وَهِي جَامِعَة لِمَا لَهَا مِنَ الكَمَال فِي نَفْسِها، وَإِنْ لَمْ يُفْهَم مِنَ اللَّفْظِ، فَصَحَّ أَنَّ اللَّفْظَ جَامِعٌ لِلذَّاتِ وَالصِّفَات، لأَنَّه دَالٌّ عَلَى جَامِعهَا[1]، وَلاَ يُقَال : دَالٌّ عَلَى الذَّاتِ وَالصِّفَات فِي هَذَا الاعْتِبَار بَلْ جَامِعٌ لِذَلِك، وَبِهَذا يُعَبِّر المَشَايِخ.

ثُمَّ هَذَا كُلُّه، إِنَّمَا هُوَ إِنْ اعْتُبِرَ أَنَّ الاِسْمَ اِسْمٌ لِلذَّات، مِنْ غَيْر مُلاحَظَة الصِّفَات فِي التَّسْمِيَة، وَأَمَّا إِنْ اعْتُبِر بِأَنَّه اِسْم لِلذَّات المَوْصُوفَة بِالصِّفَات، مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا مَوْصُوفَة بِهَا، فَدِلالَة الاِسْمِ حِينَئِذ عَلَى ذَلِك كُلِّه بِالمُطَابَقَة وَاضِحٌ.

وَيَتَأَيَّد هَذَا، بِأَنَّ الوَاصِل إِلَى أَذْهَان الخَلْق، فِيمَا عُرِفَ مِنْ إِطْلاَق الاِسْم الأَعْظَم، إِنَّما هُوَ الذَّات المَوْصُوفَة بِهَذِه الصِّفَات، إِذْ لَمْ يَصِلُوا فِي العِبادَة إِلَى أَزْيَد مِنْ ذَلِك، مِنْ كُنْه الذَّاتِ، فَيُقَال المَفْهُوم هُوَ المُسَمَّى. لاَ يُقَال إِذَا اعْتُبِرَ المَوْصُوف كَانَ المُسمَّى كُلِّيا، وَالفَرْضُ أَنَّه جُزْئِي، لأَنَّا نَقُول : لَمْ يُعْتَبَر المَوْصُوف <مِنْ حَيْث>[2] المَعْنَى الكُلِّي، بَلْ ذَات مُعَيَّنَة مَوْصوفَة بِأَوْصَاف مُعَيَّنَة، وَهَذِه احْتِمالاَت عَقْلِيَة وَالله أَعْلَم بِغَيْبِه.

---

1 ـ وردت في نسخة ح : ما جمعها.
2 ـ ساقط من نسخة ك.

وَأَمَّا إن اعْتَبرنَا فِي الاسْمِ الأَعْظَمِ اشْتِقاقاً، بِأَنْ لاَحَظْنا أنَّه المَعْبُود، كَمَا قِيلَ ذَلِك فِيهِ فِي قَوْلِه تَعالَى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾[1] أَيْ المَعْبُود فِيهِما، وَتعْتَبر ذَلِك مِنْ حَيْث فَهْم الألوهِيَة مِنْه، أَوْ مِنْ حَيْثُ إِنَّ أَصْلُه الإِلَه، وَوَقَع الإدْغَام كَمَا مَرَّ، وَالإِلَه هُوَ المَعْبُود أو المُسْتَحِق لِلْعبَادَة، فَلاَشَكَّ حِينَئذ فِي فَهْم الذَّات وَجَمِيع الصِّفَات مِنْ هَذَا الاسْم، لأَنَّ الَّذِي يَسْتَحِق أَنْ يُعْبَد، هُوَ المُتَنَزه عَنْ كُلِّ النَّقْصِ، المُتَّصِف بِكُلِّ الكَمَال، المُسْتَغْنِي عَنِ الغَيْر، المُفْتَقِر إِلَيْه غَيْرُه، وَهَذا جامعُ[2] الصِّفَات كُلِّها.

إِذَا عَلِمْت مَا فِي هَذَا الاسْمِ الأَعْظَم مِنَ المَعْنَى، فَاعْلَم أَنَّ سَائِرَ الأَسْمَاء لَيْسَت كَهَذا الاسْم، وَلاَ تَحْتَوِي عَلَى مَا يحْتَوِي عَلَيْه، لأَنَّها كُلُّها مُشْتَقَّة، فَكُل وَاحِد مِنْهَا إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَاه الكُلِّي، وَلاَ يَدُل عَلَى الذَّات، وَلاَ عَلَى غَيْر ذَلِك المَعْنَى مِنْ سَائِر الصِّفَات، وَكَذا الصِّفَات نَفْسُها كَالقُدْرَة، إِنَّما تَدُل عَلَى مَعانِيهَا، وَتَقْتَضِي الذَّاتَ عَقْلاً لاَ لَفْظاً.

فَإِنْ قُلْتَ : المُشْتَق يَدُل عَلَى الذَّات، لأَنَّها جُزْء مَفْهُومه بِدِلالَة التَّضمُّن.

قُلْتُ : نَعَم، وَلَكِن الذَّات الكُلِّية لاَ المُعَيَّنَة الَّتِي الكَلاَم فِيهَا.

209 نَعَم، رُبَّمَا تُفْهَم بِطَرِيق اللُّزُوم / العُرْفِي، كَمَا مَرَّ فِي فَهْم الصِّفَات مِنْ لَفْظ الذَّات.

فَإِنْ قُلْتَ : وَحِينَئِذ فَالأَمْر كَالأَمْر، لأَنَّه إِذَا كَانَ الاِسْمُ الأَعْظَم جَامِعاً لاسْتِلزَام الذَّات لِلصِّفَات[3]، فَالمُشْتَق أَيْضا جَامعٌ لاسْتِلزَام مَعْنَاه لِلذَّات.

1 ـ الأنعام : 3.
2 ـ وردت في نسخة ح : جماع.
3 ـ وردت في نسخة ك : الصفات.

قُلْتُ : نَعَم، يَسْتَلزِم الذَّات، وَأَيْنَ مَا بَقِيَ مِنَ الصِّفَات ؟.

فَبِالجُمْلَة، الاِسْمُ الأَعْظَمُ دَالٌ عَلَى الذَّاتِ، <وَهِيَ>[1] مُسْتَتْبِعَة لِجَمِيع الصِّفاتِ، وكُلُّ اِسْم سِوَاه فَإِنَّما يَدُلُّ عَلَى مَفْهومِه، وَعَلَى تَقْدِير أَنْ يَسْتَلزِم الذَّات، فَقَدْ بَقِي مَا سِوَى ذَلِك، غَايَتُه أَنَّه مُسْتَلْزِم المُسْتَلْزِم، فَمَا يَكُونُ بِلاَ وَاسِطَة أَوْلَى.

وَاعْلَم أَنَّا قَد اعْتَبَرْنا فِي هَذَا البَابِ الأَعَمِّيَة، المَنْسوبَة لِلاِسْم الأَعْظَم، بِمَعْنَى الكَثْرَة، أَيْ أَنَّهُ دَلَّ بِحَسَب تَفَاصِيل المَعانِي، عَلَى أَكْثَر مِمَّا دَلَّ عَلَيْه غَيْرُه، وَلَو اعْتَبَرْنَاهَا بِمَعْنَاهَا المُصْطَلح [عَلَيْه][2] عِنْد أَرْبَاب الاسْتِدْلاَل فِي الصِّدْق وَالتَّلازُم، كَانَ أَخَص لاَ أَعَم، لأَنَّ الجُزْئِي أَخَص مِنَ الكُلِّي كَمَا لاَ يَخْفَى، وَالكُلُّ أَخَصُّ مِنَ الجُزْء[3]، وَالكُلِّية أَخَصُّ مِنَ الجُزْئِيَة، فَلَهُ الأَخَصِّيَة بِكُلِّ اعْتِبَار مِنَ الثَّلاَثَة.

ثُمَّ هَذَا كُلُّه ظَاهِر فِيمَا[4] بَيْنَه وَبَيْن الأَسْمَاء الدَّالَة عَلَى الأَسْمَاء المُفَصَّلة، كَالعَلِيم وَالقَدِير وَالحَيِّ وَالسَّمِيع وَالبَصِير وَنَحْوِها، وَكَذلِك المُؤْمِن وَالسَّلاَم وَالبَارِي وَالخَالِق وَنَحْو ذَلِك، وَأَمَّا الأَسْمَاء الدَّالَة عَلَى الصِّفَات الجَامِعَة كَالعَظِيم وَالجَلِيل وَالرَّب وَالكَبِير وَنَحْوِها، فَقَدْ يُقَال إِنَّها تَدُلُّ أَيْضاً عَلَى جَمِيعِ الكَمَال، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْه.

وَالجَوَاب، أَنَّها لاَ تَدُل عَلَى الذَّاتِ بِنَفْسِها، فَهُو يَفُوقها فِي ذَلِك، وَلِهَذا يُقَال إِنَّ الفَرْد أَخَصُّ مِنْ مَاهِيَتِه، وَإِنْ كَانَ[5] الوَاجِبُ الوُجُود لَيْسَ مَعْرُوضاً لِلتَّشَخُّص، وَفِي هَذَا مِنَ البَحْث مَا لاَ يَنْبَغِي فِي هَذَا المَقَام التَّجَاسُر عَلَيْه، فَلْنَصْرِف العِنَان إِلَى غَيْر هَذَا، فَفِي مَا ذَكَرْنَا إِنْ شَاءَ الله الكِفَايَة، وَقَدْ أَنْبَأَتِ الشَّجرَة عَنِ الثَّمَرَة.

---

1 ـ سقطت من نسخة ك.

2 ـ سقطت من نسختي ق و ك.

3 ـ وردت في نسخة ح : الجزئي.

4 ـ وردت في نسخة ح : في ما.

5 ـ وردت في نسخة ك : ولو كان.

الفَصْلُ السَّادِسُ

فِي كَوْن هَذِه الكَلِمَة المُشَرفَة أَفْضَل الأَذْكَارِ

وَفِيه بيَان كَوْنِها أَوْلاَها لِلسَّالِك السَّيَار، وَبيَان مَا فِي ذَلِك مِن اخْتِلاَف السَّالِكِين فِي الاخْتِيَار.

{فَضْل ذِكْر لاَ إِلَه إِلاَّ الله بِالنَّص والنَّظَر}

أَمَّا كَوْنُها أَفْضَل الأَذْكَار، فَهُوَ مَعْلُوم بِالنَّص وَالنَّظَر. أَمَّا النَّص فَقَدْ ذُكِر فِيهِ مِنَ الأَحادِيث مَا فِيه كِفَايَة، حَيْث تَكَلَّمْنَا عَلَى فَضْلِها، وَنَاهِيكَ بِقَوْلِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَفْضَل مَا قُلْتُه أَنَا وَالنَّبِيئُون مِنْ قَبْلِي لاَ إِلَه إِلاَّ الله»[1].

وَأَمَّا النَّظَر، فَهُوَ أَنْ نَنْظُر فِي مَعْنَاها عَلَى مَا مَرَّ مِنْ تَقارِيرِها عِنْد العَامَّة وَالخَاصَّة، فَتعْلَم أَنَّها أَفْضَل، وَحَسْبُك مِنْ ذَلِك مَا مَرَّ فِي الفَصْل الرَّابِع مِنْ هَذِه الخَاتِمَة، وَأَنَّها مُحْتَوِيَة عَلى مَعانِي سَائِر الأَذْكَار، وَأَنَّها سَارِيَة فِيهَا[2] سَرَيَان الاسْم الأَعْظَم فِي سَائِر الأَسْمَاء، فَهِي بِذَلِك رَأْسَ الأَذْكَار رَأْس الأَنْوَار، وَلاَ يُشْبِهُها شَيْءٌ مِنَ الأَقْوَال وَ<لاَ>[3] الأَفْعَال، وَلِهَذا أَخَّرْنا هَذَا الفَصْل، لِيَكُون كَالإِتْيَان بِالشَّيْءِ بَعْدَ <بيَان>[4] دَلِيله.

1 ـ سبق تخريجه في ص : 24.
2 ـ وردت في نسخة ك : فيه.
3 ـ سقطت من نسخة ك.
4 ـ سقطت من نسخة ك.

{الاخْتِلاَف فِيمَا يَنْبغِي للمُرِيد منَ الأَذْكَار}

وَأَمَّا كَوْنُها أَوْلَى لِلْمُرِيد السَّالِك، فَهُو بَيِّن مِنْ هَذَا أَيْضاً، وَلاَبُدَّ مِنْ ذِكْر مَا فِي ذَلِك مِن الاخْتِلاَف عَلَى وَجْه الإِيجَاز.

فَنقُول : قَدِ اخْتَلَف أَهْلُ السُّلُوك بِالذِّكْر فِي اخْتِيَار الذِّكْر الَّذِي يُلْتَزَمْ، فَمِنْهُم مَنِ اخْتَار «لاَ إِلَه إِلاَّ الله» <فِي الابْتِدَاء وَالانْتِهَاء>[1]، وَمِنْهُم مَن اخْتَارَ «لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله مُحَمَّد رَسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» فِي الابْتِدَاء وَالانْتِهَاء، وَمِنْهُم مَنِ اخْتَار الاقْتِصَار عَلَى الاسْمِ المُفْرَد وَهُوَ الله، وَمِنْهُم مَنِ اخْتَار هُوَ هُوَ[2].

210 وَجْه الأَوَّل : مَا مَرَّ مِنَ الأَحادِيث / وَالأَسْرَار.

وَوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ الشَّهادَة بِالرِّسالَة مِنْ تَتِمَّة الإِيمَان فَلاَ يَكْمُل إِلاَّ بِهَا.

وَوَجْه الثَّالِث : أَنَّ اسْمَ الحَقِّ جَلَّ وَعَزَّ هُوَ المَقْصُود، فَهُوَ بِالذِّكْر أَوْلى، وَلأَنَّ ذَاكِرَ الأَوَّل قَدْ يَمُوت بَيْنَ النَّفْي وَالإِثْبَات، وَلأَنَّه أَسْهَل عَلَى اللِّسَان وَأَقْرَب لِتَأْثِير القَلْبِ[3]، وَلأَنَّ «نَفْيَ العَيْب عَمَّنْ يَسْتَحِيل عَلَيْه العَيْبُ عَيْبٌ»، وَلأَنَّ نَفْيَ الأَغْيَار يَرْجِع إِلَى شَغْلِ القَلْب بِالأَغْيَار، وَذَلِك مُمْتَنِع عَلَى المُسْتَغرِق فِي التَّوْحِيد، وَلأَنَّ مَنْ قَالَ لاَ إِلَه إِلاَّ الله، فَهُو مُشْتَغِل بِغَيْر الحَقِّ.

وَمَنْ قَالَ الله، فَهُوَ مُشْتَغِل بِالحَقِّ، فَأَيْنَ أَحد المَقامَيْن مِنَ الآخَر ؟ وَلأَنَّ نَفْيَ الغَيْر إِنَّمَا يُكلَّف بِهِ عِنْد خُطُوره بِالبَال، وَأَهْل الله لاَ يَخْطُر لَهُم غَيْرَ الله تَعالَى، فَلاَ مَعْنَى لِتَكْلِيفِهم بِنَفْيِه، فَيَكْفِيهم أَنْ يَقولُوا[4] الله، وَلأَنَّ اللهَ تَعالَى قَالَ لِنَبِيِّه <صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ>[5]

---

1 ـ ساقط من نسخة ح.
2 ـ وردت في نسختي ق و ك : الهو هو.
3 ـ وردت في نسخة ك : القلوب.
4 ـ وردت في نسخة ك : يقول.
5 ـ ساقط من نسخة ح.

﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[1]، فَأَمَرَه بِذِكْر الله وَمَنعَه مِنَ الخَوْضِ فِي أَباطِيلِهِم، وَالقَوْل بِالشَّرِيك مِنَ الأَباطِيل، وَفِيه خَوْض الأَوْلَى تَرْكُه، وَالاقْتِصَار عَلَى ذِكْر الله.

وَذَكَر صَاحِبُ مِفْتَاح الفَلاَح هَذِه الوُجُوه ثُمَّ قَالَ : «وَجوَاب مَنْ قَالَ بِالنَّفْي وَالإِثْبَات عَنْ هَذَا مِنْ حَيْثُ المَعْنَى، أَنَّ النَّفْيَ لِلتَّطْهِير وَالإِثْبَات لِلتَّنْوِير، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : النَّفْي لِلتَّخْلِية، وَالإِثْبَات لِلتَّحْلِية، وَاللَّوْحُ إِذَا لَمْ تُزِل نُقوشهُ لاَ يُكْتَب فِيهِ شَيْءٌ، وَالقَلْب الوَاحِد لاَ يَصْلُح أَنْ يَكُون مَحلا لِشَيْئَيْن فَضْلا عَنْ أَشْيَاء، وَمَنِ امْتَلأَ قَلْبُه بِصُوَر المَحْسُوسَات لَوْ قَالَ الله، الله، الله، أَلْفَ مَرَّة قَلَّ مَا يَشْعُر قَلْبُه بِمَعْنَاها، وَإِذَا فَرغَ القَلْب عَنْ غَيْر الله، لَوْ قَالَ مَرَّة وَاحِدَة الله، يَجِد مِنَ الخَيْر مَا لاَ يَسْتَطِيع اللِّسَان وَصْفه»[2] انْتَهى.

وَقَال فِي مَحَلٍّ آخَرَ : «القَلْبُ مَشْحُون بِغَيْر الله، فَلاَبُد مِنْ كَلِمَة النَّفْي لِنفْي الأَغْيَار، فَإِذَا صَارَ خَاليا يُوضَع فِيهِ منْبَر التَّوْحِيد، وَيَجْلِس[3] عَلَيْه سُلْطَان المَعْرِفَة، وَمَا وُضِع فِي العُموم إِلاَّ أَفْضَل الأَشْيَاء، وَأَعمُّها مَنْفِعَة وَأَثْقَلُها وَزْناً، لأَنَّه يُماثِل بِها أَضْدَادا كَثِيرَة، فَلاَبُدَّ أَنْ يَكُون فِي ذَلِك المَوْضِع مِنَ القُوَّة مَا يُقَابل بِهِ كُلَّ ضِدٍّ، وَلِذَلك قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَفْضَل مَا قُلْتُه أَنَا وَالنَّبِيئُون مِنْ قَبْلِي لاَ إِلَه إِلاَّ الله»[4]. فَظَهرَ مَرْجوحِية مَن ادَّعَى الخُصُوصَ مِنْ ذِكْر الله الله، وَهُوَ مِنْ جُمْلَة الأَقْوَال الَّتِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، أَفْضَل مِنْهَا عِنْد العُلَمَاء بِالله.

فَعلَيْك يَا وَلِي بِالذِّكْر الثَّابِت فِي العُمُوم، فَإِنَّه الذِّكْر الأَقْوَى، وَلَهُ النُّور الأَضْوَى، وَالمَكانَة الزُّلْفَى، وَلاَ يَسْعَد بِذَلِك إِلاَّ مَنْ لَزِمَه وَعَمِل بِهِ حَتَّى أَحْكَمَه، فَإِنَّ الله مَا

1 ـ الأنعام : 91.

2 ـ نص منقول من مفتاح الفلاح مع بعض التغييرات اليسيرة جدا. ص : 38.

3 ـ وردت في نسخة ك : وينزل.

4 ـ سبق تخريجه في ص : 24.

وَضع رَحْمَتَه إلاَّ لِلشُّمولِ وَبُلوغِ المَأْمُول، فَمَنْ نَفَى «لاَ إلَه»[1] عَيْنه أَثْبت «إلاَّ الله» كَوْنه» انْتَهَى.

وَاعْلَم أنَّا لَمْ نَقْصِد بِهَذا الفَصْل، إلاَّ تَفْضِيل «لاَ إِلَهَ إلاَّ الله» عَلَى سَائِر الأَذْكَار الخَارِجَة عَنْهَا، كَذِكْر التَّنْزِيه وَالتَّحْمِيد مَثلاً، وَأَمَّا مَا وَقَع فِيهِ الاخْتِلاَف المَحْكِي هُنَا فَمُتقَارِب.

أمَّا قَوْلنا «لاَ إِلَهَ إلاَّ الله» وَقَوْلنا «لاَ إِلَه إلاَّ الله مُحمَّد رَسُول الله» فَلا يَنْبغِي أَنْ يَقَع بَيْنَهُما اخْتِلاَف مِنْ مُحَقِّق، فَإِنَّ الشَّهادَة بِالرِّسالَة مَقْرُونَة بِالشَّهادَة بِالأُلوهِية، وَلاَ يَتِمُّ الإِسْلام إلاَّ بِمَجْموعِهِما، فَهُما جُمْلتَان مُتوَاخِيتَان مُتلازِمتَان، حَتَّى كَأَنَّهُما جُمْلَة وَاحِدَة.

وَالأُولَى فِي بَابِ المَقاصِد، وَالثَّانِية فِي بَابِ الوَسائِل، فَإِنَّ الطُّرُق كُلَّها مَسْدودَة عَنِ الخَلْق، كَمَا قَالَ إِمَام الطَّائِفَة الجنَيْد[2] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلاَّ مِنْ اقْتِفَاءِ[3] آثاره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَيْف وَهُو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِرُّ الوُجود، وَمِفْتَاح / الشُّهُود، وَمُظْهِر الأَنْوَار، 211 وَقُطْب دَائِرَة الأَسْرَار صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَسَنذْكُر حُكْم الجُمْلَة الثَّانِيَة إِنْ شَاءَ الله فِي فَصْل عَلَى حِدَة، بَعْد الفَرَاغ مِنَ الأُولَى الَّتِي نَحْنُ فِيهَا الآنَ.

بَقِيَ النَّظَر فِيمَا بَيْن «لاَ إِلَهَ إلاَّ الله» وَبَيْن لَفْظِ الإِفْرَاد وَهُوَ «الله»، وَقَدْ رَأَيْت مَا قِيلَ فِي ذَلِك.

وَقَال بَعْضُ المَشايِخ: «وَالتَّحْقِيق فِي ذَلِك، أَنَّ هَذَا أَمْر يَرْجع إِلَى الذَّاكِر، فَإِنْ وَجد التَّأْثِير فِي قَلْبِه بِلاَ إِلَه إلاَّ الله لَزِمَها، وَإِنْ وَجَد التَّأْثِير بِلَفْظ الجَلالَة لَزِمَهَا،

1 ـ وردت في نسخة ق: فمن نفى لا إله إلا الله. ووردت في مفتاح الفلاح: ص 37: «فمنْ نَفَى بِلا إله عَيْنَه أَثبَتَ بِإلاَّ الله كَوْنَه»

2 ـ سبق التعريف به في ص: 48.

3 ـ وردت في نسخة ح: مَنِ اقْتَفى.

وَهذَان الذِّكْرَان أَيْضاً لَيْس فِي[1] التَّفاضُل بَيْنهُما مَا يُؤَدِّي إِلَى كَوْن «لاَ إِلَهَ إلاَّ الله» مَفْضولَة، لأَنَّها أَيْضاً شَيْء وَاحِد، فَإِنَّ المَقْصُود مِنْ «لاَ إِلَه إلاَّ الله» إِنَّمَا هُوَ الاسْم الأَعْظَم، فَمَنْ نَطَق بِهِ فَقَدْ أَثْبَتَه، وَمَنْ نَفَى غَيْرَه فَإِنَّمَا نَفَاه لِيُثْبِت هَذا الاسْمَ».

فَالحَاصِل هُوَ إِثْبَات «الله» إِمَّا مَعَ التَّعرُّض لِنَفْي غَيْرِه أَوْ لاَ، وَذَلِك يَخْتلِف، فَأَمَّا مَنْ يُرِيد الخُرُوج مِنَ الشِّرْك بِإِثْبَات آلِهَة، فَلابُدَّ لَهُ مِنَ النَّفْي وَالإِثْبَات، وَلِهَذا جُعِلَت الكَلمَة المُشَرفَة تَرْجِمَة عَلَى الإِسْلام. وَأَمَّا السَّالِم مِنَ الشِّرْك، فَلاَ عَليْه، وَلَكِن قَدْ يَقْتضِي حَالُه النَّفْي وَالإِثْبَات، وَيَكُون فِي ذَلِك شِرْبُه وَبِهِ مَزِيدُه، وَقَدْ يَقْتضِي الاسْم المُفْرَد، وَيكُون فِي ذَلِك شِرْبُه وَبِهِ مَزِيدُه، كَمَا أَشارَ إِلَى ذَلِك القَائِل المَذْكُور، وَتَعَيُّن ذَلِك مَوْكُول إِلَى الذَّوْقِ[2] وَالوِجْدَان.

وَالَّذِي يَظْهَر بِالنَّظَر العَقْلِي، أَنَّ النَّفْيَ وَالإِثْبَات صَالِح فِي الابْتِدَاء وَفِي الانْتِهَاء، مَعَ الكَمَال التَّام، وَالاسْم المُفْرَد، صَالِح فِي التَّوسُّط بَيْن هَذَيْنِ.

وَبيَان هَذَا، أَنْ تَعْلَم أَنَّ العِبَاد أَرْبَعَة : عَبْد مُشَاهِد لِلكَوْن غَائِب عَنِ المُكوِّن رَأْساً. وَعَبْد بِعكْسِه، مُشَاهِد[3] لِلمُكوِّن غَائِب عَنِ الكَوْن رَأْساً. وَعَبْد مُشَاهِد لِلكَوْن وَالمُكوِّن مَعَ بَقاءِ نَفْسِه. وَعَبْد مُشَاهِد للمُكوِّن وَالكَوْن[4]، مَعَ فَنَاء نَفْسِه وَالبَقَاء بِربِّه.

فَأَمَّا الأَوَّل، وَهُوَ المُشاهِد لِلكَوْن الغَائِب عَنِ المُكوِّن رَأْسا، فَلَيْس يَقعُ مِنْه الذِّكْر بِشيْء مِنَ الوُجوهِ، لأَنَّهُ جَاهِلٌ كَافرٌ. وَأَمَّا المُشاهِد لِلمُكوِّن، فَيقَع مِنْه الذِّكْر،

1 ـ وردت في نسخة ك : من .

2 ـ هو أول درجات شهود الحق بالحق، في أثناء البوارق المتوالية عند أدنى لبث في التجلي البرقي فإذا زاد وبلغ أوسط مقام الشهود سمى شربا، فإذا بلغ النهاية سمى ريا وذلك بحسب صفاء السر عن لحوظ الغير. من كتاب مصطلحات الصوفية.

3 ـ وردت في نسخة ح : شاهد.

4 ـ وردت في نسخة ح : للكون والمكون.

سَوَاء شَاهَد الأَكْوَان أَوْ لَمْ يُشاهِدَها، غَيْر أَنَّهُ تَخْتلِف أَحْوالُهم بِحسَب مَشْربِهِم، فَالمُؤْمِن مَادَامَ بَاقِياً مَعَ الأَكْوَان مَحْصورًا فِي سِجْن نَفْسِه، يُناسِبُه النَّفْي وَالإِثْبَات، فَالنَّفْي يُفِيده التَّطْهِير عَنْ غَيْرِ الله تَعالَى، وَالإِثْبَات يُفِيده التَّحَلي بِالمَعْرِفَة، كَمَا قَرَّرْنا ذَلِك فِيمَا مَضَى مِنَ الفُصولِ.

ثُمَّ لاَ يَزَال كَذلِك إِنْ سَبقَت لَهُ العِنايَة مِنَ اللهِ تَعالَى، حَتَّى تَمْحِي الأَغْيَار كُلُّها عَنْ قَلْبِه، فَلاَ يُشاهِد إِلاَّ الله تَعالَى، وَيكُون ذَلِك إِمَّا بَعْد السُّلوكِ وَالرِّياضَة، وَإِمَّا جَذْبا بِلاَ سُلوكٍ وَلاَ مُعاناةٍ، وَحِينَئِذٍ يُناسِبه[1] أَنْ يَقُول : «الله الله»، إِذْ لاَ شَيْء عِنْدَه غَيْر اللهِ تَعالَى حَتَّى يَنْفِيه، وَهِي حَالَة مَنْ تَحَقَّق فِي هَذَا المَقَام، وَيُمْكِن أَنْ يَسْتعمِل ذَلِك قَبْل التَّحقق بِهِ لِيَتحقَّق بِهِ.

وَإِذَا لَمْ يُشاهِد إِلاَّ الحَقَّ تَعالَى وَلَم يُشاهِد غَيْرَه أَصْلا، كَانَ فِي حَالةِ الفَناءِ، وَالله تَعالَى بِفَضلِه يَتولاَّه بِمَا سَبَق لَهُ فِي مَشيئَتِه، فَإِنْ أَبْقَاه فِي تِلْك الحَالَة كَان مُولَهاً، وَذَهبَت عَنْه التَّكالِيف الشَّرْعِية، وَإِنْ رَدَّه إِلَى الأَكْوَان بَعْد التَّمْكِين، وَجعَله مُشاهِداً لِلجَانِبَين رَاسِخَ القَدَم فِي الحَالَيْن، فَانِياً عَنْ نَفْسِه بَاقِياً بِربِّه، كَانَ كَامِلاً.

وَلاَشَكَّ أَنَّ الحَالَة المُتوسِّطَة، هِيَ كَامِلَة بِالنِّسبَة إِلَى الَّتِي قَبْلَها، وَلَكِن هَذِه الثَّالِثَة أَكْمَل مِنْها، لأَنَّها مَرْتَبة الخِلافَة الرَّبانِية، وَهِي مَنْزِلَة الأَنْبياء وَالمُرْسلينَ 212 / وَالصِّديقِين الَّذِينَ هُمُ الوُرَّاثُ، فَإِنَّ صَاحِبها هُوَ الصَّالح لأَنْ يُقْتدَى <بِهِ>[2]، وَأَنْ يَكُون حُجَّة لله تَعالَى عَلَى عِبادِه، وَواسِطَة بَيْنَه وَبَيْن خَلْقِه، فَيعْطِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، يُعْطِي الغَيْب حَقَّهُ[3] وَالشَّهادَة حَقَّها، وَالشَّرِيعَة حَقَّهَا وَالحَقِيقَة حَقَّهَا، وَهذَا يُناسِبُه النَّفْي وَالإِثْبَات.

---

1 ـ وردت في نسخة ك : يناسب.

2 ـ سقطت من نسخة ح.

3 ـ وردت في نسخة ك : حقها.

إذْ مِنْ جُمْلَة الحُقوقِ أَنْ يُعْطِي الحَقَّ حَقَّهُ مِنَ الإِثْبَات، وَالبَاطِل حَقَّهُ مِنَ النَّفْي، وَبهذَا بُعِثَت الرُّسُل، وَلِذَلك جَعَل النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلِمَة الإِخْلاص ذِكْراً مِنْ أَذْكارِه، بَلْ أَفْضَل أَذْكارِه، حَيْثُ قَالَ : صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَفْضَل مَا قُلْتُه أَنَا والنَّبِيونَ مِنْ قَبْلِي لاَ إِلَه إِلاَّ الله»[1]، وَيَرِث هَذَا المَعْنَى الوَارِثُ مِنَ الأَوْلِيَاء، لأَنَّهُ عَلى قَدمِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَبِهَذا تَعْلَم أَنَّ كَلِمَة الإِخْلاص، فِيهَا مَشْرَب العَامِّ وَالخَاص، كَمَا أَشَرْنا إِلَى ذَلِك فِي صَدْر الكِتَاب وَتَسْمِيتِه بِذلِك[2]، فَالعَامِّي يَقُولُها فِي بِدَايَته، وَالمُنْتهِي يَقولُها فِي نِهايَتِه، وَلَكِن الحَالَ مُخْتَلِف، فَالعَامِّي يَقُولُها لِيَتطَهَّر بهَا وَيَتحَلَّى، وَالمُنْتهِي يَقولُها إِمَّا فِي حَقِّ غَيْره فَلِيُطهَّر بِهَا وَيُحلَّى، وَإِمَّا فِي حَقِّ نَفْسِه فَقِياماً بِشهَادتِه، وَإِعَطْاء كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

وَأَمَّا المُتوسِّط فَلَمْ يَقُلْها، لأَنَّهُ مُتَطهِّر فَلَمْ يَحْتَج إِلَيْها، وَلَمْ تَقَع لَهُ النِّيابَة، فَلَمْ[3] يَقُمْ بهَا. وَالكَامِل لَمْ يَتْرُك الاسْمَ المُفْرَد، لِكَوْنِه مَشْغُولا عَنْهُ بِالأَغْيار، بَلْ لِلقِيَام بِحُقوقِ الأَغْيَار، وَإِلاَّ فَهُوَ لاَ يَشْتَغِل عَنْهُ، إِذْ ظَاهِره مَعَ الخَلْق وَباطِنه مَعَ الحَقِّ، <فَقَدْ>[4] حَصلَ لَهُ مَا حَصلَ لِلمُولَه بَاطِناً، وَزادَ عَليْه بِالظَّاهِر، لِقُوَّتِه بِتَقْوِيَة الله تَعالَى.

وَيَتَّسِع فِي هَذَا المَقَام المَجَال لِلقَوْل، وَنَحْنُ لَمْ نَتحَقَّق بِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ نَتعَقَّلُه، فَالأَوْلَى الإِمْسَاكُ عَنْهُ، بَلْ هُوَ مِنَّا كَالفَضولِ نَسْتَغفِر اللهَ مِنْهُ، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هَذَا الشَيْءَ لانْجِرار الكَلاَم إِلَيْهِ.

{الاخْتِلاَف المَشْهُور الوَاقِع بيْن الهَيْلَلة والحَمْدلَة}

ثُمَّ إِنَّك إِذَا فَهِمْت مِنْ هَذا الكَلاَم، أَنَّ الأَشْيَاء تَتفَاضَل وَتَتفَاوَت بِاخْتِلاَف

1 ـ سبق تخريجه في ص : 24.
2 ـ راجع الجزء الأول من كتاب مشرب العام والخاص : 288 وما بعدها.
3 ـ وردت في نسخة ك : ولم.
4 ـ سقطت من نسخة ك.

حَالِ الشَّخْصِ، أَمْكَنَك أَنْ تَفْهَم مِنْ ذَلِك مَعْنَى الاخْتِلاَف المَشْهُور، الوَاقِع بَيْنَ الهَيْللَة وَالحَمْدلَة، وَلاَشَكَّ أَنَّ ظَاهِرَ كَلاَم العُلمَاء فِي ذِكْر ذَلِك الاخْتِلاَف، هُوَ <أَنَّهُ>[1] اخْتِلاَف فِي أَيَّتِهِما أَكْثَر ثَوَاباً، لأَنَّهُم يَذْكرونَ مَا وَرَدَ فِي الحَدِيث مِنْ عَدَدِ الحَسنَات لِكُلٍّ مِنْهُما، وَهَذا أَمْرٌ خَارِجٌ عَمَّا نَحْن فِيهِ مِنَ الحَقائِق، فَإِنَّ مَا نَذْكُره مِنَ التَّفاوُت بَيْن هَذِه الأَذْكَار، إِنَّمَا هُوَ بِاعْتِبَار مَعانِيهَا وَأَسْرارِهَا وَنتائِجِها.

{مَقَامُ الهَيْلَلةِ}

وَوَجْه ذِكْر الاخْتِلاَف بَيْن الكَلِمتَيْن المَذْكورَتَين، هُوَ أَنْ نَقُول : مَنْ كَانَ مَشْربُه إِثْبَات الحَقِّ، وَإِبْطَال مَا سِوَاه، وَإِفْرَاد الله تَعالَى بِالأُلوهِية وَالفَنَاء عَنِ الأَغْيَار، وَهُم العَارِفُون المُوَحِّدُون، المُخْلِصُون المُتَوَكِّلونَ، فَمقَامُه الهَيْللَة وَفِيهَا مَزِيدُه.

{مَقَامُ الحَمْدلَة}

وَمَنْ كَانَ مَشْربُه الالْتِفَات إِلَى النَّعْمَاء وَالآلاَء، وَمُلاحظَة جَمَال الله تَعالَى وَما لَهُ مِنَ الكَمَال، فَمقَامُه الحَمْدلَة وَفِيهَا مَزِيدُه، ثُمَّ كُلٌّ مِنْهُما تَسْتَتبِع مَعْنَى الأُخْرَى، فَإِنَّ تَوْحِيدَ الله تَعالَى هُوَ أَعْظَم الثَّنَاء، وَأَنَّ الثَّنَاء عَليْه تَعالَى بِحَصْر ذَلِك فِيهِ تَوْحِيد لَهُ، فَافْهَم.

{التَّكْبِير لِدَفْع الاسْتِعظَام، والتَّسْبِيح لِدفْع التَعجُّب، والاسْترجَاع لِدَفْع المُصِيبَة، والحَسْبلَة لِدَفْع الضَّيْق}

وَلأَجْل اخْتِلاَف الحَال، كَانَ الاسْتِعظَام مَحلاً لِلتَّكْبِير، وَالتَّعجُب مَحَلاً لِلتَّسْبِيح، وَالمُصِيبَة مَحلاً لِلاسْترجَاع، وَالضَّيق مَحلاً لِلحَسْبلَة، إِلَى غَيْر ذَلِك.

1 ـ سقطت من نسخة ك.

فَكُلٌّ يَكُون فِي مَحلِّه أَلْيَق مِنْ غَيْرِه، وَقَدْ يَخْتَلِف ذَلِك بِاخْتِلاَف طَبائِع الذَّاكِرِينَ، وَمَا جُبِلوا عَلَيْه مِنَ الأَخْلاَق الَّتِي يُطْلَب غَسْلُها بِالذِّكْر، وَتَفْصِيل ذَلِك مَوْكُول إِلَى 213 القُدْوَة، المُربِّي النَّاظِر بِنُور الله تَعالَى، وَمِنْ هَذا المَعْنَى مَا كَانَ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ / يُعَلِّم أَصْحَابَه أَدْعِية وَأَذْكاراً مُخْتلِفَة، كُلاًّ بِحسَب مَا يَلِيق بِحالِهِ، وَالله المُوفِّقُ.

الفَصْلُ السَّابِعُ

فِي آدَابِ الذِّكْر علَى الجُمْلَة وَفِيه يُعْلَم آدَابُ الكَلِمة المُشرفَة لأَنَّهَا أَفْضَل الذِّكْر

اعْلَمْ أَنَّ لِلذِّكْر آدَاباً كَثِيرَة، ذَكرَها أَهْلِ الطَّرِيق، مِنْهَا آدَاب سَابقَة عَلَى الذِّكْر، وَمِنْها آدَاب مُقارِنَة، وَمِنْها آدَاب لاَحِقَة، ثُمَّ مِنْهَا ظَاهِرَة، وَمِنْهَا بَاطِنَة.

فَمِنَ الآدَاب السَّابِقَة : تَصْحِيح التَّوْبَة، وَتَهْذِيب النَّفْس بِالرِّيَاضَة، وَقَطْع العَلائِق الظَّاهِرَة وَالبَاطِنَة، وَالاعْتِزَال، وَتَحْصِيل العِلْم المَفْرُوض عَلَى الأَعْيَان، وَطَهارَة المَلْبَس مِنَ النَّجاسَة وَمِنَ الحَرَام، وَأَكْل الحَلاَل.

وَمِن الآدَاب المُقَارِنَة : أَنْ يُخْلِص ذِكْره لله تَعالَى، لاَ يُشوبُه[1] بحَظ، مِنْ نَيْل مَالٍ وَلاَ جَاهٍ، وَلاَ رِياسَة وَلاَ مَقَام، وَلاَ دَرجَة وَلاَ كَشْف، وَلاَ غَيْر ذَلِك، وَأَنْ يُطَيِّب رَائحَة المَجْلِس وَالمَلْبَس، لأَنَّ مَجالِس الذِّكْر لاَ تَخْلُوا مِنَ المَلائِكَة وَمُؤْمِنِي الجِنِّ، وَأَنْ يَسْتاكَ وَيَسْتَقبِل القِبْلة، وَيَجْلِس جَلْسَة التَّشهُّد أَوْ مُتربِّعاً.

قَالُوا : وَيَنْبَغِي إِنْ لَمْ يَكُن فِي جَماعَة، أَنْ يَكُون فِي خُلوَة مُظْلِمَة لاَ مَنْفذَ لَهَا، وَيُغْمِضَ عَيْنَيه، وَإِنْ كَانَ تَحت نَظَر شَيْخ، أَنْ يَتخَيَّله بَيْن عَيْنَيه، وَيَنْوِي الاسْتِمدَاد مِنْهُ، وَأَنَّ الشَّيْخ مُسْتَمِدٌّ مِنَ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنْ يَخْتَار مِنَ الذِّكْر مَا يُناسِب حَالَه، فَإِنْ ذَكَر «لاَ إِلَه إِلاَّ الله» فَلْيَذكُرها بتَعظِيم وَحُضُور، وَيَنْوِي بِالنَّفْي نَفْيَ كُلِّ مَا سِوَى الله تَعالَى كَائِناً مَا كَانَ لِيَحصُلَ لَه التَّخلِّي عَنْ كُلِّ مَا سِوى اللهِ تَعالَى، كَمَا مَرَّ لَنَا تَقْرِير ذَلِك، وَيَنْوِي بِ «إِلاَّ الله» إِيصَالَهَا إِلَى القَلْب اللَّحْمي الصَّنُوبَرِي الشَّكْل، لِيتَمكَّن فِي القَلْب، وَيَسْرِي فِي جَمِيع الأَعْضَاء.

---

1 ـ وردت في نسخة ح : يشوفه.

وَمِنَ الآدَابِ أَنْ يُحْسِن التَّلفُظ بِهَا، فَيمُدَّ «لاَ» بِقَدْر الحَاجَة. وَمِنَ النَّاس مَنْ كَره مَدَّها كَثِيراً، لِئلاَّ يَمُوت بَيْنَ النَّفْي وَالإِثْبَات. وَمِنْهُم مَنْ قَالَ ذَلِك : فِيمَن يُرِيد الدُّخُول فِي الإِسْلاَم. ثُمَّ يَتلَفَّظ بِالهَمْزَة، ثُمَّ يَمَدُّ لاَمَ «إِلَه» جِدًّا وَيَحْذَر مِنْ مَدِّ هَائِه، وَمِنْ تَخْفِيف «إِلاَّ» وَمَدِّ لاَمِها، كَمَا يَفْعلُه العَوَام أَهْل الأَغانِي، فَذلِك كُلّهُ لَحْن.

وَأَمَّا اسْم الجَلاَلَة فَإِنْ وَقَفَ فَعلَى حُكْم الوَقْف، وَالسُّكُون هُوَ الأَصْل، وَإِنْ وَصَل كَأَنْ يَقُولَ مَثلاً : «لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَه لاَ شَرِيكَ لَهُ»، فَالرَّفْع أَوِ النَّصْب عَلَى مَا مَرَّ فِي إِعْرابِها.

وَمِنَ الآدَابِ اللاَّحِقَة : أَنْ يَسْكُت عِنْد الفَراغ مِنَ الذِّكْر <سَكْتَة>[1]، مَعَ الخُشوعِ وَالحُضورِ، مُتلَقِيًّا لِمَا يَرِدُ عَليْه مِنْ وَارِدَات الذِّكْر، فَإِنَّ اللهَ تَعالَى كَمَا جَعَل الرِّيَاحَ نُشُراً بَيْن يَدَيْ رَحْمتِه المَطرِيَة، جَعَل الذِّكْر نُشُراً بَيْنَ يَديْ رَحمتِه الغَيْبِيَة، فَعسَى أَنْ يَرِدَ عَلَيْه فِي لَحْظَة مَا يَتحَلَّى بِهِ قَلْبه، مِمَّا لاَ يَنالهُ بِالمُجاهَدة الكَثِيرة، وَالرِّيَاضَة الطَّوِيلَة.

قَالُوا : وَهَذِه الآدَابُ كُلُّها، إِنَّمَا يَحْتَاج إِلَيْهَا الذَّاكِر مَادَامَ عَلَى اخْتِيارِه، فَأَمَّا المَسْلُوب الاخْتِيَار فَهُو تَابِع لِمَا يَرِد عَلَيْه فِي وَقْتِه، فَقَد يَجْرِي عَلَى لِسَانه : «الله الله الله»، وَقَد يَجْرِي عَلَيْه : «هُوَ هُوَ»، وَقَدْ يَجْرِي عَلَيْه «لاَ لاَ لاَ»، <وَقَدْ يَجْرِي عَلَيْه «الاَّ الاَّ»>[2]، وَقَدْ يَجْرِي عَلَيْه «أَوَاه أَوَاه» أَوْ نَحْو ذَلِك، وَقَدْ يَقَعُ مِنْه صَوْت آخَرَ لاَ يَنْضَبِط، وَأَدَبه فِي ذَلِك كُلِّه التَّسْلِيم لِلوَارِد، وَبَعْد انْفِصَاله عَنْه يَكُون سَاكِتاً سَاكِناً.

ثُمَّ هَذِه الآدَاب أَيْضاً، إِنَّما هِيَ لِمَن يَحْتَاج إِلَى ذِكْر اللِّسَان، وَأَمَّا مَنْ صَارَ الذِّكْر إِلَى قَلْبِه، فَخارِج عَنْ هَذَا، وَالله المُوفِّق.

---

1 ـ سقطت من نسخة ح.

2 ـ ساقط من نسخة ح.

الفَصْلُ الثَّامِنُ

214 / فِي ذِكْر كَيْفِيَات مُخْتلِفَة لِذكْر هَذِه الكَلمَة المُشرفَة وَغَيْرِهَا مِنَ الأَذْكَار

اعْلَم أَنَّ كُلَّ مَا ذَكرْنَاه مِنَ الآدَابِ، فِي هَذا الفَصْل الَّذِي فَرغْنا مِنْهُ، هِيَ كَيْفيَات، غَيْر أَنَّ الكَيْفِيَة إِمَّا أَنْ تَكُون مُقابِلَتها، لَهَا مَدْخَل فِي الفَضِيلَة أَيْضاً فِي بَعْضِ الأَحْيَان، أَوْ تَكُون لاَ مَدْخَل لَهَا فِي الفَضِيلَة، أَوْ لاَ مَدْخَل لَهَا فِي المَشْروعِيَة أَصْلا، فَإِنْ لَمْ يَكُن لِلمُقابَلة مَدْخَل فِي المَشْروعِية أَصْلاً، تَعيَّنَت هِيَ كَالإِخْلاصِ، فَإِنَّ مُقابِلَه غَيْر مَشْروع أَصْلاً، وَإِنْ لَمْ يَكُن لَهَا مَدْخَل فِي الفَضِيلَةَ، تَعيَّنَت هِيَ فِي الوَجه الأَكْمَل، وَإِنْ كَانَ مُقابِله أَيْضا يَحْصُل مَعهُ الثَّوابُ، وَذلِك كَالاسْتِقبَال، فَإِنَّه[1] أَكْمَل.

وَمَنْ ذَكَر اللهَ وَهُو مُسْتَدْبِر، فَغَيْر مَحْرُوم مِنَ الثَّوَاب، وَلَكِن الاسْتِقبَال أَكْمَل، وَإِنْ كَانَ لِلمُقابَلة مَدْخَل فِي الفَضِيلَة أَيْضاً، فَلاَ تَتعَيَّن هِيَ عَلَى الإِطْلاقِ، وَلكِن يُنْظَر إِلَى اخْتِلاَف الحَالِ، وَذلِك كَالذِّكْر سِرًّا فَإِنَّ لَهُ فَضِيلَة، وَقَدْ تَكُون الفَضِيلَة لِلجَهْر دُونَه، فَلابُدَّ مِنْ ذِكْرِهِمَا مَعاً، فَعَقدْنَا هَذَا الفَصْل لِبيَان الجِنْس مِنَ الكَيْفِيات، الَّتِي تَخْتلِف بِاخْتِلاَف الأَحْوَال.

فَنقُول : إِنَّ الذِّكْرَ لَهُ كَيْفِيَات تَعْرِض لَهُ، بِاعْتِبَار نَفْسِه، وَبِاعْتِبَار زَمانِه، أَوْ مَكانِه، وَبِاعْتِبَار الذَّاكِر.

---

1 ـ وردت في نسخة ك : فإنها.

أَمَّا بِاعْتِبَار نَفْسِه، فَكَأَنْ يَكُون بِلَفْظ كَذَا، كَالهَيْللَة، أَوْ بِلَفْظ آخَرَ كَالتَّكْبِير، أَوِ التَّسْبِيح، وَكَأَن يَكُون بِاللِّسَان أَوْ بِالقَلْب مَثلاً، أَوْ بِهِمَا، وَكَأَن يَكُون سِرًّا أَوْ جَهْراً، إِلَى غَيْر ذَلِك مِنَ الأَحْوَال. وَأَمَّا بِاعْتبَارِ زَمانِه أَوْ مَكانِه فَكَأَن يَكُون فِي وَقْت كَذَا أَوْ فِي وَقْتِ كَذَا، وَكَذَا فِي مَكانِ كَذَا أَوْ مَكانِ كَذَا. وَأَمَّا بِاعْتبَارِ الذَّاكِر، فَكَأَنْ يَكُونَ وَحْدهُ أَوْ فِي جَماعَة، وتَقدَّم غَيْر ذَلِك مِنَ الأَحْوَالِ كَكَوْنِه مُخْلِصا وَحَاضِراً وَتائِباً وَمُسْتقبِلاً وَغَيْر ذَلِك، وَهِيَ أَحْوَال مُضافَة لِلذِّكْر أَيْضا، كَمَا أَنَّ أَحْوَال الذِّكْر تُضافُ أَيْضاً إِلَى الذَّاكِر.

وَلْنَذكُر هَا هُنَا بَعْض مَا لَمْ يَتقدَّم ذِكْرُه، فَمِنْ ذَلِك لَفْظُ الذِّكْر.

{مَا قِيلَ فِي الأَذْكَارِ العَشَرَة}

قَالَ بَعْض المَشايِخ: «إِنَّ الأَذْكَار الَّتِي تُسْتعمَل عِنْد الذَّاكِرينَ عَشْرَة أَجْناسٍ، وَتَحْت كُلِّ جِنْس أَنْوَاع، وَأَشْخاصٌ، لاَ تَنْحصِر:

فَأَوَّلُها، التَّعوُّذ وَمَا فِي مَعْنَاه، قَالَ: وَيكُون لَهُ ثَلاَث دَرجَات، الأُولَى التَّعَوُّذ مِنَ العَوارِض الجِسْمانِيَة، فَيَسْتعْمِلُه الصُّوفِي عِنْد النَّزغَات الشَّيْطانِية فِي الخَواطِر الجِسْمانِية، إِلَى أَنْ يَحْصُل لَهُ البَراءَة مِنْ ذَلِك، كَمَا قَالَ تَعالَى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾[1]، وَالثَّانِيَة التَّعوُّذ مِنَ[2] الخَواطِر الرُّوحَانِية، وَالثَّالِثَة التَّعوُّذ مِنْ خُطُورِ مَا سِوَى الله تَعالَى.

ثَانِيهَا، البَسْملَة وَكُلُّ مَا فِي مَعْناهَا، وَتُسْتعمَل لِدَفْع الدَّعاوَى الظَّاهِرَة وَالبَاطِنَة، بِالخُروجِ عَنِ الحَوْل وَالقُوَّة، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِاللهِ تَعالَى.

---

1 ـ الأعراف: 200 ـ فصلت: 36.

2 ـ وردت في نسخة ك: على.

ثَالِثُها، الاسْتِغفَار وَلَهُ ثَلاَث دَرجَات : الأُولَى الاسْتِغفَار مِنَ الكَبائِر وَالصَّغائِر. الثَّانِيَة الاسْتِغفَار مِنَ الغَفْلَة. الثَّالِثَة الاسْتِغفَار مِنْ كُلِّ مَا سِوَى الله تَعالَى.

رَابِعُهَا، الصَّلاَة عَلَى النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ فِي حَقِّ الذَّاكِر وُجُود الرَّحْمَة، وَتَكُون لأَهْل الظَّواهِر، وَلأَهْل البَواطِن، وَلِلأَوْلِيَاء وَالأَنْبِيَاء.

خَامِسُها، التَّقْدِيس مِنَ المَطاعِم[1] وَالمَشارِب، وَمِنَ الجِهَات وَالتَّصورَات.

سَادِسُهَا، التَّسْبِيح، وَهُوَ تَنْزِيه الحَقِيقَة عَنْ مُشابَهة الخَلِيقَة، وَعَنْ مُشابَهةِ 215 الأَرْواح وَالنُّفُوس/ ، وَعَنْ مُشابَهة العُقُول، وَيَرْجِع إِلَى تَمْيِيز القَدِيم عَنِ المُحْدَث.

سَابِعُهَا، الحَمْدُ لله، قَالَ وَلَهُ ثَلاَث دَرجَات : الأُولَى، الاتِّصَاف بِظوَاهِر أَسْمَاء اللهِ الحُسنَى، ثُمَّ الاتِّصَاف بِبَواطِنهَا، ثُمَّ الاتِّصَاف بِحَقائِقِها.

ثَامِنُها، التَّهْلِيل، وَمَعْنَاه إِفْرَاد المَعْبُود، وَلَهُ أَيْضاً ثَلاَث دَرجَات : الأُولَى، الخَلاصُ مِنَ الشِّرْك الجَلِّي. الثَّانِية، الخَلاصُ مِنَ الشِّرْك الخَفِيِّ. الثَّالِثَة، الخَلاَص مِنْ شِرْك الأَنَانِيَات، وَفائِدتهُ إِفْرَاد المَعْبُود فِي كُلِّ وُجُود.

تَاسِعُهَا، التَّكْبِير، وَمَعْنَاه التَّعْظِيم وَالإِجْلاَل، وَلَهُ أَيْضاً ثَلاَث دَرجَات : الأُولَى، تَحْقِير الدُّنْيا وَمَا فِيهَا. الثَّانِية، تَحْقِير كُلِّ مَا سِوَى الله حَالاً. الثَّالِثَة، تَعْظِيم المَعْبُود كَشْفاً.

عَاشِرُها، لاَ حَوْل وَلاَ قُوَّة إِلاَّ بِالله، وَهِيَ رُكْن الاعْتِصَام، وَلَها ثَلاَث دَرجَات : الأُولَى، تَوْحِيد الأَفْعَال. الثَّانِيَة، تَوْحِيد الصِّفَات بِحَسَب تَعلُّق الأَفْعَال بِهَا. الثَّالِثَة، اضْمِحلاَل كُلُّ مَا سِوَى الله تَعالَى، فَيَكُون العَبْد بِالله تَعالَى، وَفِي ذَلِك الغِنَى

1 ـ وردت في نسخة ك : المطامع.

الأَبدِي، لأَنَّ مَنْ كَانَ بِاللهِ تَعالَى فَمَدَدُه لاَ يَنْقطِع أَبداً، وَلِذَلِك قَال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «لاَ حَوْل وَلاَ قُوَّة إِلاَّ بِالله كَنْزٌ مِنْ كُنوزِ الجَنَّةِ»[1].

وَمَا ذَكرهُ هُنَا، إِنَّما هُوَ الأَذْكَار المَعْهُودَة، وَالخَمْسُ الأَخِيرَة مِنْهَا هِيَ البَاقِيَات الصَّالِحَات، وَقَدْ مَضَى الكَلاَم فِيهَا، وَلَمْ يَنْحصِر الذِّكْر فِي هَذِه الأَجْنَاس، لأَنَّ القُرْآن هُوَ أَعْظَم الأَذْكَار، وَتَقدَّم أَنَّ العِبادَات كُلُّها قَوْلِية كَانَت أَوْ فِعْليَة أَوِ اعْتِقادِيَة ذِكْرٌ، فَالمُصَلِّي ذَاكِرٌ، وَالمُعلِّم وَالمُتَعلِّم ذَاكِرٌ، وَالمُتفَكِّر ذَاكرٌ، وَذكَرْنا ذَلِك فِي بَيانِ مَاهِيَة الذِّكْرِ.

{لاَ يُحتَقَر الذِّكْر اللِّسَانِي وَلاَ يُتْرَك}

وَمِنْ ذَلِكَ كَوْن الذِّكْر بِاللِّسَان أَوْ بِالقَلْب. فَنقُول : إِنَّ الذِّكْرَ يَكُون بِاللِّسانِ، وَهُو إِجْراءُ مَا مَرَّ وَنَحْوه عَلَى اللِّسَان، وَيكُون بِالقَلْب، وَهُوَ إِجْرَاء مَعْنَى ذَلِك فِي القَلْب، فَإِنِ اجْتمَع اللِّسَان وَالقَلْب فَهُوَ أَكْمَل، لأَنَّهُ هُوَ ذِكْر الحُضورِ، وَإِنِ انْفرَد، فَالقَلبِي أَعْظَم فَائدَة مِنَ اللِّسانِي وَأَوْلَى، وَمَعَ كَوْن اللِّسانِي أَضْعَف، فَلاَ يُحْتَقَر وَلاَ يُتْرَك، فَقَدْ وَرَد فِيهِ فَضْل كَثِير، لأَنَّهُ الطَّرِيقُ إِلَى ذِكْر القَلْب، وَلأَنَّ اشْتِغالَ اللِّسَان بِهِ عِصْمَة مِن اشْتِغالِه بِالسُّوءِ.

قَالَ فِي الرِّسالَة : «الذِّكْرُ رُكْن قَوِيٌّ فِي طَرِيق الحَقِّ سُبْحانَه، بَلْ هُوَ العُمْدَة فِي هَذا الطَّرِيق، وَلاَ يَصِل أَحَدٌ إِلَى الله تَعالَى إِلاَّ بِدوَام الذِّكْر. وَالذِّكْر عَلَى ضَرْبَيْن : ذِكْر اللِّسَان وَذِكْر القَلْب، فَذِكْر اللِّسَان، بِهِ يَصِل العَبْد إِلَى اسْتِدامَة ذِكْر القَلْب، وَالتَّأْثِير لِذكْر القَلْب، فَإِذَا كَانَ العَبْد ذَاكِراً بِلسَانِه وَقَلبِه، فَهُوَ الكَامِل فِي وَصْفِه فِي حَالِ سُلوكِه»[2] انْتَهى.

1ـ أخرجه أحمد في مسند الأنصار.
2ـ نص منقول من الرسالة القشيرية : 221.

وَقِيلَ لِبَعْضِ المَشَايِخ : «مَا لَنَا نَذْكُر اللَه وَالقَلْب غَافِل؟ فَقَالَ لِلقَائِل : أُشْكُرِ الله عَلَى مَا وَفَّق لَهُ مِنْ ذِكْر اللِّسَان، وَلَوْ أَجْرَى مَكانَه الغَيْبَة مَا كُنْتَ تَصْنَع؟».

وَقَالَ المَشَايِخ : «الذِّكْر ثَلاَث دَرجَات : ذِكْر اللِّسَان، وَذِكْر القَلْب، وَذِكْر السِّر».

قَالَ فِي مِفْتَاح الفَلاَح : «فَذِكْر الحُرُوف بِلاَ حُضُور، هُوَ ذِكْر اللِّسَان، وَذِكْر الحُضُور فِي القَلْب هُوَ ذِكْر القَلْب، وَذِكْر الغَيْبَة عَنِ الحُضُور فِي المَذْكُور ذِكْر السِّر، وَهُوَ الذِّكْر الخَفِي»[1] انْتَهَى.

وَفِي كَلاَم لِحُجَّة الإِسْلاَم[2] رَضِيَ اللهُ عَنهُ فِي هَذَا بَعْد ذِكْر دَرجَات الذِّكَر، وَأَنَّ أَعْلاَها أَنْ يَفْنَى عَنْ نَفْسِه ذَاهِبا إِلَى رَبِّه، وَيَفْنَى عَنِ الفَنَاء أَيْضاً. ثُمَّ قَالَ : «وَإِنَّما مَبْدَأُها ذِكْر اللِّسَان ثُمَّ ذِكْر القَلْب تكَلُّفا، ثُمَّ ذِكْر القَلْب طَبْعا، ثُمَّ اسْتِيلاَء المَذْكُور وَامِّحَاءِ الذِّكْر».

216 وَفِي الحِكَم[3] : «لاَ تَتْرُكِ الذِّكْر لِعدَم حُضورِك/ مَع الله فِيه، لأَنَّ غَفْلتَك عَنْ وُجودِ ذِكْرِه، أَشَدُّ مِنْ غَفْلتِك فِي وُجودِ ذِكْرِه، فَعسَى أَنْ يَرْفعَك مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَفْلَة، إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ يَقظَة، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ يَقظَة، إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ حُضُورٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حَضُورٍ، إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَيْبَةٍ عَمَّا سِوَى المَذْكُورِ، ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾[4]»[5].

وَقَدْ يُرِيدُون بِذِكْر القَلْبِ : ذِكْر الله تَعالَى عِنْد أَمْرِه وَنَهْيِه، وَهُوَ مِنْ أَعْظَم الذِّكْر، وَيَتَعقَّل فِي ذَلِك صُورَتَان :

1ـ نص منقول من مفتاح الفلاح : 8.
2ـ سبقت ترجمته في ص : 43.
3ـ المقصود به كتاب الحكم العطائية.
4ـ تضمين للآية : 20 من سورة إبراهيم، والآية : 17 من سورة فاطر.
5 ـ الحكمة السابعة والأربعون من الحكم العطائية : 198.

إِحْدَاهُما، ذِكْر الله تَعالَى عِنْد سَمَاع أَمْرِه، لِتَتحرَّكَ دَاعِيَة الامْتِثالِ. وَعِنْد سَماعِ نَهْيِه، لِتَتَحرَّكَ دَاعِية الانْتِهَاء، وَذَلِك عَلَى حَذْف، أَيْ ذِكْر ثَوَاب الله تَعالَى وَعِقَابه، أَوْ ذِكْر تَكْلِيفه، أَوْ ذِكْر عَظمَته وَرُبُوبِيَته، المُقْتَضِية أَنْ يُطاعَ وَلاَ يُعْصَى، وَهُوَ أَرْفَع.

الصُّورَة الثَّانِية، ذِكْر الله < تَعالَى >[1] عِنْد الحَرَكَة أَوِ السُّكُون، إِلَى فِعْلٍ أَوْ قَوْلٍ مَّا، مِنْ عِبَادَة أَوْ مُعامَلة أَوْ إِيقَاع، أَيْ ذِكْر أَمْره وَنَهْيه، فَيُفْعَل أَوْ يُتْرُك، وَيَتَّسِع هَذَا البَاب إِلَى غَيْر هَذَا، فَإِنَّك تَذْكُر عَظمَة الله تَعالَى فَتَخْشَع، وَتَذْكُر نَظرَه إِلَيْك فَتَسْتَحْيِي، وَتَذْكُر ضَمانَه فَتَتَّكِل عَلَيْه وَتَطْمئِنُّ، وَتَذْكُر وَعْدَه وَوَعِيدَه، وَفَضْلَه وَعَدْلَه، فَتَرْجُو وَتَخاف، إِلَى غَيْر هَذَا مِمَّا تَقدَّمَ.

وَالذِّكْر فِي هَذَا كُلِّه وَنَحْوِه، مَعْنَاهُ : حُضُورُ الشَّيْءِ، وَهُوَ ضِدُّ النِّسْيانِ وَالغَفْلَةِ، وَاللهُ المُوَفِّقُ.

فائـــدة : {فِي تَفسِير مَعانِي النَّفْس والرُّوح والقَلْب والبَاطِن والسِّر}

وَقَع فِي كَلاَم أَهْل هَذَا الطَّرِيق، ذِكْر القَلْبِ، وَالسِّر، وَالنَّفْس، وَالرُّوح، وَالبَاطِن. وَقَدْ خَاضُوا فِي مَعانِيها وَتَفْسيرِها، وَأَمْعنُوا فِي التَّفْرِيق بَيْنَها، وَمَنْ أَرَاد ذَلِك فَلْيَنْظُر كِتَاب عَجائِب القَلْب مِنْ إِحْيَاء عُلُوم الدِّين[2].

وَأَوْضَح كَلاَم فِي ذَلِك، رَأَيْتُه قَرِيباً لِلمُبْتَدِئينَ مِنْ أَمْثالِنا، مَا وَقعَ فِي بُغْيَة الإِمَام السَّاحِلِي[3] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَإِنَّه قَالَ : «قَدْ يَجْرِي لَنَا أَثْنَاء كَلامِنا فِي هَذَا المَجْمُوع، ذِكْر النَّفْس، وَالقَلْب، وَالرُّوح، وَالسِّر، وَالبَاطِن، فَقَد يَظُنُّ الظَّان أَنَّ اخْتِلاَف هَذِه الأَسامِي لاخْتِلاَف مُسمَّياتِها، وَلَسْتُ أُرِيدُ بِهَا إِلاَّ مُسَمًّى وَاحِداً، وَاخْتِلاف

1 ـ سقطت من نسخة ح.
2 - كتاب شرح عجائب القلب وهو الأول من ربع المهلكات. الإحياء/ 3 : 2 وما بعدها.
3 ـ سبق التعريف به في ص : 13.

أَسامِيه لاخْتِلاَف صِفاتِه، وَهُو الرُّوح : الجَوْهَر اللَّطِيف الصَّافِي الشَّرِيف، الذَّاكِر العَارِف، مَهْبِط الأَنْوَار الإِلهِيَة، الصَّادِر مِنْ أَمْرِ الله تَعالَى.

فَمَا دَامَ مَائِلاً إِلَى جَنْبَة[1] النَّقْص فِي أَغْلَب الأَحْوَال، أُعَبِّر عَنْه بِالنَّفْس، وَلاَيَزَال مَعَ قِيامِه بِوَظَائِف مَقَام الإِسْلاَم، تَضْعُف فِيهِ جَنْبَةُ النَّقْصِ[2]، وَتَقْوَى فِيهِ جَنْبَة الكَمَال، حَتَّى إِذَا تَخَلَّص مِنْ مَقامِ الإِسْلاَم، تَساوَت عِنْدَه الجَنْبَتَان فيَتقَلَّب بَيْنَهُما[3]، فَعِنْد ذَلِك أُعَبِّر عَنْه بِالقَلْب.

وَلاَ يَزَال مَعَ قِيامِه بوظائِف مَقَام الإِيمَان، تَغْلُب جَنْبَة الكَمَال عَلَى جَنْبَة النَّقْص، حَتَّى إِذَا تَخلَّص مِنْ مَقامِ الإِيمَان، اتَّحَدَت فِيهِ جَنْبَة الكَمَال، لَكِن يَبْقَى مَعهَا أَثَر مِنْ ذَلِك النَّقْصِ، كَمَا يَبْقَى أَثَر الجِراحَات بَعْد البُرْءِ، فَعِنْد ذَلِك أُعبِّر عَنْهُ بِالرُّوحِ.

فَلاَ يزَال مَعَ قِيامِه بِوظَائِف مَقَام الإِحْسَان، حَتَّى تَذْهَب تِلْك الآثَار وَتَتخَلَّص تَصْفِيتُه، فَعِنْد ذَلِك أُعبِّر عَنْهُ بِالسِّر، وَرُبَّما أَشْكَل الأَمْر فِيمَا رُقِّيَ إِليْه أَوْ رُقِّيَ عَنْهُ، فَأُعبِّر عَنْهُ بِالبَاطِن، وَقَدْ أُعبِّر بِبَعْض الأَسامِي عَنْ مُقْتَضَيات بَعْضِها، عَلَى وَجْه الاتِّسَاع وَالمَجَاز، وَذلِك فِي القَلِيل، وَفِي الكِتَاب[4] وَالسُّنة مِنْ ذَلِكَ كَثِير»[5] انْتَهَى.

217 / وَمَا ذَكَرَه وَاضِح، إِلاَّ مَا فَسَّر بِهِ لَفْظ البَاطِن، فَإِنَّه لَمْ يُوَضِّحُه كَمَا يَنْبغِي، وَتَوْضِيحه كَمَا اسْتُقْرِئَ مِنْ كَلامِهم، هُوَ أَنَّهُ إِذَا قِيلَ بِاطِن الإِنْسَان، فَالمُرَاد بِهِ هَذِه الأَشْيَاء، أَعْنِي النَّفْس وَالقَلْب وَالرُّوح، وَقَدْ يُرَاد بِهِ مَا فِيهَا مِنَ الأَخْلاَق الحَمِيدَة وَالذَّمِيمَة، وَإِذَا قِيلَ عِلْم البَاطِن، فَالمُرَاد بِهِ العِلْم البَاحِث عَنْ ذَلِك كُلِّه، وَمَا يَتعلَّق بِهِ مِنَ الأَحْكَام وَالآدَابِ، وَهُوَ يُقابِل عِلْم الظَّاهِر، وَالله المُوفِّق.

---

1 ـ يعني الناحية.
2 ـ وردت في نسخة ك : النفس.
3 ـ وردت في نسخة ح : عندهما.
4 ـ وردت في نسخة ك : الكتب.
5 ـ نص منقول من البغية مخطوط الخزانة العامة رقم : 1691د ص : 15-14.

{فِي كَوْن الذِّكْر سِرّاً أَوْ جَهْراً}

وَمِنْ ذَلِك كَوْن الذِّكْر سِرّاً أَوْ جَهْراً، فَنَقُول : أَمَّا الإِسْرَار بِالذِّكْر، فَهُوَ جَائِزٌ وَحَسَن عَلَى الجُمْلَة، لِمَا فِيهِ مِنَ السَّلاَمَة عَنِ الآفَات الَّتِي يُخْشَى عَلَيْها عِنْد الجَهْر. وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الذِّكرَ الخَفِي يَفْضُل ذِكْر الجَهْر بِسَبْعِين ضِعْفاً، وَورَد أَيْضاً تَشْبِيه الذِّكْر بِالصَّدقَة سِرًّا وَجَهْراً، وَقَدْ مُدِح التَّصَدُّق سِرًّا حَتَّى لاَ تَعْلَم شِمَالك مَا تُنْفِق يَمِينُك[1].

وَأَمَّا الجَهْر بِالذِّكْر، فَإِنْ كَانَ لَهُ سَبَب يَقْتَضِيه فَهُوَ مَطْلُوب، وَحُكْمُه بِحَسَب السَّبَب، فَقدْ يَتَحتَّم للتَّبْلِيغ[2]، كَالخُطْبَة، وَالتَّعْلِيم، وَالتَّعَلُّم، وَالآذَان، وَالأَمْر بِالمَعرُوف وَالنَّهْي عَنِ المُنْكَر، وَتشهُّد المُرْتَد وَالكَافِر المَطْلُوب بِالإِسْلام، وَنَحْو ذَلِك مِمَّا لاَ يَتحَصَّل إِلاَّ بِالجَهْر.

وَقَدْ يَنْدُب لَكَ إِظْهَار شَعائِر الإِسْلاَم مَثلاً، كَمَا فِي العِيدَيْن، وَأَيَّام التَّشْرِيق، وَالرِّبَاط، وَالتَّلْبِيَة، وَالتَّذْكِير، وَنَحو ذَلِك، فَإِنْ لَمْ يَكُن سَبَب يَقْتَضِيه مِنَ الشَّرْع فَهُو جَائِز فِي الجُمْلَة، مَعَ أَنَّهُ لاَ يَخْلُو مِنْ فَائِدَة عِنْد حُضُور النِّيَة الصَّالِحَة، كَالتَّنْبِيه، وَقَصْد التَّأْثِير فِي القَلْب، وَنَحو ذَلِك. وَيَخْتَلِف بِاخْتِلاَف الحَال.

وَقَدْ يَمْتَنِع[3] لأَدائِه إِلَى مَفْسدَة، كَتَشْوِيش المُصلِّين أَوْ نَحْو ذَلِك، أَوْ تَوَقُّع رِيَاء مَثلاً، وَيدُلُّ لِلجَواز الحَدِيث القُدُسِي «مَنْ ذَكرَنِي فِي نَفْسِه ذَكَرْتُه فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكرَنِي فِي مَلأ ذَكَرْتُه فِي مَلأ خَير مِنْهُم»[4]. وَورَد أَنَّ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَج فَوجَد أَبَا[5] بَكْر يَقْرَأ سِرًّا، فَقَالَ لَهُ فِي ذَلِك، فَقَال لَقَد أَسْمَعْتُ مَنْ أُنَاجِي، وَكَانَ عُمَر

---

1 ـ تضمين لحديث : «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ ...» الحديث. أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب : الصدقة باليمين. ومسلم في كتاب الزكاة، باب : فضل إخفاء الصدقة.

2 ـ وردت في نسخة ح : التبليغ.

3 ـ وردت في نسخة ك : ويمنع.

4 ـ أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين.

5 ـ وردت في نسخة ك : أبي.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَجْهَر، فَقال لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِك، فَقالَ أُوقِظُ الوسْنَان وَأَطْرُد الشَّيْطَان وَأُرْضِي الرَّحْمَن، فَقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأَبِي بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «ارْفَع قَلِيلاً»، وَقالَ لِعُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «اخْفِضْ قَلِيلاً»[1].

قَالَ المَشايِخ أَرْبَاب القُلوبِ رَضِيَ الله عَنْهُم : «إِنَّما قَالَ ذَلِك لِيُخْرِجَ كُلاًّ عَنِ اخْتِيارِه، وَذَلِك حَقُّ التَّرْبِيَة، وَيُؤْخَذ مِنْه طَلَب التَّوَسطِ بَيْن الجَهْر المُفْرِط وَالمُخافَتة، وَ«خَيْر الأُمُور أَوْساطُها»[2]، كَمَا قَالَ تَعالَى لِنَبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[3]، وَالمُرَاد القِراءَة، فَكَان إِذَا جَهَر، سَمِعَه المُشْرِكُون فَيَسُبُّون[4] القُرْآن وَمَنْ أَنْزلَه، وَإِذَا خَافَت لَمْ يُسْمِع أَصْحابَه.

وَهذَا بيَان مَا مَرَّ مِنْ طَلَب الجَهْر عِنْد قِيَام دَواعِيه، وَطَلَب السِّر عِنْد تَوَقُّع آفَاتِ الجَهْر، وَمِنَ الآفَات : ذَهَاب الخُشُوع وَالوَقَار بِقُوَّة الجَهْر، وَلِذَلك قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُم فَإِنَّكُم لاَ تَدْعُون أَصَّم وَلاَ غَائِباً»[5] الحَدِيث المَشْهُور، وَلَمْ يَأْمُرْهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالإِسْرَار، بَلْ بِالجَهْر عَلَى سَبِيل التَّوسطِ.

وَبِالجُمْلة، فَمَا أَدَّى إِلَى وُقوعِ مَفْسدَة، أَوْ فَواتِ مَصْلحَة يُتْرَك، وَمَا لاَ فَهُو تَابِعٌ لِحَالِ الذَّاكِر، وَبِحسَب شِرْبِه، وَمَنْ كَانَ وَحْدهُ، فَلاَ مَحْذُور عَلَيْه فِي السِّر وَالجَهْرِ، وَإِنَّما يُنْظَر إِلَى مَا هُوَ وَاقِع فِي قَلْبِه. /218

---

1 ـ أخرجه الترمذي في كتاب الصلاة، باب : ما جاء في قراءة الليل. والهيثمي في موارد الظمآن، كتاب النوافل، باب : فيمن يجهر بالقرآن ومن يسر به.

2 ـ أورده السمعاني في ذيل تاريخ بغداد بسند مجهول عن علي مرفوعا به. وكذا أخرجه البيهقي عن مطرف. وللديلمي بلا سند عن ابن عباس مرفوعا. ولأبي يعلى بسند رجاله ثقات.

3 ـ الإسراء : 110.

4 ـ وردت في نسختي ق و ك : فسبوا.

5 ـ أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب : الدعاء إذا علا عقبة، وأخرجه أحمد في مسند الكوفيين.

وَقَدْ قَالَ فِي مِفْتاحِ الفَلاَح : «يَنْبَغِي لِلذَّاكِر إنْ كَانَ وَحْدهُ، إنْ كَانَ مِنَ الخَاصَّة أَنْ يَخْفِض صَوْتَه بالذِّكْرِ، وَإِنْ كَانَ مِنَ العَامَّة أَنْ يَجْهَر بِهِ»[1].

قُلْتُ : لأَنَّ قَلْب العَارِف حَاضِر مَعْمُور بِالذِّكْر، فَالسِّر يَكْفِي فِيهِ، وَقَلْب العَامِّي قَاس مَشْغُول بِالوَساوِس[2]، فَيَحْتَاج إِلَى الصَّوْت لِيَتَأَثَّر القَلْب بِقُوتِه، كَالحَجَر لاَ يُكْسِره إلاَّ الصَّدْمَة القَوِيَة، وَلِيَشْتغِل بَالُه بِمَا يَسْمَع مِنَ الذِّكْر، وَإِلاَّ ضَلَّ فِي أَوْدِية الوَساوِس، وَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُول. وَالله المُوفِّق.

{فِي كَوْن الذِّكْر فِي وَقْتٍ مَّا مِنَ الأَوْقاتِ}

وَمِنْ ذَلِك كَوْن الذِّكْر فِي وَقْتٍ مَّا مِنَ الأَوْقَات، فَنقُول : إِنَّ الذِّكْر مَشْرُوع بِالأَصالَة فِي سَائِر الأَوْقَات، مَا لَمْ يَعْرِض عَارِض مِنْ خَارِج، وَذَلِك دَلِيل شَرَف الذِّكْر وَفَضْله، وَلاَشَك أَنَّ الأَوْقَات بِحَسَب الفَضِيلَة تَتفَاوَت.فَمِنَ الأَوْقَات مَا هُوَ أَشْرَف وَأَدْعَى لِلحُضُور، كَالأَسْحَار، وَمَا بَعْد صَلاَة الغَدَاة، وَمَا بَعْد العَصْر، وَأَنْفَع الأَوْقَات لِلذَّاكِر مَا وَجَد فِيهِ فَرَاغ سِرِّه، وَالمَزِيد مِنْ رَبِّهِ، وَذَلِك لاَ يَتقَيَّد بِزمَان وَلاَ يَخْتَصُّ بَأَوانٍ، فَهُوَ بِحَسَب الفَضْل، فَإِنَّ نَفَحَات الله تَعالَى قَلَّمَا تَأْتِي إِلاَّ بَغْتَة، لِئَلاَّ يَدَّعِيَها العِبَاد بِوُجُود الاسْتِعدَاد كَمَا فِي الحِكَم.

{فِي كَوْن الذِّكْر فِي مَكَانٍ مَّا}

وَمِنْ ذَلِك، كَوْن الذِّكْر فِي مَكَان <مَّا>[3]، فَنقُول أَيْضاً : إِنَّ الذِّكْرَ مَشْرُوع عَلَى الإِطْلاَق فِي كُلِّ مَكَان، مَا لَمْ يَعْرِض عَارِض مِنْ خَارِج، فَإِنْ كَانَ المَوْضِع نَجِساً، فَلاَ يُذْكَر فِيهِ بِاللِّسَان، وَلاَسِيَما المُعَدُّ كَالكَنِيف. وَقَال قَوْم لاَ بَأْس بِذَلِك، لأَنَّ

---

1 ـ نص منقول من مفتاح الفلاح : 18.

2 ـ وردت في نسختي ق و ك : الوساويس.

3 ـ سقطت من نسخة ك.

الذِّكْر مَرْفُوع كَمَا قَالَ تَعالَى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾[1] ، فَلاَ يَعْلَق بِهِ مِنْ نَجاسَة المَوْضِع شَيْءٌ، وَيَنْبغِي أَنْ يَخْتَلِف ذَلِك بِاخْتِلاَف الوَارِد.

وَمِنَ المَواضِع المُسْتَحسَنة القَمِنَة[2] بِالخَيْر المَساجِدُ، وَهِيَ مَحَل الذِّكْر كَمَا قَالَ تَعالَى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾[3] الآية، وَكَذَا مَشاهِدُ الخَيْر وَمَحْضَرُ أَهْل الخَيْر، وَأَنْفع بُقْعَة لِلذَّاكِر[4] بُقْعَة يَجِد فِيهَا قَلْبَه وَحُضورَ فِكْرِه، وَأَكْثَر مَا يَكُون ذَلِك فِي الخَلْوَة، إِمَّا فِي خَلْوَة الخَلاَء، بِأَنْ يَخْرُج إِلَى الفَلَوَات وَحْدَه، وَإِمَّا فِي خَلْوَة البَلَد، بِأَنْ يَدْخُل مَوْضِعاً يَسْتَكِن فِيهِ، وَهُو الخَلْوَة المَشْهورَة عِنْد أَهْل الطَّرِيق.

وَيَقولُون إِنَّ الخَلْوَة عَلَى الحَقِيقَة، هِيَ مُحادَثة السِّر مَعَ الله تَعالَى، بِحَيْث لاَ يَرَى غَيْرَه.

وَصُورَة الخَلْوَة هُوَ مَا يَكُون وَصْلَة إِلَى هَذَا المَعْنَى، مِنْ قَطْع العَلائِق وَالشَّواغِل وَالاعْتِزال، وَهِيَ الخَلْوَة الظَّاهِرَة، وَالحِكْمَة <فِيهَا>[5] أَنَّ تَرْك الكَائِنَات الَّتِي تَنْتَقِش فِي القَلْب وَالغَيْبوبَة عَنْها، يَكُون سَبباً بِفَضْل الله تَعالَى لاَمِّحائِهَا عَن القَلْب، وَبِذَلِك تَحصُل الخَلْوَة الحَقِيقِية.

وَصِفَة بَيْت الخَلْوَة، أَنْ يَكُون ارْتِفاعهُ قَدْر قَامَة صَاحِبه، وَطُولُه قَدْر سُجودِه، وَعَرْضُه عَلَى قَدْر جِلْستِه، وَأَنْ يَكُون مُصْمتاً لاَ ثُقْب فِيهِ يَنْفُذ مِنْه الضَّوْء، فَإِنْ كَانَ أَغْلَقَه، وَأَنْ يَكُون بَعِيداً عَن الأَصْوَات، وَأَنْ يَكُون بَابُه وَثِيقاً قَصِيراً فِي دَارٍ مَعْمورَةٍ بِالنَّاسِ، قَالُوا وَالأَحْسَن أَنْ يَبِيتَ أَحَد قَرِيباً مِنْ بَابِ الخَلْوَة.

---

1 ـ فاطر : 10.
2 ـ وردت في نسخة ح : الضمنة.
3 ـ النور : 36.
4 ـ وردت في نسخة ك : للذكر.
5 ـ سقطت من نسخة ح.

وَأَمَّا شُرُوط دُخولِها وَآدَاب ذَلِك، فَلَمْ نَتعرَّض لَهُ مَخافَة الطُّول، وَلأَنَّا لَمْ نَتَصدَّ لِهَذِه المَقاصِد بِالذَّات، وَإِنَّما يَنْجَر الحَدِيثُ إِلَى طَرَفٍ مِنْها، فَنَذْكُره تَتْمِيماً لِلفَائِدَة.

{فِي كَوْن الذَّاكِر وَحْدَه أَوْ مَعَ غَيْرِه}

وَمِنْ ذَلِك كَوْن الذَّاكِر وَحْدهُ أَوْ مَعَ غَيْرِه. فَنقُول : إِذَا نَظرْنَا فِي الذِّكْر 219 عَلَى مَا مَرَّ، مِنْ أَنَّ كُلَّ عِبادَة[1] / ذِكْر، فَلابُدَّ أَنْ نَقُولَ هُنَا أَيْضاً، إِنَّهُ قَدْ يَكُون الاجْتِمَاعُ لِلذِّكْر يَقْتَضِيه سَبَبٌ شَرْعِي، كَالجَماعَة لِلصَّلاَة، وَلِتَعَلُّم[2] العِلْم، وَنَحْو ذَلِك، وَقَدْ لاَ يَكُون [لَهُ][3] سَبَبٌ، كَالاشْتِغَال بِالأَذْكَار المَعْلومَة، مِنَ التَّهْلِيل وَالتَّسْبِيح وَنَحْو ذَلِك، فَهذَا النَّوْع الانْفِرَاد فِيهِ جَائِز قَطْعاً، وَحَسَنٌ فِي الجُمْلَة، لِبُعْدِه عَنِ الآفَاتِ، وَلأَنَّهُ فِعْلُ السَّلَف الصَّالِح.

وَأَمَّا الاجْتِمَاعُ لِلذِّكْر، فَإِنْ كَانَ عَلَى مَا مَرَّ مِنَ الاجْتِمَاع لِتَحْصِيل العِلْم، أَوْ لِذكْر وَعْد الله وَوَعِيدِه، أَوْ آلاَئِه أَوْ جَلاَله وَعَظمَته، أَوْ حِكْمَته أَوْ أَيَّامِه عَلَى وَجْه التَّعلُّم، أَوْ عَلَى وَجْه التَّفكُّر، فَلاَ خَفَاء فِي جَوازِه وَحُسْنِه، مَعَ السَّلاَمَة مِنَ الآفَاتِ كَالرِّيَاء وَالتَّصَنُّع، وَالتَّبَطُّل عَمَّا هُوَ أَهَم، أَوْ نَحْو ذَلِك.

{اضْطِرابُ آرَاء العُلمَاء فِي الاجْتِماعِ للذِّكْرِ}

وَإِنْ كَانَ عَلَى ذِكْر اللِّسَان تَداوُلاً، فَهذَا هُوَ مَحَل اضْطِرَاب العُلمَاء، وَاخْتِلاف الشُّيُوخ، فَمِنْهُم مَنْ يُنْكِر ذَلِك وَيَعْتَلُّ بِأَنَّه بِدْعَة، لَمْ يَعْمَل بِهَا الصَّحابَة، وَلَوْ كَانَ مِنَ القُرُبَات مَا تَرَكُوه، وَهُم أَحْرَص النَّاس عَلَى الخَيْر. وَمِنْهُم مَنْ يُجِيزُه <بَلْ>[4]

1 ـ وردت في نسخة ك : عبارة.
2 ـ وردت في نسخة ح : لتعليم.
3 ـ سقطت من نسختي ق و ك.
4 ـ سقطت من نسخة ك.

وَيَسْتَحْسِنُه، لِلأَحادِيث الوَارِدَة فِي مَجالِس الذِّكْر وَالتَّرْغِيب فِيهَا، وَعَظِيم مَا امْتَنَّ الله تَعالَى بِهِ عَلَى أَصْحَابِها، وَهِيَ [كَثِيرَة][1].

{أَحادِيثُ فَضْل الذِّكْر وَمَجالِسِه}

مِنْها حَدِيث أَبِي هُرَيْرة المَشْهُور، «إِنَّ لِلهِ مَلاَئِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ الله تَعَالَى تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ قَالَ فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ»[2]. الحَدْيث بِطُولِه.

وَفِيه يَقُول الله تَعالَى : «مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا يَقُولُونَ : يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَك وَيَحْمَدُونَكَ»، وَفِيهِ يَقُول أَيْ : رَبُّ العِزَّة تَعالَى : «أُشْهِدُكُم أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُم، فَيَقُول مَلَك مِنَ المَلائِكَة : فِيهِم فُلاَن لَيْس مِنْهُم إِنَّما جَاءَ لِحاجَة، قَالَ : هُمُ القَوْم لاَ يَشْقَى بِهِم جَلِيسُهم».

وَلاَشَكَّ أَنَّ مَا فِيهِ مِنَ الثَّنَاء عَلَيْهِم، وَالغُفْرَان لَهُم وَلِغَيْرِهِم بِبَرَكَتِهِم، يَدُل عَلَى الجَوازِ، وَيَدُل عَلَى كَوْنه مَطْلوباً، مُرَغَّباً فِيهِ شَرْعاً، فَيُؤْخَذ مِنْه جَوَاز القَصْد لِذَلِك.

وَمِنْها حَدِيث مُعاوِية[3] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَج عَلَى حَلَقَة مِنْ أَصْحابِه فَقالَ «مَا أَجْلَسَكُم؟» قَالُوا : جَلَسْنا نَذْكُر الله تَعالَى وَنَحْمَدُه عَلَى مَا هَدانَا لِلإِسْلاَم، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنا، قَالَ : «آلله مَا أَجْلَسَكُم إِلاَّ ذَلِكَ ؟» قالوا : وَالله

1 ـ سقطت من نسختي ق و ك.

2 ـ أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب : فضل التسبيح. وابن المبارك في التجريد الصريح، كتاب الدعوات.

3 ـ معاوية بن أبي سفيان، صخر بن حرب بن أمية، أبو عبد الرحمن (ت : 60هـ)، حدث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكتب له مرات يسيرة، وحدث أيضا عن أخته أم المؤمنين أم حبيبة، وعن أبي بكر وعمر. تهذيب السير / 1 : 89.

مَا أَجْلَسنا إلاَّ ذَلِك، قَالَ : «أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُم تُهْمَة لَكُم، وَلَكِنَّه أَتانِي جِبْرِيل فَأَخْبَرنِي أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ بَاهَى بِكُم المَلائِكَة»[1].

وَمِنْها حَدِيث أَبِي سَعِيد الخُدْرِي[2] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «يَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ القِيامَة سَيَعْلَم أَهْلُ الجَمْع مِنْ أَهْلِ الكَرَمِ»، فَقِيلَ : وَمَنْ أَهْلُ الكَرَمِ يَا رَسُول الله؟ قَالَ : «أَهْلُ مَجالِس الذِّكْر»[3].

وَمِنْها حَدِيث أَنَس بْن مَالِك[4] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «مَا مِنْ قَوْم اجْتَمَعُوا يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجلَّ، لاَ يُرِيدُونَ بِذَلِكَ إلاَّ وَجْهَ اللهِ، إلاَّ نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ قُومُوا مَغْفُورًا لَكُمْ قَدْ بُدِّلَتْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ»[5].

وَعَنْه أَيْضاً أَنَّ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : «إِنَّ لِلهِ تَعَالَى سَيَّارَةٌ مِنَ المَلاَئِكَةِ يَطْلبونَ حِلَقَ الذِّكْرِ، فَإِذَا أَتَوا عَلَيْهِم حَفُّوا بِهِم ثُمَّ بَعثُوا رَائِدهُم إِلَى السَّمَاءِ، إِلَى رَبِّ العِزَّة 220 / تَبارَك وتَعالَى، فَيَقُولُونَ : أَتَيْنَا عَلى عِبَادٍ مِنْ عِبَادِك، يُعظِّمُون آلاءَكَ وَيَتْلُونَ كِتابَك، وَيُصلُّونَ عَلى نَبِيِّك مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَسْأَلُونَكَ لآخِرَتِهم وَدُنيَاهُم، فَيَقُولُ اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى غَشُّوهُم رَحْمَتِي، فَهُمُ الجُلسَاء لاَ يَشْقَى بِهِم جَلِيسُهُم»[6].

قُلْتُ : لاَ يَخْطُر بِبَالِك مِنْ ذِكْر السَّمَاء فِي هَذَا الحَدِيث، شَيْء مِنَ التَّجْسِيم وَلاَ الجِهَة، فَإِنَّ السَّمَاء هِيَ مَحَلُّ مُناجَاتِه تَعالَى، وَتَلَقِّي خِطَابه، وَمَقَر سَفَرَتِه، لاَ مَحَلٌ لَهُ تَعالَى، وَتَنَزَّهَ عَنِ المَكَان وَالزَّمَان.

1 ـ أخرجه مسلم في كتاب الذكر، باب : فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر. والترمذي في كتاب الدعوات، باب : ما جاء في القوم يجلسون فيذكرون الله.
2 ـ سبقت ترجمته في ص : 199.
3 ـ أخرجه الهيثمي في موارد الضمآن، كتاب الأذكار، باب : فضل الذاكرين. والمنذري في الترغيب والترهيب/ 2 : 403.
4 ـ سبقت ترجمته في ص : 176.
5 ـ أخرجه أحمد في مسند المكثرين.
6 ـ أخرجه مسلم بألفاظ مغايرة في كتاب الذكر، باب : فضل مجالس الذكر.

وَمِنْها حَدِيث عَبْد الله بْنُ عُمَر[1] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ الله مَا غَنِيمَةُ مَجَالِسِ الذِّكْرِ؟ قَالَ : «غَنِيمَة مَجالِس الذِّكْرِ الجَنَّةُ»[2].

وَمِنْها حَدِيث جَابِر[3] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : خَرجَ عَلَيْنا رَسُولُ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقالَ : «يَا أَيُّهَا النَّاس، إِنَّ لله سَرايَا مِنَ المَلائِكَة تَحُلُّ وَتَقِفُ عَلَى مَجالِس الذِّكْر، فَاغْدُوا وَرُوحُوا فِي ذِكْر الله تَعالَى»[4] الحديث.

وَمِنْها حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة[5] وَأَبِي سَعِيد رَضِيَ الله عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : «لاَ يَقْعُد قَوْم يَذْكُرُونَ الله إِلاَّ حَفَّتْهُمُ المَلائِكَة، وَغَشِيَتْهُم الرَّحْمَة، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَة، وَذَكَرَهُم الله فِيمَنْ عِنْدَهُ»[6].

وَهَذا يُتَأَوَّل تَارَة عَلَى ظَاهِرِه، وَتارَة بِالتَّذَاكُر فِي العِلْم، وَتَارَة بِذِكْر الآلاَء وَالنِّعَم.

وَكَذا التَّسْبيح وَالتَّحْمِيد وَالتَّمْجِيد الوَاقِعَة فِي الحَدِيث الأَوَّلِ، قَدْ تُتَأَوَّل بِالتَّذاكُر فِي التَّوْحِيدِ.

قَالَ الشَّيْخ زَرُّوق[7] فِي قَواعِدِه : «وَهذَا مِنْ أَبْعَد التَّأْوِيل، فَتَأْوِيلُه غَيْر مَقْبُول لِبُعْدِه عَنِ الأَفْكَار، حَتَّى لاَ يَخْطر إِلاَّ بِالإِخْطَار، وَذلِك مِنْ مَقاصِد الشَّرْع بَعِيدٌ جِدًّا»[8] انْتَهَى.

---

1 ـ سبقت ترجمته في ص : 24.
2 ـ أخرجه أحمد في مسند المكثرين من الصحابة. والمنذري في الترغيب والترهيب/ 2 : 405.
3 ـ سبقت ترجمته في ص : 8.
4 ـ أخرجه الحاكم في المستدرك/ 1 : 494.
5 ـ سبق التعريف به في ص : 19.
6 ـ أخرجه مسلم في كتاب الذكر، باب : فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر. والترمذي في كتاب الدعوات، باب : ما جاء في القوم يجلسون فيذكرون الله، ما لهم من الفضل. وابن ماجة في كتاب الأدب، باب : فضل الذكر.
7 ـ سبق التعريف به في ص : 85.
8 ـ نص من منقول من كتاب قواعد التصوف، القاعدة 119 ص : 60.

وَوَجه بُعْدِه، أَنَّ هَذِه العِبارَات إِنَّما تُسْتعمَل عُرْفاً فِي التَّكَلُّم بِالأَذْكَار المَعْهودَة، يُقَال كَبَّر تَكْبِيراً، إِذَا قَالَ الله أَكْبَر، وَسَبَّح تَسْبِيحاً، إِذَا قَال سُبْحانَ الله، فَكَأَن الظَّاهِر مِنْها، أَنَّ المُرادَ بِهِ قَوْل أَهْل المَجْلِس سُبْحَان الله وَالله أَكْبَر، وَهذَا هُوَ المُرادُ بِالاجْتِمَاع لِلذِّكْرِ.

وَلَك أَنْ تَقُول : إِنَّ التَّحْمِيدَ المَقْرُونَ بِهَا، لَيْس عِبارَة عَنْ ذِكْر لَفْظ مَعْلُوم، وَيَبْعُدُ أَنْ يُرادَ بِهِ قَوْل القَائِل : يَا مَجِيد يَا مَجِيد، فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَنْ يُرادَ بِهِ التَّمْجِيد بِالمَعنَى، وَذَلِك صَادِق بذِكْر لَفْظ يَدُل عَلَيْه، نَحْو سُبْحَان الله، وَبِالثَّنَاء عَلَى الله تَعالَى كَيْفَما كَانَ، وَمِنْه ذِكْر مَا يَجِب لِجَلالِه تَعلُّماً وَتَعْلِيماً، وَوَعْظاً وَتَذْكِيراً وَنَحْو ذَلِك. فَلَم يَتعَيَّن حَمْلُه عَلَى الذِّكْر اللِّسانِي، بَلْ وَلاَ تَرَجُّح لِتكَافُئِ الاحْتِمالاَت، وَإِذَا كَان كَذَلِك[1] فِيهِ فَمَا قُرِنَ بِهِ مِنَ التَّحْمِيد وَالتَّسْبِيح مِثْله، فَإِنَّ ذَلِك مُقْتضَى القُرْآن.

فَإِنْ قِيلَ : لَوْ أُرِيد بِالتَّحْمِيد مَثلاً الثَّناء عَلَى الله تَعالَى، لَقِيلَ حَمْد لاَ تَحْمِيد.

قُلْتُ : هُو بِمَعنَاه وَالتَّفْعِيل أَبْلَغ، وَأَيْضا هَذَا إِنَّمَا هُوَ فِي كَلامِ العُلَمَاء، وَأَمَّا الوَاقِع فِي الحَدِيث فَهُو يَحْمَدونَك كَمَا مَرَّ.

وَالحَقُّ أَنْ لَيْس فِي الأَحادِيث الوَارِدَة نَصٌّ فِي المَسْأَلَة، أَعْنِي فِي الاجْتِمَاع لِذكْر مِنَ الأَذْكَار اللَّفْظِية، لاحْتِمَال كُلٍّ مِنْها التَّأْوِيل، فَإِنَّ الذِّكْر أَعَم مِنْ هَذَا كَمَا مَرَّ فِي تعَرْيفِه، فَالوَجْه فِي المَسْأَلَة أَنْ يُقَال مَا قَالَه جَمْعٌ مِنْ أَعْلاَم الأَئِمَّة، وَعُظمَاء الأُمَّة، مِنْ أَنَّ البِدْعَة المَذْمومَة لَيْسَت هِيَ كُلُّ مَا لَمْ يَفْعَله السَّلَف، وَإِنَّمَا البِدْعَة المَنْهِي عَنْها المَذْمُومُ صَاحِبُها، مَا نَقَضَت سُنَّة ثَابِتَة، أَوْ أَفْضَت إِلَى نَقْضِهَا.

221 وَلِذَا يُقسِّمُونَها إِلَى الأَحْكَام / الخَمْسَة، فَإِنَّها إِنْ أَدَّت إِلَى رَفْع فَرِيضَة فَهِي حَرَام، أَوْ إِلَى رَفْع مُسْتَحَب فَهِي مَكْرُوهَة، وَإِلاَّ فَلاَ ذَمَّ فِيهَا، وَقَدْ تَجِب أَوْ تَنْدُبُ.

1 ـ وردت في نسخة ح : ذلك.

وَعلَى هَذَا نَقُول : لَيْسَت البِدْعَة القَبِيحَة مَا لَمْ يَفْعَله السَّلَف، بَلْ مَا فَعَلُوا ضِدَّه، أَوْ نَهَوْا عَنْه، أَوْ أَمَرُوا بِضدِّه، وَحِينَئِذٍ الاجْتِمَاع لِلذِّكْر، غَايَة مَا فِيه أَنَّهُم لَمْ يَفْعلُوه، وَهُم لَمْ يَنْهَوْا عَنْهُ، وَلاَ أَدَّى إِلَى رَفْض شَيْء مِمَّا ثَبَت فِي الدِّينِ، فَلاَ بَأْس بِهِ إِذَا لَمْ يَعْرِض لَهُ مَا يَقْبُح بِهِ.

{الذِّكْرُ بِصوْتٍ وَاحِدٍ}

وَأَمَّا ذِكْرُهم بِصَوْت وَاحِد، فَهُو المَقْصُود فِي هَذِه المَسْأَلَة، وَلاَ تَدُلُّ عَلَيْه الأَحادِيث أَيْضاً، إلاَّ أَنَّهُ قَالَ الشَّيْخ زَرُّوق فِي القَواعِد مَا نَصُّه : «فَإِنْ قِيلَ : يَجْتَمِعُون وَكُلٌّ عَلَى ذِكْرِه. فَالجَوابُ : إِنْ كَانَ سِرًّا فَجَدْواهُ غَيْر ظَاهِرَة، وَإِنْ كَانَ جَهْراً وَكُلٌّ عَلَى ذِكْرِهِ، فَلاَ يَخْفَى مَا فِيهِ مِنْ إِساءَة الأَدَب بِالتَّخْلِيط وَغَيْره، مِمَّا لاَ يُسَوَّغ <فِي>[1] حَدِيث النَّاس، فَضْلا عَنْ ذِكْر الله تَعالَى، فَلَزِم جَوازُه بَلْ نَدْبُه بِشَرْطِه»[2] انْتَهَى.

{ذِكْرُ الجَماعَة الوَاقِع بِلسَانٍ وَاحِدٍ فِي زَمانِ المُؤَلِّف عَلَى ثَلاثَة أَنْواعٍ}

إِذَا تَقرَّر هَذَا فَنقُول : إِنَّ ذِكْر الجَماعَة بِلِسَانٍ وَاحِدٍ، قَدْ وَقَعَ فِي زَمانِنَا عَلَى ثَلاَثَة أَنْوَاع :

{النَّوْع الأَوَّلُ : القُرْآن العَزِيز}

أَحَدُهَا، القُرْآن العَزِيز، وَذَلِك فِي التَّجْوِيد، وَفِي قِراءَة الحِزْب مَثلاً، وَهُوَ مُسْتَحسَن عِنْد العُلمَاء، لِمَا فِيهِ مِنْ تَعاهُد القُرْآن، وَإِظْهَار الشَّعائِر وَالتَّعلُّم حِفْظاً

---

1 ـ سقطت من نسخة ح.
2 ـ نص منقول من كتاب قواعد التصوف، القاعدة 119 ص : 60.

وَتِلاوَةً، وَالبَرَكَة المَرْجُوَة، وَغَيْر ذَلِك مِنَ الفَوائِد، وَهذَا حَيْثُ لَمْ يَحْصُل بِهَا مَحْذُور، كَتَشْوِيشِ المُصلِّين، أَوْ رَفْع الصَّوْت فِي المَساجِد، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ.

{النَّوْعُ الثَّانِي : الوَظَائِف وَالأَحْزَاب}

ثَانِيهَـا، الوَظَائِـف وَالأَحْزَاب الَّتِي وَضعَها الأَشْيَاخ لِلمُرِيدِينَ، وَهِيَ أَيْضاً حَسنَة مَا لَمْ يَكُن بِهَا مَحْذُور، كَتشْوِيش المُصلِّي، أَوْ تَشْوِيش قَلْب الذَّاكِر، أَوْ نَحْو ذَلِكَ.

وَابْن الحَاج[1] فِي مَدْخَلِه مِنَ المُنْكِرينَ لِهَذا، وَذَكَـر أَنَّ الإِمَـام المرْجَـانِي التُّونُسِي[2] كَانَ يَعْتَذِر عَنْ قِراءَة أَصْحابه[3] الوَظِيفَة، بِأَنَّهُم إِنْ لَمْ يَشْتَغلوا[4] بِهَا مُجْتَمِعينَ بَعْدَ صَلاَة الصُّبْح مَثلاً، وَانْفَرَد كُلٌّ لِنَفْسِه، فَالنُّعَاس يَغْلِبُه فَيَتَعَطَّل.

وَذَكَر أَنَّ ابْن أَبِي جَمْرَة[5] كَانَ يُنْكِر هَذَا الاعْتِذَار، وَيقُول إِنَّ الذِّكْر الخَفِي يَفْضُل ذِكْر الجَهْر بِسَبْعِين ضِعْفاً، فَلَوْ نَعَس الفَقِير مَا عَسَى أَنْ يَنْعَس فِي ذَلِك الوَقْت، فَإِنَّهُ يَحْصُل لَهُ فِيمَا وَقعَ مِنْه مِنَ الذِّكْر الخَفِي فِيهِ وَإِنْ قَلَّ أَكْثَر مِمَّا يَحْصُل لَهُ فِي الجَهْر وَالاجْتِمَاع، مَعَ السَّلامَة مِنَ الآفَات الوَاقِعَة عِنْد الاجْتِمَاع، وَالانْتِقَال لِمَوْضِع الاجْتِمَاع، وَاللهُ أَعْلَم.

{النَّوْع الثَّالِث : الذِّكْرُ فِي مَجالِس السَّماعِ}

ثَالِثُها، الذِّكْر فِي مَجالِس السَّمَاع، وَهُوَ المَعْرُوف[6] عِنْدَ أَهْل الوَقْتِ ب

1 ـ محمد بن محمد ابن الحاج أبو عبد الله العبدري المالكي الفاسي نزيل مصر (ت : 737 هـ)، فاضل تفقه في بلاده وقدم مصر، من تصانيفه : «مدخل الشرع الشريف». الأعلام/ 7 : 264.

2 ـ أبو محمد عبد الله التونسي المعروف بالمرجاني (ت 699 هـ) أحد مشايخ الاسلام علما وعملا. شذرات الذهب/ 5 : 451.

3 ـ وردت في نسختي ق و ك : أصحاب.

4 ـ وردت في نسختي ق و ك : يتشاغلوا.

5 ـ هو أبو محمد عبد الله بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي، «ت : 699هـ» المحدث الراوية، الولي الصالح، صاحب الكرامات، ذو التصانيف الجليلة ك «مختصر البخاري» و«بهجة النفوس». نيل الابتهاج : 216 ـ شجرة النور الزكية : 199.

6 ـ وردت في نسخة ك : المعلوم.

«الحَضْرَة»، وَفِي هَذَا كَانَ كَلاَم المَشايِخ وَنِزَاعُهم، أَمَّا مَا كَانَ مِنْه بِالذِّكْر المُجَرَّد، كَالهَيْلَلة وَالصَّلاة عَلَى النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وَنَحْو ذَلِك، فَهُوَ أَقْرَب إِلَى الجَوازِ، وَأَشْبَه بِالأَحادِيث السَّابِقَة.

وَمِنْ أَحْسَن الكَيْفِيَات فِيهِ مَا ذَكَر الإِمَام السَّاحِلي[1] رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وَهُوَ «أَنَّ الفَقِيرَ إِذَا اشْتَغَل بِالإِرَادَة، فَحَقُّه أَنْ يَقْطَع العَلائِق كُلَّها وَيَنْبُذَ اللَّذَات وَالرَّاحَات، وَيَهْجُر المَأْلوفَات، وَيَسْتَعمِل العُزْلَة وَالخَلْوَة، وَذَلِك أَمْرٌ شَاقٌّ عَلَى النَّفْسِ فِي الابْتِدَاء، فَإِنَّهَا شَدِيدَة الحَنِين إِلَى مَا تَأْلَفه مِنَ البطالَة وَالأُنْس بِالخَلْقِ، وَيُخْشَى عَلَيْها <إِنْ هَجَمَ>[2] بِقَطْع جَمِيع ذَلِك عَلَى الدَّوَام أَنْ تَنْفُر، فَوجَب تَرْوِيحُها حِيناً بَعْدَ حِينٍ، 222 / بِالاجْتِمَاع لِيَكُون ذَلِك لَهَا اسْتِجْلاباً، وَلاَ يَكُون ذَلِك عَلَى الدَّوَام، لِئَلاَّ تَرْجِع إِلَى طَبْعِها مِنَ الأُلْفَة، بَلْ يَكُون ذَلِكَ بِحَسبِ الحَاجَة»[3].

ثُمَّ يَجِبُ أَلاَّ يَكُون الاجْتِمَاع بِالبطَالَة، وَتَرْك مَا هُوَ عَلَيْه، فَإِنَّهُ لاَبُدَّ مِنْ مُواصَلَة الأَوْرَاد، وَالدَّوام عَلَى العَمْلِ بِلاَ فَتْرَة، فَلَزِم أَنْ يَكُون الاجْتِمَاع عَلَى الذِّكْر الَّذِي كَانَ يَسْتَعمِلُه المُرِيد فِي خُلْوتِه بِنَفْسِه، حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَخْرُج عَنْ خُلْوَتِه وَلَمْ يَنْتَقِل عَنْ حَالَتِه، غَيْرَ أَنَّ مَا كَانَ يَعْمَله وَحْدُه يَعْملُه مَعَ إِخْوانِه، لِيُفِيدَ النَّفْسَ تَأْنِيساً بِهِمْ.

{صِفَة الاجْتِماعِ للذِّكْرِ}

وَصِفَة الاجْتِمَاع أَنْ يَعْقِدُوا المِيعَاد لِيَوم مَعْلُوم، فَيَحْضُرون وَيَجْمَعُون مِنَ الطَّعَام مَا تَيَسَّر، مَعَ غَايَة البُعْد عَنِ التَّكَلُّف وَالرِّيَاء وَالتَّباهِي، وَصِفَة ذَلِك، أَنْ يَأْخُذ القَيِّم بِأَمْرِهِم مَا يَطْرَح فِيهِ ذَلِك، فَيَجْعلُه فِي مَكَان مُظْلِم، وَلاَ يَحْضرُ هُنالِك

1 ـ سبقت ترجمته في ص: 13.
2 ـ ساقط من نسخة ح.
3 ـ بغية السالك، الفصل الرابع في أحكام السماع وما يتعلق به، مخطوط الخزانة العامة رقم: 1691 ص: 210 وما بعدها.

أَحْدٌ، فَمَنْ جَاءَ بِشَيْءٍ وَضَعه قَلِيلاً أَوْ كَثِيراً، فَلَمْ يَدْرِ مَا أَتَى بِهِ كُلُّ وَاحِد، وَيَأْكُلُونَه عِنْدَ الفَرَاغِ مِنَ الذِّكْرِ.

وَصِفَةُ الذِّكْر أَنْ يَجْلِسُوا حَلقَة، ثُمَّ يَرْفَعُوا أَصْواتَهُم بِذِكْرٍ وَاحِدٍ مِنَ الأَذْكَار الَّتِي عِنْدَهُم، كَالهَيْلَلَة أَوِ الصَّلاَة عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَافِضِينَ رُؤُوسَهم غَاضِّين أَبْصارَهم عَلَى غَايَة الوَقَار وَالسَّكِينَة وَالخُشُوع، مِنْ غَيْر اضْطِرَاب وَلاَ حَرَكَة، إلاَّ أَنْ تَنْزِلَ عَلَى أَحَدٍ حَالَة غَالِبَة تُزْعِجُه مِنْ غَيْر اخْتِيَار، وَلَيْس لأَحَد أَنْ يَتَمَنَّى نُزُولَ ذَلِك وَلاَ أَنْ يَتَعَاطَاه، بَلْ يَسْتَعِيذ بِاللهِ مِنْ شَرِّ الوَسْوَاس وَالخَوَاطِر الشَّيْطَانِيَة.

{مَا قِيلَ فِي السَّمَاعِ بِالأَغانِي وَإِنْشَاد الأَشْعَار}

وَأَمَّا السَّمَاع بِالأَغانِي وَإِنْشَاد الأَشْعَار، فَهُو أَدْخَل فِي الابْتِدَاع وَأَحَقُّ بِالنِّزَاع، وَهُو مُعَشِّشُ الوَسَاوِس[1]، وَمُعَرَّسُ التَّخْلِيط وَالتَّلْبِيس إِلاَّ مَنْ عَصمَه الله تَعالَى، وَقَلِيلٌ مَا هُم، فَلِذَلِكَ[2] كَانَ إِنْكَار السَّمَاع مِنْ كَثِير مِنَ العُلَمَاء وَتَحْذِيرهُم مِنْهُ، وَلاَسِيمَا فِي حَقِّ العَوَامِّ البَاقِيَة نُفُوسُهُم القَائِمَة حُظُوظهُم، وَكَثُر اسْتِعمَالهُ لِكَثْرَة الغُرُور وَطُفُوح الجَهْل، حَتَّى رُبَّمَا رَأَوْه مِنْ أَرْكَان الطَّرِيق، وَرُبَّما تَوَغَّلُوا فِيهِ حَتَّى تَعاطُوه بِالآلاَت المُلْهِية، وَالأَصْوَات الحَسنَة مِنَ الأَحْدَاث المِلاَح، حَتَّى كَأَنَّهُم فِي مَحَاضِر المُنادَمَة. وَمَا أَبْعَد هَذَا عَنِ الدِّينِ وَأَهْلِه.

وَقَدْ يَكُون الفَتَى مِنْ أَهْلِ البطالَة وَالغِوايَة وَاللَّهْو وَالشُّرْب، ثُمَّ إِنَّهُ يَتُوب عَلَى أَيْدِيهِم، فَيُحْضِرُونه فِي أَمْثَال هَذِه المَجالِس، وَهذَا الغِنَاء وَهَذَا اللَّهْو، فَلاَ تَزْدَاد نَفْسه إِلاَّ قُوَّة، وَلاَ شَهْوَتُه إِلاَّ طُفوحاً.

نَعَم، كَانَ قَبْل التَّوْبَة مُنْكَسِر القَلْب، مُعْتَرِفاً عَلَى نَفْسِه بِالإِسَاءَة، مُتَمَنِّياً لِلخَيْر

1 ـ وردت في نسختي ق و ك : الوساويس.
2 ـ وردت في نسخة ح : فلذا.

وَالصَّلاَح وَاللِّحَاق بِأَهْلِه، وَالخَيْر كُلُّه فِي هَذَا الوَصْف، وَفِي الحَدِيث القُدْسِي «أَنَا عِنْدَ المُنْكَسِرَة قُلُوبهم مِنْ أَجْلِي»[1]، ثُمَّ إِنَّهُ إِذَا تَاب ظَنَّ أَنَّهُ قَدِ الْتَحَق بِالصَّفْوَة، وَبَرِئَ مِنَ العُيُوب بِمُجَرَّد خُروجِه عَنِ الحَالَة الأُولَى إِلَى الثَّانِيَة، وَهذَا العُجْب وَالاِغْتِرَار هُوَ العَيْب كُلُّه، وَالشَّيْطَان يَكْتَفِي مِنْهُ بِذَلِك، فَلاَ يُوَسْوِسُ لَهُ أَنْ يَتعَاطَى تِلْك المَعاصِي السَّابِقَة، لأَنَّ هَذَا العُجْب وَالاِغْتِرَار أَعْجَب إِلَيْه، إِذْ لاَ يَتمَنَّى الاِنْتِقَال وَالتَّوْبَة عَنْ هَذِهِ الحَالَة أَصْلاً، وَعَدَم الوَسْوَسَة بِذَلِك تَزِيدُه اغْتِرَاراً وَإِعْجاباً، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَة.

وَلِهَذا قَالَ إِمَامُ الطَّائِفَة الجُنَيْد[2] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «إِذَا رَأَيْتَ المُرِيدَ يُحِبُّ السَّمَاع، فَاعْلَم أَنَّ فِيهِ بَقِيَّة مِنَ البطالَة»[3].

223 / وَقالَ الشَّيْخ أَبُو الحَسَن الشَّاذِلِي[4] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «سَأَلْتُ أُسْتاذِي رَحِمَهُ اللهُ عَنِ السَّمَاع، فَأَجَابَنِي بِقَوْلِه تَعالَى : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[5]».

وَقَال أَيْضاً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «رَأَيْتُ فِي النَّوْم كَأَنَّ بَيْنَ يَدَيَّ كِتَاب الفَقِيه ابْن عَبْد السَّلاَم[6] وَأَوْراقاً فِيهَا شِعْر مُرَجَّز، وَإِذَا بِأُسْتاذِي رَحِمَهُ اللهُ وَاقِفاً، فَتنَاوَل كِتَاب الفَقِيه بِيَمِينِه، وَتنَاوَل الأَوْرَاق بِشمَالِه، فَقالَ كَالمُنْتَهِر : أَتَعْدِلُون عَنِ العُلُوم الزَّكِية، وَأَشَار بِيَدِه اليُمْنَى إِلَى كِتَاب الفَقِيه، إِلَى الأَشْعَار ذَوَات الأَهْوَاء الرَّدِيَة، وَأَشَار بِيَدِه إِلَى أَوْرَاق الشِّعْر، ثُمَّ رَمَى بِهَا الأَرْض، ثُمَّ قَالَ : فَمَنْ أَكْثَر مِنْ هَذِه فَهُو عَبْدٌ مَرْكُوزٌ لِهوَاه،

1 ـ أخرجه السخاوي في المقاصد الحسنة : 188. حديث رقم : 169.
2 ـ سبقت ترجمته في ص : 48.
3 ـ الرسالة القشيرية : 344.
4 ـ سبقت ترجمته في ص : 78.
5 ـ الصافات : 69 ـ 70.
6 ـ الشيخ عز الدين بن عبد السلام سبقت ترجمته في ص : 34.

أَسِيرُ شَهْوتِه وَمُنَاه، يَسْتَرِقُون بِهَا قُلُوب الغَفَلَة وَالنِّسْوَان، وَلاَ إِرادَة لَهُم فِي فِعْل الخَيْر وَاكْتِسَاب العِرْفَان، يتَمَايَلُون عِنْد سَماعِها تَمايُل اليَهُود، وَلَمْ يَحْظَ أَحَدٌ مِنْهُم بِمَا حَظِيَ أَهْلُ الشُّهُود، لَئِنْ لَمْ يَنْتَه الظَّالِم لَيَقْلِبَنَّ أَرْضَه سَمَاءً.

قَالَ : فَأَخذنِي حَالُ وَجْدٍ وَبُكَاءٍ، وَأَنَا أَقولُ : أَلاَ إِنَّ النَّفْس أَرْضِيَةٌ وَالرُّوحُ سَماوِيَةٌ، فَقَالَ : بَلَى، إِذَا كَانَتِ الرُّوح بِأَمْطَار العُلُوم دَارةً، وَالنَّفْس بِالأَعْمَال الصَّالِحَات نَبَاتةً، فَقَد ثَبَت الخَيْر كُلُّه، وَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ غَالِبَةً وَالرُّوحُ مَغْلوبَةً، فَقَدْ وَقَعَ القَحْطُ وَالجَذْبُ، وَانْقَلَبَ الأَمْرُ، وَجُلِب الشَّر كُلُّه.

فَعلَيْك بِكتَابِ الله الهَادِي، وَكلاَم رَسُولِـه الشَّافِـي، فَلَنْ تَـزالَ بِخَيْر مَا لَزِمْتَهُما، وَقَدْ أَصَاب الشَّر مَنْ عَدَل عَنْهُما، وَأَهْل الحَقِّ إِذَا سَمِعُوا اللَّغْو أَعْرَضُوا عَنْهُ، وَإِذَا سَمِعُوا الحَقَّ أَقْبَلُوا عَلَيْه، ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾[1] انْتهَى.

وَقَال الشَّيْخ أَبُو العَبَّاس المُرْسِي[2] : «مَنْ كَانَ مِنْ فُقَرَاء الزَّمَان آكِلاً لِمَال الظَّلَمَة، مُؤْثِرا لِلسَّماع، فَفِيهِ نَزْغَة يَهُودِيَة، لأَنَّ الله تَعالَى يَقُول : ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾[3] ، فَالقَوَّال يَذْكُر العِشْق وَمَا هُوَ بِعَاشِق، وَالوَجْد وَمَا هُوَ بِوَاجِد، وَالمَحبَّة وَالزُّهْد وَمَا هُوَ كَذَلِك، وَأَصْحَابه يَسْمَعُون كَذَلِكَ»[4].

وَفِي الرِّسالَة عَنْ أَبِي إِسْحَاق الأَوْلاَسِي[5] قَالَ : «رَأَيْتُ إِبْلِيسَ فِي المَنام عَلَى بَعْض سُطُوح «الأَوْلاَس» وَأَنَا عَلَى سَطْح، وَعَلَى يَمِينِه جَماعَة، وَعَلَى يَسارِه جَماعَة، وَعلَيْهم ثِيَاب لِطَاف، فَقَال لِطَائِفَة مِنْهُم : قُولُوا فَقالُوا وَغَنُّوا، فَاسْتَفْرَغَتْنِي

1 ـ تضمين للآية : 23 من سورة الشورى.
2 ـ سبقت ترجمته في ص : 79.
3 ـ المائدة : 42.
4 ـ نص منقول مع شيء من التصرف من لطائف المنن : 108.
5 ـ الأولاسي نسبة إلى أولاس، وهو حصن على ساحل البحر الأبيض المتوسط، من نواحي طرسوس.

طِيبَة، حَتَّى هَمَمْت أَنْ أَطْرَح نَفْسِي مِنَ السَّطْح، ثُمَّ قَالَ : ارْقُصُوا فَرَقَصُوا أَطْيَب مَا يَكُون، قَالَ لِي : يَا أَبَا الحَارِث، مَا أَصَبْتُ شَيْئا أَدْخُل بِهِ عَلَيْكُم إلاَّ هَذَا»[1] انْتَهَى.

وَلَمَّا اجْتَمَع أَبُو عَمْرو بْنُ نَجيد[2] وَالنَّصْرآبَاذِي[3] رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ النَّصْرآبَاذِي : «أَنَا أَقُول إِذَا اجْتَمَع القَوْم، فَوَاحِدٌ يَقُول وَيَسْكُت البَاقُون، خَيْر مِنْ أَنْ يَغْتابُوا أَحداً، فَقالَ ابْنُ نَجيد : لأَنْ تَغْتَاب ثَلاثِينَ سَنَة، أَنْجَى لَكَ مِنْ أَنْ تُظْهِر فِي السَّمَاع مَا لَسْتَ بِهِ»[4].

وَسُئِل أَبُو عَلِي الرُّوذَبَارِي[5] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ السَّمَاع فَقالَ : لَيْتَنا تَخَلَّصْنا مِنْه رَأْساً بِرَأْسٍ»[6].

وَقَال الشَّيْخ أَبُو القَاسِم القُشَيْرِي[7] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْه سَمِعْتُ الأُسْتَاذ أَبَا عَلِي الدَّقَاق[8] رَحِمَهُ اللهُ يَقُول : «السَّمَاعُ حَرَامٌ عَلَى العَوَام لِبَقَاء نُفوسِهِم، مُبَاح لِلزُّهَاد لِحُصولِ مُجاهَدتِهِم، مُسْتَحَبٌّ لأَصْحَابِنَا لِحيَاة قُلُوبِهِم »[9] انْتَهَى.

224 وَهَذَا هُوَ فَصْل الخِطَاب، وَالتَّوَسُّط بيْـن الخَطَـأ وَالصَّوَاب،/ وَنَحْوه قَوْل الشِّبْلِي[10] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَقَد سُئِل عَنِ السَّمَاع : «ظَاهِرُه فِتْنَة وَباطِنُه عِبْرَة، فَمَنْ عَرَفَ الإِشَارَة حَلَّ لَهُ اسْتِمَاع العِبْرَة، وَإِلاَّ فَقَد اسْتَدْعَى الفِتْنَة وَتعَرَّض لِلْبَلِيَّة »[11].

1 ـ نص منقول من الرسالة القشيرية : 349.
2 ـ أبو عمرو إسماعيل بن نجيد (ت : 366هـ)، صحب أبا عثمان الحيري ولقي الجنيد، وكان كبير الشأن، وهو آخر من مات من أصحاب أبي عثمان، توفي بمكة. الرسالة القشيرية : 435.
3 ـ إبراهيم بن محمد بن أحمد بن محمويه الخراساني ، ونصراباذ : محلة من نيسابور (ت : 367هـ) الإمام المحدث، القدوة الواعظ، شيخ الصوفية، له لسان الإشارة مقرونا بالكتاب والسنة. تهذيب سير أعلام النبلاء/ 2 : 179.
4 ـ عن الرسالة القشيرية بتصرف : 349.
55 ـ أبو علي أحمد بن محمد الروذباري (ت : 322هـ)، بغدادي، أقام بمصر ومات فيها، صحب الجنيد والنوري وابن الجلاء والطبقة، وكان أعلم المشايخ في الطريقة. الرسالة القشيرية : 416. تهذيب سير أعلام النبلاء/ 2 : 55.
6 ـ نص منقول من الرسالة القشيرية : 341.
7 ـ سبقت ترجمته في ص : 20.
8 ـ سبقت ترجمته في ص : 20.
9 ـ نص منقول من الرسالة القشيرية : 340.
10 ـ أبو بكر الشبلي البغدادي، أصله من الشبلية قرية، (ت : 334هـ)، كان فقيها عارفا بمذهب مالك، وكتب الحديث عن طائفة، وقال الشعر، وله ألفاظ وحكم وحال وتمكن. تهذيب سير أعلام النبلاء/ 2 : 103.
11 ـ النص بتمامه منقول من الرسالة القشيرية : 341-340.

وَقَال بَعْضُهم : «لاَ يَصِحُّ السَّمَاع إلاَّ لِمَن كَانَتْ لَهُ نَفْسٌ مَيِّتَة، وَقَلْبٌ حَيٌّ، فَنَفْسُه ذُبِحَت بِسُيُوف المُجاهَدَة، وَقَلْبُه حَيٌّ بِنُورِ المُوافَقَة »[1].

وَاتَّفَقُوا أَنَّهُ لاَبُدَّ لِلسَّمَاع مِنْ زَمانٍ وَمَكانٍ وَإِخْوانٍ، وَلِذَلِك قِيلَ لِلجُنَيْد[2] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «مَا لَكَ لاَ تَسْمَع ؟ فَقَال : مِمَّنْ؟ فَقِيلَ مِنَ الله تَعالَى، فَقالَ : مَعَ مَنْ؟».

وَقَالُوا : «السَّمَاع عَلَى قِسْمَيْن : سَمَاعٌ بِشَرْط العِلْم وَالصَّحْو، فَمِن شَرْط صَاحِبِه مَعْرِفَة الأَسامِي وَالصِّفَات، وَإِلاَّ وَقَع فِي الكُفْر المَحْض، وَسَمَاعٌ بِشَرْط الحَالِ، فَمِنْ شَرْط صَاحِبه الفَنَاء عَنْ أَحْوَال البَشَرِيَّة، وَالتَّنَقِّي مِنْ آثَار الحُظوظِ، بِظُهورِ أَحْكَام الحَقِيقَة»[3].

وَهَذا وَاللهُ أَعْلَم، إِنَّما هُوَ فِي سَمَاع الأَشْعَار، المُشْتَمِلة عَلَى الأَوْصَاف الصَّالِحَة لأَهْل النُّفُوس وَلأَهْل الأَرْوَاح، وَ ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[4].

وَأَمَّا الأَشْعَار الوَعْظِيَة المُشْتَمِلَة عَلَى التَّذْكِير بِالله تَعالَى، وَالتَّرْغِيب فِيمَا عِنْدَه، وَالتَّنْفِير عَنِ الدُّنْيَا، وَالتَّحْضِيض عَلَى التَّقْوَى، فَهِي سَلِيمَة الجَنابِ، تَصْلُح لِلعَوَام وَلِلعُبَّاد وَالزُّهَاد.

وَبِالجُمْلَة، السَّمَاعُ وَرْطَة لأَهْل النُّفُوس وَالشَّهوَات، وَهُوَ رَوْضَةٌ لأَهْل الفَهْم عَنِ الله تَعالَى، وَهَؤُلاَء يَسْمَعُون مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلاَ يَتَوَقَّفُون عَلَى طَيِّب النَّغَم.

وَفِي التَّدْبِيرَات الإِلَهِيَة «السَّامِعُون شَخْصَان، شَخْصٌ يَسْمَع بِنَفْسِه وَشَخْصٌ يَسْمَع بِعَقْلِه، وَلَيْس ثَمَّ سَامِعٌ آخَر، وَمَنْ قَالَ إِنَّه يَسْمَع بِرَبِّه فَهُو نِهَايَة دَرَج سَمْع العَقْل، لَكِن لِلْعَقْل سَمْعَان : سَمْعٌ مِنْ حَيْث فِطْرَتُه، وَسَمْعٌ مِنْ حَيْث الوَضْعُ.

1 ـ الرسالة القشيرية : 341.
2 ـ سبقت ترجمته في ص : 48.
3 ـ الرسالة القشيرية : 341.
4 ـ تضمين للآية : 60 من سورة البقرة.

فَالَّذِي مِنْ حَيْث الوَضْع، هُوَ الَّذِي قِيلَ عَنْهُ : يَسْمَع بِرَبِّه وُقوفاً عِنْد قَوْلِه عَلَيْه السَّلاَم عَنْ رَبِّهِ : «كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ»[1]، فَالَّذِي يَسْمَع بِعَقْلِه يَسْمَع فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْ كُلِّ شَيْء، وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ لاَ يَتَقَيَّد، وَعَلاَمَتهُ فِي ذَلِك البُهْت وَخُمُود البَشَرِيَّة.

وَالَّذِي يَسْمَع بِنَفْسِه لاَ بِعَقْلِه، لاَ يَسْمَع إِلاَّ فِي النَّغمَات وَالأَصْوَات العَذْبَة الشَّهِيَة، وَعَلاَمَتُه أَنْ يَتَحرَّك عِنْد السَّمَاع بِحَالِه فَنَاء عَنِ الإِحْسَاس، وَمَهْمَا أَحَسَّ المُتَحرِّك فِي السَّمَاع، فَإِنَّه مَسْخَرَة لِلشَّيْطَان. وَإِنْ لَمْ يُحِس وَفَنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ فَهُو صَاحِب نَفْس، وَتَحْتَ سُلْطَانِها، وَحَالُهُ صَحِيح صَحَّحَه الفَنَاءِ، وَلاَ يَأْتِي بِعِلْمٍ أَبَداً عَقِبَ هَذَا الفَنَاء وَالحَرَكَة فِي السَّمَاع.

فَإِن ادَّعَى أَنَّهُ أَتَى بِعِلْم فَلَمْ يَكُن فَانِياً، وَلَمْ يَكنُ سَمِعَ بِعَقْلِه فَإِنَّهُ قَدْ تَحرَّك، فَلَمْ يَبْقَ لَهُ إِلاَّ أَنْ يَكُون كَاذِباً، فَإِنَّ سَمَاعَ النَّفْسِ لاَ يَأْتِي بِعِلْم البَتَّة، وَسَمَاع العَقْل لاَ تَكُون مَعَهُ حَرَكَة، فَمَنْ جَمَعَ بَيْنَ الحَرَكَة وَالعِلْم فَهُو كَاذِب جَاهِلٌ بِالحَقائِقِ »[2] انْتَهَى الغَرضُ مِنْهُ.

فَقِسْ هَذَا الكَلاَم عَلَى أَهْل زَمانِك تَرَ العَجَب، وَالله يَعْصِمنَا مِنَ الزَّلَلِ، وَمبَاحِث هَذِه المَسْأَلة لاَ يُمْكِن اسْتِيفَاؤُها فِي هَذَا المُخْتَصَر، فَلْنَكْتَفِ بِهَذا القَدْرِ.

1ـ أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب : التواضع.

2ـ نص منقول من التدبيرات الإلهية : 223-224.
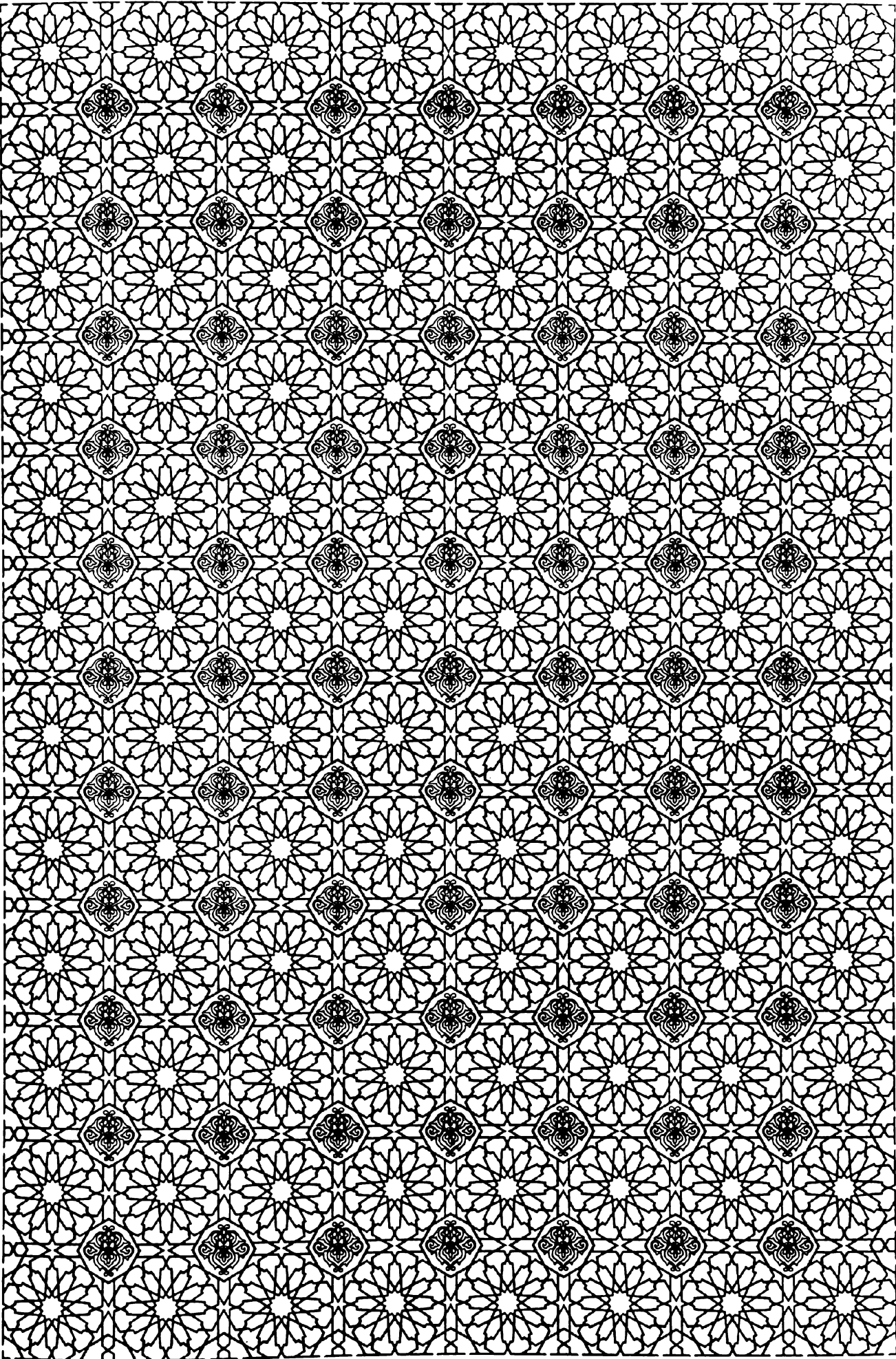
الفَصْلُ التَّاسِعُ

فِي أَحْكَام تَعْرِض لِلذِّكْر مِنْ غَيْرِ مَا تَقَدَّمَ

مِنْهَا، أَنَّ كُلَّ مَا مَرَّ مِنَ الآدَابِ وَالكَيْفِيَات مَا سِوَى الإِخْلاَص، إِنَّما هِيَ أُمُورٌ يَحْصُل بِهَا الكَمالُ لاَ مُطْلَق الأَجْرِ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ ذَكَر الله تَعالَى مُخْلِصاً فَلَهُ الأَجْرُ، سَوَاءٌ ذَكَرَه مُسْتَقبلا أَوْ[1] لاَ، / 225 قَائِماً أَوْ جَالِساً أَوْ غَيْرَ ذَلِك، وَهِي خِصِّيصَة الذِّكْر[2]، وَهُو أَنَّهُ مَطْلُوب عَلَى كُلِّ حَالٍ. وَكَان ﷺ يَذْكُر اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِه،وَقَال تَعالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾[3] الآيَة.

وَلَيْس لِلعَبْد أَنْ يَتْرُك الذِّكَر لِكَوْنِه لَمْ يَكُن عَلَى أَكْمَل الحَالاَت، فَإِنَّ تَرْكَه للذِّكْر هُوَ أَقْبَحُ العُيُوبِ وَأَعْظَمُ المُصِيبَات، فَيَنْبَغِي لِلعَبْد أَلاَّ يَغْفَل عَنِ الذِّكْر عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ وَفِي أَيِّ وَقْتٍ.

{خَصَائِصُ الذِّكْرِ}

قَالَ الشَّيْخ أَبُو القَاسِم القُشَيْري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «وَمِنْ خَصائِص الذِّكْر أَنَّهُ غَير مُؤَقَّت، بَلْ مَا مِنْ وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَات إِلاَّ وَالعَبْدُ مَأْمُورٌ بِذِكْر الله تَعالَى، إِمَّا فَرْضاً وَإِمَّا نَفْلاً، وَالصَّلاَة وَإِنْ كَانَت أَشْرَف العِبادَات فَقَد لاَ تَجُوز فِي بَعْضِ الأَوْقَات، وَالذِّكْر بِالقَلْب مُسْتَدَام فِي عُمُوم الحَالاَتِ»[4] انْتَهى.

1- وردت في نسخة ح : أم.
2- وردت في نسختي ق و ك : وهو خصيصي للذكر.
3- آل عمران : 191.
4 ـ نص منقول من الرسالة القشيرية : 223.

نَعَم، ثَمَّ أَحْوَال لاَ يَنْبَغِي الذِّكْر فِيهَا، كَوَقْت الجِمَاع، وَوَقْت قَضَاء حَاجَة الإِنْسَان، وَفِي حَالِ الخُطْبَة لِيُسْمَع قَوْلُ الخَطِيب، وَفِي حَالَة القِيَام لِلصَّلاَة غَيْر القِرَاءَة، وَتَحْرُم القِرَاءَة عَلَى الجُنُب، وَلاَ بَأْس بِسَائِر الأَذْكَار، مِنَ التَّهْلِيل وَالتَّسْبِيح وَنَحْوِهِمَا مَعَ الجَنابَة أَوِ الحَيْض أَوِ النِّفَاس[1].

وَمِنْهَا، أَنَّ الإِمَام النَّوَوِي[2]، ذَكَر أَنَّ «جَمِيع الأَذْكَار المَشْرُوعَة فِي الصَّلاَة وَغَيْرِها، وَاجِبَة كَانَت أَوْ مُسْتَحبَّة، لاَ يُحْتَسَب شَيْءٌ مِنْهَا وَلاَ يُعْتَدُّ بِهِ، حَتَّى يُتَلفَّظ بِهْ، بِحَيْثُ يُسْمِع نَفْسَه إِذَا كَانَ صَحِيحَ السَّمْعِ»[3] انْتهَى.

{ذِكْرُ القَلْب هَلْ تَكْتُبهُ المَلاَئِكَة أَمْ لاَ؟}

وَلَهُم خِلاَفٌ فِي ذِكْر القَلْبِ هَلْ تَكْتُبُه المَلاَئِكَة؟، فَقِيلَ تَكْتُبُه، وَيَجْعَل الله لَهُم عَلاَمَة يَعْرِفونَه بِهَا، وَقِيلَ لاَ يَكْتبونَه، لأَنَّهُ لاَ يَطَّلِع عَلَيْه غَيْر الله تَعالَى، قِيلَ وَالمُخْتَار أَنَّهُم يَكْتُبونَهُ.

وَفِي كَلاَم حُجَّة الإِسْلاَم الغَزَالِي[4] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنَّ كُلَّ ذِكْرٍ يَشْعُرُ بِهِ قَلْبُك تَسْمَعُه الحَفظَة، فَإِنَّ شُعورَهُم لاَ يُفارِق شُعورَكَ، وَفِيهِ سِرٌّ، حَتَّى إِذَا غَابَ ذِكْرُكَ عَنْ شُعورِكَ بِذَهابِهِ فِي المَذْكُور بِالكُلِّيَة، فَيَغِيبُ ذِكْرُك عَنْ شُعورِ الحَفظَة».

وَمِنْها، أَحْوَال تَعْرِض لِلذَّاكِر، يُسْتَحَبُّ أَوْ يَجِبُ لَهُ قَطْعُ الذِّكْر بِسَبَبِها، ثُمَّ يَعُود إِلَيْه بَعْدَ زَوالِهَا : مِنْهَا إِذَا سُلِّمَ عَلَيْه رَدَّ السَّلاَمَ ثُمَّ عَادَ إِلَى الذِّكْر. [وَكَذَا][5] إِذَا عَطِسَ عِنْدَه عَاطِس شَمَّتَه ثُمَّ عَادَ إِلَى الذِّكْر. وَكذَا إِذَا سَمِعَ الخَطِيب. [وَكذَا] [6]

1 ـ الأذكار : 18.
2 ـ سبقت ترجمته في ص : 17.
3 ـ الأذكار : 19.
4 ـ سبقت ترجمته في ص : 43.
5 ـ سقطت من نسختي ق و ك.
6 ـ سقطت من نسختي ق و ك.

إذَا سَمِعَ المُؤَذِّن فَإِنَّهُ يَحْكِي ثُمَّ يَعُودُ إِلَى الذِّكْر. وَكَذَا إِذَا رَأَى مُنْكراً غَيَّرَهُ، أَوْ مَعْرُوفاً أَمَرَ بِهِ، أَوْ سَائِلاً أَجابَهُ، أَوْ جَاهِلاً عَلَّمَه ثُمَّ عَادَ إِلَى الذِّكْر. وَكَذَا إِذَا غَلَبَهُ النُّعَاسُ[1].

وَمِنْ عَوارِض الذِّكْر الإِسْرَاع فِيهِ، وَذَلِك يَخْتَلِف، فَأَمَّا القُرْآن فَإِنَّ المَطْلُوبَ فِيهِ التَّرْتِيلُ وَالتَّدَبُّر، وَأَمَّا التَّهْلِيل <مَثلاً>[2] فَهُو بِحَسَب الحُضُورِ.

{مِمَّا يُعِينُ عَلَى الحُضُورِ فِي الذِّكْر}

وَسَمِعْتُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ هَذَا[3] الطَّرِيق، أَنَّهُ مِمَّا يُعِينُ عَلَى الحُضُور أَنْ يَقُولَ أَوَّلاً «لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله» بِقَلْبٍ حَاضِرٍ، ثُمَّ يَتَمَادَى مُسْرِعاً بِلاَ فَتْرَة، لِئَلاَّ يَدْخُلَ عَلَيْهِ الوَسْوَاس، وَهُوَ كَلاَمٌ صَحِيحٌ.

{فَواتُ الوِرْدُ}

وَمِنْهَا، أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَن كَانَ لَهُ وِرْدٌ فِي لَيْلٍ أَوْ نَهارٍ وَفَاتَه، أَنْ يَأْتِيَ بِهِ فِي وَقْتٍ آخَرَ وَلاَ يُضَيِّعُه، قَالَ الله تَعالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[4]، فَمَنْ فَاتَهُ عَمَلٌ مِنَ اللَّيْل[5] فَلْيَتَدَارَكْهُ بِالنَّهَار، وَكَذَا العَكْس.

قَالَ صَاحِبُ القُوت : «وَمَنْ فَاتَه وِرْدٌ مِنَ الأَوْرَاد فَاسْتَحَبَّ لَهُ فِعْل مِثْله فِي وَقْتِهِ أَوْ قَبْلَه مَتَى ذَكَرَهُ، لاَ عَلَى وَجْهِ القَضَاء، لأَنَّهُ لاَ يُقْضَى إِلاَّ الفَرائِض، وَلَكِن

1 ـ الأذكار : 19.
2ـ سقطت من نسخة ك.
3 ـ وردت في نسخة ك : هذه.
4 ـ الفرقان : 62.
5 ـ وردت في نسختي ق و ك : عمل بالليل.

عَلَى سَبِيلِ التَّدارُكِ وَرِياضَةِ النَّفْسِ بِذَلِكَ، لِيَأْخُذَهَا بِالعَزائِمِ كَيْ لاَ تَعْتَادَ التَّراخِي 226 / وَالرُّخَصِ، وَلأَجْلِ الخَبَرِ المَأْثُورِ «أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَدْوَمُها وَإِنْ قَلَّ»[1]»[2].

كَيْفَ وَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، كَالوَعِيدِ عَلَى تَرْكِ العَادَةِ مِنَ العِبَادَةِ، فَرَوَت عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَنْ عَبَدَ الله عَزَّ وَجَلَّ عِبادَةً ثُمَّ تَرَكَها مَلالَةً مَقَتَه الله عَزَّ وَجَلَّ»[3]، وَقَالَت : «كَانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا غَلَبَه نَوْم أَوْ عَاقَه مَرَض، فَلَمْ يَقُمْ فِي تِلْكَ اللَّيْلَة، صَلَّى مِنَ النَّهَار اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةٍ » انْتَهَى.

فَقَد أَفَاد أَنَّ اسْتِدْرَاكَ الوِرْد لِسَبَبَيْنِ : أَحَدُهُما، رِياضَة النَّفْس، فَإِنَّها إِذَا سُومِحَت فِي التَّرْكِ أَلِفَتْهُ، فَأَخْلَدت إِلَى الكَسَلِ وَالبِطالَة، وَفَات المَقْصُود مِنْ تَعْوِيدِها الخَيْر. الثَّانِي، تَدارُكُ الخَلَلِ، فَإِنَّ الوِرْدَ إِذَا فَاتَ كَانَ ثُلْمَةً فِي صَاحِبِه، وَكانَ مَغْبُوناً فِي يَوْمِه بَلْ خَاسِراً، فَيُجْبِر ذَلِك بِالزِّيَادَة فِي العَمَل بَعْدَه، لِيكُونَ يَوْمُه خَيْراً مِنْ أَمْسِهِ، وَالله المُوَفِّقُ.

---

1 ـ متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.
2 ـ نص منقول بتصرف من كتاب قوت القلوب/ 1 : 24.
3 ـ رواه ابن السني في رياضة المتعبدين موقوفا على عائشة. المغني بذيل الإحياء/ 1 : 184.

الفَصْلُ العَاشِرُ

فِي فَوائِد الذِّكْرِ

وَفِيهِ مَقالَتَان: الأُولَى فِي فَوائِدِه عَلَى الإِجْمَال، الثَّانِيَة فِي فَوائِدِه عَلَى التَّفْصِيل، أَيْ بِالنَّظَر إِلَى كُلِّ ذِكْرٍ عَلَى حِدَتِه.

{فَوائِد الذِّكْر عَلَى الإِجْمالِ}

أَمَّا فَوائِدُه عَلَى الإِجْمَال، فَاعْلَم أَنَّ لِلذِّكْر فَوائِدُ جَمَّة قَدْ تَقَدَّم كَثِيرٌ مِنْهَا، عِنْد ذِكْر فَضائِلِه وَمَا رُتِّبَ عَلَيْه، وَهِيَ مِنْهَا الدِّينِيَة وَالدُّنْيَوِيَة، وَإِنْ كَانَ الكُلُّ دِينِياً بِالأَخِيرَة، وَالدِّينِيَة مِنْها الحَالِيَة وَالمآلِيَة، وَمَرْجِعُها بِالأَخِيرَة إِلَى طَرَفَيْن[1] كَمَا قَالَ الإِمَام ابْنُ جُزي[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لِلنَّاسِ فِي المَقْصِد بِالذِّكْر مَقامَان، فَمَقْصِد العَامَّة اكْتِساب الأُجُور، وَمَقْصِد الخَاصَّة القُرْب وَالحُضُور، وَبَيْن المَقامَيْن بَوْنٌ بَعِيدٌ، فَشتَّان بَيْن مَنْ يَأْخُذ أَجْرَه مِنْ وَراءِ حِجَاب، وَبَيْن مَنْ يُقَرَّب حَتَّى يَكُونَ مِنْ خَوَاصِّ الأَحْبَابِ»[3] انْتَهَى.

وَلاَبُدَّ أَنْ نَذْكُر شَيْئاً مِمَّا ذَكَر الأَئِمَّة رَضِيَ الله عَنْهُم، فَمِنْ ذَلِكَ وَهُوَ أَشْرَف المَفاخِر وَأَسْنَى الذَّخائِر، مُجالَسَة الله تَعالَى لِعَبْدِه إِذَا ذَكَرَه، فَفِي الحَدِيثِ عَنِ الله تَعالَى: «أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي»[4]، وَمَعْنَى المُجَالسَة فِي حَقِّه تَعالَى، الإِتْحَاف بِالقُرْب وَالعِنايَة وَالمَدَد وَالفَيْض، بِحَيْث إِذَا صَدَق فِي ذِكْرِه مَلأَهُ نُوراً وَأَسْراراً،

---

1 ـ وردت في نسخة ك: طريقين.

2 ـ أبو القاسم محمد بن أحمد بن جُزي الكلبي (693 - 741هـ)، الإمام الحافظ العمدة المتفنن. من تصانيفه العديدة: «الدعوات والأذكار المخرجة من صحيح الأخبار». شجرة النور: 213.

3 ـ يغلب على الظن ورود هذا النص في كتاب «الدعوات والأذكار المخرجة من صحيح الآثار» وهو مفقود إلى الآن.

4 ـ أخرجه السخاوي في المقاصد الحسنة: 167.

وَنَحو ذَلك مِمَّا هُوَ [مِنَ][1] المَواهِب الَّتِي تُنَال بِمُجالَسَة المُلُوك، وَكَيْف بِمُجالَسَة مَلِكِ المُلُوكِ تَبارَكَ.

وَذَلِك أَنَّ كُلَّ مَعْنَى أُطْلِقَ فِي جَانِبِه تَعالَى، إِذَا اسْتَحَال ظَاهِرُه فَالمُرَاد لاَزِمُه عِنْد مَنْ يَتأَوَّلُه، وَمِنْ ذَلِكَ ذِكْر الله تَعالَى لِمَنْ ذَكَرَه، قَالَ تَعالَى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[2] وَفِي الحَدِيث عَنْهُ تَعالَى: «فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِه ذَكَرْتُه فِي نَفْسِي»[3]، وَنَاهِيكَ بِهَذَا مَزِيَّة وَتَخْصِيصاً، وَفَضِيلَة اخْتَصَّ بِهَا الذِّكْر دُونَ سَائِر القُربَات، وَمَعْنَى ذِكْر الله تَعالَى لِعَبْدِه، ذِكْرُه بِالثَّوَابِ أَوْ بِالغُفْرَانِ.

وَقَدْ عَبَّر العُلَمَاء عَنْ هَذَا المَعْنَى بِعبَارَات كَثِيرَة، حَتَّى حَكَى بَعْضُ الأَشْيَاخ فِي ذَلِكَ عِشْرِينَ قَوْلَة:

فَقِيلَ: «اذْكُرُونِي بِالإِخْلاَص أَذْكُرُكُم بِالاخْتِصَاص».

وَقِيلَ: «اذْكُرُونِي بِالحُضُور أَذْكُرُكُم بِتَيْسِيرِ الأُمُور».

وَقِيلَ: «اذْكُرُونِي بِالنِّية أَذْكُرُكُم بِجَزِيلِ العَطِيَّة».

وَقِيلَ: «اذْكُرونِي بِالصَّفَا أَذْكُرُكُم بِغُفْرَان الجَفَا».

وَقِيلَ: «اذْكُرونِي بِالقُلوبِ أَذْكُرُكُم بِغُفْرَانِ الذُّنُوبِ».

وَقِيلَ: «اذْكُرونِي بِالضَّمائِر أَذْكُركُم بِرَفْعِ[4] الضَّرائِر».

وَقِيلَ: «اذْكُرونِي بِالأَصْوَات أَذْكُركُم بِتَيْسِيرِ الأَقْوَات».

وَقِيلَ: «اذْكُرونِي فِي الخَلوَات أَذْكُركُم بِالرَّحْمَة وَالصَّلوَات».

227 / وَقِيلَ: «اذْكُرونِي بِلاَ نِسْيَان أَذْكُرُكُم بِمَغْفِرَة العِصْيَان».

وَقِيلَ: «اذْكُرونِي فِي المَسَاء وَالصَّبَاح أَذْكُركُم بِاللُّطْفِ وَالصَّلاَح».

---

1 ـ سقطت من نسختي ق وح.

2 ـ البقرة: 152.

3 ـ سبق تخريجه في ص: 15.

4 ـ وردت في نسخة ح: بدفع.

وَقِيلَ: «اذْكُرُونِي فِي السُّجُود أَذْكُركُم بِالنِّعْمَة وَالجُود».
وَقِيلَ: «اذْكُرونِي بِالمَعْذِرَة أَذْكُركُم بِالمَغْفِرَة».
وَقِيلَ: «اذْكُرونِي بِأَداءِ الفَرِيضَة أَذْكُركُم بِالرَّحْمَة العَرِيضَة».
وَقِيلَ: «اذْكُرُونِي بِالاسْتِغفَار أَذْكُركُم بِالعَشِيِّ[1] وَالإِبْكَار».
وَقِيلَ: «اذْكُرونِي بِالأَسْحَار أَذْكُركُم بِغَرْسِ الأَشْجَار».
وَقِيلَ: «اذْكُرونِي بِالأَيَّام القَلائِل أَذْكُركُم بِلَبْس الحُلَل وَالقَلائِدِ».
وَقِيلَ: «اذْكُرونِي بِالصَّبْر عَلَى البَلاءِ أَذْكُركُم بِالدَّرجَاتِ العُلا».
وَقِيلَ: «اذْكُرونِي بِالشَّوْق وَالحُبِّ أَذْكُركُم بِالدُّنُو وَالقُرْبِ».
وَقِيلَ: «اذْكُرونِي بِالأَلْبَاب أَذْكُركُم بِزوَال الحِجَابِ».
وَقِيلَ: «اذْكُرونِي عَلَى التَّوالِي أَذْكُركُم بِفَضْلِي وَنوالِي».

قُلْتُ: وَهَذِه عِبارَات نَشَأَت عَنْ أَذْوَاق مُخْتلِفَة وَمشَارِب مُتفاوِتَة، وَبَعْضُها مُتَّفِق وَكلاَم الله تَعالَى أَشْمَل وَأَوْسَع، وَلِذَلِك قَالَ الإِمَامُ ابْنُ جُزِي[2] رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى: «وَقَدْ أَكْثَر المُفسِّرُون لاَسِيَما المُتَصوِّفَة، فِي تَفْسِير هَذا المَوْضِع، بِأَلْفَاظ لَهَا مَعانٍ مَخْصُوصَة، وَلاَ دَلِيلَ عَلَى التَّخْصِيص» انْتهَى. وَهُوَ ظَاهِرٌ.

وَمِنْ ذَلِكَ، كَوْن الله تَعالَى مَعَ عَبْدِه حِينَ يَذْكُره، فَفِي الحَدِيث عَنِ اللهِ تَعالَى «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي»[3] الحَدِيث، وَمَعِيَّة الله تَعالَى لِعَبْدِه بِعِلْمِه وَحِفْظِهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ، مَا ذَكرَه أَهْل البَصائِر، مِنْ أَنَّ الذِّكْر يُزِيلُ الغَفْلَة، وَيَفْتَحُ بَابَ المَعْرِفَة، وَيُورِثُ الإِنابَة وَالزُّهْد، وَالتَّوكُّل وَالإِيثَار، وَالفُتُوة وَالمُرَاقَبَة،

1 ـ وردت في نسختي ق و ك: بالتمتع.
2 ـ سبقت ترجمته في ص: 261.
3 ـ سبق تخريجه في ص: 15.

وَالمَحَبَّة وَالقُرْب، وَيُـورِث بَاب الإِحْسَان، وَغَشَيَـان الرَّحْمَة، وَنُزُول السَّكِينَة، وَحُفُوف المَلائِكَة، وَهَذِه وَرَدَت فِي الأَحادِيث وَتَقدَّمَت مَـعَ غَيْرِها مِنَ الثَّمَرَات، وَيَطْرُد الشَّيْطَان.

وَفِي الرِّسالَة أَنَّ : «الذِّكْر سَيْفُ المُرِيدِين الَّذِي يُقاتِلُون بِهِ عَدُوَّهُم»[1]، وَيُقَوِّي القَلْبَ وَالبَدنَ، فَقَدْ قِيلَ : «إِنَّ أَبْدَان الصِّديقِينَ لَمْ تَقْوَ بِالطَّعَام وَالشَّرَاب، وَإِنَّمَا قَوِيَت بِالذِّكْر»، وَيُنَوِّر القَلْب وَالوَجْه، وَيَجْلِبُ الرِّزْق وَيُيَسِّره، وَمِنْ أَعْظَم الكَرامَات مَا فِي الحَدِيث عَنِ الله تَعالَى : «مَنْ شَغَلَه ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُه أَفْضَل مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ»[2].

وَفِي الأَخبَار أَنَّ العَبْدَ الذَّاكِر لله تَعالَى المُطِيع، إِذَا سَأَلَ الله تَعالَى قَالَتِ المَلائِكَة : يَا رَبَّنَا صَوْتٌ مَعْرُوفٌ مِنْ عَبْدٍ مَعْرُوفٍ.

وَالغَافِلُ المُعْرِضُ عَنِ الله تَعالَى إِذَا دَعاهُ أَوْ سَأَلَه، قَالَتِ المَلائِكَة : يَا رَبَّنَا صَوْتٌ مُنْكَرٌ مِنْ عَبْدٍ مُنْكَرٍ.

وَفِي الحَدِيثِ : «مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ عَملاً أَنْجى لَهُ مِنْ عَذَابِ الله مِنْ ذِكْرِ الله تَعالَى»[3].

وَفِي السَّبْعَة الَّذِينَ يُظِّلُهُم الله بِظِلِّ عَرْشِه : «وَرَجُلٌ ذَكَر اللهَ خَالِياً فَفاضَت عَيْنَاهُ»[4] وَالذَّاكِرُون يَغْفِرُ لَهُم ذُنُوبَهُم وَلاَ يُشْقِي بِهِمْ جَلِيسَهُم كَمَا مَرَّ.

وَالذِّكْر دَوَاء القَلْبِ كَمَا قِيلَ :

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوَيْنا بِذِكْرِكُـم ❖❖❖ ونَتْرُك الذِّكْرَ أَحْيانـاً فَنَنْتَكِسُ

1 ـ نص منقول من الرسالة القشيرية : 222.

2 ـ أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب : ما جاء كيف كانت قراءة النبي. والدارمي في كتاب فضائل القرآن، باب : فضل كلام الله على سائر الكلام.

3ـ أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات. وابن ماجة في كتاب الأدب، باب : فضل الذكر.

4ـ أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب : الصدقة باليمين. ومسلم في كتاب الزكاة، باب : فضل إخفاء الصدقة.

{فَوائِدُ الذِّكْر عَلَى التَّفْصِيل}

وَمِنْ فَوائِد الذِّكْر : وَضْعُ البَرَكَة فِي الطَّعام وَنَحْوه. وَجَلْبُ مَا يَحْتَاج إِلَيْه مِنْ دِرْهَم أَوْ غَيْرِه. وَحِفْظُ الله تَعالَى لِلذَّاكِر عَنْ تَنَاوُل الحَرَام، وَيَكُون ذَلِك بِتَعْرِيف الله تَعالَى إِمَّا بِكَشْف مِنَ الله تَعالَى، وَإِمَّا بعلاَمَة يَجِدُها عَلَى الحَرَام فِي ظَاهِره أَوْ بَاطِنِه، فَكَان مِنْهُم مَنْ يَتَحرَّك لَهُ عِرْقٌ إِذَا مَدَّ يَدَه إِلَى الشُّبْهَة، كَمَا حُكِيَ ذَلِكَ عَن الحَارِث المُحَاسِبِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

228 / وَمِنْهُم مَنْ يَخْتَنِق [بِهِ][1] فَلاَ يُسِيغهُ، وَمِنْهُم مَنْ يَتَقَيَّاه، وَمِنْهُم مَنْ يَرَى الطَّعَام كَأَنَّهُ دَمٌ، أَوْ كَأَنَّه رَوْثٌ أَوْ خِنْزِيرٌ، أَوْ تَنْقَبِضُ عَنْه يَدُه، أَوْ يَسْمَع خِطاباً مِنْ نَفْسِهِ أَوْ مِنْ غَيْرِه، إِلَى غَيْرِ ذَلِك مِمَّا يَقَعُ لأَوْلِيَاء الله تَعالَى.

وَفَوَائِد الذِّكْر عَلَى الإِجْمَال وَكَرَاماتُه لاَ تَنْحَصِر، وَقَدْ ذَكَر العُلَمَاء مِنْ ذَلِكَ كَثِيراً أَعْرَضْنَا عَنْه خَشْيَة السَّآمَة.

{فَوائِد الأَذْكَار المُعِينَة وَثَمراتُها}

وَأَمَّا فَوائِدُ الأَذْكَار المُعِينَة، فَقَدْ تَقَدَّم فِي كُلٍّ مِنْهَا مَا لاَبُدَّ مِنْهُ.

وَقَال الإِمَام ابْنُ جُزي[2] : «وَاعْلَم أَنَّ الذِّكْرَ عَلَى أَنْوَاع كَثِيرَة، فَمِنْها التَّهْلِيل وَالتَّسْبِيح، وَالتَّكْبِير وَالحَمْد، وَالحَوْقَلَة وَالحَسْبَلة، وَذِكْر كُلِّ اسْم مِنْ أَسْمَاء الله تَعالَى، وَالصَّلاَة عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالاسْتِغفَار وَغَيْر ذَلِك، وَلِكُلِّ ذِكْر خَاصِّيَةٌ وَثَمَرَةٌ.

فَأَمَّا التَّهْلِيل، فَثَمَرتُه التَّوْحِيد، أَعْنِي التَّوْحِيد الخَاصّ، فَإِنَّ التَّوْحِيدَ العَامَّ حَاصِلٌ لِكُلِّ مُسْلِم[3].

---

1 ـ سقطت من نسختي ق و ك.
2 ـ سبقت ترجمته في ص : 260.
3 ـ وردت في نسختي ق و ك : مؤمن.

وَأَمَّا التَّكْبِيرُ، فَثمَرتُه التَّعْظِيم وَالإِجْلاَل لِذِي الجَلالِ.

وَأَمَّا الحَمْدُ وَالأَسْمُاء الَّتِي مَعْناهَا الإِحْسَان وَالرَّحْمَة، كَالرَّحْمَن وَالرَّحِيم، وَالكَرِيم وَالغَفَّار، وَشِبْه ذَلِك، فَثمَرتُها ثَلاَث مَقامَات، وَهِي الشُّكْرُ وَقُوَّة الرَّجَاء وَالمَحبَّة، فَإِنَّ المُحْسِن مَحْبُوبٌ لاَ مَحَالَة.

وَأَمَّاالحَوْقَلَةوَالحَسْبَلة،فَثمرَتُهاالتَّوَكُّل علَى اللهِ،وَالتَّفْوِيض إِلَى اللهِ،وَالثِّقَةبِاللهِ.

وَأَمَّا الأَسْمَاء الَّتِي مَعْناهَا الاطِّلاَع وَالإِدْرَاك، كَالعَلِيم وَالسَّمِيع وَالبَصِير وَالرَّقِيب، وَشِبْه ذَلِكَ، فَثمَرتُها المُراقَبَة.

وَأَمَّا الصَّلاَة عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَثمَرتُها شِدَّة المَحبَّة فِيهِ، وَالمُحافَظَة عَلَى اتِّبَاع سُنَّتِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً.

وَأَمَّا الاسْتِغفَار، فَثمَرتُه الاسْتِقامَة، وَالمُحافَظَة عَلَى شُروطِ التَّوْبَة، مَعَ انْكِسَار القَلْب بِسَبَب الذُّنُوبِ المُتقَدِّمَة.

ثُمَّ إِنَّ ثَمرَات الذِّكْر، بِجَمِيع الأَسْمَاء وَالصِّفَات مَجْمُوعَة فِي الذِّكْر الفَرْد، وَهُوَ قَوْلُنَا الله الله، فَذَلِكَ هُوَ الغَايَة وَإِلَيْه المُنْتَهى» انْتهَى.

وَتَقَدَّم هَذَا الكَلاَم فِي الاسْمِ الأَعْظَم، وَأَنَّه قَدْ جَمَع مَعانِي الأَسْمَاء، وَأَنَّ الكَلِمَة المُشرفَة قَدْ جَمعَت مَعانِي الأَذْكَار، وَمَدْلُولُهَا الصَّرِيحُ التَّوْحِيدُ.

{تَوْحِيدُ الخَلْق عَلَى ثَلاَث دَرجَات}

وَقالَ بَعْضُ الأَئِمَّة: «تَوْحِيدُ الخَلْقِ عَلَى ثَلاث دَرجَات:

الأُولَى: تَوْحِيد عَامَّة المُسْلِمينَ، وَهُوَ الَّذِي يَعْصِم النَّفْس وَالمَالَ فِي الدُّنْيَا، وَيُنَجِّي مِنَ الخُلُودِ فِي النَّارِ فِي الآخِرَة، وَهُوَ نَفْي الشُّرَكَاء وَالأَنْدَاد، وَالصَّاحِبَة وَالأَوْلاَد، وَالأَشْبَاه وَالأَضْدَاد.

الدَّرجَة الثَّانِيَة : تَوْحِيدُ الخَاصَّة، وَهُوَ أَنْ يَرَى الأَفْعَال كُلَّها صَادِرَة مِنَ الله تَعالَى وَحْدَهُ، وَيُشاهِد ذَلِك بِطَرِيقِ المُكاشَفَة لاَ بِطَرِيقِ الاسْتِدْلاَل، فَإِنَّ مَعْرِفَة ذَلِك بِطَرِيقِ الاسْتِدلاَل حَاصِلَة لِكُلِّ مُؤْمِن، وَإِنَّما مَقَام الخَاصَّة فِي التَّوْحِيد يَقِينٌ فِي القَلْبِ، بِعِلْمٍ ضَرُورِي لاَ يَحْتَاج إِلَى دَلِيل، وَثَمَرَة هَذَا العِلْم الانْقِطَاع إِلَى اللهِ تَعالَى، وَالتَّوَكُّل عَليْه وَحْدَه، وَإِطْرَاحُ جَمِيع الخَلْق، فَلاَ يَرْجُو إِلاَّ الله، وَلاَ يَخَاف أَحداً سِواهُ، فَيَطْرَح الأَسْبَاب وَيَنْبُذ الأَرْبَاب.

وَالدَّرجَة الثَّالِثَة : أَلاَّ[1] يَرَى فِي الوُجودِ إِلاَّ الله وَحْدَه ، فَيَغِيب عَنِ النَّظَر إِلَى المَخْلوقَات كَأَنَّها عِنْدَه مَعْدومَة، وَهَذا هُوَ الَّذِي تُسَمِّيه الصُّوفِيَة الفَنَاء، بِمَعْنَى الغَيْبَة عَنِ الخَلْق، حَتَّى إِنَّهُ قَدْ يَفْنَى عَنْ نَفْسِه وَعَنْ تَوْحِيدِه، أَيْ يَغِيبُ عَنْ ذَلِك بِاسْتِغرَاقِه فِي مُشاهَدَة الله تَعالَى»[2] انْتهَى.

{إِطْلاَق الفَناء عِنْد الصُّوفِية}

قُلْتُ : وَاعْلَم أَنَّ الفَناءَ يُطْلَق فِي أَلْسِنَة أَهْلِ هَذِهِ[3] الطَّرِيق، وَيُقابِلُه البَقاءُ، 229 فَتارَة يُطْلِقونَه عَلَى الفَناءِ فِي الأَوْصَاف، وَتارَة / عَلَى الفَناءِ فِي الإِحْسَاس. وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : تَارةً عَلَى الفَناءِ عَنِ المَعْدومِ، وَتارَةً عَلَى الفَناءِ عَنِ المَوْجُودِ.

وَتَقْرِيرُ ذَلِكَ عَلَى مَا ذَكَروهُ، هُوَ أَنَّ المُعْتَبَر فِي هَذَا البَابِ مِنَ العَبْد ثَلاثَة أَشْيَاء وَهُوَ : الأَفْعَال، وَالأَخْلاَق، وَالأَحْوَال.

فَالأَفْعَالُ، مَا يَلْتَبِس بِهِ اخْتِياراً مِنَ الاكْتِسابَات، وَتَكُون مَحْمُودَة وَمَذْمومَة، بِاعْتِبَار كَوْنِها شَرْعِية وَغَيْر شَرْعِية.

---

1 - وردت في نسخة ح : أن لا.
2 - قارن بكتاب التسهيل لعلوم التنزيل لابني جُزي/ 1 :91.
3 - وردت في نسختي ق و ك : هذا.

وَالأَخْلاَق، مَا جُبِل عَلَيْه بَاطِناً مِنَ الصِّفَات، وَهِي أَيْضاً إِمَّا مَحْمودَة أَوْ مَذْمُومَة، وَهِيَ تَقْبَل التَّغَيُّر[1] بِالمُعالَجَة وَالرِّياضَة، بِتَغَيُّر المَذْمُوم إِلَى المَحْمُود وَكَذَا العَكْس.

وَالأَحْوَال، مَا يَرِدُ عَلَيْه، وَتَكُون الأَحْوَال أَيْضاً حَسنَة بِحَسَب حُسْن الأَفْعَال وَالأَخْلاَق، فَإِذَا اشْتغَـل المُرِيدُ بِالتَّوْبة وَتَرَكَ الأَفْعَـال الخِسِّيسَة، الَّتِي هِيَ مَنَـاطُ الشَّهْوَة، وَتَوَجَّه إِلَى الأَعْمَال الصَّالِحَة، قِيلَ إِنَّه فَنِيَ عَنْ شَهْوتِه وَبَقِيَ بِنِيَّتِه. وَإِذَا عَالَج بَاطِنه فَإِنَّه يَفْنَى عَنِ الصِّفَات المَذْمومَة، وَيَبْقى بِالصِّفَات المَحْمودَة، فَمتَى اتَّصفَ بِالزُّهْد فَقَد فَنِيَ عَنِ الرَّغْبَة، وَإِذَا اتَّصفَ بِسلاَمَة الصَّدْر فَقَد فَنِيَ عَنِ الحِقْد وَالحَسَد، وَإِذَا اتَّصف بِالتَّواضُع فَقَدَ فَنِيَ عَنِ الكِبْر، وَهكذَا، وَمِثْل ذَلِك فِي الأَحْوَال، وَهذَا الاعْتِبَار الأَوَّل مِنَ الفَناءِ.

وَإِذَا غَابَ عَنِ الكَوْن كُلِّه، حَتَّى عَنْ نَفْسِه بِشُهودِ رَبِّه، فَهذَا مَعْنى آخَرَ مِنَ الفَناءِ وَهُو الثَّانِي، وَهذَا فَنَاء بِحَسَب الإِحْسَاس، لأَنَّه لاَ يُحِسُّ بِالأَشْيَاء مَعَ وُجودِهَا، لِعظَمِ مَا صَادَمَه مِنْ بَاهِر الحَقِيقَة، فَهُو فَنَاء عَنِ المَوْجُود، وَأَمَّا فِي المَعْنَى الأَوَّل، فَهُو اضْمِحْلاَلُ مَعْنَى وَبَقَاءُ ضِدِّه، مَعَ بَقاءِ إِحْسَاس صَاحِبِه بِالأَوَّل، وَالثَّانِي فَهُو فَنَاء عَنِ المَعْدُوم، فَمَن فَنِيَ عَنْ أَفْعَال وَأَخْلاَق وَأَحْوَال غَيْر مَرْضِيَة بِاسْتِبْدَال أَضْدادِها، فَقَد فَنِيَ عَنْ مَعْدُوم بِمَوْجُود، وَيُقَال لَهُ البَدَل أَيْضاً، لأَنَّ الله تَعالَى أَبْدَل مَذْمومهُ بِمَحْمُودٍ.

وَمَنْ فَنِيَ عَنِ الأَكْوَان كُلِّها بِأَنْ لاَ يُحِسُّ، فَلَمْ يَفْنَ عَنْ مَعْدُوم بَلْ عَنْ مَوْجُود، وَإِنَّما فَنِيَ جِسْمُه بِهِ، كَمَا فَنِيَت صَواحِب يُوسُف بِشُهُود جَمالِه عَنْ أَيْدِيهِنَّ

---

1 - وردت في نسخة ك : التغيير.

فَقَطَعْناهَا، وَعَنْ أَنْفُسِهِّن فَلَم يَجِدْن أَلَم القَطْع، وَالفَنَاء بِهذَا المَعْنَى الثَّانِي، هُوَ نَتِيجَة العِلْم بِبُطْلاَن كُلٍّ مَا سِوَى الله تَعالَى[1] عَلَى مَا مَرَّ فِي كَلِمَة الشَّهادَة، كَمَا قَالَ لَبِيد[2] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلٌ»[3].

وَهِيَ أَصْدَق كَلِمَة قَالَها الشَّاعِر، كَمَا شَهِدَ لَهُ الصَّادِق المَصْدُوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَاعْلَم إِنَّما هِيَ أَصْدَق كَلِمَة فِي بَابِ الحَقِيقَة، لأَنَّ كُلَّ مَا سِوَى الله تَعالَى أَيّاً كَانَ مَعْدُوم سَابِقاً وَلاَحِقاً، مُتلاَشٍ مُفْتَقِر، وَأَمَّا فِي بَابِ الشَّرِيعَة، فَمَا أَثْبَتَه الله تَعالَى مِنَ الأُمُور الخَفِيَّة فَثَابِت بِإِثْبَات الله تَعالَى لاَ بِنَفْسِه، وَلاَ إِشْكَال.

---

1 - نص منقول بالمعنى من الرسالة القشيرية: 68-67.

2 - لبيد بن ربيعة بن مالك، (ت: 41هـ) كان من الشعراء المخضرمين، وفد على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويعد من الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم. الأغاني/ 15: 291. الأعلام/ 5: 240.

3 - البيت بتمامه وينسب للشاعر لبيد:

أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ ... وَكُلُّ نَعِيمٍ لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ
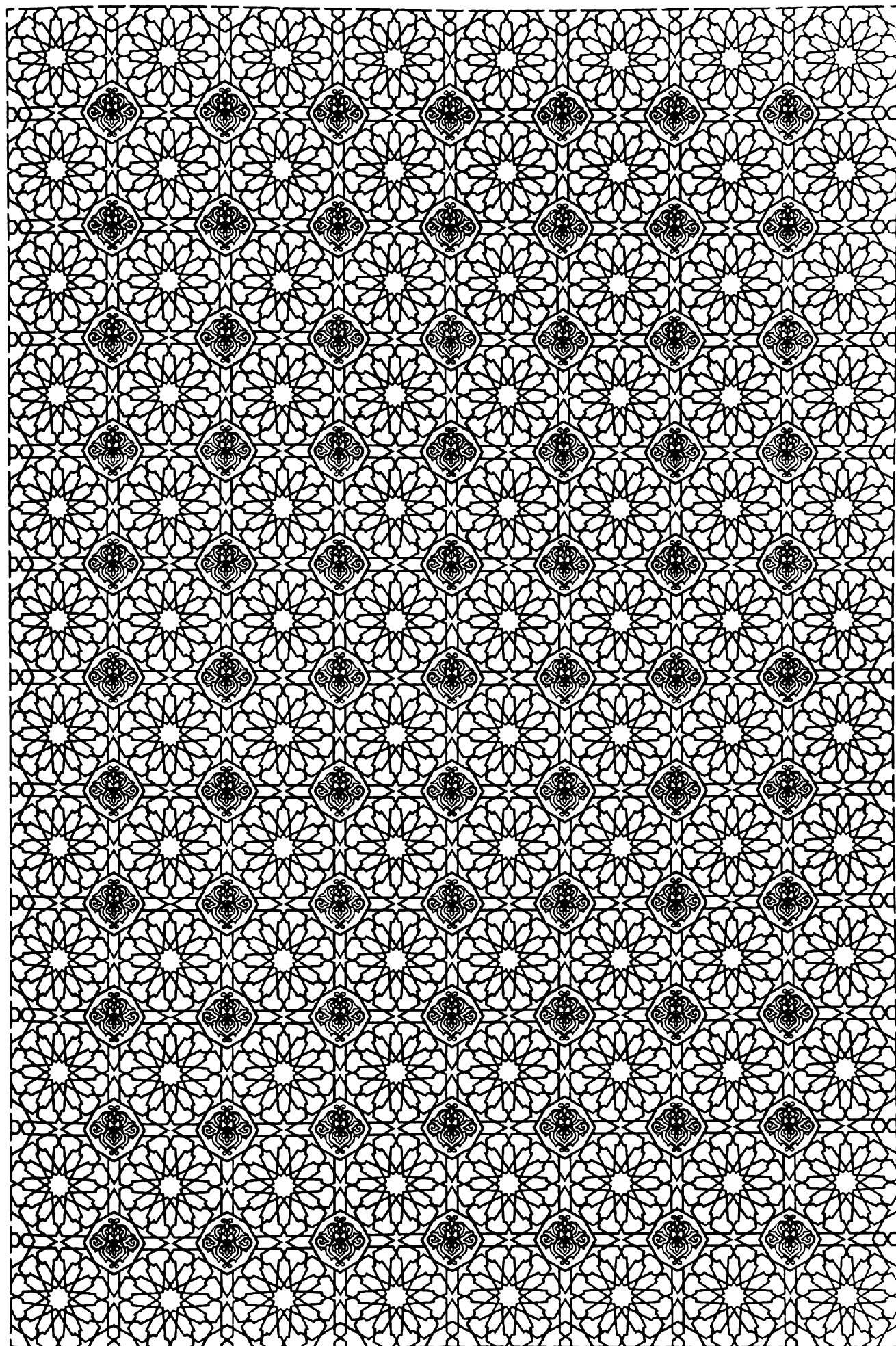
الفَصْلُ الحَادِي عَشَر

فِي أَسْمَاء هَذِه الكَلِمَة المُشرفَة وَهِيَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله

اعْلَم أَنَّ لِهَذِه الكَلِمَة أَسْمَاء كَثِيرَة، وَذَلِك آيَة فَضْلِها وَسُمُوُّ مَحَلِّها، فَإِنَّه قَد اشْتَهرَ فِي الأَوْضَاع العَرَبيَّة، كَوْن الشَّيْء تَكْثُر أَسامِيه لِكَوْنِه مُسْتَعظماً أَوْ مُسْتَحسَناً، كَمَا يُوجَد فِي أَسْمَاء الأَسَد، وَأَسْمَاء السَّيْف، وَأَسْمَاء الخَمْر.

وَسَبَب ذَلِك فِي الغَالِب أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا اسْتُعْظِم أَوِ اسْتُحْسِنَ، فَمَا ذَلِك إِلاَّ لِكَثْرة أَوْصافِه العَظِيمَة أَوِ الحَسنَة، فَيُوصَف بِأَوْصَاف كَثِيرة، وَيَشْتَهِر بِهَا فَتَصِير اسْماً لَهُ، وَمِنْ هَذَا النَّمطِ أَسْمَاء الله تَعالَى وَأَسْمَاء نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1]، وَأَكْثَر ذَلِكَ أَوْصَاف.

230 / وَلِذَلِك لَمَّا وَقَع ذِكْر السَّيْف بِحَضْرة أَبِي عَلِي الفَارِسِي[2]، وَمَا لَهُ مِن الأَسْمَاء، قَالَ أَبُو عَلِي: «مَا أَعْرِفُ لَهُ إِلاَّ اسْماً وَاحِداً، وَهُوَ السَّيْفُ، فَقالَ ابن خَالَويه[3] وَكَان فِي المَجْلِس: أَيْنَ الرسُوب؟، أَيْنَ المِخْذَع»، وَجَعَل يُعَدِّد، وَقَال إِنِّي أَعْرِفُ لَهُ خَمْسِينَ اسْماً، فَقالَ أَبُو عَلِي: تِلْكَ أَوْصَاف، وَكَأَنَّه يُنْكِر التَّرَادُف، وَإِلاَّ فَالوَصْف إِذَا اشْتَهَر يَلْحَق بالاسْم، وَرُبَّمَا تُوُسِّع فِي الاسْم فَأُرِيد بِهِ مَا دَلَّ عَلَى المُسَمَّى، سَوَاء وُضِعَ لَهُ أَوْ أُطْلِق عَلَيْه، وَلِهَذا الاعْتِبَار كَثُرَت الأَسامِي.

فَاعْلَم أَنَّ الكَلِمَة المُشرفَة، هِيَ بِحَسَب اعْتِبَار أَهْل اللُّغَة، يُقَال لَهَا كَلِمَة النَّفْي وَالإِثْبَات، لِوُقُوع ذَلِك فِيهَا. وَيُقَال لَهَا فِي عُرْف الفُقهَاء وَالأُصولِيينَ كَلِمَة الشَّهادَة،

---

1 - يراجع سبل الهدى والرشاد/ 1 : 488 وما بعدها.

2 - الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي، (ت : 377هـ) إمام النحو وصاحب التصانيف، سكن حلب واتصل بسيف الدولة، من تلامذته ابن جني، ومصنفاته كثيرة نافعة، وكان فيه اعتزال. تهذيب سير أعلام النبلاء/ 2 : 201.

3 - الحسين بن أحمد الهمداني النحوي اللغوي، (ت : 370 هـ). صاحب التصانيف، انتقل عن بغداد إلى حلب، فاستوطنها. له مواقف مع المتنبي في مجلس سيف الدولة. شذرات الذهب/ 3 : 71.

إِذْ وَقَعَت فِيهَا الشَّهادَة لله تَعالَى بِالوَحْدانِيَة فِي الأُلوهِيَة، أَوْ لأَنَّها الكَلِمَة الَّتِي تَقَع بِهَا مِنَ الإِنْسَان الشَّهادَة بِذَلِك أَوَّل الإِسْلاَم، وَهُمَا اعْتِبَارانِ مُتقَارِبَان، وَقَد يُقَال كَلِمَتا الشَّهادَة بِالتَّثْنِيَة، أَوْ كَلِمَة الشَّهادَتَيْن، وَتُرَاد هِيَ وَأُخْتها مُحَمَّد رَسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ الإِيمَان لاَ يَنْتَظِم إِلاَّ بِهِمَا <مَعاً>[1]، كَمَا سَنُبَيِّنُه بَعْدُ إِنْ شَاءَ الله تَعالَى.

وَقَدْ يُقَال لَهَا عِنْدَهم كَلِمَة التَّوْحِيد، إِمَّا لِتَضَمُّنِها تَوْحِيد الله تَعالَى بِالأُلوهِية وَهُوَ صَرِيحُها، وَإِمَّا لِتَضَمُّنِها جَمِيعَ مَباحِث التَّوْحِيد، وَهِيَ ثَلاثَة أَقْسَام : إِلَهِيات، وَنَبوِيَات، وَسَمْعِيات، إِمَّا هِيَ بِنَفْسِها وَتَقَدَّم وَجْه تَضَمُّنِها للأَوَّل، وَسَنُشِير إِلَى وَجْه تَضمُّنها لِلأَخِيرَيْن، وَإِمَّا هِيَ بِضَمِيمَة أُخْتِها إِذْ كَأَنَّهُما كَلِمَة وَاحِدَة وَلاَ إِشْكَال.

{أَسْماءُ الكَلِمَة المُشرفَة عِنْد المُفسِّرينَ والصُّوفِية}

وَأَمَّا المُفَسِّرُون وَالصُّوفِية، فَقَد اعْتَبَروا لَهَا أَسْمَاء كَثِيرَة اسْتَنْبَطوها مِنَ النُّصوص، ذَكَر جُمْلَة مِنْها حُجَّة الإِسْلام، وَزَاد عَلَيْه بَعْضُ المُتأَخِّرِينَ، وَنَحْن نَذْكُر مَجْمُوع ذَلِكَ مَعَ ذِكْر أَدِلَّتِها عَلَى حَسَب مَا تَأَوَّلُوها، وَبِالله التَّوْفِيق.

فَنقُول الاسْمُ الأَوَّل : كَلِمَة التَّوْحِيد، كَمَا مَرَّ مِنْ قَوْله تَعالَى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[2].

الثَّانِي : وَهُوَ يَجْمَع ثَلاثَة أَسْمَاء[3] : كَلِمَة الإِسْلاَم، كَلِمَة الإِيمَان، كَلِمَة الإِحْسَان، مِنْ قَوْلِه تَعالَى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[4].

1 – سقطت من نسخة ك.
2 – البقرة : 163.
3 – وردت في نسخة ح : أشياء.
4 – المائدة : 93.

فَقَوْلُه تَعالَى : ﴿إِذَا مَا اتَّقَوا وَءَامَنُوا﴾ أَيْ قَالُوا : لاَ إِلَه إِلاَّ الله فِي مَقَام الإِسْلاَم، ﴿ثُمَّ اتَّقَوا وَءَامَنُوا﴾ أَيْ قَالُوا : لاَ إِلَه إِلاَّ الله فِي مَقَامِ الإِيمَان ﴿ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا﴾ أَيْ قَالُوا : لاَ إِلَه إِلاَّ الله فِي مَقَامِ الإِحْسَان.

وَقَوْلِه تَعالَى : ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾[1] وَقَوْلِه تَعالَى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾[2] قِيلَ الإِحْسَان : قَوْل لاَ إِلَه إِلاَّ الله.

الاسْمُ الخَامِسُ : كَلِمَة السَّوَاء، مِنْ قَوْلِه تَعالَى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[3] الآيَة، قِيلَ : هِيَ لاَ إِلَه إِلاَّ الله.

السَّادِس : كَلِمَة العَهْد، مِنْ قَوْلِه تَعالَى : ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[4] قِيلَ : هُوَ لاَ إِلَه إِلاَّ الله.

السَّابِع : كَلِمَة العَدْل، مِنْ قَوْلِه تَعالَى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾[5] رَوَى ابْن عَبَّاس[6] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ العَدْل قَوْل لاَ إِلَه إِلاَّ الله.

الثَّامِن : كَلِمَة الحَق، مِنْ قَوْلِه تَعالَى : ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾[7] أَيْ قَوْل : لاَ إِلَه إِلاَّ الله.

التَّاسِعُ : كَلِمَة الإِخْلاَص، مِنْ قَوْلِه تَعالَى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[8] أَيْ لِيُوَحِّدُوه بِ «لاَ إِلَه إِلاَّ الله».

---

1 - الإسراء : 7.
2 - يونس : 26.
3 - آل عمران : 64.
4 - مريم : 87.
5 - النحل : 90.
6 - سبقت ترجمته في ص : 26.
7 - الزخرف : 86.
8 - البينة : 5.

العَاشِر : كَلِمَة الصِّدْق، مِنْ قَوْلِه تَعالَى : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾[1] قِيلَ : هُوَ لاَ إِلَه إِلاَّ الله.

231 / الحَادِي عَشَر : كَلِمَة الاسْتِقامَة، مِنْ قَوْلِه عَزَّ وَجَلَّ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾[2] قِيلَ : هُو لاَ إِلَه إِلاَّ الله.

الثَّانِي عَشَر : كَلِمَة التَّقْوَى، مِنْ قَوْلِه تَعالَى : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾[3] قِيلَ : هِيَ لاَ إِلَه إِلاَّ الله، لأَنَّها تَقِي صَاحِبها مِنَ الكُفْر أَوْ مِنَ النَّارِ.

الثَّالِث عَشَر : الكَلِمَة الطَّيبَة، مِنْ قَوْلِه تعالَى : ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾[4] قِيلَ : لاَ إِلَه إِلاَّ الله، لأَنَّها تَظْهَر مِنَ القَلْب وَأَصْلُها ثَابِت فِيهِ وَهُو المَعْرِفَة.

الرَّابِع عَشَر : الكَلِم الطَّيِّب، مِنْ قَوْله تَعالَى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾[5] قِيلَ : هُوَ لاَ إِلَه إِلاَّ الله.

الخَامِس عَشَر : الكَلِمَة البَاقِيَة، مِنْ قَوْله تَعالَى فِي قِصَّة إِبْراهِيم عَلَى نَبِيِّنا وَعلَيْه الصَّلاَة وَالسَّلاَم، ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً ﴾[6] قِيلَ : لاَ إِلَه إِلاَّ الله، لأَنَّهُ إِشارَة إِلَى بَراءَتِه مِمَّا يَعْبُدون مِنْ دُونِ الله تَعالَى، وَقَوْله : ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾[7] وَذَلِك مَضْمُون لاَ إِلَه إِلاَّ الله.

---

1 - الزمر : 33.
2 - فصلت : 30 - الأحقاف : 13.
3 - الفتح : 26.
4 - إبراهيم : 24.
5 - فاطر : 10.
6 - الزخرف : 28.
7 - الزخرف : 27.

السَّادِس عَشَر : الكَلِمَة العُلْيَا، مِنْ قَوْلِه تَعالَى : ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ﴾ [1] قِيلَ : لاَ إِلَه إِلاَّ الله.

السَّابِع عَشَر : القَوْل الثَّابت، مِنْ قَوْلِه تَعالَى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [2] هُوَ لاَ إِلَه إِلاَّ الله.

الثَّامِن عَشَر : القَوْل الطَّيب، مِنْ قَوْلِه تَعالَى : ﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [3] قِيلَ : هُوَ لاَ إِلَه إِلاَّ الله.

التَّاسِع عَشَر : القَوْل الصَّوَاب، مِنْ قَوْلِه تَعالَى : ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [4] أَيْ بِأَنْ كَانَ قَالَ : لاَ إِلَه إِلاَّ الله.

العِشْرُون : الدِّين الخَالِص، مِنَ قَوْلِه تَعالَى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [5] أَيْ لاَ إِلَه إِلاَّ الله.

الحَادِي وَالعِشْرُون : ﴿ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [6]، قِيلَ : هُوَ لاَ إِلَه إِلاَّ الله، وَالمُرَاد بِهِ لُغَة الوَصْف الأَعْلَى.

الثَّانِي وَالعِشْرُون : العُرْوَة الوُثْقى، مِنْ قَوْلِه تَعالَى : ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [7] قِيلَ هِيَ لاَ إِلَه إِلاَّ الله.

الثَّالِث وَالعِشْرُون : دَعْوَة الحَق، مِنْ قَوْله تَعالَى : ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ [8] قِيلَ : هِيَ لاَ إِلَه إِلاَّ الله.

---

1 - التوبة : 40.
2 - إبراهيم : 27.
3 - الحج : 24.
4 - النبأ : 38.
5 - الزمر : 3.
6 - تضمين للآية : 60 من سورة النحل والآية : 27 من سورة الروم.
7 - البقرة : 256. لقمان : 22.
8 - الرعد : 14.

الرَّابِع وَالعِشْرون : مَقالِيد السَّماوَات وَالأَرْض، مِنْ قَوْلِه تَعالَى : ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1] رُوِيَ عَن ابْنِ عَبَّاس أَنَّها لاَ إِلَه إِلاَّ الله، وَالمَقالِيد المَفاتِيح، فَهِي مِفْتَاح الجَنَّة، وَمِفْتَاح خَزائِن الغَيْب، وَخَزائِن السَّماوَات وَالأَرْض، وَأَشْرَف مَفاتِيح الأَجْسَام وَالنُّفوس، وَالأَرْوَاح وَالقُلُوب، وَالأَسْرَار وَالعُقُول، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2].

وَلاَ يَخْفَى أَنَّ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الآيَات اتِّبَاعاً لِمَن ذَكرَها مِنْ أَهْل هَذَا الشَّأْن، مِنْها مَا هُو جَارٍ عَلَى مَشْهور التَّفْسِير، وَمِنْها مَا لَيْس كَذلِك، وَتَصِحُّ كُلُّها بِأَنْواع مِنَ الاعْتِبارَات، كَأَخْذ جُزْئِي مِنْ كُلِّي، أَوْ لاَزِم مِنْ مَلْزُوم، وَمِنْه أَخْذ السَّبَب مِنَ المُسبَّب، وَالوَسِيلَة مِنَ الغَايَة، وَأَحَد المُتَلازِمَيْن وَالمُتصاحِبَيْن وَنَحْو ذَلِك.

وَأَمَّا مَعانِي تِلْك الأَسامِي فَمَشْهورَة فِي مَوَادِّها[3] مِنَ التَّفاسِير فَلاَ نُطِيل الكِتَاب بِتَتَبُّعِها، وَاللهُ المُوَفِّق.

1 - الزمر :-63 الشورى : 12.
2 - تضمين للآية : 213 من سورة البقرة والآية : 46 من سورة النور.
3 - وردت في نسخة ق : مرادها.

الفَصْلُ الثَّانِي عَشَر

فِي لَطائِف تُعْتَبَر فِي هَذِه الكَلِمَة المُشرفَة وَفوائِد لَمْ يَجْر الحَدِيث بِهَا فِيمَا سَلَف. وَجُلُّ ذَلِك مِمَّا وَقَع فِي كَلاَم أَهْل البَصائِر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

مِنْها، أَنَّ هَذِه الكَلِمَة هِيَ كَلاَم تَامٌّ مُفِيد، وَإِنَّما قِيلَ لَهَا كَلمَة عَلَى سَبيل التَّوَسُّع وَالتَّجوُّز، مِنْ تَسْمِيَة الشَّيْء بِاسْم جُزْئِه، وَهذَا الإِطْلاَق مَشْهُور فِي اللُّغَة، وَمِنْه قَوْلَه تَعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾[1] أَيْ: رَبِّ ارْجِعُون الخ، وَقَوْلِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَصْدَقُ كَلِمَة قَالَها الشَّاعِر قَوْلُ لَبيد[2]»[3]، وَالعَرَب يُكْثِرون مِنْ هذَا، حَتَّى إِنَّهُم يُطْلِقُون الكَلِمَة عَلَى القَصِيدَة كُلِّها، فَيقُولونَ: قَالَ فُلاَن فِي كَلِمَة لَهُ، يَمْدَح فُلاناً أَوْ يَهْجوهُ.

232 وَمِنْ ذَلِك، أَنَّ هَذِه الكَلِمَة أَوَّلُها كُفْر وَآخِرُها إِيمَان،/ فَهِيَ[4] مَنْزِلاَن، فَعَالم العَدْل وَقفُوا فِي المَنْزِل الأَوَّل وَهُو الجَحْد وَالكُفْر، وَعَالمُ الفَضْل عَبَرُوا إِلَى المَنْزِل الثَّانِي وَهُوَ الإِيمَان، وَأَوَّل مَنْ وَقعَ فِي المَنْزل الأَوَّلِ وَبَقِيَ فِيه، إِبْلِيس لَعَنه الله،وَأَوَّل مَنْ عَبَر إِلَى المَنْزل الثَّانِي صَفْوَة الله آدَم عَلَى نَبِيِّنا وَعَلَيْه وَعلَى سَائِر الأَنْبياءِ الصَّلاَة وَالسَّلاَم، فَإِبْلِيس هُوَ أَوَّل عَالَم العَدْل، وَرَأْسُ جَزيرَة الكُفْر، وَآدَم هُوَ أَوَّل عَالَم الفَضْل، وَرَأْس جَزِيرَة الإِيمَان. وَهذَا كَلاَم فِي الثَّقَلَيْن المُتَعرِّضِين لِلخَيْر وَالشَّر فِي الجُمْلَة.

---

1 – المؤمنون: 100.

2 – سبقت ترجمته في ص: 269.

3 – أخرجه مسلم في كتاب الشعر. والبخاري في كتاب الأدب، باب: ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه.

4- وردت في نسخة ك: وهي.

فَانْظُر يَا ابْنَ آدَم هَلْ عَبَرْت إِلَى المَنْزِل الثَّانِي، فَاتَّصَفْت بِالإِيمَان وَدَخلْتَ فِي عَالَم الفَضْل، وَارْتسَمتَ فِي جَزيرَة المُؤْمنِينَ، وَاتَّصَل نَسَبُكَ بِأَبِيكَ آدَم عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟ أَمْ وَقَفْتَ فِي مَنْزِل « لاَ إِلَهَ » فَالْتَحَقتَ بِالنَّسبة الشَّيْطانِية، وَانْقطَعتْ نِسْبتُكَ الآدَمِيَة، فَتُفارِق المَاء الَّذِي خُلِقَ مِنْه أَبُوك وَتَصِير إِلَى النَّارِ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا إِبْلِيس، وَقَدْ ذَهَب هُوَ إِلَى أَصْلِه، وَفَارَقْتَ أَنْتَ أَصْلَك فَتَنَوَّع عَلَيْك عَذَاب الحِجَاب وَالاغْتِراب، نَعُوذ بِالله مِنَ الخِذْلاَنِ.

وَكَانَ بَعْضُ المُولَهِين يَصِيحُ فَيقُول : يَا مَنَاحِيس لاَ يَغُرَّنكُم إِبْلِيس، فَإِنَّه يَرْجِع إِلَى دَارِه، وَأَنْتُم يَجْتَمع عَلَيْكُم العَذابُ وَالغُرْبَة أَوْ نَحْوَ هَذَا الكَلاَم. وَهَذَا بِحَسَب الإِضَافَة، وَإِلاَّ فَلا خَيْر وَلاَ هَوْن فِي عَذَاب اللهِ، نَسْأَل اللهَ العَافِيَة مِنْهُ.

ثُمَّ قَدْ وَرَد «لاَ إِلَه إِلاَّ الله حِصْنِي وَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذابِي»[1]، فَـ «لاَ إِلَهَ» وَحْدَه لاَ يَكُون حِصْناً، وَإِنَّمَا هُوَ بَعْض الحِصْن، فَمتَى لَمْ تَصِلُه بِـ «إِلاَّ الله» لَمْ يَتِم الحِصْن، وَكَأَنَّك فِي بَعْض خَرابَاتِه، فَإِذَا وَصَلْتَ الأَوَّل بِالثَّانِي فَقَدْ دَخلْتَ فِي الحِصْن، وَكُل حِصْن فَلَهُ أَرْبَعَة أَرْكَان، وَ«لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله» أَرْبَع كَلِمَات، فَكُلُّ كَلِمَة رُكْن، فَإِذَا اتَّصَلَت حُدودُها تَمَّ الحِصْنُ[2].

وَكَمَا لِلكَلِمَة أَرْبعَة أَرْكَان فِي الصُّورَة، فَلهَا أَرْبَعَة أَرْكَان فِي البَاطِن، وَهِيَ الصَّلاَة وَالزَّكَاة وَالصَّوْم وَالحَج، وَهِيَ الخَامِسَة «بُنِيَ الإِسْلاَم عَلَى خَمْس»[3].

ثُمَّ هَذِه الكَلِمَة هِيَ أَرْبَع كَلِمَات، وَمَجْموعُها اثْنَيْ عَشَر حَرْفاً، تَرْجِع إِلَى أَرْبَعة أَحْرُف، وَهِيَ تَرْكِيب اسْم الجَلاَلَة الوَاقِع فِيهَا، لأَنَّه هُوَ المَقْصُود، وَإِثْبَاته هُوَ المُرَاد، وَلَيْس فِي نَفْي غَيْرِه إِعْدَام شَيْء كَانَ، وَإِنَّمَا هُوَ إِخْبَار أَنَّهُ هُوَ الثَّابِت، فَالأَرْبعَة هِيَ الكَلِمَة، وَالكَلِمَة هِيَ الأَرْبعَة، وَهِيَ تَرْكِيب « لاَ إِلَه إِلاَّ الله ».

---

1 - سبق تخريجه في ص : 91.

2 - عن رسالة الغزالي المخطوطة بالخزانة العامة بتصرف : 25.

3 - تضمين لحديث «بني الإسلام على خمس...» الحديث. أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب : بني الإسلام على خمس. ومسلم في كتاب الإيمان، باب : بيان أركان الإسلام ودعائمه.

وَهذَا العَدَد أَعْنِي الأَرْبعَة، شَأْنه عَجِيب، فَإِنَّ العَناصِر أَرْبعَة، وَالطَّبائِع أَرْبعَة، وَالكُتُب أَرْبعَة، وَالخُلفَاء أَرْبعَة، وَالمَذاهِب أَرْبعَة، وَعَلَى التَّرْبِيع كَانَت أَكْثرُ هَذِهِ المَوْجودَات فِي عَالَم الكَوْن، فَالإِنْسَان مُربَّع مُسْتَطِيل، وَكَذا أَكْثَر الحَيوَانَات، وَالدِّيَار مُربَّعَة، وَالمَدائِن مُربَّعَة، وَالأَبْوَاب مُربَّعة، وَمُجَلَّدات الكُتُب مُربَّعة، وَالمَساجِد مُربَّعَة، حَتَّى إِنَّه تُكْرَه الصَّلاَة فِي غَيْر المُربَّعِ، وَالجِهَات أَرْبَع، وَالرِّيَاح أَرْبَع، إِلَى غَيْر هَذَا.

وَمرَاتِب الزُّلْفَى أَرْبَع، وَهِيَ مَرَاتِب النَّبِيئِينَ وَالصِّدِّيقِين وَالشُّهدَاء وَالصَّالِحين. وَاللَّطائِف الإِنسانِيَّة أَرْبَع : النَّفْس وَالعَقْل وَالقَلْب وَالرُّوح، وَلَو ضُرِبَت فِي نَفْسِها لَكانَت سِتَّة عَشَر، وَهِيَ مَجْمُوع السَّماوَات السَّبْع وَالأَرَضِين السَّبْع، وَالعَرْش وَالكُرْسِي، وَفِي أَشْفَاع هَذَا العَددِ وَأَوْتَارِه مُعْظَم المَوْجودَات، وَالاثْنَيْ عَشَر حَرْفاً الَّتِي هِيَ مَبْنَى الكَلمَة المُشرفَة، هِيَ عَدَد البُروج الاثْنَيْ عَشَر[1] الَّتِي هِيَ مَدَار تَصرُّفات الأَحوَال، وَتَقَلُّبَات الأَكْوَان بِإِذْن الله تَعالَى، وَقَدْ أَكْثَر 233 / البَاحِثُون عَنْ خَواصِّ الأَعْدَاد وَأَسْرَار الحُروفِ مِنْ هَذِه الاعْتِبارَات.

وَقَالَ حُجَّة الإِسْلاَم : «كُلُّ سُلْطَان لِولاَيَتِه أَمَدٌ مَعْدُود وَحَدٌّ مَحْدُود، إِلاَّ سُلْطَان «لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله» فَإِنَّ وِلاَيَته ثَابِتَة الأَبَد وَباقِيَة السَّرْمَد، شَمِلَت الأَوَّلِين وَالآخِرِينَ، مِنْ طَائِعينَ وَكَارِهينَ، وَعَمَّت أَهْل السَّماوَات وَالأَرْض، ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾[2] تَطَوُّعاً وَشَوْقاً وَمَحبَّة وَتَعبُّداً أَتَى كَرْهاً وَقَصْداً[3] ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[4]، ﴿ وَإِذ

---

1 - وهي : الدلو، الحوت، الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدي. راجع تفصيل الكلام عنها في كتاب القانون في أحكام العلم والعالم والمتعلم للإمام اليوسي بتحقيقنا.ص : 254.

2 - تضمين للآية : 93 من سورة مريم.

3 - وردت في نسخة ح : صدقا.

4 - تضمين للآية : 15 من سورة الرعد.

أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾[1].

فَعالَمُ الفَضْل قَالُوا بَلَى طَوْعاً، وَعالَم العَدْل قَالُوا بَلَى كَرْهاً، أَخْرجَهُم مِنْ ظُهُور بَنِي آدم عَلى هَيْئَة الذَّر، ثُمَّ فَرَّقَهُم فَرِيقَيْن، وَجعلَهُم عَالَمَيْن، فَعالَم الفَضْل عَنْ يَمِينِه. وَعالَم العَدْل عَنْ شِمَالِه.

ثُمَّ خلَق لَهُم آلَة الفَهْم وَآلَة السَّمْع وَآلَة النُّطْق، ثُمَّ خَاطَبهُم وَأَشْهدَهُم عَلَى أَنْفُسِهم الآيَة، فَأَقَرَّ الكُلُّ بِالوَحْدانِيَة، وَأَذْعَنُوا بِالفَرْدانِيَة، فَقالُوا بَلَى، فَعالَم الفَضْل قَالُوا بَلَى طَائِعينَ مُتَسارِعِينَ، وَعالَم العَدْل قَالُوا بَلَى كَارِهينَ مُتَثاقِلينَ، ثُمَّ أُخِذَت شَهادَة كُلِّ وَاحِد مِنْهُم بِمَا شَهِد عَلَى نَفْسِهِ، ﴿ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾[2].

فَلَمَّا خَرجُوا مِنْ عالَم القُدْرَة إِلَى عَالَم الحِكْمَة، ظَهَر لِكُل وَاحِد مِنْهُم مَا كَانَ يُضْمِرُه مِنْ تَوْحِيد أَوْ جُحودٍ.

فَعالَمُ الفَضْل قَالُوا بَلَى اعْتِقاداً بِصدْق، فَوَفَّوْا بِعَهْدِه وَحافَظُوا عَلَى مِيثَاقِه.

وَعالَمُ العَدْل قَالُوا بَلَى مَعَ اعْتِقَاد الجُحودِ، فَخانُوا العَهْد وَضَيَّعُوا المِيثَاق، فَبرزَ لِعالَم الفَضْل بِالمَدْحِ لَهُم وَالثَّنَاء عَلَيْهِم، فَقالَ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾[3] وَبَرزَ لِعالَم العَدْل بِالقَدْح فِيهِم وَالإِزْرَاء عَلَيْهِم فَقَالَ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾[4].

---

1 - تضمين للآية : 172 من سورة الأعراف.
2 - تضمين لتتمة الآية 172 من سورة الأعراف.
3 - تضمين للآية : 20 من سورة الرعد.
4 - تضمين للآية : 27 من سورة البقرة والآية : 25 من سورة الرعد.

ثُمَّ فِي عَرَصَات القِيامَة إِذَا بَسَط صَعِيد سُلْطان بَلَى عَلَى كِلاَ العَالَمِين، فَيَشْهَد لِعَالَم الفَضْل بِالأَمانَة «لاَ إِلَه إِلاَّ الله مُحمَّد رَسُول الله» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْليماً، وَيَشْهَد عَلَى عَالَم العَدْل بِالخِيانَة، ثُمَّ يَنْشُر لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُما كِتَاب إِقْرَاره، وَشهادَته عَلَى نَفْسِه، ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ إِلَى ﴿حَسِيبًا﴾[1]»[2] انْتَهى.

وَقَالَ أَيْضاً : «شَجَرَة «لاَ إِلَه إِلاَّ الله»، شَجَرة السَّعادَة، فَإِنْ غَرسْتَها فِي قِبْلَة[3] التَّصْدِيق، وَسَقَيْتَها بِمَاء الإِخْلاَص، وَرَاعَيْتَها بِالعَمَل الصَّالِح، رَسَخَتْ عُروقُها، وَثَبَت سَاقُها، وَاخْضَرَّتْ أَوْراقُها، وَأَيْنَعَتْ ثِمَارُها وَتَضاعَفَتْ [تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا[4]].

فَإِنْ قُلْتَ : مَا ثَمَرَةُ هَذِه الشَّجرَة ؟ قُلْتُ : التَّوْبَة وَاليَقظَة، وَالزُّهْد وَالوَرَع، وَالتَّوَكُّل وَالتَّفْوِيض وَالتَّسْلِيم، وَكُلُّ صِفَة مِنَ الصِّفَات البَاطِنَة الرُّوحَانِيَة، وَكُلُّ خِصْلَة مِنَ الخِصَال الظَّاهِرَة الجِسْمانِيَة، تِلْك الشَّجرَة ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، وَهَذِه الشَّجرَة ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، وَلَكِنَّ تِلْك حِينُها سِتَّة أَشْهُر، وَهَذِه حِينُها كُلَّ لَحْظَة، وَنَفْسُ ثَمرَة هَذِه الشَّجرَة قُوَّة لِعالَم القَلْب وَالأَرْوَاح، وَثَمرَة تِلْك الشَّجرَة قُوَّة لِعالَم الأَشْبَاح، هَذِه قُوَّة لِعالَم المَعانِي وَالأَسْرَار، وَتِلْك قُوَّة لِعالَم الصُّوَر وَالآثَار.

وَإِنْ غَرَسْتَ هَذِه الشَّجرَة فِي بَيْت التَّكْذِيب وَالشِّقَاق، وَسَقَيْتَها مِنْ مَاءِ الرِّيَاء وَالنِّفَاق، وَتَعاهَدْتَها بِالأَعْمَال السَّيئَة وَالأَفْعَال القَبِيحَة، وَرَاعَيْتَها بِنَقْض العهْد، وَتَضْيِيع الأَمانَة،/ 234 طَفَح عَلَيْها غَدِيرُ الغَدْر، وَلَفحها[5] لَهِيبُ الهَجْر،

1 - تضمين للآيتين : 14-13 من سورة الإسراء.
2 - رسالة الغزالي في حديث «لا إله إلا الله حصني» وما يتعلق بالكلمة المشرفة : 30-29.
3 - وردت في نسخة ح : قلة.
4 - تضمين للآية : 25 من سورة إبراهيم.
5 - وردت في نسخة ك : ولفح عليها.

فَتنَاثَرت ثِمَارُها، وَانْقَطعَت عُرُوقُها، وَانْقَشَع سَاقُها، وَهَبَّتْ عَلَيْها عَواصِف القَدَر فَمَزَّقَتْها كُلَّ مُمَزَّق، ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[1]»[2] انْتهَى.

وَقَالَ أَيْضاً : «مَنِ اسْتَظَلَّ بِظِلِّ هَذِه الشَّجرَة، فَقَدْ سَعِدَ سَعادَة الأَبَد، وَمَنْ لاَ فَقَدْ شَقِيَ شَقاوَة الأَبَد، مَنْ تَعلَّق بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصانِها، رَفَعَتْهُ إِلَى أَعْلَى الدَّرجَات، وَمَنْ لاَ فَقَدْ وَقَعَ[3] فِي أَدْنَى الدَّركَاتِ»[4].

وَقَالَ أَيْضاً : «لاَ إِلَه إِلاَّ الله، هِيَ الكَلِمَة العُلْيا، الشَّرِيفَة العَالِيَة، مَنِ اسْتَمْسَك بِهَا فَقَدْ سَلِمَ، وَمَنْ اعْتَصَمَ[5] بِهَا فَقَدْ عُصِمَ، «أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقولُوا لاَ إِلَه إِلاَّ الله، فَإِذَا قَالُوهَا»[6] الحَدِيث، هَذَا تَوْقِيع العِصْمَة الدُّنْيَوِيَة، وَأَمَّا تَوْقِيع العِصْمَة الأُخْرَوِية فَ«مَنْ قَالَ لاَ إِلَه إِلاَّ الله دَخَلَ حِصْنِي، وَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي»[7]»[8].

---

1 – تضمين للآية : 23 من سورة الفرقان.
2 – رسالة الغزالي في حديث «لا إله إلا الله حصني» وما يتعلق بالكلمة المشرفة : 34.
3 – وردت في نسختي ق و ك : وضع.
4 – رسالة الغزالي في حديث «لا إله إلا الله حصني» وما يتعلق بالكلمة المشرفة : 34.
5 – وردت في نسختي ق و ك : استعصم.
6 – سبق تخريجه في ص : 111.
7 – سبق تخريجه في ص : 91.
8 – رسالة الغزالي في حديث «لا إله إلا الله حصني» وما يتعلق بالكلمة المشرفة : 34.

الفَصْلُ الثَّالِثَ عَشَرَ

أَصْلُ وَفَرْعُ الكَلِمَة المُشرفَة

كَثِيراً مَا يَقَعُ السُّؤَال عَنْ هَذِهِ الكَلِمَة المُشرفَة، فَيُقَال مَا شُروطُها وَمَا فُروعُها ؟ أَوْ يُقَال مَا أَصْلُها وَمَا فَرْعُهَا؟، أَوْ مَا أَسْبابُها وَمَا ثَمرَاتُها؟، وَنَحْو هَذَا مِنَ العِبارَات.

فَنَقُول : أَمَّا شُروطُها فَلَفْظُ مُحْتَمَل، لأَنَّهُ يَصِحُّ أَنْ يُطْلَق عَلَى شَرْط وُجودِها فِي اللِّسَان أَوْ فِي القَلْب، وَعلَى شَرْطِ قُبولِها وَالاعْتِدَاد بِهَا، أَمَّا شَرْط وُجودِها فَشَيْئَانِ رَاجِعانِ إِلَى انْتِفَاء المَانِع، أَحدُهُما غَيْبِي، وَهُوَ انْتِفَاء الخِذْلاَن وَالشَّقاوَة السَّابِقَة، فَإِنَّ الأَمْرَ بِيَدِ الله تَعالَى مَنْ خَذَلُه لَمْ يَعْرِفْها، وَإِنْ عَرفَها لَمْ يَعْتَرِفْ بِهَا، بَلْ يَجْحَدُ وَيُكابِر. الثَّانِي <حِسِّي بَاطِنِي، وَهُوَ شَيْئَان : أَحدُهُما انْتِفَاء الجَهْل بِهَا، وَالثَّانِي>[1] انْتِفَاء الجُحودِ، وَهُوَ الإِنْكَار مَعَ العِلْم، وَرُبَّمَا تَقَعُ مَعَ الجُحُود فِي اللِّسَان لاَ فِي القَلْبِ، وَهُوَ النِّفَاق.

وَأَمَّا شَرْطُ قَبولِها وَالاعْتِدَادُ بِهَا، فَذَلِك يَخْتَلِف، إِمَّا بِالنَّظَر إِلَى الأَحْكَام الدُّنْيَوِيَة، فَشَرْطُه النُّطْق بِهَا جِهاراً حَتَّى تُسْمَع، أَوْ مَا يَقُوم مَقامَ النُّطْق، كَالإِشارَة مِنَ الأَخْرَس مَثلاً، أَوِ الكِتابَة عَلَى مَا مَرَّ.

وَإِمَّا بِالنَّظَر إِلَى الآخِرَة، فَشَرْطُه فِي البَاطِن الاعْتِرَاف وَالتَّصْدِيق بِمَضْمونِها، وَإِلاَّ فَمُنافِق وَهُوَ أَشَرُّ الكُفْرِ بِإِجْمَاع، وَلاَ عِبْرَة بِقَوْل الكَرَّامِيَة، أَنَّهُ مُؤْمِن بِمُجرَّد النُّطْق، وَفِي الظَّاهِر امْتِثَال المَأْمُورَات وَاجْتِنَابُ المَنْهِيَات، وَهذَا عِنْدَ أَهْلِ الحَقِّ شَرْطُ كَمَال، يُحَصِّل الفَوْزُ بِفَضْل الله تَعالَى، فَإِنْ لَمْ يَكُن فَهُوَ فِي مَشِيئَة الله تَعالَى، وَلاَ يُخَلَّد فِي النَّارِ إِنْ دَخلَها، لأَنَّهُ مُؤْمِنٌ وَإِنْ كَانَ عَاصِياً.

1 - ساقط من نسخة ك.

وَأَمَّا فُروعُها، فَامْتِثالُ مَا أَمَرَ بِهِ وَاجْتِنابُ مَا نَهَى عَنْهُ، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : هِيَ الأَفْعَال وَالتُّرُوك المَطْلوبَة مِنَ العِبَاد، وَذَلِك هُوَ مَجْمُوع الشَّرِيعَة كُلِّها، مِمَّا بُيِّنَ فِي عِلْم الظَّاهِر، كَالصَّلاَة وَالصِّيَام وَنَحْوهمَا، <وَكَتَرْك الزِّنَى وَشُرْبِ الخَمْر>[1] وَنَحْوَهُما، وَمَا بُيِّنَ فِي عِلْم البَاطِن، كَالتَّوْبَة وَالإِنابَة، وَالإِخْلاَص وَالزُّهْد، وَالتَّوَكُّل وَالرِّضَى، وَالقَناعَة وَالصَّبْر، وَالمُراقَبَة وَنَحْوِهَا، وَمَا تُثْمِرُه مِنَ المُشاهَدَة وَالفَنَاء وَالمُحادَثة وَنَحْو ذَلِك، وَكَتَرْك الغَفْلَة وَالحِرْص، وَالرَّغْبَة وَالحَسَد، وَالرِّيَاء وَالعُجْب، وَنَحْو ذَلِك.

وَأَمَّا أَصْلُها وَفِي مَعْنَاه سَبَبُها، فَشيْئَان أَيْضاً : أَحدُهُما غَيْبِي، وَهُوَ التَّوْفِيق وَسابِق السَّعادَة، وَإِلْهَام الله تَعالَى. وَالثَّانِي حِسِّي، وَهُوَ النَّظَر أَو السَّمَاع، وَقَدْ يَكُون ذَلِك مَعَ الاجْتِمَـاع مِمَّـنْ تُرْجَى بَركَتـهُ، كَنَبِيٍّ أَوْ وَلِي، أَوْ رَغْبَة إِلَى الله تَعالَى، أَوْ خِصْلَة حَمِيدَة / يُطْبَع عَلَيْها، فَتَكُون مُقَدِّمَة لِلخَيْر، كَمَا أَشارَ إِلَيْه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِقَوْله لِلَّذِي سَأَلَه عَنْ خِصَالٍ كَانَ يَتَحَنَّثُ بِهَا «أَسْلَمْت عَلَى مَا سَلفَ لَكَ مِنْ خَيْر»[2] عَلَى أَحَدِ التَّأْوِيلاَت. 235

وَأَمَّا ثَمَرَتُها، فَهِيَ الفَرْع الَّذِي ذَكَرْنَاه آنِفاً، إِمَّا ظَاهِر وَإِمَّا بَاطِن، وَقَدْ مَرَّ فِي كَلام حُجَّة الإِسْلاَم عَدُّ مَبانِي الإِسْلام أَرْكاناً، وَذَلِك صَحِيح بِاعْتِبَار القَبُول، وَالاعْتِدَاد فِي مَقام الكَمَال، وَنَحْن عَدَّدْناهَا فُروعاً، وَذَلِك بِاعْتِبَار كَوْنِها تَابِعَة لِلكَلِمَة، فَإِنَّ الكَلِمَة المُشرفَة هِيَ مُقَدِّمَة كُلِّ خَيْر، وَمِفْتَاح كُلِّ بِرٍّ، وَقَدْ يَتَوقَّفُ النُّطْق بِهَا عَلَى ارْتِفَاع مَوانِع أُخْرَى، كَالخَوْفِ وَالسَّهْوِ مَثلاً، أَوْ وُجُود سَبَب آخَرَ كَبلُوغ الدَّعْوَة وَنَحْو ذَلِك، وَالاعْتِبَارَات فِي هَذَا البَابِ كَثِيرَة، وَإِنَّما نَبَّهْنَا تَنْبِيهاً، وَاللهُ المُوَفِّقُ بِمَنِّهِ.

---

1 – ساقط من نسخة ك.

2 – أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب : من تصدق في الشرك ثم أسلم. ومسلم في كتاب الإيمان، باب : بيان عمل الكافر إذا أسلم بعده.

الفَصْلُ الرَّابِعَ عَشَرَ

فِي ذِكْر أُخْت هَذِه الكَلمَة المُشرفَة وَهِيَ مُحمَّد رَسُول الله الثَّانِية مِنْ كَلِمَتَيْ الشَّهادَة عَلَى مَا مَرَّ التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ

وَإِنَّمَا تَعرَّضْنا لَهَا لِمَسِيس الحَاجَة إِلَيْها، مِنْ حَيْث إِنَّهُ لاَ يَتِمُّ الإِيمَان وَالإِسْلام إِلاَّ بِهَا، فَهِيَ مِنْ <جُمْلَة>[1] شُرُوط الاعْتِدَاد بِهَذِه الكَلمَة المُشرفَة، وَإِنَّمَا أَفْردناهَا عَنْ <سَائِر>[2] الشُّروطِ، لاحْتِياجِها إِلَى تَفْصِيل يَسْتَدْعِي فَصْلاً عَلَى حِدَة.

وَاعْلَم أَنَّ هَاتَيْن الكَلمتَيْن أُخْتَان مُتقَارِنتَانِ، لاَ تَقُوم إِحْداهُما بِدُون الأُخْرَى شَرْعاً وَعَقْلاً.

أَمَّا شَرْعاً : فَلأَنَّ الإِيمَان لاَ يُقْبَل مِنْ أَحَدٍ اليَوْم إِلاَّ بِمَجْموعِهِمَا، أَلاَ تَرَى أَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِن بِمُحمَّد رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُو كَافِر، وَإِنْ وَحَّدَ اللهَ تَعالَى، وَكذَا مَنْ لَمْ يُوَحِّد فهُوَ كَافِر، وَإِنْ آمَنَ بِالرَّسُول، وَلأَجْل هَذَا التَّقارُن يُكْتَفَى بِذِكْر الأُولَى كَثِيراً، نَحْوَ «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلامِه لاَ إِلَه إِلاَّ الله دَخَل الجَنَّة»[3]، وَنَحْو ذَلِك.

وَأَمَّا عَقْلاً، فَلأَنَّ الأُولَى مَادَّة لِلثَّانِيَة، وَالثَّانِيَة مَظْهَر لِلأُولَى، وَبَيَان ذَلِك أَنَّ الأُلوهِيَة عَنْها نَشأَت الرِّسالَة، وَالرِّسالَة بِهَا ظَهرَتِ الأُلوهِيَة، فَكانَت الأُولَى مُقْتَضِية لِلثَّانِيَة، كَاقْتِضَاء السَّبَب لِلمُسَبَّب، وَالثَّانِيَة مُقْتَضِية لِلأُولَى عَلَى العَكْس، وَهذَا مَبْحَث يَحْتَاج إِلَى تَدْقِيق وَتَنْسِيق، وَفِي هَذِه الإِشارَة مَقْنَع، فَلْنَصْرِفِ العِنَانَ إِلَى مَا هُوَ الغَرَضُ مِنْ ذِكْر هَذِه الكَلمَة المُطهَّرَة، وَهِيَ قَوْلُنا مُحمَّد رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

1 - سقطت من نسخة ك.

2 - سقطت من نسخة ك.

3 - أخرجه أبو داود في الجنائز، باب : في التلقين. والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي.

وَيَتقرَّر الكَلاَم فِيهَا بِعَوْن الله وَتَوْفِيقِه فِي مَسائِلَ :

المَسْأَلَة الأُولَى : فِي ذِكْر أَجْزَاء هَذَا التَّرْكِيب، وَفِيه أَرْبَعَة أَجْزَاء، ثَلاثَة مَادِيَّة وَهِيَ الكَلِمَات الثَّلاَث، وَوَاحِد صُورِي وَهُو الإِضافَة

*** الكَلِمَة الأُولَى لَفْظُ مُحمَّد :**

وَهُوَ فِي اللُّغَة عَلَمٌ مَنْقُول مِنْ اسْم مَفْعُول، المُضَعَّف لِلمُبالَغة، تَقُول حَمِدْتُ زَيْداً، بِكَسْر المِيم فَهُوَ مَحْمُودٌ، وَحَمَّدْتُه بِالتَّضْعِيف فَهُوَ مُحمَّدٌ، كَمَا تَقُول رَفِعْتُه فَهُوَ مَرْفُوعٌ، وَرَفَّعْتُه بِالتَّشْدِيد فَهُو مُرَفَّعٌ، وَشَدِدْتُه فَهُو مَشْدُودٌ، وَشَدَّدْتُه فَهُوَ مُشَدَّدٌ.

وَالمُرَاد بِهِ هَاهُنا مُحَمَّد بْنُ عَبْدِ الله بْنُ عَبْدِ المُطَّلِب بْنُ هَاشِم بْنُ عَبْدِ مَنَاف بْنُ قُصِي بْنُ كلاب بْنُ مُرَّة بْنُ كَعْب بْنُ لُؤَيْ بْنُ غَالِب بْنُ فِهْر بْنُ مَالِك بْنُ النَّضْر بْنُ كِنانَة بْنُ خُزَيْمَة بْنُ مُدْرِكَة بْنُ إِلْيَاس بْنُ مُضَر ابْنُ نِزَار بْنُ مَعْد بْنُ عَدْنَان.

وَهذَا نِهايَةُ[1] المُتَفَّق عَليْه مِنْ نَسبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَرْتَفِع بَعْدَ ذَلِك إِلَى إِسْماعِيل بْنِ إِبْراهِيم عَلَى نَبِيِّنا وَعَلَيْهِما الصَّلاةُ وَالسَّلاَم.

وَمُحمَّد بْنُ عَبْدِ الله هُوَ خَاتِم الأَنْبِيَاء وَالمُرْسَلِين، وَخَيْر الخَلائِق أَجْمَعِينَ، 236 / البَشِيرُ النَّذِيرُ المَبْعُوث إِلَى النَّاسِ كَافَّة، صَاحِب اللِّوَاء وَالمَقَام المَحْمُود، وَالشَّفاعَة الكُبْرَى، وَالمَنْزِلَة العُلْيَا، وَهُوَ نَبِيُّنا وَرَسولُنا مَعْشَر هَذِه الأُمَّة، الَّذِي أُمِرْنا بِاتِّبَاعِ أَقْوالِه وَأَفْعالِه وَتقَارِيرِه صَلَّى الله عَلَيْهِ وَعلَى آلِهِ وَصَحْبه وَسَلَّمَ تَسْلِيماً.

وَسُمِّي مُحمَّداً عَلَى لِسَان جَدِّه عَبْد المُطَّلِب، كَمَا قِيلَ تَفاؤُلا مِنْه وَرجَاءً أَنْ يُحْمَد فِي السَّماءِ وَالأَرْض[2]، فَحَقَّق اللهُ رَجاءَه، لأَنَّهُ مَحْمُود مِنَ الله تَعالَى، بِمَا حَلاَّهُ بِهِ مِنَ الصِّفَات الفَضِيلَة، وَالأَخْلاَق الجَمِيلَة، وَمَا أَقامَه فِيه مِنْ حُسْنِ

1 - وردت في نسخة ح : هو.

2 - قارن بسبل الهدى والرشاد/ 1 : 506.

الخِدْمَة، وَتَمام الطَّاعَة، وَمَوْفُورِ الأَدَبِ، وَمَحْمُودٌ مِنَ العِبادِ بِذَلِك كُلِّه، وَبِمَا نَالَهُم بِواسِطَتِه مِنَ البَركَات وَالخَيْرَات، وَالرَّحْمَة الشَّامِلَة، فَإِنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُعِلَ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ، فَهُوَ مَحْمُودٌ عَلَى الكَمالِ، مَشْكورٌ عَلَى النَّوَالِ، وَلَئِنْ لَمْ تُفْصِحْ بِذَلِك أَلْسِنَـة أَهْلِ الجُحودِ أَنَّ أَجْسادَهُم الَّتِي مُتِّعَت فِي الدُّنْيَا، وَلَمْ تُعَاجَل بِالنكَال عَلَى ذَلِك لَشُهُودٌ.

وَسُمِّيَ فِي كُتُبِ الأَوَّلِينَ أَحْمَد، إِمَّا بِمَعْنَى أَنَّهُ أَحْمَد الحَامِدِينَ لله تَعالَى، لأَنَّهُ أَعْرَف بِاللهِ، وَلِذَا قَالَ بَعْضُ الأَئِمَّة : «إِنَّ هَذَا الاسْم مُقَدِّمة لِذَلِك، فَإِنَّه لَمْ يَكُن مُحمَّداً حَتَّى كَانَ أَحْمداً، أَيْ لَمَّا حَمِدَ اللهَ تَعالَى عَظَّمَه اللهُ وَبَجَّلَه فَصارَ مُحمَّداً»، وَإِمَّا <بمعْنَى>[1] أَنَّهُ أَحْمَد المَحْمُودِينَ، عَلَى بِنَاء اسْمِ التَّفْضِيل مِنْ فِعْل كَأَشْغَل وَأَحْسَن فَيَكُون أَحْمَد بِمَعنَى مُحمَّد.

الكَلِمَة الثَّانِيَة لَفْظُ رَسُول :

وَهُوَ فِي اللُّغَة يُطْلَق لِمَعنَيَيْن : أَحدُهُما، بِمَعنَى مُرْسَل، تَقُول أَرْسَلْتُ فُلاناً إِلَى بَنِي فُلَان، فَهُوَ مُرْسَل وَرَسُول، الثَّانِي، أَنْ يَكُونَ بِمَعنَى رِسالَة، وَهُوَ اسْم بِمَعنَى الإِرْسَال، قَالَ الحَماسِي :

أَلاَ أَبْلِغْ بَنِـي خَلْفٍ رَسُـولاً ❖❖❖ وَخُـصَّ إِلَى سُرَاةِ بَنِـي البِطَـاحِ

وَالرَّسُولُ بِالمَعْنَى الأَوَّل فِي اللُّغَة، كُلُّ مَنْ وُجِّهَ بِشَيْءٍ، وَفِي عُرْفِ الشَّرْع هُوَ مَنْ أَوْحَى اللهُ إِلَيْه بِشَرْعٍ وَأَمَرَه بِتَبْلِيغِه، وَهُوَ بِهَذا المَعْنَى يَكُون مِنَ النَّاسِ وَمِنَ المَلائِكَة، قَالَ تَعالَى فِي الأَوَّلِ : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾[2] أَيْ مِنَ النَّاسِ، وَقَال فِي الثَّانِي : ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾[3] الآيَة.

---

1 – سقطت من نسخة ح.
2 – فاطر : 4.
3 – فاطر : 1.

وَهذَا بِخِلاَف النَّبِي، فَإِنَّه وَإِنْ صَحَّ مَعْنَاه فِي المَلَك، لَمْ يُسْمَع إِطْلاَقه إلاَّ فِي الإِنْس، فَالنَّبِي إِنْسَان أُوحِيَ إِلَيْه، فَإِنْ أُمِر مَعَ ذَلِك بِالتَّبْلِيغ فَهُوَ رَسُول، فَالرَّسُول مِنَ البَشَرِ هُوَ إِنْسَان أُوحِيَ إِلَيْه وَأُمِرَ بِالتَّبْلِيغ، وَلاَ يَكُون رَسُولاً حَتَّى يَكُون نَبِيًّا، وَمَعْنَى كَوْنه رَسُولاً أَنَّهُ مُوَجَّه إِلَى العِبَاد مِنَ الله تَعالَى، وَمَعْنَى كَوْنِه نَبِيًّا أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِ.

وَيُقَال بِالهَمْز وَبِغَيْر هَمْزٍ، فَالمَهْمُوز اشْتِقاقُه مِنَ النَّبَأ وَهُوَ الخَبَر، فَنَبِيءٌ بِمَعنَى مُنَبَّأ، أَيْ مُخْبِر عَنِ الله تَعالَى بِالغَيْب، وَيَجُوز قَلْب الهَمْزَة يَاء بِالإِدْغَام وَالتَّشْدِيد، وَغَيْر المَهْمُوز اشْتِقاقُه مِنَ النَّبْوِ وَهُوَ الارْتِفَاع، يُقَال نَبَا الشَّيْءُ يَنْبُو نَبْوًا وَنَبْوَة ارْتَفَع وَتَجافَى، وَالنَّبْوَة وَالنَّباوَة المُرْتَفع مِنَ الأَرْض، وَالنَّبِي مَرْفُوع المَنْزِلَة عَنِ الخَلْقِ.

وَأَمَّا الرَّسُول، فَقالُوا هُوَ مَأْخُوذ مِنَ التَّتابُع، يُقَال لِلَّبَنِ إِذَ تَتابَعَ دَرُّهُ رَسلَ، وَلِمَن رَأَيْتَه[1] يُرِيدُ أَنْ يَنْتَقِل عَنْ حَالَته عَلَى رِسْلِكَ، أَيْ تَابِع مَا كُنْتَ عَلَيْه، وَجَاء النَّاسُ أَرْسالاً أَيْ مُتَتَابِعينَ قِطَعاً قِطَعاً، إِمَّا لِكَوْن الخَلْق أُمِرُوا بِاتِّبَاعِه، وَإِمَّا لِكَوْن فَضْل الله تَعالَى تَتابَع عَلَيْه، قَالُوا وَعلَى مُقْتضَى هَذَا المَعنَى يَصِحُّ أَنْ يُطْلَق عَلَى النَّبِي غَيْر المُرْسَل أَنَّهُ رَسُول، لِتَتابُع الفَضْل عَلَيْه مِنَ اللهِ تَعالَى.

237 / وَلَكِن <اتَّفَقَتِ>[2] الأُمَّة عَلَى أَنَّ الرَّسُول مَقْصُور عَلَى مَنْ أُمِرَ بِالإِبْلاَغ، فَكُل رَسُول نَبي وَلَيْس كُلُّ نَبِي رَسولاً، وَهذَا الَّذِي ذَكَرْنَا مِنَ الاتِّفَاق، وَقَعَ فِي كَلاَم القَاضِي أَبِي بَكْر بْن العَرَبِي[3] فِي كِتَابه المُتَوَسِّط[4]، وَالاخْتِلاَف فِي كَوْن النَّبِي أَخَصُّ مِنَ الرَّسُول أَوْ مُرادِفاً أَوْ مُبايِناً مَشْهُور فَلاَ نُطِيل بِهِ، وَسَنَذْكُر مَعنَى النُّبُوة وَالرِّسالَة بَعْدُ إِنْ شَاءَ الله تَعالَى.

1 - وردت في نسخة ك : رأيت.
2 - سقطت من نسخة ك.
3 - سبق التعريف به في ص : 96.
4 - كتاب المتوسط في أصول الدين مخطوط الخزانة العامة رقم : 2963د ص : 88 وما بعدها.

الكَلِمَة الثَّالِثَة اسْمُ الجَلالَة وَهُوَ الله. وَقَدْ تَقدَّم الكَلاَم عَلَيْه[1].

الجُزْء الرَّابِع : الإِضافَة وَهِيَ الاخْتِصاصُ.

* المَسْأَلَة الثَّانِية : فِي إِعْرَاب هَذِه الكَلِمَة المُطهَّرة وَضَبْطِها وَمَعْناها

أَمَّا إِعْرَابُها فَظاهِر، إِذْ هِيَ مُبْتَدأ وَخَبَر، وَمُضَاف وَمُضَاف إِلَيْه مَا قَبْلَه.

وَأَمَّا ضَبْطُها، فَالوَاجِب فِيهَا إِدْغَام الدَّال فِي الرَّاء، وَتَشْدِيد الرَّاء، وَكَثِيراً مَا يُخَفِّفُه العَامَّة تَصْحِيفاً، وَمِنَ التَّصْحِيف فِيهَا إِشْبَاع حَركَة المِيم الأُولَى وَ[2]الثَّانِيَة مِنْ مُحمَّد، وَإِسْكَان الدَّال وَإِشْبَاع ضَمَّة اللاَّم، كَمَا يَفْعَلُه أَهْل اللُّحُون، وَجَعْل السِّين مِنْ رَسُول صَاداً، وَتَفْخِيم لاَمِه وَنَحْو ذَلِكَ.

وَأَمَّا مَعْناهَا، فَالحُكْم بِالرِّسالَة عَلَى مُحمَّد ﷺ، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : الحُكْمُ بِكَوْنِه رَسولاً، أَوْ ثُبُوت ذَلِك عَلَى مَا هُوَ الخِلاَف فِي مَدْلُول الخَبَر، هَلْ هُوَ الحُكْم بِالنِّسْبَة أَمْ ثُبوتُها، وَذَلِك كُلُّه ظَاهِرٌ.

المَسْأَلَة الثَّالِثة : فِي مَعنَى النُّبُوة وَالرِّسالَة

اعْلَم أَنَّ خَاصِيَّة النُّبوءَة الَّتِي يُمْكِن أَنْ تُرْسَم بِهَا، قَدْ عُلِمَت مِمَّا مَرَّ، لأَنَّها إِنْ كَانَت بِالهَمْزِ فَهِيَ مِنَ الخَبَر، إِمَّا لِكَوْنِه مُخْبراً مِنَ[3] الله تَعالَى بِالغَيْب وَالوَحْي، وَإِمَّا لِكَوْنِه يُخْبِر العِبَادَ عَنِ اللهِ تَعالَى، فَالنَّبِي بِمَعنَى مَفْعَل بِالفَتْح، أَوْ بِمَعنَى مَفْعِل بِالكَسْر، وَإِنْ كَانَت بِغَيْر هَمْز، فَهِيَ إِمَّا مِنَ النُّبُوة وَهِيَ الارْتِفَاع، لارْتِفَاع رُتْبَتِه عِنْدَ الله تَعالَى، وَإِمَّا مِنَ النَّبِي الَّذِي هُوَ الطَّرِيق، لأَنَّ النَّبِي طَرِيق إِلَى الله تَعالَى.

1 - وذلك في الفصل الخامس ص : 203 وما بعدها.
2 - وردت في نسختي ك و ح : أو.
3 - وردت في نسخة ح : عن.

وَأَمَّا حَقِيقَة النُّبوءَة : فَهِيَ عِنْدَنا اخْتِصَاص بِسَمَاع وَحْي مِنَ الله تَعالَى، بِوَاسِطَة مَلَك أَوْ دُونِه.

وَأَمَّا حَقِيقَة الرِّسالَة : فَهِيَ ذَلِك بِعَيْنِه مَع زِيَادَة الأَمْر بِالتَّبْلِيغ، وَقَدْ عُلِم مِنْ هَذَا التَّعْرِيف أَنَّ ذَلِك وَهْبٌ مِنَ الله تَعالَى وَاخْتِصَاص مِنْه، كَمَا قَالَ تَعالَى : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [1] ، وَلَيسَت النُّبوءَة وَلاَ الرِّسالَة وَصْفاً ذَاتِياً لِلنَّبِي أَوِ الرَّسُول، وَلاَ مُكْتَسَبة لَهُ بِتَكَلُّف وَلاَ تَعمُّد، وَلاَ مَوْقُوفَة عَلَى رِياضَة وَلاَ اسْتِعدَاد ذَاتِي، بَلْ ذَلِك حُكْم مِنَ الله تَعالَى.

وَكَما أَنَّ الشَّيْءَ الحَلاَل أَوِ الحَرامَ عِنْدَنا لَيْسَت حِلِّيَته مِنْ ذَاتِه وَلاَ حِرْمَتُه، وَإِنَّمَا ذَلِك عَارِضٌ عَلَيْه، بِتَعلُّق خِطَاب الله تَعالَى وَحُكْمِه، كَذلِك النُّبوءَة وَالرِّسالَة تُعْرَض عَلَى المُتَّصِف بِهَا بِخطَاب الله تَعالَى، فَإِذَا اخْتَصَّ أَحداً بِوَحْيِه كَانَ نَبِيًّا، وَإِذَا قَالَ لَهُ أَرْسَلْتُك إِلَى قَوْم كَذَا، أَوْ إِلَى النَّاس جَمِيعاً، أَوْ أَبْلِغْهُم عَنِّي، أَوْ نَحْو هَذَا مِنَ الكَلاَم، كَانَ رَسولاً.

وَالمُخالِف فِي هَذِه المَسْأَلَة طَائِفتَان :

الأُولَى، الكَرَّامِيَة[2] زَعَمُوا أَنَّها ذَاتِيَة، وَالرَّد عَلَيْهِم : أَنَّها لَوْ كَانَت ذَاتِيَة أَيْ وَصْفاً نَفْسِياً، أَوْ لاَزِماً مِنْ لَوازِم المَاهِيَة، لَوجَب اسْتِوَاء النَّوْع الإِنْسانِي فِيهَا لِوجُوب اسْتِوَاء الأَمْثَال فِي الصِّفَات النَّفْسِية وَلوَازِمها، فَيَجب أَنْ يَكُون كُلُّ إِنْسَان نَبِيًّا، وَلاَ خَفَاء بِبُطْلان هَذَا، وَلَوْ زَعَمُوا أَنَّ النَّبِي خَارِج عَنِ النَّوْع الإِنْسَانِي بِالحَقِيقَة، كَانَ ذَلِك دَعْوَى لاَ يَجِدُون عَلَيْها دَلِيلاً أَبداً، بَلْ سَفْسَطَة لاَ يُلْتَفَتُ إِلَيْها.

---

1 – البقرة : 105 – آل عمران : 74.

2 – سبق التعريف بها في الجزء الأول ص : 552.

الثَّانِية، الفَلاسِفَة زَعمُوا أَنَّها مُكْتسَبة، وَأَنَّ الإنْسان إِذَا اجْتَهَد فِي الرِّياضَة وَالتَّخلِية وَالتَّحْلِية، أَمْكَن أَنْ يَبْلُغ إِلَى حَدٍّ مِنَ الصَّفاءِ وَالإِدْرَاك، وَانْكِشَاف الغَيْب وَكَمال النَّفْس، بِحَيْث يُمْكِنُه أَنْ يَسُوس نَفْسَه/ 238 وَيَسُوس غَيْره.

وَقالُوا إِنَّ الَّذِي يَكُون نَبِيًّا هُوَ مَنِ اجْتَمَعَت فِيهِ ثَلاَث خَوَاص :

الأُولَى، الإِطِّلاَع عَلَى المُغَيَّبَات، قَالُوا وَلاَ يُسْتَنْكَر ذَلِك، فَإِنَّ النَّفْس مُجَرَّدة فِي ذَاتِها عَنِ المَادَّة، فَلَها مُناسَبة إِلَى النُّفُوس السَّماوِيَة المُجرَّدة المُنْتَقشَةِ بِصُوَر مَا يَحْدُث فِي عَالَم الكَوْن وَالفَسَاد، فَقَدْ تَتَّصِل النَّفْس النَّاطِقَة بِتِلْك المُجرَّدات اتِّصالاً مَعْنوِياً، بِمَا بَيْنَها وَبَيْنَها مِنَ التَّناسُب، فَتَرْتَسِم فِيهَا صُوَر الكَائِنَات بِحَسَب صَفائِهَا.

وَيُؤَيِّد ذَلِك، مَا يُشاهَد فِي النُّفُوس مِنَ التَّفاوُت البَيِّنِ جِدًّا، فَمَا أَبْعَد مَا بَيْنَ النُّفُوس القُدُسِيَة المُدْرِكَة لِلنَّظَرِيات الصَّعْبَة فِي أَسْرَع لَحْظٍ، وَبَيْن نَفْس البَلِيد الَّذِي لاَ يَكَاد يَفْقَه قَوْلاً.

قَالُوا وَكَيْف يُسْتَنْكَر ذَلِك فِي حَقِّ النَّبِيِّ، وَقَدْ شُوهِد الاطِّلاَع عَلَى الغَيْب مِمَّنْ قَلَّت شَواغِلُه، إِمَّا بِمُجاهَدة وَرِياضَة، وَإِمَّا بِمَرَض عَائِق لِلنَّفْس عَنِ الاشْتِغَال بِالبَدَن، وَإِمَّا بِنَوْم صَارِف لَهَا عَنْ ذَلِك، فَقَدْ يَظْهَر لِهَؤُلاَء يَقظَة وَمَناماً مَا لاَ يَظْهَر لِغَيْرِهِم وَيُخْبِرُونَ بِهِ.

الثَّانِية، أَنْ تَظْهَر مِنْه الأَفْعَال الخَارِقَة لِلعَادَة، قَالُوا وَإِنَّما يَكُون ذَلِك لَهُ لِكَوْن العُنْصُرِيَات مُطِيعَة لَهُ، مُنْقادَة انْقِيَاد بَدَنِه لِنَفْسِه.

قَالُوا وَلاَ يُسْتَنكَرُ ذَلِك، فَإِنَّ النُّفُوس قَدْ عُلِم تَأْثِيرهَا فِي المَوَادِّ البَدَنِية بِإِرَادَتِها وَتَصوُّرَاتِها، كَمَا يُشَاهد مِنَ الاحْمِرَار وَالاصْفِرَار عِنْدَ الخَجَل وَالوَجَل، فَلاَ يَبْعُد أَنْ تَقْوَى نَفْس النَّبِي حَتَّى يَنْقَاد لَهَا مَا خَرَج عَنْ ذَاتِه[1]، فَيَحْدُث فِيهِ بِسَبب إِرَادَتِه أُمُور، كَالزَّلازِل وَالحَرْق وَالغَرَق، وَهَلاكِ الظَّالِم وَغَيْر ذَلِك، وَيُؤَيِّد ذَلِك مَا يُشَاهد

1 - وردت في نسخة ك : من.

مِنْ أَهْلِ الرِّيَاضَاتِ[1] وَالإِخْلاَص مِنَ الصُّلَحاء فِي كُلِّ قَرْن مِنَ الخَوارِق الغَرِيبَة.

الثَّالِثَة، أَنْ يَرَى المَلائِكَة فِي صُورَة مَحسوسَة فَيُخاطِبُونَه بِالكَلاَم وَحْياً مِنَ الله تَعالَى، قَالُوا وَلاَ يُسْتَبْعَد أَنْ يَحصُل لَهُ فِي يَقَظَته مَا يَحْصُل لِلنَّائِم فِي نَوْمِه، فَإِنَّه قَدْ يُشَاهد أَشْخاصاً يُكَلِّمونَه بِكَلام مَنْظُوم، دَالٍّ عَلَى المَعانِي المُطابِقة، وَذَلِك لِتَجَرُّده عَنِ الشَّواغِل، وَسُهولَة انْجِذَابِه إِلَى عَالَم القُدُس، فَرُبَّما صَارَ ذَلِك الانْجِذَاب مَلَكَةً لِلنَّبِي، فَيَحْصُل لَهُ مُشاهَدة المُجَرَّدات بِأَدْنَى تَوَجُّه.

قَالُوا وَإِذَا اجْتَمَعَت هَذِه الخِصَال الثَّلاَث فِي الشَّخْص، انْقَادَت لَهُ النُّفُوس وَأَذْعَنَت إِلَيْه الهِمَم، وَبِذَلِك يَكُون سَمَاع مَا أَتَى بِهِ وَتُقرِّرُ الشَّرِيعَة الَّتِي هِيَ مَصْلَحَة الخَلْق.

فَإِنَّ الإِنْسَان غَيْر مُسْتَبِد فِي أُمورِه، بَلْ يَحْتَاج إِلَى غَيْرِه لِتَوقُّف البَقاءِ النَّوْعِي عَلَى التَّعاوُن وَالتَّعامُل، وَالتَّشارُك وَالتَّواصُل، وَالتَّظاهُر وَغَيْر ذَلِك، وَفِي ذَلِك مَا يُؤَدِّي إِلَى التَّخالُف وَالتَّخاصُم، وَالتَّعادِي وَالتَّظالُم، وَالتَّباغُض وَالتَّدابُر، وَالتَّشاجُر وَالتَّناحُر[2]، فَاقْتَضَت الحِكْمَة الرَّبانِية وَالعِنايَة الإِلَهِية أَنْ يُقَام لَهُم آمِرٌ وَنَاهٍ يَسُوسُهم، وَيَنْتَصِف مِنْ بَعْضِهِم لِبَعْض، وَيُصْلح ذَاتَ بَيْنِهِم، وَوَجَب بِمُقتَضَى الطَّبِيعَة وُجُود المَوْصُوف بِتِلْك الخَوَاصِّ، لِمَا عُلِمَ مِنْ شُمُول العِنايَة بِإِعْطَاء كُلِّ حَيَوان مَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الآلاَت، وَمَا يَكُون [بِهِ][3] بَقَاؤُه.

وَإِنَّ هَذَا النَّوْع الإِنْسَاني أَشْرَف الأَنْوَاع الحَيوَانِية، فَوُجود المَوْصُوف بِذَلِك <فِيهِ>[4] مِنْ أَعْظَم مَصالِحه. وَوَجْه الرَّد عَلَيْهم، أَنَّ كُلَّ مَا ذَكَرُوا مِنَ الخِصَال وَمُوجِباتِها خَيالاَت وَأَوْهَام لاَ حَاصِل لَهَا وَلاَ دَلِيلَ عَلَيْهَا.

---

1 – وردت في نسخة ك : الرياضة.
2 – وردت في نسخة ح : التنافر.
3 – سقطت من نسختي ق و ك.
4 – سقطت من نسخة ك.

أَمَّا الأُولَى : فَنقُول لَهُم إِنَّ الإِطِّلاَع عَلَى جَمِيع المُغَيَّبَات، لاَ يَكُون لِلنَّبِي بِاتِّفَاق مِنَّا وَمِنْكُم وَلاَ تَدَّعونَه لَهُ، إِذْ ذَاكَ مِنْ صِفَات وَاجب الوُجُود تَعالَى، وَقَدْ / 239 قَالَ سَيِّدُ الأَنْبِيَاء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَمْر الله تَعالَى : ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ ﴾ [1] ، فَلَم يَبْق إِلاَّ الاطِّلاَع عَلَى بَعْضِ المُغَيَّبَات، وَهذَا يُشارِك فِيهِ النَّبِي غَيْرَه، كَمَا جَوَّزْتُم وُقُوعَ ذَلِك لِلمَرِيض وَالنَّائِم، فَبِأَيِّ شَيْءٍ يَتَمَيَّز النَّبِي عَنْ غَيْرِه مِنْ أَفْرَاد النَّوْع؟ وَبِأَيِّ شَيْءٍ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُطاعَ ؟.

ثُمَّ مَا ذَكَرْتُم مِن انْتِقَاش العُقولِ المُجرَّدة بِصُوَر الكَائِنَات، وَاتِّصَال النُّفُوس النَّاطِقَة بِهَا إِلَى آخِرِ مَا قَرَّرْتُم كُلُّه أَمْر مَوْهُوم لاَ شَاهِد لَهُ، وَلاَ دَلِيل عَلَيْه، وَغَايَته أَنْ يَكُون أَمْراً خِطابِياً، لاَ يُفِيد ظَنًّا إِقْناعِياً، فَضْلاً عَنِ العِلْم المَطْلُوب فِي هَذَا المَقَام، وَأَيْضاً أَفْرَاد النَّوْع مُتساوِيَة فِي المَاهِيَة، فَمَا ذَكَرْتُم مِنْ تَفاوُت النُّفُوسِ المُؤدِّي إِلَى الاخْتِصاصِ بَاطِلٌ، وَإِسْنَاد الاخْتِلاَف إِلَى أَحْوَال البَدَنِ مَبْنِي عَلَى القَوْل بِالمُوجِب الذَّاتِي وَهُوَ بَاطِلٌ.

وَأَمَّا الثَّانِيَة، فَإِنَّا نَقُول مَا ذَكَرْتُم مِنْ إِسْنَاد التَّأْثِير فِي الأَبْدَان إِلَى النُّفُوس بَاطِل، فَإِنَّ[2] لاَ مُوجِد وَلاَ مُؤَثِّر إِلاَّ الله خَالِق العَالَم تَبارَك وَتعالَى، وَلاَ تَأْثِير لِشَيْء سِوَاه، وَمُشاهَدة التَّغَيُّرات عِنْد إِرادَة النُّفُوس وَتَصوُّراتِها لاَ تَقْتَضِي أَنَّها عَنْهَا، كَمَا تَقَرَّرَ فِي جَمِيع الأُمُور العَادِيَات، وَغَايَته الاسْتِدلاَل بِالدَّوران، وَهُوَ لاَ يُفِيد المَطْلُوب، ثُمَّ وُجُود الخَوارِق غَيْر مُخْتَص بِالأَنْبِيَاء كَمَا جَوَّزْتُم مِنْ وُقُوع ذَلِك لأَهْل الرِّيَاضَات، فَبِأَيِّ شَيْء يَمْتَاز النَّبِي عَنْ غَيْره ؟

وَأَمَّا الثَّالِثَة، فَنقُول مَا ذَكَرْتُم مِنْ رُؤْيَة المَلاَئِكَة وَسمَاع كَلاَمِهِم، إِنَّما هُوَ إِيهَام مِنْكُم وَتَلْبِيس، بِمَا لاَ حَقِيقَة لَهُ عِنْدَكُم، فَإِنَّكُم لاَ تُثْبِتُون مَلاَئِكَة يُرَوْنَ وَيُسْمَع

1 – الأعراف : 188.
2 – وردت في نسختي ق و ك : بأن.

مِنهُم كَلاَم، إذِ المَلائِكَة عِنْدَكُم إنَّما هِيَ نُفُوس أَوْ عُقُول مُجرَّدَة، وَلَيْس لَهَا كَلاَم وَلاَ يُتَصَوَّر مِنْها، لأَنَّ الحُرُوف وَالأَصْوَات عِنْدَكُم مِنَ الأُمُور العَارِضَة لِلهَوَاء المُتمَوِّج وَلاَ يُتَصَوَّر ذَلِكَ لِلمُجرَّدِ.

وَغايَة ذَلِك، أَنْ يَكُون أَمْراً وَهْمِياً خَيالِياً لاَ حَقِيقَة لَهُ، شِبْه مَا يَقَع لِلمَرِيض، وَكَيْف يَكُون هَذَا نُبوَّة، فَإِنَّ أَحَدَنا لَوْ قَامَ يَأْمُر النَّاسَ وَيَنْهاهُم بِمَا يُصْلِحُهم عَنْ مُقْتَضى عَقْلِه، لَمْ يَكُن نَبِيًّا بِاتِّفَاق، فَكَيْف يَكُون نَبِيًّا مَنْ أَرادَ أَنْ يَأْمُر وَيَنْهَى عَنْ خَيَال، لاَ حَاصِل لَهُ وَلاَ وُجُود.

وَهَذا الَّذِي قَرَّرْنَا فِي الرَّد عَلَيْهِم، هُوَ مَا ذَكَرَه المُتكَلِّمُون وَهُوَ ظَاهِر، غَيْر أَنَّك تَعْلَم مِنْه أَنَّ الْحَقَّ : أَنْ لاَ نِزَاع فِي هَذِه المَسْأَلَة بِالمَعْنَى بَيْنَنا وَبَيْن الفَلاسِفَة، فَإِنَّ الخِلاَف إِنَّما يَصِحُّ إِذَا اتَّحَد المَوْضُوع، وَمَعْلُوم هَاهُنا أَنَّه غَيْر مُتَّحِد، إِذِ النُّبوءَة الَّتِي يُثْبِتونَها وَيَجْعَلونَها مُكْتَسَبة وَيَحْتجُّون لَهَا، غَيْر النُّبوءَة الَّتِي نُثْبِتُها نَحْنُ.

فَإِنَّ النُّبوءَة عِنْدنَا مَرْجِعُها إِلَى كَلاَم الله تَعالَى وَتَعلُّق خِطابِه، وَاخْتِصَاصِه مَنْ شَاءَ بِمُقْتَضى اخْتِيارِه عَلَى حَسَب عِلْمِه الأَزلِي، إِمَّا بِواسِطَة المَلائِكَة حِسًّا، أَوْ مُباشَرة بِسمَاع كَلاَم الله تَعالَى، وَهُم لاَ يُثْبِتُون هَذَا وَلاَ يَعْرِفونَه، وَإِنَّما يُثْبِتُون أُموراً نَاشِئَة عَنِ القِوَى الإِنْسانِيَة وَيُسَمُّونَها نُبوَّة، وَلاَ مَعْنَى لِمُنازَعَتِهم فِي هَذَا، فَإِنَّ التَّجَلِيَّات وَالانْفِعالاَت مِمَّا يَقَع لِلنُّفوس بِأَسْبَاب كَالرِّياضَة وَالنَّوْم، وَنَحْو ذَلِك.

نَعَم، كُلُّ ذَلِك عِنْدَنا بِخَلْق الفَاعِل المُخْتَار مَا شَاءَ لِمَن شَاءَ، وَلَيْس شَيْء مِنْ[1] ذَلِك عَنْ عِلَّة وَلاَ طَبْع، وَالنُّبوءَة شَيْء فَوْق ذَلِك، وَهُوَ الَّذِي لاَ يَكُون لِلنُّفُوس التَّوصُّل[2] إِلَيْه بِاكْتِسَاب وَلاَ رِياضَة وَلاَ اسْتِعدَاد.

1 - وردت في نسخة ق : عن.
2 - وردت في نسخة ح : التواصل.

فَإِنْ قَالُوا لاَ مَعْنَى لِلنُّبوءَة إِلاَّ هَذا الَّذِي يُكْتَسب، وَلاَ يُتصَوَّر وُجُود مَعْنى آخَرَ، رَجَع الخِلاَف مَعهُم إِلَى تَصوُّرِها، لاَ إِلَى كَوْنِها مُكْتسَبة.

وَالحَق أَنَّ الفَلاسِفَة نَافُون لِلنُّبوءَة رَأْساً، وَسَيأْتِي عَدُّهم فِي جُمْلَة المُنْكِرينَ لَهَا بِحَسَب مَا اقْتَضَتْه قَواعِدُهم، وَإِنْ لَمْ يُصَرِّحُوا بِذَلِك.

240 / أَمَّا مَا ذَكَرُوا مِنَ الحِكْمَة المُقْتَضِية لِنَصْب الشَّرِيعَة فَحَسَن، غَيْر أَنَّ ذَلِك لَيْسَ بِطَرِيق الوُجُوب عَلَى الله تَعالَى، وَلاَ بِطرِيق التَّعْلِيل وَالإِيجَاب الذَّاتِي كَمَا يَتَوَهَّمُون، بَلْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ تَعالَى كَمَا سَنُبَيِّنُه.

* المَسْأَلَة الرَّابِعَة : فِي حُكْم البِعْثَة

اعْلَم أَنَّ البِعْثَة جَائِزَة فِي نَفْسِها، وَواقِعَة مِنَ الله تَعالَى، وَوُقوعُهَا عَلَى سَبِيلِ الاخْتِيَار، وَهِيَ رَحْمَة لِلعبَاد وَفَضْل، فَهذِه أَرْبَعة أَحْكَام.

أَمَّا أَنَّها جَائِزَة فِي نَفْسِها غَيْر وَاجِبَة وَلاَ مُسْتَحِيلَة عَقْلاً، فَلأَنَّها فِعْل مِنَ الأَفْعَال، وَقَدْ مَرَّ فِي العَقائِد أَنَّ جَمِيع الأَفْعَال الوَاقِعَة، بَلْ وَجَمِيع الكَائِنَات جَائِزَة لاَ وَاجِبَة وَلاَ مُسْتَحِيلَة، وَلأَنَّهُ لاَ يَلْزَم عَلَى تَقْدِير وُجودِها وَلاَ تَقْدِير عَدَمِها مُحَال فِي نَفْسِها، وَهذَا مَعْنَى الجَائِز عَقْلاً، وَقَدْ مَرَّ أَنَّهَا اخْتِصَاص الله عَبْدا مِنْ عَبِيدِه بِوَحْيٍ وَأَمرُه بِتَبْلِيغِه، وَلاَشَكَّ أَنَّ هَذَا عَطَاءٌ مِنَ الله تَعالَى وَتَكْلِيف مِنْهُ، وَهُوَ تَعالَى جَوَاد مِنْ شَأْنِه أَنْ يُعْطِي، وَمَلِكٌ مِنْ شَأْنِه أَنْ يَفْعَل مَا شَاءَ، وَيَأْمُر بِمَا شَاءَ، وَهَذَا أَمْرٌ وَاضِحٌ.

وَأَمَّا أَنَّهَا وَاقِعَة فَبِدلاَلَة المُعْجِزَات، عَلَى مَا سَيأْتِي بَيانُه إِنْ شَاءَ اللهُ تَعالَى.

وَأَمَّا أَنَّها بِاخْتِيَار مِنَ الله تَعالَى لاَ بِوُجُوب عَلَيْه، فَلأَنَّه تَعالَى لاَ يَجِبُ عَلَيْه شَيْءٌ، وَلاَ مُراعَاة صَلاَح وَلاَ أَصْلَح، إِذْ هُوَ مُخْتَار فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلَوْ وَجبَت عَلَيْه مُراعَاة المَصالِح لِعبَادِه، لَمْ تَقَع عَلَيْهِم مِحْنَة دُنْيوِيَة وَلاَ أُخْرَوِيَة، وَالتَّالِي بَاطِلٌ.

وَأَمَّا أَنَّهَا رَحْمَةٌ لِلعَالَمِين وَفَضْل مُبِين، فَلِمَا اشْتَملَت عَلَيْه مِنَ الحِكَم وَالمَصالِح الكَثِيرَة الَّتِي رَعاهَا الله تَبارَك وَتعالَى، تَفَضُّلاً مِنْهُ وَامْتِنَاناً لِعبَادِه، مِنْ غَيْرِ وُجُوب عَلَيْه وَلاَ اسْتِحْقَاق.

وَأَنْت إِذَا عَلِمْت مِمَّا مَرَّ أَنَّ اللهَ تَبارَك وَتعالَى فَاعِلٌ مُخْتارٌ، يَفْعَل مَا يَشَاءُ فِعْلَه، وَيَتْرُك مَا يَشاءَ تَرْكَه، عَلِمْت أَنّ اللهَ تَعالَى لَوْ شَاء أَنْ لاَ يُنْشِأَ خَلْقاً وَلاَ يُبْرِز مِنَ العَدَم كَائِنا أَصلاً، كَانَ لَهُ ذَلِك، وَإِذْ أَوْجَد هَذَا الخَلْق اخْتِيارًا مِنْه، فَلَوْ شَاءَ أَلاَّ يَجْعَل فِيهِم مَنْ لَهُ اسْتِعدَاد لِمَعْرِفَتِه تَعالَى، كَانَ لَهُ ذَلِك، وَإِذْ جَعَل فِيهِم مَنِ اسْتَعَدَّ لِمَعْرِفَته بِخَلْق الحَيَاة وَالإِحْسَاس وَالعَقْل، فَلَوْ شَاءَ تَعالَى أَنْ لاَ يَهْدِيهَم وَلاَ يُعَرِّفَهم بِوُجودِه، كَانَ لَهُ ذَلِك، وَإِذْ عَرَّفَهُم وُجُودَه فَلَوْ شَاءَ أَنْ يَتْرُكَهُم هَمْلاً، وَلاَ يُنَصِّب لَهُم شِرْعَة[1] وَلاَ عِبادَة وَلاَ سُنَّة يَتَّبِعُونَها، وَلاَ حُدُوداً يَقِفُون عِنْدَها، كَانَ لَهُ ذَلِك، وَلَوْ شَاء مَعَ ذَلِك أَنْ يُنَعِّمَهُم عَلَى مَا شَاءَ وَيُعَذِّبَهُم عَلَى مَا شَاءَ، كَانَ لَهُ ذَلِك، إِذْ ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾[2] .

وَإِذَا اخْتَار أَنْ يَنْصُب لَهُم الشَّرائِع، فَلَوْ شَاءَ أَنْ يُعَلِّمَهُم ذَلِك بِلاَ وَسائِط مِنْ عَبِيدِه، إِمَّا بِأَنْ يُكَلِّمَهم جَهْرَة، أَوْ بِأَنْ يَخْلُق لَهُم فِي أَنْفُسِهم عِلْما ضَرُورِياً بِمَا أَرَاد، كَانَ لَهُ ذَلِك، وَلَكِن اخْتَار تَبارَك وَتَعالَى فِي أَزَلِه، أَنْ يَبْعَث إِلَيْهِم الوَسائِط مِنْ عِبادِه وَهُمُ الرُّسُل، وَكَان هَذَا الوَجْه أَرْفَق بِالعِبَـاد، وَأَدْعَـى[3] إِلَـى الاتِّفَاق[4] وَانْتِظَام الشَّمْل، فَإِنَّ خِطَاب الله تَعالَى لاَ تَسْتَطِيعَه قِوَى جَمِيع البَشَر، عَلَى مَا سَبَق مِنْ حِكْمَة الله تَعالَى فِي ضُعْفِها وَتَلَوُّثِها، وَأَنَّ الأَمْر لَوْ كَانَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ لَمْ يَقَع الاتِّفَاق وَالاجْتِمَاع، وَالانْتِظَام الَّذِي فِيهِ صَلاَح الدِّين وَالدُّنْيا، فَكَان مُقْتَضى فَضْل الله تَعالَى خِطَاب الوَاحِد وَبَعْثِه، لِيَكُون الرُّجُوع إِلَى قَوْلِه، وَاجْتِمَاع الكَافّة عَلَيْه.

1 – وردت في نسخة ح : شريعة.
2 – تضمين للآية : 23 من سورة الأنبياء.
3 – وردت في نسخة ح : أذعن.
4 – وردت في نسخة ق : اتفاق.

وَأَمَّا فَوائِدُ البِعْثَة فِي الجُمْلَة وَمَصالِحُها فَكثِيرَة[1] :

مِنْها، تَأْيِيد العَقْل فِيمَا يَسْتَقِل بِإدْراكِه، مِثْل وُجود البَارِي تَعالَى وَقُدْرَته 241 وَعِلْمه ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[2].

وَمِنْها، إرْشَادُه إلَى مَا لاَ يَسْتَقِل بِهِ مِنْ أَوْصَاف الله تَعالَى، كَكَوْنِه سَمِيعاً بَصِيرًا مُتَكلِّماً، أَوْ مِنْ أَحْكَامِه كَكَوْنِه يُرَى فِي الآخِرَة، مِنْ غَيْر جِهَة وَلاَ مُقابَلة، وَكَالمَعَاد الجِسْمانِي، وَخَلْق الجَنَّة وَالنَّار وَنَحْو ذَلِك.

وَمِنْها، الإِرْشَاد إِلَى مَا فِيهِ رِضَى الله تَعالَى مِنَ الطَّاعَات، وَالتَّحْذِير عَمَّا فِيهِ سَخَطُه مِنَ المَعاصِي، وَهذَا أَيْضا مِمَّا لاَ اسْتِقلاَل لِلْعَقلِ بِهِ.

وَمِنْها، إِزالَة الخَوْف الحَاصِل عِنْد الإِتْيَان بِالطَّاعَات مِنْ عِقَاب الله تَعالَى، لِكَوْنه تَصرُّفاً فِي البَدَن المَمْلُوك لله تَعالَى بِغَيْر إِذْنِه لَوْلاَ الشَّرْع، وَعِنْدَ تَرْكِها أَيْضاً لِكَونه تَرْكاً.

وَمِنْها، الإِخْبَار بِتفَاصِيل الثَّوَاب لِلمُطِيع، وَالعِقَاب لِلعَاصِي، تَرْغِيباً فِي الحَسنَات، وَتَحْذِيراً عَنِ السَّيِئَات.

وَمِنْها، تَكْمِيل النُّفُوس البَشرِيَة، وَتَعْلِيم الأَخْلاَق الفَاضِلة، وَالتَّهْذِيب عَنِ الأَخْلاَق الرَّدِيئَة.

وَمِنْها، بَيَان مَنافِع الأَغْذِيَة وَالأَدْوِية، الَّتِي لاَ تَفِي بِهَا التَّجْربَة، إِلاَّ بَعْدَ أَدْوَار، مَعَ مَا فِيهَا مِنَ الأَخْطَار، إِلَى غَيْر هَذَا مِنْ مَصالِح الدِّين وَالدُّنْيا، وَالشَّفَاعَة فِي العُقْبَى[3].

وَهذَا كُلُّه أَمْرٌ تَفَضَّل بِهِ المَوْلَى عَلَى عَبِيدِه، مِنْ غَيْر وُجُوب عَلَيْه، وَلاَ اسْتِحقَاق مِنْهُم، وَلله تَعالَى أَنْ يَبْعَث الرُّسُل مِنْ غَيْر مُراعَاة ذَلِك، كَمَا هُوَ الشَّأْن[4] فِي سَائِر أَفْعالِه عِنْدَنَا.

1 – وردت في نسخة ك : كثيرة.
2 – تضمين للآية : 165 من سورة النساء.
3 – قارن بشرح المقاصد/ 5 : 6.
4 – وردت في نسختي ق و ك : شأن.

وَلِهذَا قَال الإِمَام أَبُو بَكْر بْنُ العَرَبِي [1] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «لاَ فَائِدَة لِلرِّسالَة عِنْد أَهْل الحَقِّ إلاَّ وُقُوع المُرَاد وَنُفُوذ المَقْدُور عَلَى وِفْق العِلْم، كَسائِر الأَفْعَال، وَلِذَلك قُلْنَا إِنَّه لاَ يَجب عَلَى الله إِرْسَال الرُّسُل [2] إِلَى الخَلْق، وَيَجُوز إِذَا [3] أَرْسَله أَنْ يُرْسِلَه إِلَى قَوْم يَعْلَم أَنَّهم لاَ يُؤْمِنُون أَبداً» انتهى.

قُلْتُ : وَالمُخالِفُون فِي هَذِه الجُمْلَة طَوائِف : مِنْهُم المُنْكِرُون وَمِنْهُم المُوجِبُون.

أَمَّا المُنْكِرُون فَطوَائِف : مِنْهُم المُنكِرُون لِلإِمْكانِ، وَمِنْهم المُنْكرُون لِلوُقُوع، أَمَّا المُنْكِرون لِلإِمْكَان فَطوَائِف، مِنْهُم مَنْ قَالَ إِنَّ بِعْثَة الرُّسُل مُسْتَحِيلَة لِذاتِهَا، وَهؤُلاء أَجْهَل مِنْ أَنْ يُتَكلَّم مَعهُم.

وَمِنْهُم مَنْ لَزِمَه ذَلِك مِنْ قَوْلِه، كَالفَلاسِفَة النَّافِين لاخْتِيَار الله تَعالَى وَعِلْمِه بِالجُزئِيَات، وَوُجودِ المَلَك وَنُزولِه مِنَ السَّماءِ، وَغَيْر ذَلِك. وَالرَّد عَلَيْهِم بِإِبْطَال مَا أَصَّلُوه، وَذَلِك مُقرَّر فِي العَقائِد.

وَمِنْهُم مَنْ قَال البِعْثَة تُؤدِّي إِلَى التَّكْلِيف لأَنَّه فَائِدَتُها، لَكِن التَّكْلِيف يَمْتَنِع، إِمَّا لَكوْنه تَكْليفاً بِمَا لاَ يُطَاق، فَإِنَّ العَبْدَ عِنْدَكُم لاَ فِعْل لَهُ، أَوْ أَنَّ الفِعْلَ إِمَّا مَعْلُوم الوُقُوع فَهُوَ وَاجِبٌ، أَوْ مَعْلُوم أَلاَّ وُقُوع فَهُو مُمْتَنِع، وَلاَ قُدْرَة عَلَى وَاحِد مِنْهُما، وَالتَّكْلِيف مَعَ الجَبْر قَبِيحٌ.

وَالجَوَاب أَنَّ اللهَ تَعالَى مُخْتَار، لاَ يَقْبُح مِنْه شَيْء، إِلاَّ مَا حَكَم بِقُبْحِه، وَأَيْضاً فالعَبْد مُكْتَسِب وَمُخْتَار فِي الظَّاهِر، وَعلَى ذَلِك جَاءَ التَّكْلِيف، وَأَمَّا لِكَوْن التَّكْلِيف إِضْراراً بِالعَبْد لأَنَّه إِنْ فَعلَ تَعِب، وَإِنْ لَمْ يَفْعَل عُذِّب، وَذلِك إِضْرَار وَهُوَ قَبِيحٌ.

1 - سبق التعريف به ص : 97.
2 - كذا في الأصل.
3 - وردت في نسخة ح : إذ.

وَأَيْضا التَّكْلِيف إِنْ كَانَ لاَ لِغَرَض فَهُوَ عَبَثٌ، وَإِنْ كَانَ لِغَرَض يَعُود إِلَى الله تَعالَى، فَمُحَال لِتَعالِيه عَنِ الأَغْرَاض، أَوْ لِلْعَبْد وَهُو إِمَّا إِضْرَار وَهُوَ مُنْتَف بِالإِجْمَاع، أَوْ لِجَلْب مَنْفعَة وَهُوَ خِلاَف المَعْقُول، لأَنَّه فِي مَعنَى أَنْ يَقُول حَصِّلِ المَنْفَعَة لِنَفْسِك وَإِلاَّ عَذَّبْتُك أَبداً، وَلاَشَكَّ أَنَّ أَعْظَم المَصَالِح عِنْدَه تَرْكُ التَّعْذِيب.

وَالجَوَاب، أَنَّ هَذَا كُلُّه كَالَّذِي قَبْلَه، مَبْنِي عَلَى التَّحْسِين وَالتَّقْبِيح العَقْلِيَيْن، وَذَلِك بَاطِل، وَلَوْ سُلِّم جَدَلا فَالمَصالِح الحَاصِلَة عَنِ التَّكْلِيف[1] دُنْيَا وَأُخْرَى، 242 تَزِيد عَلَى المَشاقِ بِكَثِير،/ وَذَلِك غَرَض يَعُود إِلَى العَبْد.

وَأَمَّا تَعْذِيبه أَبداً، فَإِنَّما هُوَ لِتعَاصِيه عَنْ أَمْرِ سَيِّدِه وَمَوْلاَه، لِعَدَم تَحْصِيلِه لِمَنْفعَة نَفْسِه.

وَأَمَّا لِكوْن التَّكْلِيف بِالفِعْل إِنْ كَانَ حَالَة الفِعْل فَهُوَ مُمْتنِع، لِوُجوبِ الفِعْل، وَإِنْ كَان قَبْلَه فَمُمْتنِع لاسْتِحالَة الفِعْل قَبْل الفِعْل، وَأَيّاً مَا كَانَ فَهُوَ تَكْلِيف مَا لاَ يُطَاق وَهُوَ بَاطِل، وَعَلَى أَنَّهُ جَائِز فَهُوَ غَيْر وَاقِع.

وَالجَوَاب أَنَّه تَكْلِيف حَال الفِعْل. قَوْلُكم تَحْصِيل حَاصِل، قُلْنَا مَمْنُوع، وَإِنَّما ذَلِك لَوْ كَانَ حَاصِلا بِغيْر هَذَا الإِيقَاع، أَمَّا بِهِ كَإِحدَاث الحَادِث لَوْ حَصلَ بِغيْر هَذَا الإِحْدَاث، لَكانَ تَحْصِيل حَاصِل أَوْ قَبْلَه، بِمَعنَى أَنَّهُ يُوجَد فِي ثَانِي حَالٍ لاَ حَالَة عَدَمِه، وَهذَا وَاضِح وَالتَّشكُّك فِيهِ مُغالَطَة.

وَأَمَّا لِكَوْن التَّكْلِيف بِالأَفْعَال الشَّاقَة البَدنِية، يَشْغَل القَلْبَ عَنْ مَعْرِفَة الله تَعالَى، وَالتَّفكر فِيمَا يَجِبُ لَهُ وَيَمْتنِع عَلَيْه، وَهذَا لأَهْل الإِبَاحَة مِنَ المُتصوِّفَة.

وَجوابُه أَنَّ التَّفكرَ المَذْكُور، هُوَ أَحَدُ مَقاصِد التَّكْلِيف، بَلْ هُوَ أُسُّها وَلُبابُها، وَسائِر التَّكالِيف مُعِينَة عَلَيْه وَداعِيَة إِلَيْه، كَمَا قَالَ تَعالَى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[2]

---

1 – وردت في نسخة ك: تكاليف.
2 – طه: 14.

وَمِنْها مَا هُوَ وَسِيلَة إِلَى إِصْلاَحِ المَعاشِ المُعين عَلَى صَفَاء الأَوْقَات، وَخُلُو القَلْب عَنِ المُشَوِّشَات، الَّتِي هِيَ أَقْوَى صَرْفاً لِلْقَلْبِ عَنِ التَّفَكر.

وَمِنْهُم مَنْ قَالَ : البعْثَة لاَ حَاجَة إِلَيْها، لأَنَّ فِي العَقْلِ مَنْدُوحَة عَنْها، وَهُؤلاء مِنْهُم البَراهِمَة[1] وَالصَّابِئَة[2] وَالتَّناسُخِية[3]، وَحُجَّة جَمِيعِهم أَنَّ مَا أَدْرَكَه العَقْل حَسناً يُفْعَل، وَمَا أَدْركَه قَبيحاً يُتْرك، وَمَا كَان مُحْتَملا إن اضْطُرَّ إِلَيْه أَوْ احْتِيجَ إِلَيْه فُعِلَ بِقَدْر الضَّرورَة أَوِ الحَاجَة، وَإِلاَّ تُرِك احْتياطاً.

وَالجَوَاب، أَنَّ العَقْل لاَ حُكْمَ لَهُ، وَلَوْ سُلِّم فَلاَ حُكْم لَهُ فِي الجَائِزَات، وَبِذَلك أَتَت الرُّسُل، وَمِنَ البَراهِمَة وَالصَّابِئَة مَنْ قَالَ يَكْفِي نَبِيٌّ وَاحِدٌ، فَمِنْهُم مَنْ قَالَ آدم، وَمِنْهُم مَنْ قَالَ إِبْراهِيم، قِيلَ وَبِهذَا سُمُّوا بَراهِمَة، وَمِنَ الصَّابِئَة مَنْ قَالَ بِنُبوَّة شِيت وَإِدْرِيس.

وَالرَّد عَلَى هَؤُلاَء كَالرَّد عَلَى مُنْكِري[4] النَّسْخ، وَهُوَ أَنَّ مِنْ حِكْمَة الله تَعالَى فِي خَلْقِه، أَنْ تَكُونَ شَرِيعَة تَصْلُح فِي زَمَان، وَشَرِيعَة تَصْلُح فِي آخَر، وَفِي تَبدُّل الشَّرائع وَتَلوُّنِها مَا يُشْعِر بِأَنَّها مِنَ الله تَعالَى، لاَ أُمورَ عَادِيَة، مَعَ مَا فِي ذَلِك مِنْ

1 - يقول الشهرستاني : «من الناس من يظن أنهم سموا براهمة لانتسابهم إلى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك خطأ، فإن هؤلاء هم المخصوصون بنفي النبوات أصلا ورأسا، فكيف يقولون بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ والقوم الذين اعتنقوا نبوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من أهل الهند فهم الثنوية فهم القائلون بالنور والظلمة، على رأي أصحاب الاثنين، وهؤلاء البراهمة إنما انتسبوا إلى رجل منهم يقال له إبراهيم، وقد مهد لهم نفي النبوات أصلا، وقرر استحالة ذلك في العقول». الملل والنحل/ 2 : 251-250.

2 - الصابئة : في اللغة : صبأ الرجل إذا مال وزاغ، فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق، وزيغهم عن نهج الأنبياء، قيل لهم الصائبة، والصائبة تدعي أن مذهبها الاكتساب. الملل والنحل/ 1 : 5.

3 - التناسخية : القول بالتناسخ مذهب قديم، عرفه الفلاسفة الأقدمون، ومنهم سقراط الحكيم الفيلسوف اليوناني الذي كان من تلامذة فيتاغورس القائل بالتناسخ.

أما في دولة الإسلام فقد برز هذا الاعتقاد لدى فريق من القدرية، وفريق من الغلاة كما نجد بأن ماني الثنوي قد ذكر أن أرواح الصديقين تتصل بعمود الصبح إذا خرجت من الأبدان حتى تبلغ النور الذي فوق الفلك، أما أرواح الضالين فإنها تتناسخ في أجسام الحيوانات. وهناك فريق من اليهود قالوا بالتناسخ، وقالوا إنهم وجدوا في كتاب «دانيال» أن الله تعالى مسخ بختنصر في سبع صور من صور الدواب والسباع. جامع الفرق والمذاهب : 29 - 30.

4 - وردت في نسخة ح : منكر.

مُوجِب النَّشاطِ بالتَّنَقل، وَمُوافَقة الطَّبائع المُخْتلفَة فِي الأَزْمَان المُخْتلِفَة، كَالطَّبيب الحَاذِق يُرتِّب لِكُلِّ شَخْص مِنَ الدَّوَاء، وَفِي كُلِّ زَمَان مَا يَلِيق بِهِ.

عَلَى أَنَّ لِلشَّيْطَان وَالهَوَى دَوْلَة، تُنْسى فِيهَا الشَّرائع بِحُكْم عَادَة الله تَعالَى، وَلِكُلِّ شَيْء فَتْرَة، فَيحْتَاج النَّاسُ إِلَى تَجْدِيدِها[1] بِنَبِيٍّ آخر، إِلَى غَيْر هَذَا مِنَ الوُجُوه.

وَهَذا كُلُّه مُجارَاة لأُصولِهِم، وَإِلاَّ فَنحْن نَقُول الله تَعالَى فَاعِل مُخْتَار لَهُ أَنْ يَبْعَث الوَاحِد، وَلَهُ أَنْ يَبْعَث الكَثِير فِي أَزْمَان أَوْ فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ [2].

وَمِنْهُم مَنْ قَالَ : الرِّسالَة لاَ تَثْبُت إِلاَّ بالمُعْجِزَة، وَالمُعْجِزَة لاَ يُمْكِن وُجُودُها، إِذْ تَجْوِيز خَرْق العَادَة سَفْسَطَة لاَ يُلْتَفَت إِلَيْها.

وَالجَوَاب أَنَّه مَقْدُور لله تَعالَى، وَقَدْ وَقَع عِيَّاناً لِلأَنْبِيَاء وَالأَوْلِيَاء، فَإِنْكَاره مُكابَرَة.

وَمِنْهُم مَنْ سَلكَ مَسْلَك القَدْح فِي المُعْجِزَة، وَقَال إِنَّ ظُهُورَ الخَارِق لاَ يَدُلُّ عَلَى الصِّدْق، وَقَرَّرُوا ذَلِك بِتَخيُّلاَت[3] كَثِيرَة، مَرْجعُها ثَلاثَة أُمُور : وَهِيَ أَنْ قَالُوا مَنْ لَنَا أَنَّ الخَارِق مِنْ فِعْلِ الله تَعالَى، وَلَعلَّه مِنْ فِعْل ذَلِك المُدَّعِي، أَوْ [مِنْ][4] فِعْل مَلَكٍ أَوْ شَيطَان، أَوْ وَقَع بِاتِّصَال فَلكِي، أَوْ غَيْر ذَلِك.

243 سَلَّمْنا أَنَّهُ مِنْ فِعْلِ الله تَعالَى، فَلِمَ قُلْتُم إِنَّهُ/ فَعَلَه لأَجْل التَّصْدِيق به. أَمَّا عِنْدَكُم مَعْشَر الأَشاعِرَة[5]، فَلأَنَّ أَفْعَال الله تَعالَى لاَ تُعلَّل بِالأَغْرَاض.

---

1 - وردت في نسختي ق و ك : تجديد.
2 - تضمين للآية : 23 من سورة الأنبياء.
3 - وردت في نسختي ق و ك : بتخييلات.
4 - سقطت من نسختي ق و ك.
5 - أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، المنتسب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. ومن مذهب الأشاعرة أن كل موجود يصح أن يرى، فإن المصحح للرؤية إنما هو موجود والباري تعالى موجود فيصح أن يرى، ولا يجوز أن تتعلق به الرؤية على جهة، ومكان وصورة ومقابلة... فإن كل ذلك مستحيل. والإيمان عند الأشاعرة

وَأَمَّا عِنْدَ غَيْرِكُم فَلأَنَّ الغَرَض لاَ يَنْحصِر فِي التَّصْدِيق، وَلَعَلَّه فعلَه لِغَرَض آخَرَ.

سَلَّمْنا أَنَّه فَعلَه لِتَصْدِيق المُدَّعِي، فَلِمَ قُلْتُم إِنَّ مَنْ صَدَّقَه الله تَعالَى يَجب أَنْ يَكُون صَادِقاً، وَإِنَّمَا ذَلِك لِوُجوب[1] صِدْقُه تَعالَى، وَما دَلِيلُكُم عَلَيْهِ ؟

وَالجَوَاب عَنْهَا، أَمَّا أَوَّلا فَبِأَنَّ الله تَعالَى لاَ شَرِيكَ لَهُ فِي فِعْل مِنَ الأَفْعَال، فَكُل مَا بَرَزَ فَهُوَ فِعْلَه وَلاَ فَاعِل غَيْرُه.

وَأَمَّا ثَانيا، فَبِأَنَّ التَّصْدِيق بِالخَارِق[2] لَيْس مِنَ الأَغْرَاض الَّتِي نُنْكِرُها، وَإِنَّما هُوَ مِنْ قَبِيل[3] الحِكَم الَّتِي رَاعَاهَا الحَكِيم تَعالَى فِي صَنْعته اخْتياراً مِنْه وَتَفضُّلا، لاَ لِجَلْب مَصْلحَة وَلاَ لِدَرْء مَفْسدَة، وَكَوْنه يَدُلُّ عَلَى التَّصْدِيق أَمْر قَطْعِي ضَرورِي، فَلاَ يَقْدَح فِيهِ الاحْتِمَال المَقْطُوع بِانْتِفائِه، وَسَيأْتِي بَيانُ هَذَا فِي وَجْه دِلاَلَة المُعْجزَة.

وَأَمَّا كَوْن الله تَعالَى صَادِقا وَمُسْتَحيلاً عَلَيْه الكَذِب، فَدليلُه أَنَّ خَبرَه تَعالَى عَلَى وِفْق عِلْمِه، وَكُل خَبَر عَلَى وِفْقِ العِلْم لاَ يَكُون إِلاَّ مُطابِقا لِلوَاقع، وَذلِك هُوَ الصِّدْقُ.

وَمِنْهُم مَنْ قَال : إِنَّ المُعْجزَة لاَ تُحَصِّل العِلْم إِلاَّ لِمَن شَاهدَها، أَمَّا الغَائِب فَلاَ يَصِل إِلَيْه الأَمْر إِلاَّ بِالتَّواتُر، وَالتَّواتُر لاَ يُفِيد العِلْم، لأَنَّ خَبَر الوَاحِد لاَ يُفِيد العِلْم، فَكذَلِكَ الكَثِير، إِذْ هِيَ مَجْمُوع الآحَادِ.

وَالجَوَاب، أَنَّ هَذَا غَلَطٌ وَاضِحٌ، وَجَهْلٌ فَاضِحٌ، فَإِنَّ حُكْم الكُلِّ خِلاَف حُكْم الوَاحِد، وَيَلْزَمُهم أَنَّ الوَاحدَ إِذَا لَمْ يَحمِل الصَّخْرَة العَظِيمَة، أَوْ لَمْ يَأْكُل القُفَّيز[4] مِنَ

هو التصديق بالجنان، وأما القول باللسان والعمل بالأركان ففروعه، فمن صدق بالقلب واعترف بالرسل صح إيمانه، وانتشر المذهب الأشعري في العراق ثم في مصر أيام صلاح الدين الأيوبي، وفي سوريا وبلاد المغرب العربي، وأخيرا اعتنقه العثمانيون فانتشر في آسيا الصغرى. جامع الفرق والمذاهب : 20 - 22 - 23 بتصرف.

1 - وردت في نسخة ح : لو وجب.

2 - وردت في نسخة ك : الخارق.

3 - وردت في نسخة ح : قبل.

4- القفيز من المكاييل معروف وهو ثمانية مكايل عند أهل العراق، وهو من الأرض قدر مائة وأربع وأربعين ذراعا، وقيل هو مكيال تتواضع الناس عليه قفيز الطحان الذي نهي عنه قال ابن المبارك هو أن يقول اطحن

الطَّعَام، فَالكَثِير لاَ يَحْملونَها وَلاَ يأكلُون ذَلك، وَإِذَا لَمْ يُشْبِع القَلِيل مِنَ الطَّعَام، وَلَمْ يَرْوِ القَلِيل مِنَ المَاء، فَالكَثِير لاَ يُشْبِع وَلاَ يَرْوِي، إِلَى غَيْر هَذَا، وَهُوَ خُرُوج عَنِ الحِسّ.

وَمِنْهُم مَنْ قَال: تَخْصِيصُ بَعْض الخَلْق بِالرِّسالَة، مُفاضَلة بَيْن مُتسَاوِيَين، وَذلك يُناقِضُ الحِكْمَة.

وَالجَوَاب، أَنَّ الله تَعالَى لَهُ الاخْتِيَار التَّام، وَقَد فَاضَل بَيْنَهُم فِي الخِلْقَة وَالأَوْصَاف، وَالمَزَايَا وَالمَرَاتِب المَحْسوسَة.

{المَانِعُون لوُقوعَ البِعْثَة}

وَأَمَّا المَانِعُون وُقوعَ البِعْثَة، فَمِنْهم مَنْ قَالَ إِنَّا رَأَيْنا مَنْ يَدَّعِي الرِّسالَة مُكذَّباً مِنْ قَوْمِه، مَرْدُوداً عَلَيْه قَوْله، فَعلمْنا أَنَّ ذَلِكَ لَيْس مِنْ عِنْد الله، فَإِنَّ الحِكْمَة تَقْتضي أَنْ لاَ يُرْسَل الرَّسُول إِلَى مَنْ يُكذِّبه، وَيُرُد عَلَيْه قَوْلَه، وَيُمْكِن أَنْ تَكُون هَذه الشُّبْهَة عِنْد هَؤلاَء تُوجِب لَهُم امْتِنَاع البِعْثَة لِمُنَاقَضتها لِلْحِكْمَة.

وَالجَوَاب، أَنَّ هَذَا مَبْنِي عَلَى التَّحْسِين العَقْلِي، وَهُوَ بَاطِل، وَقَدْ خَلَقَ الله تَعالَى العَبْدَ، وَهُوَ يَعْلَم أَنَّه يُكذِّبُه، فَكَمَا لَمْ يُناقِض هَذَا[1] الحِكْمَة، لاَ يُناقِضُها إِرْسالُه مَعَ العِلْم بِالتَّكْذِيب.

وَمِنْهُم مَنْ قَالَ: لَمَّا رَأَيْنا الرُّسُل تَأْتِي بِأُمُور تَسْتنكِرُها العُقُول، وَتَشْمَئِز مِنْها النُّفُوس، عَلِمْنا أَنَّهُم مُخْتَرِصُون[2]، وَأَنَّ ذَلِك لَيْس مِنْ عِنْد الله، وَذلِك كَإِيلاَم الدَّوَاب بِالذَّبْح، وَكَإِيجَاب السَّعْي إِلَى بَعْض البِقَاع القَاصِيَة وَالطَّوَاف عَلَيْها،

بكذا وكذا وزيادة قفيز من نفس الدقيق. لسان العرب: مادة قفز/ 5 : 395.

1- وردت في نسخة ك: هذه.

2 - مخترصون: من خرص، تخرص بالضم، خَرْصاً وتَخَرَّصَ أي كَذَب، ورجل خَرَّاصٌ: كَذَّاب. وفي التنزيل، ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾. قال الزجاج: الكَذَّابون. وَتَخَرَّصَ فُلان على البَاطِل واخْتَرصَه أي افْتَعَلَه، وأصل الخَرْصِ التظني فيما لا تَسْتَيْقِنُه. لسان العرب مادة خرص/ 1 : 813.

مَعَ تَساوِي البِقَاع كُلِّها، وَكَالخُرُوج عَنْ حَدِّ الهَيْئَة إلَى حَالَة مُستَنكَرة، كَالانْحِنَاء رَاكِعاً وَسَاجِداً، إلَى غَيْر هَذَا.

وَالجَوَاب، أَنَّ هَذَا أَيْضاً تَحْسين وَتَقْبيح بالعَقْل، بَلْ بمُجرَّد الوَهْم، وَالله فَاعِلٌ مُختَارٌ، وَقَد عَلِمْتُم أَنَّ الله تَعالَى يَخْلُق لِلعَبْد آلاَماً وَآفَات عَظِيمَة، فَيُقْعِده وَيَعْمِيه، وَيُعوِّره وَيُشلُّه وَيُجَوِّعه وَيُعرِّيه، وَيَسْلُب عَقْلَه حَتَّى يَفْعَل أَفْعالاً شَنِيعَة، وَيَظْهَر فِي هَيْئَات بَشِيعَة، فَلِمَ لاَ تُجَوِّزُون فِي أَحْكامِه مَا تُجوِّزُون فِي أَفْعالِه؟.

244 / قَاَل الشَّيْخ تَقِيُّ الدِّين المُقْتَرح[1] رَحِمَه الله تَعالَى : «وَهَذا ـ أَعْنِي اسْتِبشَاعُهُم لِنَحْو الرُّكُوع وَالسُّجُود ـ مِمَّا لاَ يَسْتَحِق أَنْ يُجَاب عَنْه، فَإِنَّهُم فِي تَعْظِيمِهم مُلوكِهِم يَتعارَفُون الانْحِنَاء فِي الخِدْمَة، وَتَمْرِيغ الوُجُوه عَلَى الأَرْض تَواضُعاً لِلمُلوك، فَكَيْف يَسْتَكْثِرُون مِثْل ذَلك مِنَ العَبْد لِربِّ السَّماوَات وَالأَرْض»[2] انْتهَى، وَهُوَ وَاضِح.

وَالَّذِي خَفِيَ عَنْهُم فِي مُعْظَم هَذَا البَاب، هُوَ مَا فِي الأُمُور التَّعَبدِية مِنْ ظُهُور العُبودِية، وَهُوَ الفَائِدَة العُظْمَى فِي التَّكالِيف، عَلَى مَا شَرحْنا ذَلك قَبْل فِي أَفْعَال الحَجِّ وَغَيْرِها. وَمِنْ هَؤُلاَء مَنْ زَعَم أَنَّ نَبِيّاً وَاحِداً يَكْفِي، وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهم فِي القِسْم الأَوَّل.

وَمِنْهُم مَنْ ظَهَر إِنْكَارُ البِعْثَة مِنْ أَقْوالِه وَأَفْعالِه، كَأَهْل الخَلاعَة المُصرِّينَ عَلَى عَدَم المُبالاَة بِالشَّرائِع، وَعَدَم اعْتِبَار التَّكالِيف، قَالَ الشَّيْخ سَعْد الدِّين[3] رَحِمَه الله تَعالَى : «وَهؤُلاَء آحَاد أَوْبَاش مِنَ الطَّوائِف، لاَ طَائِفَة مُعيَّنَة تَكُون لَهَا مِلَّة وَنِحْلَة»[4] انْتهَى.

وَالرَّد عَلَى هَؤلاَء بِإِثْبَات البِعْثة بِالمُعجزَات وَاضِح، وَحالُهم دَائِر بَيْن إِنْكَار الوُقُوع، وَإِنْكار الإِمْكَان، وَلاَ عِبْرة بِهِم عَلَى حَال.

---

1 - سبق التعريف به في ص : 191.

2 - قارن بشرح الإرشاد في أصول الاعتقاد / 2 : 760.

3 - سبق التعريف به في ص : 49.

4 - قارن بشرح المقاصد/ 5 : 9.

وَاعْلَم أَنَّ كُلَّ مُنْكِر لِلنُّبوة عَلَى الإِطْلاَق، مُنْكِر لِنُبوَّة سَيِّدنَا وَمولاَنا مُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُصوصاً، لأَنَّ نَفْيَ الأَعمِّ مَلْزومٌ لِنفْي الأَخصِّ، وَإِذَا ثَبتَت[1] نُبوَّة نَبيِّنا وَمولاَنا مُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْليماً، وَعُلِم أَنَّه رَسُول الله حَقًّا، كَانَ ذَلك دَليلا عَلَى صِحَّة النُّبوَة وَالرِّسالَة مُطْلقاً وَعلَى وُجودِهما، لأَنَّ الأَخصَّ مَلْزُوم لِلأَعمِّ، وَلأَنَّ الوُقُوع دَلِيل الجَوَاز، فَكَان بِنُبوَّتِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّد عَلَى طَوائف المُنْكِرين كُلِّهِم.

وَلِهذَا لَمَّا ذَكَر فِي المَواقِف فِي المَقْصد الثَّالث مِنَ المَوْقف السَّادِس إِمْكَان البعثَة، قَالَ : «وَحُجَّتنا فِيه إِثْبات نُبوَّة مُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ الدَّال عَلَى الإِمْكان دَالٌّ عَلَى الوُقوع بِلاَ اشْتبَاه»[2] انْتهَى.

وهَكذَا قَالَ الأَرْموي[3] فِي لُباب الأَربَعين بَعْد أَنْ فَرَغ مِنْ سَرْد طَوائف المُنكِرينَ قَالَ : «واعْلَم أَنَّ الدَّالَ عَلى صِحَّة نُبوَّة مُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْليماً دَالٌّ عَلَى صِحَّة أَصْل النُّبوءَة» انْتهَى، وَسَنُقيم الدِّلالَة عَلَى نُبوَّة نَبيِّنا مُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْليماً بَعْدُ إِنْ شَاءَ الله تَعالَى بِمَا يُشْرِق إِشْرَاق الشَّمْس، وَيَنْزَاح بِهِ كُل لُبْس.

{المُوجِبونَ لِلبعْثَة}

وَأَمَّا المُوجِبُون البعثَة[4]، فَمِنهُم المُعتَزِلة[5]، قَالُوا يَجب عَلَى الله تَعالَى إِرْسَال الرُّسُل، لأَنَّه مِنَ اللُّطْف المُقربِ، وَهُوَ وَاجِب، وَذَكَر فِي المَواقِف أَنَّ بَعْض

---

1 – وردت في نسختي ق و ك : ثبت.

2 – قارن بالمواقف في علم الكلام : 342.

3 – تاج الدين أبو الفضائل محمد بن الحسين بن عبد الله الأرموي، عاش نحوا من ثمانين سنة. (ت : 655هـ). العلامة الأصولي صاحب كتاب «الحاصل من المحصول» وتلميذ فخر الدين الرازي، من مشاهير أئمة المعقول. تهذيب سير الأعلام/ 3 : 310.

4 – وردت في نسخة ح : للبعثة.

5 – المعتزلة : ويسمون أصحاب العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدرية والعدلية، وهم قد جعلوا لفظ القدرية مشتركا، وقالوا : لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى، وهم فرق كثيرة من بينها : الواصلية نسبة إلى أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال، والهذيلية نسبة إلى حمدان بن هذيل العلاف، والنظامية نسبة إلى إبراهيم بن يسار بن هانئ النظام.

المُعتزِلَة فَصَّل فَقالَ : «إذَا عَلِم الله مِنْ أُمَّة أَنَّهُم يُؤمِنُون، وَجَب[1] عَلَيْه إرسَال النَّبيِّ إِلَيْهِم، وَإِنْ عَلِم أَنَّهُم لاَ يُؤْمِنُون لَمْ يَجِب، وَلَكِن يَحْسُن قَطْعا لِلْعُذْر»[2].

وَقال أَبُو هَاشِم الجُبَّائي[3] : «يَمْتنع خُلوُّ البِعْثة عَنْ تَعرِيفَات شَرْعِيات لاَ يَسْتقِلُّ العَقْل بِهَا»[4]، إِذْ لاَ فَائدَة فِي الخَالِية عَنْ ذَلِك، وَجوَّزَها أَبُو عَلِي الجُبَّائي[5] «لِتَقْرِير الوَاجبات العَقْلية، وَجَوَّزُوها لِتقْرِير شَرِيعة تَقدَّمَت، وَقَال بَعْضُهم : إِنَّما يَجُوز ذَلِك إِذَا انْدرَسَت»[6].

وَهَذا مَا قَالَ أَبُو بَكْر بْنُ العَربِي رَحمَه الله تَعالَى فِي كِتَابه المُتوسِّط : «قَالَ أَهْلُ الحَقِّ، يَجُوز أَنْ يَكُون وَجْه الرِّسالَة التَّنْبيه عَلَى دِلالاَت[7] العُقول، أَوْ ذِكُر مَا يَكُون مَعْلوماً مِنْها، مِنْ غَيْر إِيجَاب وَلاَ حَظْر وَلاَ تَغْيير حُكْم، وَلاَ إِلْزَام نَظَر فِي مُعْجزَة.

<قَال :>[8] فَإِنْ قِيلَ وَأَيُّ فَائدَة فِي إرسَال مِثْل هَذا؟ قُلْنا لاَ فَائدة أَعْظَم مِمَّا قَدَّمنَاه فِي الفَصْل قَبْلَه مِنْ وُقوعِ المُرَاد، وَلاَ يُستَنْكَر قِيَام الدِّلالَة بِوَجْه المُعجزَة /245 عَلَى صِدْق هَذَا المُرْسَل مِنْ غَيْر اقْتِرَان حُكْم، كَمَا قَامَت الأَدلَّة العَقْلَية عَليالمَدْلولاَت مِنْ غَيْر اقْتِرَان حُكْم، وَيَجُوز أَنْ يَكُون وَجْه الرِّسالَة تَأْكِيد شَرِيعَة سَالِفَة مِنْ غَيْر زِيادَة حُكْم عَلَيْها وَقَدْ تَقدَّم.

---

1 – وردت في نسخة ك : يجب.

2 – قارن بالمواقف : 342.

3 – أبو هاشم الجبائي المعتزلي (247 – 321 هـ) عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي من أبناء أبان مولى عثمان، عالم بالكلام من كبار المعتزلة. له آراء انفرد بها، وتبعه فرقة سميت البهشمية نسبة إلى كنتيه أبي هاشم. له مصنفات ك«الشامل» في الفقه، و«تذكرة العالم» الأعلام/ 4 : 7.

4 – المواقف في علم الكلام : 342.

5 – محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي أبو علي (235 – 303 هـ). من أئمة المعتزلة ورئيس علماء الكلام في عصره وإليه نسبت الطائفة الجبائية. له مقالات وآراء انفرد بها في المذهب. له تفسير حافل مطول. الأعلام/ 6 : 256.

6 – المواقف في علم الكلام : 342.

7 – وردت في نسخة ك : دلالة.

8 – سقطت من نسخة ك.

وَقَالَت طَائفة مِنَ القَدرية[1]، لَو انْدَرسَت الشَّريعَة وَشَغَر الزَّمَان عَنْ قَائم يَحْفَظ أَرْكانها وَإِحْياء سُنَنِها، فَيَجُوز انْبعَاث نَبيٍّ لإحيَائِها، فَأَمَّا مَعَ قِيَام أَحْكامِها وَظُهور مَعالمها فَلاَ، وَهذَا مَبْنِي عَلَى الصَّلاَح وَالأَصْلَح، وَالقَوْل بِالتَّولُّد، وَقَدْ سَبَق بُطْلاَن كُلِّ ذَلِك»[2] انْتَهَى.

وَعَلَى ذَلِك، فَالمُعتزلة مِنْ جُملَة المُنْكرينَ لِلبعْثَة أَحْياناً، فَهُم بَيْن إِيجَابها وَإِنْكارِها عَمَلاً بِالأَوْهَام، وَتَخرُّص العُقُول، وَتَحْكِيم الظُّنُون، نَسْأَل الله تَعالَى العَافِية بِمَنِّه.

وَالرَّد عَلَيْهم فِي الأَمْرين مَعاً، هُوَ مَا مَرَّ مِنْ أَنَّ الله تَعالَى فَاعِل مُخْتَار، مَا شَاء فَعَل وَمَا لَمْ يَشأْ لَمْ يفْعَل، لاَ يَتعاصَى عَلَيْه مُمْكِن، وَلاَ يَلْجأ إِلَى أَمْر، وَلاَ يَجِب عَلَيْه حَقٌّ، إِلاَّ مَا تَفضَّل بِهِ مِنْ عِنْدِه، وَلاَ حَسَن وَلاَ قَبِيح، إِلاَّ مَا حَكَم تَعالَى بِحُسْنه أَوْ قُبْحه، ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[3].

وَمِنْهم الفَلاسِفَة، قَالُوا البعْثَة لاَزمَة عَقْلاً، لأَنَّ النِّظَام الأَكْمَل لاَ يَتِم إِلاَّ بِانْبعَاث نَبِي يَضَع قَوانِين العَدْل، عَلَى مَا مَرَّ مِن احْتِياج النَّاس إِلَى ذَلِك فِي التَّعامُل، وَأَسْباب المَعاش، فَقدْ صَارَ الفَلاسِفة كَمَا تَرى يُوجِبون البعثَة، وَقَد عُدُّوا مِنَ المُنكرين لَها، وَلاَ تَناقُض فِي ذَلِك، فَإِنَّ الَّذي أَلْزَمُوه خِلاَف الَّذِي أَنْكرُوه، عَلَى مَا مَرَّ بَيانُه مِنْ أَنَّ النُّبُوة عَلَى مَا نَقُول بِهِ نَحْن، لاَ تَصح عِنْدَهم وَلاَ تَتصوَّر، لِعدَم الاخْتِيَار وَعدَم العِلْم بِالجُزئيات، وَعدَم المَلاَئِكة وَغَيْر ذَلِك، فَهِيَ مُنْتفية عِنْدَهم قَطْعاً.

---

1 – هو مذهب ظهر بالبصرة، كان أول من تكلم به رجل من أهل العراق كان نصرانيا فأسلم ثم تنصر وأخذ عنه معبد الجهني وغيلان الدمشقي، ومن هنا نرى أن الفكرة دخيلة في الإسلام وسميت القدرية بهذا الاسم لأنهم نفوا القدر عن الله وأثبتوه للعبد، ويميل بعض الكتاب إلى وصفهم بأنهم مجوس هذه الأمة والعلة في ذلك أن المجوس ينسبون الخير إلى الله والشر إلى الشيطان ويقولون إن الله لا يريده. تاريخ المذاهب الإسلامية : 112 بتصرف.

2 – نص منقول من كتاب المتوسط مخطوط الخزانة العامة رقم : 2963ك ص : 93.

3 – تضمين للآية : 85 من سورة الزخرف.

وَالنُّبوَة الَّتِي يَقولُون بلُزومِها فِي الحِكْمَة، إنَّمَا هِيَ مَعْنَى آخر، مَرْجعه إلَى كَمَال قوَى الإنْسَان الثّلاَث، أَعْنِي الإنْسانِية وَالحَيوَانية وَالمُحَرِّكَة، وَعَنْ ذَلك يَكُون مَا مَرَّ شَرْحه مِنَ الاطِّلاَع عَلَى المُغَيَّبَات، وَسَماع كَلاَم مِنْ أَشْبَاح[1] تتخَيَّل، وَانْفعَال العُنْصريَات بِظهُور الخَوارِق، وَقَدْ تَقدَّم الكَلاَم فِي هَذَا بِمَا أَغْنَى عَنْ إعادَتِه.

المَسْأَلة الخَامِسَة : فِي بَيانِ المُعْجزَة الدَّالَة عَلَى صِحَّة البِعْثة، الشَّاهِدَة بِصدْق المَبْعُوث

اعْلَم أَنَّ المُعْجزَة فِي اللُّغَة مُشْتقَّة مِنَ العَجْز، الَّذي هُو ضِدُّ القُدْرة، تَقُول عَجز فُلاَن يَعْجز وَيَعْجَز فَهُو عَاجِز، وَأَعْجَزه الله تَعالَى، فَالله مُعْجِز لَهُ، وَإذا قُلْتَ أَعْجَزْتُ فُلاَنـا، فلَـه فِي اللُّغَة ثَلاَثـة مَعَان : الأَوَّل صَيَّرْتـه عَاجِزاً، وَهَذَا المَعْنَى مَخْصُوص بالله تَعالَى، وَلاَ يَكُون فِي غَيْره إلاَّ مَجازاً. الثَّاني فُتُّه فَلَمْ يُدْركنِي، قَالَ تَعالَى : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ ﴾[2] أَيْ لاَ تُفوتونَه تبارَكَ وَتَعالَى. الثَّالث وَجدتُه عَاجِزاً، كَمَا تَقُول أَبْخَلته وأَجْبَنْتُه إذَا وَجَدْته بَخيلاً أَوْ جَباناً.

إذَا عَلمْت هَذَا، فَوَصْفُ الآيَة الدَّالَة عَلَى الصِّدْق، بكَوْنها مُعجزَة مَجاز، لأَنَّ المُعْجز هُو الله تَعالَى، وَهِي مُظْهرَة للْعَجْز، فَسُمِّيَت مُعْجزَة مَجازاً، وَهذَا عَلَى مَا اشْتهَر عِنْدَ المُتكَلِّمينَ، مِنْ أَنَّ المُرادَ هُنَا بالعَجْز، عَجز المُتَحَدِّين عَن المُعارَضَة وَالإتْيان بالمِثْل، وَإلاَّ فَلَوْ جُعِل عَلَى مَعْنَى الفَوَات وَعَدَم الإدْرَاك، لَكَانَت مُعْجزَة حَقيقَةً، بِمَعنَى أَنَّها فَاتَت الخَلْقَ، فَلَمْ يَنالُوها وَلَمْ يَقْدِروا عَلَى الإتْيان بِهَا، كَمَا تَقُول تَبِعْتُ الصَّيْد حَتَّى أَعْجزَنِي.

ثُمَّ العَجز هُنَا أَيْضاً، عَلَى رَأْي الشَّيْخ أَبِي الحَسَن[3] رَحِمَهُ اللَّهُ مَجاز، وَالمُراد عَدَم القُدْرَة، لأَنَّ العَجز عِنْده إنَّمَا يَتعَلَّق بِالمَوجُود، فَالزَمِنُ عِنْده مَثَلا إنَّمَا هُوَ عَاجِز عَنْ

---

1 – وردت في نسخة ك : أشياخ.

2 – الشورى : 31.

3 – سبقت ترجمته في ص : 38.

قُعودِه الحَاصِل لَهُ، أَيْ لاَ اخْتيارَ لَهُ فِيه، لاَ عَنِ القِيَام الَّذِي لَمْ يَحْصُل، وَكَذَا النَّاس لَمْ يَعْجزوا عَنِ المُعارَضة إِذْ لَمْ تَحْصُل، وَإِنَّمَا أُطْلِق عَلَيْهم العَجْز عَلَى مَعنَى 246 عَدَم / القُدْرَة عَلَى المُعارَضة مَجازاً، فَفِي المُعجزَة عِنْدَه تَجَوُّزَان : مَجازُ الإِسْناد وَمَجازُ الإِفْرَاد، وَمَذْهَب غَيْرِه خِلاَف هَذَا، وَقَدْ مَرَّ ذِكْره.

ثُمَّ المُعْجزَة إِن اعْتُبِرت وَصفاً لِلآيَة أَوِ الغَرِيبَة أَوْ نَحو ذَلِك، فَالـهَاء لِلتَّأْنِيث عَلَى أَصْلِه، وَإِن اعْتُبِرت وَصْفاً لِلخَارِق أَوْ لِلفِعْل أَوْ نَحْو ذَلِك، فَالـهَاء لِلمُبالَغة، كَعلاَّمة وَراوِية، أَوْ لِلنَّقْل مِنَ الوَصْفِية إِلَى الاسْمِية، كَمَا قِيلَ فِي لَفْظ حَقِيقَة.

وَحقِيقَة المُعجزة فِي عُرْف الشَّرْع عِنْد الشَّيْخ[1] «فِعْل الله تَعالَى أَوْ مَا يَقُوم مَقامَه، <خَارِق لِلْعادَة، مَقْرونٌ بِالتَّحدِي مَعَ عَدم المُعارَضَة»[2].

وَإِنَّمَا صُدِّرت بِالفعْل أَوْ مَا يَقُوم مَقامَه،>[3] لأَنَّ غَيْر ذَلِك لاَ يُتحدَّى بِه، فَإِنَّه إِمَّا وَاجِبٌ أَوْ مُستَحِيلٌ.

أَمَّا الوَاجِب فَلاَ يَصِح التَّحدي بِهِ لأَنَّهُ مَوْجود قَبْل التَّحدي، فَيسْتوِي فِيه الصَّادِق وَالكَاذِب، فَلَيْس لَهُ أَنْ يَقُول : آيَة صِدْقِي أَنَّ الله عَالِم قَادِر.

وَأَمَّا المُسْتحِيل فَإِنْ تَحدَّى بِعدَمه فَهُوَ مِنَ الوَاجِب، وَإِنْ تَحدَّى بِوجُوده فَهُو كَاذِب، إِذْ لاَ يُوجَد لَهُ أَبَداً، فَلاَ يَصِح التَّحدي إِلاَّ بِالمُمْكِن فِعْلاً أَوْ تَركاً، وَهُوَ الـمُرَاد.

فَالفِعْل كَشَقِّ القَمَر وَنَبْع المَاء، وَفَلَق البَحْر وَنَحْو ذَلِك، وَالتَّرْك وَهُوَ مَا يَقُوم مَقامَ الفِعْل، كَأَنْ يَقُول المُدَّعِي آيَةُ صِدْقِي أَنْ لاَ يَقُوم أَحَدٌ مِنْ مَكانِه، فَإِذا لَمْ يَقُوموا مَعَ تَوفُّر الدَّواعِي، وَسلاَمَة البِنْية، كَانَ مُعْجزَةً، قَال تَعالَى : ﴿ ءَايَتُكَ أَلَّا

1 - يعني الأشعري المذكور.
2 - قارن بشرح المقاصد/ 5 : 11.
3 - ساقط من نسخة ك.

تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾[1] فَمَنْعه مِنَ الكَلاَم مَعَ وُجودِ الاسْتِطاعَة مُعجِزة، قَالَ تَعالَى لِنبيِّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[2] فَمنَع النَّاسَ مِنْ إذايَتِه مَعَ كَثْرتِهم وَقُوَّتِهم، وَتَوفُّر دَواعِيهم، آيَةٌ عَظِيمَة.

وَمَنْ يَرَى القُدْرَة مُتعَلِّقة بالإيجَاد وَالإعْدَام، اقْتصَر عَلَى ذِكْر الفِعْل لِشُمولِه حِينَئِذٍ[3]. وَكَذا مَنْ يَتأَوَّل ذَلِك بأَن يَرَى المُعْجزَة فِي عَدمِ القِيَام مَثلاً، هُوَ القُعود المُسْتمِر، غَيْر أَنَّ هَذَا قَدْ لاَ يَتأَتَّى.

كَمَا لَوْ قَالَ آيَة صِدْقي أَنْ يَعْدمَ الله هَذَا الجَبَل، فَلَيْس هُنَا إلاَّ عَدَم اسْتِمرَار الوُجُود، وَهُوَ قَائِم مَقامَ الفِعْل، أَوِ الإعْدَام عِنْد مَنْ يَعْتبره.

وَإِنَّما قِيلَ خَارِق لِلْعادَة لِلاحْتِراز عَنِ المُعتَاد، كَأَنْ يَقُول آيَةُ صِدْقي أَنْ يَنْزل المَطَر غَداً، أَوْ تَطْلُع الشَّمْس، فَإِنَّه يَسْتوي فِيه الصَّادِق وَالكَاذِب، وَإِنْ كَانَ بَعْض المُعْتاد رُبَّما يُرشِّح الصِّدْق لِنُدورِه، كَالمَطَر أَوِ الخَصْب أَوْ مَوْت أَحَد مَخْصُوص، أَوْ نَحْو ذَلِك، لَكِن لاَ يُفِيد القَطْع.

نَعَم، رُبَّما يُقيِّده بِأمُور يُفِيد بِهَا، كَأَنْ يَقولَ : يَنْزِل المَطَر فِي سَاعَة كَذَا، وَيرتَفِع فِي سَاعَة كَذَا، فِي بُقعَة كَذَا خُصوصاً، وَعَلَى صِفَة كَذَا، وَنَحْو هَذَا، ثُمَّ يَصْدُق جَمِيع ذَلِك، فَالعِلْم يَحْصُل بِهَذه الضَّمِيمَة، وَالمُعتَبر مَا يَحْصُل بِه العِلْم، وَإِنَّما قِيلَ مَقْرُون بِالتَّحدِّي أَي الدَّعْوَى، بِأَنْ يَدَّعِي الرِّسالَة وَيَقُول : آيَةُ صِدْقي كَذَا، لِلاحْتِرَاز عَمَّا وَقَع بِدُون تَحد أَصْلا، أَوْ تُحُدِّيَ بِهِ إِلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَقْترِن بِالتَّحدي، إمَّا لِكوْنه تَقدَّم أَوْ تَأَخَّر.

---

1 - آل عمران : 41.

2 - المائدة : 67.

3 - وردت في نسخة ح : ح.

أَمَّا مَا لَمْ يُتحَدَّ بِهِ أَصْلا فَلاَ يُسمَّى مُعْجزَة، وَلَكِنه[1] إِنْ كَانَ مَنْ وَقَعَ عَلَى يَدِه صَادِقا يُسمَّى آيَة، إِنْ كَانَ زَمَان النُّبوءَة وَعَلَماً مِنْ أَعْلامِها، وَإِنْ كَانَ قَبْل البِعْثَة سُمِّيَ[2] إِرْهاصاً، وَسَنُشِير إِلَى هَذِه الأَقْسَام.

وَأَمَّا مَا وَقَع قَبْل التَّحَدي، ثُمَّ تُحدِّي بِهِ قَبْل وُقوعِه فَلاَ عِبْرة بِهِ، إِذْ يَستَوِي فِي هَذَا الصَّادِق وَالكَاذِب.

نَعَم، ذَكَر الأَئِمَّة مَسْأَلَة مِنْ هَذَا، وَهُوَ مَا لَوْ قَالَ مَثلاً آيَة صِدْقي أَنْ يَخْلُق الله فِي هَذَا الصُّنْدوق المُقْفَل طَائِراً، وَيَكُون ذَلِك الصُّنْدوق قَدْ عَهِدْنَاه فَارِغا، وَهُوَ بَيْنَ أَيْدِينَا مُنْذ عَلِمْنَاه فَارِغاً لَمْ يَتحوَّل، فَلَمَّا قَالَ تِلْك المَقالَة فَتحْنَاه فَوَجدْنا فِيه 247 / طَائِرًا كَمَا قَالَ، فَهذَا يُفِيد العِلْم بِصدْقه، مَعَ جَوازِ أَنْ يَكُون الطَّائِر قَدْ خُلِق فِي الصُّنْدوق، قَبْل تَحدِّيه بِهِ، وَوَجْهُه أَنَّ العِلْم إِنَّما حَصَل مِنْ إِخْبَاره بِالغَيْب، وَصِدْقه وَهُوَ مُقارِن لِلتَّحدِّي، لاَ مِنْ حُدوث الطَّائِر، فَإِنَّه لَوْ كَانَ قَبْل ذَلِك، وَهُو لَمْ يَرَه وَأَخْبَر بِهِ، فَهُو مُعْجزَة كَمَا قَالَ تَعالَى عَنْ عِيسَى عَلَيْه السَّلاَم ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾[3] الآيَة.

وَأَمَّا المُتأَخِّر عَنِ التَّحدِّي، فَإِنْ كَانَ بِزَمَان يَسِير، يُعدُّ فِي مِثْله مُقارِناً فَلاَ بَأْس، وَإِنْ كَانَ بِزمَان كَثِير، فَقَد اخْتَلَف فِيهِ العُلَمَاء، فَإِذَا قَالَ آيَة صِدْقي، أَنْ يَظْهَر كَذَا فِي زَمَان كَذَا لِزمَان عَيَّنه، أَوْ يَقُول بَعْد مَوْتِي، فَمَن يَشْترِط المُقارَنة، يَقُول المُعْجزَة الإِخبَار بِذلِك لاَ المُخْبَر بِه، وَمَنْ لاَ يَشْترِط المُقارَنة فَلاَ إِشْكال عِنْدَه، وَعلَى كُلِّ حَال صِدْقه لاَ يَتبيَّن فِي الحَال، بَلْ بَعْدَ وُقوع ذَلِك، إِمَّا فِي حَياته أَوْ بَعْد مَوْته، فَإِنْ أَلْزَم التَّكالِيف الآنَ بِمَا يَظْهَر قَبْل ظُهورِه، لَمْ يَصِح ذَلِك أَصْلا لأَنَّه احْتِمَال، وَإِنْ

1 – وردت في نسخة ك : ولكن.
2 – وردت في نسخة ك : يسمى.
3 – آل عمران : 49.

بيَّن شَريعَته وَجَعَل الْتِزامَها مَوْقوفاً عَلَى ظُهورِ المُعجِزة، فَهذَا أَيْضا لاَ يَصِح عِنْد القَاضِي[1]، وَهُو قَوْل القَدرِية.

وَذهَب الإمَام[2] إلَى صِحَّته، وَاخْتارَه ابْنُ العَربِي، هَذَا إنْ عَيَّن الوَقْت، وَأَمَّا إنْ لَمْ يُعيِّن، كَأَنْ يَقُول آيَة صِدْقي أَنْ يَنْشقَّ القَمَر مَثلاً، أَوْ يَتَدَكْدَك هَذَا الجَبَل، وَلَمْ يُعيِّن لِذَلك زَماناً، ثُمَّ وَقَع ذَلك بَعْد طُول مِنَ الزَّمَان، فَقالَ الإمَام ابْنُ العَربِي : «هَذَا مِمَّا لَمْ يَقَع فِيهِ إلَى الآنَ نَصٌّ، وَأَقُول إنَّه لاَ يَكُون آيَة لإمْكَان أَنْ يَقَع ذَلك مِنْه مُوافَقة، إلاَّ لَوْ قَرَنَ ذَلك باقْترَانَات، وَشَرَطهُ بشرَائط يَبْعُد فِي مَجْرى الاعْتيَاد أَنْ تَكُون مُوافقَة، مِثْل أَنْ يَقُول : أَنْ يَتَدكْدَك الجَبَل الفُلانِي مِنْ حَدِّ كَذَا إلَى حَدِّ كَذَا، فِي حِينِ كَذَا، وَيَكُون عَليْه كَذَا وَكذَا رَجُلا، وَنَحْو ذَلك» انْتهَى.

وَبقَيْد مُقارَنة التَّحدي تَخْرُج الكرَامَة وَالإعانَة، كَمَا يَخْرُج الإرْهَاص، وَسَنذْكُر هَذِه الأَسامِي إنْ شَاءَ الله تَعالَى.

وَإنَّمَا قِيلَ مَعَ عَدَم المُعارَضة لِلاحْترَاز عَمَّا يُعارِض، كَالسِّحْر وَالشَّعْبَذَة، وَأَنْواع النَّيْرُوجَات، وَهَذا عَلَى أَنَّ السِّحْر خَارِق، وَالحَق أَنَّهُ مُعْتَاد، لأَنَّ لَهُ سَبباً عَادِياً، غَيْر أَنَّه نَادِر وَخَفِي عَنْ[3] أَكْثَر النَّاس.

{أَنْوَاع الخَوارِق}

وَالمَشْهُور مِنْ أَنْوَاع الخَوارِق عِنْد العُلمَاء سَبْعَة :

الأَوَّل : مَا يَكُون مُعْجزَة وَهُوَ المَذْكُور.

الثَّانِي : مَا يَكُون إرْهاصاً، وَهُوَ مَا يَظْهَر عَلَى النَّبِي قَبْل البِعْثَة، كَإظْلال الغَمَام

---

1 - سبقت ترجمة القاضي أبي بكر ابن الطيب الباقلاني في ص : 39.

2 - إذا ذكر الإمام في كتب الكلام، فالمقصود به الإمام الرازي المتوفى سنة 606هـ. سبقت ترجمته في ص : 183.

3 - وردت في نسخة ك : على.

وَارْتِجَاج الإِيوَان، وَخُمُود النِّيرَان وَشَقِّ الصَّدْر، وَنَحو ذَلِك، لِنَبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسلِيماً، وَكَكلاَم عِيسَى فِي المَهْد عَلَى نَبِيِّنا وَعَليْه الصَّلاَة وَالسَّلاَم، وَإِنَّمَا يَكُون ذَلِك لِلأَنْبيَاء تَمْهِيداً وَتَأْسِيساً لِنُبوَّتِهم.

وَالإِرْهَاص مَصْدَر مِنْ قَوْلِك أَرْهَصْت الحَائِط، إِذَا جَعَلْت لَهُ رِهْصا بِكَسْر الرَّاء أَيْ أَساساً، ثُمَّ أُطْلِقَ عَلَى المُرْهِص بِه، فَلِذَا يُجْمَع فَيُقَال إِرْهاصَات، وَيَجُوز فَتْح الهَمْزَة فِيه، عَلَى أَنَّهُ جَمْع رِهْص، وَحِينَئِذ لاَ يُجْمَع بَالأَلِف وَالتَّاء.

الثَّالِث : مَا يَكُون كَرامَة، وَهُو مَا يَظْهَر عَلَى يَدِ عَبْد ظَاهِر الصَّلاَح، لَيْس بِنَبِيٍّ فِي الحَالِ وَلاَ فِي المَآل، وَبِكَوْنه <ظَاهِر الصَّلاَح يَخْرُج مَا سَيأْتِي مِنَ الإِهانَة وَنَحْوِها،>[1] وَبِكَوْنه لَيْس بِنبي فِي الحَال تَخْرُج المُعْجِزة، وَبِكوْنه وَلاَ فِي المَآل يَخْرُج الإِرْهَاص، وَهذَا عَلَى تَجْوِيز وُقوع الكَرامَات لِلأَوْلِيَاء، وَهُو الحَق الَّذي لاَ يَنْبغِي أَنْ يُشكَّ فِيه، وَهَلْ تَنْتهِي إِلَى مِقْدَار مَا يَكُون مُعْجزَة خِلاَف، وَالحَق أَنَّ مَا يَكُون مُعْجزة <يَجوزُ أَنْ>[2] يَكُون كَرامَة.

وَالكَرامَة بِالحَقِيقَة مُعْجزة لِنَبي ذَلِك الوَلِي الَّذِي ظَهرَت عَلَيْه، لأَنَّها بِبركَة مُتَابَعتِه لَهُ، بَلْ وِلاَيَته نَفْسُها مُعجِزة لِنَبيِّه، فَالفَرْق بَيْن المُعجِزة وَالكرَامة، أَنَّ النَّبي يَتَحدَّى بِالمُعجِزَة عَلَى كَوْنِه رَسُولاً، وَالوَلِي لاَ يَتحَدَّى كَذلك وَلاَ يَدَّعِي الرِّسالَة 248 / وَلاَ النُّبوءَة، وَلَو ادَّعاهَا لَمْ يَكُن وَلِياً بَلْ دَجَّالاً، وَإِنَّمَا اخْتُلِف هَلْ لَهُ أَنْ يَتَحدَّى بِالكَرامَة عَلَى الوِلاَيَة أَمْ لاَ؟

وَمَنْ لاَ يَجْعَل الكَرامَة تَنْتَهِي إِلَى قَدْر المُعْجزَة، فَالفَرْق عِنْدَه مِنَ الوَجْهَين وَبَيْن المُعجِزة وَالإِرْهَاص أَيْضا كَذلِك، لأَنَّ الإِرْهاص يَظْهَر عَلَى مَنْ لَيْس بِنبِي

1 - ساقط من نسخة ك.
2 - ساقط من نسخة ح.

فِي الحَال بِخلاَف المُعجزة، وَلأَنَّ الإِرْهَاص لاَ يَكُون مَعَه التَّحدِّي، وَرُبَّما ذُكِرَت الإِرْهاصَات فِي المُعجِزَات تَوسُّعاً وَتَجوُّزاً.

الرَّابِع : مَا يَكُون إِعانَة، وَهُو مَا يَظْهَر عَلَى يَدِ مُؤْمِن مِمَّن لَمْ يَبلُغ الخُصوصِية، لِيَتخلَّص بِهِ مِنْ مِحْنَة لُطْفاً مِنَ الله تَعالَى، وَالفَرْق بَيْنَه وَبيْن المُعْجزَة مَا ذُكِرَ فِي الكَرامَة.

الخَامِس : مَا يَكُون إِهانَة، وَهُو مَا يَظْهَر عَلَى يَد الشَّقِي عَكْساً لِمُراده وَفَضْحاً لَهُ، وَقَدَ وَقَع مِنْ ذَلك لِمُسَيْلمَة الكَذَّاب كَثير، رُوِيَ أَنَّه مُجَّ فِي بِئْر عَذْبَة المَاء، فَعادَ مَاؤُها أجاجاً، وَدعَا لأَعْوَر أَنْ تَصِحَّ عَيْنه العَمْيَاء فَعَمِيَت الصَّحِيحَة، إِلَى غَيْر هَذَا.

السَّادِس : مَا يَكُون اسْتِدرَاجا، وَهُو مَا يَظْهَر عَلَى يَدِ الشَّقِي، لِيَزْدَاد بِهِ غُرورًا وَضَلاَلاً كَالمُبْتدِعَة[1] وَالفراعِنة، قَالَ تَعالَى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

السَّابِع : مَا يَكُون ابْتِلاء، وَهُو مَا يَظْهَر عَلَى يَدِ مَنْ يَحْصُل بِهِ فِتْنَة الخَلْق وَإِضْلالِهِم كَالدَّجال[3].

وَاعْلَم أَنَّ الفِعْل المُتَحدَّى بِهِ لِلإِعْجَاز، شَرَط بَعْض الأَئِمَّة أَنْ يَكُون خَارِجاً عَنْ جِنْس مَقْدُور البَشَر، كَإِحيَاء المَوتَى وَشَقِّ القَمَر، وَجَوَّز آخَرُون كَوْنه مِنْ جِنْس

---

1 – فرقة من الخوارج الثعالبة، هم أصحاب يحيى بن أصدم، أبدعوا القول بأن نقطع على أنفسنا بأن من اعتقد اعتقادنا فهو من أهل الجنة. ولا نقول إن شاء الله، فإن ذلك شك في الاعتقاد، ومن قال : أنا مؤمن إن شاء الله، فهو شاك فنحن من أهل الجنة قطعا، من غير شك. كما تفردوا بقول أحدثوه، وهو قطعهم الشهادة على أنفسهم، ومن وافقهم أنهم من أهل الجنة من غير شرط ولا استثناء. جامع بيان الفرق والمذاهب : 39.

2 – القلم : 44.

3 – ذكر الدجال جاء في أحاديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من علامات الساعة، وجاء في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «ألا أحدثكم حديثا عن الدجال ما حدث له في قومه : إنه أعور وإنه يجيء معه بمثال الجنة والنار فالتي يقول إنها الجنة هي النار» متفق عليه.

المَقدُور كَالطَيرَان فِي الهَواءِ مَثلاً، لأَنَّ القُدرَة عَليْه بِهَا كَان الإعْجَاز وَلَيْس بِمَقدُوره، وَالمُرَاد بنفْي المُعارَضة المَذْكُور، أَنْ لاَ يَأْتِي أَحَد بمثْل مَا وَقعَ التَّحدي به، إنْ كَانَ تَحدَّى بشَيْء مُعيَّن، وَإنْ لَمْ يَتَحدَّ بمُعيَّن كَأَن قَالَ: آيَة صِدْقي أَنْ يَخْرق الله عَادَته، فَمُعارَضَته تَكُون بكُل خَارِق، وَإِنْ لَمْ يُماثِل مَا ظَهَر عَلَى يَدِه عَلَى الصَّحِيح.

ثُمَّ المُعارَضة القَادحَة إِنَّما هِيَ مِمَّنْ يَطْلبُها مِنَ المُكَذِّبينَ، أَمَّا ظُهُور مِثْل ذَلِك المُعْجز عَلَى يَدِ نَبي آخَرَ أَوْ وَلِي فَلاَ يَضُر، ثُمَّ التَّحَدي يَكْفِي فِيه أَنْ يَقُول: آيَة صِدْقي كَذَا، وَلا يُشْتَرَط أَنْ يَقُول: وَلاَ يَأْتِي أَحَد بِمثْل ذَلِك، لأَنَّ حَالَه تُنْبِئُ عَنْ ذَلِك، فَلا حَاجَة إِلىَ الإفْصَاح.

وَاخْتلَفوا فِي الخَارِق المُتَحدَّى به إِذَا كَذَب، كَأَنْ يَقُول: آيَةُ صِدْقي أَنْ يُنْطِق الله هَذَا الحَجَر، فَنطَق بتكْذِيبه، أَوْ <أَنْ>[1] يُحْيي الله هَذا المَيِّت، فَلَمَّا أَحْيَاه الله تَعالَى كَذب. فَقِيل إِنَّ ذَلِكَ مُبْطِل لِلتَّحدِّي، لأَنَّ المُعْجزة تُصدِّق، وَهذه كَذَّبَت، وَقِيل لاَ يَضُر، لأَنَّ الإعَجاز يَكُون بنُطْق الحَجَر مَثلاً نَفْسه، وَبإحْياء المَيِّت، وَالتَّكْذِيب شَيْء آخَر. وَقِيلَ ذَلك يَضُر فِي الحَجَر، إِذْ لاَ اخْتيَار لَهُ، بخلاَف المَيِّت، فَإِنَّ المُعجزَة فِي إِحْيائِه وَكُفره بَعْد ذَلك عَن[2] اخْتيارِه، وَلَعلَّه لِمَوْته عَليْه.

فَفِي الحَديث «يَمُوت المَرْء عَلَى مَا عَاشَ عَليْه، وَيُبْعَث عَلَى مَاتَ عَليْه»[3]، وَقِيلَ: إِنْ طَالَ زَمَان حَياتِه لَمْ يَضُر، وَإِنْ مَاتَ لِحينه ضَرَّ، فَإِن اعْتَبَرْنا التَّكْذِيب قَادحاً، فَلاَبُد أَنْ يُزَاد فِي التَّعْرِيف قَيْد آخَر، فَيُقَال مَثَلا: مَقْرُون بِالتَّحدِّي غَيْر مُكَذَّب.

---

1 - سقطت من نسخة ك.

2 - وردت في نسخة ك: على.

3 - أخرجه مسلم في كتاب صفة الجنة ونعيمها وأهلها، باب: الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت. وأحمد في باقي مسند المكثرين.

وَلاَبُدَّ أَنْ تَكُون المُعْجزَة مُوافقَة لِدعْوَى المُتَحدِّي، وَإلاَّ كَانَت إهانَة، وَأَنْ تَكُون وَاقِعَة عَلَى يَده، وَبِسَبَب تَحدِّيه، فَإِنَّ الكَاذِب لَوْ تَحدَّى بِمُعجزَات مَنْ عَاصرَه مِنَ الأَنْبِيَاء، لَمْ يَعْتبر ذَلِك، وَالقَيْدَان مَفْهومَان مِنْ فَحْوَى التَّعْرِيف، لأَنَّ التَّحدِّي يَقْتضِي ذَلِك، فَإِنَّ مَعْنَاه طَلَب الغَلبَة، وَلاَ تَكُون الغَلبَة إلاَّ بِمَا كَان عَلَى يَدِه شَاهداً لَهُ، بِأَنْ وَافَق دَعْوَاه، وَمَنْ لاَ يَكْتفِي بِهذَا الاقْتِضَاء، احْتَاجَ إِلَى التَّصْرِيح 249 / بِهمَا فِي التَّعْرِيف، وَفِي التَّصْرِيح <بِجَمِيع>[1] القُيُود مَا يُؤَدِّي إِلَى الطُّول، فَلاَ بَأْسَ أَنْ يُكْتفَى فِي تَعْرِيف المُعجِزة بِرَسْم مُخْتصَر.

كَأَن يُقَال مَثَلا : المُعجِزة الأَمْر الدَّال عَلَى صِدْق مُدَّعِي الرِّسالَة فِي دَعْوَاه، وَهذَا المَفْهُوم يَتحَقَّق بِأُمُور، إنْ شِئْت اعْتَبَرتَها أَرْكاناً، وَإِنْ شِئْت اعْتَبَرْتَها شُروطاً، كَمَا اعْتَبَرهَا صَاحِب المَواقِف وَغَيْره.

وَزَاد بَعْضُهم فِي القُيُود، أَنْ يَكُون ذَلِك فِي زَمَان يَصِح فِيه التَّكْلِيف، احْترازاً مِنْ زَمَان تَنْخرِق فِيه العَادَات، وَيَخْتَلُّ النِّظَام، وَهُوَ يَوْم القِيامَة، وَانْقرَاض الدُّنْيا، وَلاَ حَاجة إِلَى هَذا القَيْد، لأَنَّ الضَّابط هُوَ حُصُول العِلْم كَمَا سَيَأْتِي، وَلَيْس يَحْصُل فِي ذَلِك الزَّمَان، مَعَ أَنَّ الرِّسالَة وَالنُّبوءَة قَد انْقضَت اليَوم، فَلاَ يَبْقى مَا يُحْترَزُ عَنْهُ.

المَسْأَلَة السَّادِسة : فِي وَجْه دِلالَة المُعجِزة عَلَى صِدْق الآتِي بِهَا

اعْلَم أَنَّ المُعْجزَة لاَ تَدلُّ عِنْد المُحَقِّقِينَ، دِلالَة أَدلَّة العُقول، لأَنَّ الخَارق يُمْكِن أَنْ يُوجَد غَيْر مُرْتَبط بالتَّصْدِيق، كَمَا يُوجَد عِنْد قِيَام السَّاعَة، وَإِنَّما تَدُل دِلالَة ضَرورِية عَادِية أَوْ وَضْعيَة.

أَمَّا مَعْنَى العَادَة، فَهُوَ أَنَّ الله تَبارَك وَتَعالَى أَجْرَى عَادتَه وَطَرَد سُنَّتَهُ، عِنْد خَلْق المُعْجزَة مُجْتمِعَة الأَرْكَان، مُتوفِّرَة الشَّرائِط، أَنْ يُوجدَ عِنْدَها العِلْم بِصدْق الآتِي

---

1 - سقطت من نسخة ك.

بهَا، لِمَنْ شَاهدَهاً عِلْماً ضَرورِياً، لاَ يَشُكُّ مَعَهُ وَلاَ يَمْتَرِي، ثُمَّ يَحْصُل العِلْم لِمَنْ غَابَ عَنِ المَجْلِس بِتَواتُر ذَلِك إليْه كَمَا مَرَّ.

وَأَمَّا مَعْنَى الوَضْع، فَهُوَ أَنَّ ظُهورَ المُعْجِزَة، يَتَنَزَّل مَنْزِلَة كَلام الله تَعالَى، وَقَوْله : هَذَا العَبْد قَدْ صَدَق فِيمَا يُحدِّث عَنِّي، وَهَذا كَمَا تُنَزَّلُ الإشارَة باليَدِ أَو الرَّأْس مَثلاً مَنْزِلَة الكَلاَم، <وَاللَّفْظُ بلاَ أَوْ نَعَم أَوْ غَيْرِهمَا مِنَ المَقاصِد فكَذلِكَ المُعجِزَة، فَالإِشارَة فِعْلٌ تَنَزَّلت مَنْزِلَةَ الكَلاَم>[1] وَمُفِيدة مَا يُفِيده جَزْماً، سَوَاء كَانَ لِلْمُشِير كَلاَم وَاسْتَغنَى عَنْه بالإِشارَة، أَوْ لَمْ يَكُن لَهُ أَصْلاً كَالأَخْرَس، فَكذَلك المُعجزة هِيَ فِعْل الله تَعالَى تُنَزَّل مَنْزِلَة الكَلاَم مِنْهُ تَعالَى، سَوَاء عُلِم أَنَّ لله كَلاماً إِذْ ذَاكَ أَوْ لَمْ يُعْلَم، فَلاَ يُقَال إِنَّ المُعجِزة لاَ تَدُل حَتَّى يُعْلَم الكَلاَم، فَإِنَّ هَذَا وَهْم بَاطِلٌ.

وَمَا ذَكَر عُلمَاؤُنا فِي هَذِه المَسأَلة مِنَ المِثَال[2] المَشْهُور، وَهُوَ أَنَّهُ مَثلاً وَلله المَثَل الأَعْلَى، لَوْ بَرَز مَلِك مِنَ المُلوكِ إِلَى النَّاس، فَاجْتمَعوا بَيْنَ يَدَيْه، ثُمَّ قَامَ إِنْسان مِمَّنْ حَضرَ، فَقالَ : يَا أَيُّهَا النَّاس، إِنَّ المَلِك أَرْسلنِي إِلَيْكم بكذَا وَالمَلِك يَسْمَع، ثُمَّ الْتفَت إِلَى المَلِك فَقالَ : أَيُّها المَلِك إِنْ كُنْتُ صَادقا عَنْكَ[3] فَافْعَل كَذَا، كَأَنْ يَقُوم وَيَقْعُد أَوْ يَضْطجِع أَوْ نَحْو ذَلِك، مِمَّا عُلِم أَنَّهُ لاَ يَفْعلُه أَصْلاً، وَلَيْس مِنْ عَادته فِعْله لَوْلاَ هَذَا السَّبَب، ثُمَّ إِنَّ المَلِك فَعَل ذَلِك، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ رَأَى هَذَا يَعْلَم أَنَّ المَلِك قَدْ صَدَّق ذَلِك المُدَّعي يَصْلُح فِي المَعْنَيَيْنِ، أَيِ العَادَة وَالوَضْع، لأَنَّ ذَلِك الأَمْر مُفِيدٌ لِلصِّدْق[4]، وَمُتَنَزِّل[5] مَنْزِلَة النُّطْق.

---

1 - ساقط من نسخة ح.
2 - ذكر هذا المثال ابن التلمساني في شرح المعالم في أصول الدين. المخطوط بالخزانة العامة رقم : 230 ق.
3 - وردت في نسخة ك : عندك.
4 - وردت في نسخة ك : الصدق.
5 - وردت في نسخة ح : فتنزَّل.

ثُمَّ المِثَال لَمْ يُنصِّبُوه دَليلاً حَتَّى يَرِدَ عَليْه أَنَّهُ قِيَاس الغَائِب عَلَى الشَّاهِد، بَلْ تَوْضيحاً لِلْمَسألَة، وَتَفْهِيماً لِلْقاصِرينَ.

فَإِنْ قُلْتَ : المَلِك فِي المِثَال مَشْهُود، وَالله جَلَّ اسْمُه غَيْر مَشْهُود.

قُلْتُ : بَلْ مُشْهود بالقُلوب، فَإِنَّ النَّظَر فِي المُعْجزات، إِنَّمَا يَكُون بَعْدَ مَعْرِفَة وُجُودِ الله تَعالَى، وَعِلْمه وَقُدْرتِه، وَمَشِيئَته وَأَنَّ الفِعْل فِعْله.

المَسْأَلَة السَّابعة : فِي إِثْباتِ بِعثَة نَبِيِّنا وَمَوْلانَا مُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

اعْلَم أَنَّ المَقْصود فِي هَذَا البَابِ مَطْلبَان : الأَوَّل[1] نُبوَّة الأَنْبيَاء عَلَى الإِطْلاقِ، الثَّانِي إِثْبَات نُبوَّة نَبِيِّنا عَلَى الخُصوصِ.

250 وَالوَاجِبُ فِي المَطْلب الأَوَّل الاعْتِقَاد فَقَط، بِمَعْنى أَنَّا نُؤْمِن بِأَنْبيَاء الله تَعالَى،/ وَأَنَّهُم مَوْجودُون، وَلاَ يَجب عَلَيْنا تَمْييزَهم، وَلاَ مَعْرِفَة أَعْيانِهم، إِذْ لاَ يَتعلَّق بذَلك غَرَض، اللَّهُم إلاَّ مَنْ وَصَل إِلَيْنا عِلْمُه بِعَينِه، فَيجب الإِيمَان بِهِ لِصِدْق الخَبَر، وَالوَاجِب فِي الثَّانِي الاعْتِقَاد وَالعَمَل، بِمَعنَى أَنَّا نُؤْمِن بِنَبِيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَعْمَل[2] بِمَا أَتَى بِهِ.

فَلاَ جَرَم كَانَ المَطْلَب الأَوَّل، يَكْفي فِيهِ الإِجْمَال عَلَى مَا ذَكَرْنا، فَنُومِن بِجَمِيع رُسُل الله عَلَيْهِم السَّلاَم، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[3] .

وَالمَطْلَب الثَّانِي لاَ يَكْفِي فِيهِ الإِجْمَال، بِأَنْ نَقُول إِنَّ لَنَا نَبِي وَنَحْن مُؤمِنُون بِهِ، بَلْ لاَبُدَّ مِنْ تَعْيينِه، لِيَتَعيَّن مَا جَاءَ بِهِ إِلَيْنَا.

---

1 – وردت في نسختي ق و ك : أحدهما.

2 – وردت في نسخة ك : ونعلم.

3 – تضمين للآية : 285 من سورة البقرة.

وَلَمَّا قَدَّمْنا إمْكَان البعْثَة فِي الجُملَة، ثُمَّ ذَكرْنا أَيْضاً أَنَّها وَاقِعةٌ فِي الجُمْلَة، وَدَلِيل الوُقُوع المُعجزَات الوَاقِعَة لِلأَنْبِيَاء، كَمَا وَقَع لِنُوح ولِإبْرَاهِيم وَلِمُوسى وَعِيسى، وَنَبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَغَيْرهم مِنَ الأَنْبياء صَلوَات الله وَسلاَمُه عَلَيْهم أَجْمعين، أَرَدْنا الآنَ أَنْ نتكَلَّم عَلَى نَبيِّنا خُصوصاً وَهُوَ مُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَلك فِي ثَلاثِ مَباحِث:

{المَبْحَث} الأَوَّل: فِي كَوْنه نَبيًّا، أَيْ مُخْتَصا بالوَحْي مِنْ الله تَعالَى، وَدَلِيلُه دَلِيل الرِّسالَة، لأَنَّ ثُبوت الأَخَصِّ يَقْتَضِي ثُبُوت الأَعَمِّ <قَطْعاً>[1].

{المَبْحَث} الثَّانِي: فِي كَوْنه رَسُولا عَنِ الله تَعالَى، وَدَلِيله أَنْ نَقُول مُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ادَّعَى الرِّسالَة، وَظهَرت المُعجزَة عَلَى يَده <وَكُلُّ مَن ادَّعى الرِّسَالة وَظَهرت المُعْجزَة عَلَى يَده>[2] فَهُو رَسُول، فَيَنْتُج مِنْ أَشْرَف ضُروب[3] أَشْرَف الأَشْكَال، مُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُول الله، أَمَّا الصُّغْرى فَثابتَة بالتَّواتُر، لأَنَّ كَوْنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ادَّعَى الرِّسالَة، أَمْر مَشْهُور مَعْلُوم، يَنْقُله المُوافِق وَالمُخالِف، وَكَذا كَوْنه ظَهَرت المُعْجزات عَلَى يَدَيْه، كَيْف وَمُعْجزَته الخَاصَّة العُظْمى هِيَ القُرْآن، وَهُو بَاقٍ إِلَى اليَوْم عَلَى حَالِه، وَسَنُشِير إِلَى جُمْلَة <مِنْ>[4] مُعجزاتِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَأَمَّا الكُبْرى وَهِيَ <أَنَّ>[5] مَن ادَّعَى أَنَّهُ رَسُول الله، وَظهَرتِ المُعْجزَة عَلَى يَده صَادِق، فَلأَنَّ المُعْجزَة دَالَّة عَلَى صِدْق الآتِي بِهَا، وَوَجْه دِلالَتِها عَلَى ذَلك تَقدَّم.

المَبْحَث الثَّالث: أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُول إِلَى النَّاس كَافَّة، وَدَلِيله هُوَ المُعجزَة، فَإِنَّ المُعْجزَة دَالَّة عَلَى صِدْق الآتِي بِهَا فِي دَعْوَاه خَاصَّة أَوْ عَامَّة، وَلاَشكَّ أَنَّ

---

1 - سقطت من نسخة ح.
2 - ساقط من نسخة ح.
3 - وردت في نسخة ك: ضروع.
4 - سقطت من نسخة ك.
5 - سقطت من نسخة ك.

دَعْوَى نَبِيِّنا وَمَوْلاَنا مُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْليمًا عَامَّة، لأَنَّهُ قَالَ : «بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَر وَالأَسْوَد»[1]، وَقَد أَقَام المُعجِزة عَلَى ذَلِك، فَهُو صَادِق.

المَسْأَلة الثامنَة : فِي ذِكْر طَرَف مِنْ مُعجِزَاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى طَرِيقِ الإِجْمَال إِذْ لاَ سَبِيلَ إِلَى حَصْرِها

وَاعْلَم أَوَّلاً أَنَّ المُعْجِزَة فِي الاصْطِلاَح، هِيَ الخَارِق المُتَحدَّى بِه عَلَى الوَجْه السَّابِق، وَلِنَبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَوَارِقٌ كَثِيرَةٌ شَاهِدَةٌ بِصِدْقه، مِنْها مَا قَارَنَهُ التَّحَدي وَهُو المُعْجِزَة، وَمَا لَمْ يُقارِنُه التَّحَدي ، وَيُقَال لَهُ الآيَة، لأَنَّه آيَة أَيْ عَلامَة عَلَى صِدْقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَالآيَةَ أَعَمُّ مِنَ المُعجِزَة اصْطلاَحاً، ثُمَّ إِنَّهُم يَتوَسَّعُون فِي هَذَا البَاب، فَيعُدُّون الآيَات كُلهَا مُعْجِزَات، لأَنَّ الثَّمرَة حَاصِلَة فِي الجَمِيع، مِنْ غَيْر فَرْق بَيْنَ مَا وَقَعَ التَّحدي به وَمَا لَمْ يَقع بِه تَحدٍّ، مِمَّا حَصَل فِي زَمانِ البِعْثَة، أَوْ حَصَل قَبْلَها إِرْهاصاً، مَعَ أَنَّ التَّحدِي بِلسَان الحَال عَامٌّ لِكُلِّ مَا وَقَعَ فِي زَمانِ البِعْثَة.

وَاعْلَم أَيْضاً أَنَّ مُعْجِزَة وَاحِدَة كَافِيَة فِي صِدْق الرَّسُول الآتِي بِهَا، وَمَا زَادَ عَلَى ذَلِك إِنَّمَا هُوَ اسْتِظهَار وَتَنْوِيه.

وَاعْلَم أَيْضاً أَنَّه قَدْ ثَبَتَت[2] الرِّسَالَة مِنْ غَيْر وُجود خَارِقٍ أَصْلاً، عَلَى يَد الرَّسُول وَذَلِك لِدَلِيل آخَرَ، كَإِخْبَار مَنْ ثَبَتَت عِصْمَته مِنَ الأَنْبِيَاء بِرِسَالَته فَيَكْفِي ذَلِك.

251 إِذَا تَقرَّر هَذَا، فَاعْلَم/ أَنَّ لِنَبيِّنا وَمَوْلاَنا مُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْجِزَات قَواطِع، وَآيَات سَواطِع، تَعْجز العُقُول عَنْ إِحْصائِها، وَيَكلُّ الحُسْبَان دُونَ اسْتِقصَائِها، فَقَد أَلَّف فِي تِعْدَاد بَعْضِها أَئِمَّة الدِّين التَّآلِيف[3]، مِنْ بَاسِط وَمُختَصر،

---

1 – أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين. والدارمي في كتاب السير، باب : الغنيمة لا تحل لأحد قبلنا.

2 – وردت في نسخة ك : تثبت.

3 – يهدف التصنيف في المعجزات والتعريف بها إلى تمييزها عن غيرها مما يلتبس بها، نتيجة ما يروجه أعداء العقيدة الصافية من انحراف عن الفهم الصحيح لها، ومن هنا تصدى العلماء لتصحيح مفهومها الديني على مدى تاريخ الفكر في الغرب الإسلامي، ومن بين هؤلاء العلماء الأعلام نذكر : عبد الرحمن بن فطيس «402/ 347هـ» الذي ألف «أعلام النبوة ودلالات الرسالة» في عشرة أجزاء. الصلة/ 1 : 311. وعبد الله

وَاعْتنى الأُدبَاء بِهَا نَظْماً وَنَثراً، مِنْ مُقِلٍّ وَمُكْثِر، وَقَدْ رَأيْنَا أَنْ نَرْسُم فِيهَا كَلاماً مُجْملاً، يَكُون إِنْ شَاءَ الله ضَابِطاً لأَقْسامِها، مِنْ غَيْر تَصدٍّ لاسْتِيفَاء الجُزْئِيَات.

فَنقُول : إِنَّ المُعْجزات وَالآيَات الَّتِي ظَهرَت شَاهِدَة بِنُبوَّة نَبِيِّنا مُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِمَّا أَنْ تَكُونَ مُتَّصِلَة بِذاتِه الكَرِيمَة أَوْ مُنْفصِلَة عَنْها، ثُمَّ المُتَّصِلَة إِمَّا أَنْ تَكُونَ اخْتِيارِيَة أَوْ غَيْرهَا، وَالاخْتيَارِية إِمَّا أَقْوَال وَإِمَّا أَفْعَال، وَغَيْر الاخْتِيارِيَة إِمَّا جبلاَّت وَإِمَّا أَفْعَال، وَالجبلاَّت إِمَّا حِسيَّة وَإِمَّا مَعْنوِيَة، وَالمُنْفصِلَة إِمَّا أَفْعَال وَإِمَّا أَقْوَال، وَالقَوْل إِمَّا قَوْل المَعْصُوم أَوْ قَوْل غَيْره، وَالمَعْصُوم يُعْنَى بِهِ مَنْ لاَ يَجُوز الكَذِب فِي خَبَرِه، وَهُوَ إِمَّا الله تَعالَى، وَإِمَّا غَيْره كَالأَنْبِيَاء وَالمَلائِكَة، وَغَيْر المَعْصُوم إِمَّا الإِنْس وَإِمَّا الجِنُّ، وَإِمَّا الحَيوَانَات العَجْماوَات وَإِمَّا الجَمادَات، فَهذِه اثْنَيْ عَشَر قِسْماً.

أَمَّا أَقْوالُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكإِخْبارِه بِالغَيْب، وَذلِك عَلَى وَجْهَيْن : لأَنَّهُ إِمَّا إِخْبار عَنْ شَيْء كَانَ فِي الوَقْت، أَوْ عَنْ شَيْء سَيَكُون فِي المُسْتَقبَل.

الأَوَّل : كَذِكْره لِعَمِّه العَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، مَا تَركَه مِنَ المَال عِنْد أُمِّ الفَضْل[1]، وَذِكْرِه لِعُمَير مَا تَعاقَد عَلَيْه هُوَ وَصَفْوَان، وَمَجِيئه لإِرَادَة الفَتْك، فَكَان ذَلِك سَبَب إِسْلامِهِما. وَإِخْبَاره بِمَوْت جَعْفَر وَأَصْحَابه، وَبِمَوْتِ أَصْحَمة النَّجاشِي، وَغَيْر ذَلِك وَهُوَ كَثِيرٌ.

بن عبد العزيز بن محمد البكري (ت : 487هـ) صاحب «أعلام نبوة نبينا عليه السلام». الصلة/ 1 : 287. وأبو الحسن ابن الإشبيلي (ت : 567هـ) الذي ألف كتاب المعراج. الذيل والتكملة، س :-5ق :-1 ص :304. وعبد الحق الإشبيلي «581/ 510هـ» صاحب «معجزات الرسول». الديباج المذهب/ 2 : 61. وغيرهم.

1 - بنت الحارث بن حزن الهلالية الجليلة، زوجة العباس عم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قديمة الإسلام، كان ابنها عبد الله يقول : كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان. تهذيب سير الأعلام/ 1 : 64.

الثَّانِي : كَإِخْبَارِه أَنَّه يَفْتَح الله خَيْبَر عَلَى يَدِ رَجُل يُحِبُّ اللهَ وَرَسُوله وَهُوَ عَلِي، فَكَان كَذلك[1]. وَإِخبَاره أَنَّ كِسْرَى يُقْتَل فِي يَوْم كَذَا فَقُتِل. وَإِخبَاره أَنَّ كُنُوز كِسْرَى تُفْتَح، وَأَنَّ الظَّعِينَة[2] تَسِير مِنْ صَنْعَاء إِلَى حَضْرَمَوْت أَوْ إِلَى مَكَّة لاَ تَخَاف إِلاَّ الله، وَأَنَّ الخِلاَفَة بَعْدَه ثَلاثُون سَنَة، ثُمَّ تَكُون مُلْكاً عَضُوضاً، وَأَنَّ عَمَّاراً[3] تَقْتُله الفِئَة البَاغِيَة، وَأَنَّ أَبَا ذَرٍّ يَمْشِي وَحْدَه، وَيَعِيش وَحْدَه وَيَمُوت وَحْدَه، وَإِخبَاره بِالخَوارِج[4]، وَبِقَاتِل عَلِي، وَأَنَّه يخضَب[5] هَذِه مِنْ هَذِه، إِلَى غَيْر هَذَا مِمَّا لاَ يُحْصَى، فَكَانَ كُلُّ ذَلِك كَمَا أَخْبَر بِهِ الصَّادِق المَصْدُوق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَكَنُطْقِه بِالحِكَم البَالِغَة، الَّتِي تَعْجز الحُكَمَاء عَنْ بَعْضِها، مِنْ غَيْر تَعلُّم وَلاَ مُدارَسة، وَلاَ مُطالَعَة دِيوَان، وَإِتْيانِه بِالكَلِم الجَوامع فِي ذَلِك، فَقَدْ كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُوتِي جَوامِعَ الكَلِم، وَاخْتُصِر لَهُ <الكَلاَم>[6] اخْتِصاراً، كَمَا أَخْبَر بِذَلِك عَنْ نَفْسه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَفَصاحَته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسلِيماً الَّتِي ظَهرَت عَلَى كُلِّ فَصاحَة تُوجَد لِلْبَشَر، وَبَهَرَت عُقُول أَصْحابه وَهُم أَفْصَح النَّاسِ، وَكانُوا يَقولُون لَهُ فِي المَواطِن : يَا رَسُول الله، مَا رَأَيْنا الَّذِي هُوَ أَفْصَح مِنْك، فَيقُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «وَمَا يَمْنَعُنِي، وَإِنَّما أُنْزِل القُرْآن عَلَى لِسانِي، لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ»[7]، وَقَدْ أَلَّف النَّاسُ فِي كَلِماتِه الجَوامع النَّوابِغ، الَّتِي لَمْ يُسْبَق إِلَى مِثْلِها.

---

1 - وردت في نسخة ك : ذلك.

2 - جمع ظعائن : الهودج، أو المرأة مادامت في الهودج.

3 - المقصود به عمار بن ياسر الصحابي الجليل. طبقات بن سعد/ 3 : 131 وما بعدها.

4 - هم الطائفة التي تعرف بالخوارج والحرورية والنواصب والشراة والمارقة.

5 - خَضب الخضاب : ما يُخْضَب به من حنَّاء وكَتَم ونحوه، وفي الصحاح : الخضاب ما يختضب به. واختضب بالحناء ونحوه، وخَضَبه : غير لونه بحمرة، أو صفرة، أو غيرهما. وكل ما غير لونه فهو مخضوب. لسان العرب/ 1 : 357.

6 - سقطت من نسخة ك.

7 - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان وغيره.

وَمِنْ هَذا البَاب القُرْآن العَظِيم، إنْ جَرِيْنَا عَلَى أَنَّهُ مِنْ لَفْظه ﷺ، وَأَنَّهُ نَزَلَ عَلَيْه المَعْنَى، فَخُلِقَت لَهُ العِبارَة، وَهُو قَوْل فِي المَسْأَلَة، وَالمَشْهُور خِلافُه عَلَى مَا سَيَجِيءُ إنْ شَاءَ الله تَعالَى، وَدُعاؤُه ﷺ المُسْتَجاب، وَهذَا بَابٌ وَاسِعٌ وَدُسْتُور جَامِعٌ.

252 / فَقَدْ دَعَا ﷺ لأُمَّتِه أَنْ لاَ يُهْلِكَهُم الله بسَنة، وَأَنْ لاَ يُسلِّط عَلَيْهم عَدُوًّا مِنْ سِواهُم، وَدَعا لِخادِمه أَنَس بْنُ مَالك أَنْ يُكْثر الله مَالَه وَوَلَدَه، وَلأَبِي طَلْحَة[1] رضي الله عنه أَنْ يُبارك لَهُ وَلِزَوْجَتِه فِي لَيْلَتِهمَا، وَلِعبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف[2] وعَبْد الله بْن جَعْفَر[3] وَعُرْوَة بْن الجَعْد[4]، بالبَرَكَة فِي الكَسْب، وَلِلمِقْدَاد بْن عَمْرو[5] بالبَرَكَة فِي دَنانِير أَصابَها، وَلِعلِّي رضي الله عنه أَنْ لاَ يَشْتَكِي حَرًّا وَلاَ بَرْدًا، وَلِفاطِمَة[6] رَضِيَ الله عَنْهَا أَنْ لاَ تَشْتكِي أَلَم الجُوع، وَلِمُعاوِية رضي الله عنه أَنْ يُمَكَّن فِي البِلاَد وَأَنْ لاَ يَشْبَع بَطْنُه، وَلابْنِ عَبَّاس رضي الله عنه بالفِقْه فِي الدِّين، فَكَان كُلُّ ذَلك كَمَا دَعَا بِه ﷺ، وَكَذا دَعَا أَنْ يُعِزَّ الله الإِسْلام بِعُمَر بْن الخَطَّاب، أَوْ بِأَبِي الحَكَم

---

1 - أبو زيد بن سهيل الأنصاري النجاري وهو عقبى بدري نقيب، ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي عبيدة ابن الجراح، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. وكان مدافعا عن الرسول. أسد الغابة في معرفة الصحابة : 171 .

2 - عبد الرحمن بن عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري. أسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، وسماه الرسول عبد الرحمن. كان من المهاجرين، وشهد بدرا والمشاهد كلها وهو ممن دعا لهم الرسول ﷺ بالجنة. الإصابة في تمييز الصحابة/ 2 : 394-397.

3 - عبد الله بن جعفر بن أبي طالب القرشي الهاشمي، ولد في الإسلام بأرض الحبشة، (ت : 80 هـ). حفظ عن رسول الله ﷺ وروى عنه. كان كثير الجود والسخاء. الإصابة/ 2 : 276

4 - أبو الجعد البارقي أرسله النبي ﷺ ليشتري بدينار فاشترى به شاتين. كان فيمن حضر فتوح الشام. نفسه/ 2 : 467 .

5 - هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة (ت : 33هـ)، كان من المبكرين بالإسلام، وكان موقفه عظيما، خاصة في معركة بدر، وكانت أمنيته أن يموت والإسلام عزيز، مما جعله أهلا لأن يقول له الرسول ﷺ «إن الله أمرني بحبك». تهذيب سير أعلام النبلاء/ 1 : 41.

6 - فاطمة بنت رسول الله ﷺ سيدة نساء العالمين، ما عدا مريم بنت عمران، أمها خديجة بنت خويلد أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وهي زوجة علي بن أبي طالب. أسد الغابة في معرفة الصحابة/ 6 : 88.

بْن هِشَام، فَاسْتُجِيبَ لَهُ فِي عُمَر، وَدَعَا لِعَمْرو بْن الطُّفَيْل[1] أَنْ يُنَوِّرَ الله لَهُ، فَسَطَع نُورٌ بَيْن عَيْنَيْه، <ثُمَّ>[2] قَالَ : «اللَّهُم يَكُون مُثْلَةً»، فَتَحوَّل إِلَى طَرَف سَوْطِه.

وَقَال لِلنَّابِغَة الجَعْدِي[3] : «لاَ يَفْضُض الله فَاكَ» حِينَ أَنْشدَه شِعْراً، فَعاشَ عِشْرين وَمِائَة سَنَة، وَمَا سَقطَت لَهُ سِنٌّ. وَفِي رِوايَة : إِذَا سَقطَت لَهُ سِنٌّ نبَتَت أُخْرَى مَكانَها، وَدَعا لِسَعْد[4] فَكَان مُسْتَجَاب الدَّعْوَة، وَدَعا بِالغَيْث فَسُقِيَت البِلاَد، ثُمَّ شُكِيَ إِلَيْه انْقِطَاع السُّبُل بِالمَطَر فَدعَا فَرُفع، وَدعَا لِجَرِير[5] أَنْ يَثْبُت عَلَى الخَيْلِ، إِلَى غَيْرِ هَذَا مِمَّا لاَ يُحْصَى.

وَدَعَا ﷺ عَلَى مُضَر فَقَحطُوا[6]، وَعَلَى عُتْبَة بْن أَبِي لَهَب أَنْ يُسلِّط الله عَلَيْه كَلْباً مِنْ كِلاَبه، فَافْترسَه الأَسَد، وَدعَا عَلَى المَلإِ مِنْ قُرَيْش فَأُصِيبُوا فِي بَدْر، وَدعَا عَلَى صَبِيٍّ قَطعَ عَلَيْه الصَّلاَة فَأُقْعِد، وَدعَا عَلَى كِسْرَى أَنْ يُمَزَّق مُلْكه فَتمَزَّق، وَدَعا عَلَى مَحْلَم[7] بْن جُثَامَة فَماتَ لِسَبْع وَلَفظَته الأَرْض، وَدعَا عَلَى الحَكَم بْنُ أَبِي العَاصِي، وَكَان يَخْتَلِج بِوَجْهِه وَيَغْمِز عِنْدَه ﷺ أَنْ يَكُون كَذلِك، فَلَمْ

---

1 – هو عمرو بن الطفيل بن عمرو بن طريف الدوسي، أسلم أبوه ثم أسلم بعده، وشهد عمرو بن الطفيل مع أبيه اليمامة فقطعت يده يومئذ، وقتل باليرموك شهيدا. نفسه/ 2 :507.

2 – سقطت من نسخة ك.

3 – النابغة الجعدي، قيل له النابغة لأنه قال الشعر في الجاهلية، ثم قام نحو ثلاثين سنة لا يقول الشعر ثم نبغ فيه بعد. كان ممن أنكر بفكره الخمر وهجر الأزلام واجتناب الأوثان. الإصابة/ 3 : 581.

4 – سعد بن أبي وقاص، جده أهيب بن عبد مناف عم السيدة آمنة أم الرسول ﷺ، «ت : 55 هـ» عانق الإسلام وهو ابن 17سنة. كان كثير البكاء من خشية الله، وكان ينجح في كل معركة خاضها. تهذيب سير الأعلام/ 1 : 15.

5 – جرير بن عبد الله الشليل بن مالك بن نصر بن ثعلبة (ت : 51 أو 54هـ)، كان حسن الصورة، أرسله رسول الله ﷺ إلى ذي الخلصة ليهدمها فقال : إني لا أثبت على الخيل فصك رسول الله صدره وقال : اللهم اجعله هاديا مهديا، فخرج في مائة وخمسين راكبا من قومه فأحرقها. أسد الغابة في معرفة الصحابة/ 1 : 233 – 234.

6 – قارن كلامه بما جاء في شرح المقاصد/ 5 : 38.

7 – وردت في نسختي ق و ك : علم.

يَزَل كَذَلك، وَدَعَا عَلَى عَامر بْن الطُّفَيْل، فَماتَ بِغُدَّة كَغُدَّة البَعير، وَعَلى أَبي عَامِر الرَّاهِب فَماتَ غَرِيباً طَرِيداً وَحيداً، إِلَى غَيْر هَذَا مِمَّا يَكْثُر.

وَأَمَّا أَفْعَاله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الاخْتِيارِيَة، فَكصَرْعه رِكَانَة أَقْوَى أَهْل زَمانه، وَكَرَمْيه الجَيْش بِالحَصَى، فَأصابَت أَعْيُنَهم جَميعاً، وَفِي هَذه مُعْجزَات، بِحَسَب عَدَد الجَيْش المُصَاب، وَمُعجزَة امْتِدَاد الحَصَى إِلَيْهِم وَتَفَرُّقه عَلَيْهم، وَإِصَابَة كُلِّ وَاحِد، وَغَيْر ذَلِك، وَكَضرْبه الكُدْيَة فِي الخَنْدَق بِالمِعْوَل، فَصارَت كَثِيباً أَهْيَلا[1]، إِلَى غَيْرِ ذَلك، وَمِنْ هَذَا البَاب بِاعْتِبَار لَمْسِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِراحَتِه الكَرِيمَة المُصَاب فَيَبْرَأ، وَالطَّعَام فَيُبارَك فِيه، إِلَى غَيْرِ ذَلِك.

وَأَمَّا كَوْنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَطُول <كُلَّ>[2] مَنْ مَاشَاه وَلاَ يَطُولُه أَحَد، فَيُحْتَمَل أَنَّهُ مِنْهُ، بِأَنْ جُعِلَ لَهُ الاخْتِيَار فِي مَدِّ قَامَتِه، أَوْ قِصَر قَامَة غَيْره، وَذَلِك مِنْ أَغْرَب الآيَات، وَيُحْتَمَل أَنَّهُ مِنَ القِسْم الآخَر، وَهُوَ عَلَى كُلِّ حَال آيَة عَظِيمَة، وَمِنْ هَذَا أَيْضاً بَسْطُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْه حِينَ وُلِدَ كَهَيْئَة الدَّاعِي، وَإِقْبالُه عَلَى ثَدْي حَلِيمَة الأَيْمَن، وَإِعراضُه عَنِ الأَيْسَر لِشَرِيكه.

وَأَمَّا الجِبلاَّت الحِسِّيَة[3]، فَالمُرَاد بِهَا مَا جُبلَت عَلَيْه ذَاتُه الكَرِيمَة، مِنَ الخِلْقَة الظَّاهِرَة المُشْتَمِلَة عَلَى المَحَاسِن البَاهِرَة، الَّتِي لَمْ يُخْلَق عَلَى مِثْلِها غَيْره، وَاعْتَرَف الحُكَمَاء أَنَّهَا أَعْدَل الخِلَق.

قَالَ ابْنُ عَرَبِي[4] فِي التَّدْبِيرَات الإِلَهِيَة، حَيْثُ تَكلَّم عَلَى الفِراسَة الحِكَمِية: «اعْلَم يَا أَخِي وَفَّقَنَا الله وَإِيَّاك، أَنَّ أَحْسَن الهَيْئَات وَأَعْدَل النَّشْئَات، مَنْ لَيْس

1 - فعادت كثيبا أهيلا: أي رملا سائلا، ورمل أهيل: لا يثبت. لسان العرب مادة هيل/ 11: 714.
2 - سقطت من نسخة ح.
3 - وردت في نسخة ك: الحسيات.
4 - سبقت ترجمته في ص: 81.

بالقَصير وَلاَ بالطَّويل»[1] إلَى آخر كَلاَمُه، ثُمَّ قَالَ: «فهَذا قَالَتِ الحُكَمَاء أَعْدَلُ الخلْقَة وَأَحْكَمُها، وَفيهَا خَلْقُ سَيِّدنا مُحَمَّد رَسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى صَحَّ لَهُ الكَمَال 253 ظَاهِراً / وَبَاطِناً»[2] انْتهَى.

وَاعْلَم أَنَّ النَّظَر فِي خِلْقَته الكَرِيمَة صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكُون مِنْ ثَلاثَة أَوْجُه:

الأَوَّل: أَنَّها رَائِقَة فِي نَفْسِها <فَائقَة فِي جِنْسِها>[3]، كَمَا مَرَّ فِي كَلاَم التَّدْبيرَات «أَنَّها أَعْدَل وَأَكْمَل»، وَفِي الشَّمائِل يَقُول نَاعِتُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا رَأَيْت قَبْلَه وَلاَ بَعْدَه مِثْلَه، فَكَمَا فَاقَ البَشَر بفَصاحَته، كَذلِك فَاقَهُم بِصَباحَته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

الثَّانِي: أَنَّها مُلائِمَة لِلطِّبَاع[4] وَمُسْتَحْسَنات العُقُول، أَمَّا عِنْد العَامَّة فَلِحُسْنِها الظَّاهِر، وَأَمَّا عِنْد الحُكمَاء فَلِذَلِك، مَعَ مَا تَدُل عَلَيْه مِنْ حُسْن الأَخْلاَق، وَالكَمَال المَعْنَوِي، فَكَما جَاءَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشَرِيعَة مُطابقَة لِلعَقْل، وَمُسْتَحْسَن الطَّبْع، وَمُتَمِّمَة لِمَكارِم الأَخْلاَق، كَذلِك ظَهَر فِي صُورَة مُسْتَحْسنَة مُلائِمَة، دَالَّة عَلَى مَكارِم الأَخْلاَق.

الثَّالِث: أَنَّ تِلْك الخِلْقَة الحَسنَة، دَالَّة عَلَى الحُسْنِ المَعْنوِي، وَمُقْتَضِية لِمَكارِم الأَخْلاَق، فَإِنَّ حُسْنَ الخَلْق دَالٌّ عَلَى حُسْن الخُلُق، وَلِلحُكمَاء فِي هَذَا تَفْصِيل مَذْكُور فِي الفِراسَة الحِكَمية، وَأَهْل هَذَا الفَنِّ يَسْتَدِلُّون بكُلِّ عُضْو عُضْو مِنَ البَدَن، عَلَى صِفَة مَا مِنَ الصِّفَات، وَيَحْكُمُون بأَنَّ أَعْضَاء بَدَنه الظَّاهِر المُشْرِق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هِيَ أَحْسَنُ الأَعْضَاء وَأَكْمَلُها، دَالَّة عَلَى أَحْسَن الأَخْلاَق وَأَكْمَلِها، كَمَا مَرَّ فِي كَلاَم التَّدْبيرَات.

---

1 – نص منقول من التدبيرات الإلهية: 163 بتصرف.
2 – نفسه: 163.
3 – ساقط من نسخة ك.
4 – وردت في نسخة ك: الطبائع.

وَقد ظَهر مِنْ هَذه الدِّلاَلَة لِغيْر أَهْل هَذَا العِلْم، مَا اتَّضَح مِنْها وَاسْتَبَان، وَلِذَلك أَسْلَم أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عِنْد رُؤْيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَال : «لَمَّا رَأَيْت وَجْهه عَلِمْتُ أَنَّ وَجْهَه لَيْس بِوَجْه كَذَّاب»، وَقَال ابْنُ رَوَاحَة[1] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

لَوْ لَمْ تكُـن فِيهِ آيَـةٌ مُبيِّنَـةٌ ❖❖❖ لَكَـان مَنْظَـرُه يُنْبِيـكَ بِالخَبَر

وَأَمَّا الجِبلَّة المَعْنَوية، فَهِي مَا اتَّصَف بِه مِنَ الأَوْصَاف الكَرِيمَة، وَالأَخْلاَق العَظِيمَة، كَالكَرَم وَالحَيَاء وَالعِفَّة، وَالحِلْم وَالشَّجاعَة وَالأَنَاة، وَغَيْرهَا مِنَ الأَخْلاَق الَّتِي شَاهدَها مَنْ عَاصرَه[2] وَانْتَشرَت إِلَى غَيْره، وَوُصف بِهَا فِي الكُتُب القَديمَة، وَفِي القُرْآن مِنْها كَثِير، قَالَ تَعالَى :﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[3] وَهَذه شَهادَة مِنَ الحَقِّ قَاطِعَة لِكُلِّ رَيْب، وَمُوجبَة لِنهَايَة المَجْد، وَقَدْ أَغْلَظ الكتَابِيُّ القَوْل عَلَيْه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تَقَاضِي الدَّيْن، فَلَمْ يَزْدَد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلاَّ حِلْماً، وَقَصد بِذَلك الاسْتدلاَل عَلَى صِدْقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصِحَّة نُبوَّته، لأَنَّهُ بِذَلك وُصِفَ فِي كِتابِهم، أَنَّهُ «لاَ يَزْدَاد مَعَ الجَهْل إِلاَّ حِلْماً» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَأَمَّا الأَفْعَال الوَاقِعَة فِي ذَاته غَيْر الاخْتِيَارِيَة لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمِنْها مَا لَيْسَ فِيه كَسْبٌ لأَحَد، كَنَبْع المَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصابعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى أَحَدِ الوَجْهَيْن، وَكَكَوْنه يَطُول مَنْ مَاشَاه، وَيَحْتَمِل كُلُّ ذَلك أَنَّهُ كَسْبِي، وَمِنْها مَا هُوَ كَسْبِي لِغَيْره، كَشَقِّ المَلائكَة صَدْره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَمَّا كَوْنه وُلِدَ مَخْتُوناً مَسْروراً، فَيَحْتمل أَنْ يَكُونَ مِنْ هَذَا، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُونَ خِلْقَة، وَمِنْ هَذَا إِصْباحُه دَهِيناً كَحِيلا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، [إِلَى غَيْر ذَلك][4].

1 - عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري من الخزرج صحابي جليل، يعد من الأمراء والشعراء، كان يكتب في الجاهلية، وشهد العقبة، وهو أحد النقباء الاثني عشر، وشهد بدرا وأحدا والخندق والحديبية. وكان أحد الأمراء في وقعة مؤتة فاستشهد فيها. الأعلام/ 4 : 86.

2 - وردت في نسخة ك : عاصرها.

3 - القلم : 4.

4 - ساقط من نسختي ق و ك.

وَأَمَّا الأَفْعَال المُنْفصِلَة عَنْ ذَاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَشَقِّ القَمَر وَسُجُود الشَّجَر، وَنُزُول المَطَر وَإِينَاع الثَّمْر، وَغَيْر ذَلِك، وَمِنْ هَذَا النَّوْع مُعْظَم المُعْجزَات وَالآيَات، وَلاَ يَكَاد يُحْصَى.

وَأَمَّا الأَقْوَال المُنْفَصِلَة :

فَمِنْها : قَوْلُ الله جَلَّ اسْمُه فِي كُتُبه المُنَزَّلَة عَلَى أَنْبِيائه، وَفِي القُرْآن المُنَزَّل عَلَيْه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً، فَمِنْ ذَلك قَوْله تَبارَك وَتعَالَى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾[1] وَهَذِه شَهادَة وَاضِحَة، وَقَوْله تَعالَى :﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾[2]، وَقَوْله تَعالَى : ﴿ إِنَّآ 254 / أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا ﴾[3] الآية، وَقَوْله تَعالَى : ﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾[4]، إِلَى غَيْر ذَلِك مِمَّا يَكْثُرُ.

وَوَقَع مِنْ ذَلِكَ أَيْضاً فِي الكُتُب المُتقَدِّمَة، مَا فِيه الشِّفَاء وَالغُنْيَة، كَمَا قَالَ تَعالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[5]، فَهَذِه شَهادَة مِنَ الله تَعالَى فِي كِتَابه المُنَزَّل عَلَى مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِأَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَذْكُور فِي التَّوْرَاة وَالإِنْجِيل، وَقَدْ ظَفِر عُلَمَاء أُمَّته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِك كَمَا أَخْبَر الله بِه تَعالَى وَتَرْجَمُوهُ.

فَمِنْ ذَلِك فِي التَّوْرَاة، قَالَ الله تَعالَى لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، «إِنِّي أُقِيمُ لِبَنِي إِسْرائِيل مِنْ إِخْوَتِهِم نَبِيًّا مِثْلَك، أَجْعَل كَلامِي عَلَى لِسانِه، مَنْ عَصانِي انْتَقَمْتُ مِنْهُ»[6].

1 – الفتح : 29.
2 – آل عمران : 144.
3 – الفتح :8 .
4 – النساء : 79.
5 – الأعراف : 157.
6 – قارن بتلخيص المحصل : 308. وشرح المقاصد/ 5 : 42.

وَمَعْلُوم أَنَّ هَذَا النَّبِي المَوْعُود بِهِ، لاَ يَكُون مِنْ بَنِي إِسْرائِيل أَنْفُسِهم، حَتَّى يَتوَهَّم أَنَّهُ «يُوشَع» أَوْ غَيْره، بَلْ مِنْ إِخْوَتِهِم، وَإِخْوَتُهُم إِنَّمَا هُمُ العَرَب أَوِ الرُّوم.

أَمَّا الرُّوم، فَلَمْ يُعْرَف مِنْهُم نَبِيٌّ إِلاَّ أَيُّوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ قَبْلَ مُوسَى، فَعُلِمَ أَنَّ المُرَاد العَرَب، وَقَدْ انْتَقَم الله مِمَّن عَصَاه، مِنْ يَهُودٍ وَغَيْرِهِم[1]، كَقُرَيْظَة وَالنَّضِير وَغَيْرِهُم.

وَفِي التَّوْرَاة أَيْضاً : «جَاءَ الله مِنْ «طُورِ سِينَا»، وَأَشْرَق مِنْ «سَاعِينَ» وَاسْتَعْلَنَ مِنْ جِبَال[2] «فَارَان»»[3]، وَهِيَ مَكَّة بِاتِّفَاق النَّاس.

وَالمُرَاد بِمَجِيئِه وَإِشْراقِه وَاسْتِعْلانِه، مَجِيءُ شَرْعِه، وَإِشْراقُه وَاسْتِعلانُه عَلَى أَيْدِي الأَنْبِيَاء المَنْسُوبِينَ إِلَى تِلْك المَواضِع، وَهُم مُوسَى وَعِيسَى وَنَبِيّنا مُحَمَّد عَلَيْه وَعَلَيْهِما الصَّلاَة وَالسَّلاَم.

وَفِي التَّوْرَاة أَيْضاً : «أَنَّ مَوْلدَه بِمكَّة وَمَسْكَنه بِطِيبَة وَأُمَّته الحَمَّادُونَ»، إِلَى غَيْرِ هَذَا مِمَّا جَلَب العُلَمَاء وَهُوَ كَثِيرٌ.

وَفِي الإِنْجِيل مِنْ كَلام عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، يُخَاطِب الحَوَارِيِّينَ : «أَنَا ذَاهِبٌ عَنْكُم وَسَيَأْتِيكُم البَارَقْلِيط، الَّذِي لاَ يَتكَلَّم مِنْ قِبَلِ نَفْسِه، إِنَّمَا يَقُول كَمَا يُقَالُ لَهُ»[4].

وَهَذَا هُوَ الَّذِي وَصَف الله بِهِ نَبِيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ قَالَ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[5]، وَالبَارقَلِيط هُوَ نَبِيّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلسَانِهِم.

1 - وردت في نسخة ك : أو غيره.
2 - وردت في نسخة ح : جبل.
3 - قارن بتلخيص المحصل : 307.
4 - قارن بشرح المقاصد/ 5 : 43.
5 - النجم : 3-4.

وَقَد قَالَ الله تَعالَى فِي حَقِّ عِيسَى شَاهِداً لَهُ بِأَنَّهُ أَخْبَر بِنَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الإِفْصَاح: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[1].

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَر كَعْبُ الأَحْبَار[2]، أَنَّهُ وَجَدَه فِي الوَرقَتَيْن اللَّتَيْنِ خَزَنَ لَهُ أَبُوهُ، وَالقِصَّة مَشْهورَة فِي سَبَب إِسْلاَمِه، قَالَ: «فَلَمَّا اسْتَخْرَجْتُ الوَرَقتَيْنِ إِذْ فِيهِمَا مُحَمَّد رَسُول الله، خَاتمُ النَّبِيئِينَ لاَ نَبِيَّ بَعْدَه، مَوْلِدُه بِمَكَّة وَمُهَاجِره بِطَيبَة، لَيْس بِفَظٍ وَلاَ غَلِيظٍ، وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاق، وَلاَ يَجْزِي بِالسَّيِئَة السَّيِئَة، وَلَكِن يَجْزِي بِالسَّيئة الحَسَنَة، وَيَعْفُو وَيَغْفِر وَيَصْفَح.

أُمَّته الحَمَّادُون الَّذِينَ يَحْمَدُون الله عَلَى كُلِّ شَرَفٍ وَعَلَى كُلِّ حَال، وَتُذَلَّل أَلْسِنَتُهم بِالتَّكْبِير، وَيَنْصُر الله نَبِيَّهُم عَلَى كُلِّ مَنْ نَاوَاه، يَغْسِلُون فُروجَهُم بِالمَاء، وَيَأْتَزِرُون عَلَى أَوْساطِهم، وَأَنَاجِيلُهُم فِي صُدُورِهم، وَيَأْكُلُون قُرْبَانَهُم فِي بُطونِهِم وَيُؤْجَرُون عَلَيْها، وَتَراحُمُهم بَيْنَهُم تَراحُم بَنِي الأُمِّ وَالأَبِّ، وَهُم أَوَّل مَنْ يَدْخُل الجَنَّة يَوْمَ القِيامَة مِنَ الأُمَم، وَهُم السَّابِقُون المُقَرَّبُون، وَالشَّافِعُون المُشْفَع لَهُم»[3]. وَهَذَا غَايَة البَيَانِ وَالتَّصْرِيح، وَذَلِك كَانَ سَبَب إِسْلاَمِ كَعْب.

وَأَمَّا كَلاَم الأَنْبِيَاء فِي هَذَا فَشهِير أَيْضاً، مِنْهُ بَعْض مَا تَقدَّم، وَلاَ خَفَاء أَنَّهُم قَدْ بَشَّرُوا بِهِ قَوْمَهُم، بَلْ آمَنُوا بِهِ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ آدَم عَلَيْه السَّلاَم تَوَسَّل بِهِ إِلَى رَبِّه، حِينَ رَآه مَكْتُوباً عَلَى بَابِ الجَنَّة، وَتَحْتَ سَاق العَرْش[4].

---

1 – الصف : 6.
2 – سبقت ترجمته في ص : 19.
3 – نص منقول بأمانة من دلائل النبوة، وكذا سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد/ 1 : 118.
4 – راجع الصفحة 138 وما بعدها في شأن تخريج الأثر المتصل بهذه التقريرات.

255 / وَرُوِيَ عَنْ كَعْب الأَحْبَار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «أَوْحَى الله تَعالَى إِلَى مُوسَى عَلَيْه السَّلاَم فِي كَلاَم كَثِير قَالَ فِيهِ: «يَا مُوسَى احْمَدْنِي إِذْ مَنَنْت عَلَيْك مَعَ كَلامِي إِيَّاك بالإِيمَان بأَحْمَد، وَلَوْ لَمْ تَقْبَل الإِيمَان بأَحْمَد مَا جَاوَرْتَنِي فِي دَارِي، وَلاَ تَنَعَّمْت فِي جَنَّتِي، يَا مُوسَى جَمِيع المُرْسَلِين آمَنُوا بأَحْمَد وَصَدَّقُوه، وَاشْتَاقُوا إِلَيْه، وَكذلك مَنْ يَجِيء مِنَ المُرْسلِينَ بَعْدَكَ»» انْتهَى. وَكَفَى بِهَذا حُجَّة، وَالأَخْبَار فِي مِثْل هَذَا تَضِيق عَنْ حَمْلِهَا الدَّوَاوِينُ.

وَأَمَّا كَلامُ المَلائِكَة، فَكفَى بِهِ كَلام الأَمِين جبْرِيل عَلَيْه السَّلاَم، وَهُوَ الَّذِي أَيَّد وَظَاهَر وَنَاصَر وَآزَرَ، وَهَذا مِنْ بَاب زِيادَة التَّأْيِيد، وَالإِشَادَة لِلأَمْر، فَلاَ يَضُر كَوْن ذَلِك ثَبَت بإِخْبَارِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأَنَّ صِدْقَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَبَت بِمُعْجِزَات أُخْرَى.

وَأَمَّا كَلاَم غَيْر المَعْصُوم[1]، فَمِنْه كَلاَم الإِنْس، كَكلاَم شَق وَسَطِيح[2] وَسَيْف بْنُ ذِي يَزَن[3] وَتُبَّع[4] وَغَيْرُهم، وَقِصَصُهم فِي ذَلِك مَشْهورَة، فَلاَ نُطِيل بِهَا. ثُمَّ مِنْهُم مَن اسْتَنَد فِي ذَلِك إِلَى الجِنِّ، أَوْ إِلَى مَنِ اسْتنَد إِلَيْهِم، وَمِنْهُم مَن اسْتنَد إِلَى الكُتُب القَدِيمَة.

وَأَمَّا كَلام الجِنِّ فَكَثِيرٌ، كَردي سَواد بْن قَارب وَخنافر وَخطر وَصَاحب صَنَم العَبَّاس بْن مرْدَاس وَغَيْرهم، وَوقَائِعها مَشْهورَة أَيْضاً، وَالجِنُّ مِنْهُم مَن اسْتَنَد إِلَى المَلائِكَة فِي اسْتِرَاق السَّمْع، وَمِنْهُم مَن اسْتَنَد إِلَى الأَنْبيَاء، فَرَجَع الأَمْر كُلُّه إِلَى كَلاَم الأَنْبِياء وَكَلاَم المَلائِكَة عَنِ الله تَعالَى، وَهُوَ حَقٌّ.

---

1 - وردت في نسخة ك: معصوم.

2 - قال السهيلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان سطيح جسدا ملقى لا جوارح له فيما يذكرون. قال: وكذلك شق إنما له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة. سبل الهدى والرشاد/ 1 : 140.

3 - قصة بشارة سيف بن ذي يزن ملك الحبشة لعبد المطلب بن هاشم، بعد مولد حفيده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسنتين، جاءت مفصلة في كتب السيرة، كما هو الحال في كتاب سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد/ 1 : 148 وما بعدها.

4 - أحد الملوك الذي عزم على تخريب المدينة، راجع قصته في سبل الهدى والرشاد/ 1 : 141.

وَأَمَّا كَلاَمُ العَجْماوَات وَالجَمادَات فَكَثِير أَيْضاً، كَكلاَم الضَّب وَكَلام الذِّئْب، وَكلاَم الجَمَل وَكلاَم الحِمَار، وَغَيْر ذَلِك، وَقِصَصها مَشْهورَة أَيْضاً، وَكَكلام[1] الذِّرَاع وَتَسْبِيح الطَّعَام وَالحَصَى، وَتَسْلِيم الحَجَر وَتَأْمِين أَسْكُفَّة البَاب، وَحوَائِط البَيْت حَيْثُ دَعَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإِلَه[2]، وَقَوْل ثُبير اهْبِط يَا رَسُول الله عَنِّي، فَإِنِّي أَخافُ أَنْ يَقْتُلُوك عَلَيَّ فَيُعذِّبنِي الله، وَقَوْل «حِرَاء»[3] عِنْد ذَلِك يَا رَسُول الله هَلُمَّ إِلَيَّ، إِلَى غَيْر هَذَا مِمَّا يَكْثُر.

وَكِلاَ هَذيْن النَّوْعَيْن، أَعْنِي نُطْق العَجْماوَات وَنُطْق الجَمادَات، دَالٌّ عَلَى الصِّدْق، سَوَاء وَقَع فِيهِ التَّصْرِيح بِالشَّهادَة بِالرِّسالَة أَوْ لاَ، لأَنَّه خَارِق وَقَعَ عَلَى يَدِه، كَوُقوعِ انْشِقَاق القَمَر، وَإِقْبَال الشَّجَر تَسْعَى وَنَحْو ذَلِك.

غَيْر أَنَّ مِنْ ذَلِك مَا وَقَع التَّحَدِي بِهِ صَرِيحاً، وَمِنْه مَا لَمْ يَقَع بِهِ، إِلاَّ بِلسَان الحَال، وَيَلْتَحِق بِهَذا المَحَل، مَا كَانَ مِنْ نُطْق العَجْماوَات بِلِسَان الحَال، وَهُو أَيْضاً مِنْ قِسْم الأَفْعَال السَّابِق ذِكْره، وَذَلِك كَسُجُود الغَنَم لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَيْث دَخَل حَائِط الأَنْصارِي، فَقالَ أَبُو بَكْر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يَا رَسُول الله، نَحْنُ أَحَقُّ بِالسُّجود لَكَ مِنْها، فَإِنَّ سُجودَها فِي مَعْنَى التَّحِية».

وَكَالجَمَل فَإِنَّه كَانَ فِي الحَائِط صَعْبا، لاَ يَدْخُل أَحَد الحَائِط إِلاَّ شَدَّ عَليْه، فَلَمَّا دَخَل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضَع مِشْفَره بِالأَرْض وَبَرَك بَيْنَ يَدَيْه، فَقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا

---

1 – وردت في نسخة ك : وكلام.

2 – كذا وردت في جميع النسخ.

3 – المقصود به غار حراء حيث كان يتعبد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْض شَيْء إلاَّ يَعْلَم أَنِّي رَسُول الله»[1]، وَكَفِعْل الأَسَد بسَفِينَة[2] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَيْثُ ذَكَر لَهُ أَنَّهُ مَوْلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهَمْهَم وَتَنَحَّى عَنِ الطَّرِيق.

وَفِي رِوَايَة : فَكَانَ يَغْمِزُنِي بِمَنْكِبه حَتَّى أَقَامَنِي عَلَى الطَّرِيق، إِلَى غَيْر هَذَا مِمَّا يَكْثُر ذِكْرُه، وَالدَّوَاوِين مَشْحونَة بِهِ.

فَهَذِه اثْنَا عَشَر قِسْما، كُل قِسْم يَحْتوي عَلَى أَفْرَاد مِنَ المُعْجزَات وَالآيَات لاَ تَكَاد تَنْحصِر، وَلَوْ بَسَطْنَاها[3] لَمْ يَسَعْها إلاَّ دِيوَان مُفْرَد، وَفِي مَا ذَكَرْنَاه كِفايَة فِي الغَرَض مِنْ هَذا المَوْضُوع، وَالله المُوَفِّق وَالمُعِينُ.

256 / المَسْأَلَة التَّاسِعَة : فِي إِعْجَازِ القُرْآن

وَلاَشَك أَنَّهُ دَاخِل فِي جُمْلَة مَا مَرَّ آنِفاً مِنَ المُعْجزَات، غَيْر أَنَّا خَصَّصْنَاه بِالذِّكْر، لأَنَّهُ مُعْجزَته الخَاصَّة بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعْنَى ذَلك أَنَّهُ جَرَتْ سُنَّة الله تَعالَى، بِأَنْ يَبْعَث كُلَّ نَبي بِالمُعْجِزَة، مِنْ مَعْنَى مَا غَلَب عَلَى أَهْل زَمانِه، لِيَكُون عَجْزُهم عَنْ مُعارَضَتِها، أَوْضَح فِي الدِّلالَة عَلَى الصِّدْق.

فَكانَ مُوسَى عَلَيْه السَّلاَم، غَلَبَ عَلَى أَهْل زَمانِه عَمَل السِّحْر وَقَلْب الأَعْيَان، فَجعَل الله لَهُ اليَدُ بَيْضَاء وَالعَصَا ثُعبَانا، وَالمَسِيح عَلَيْهِ السَّلَامُ غَلَب عَلَى أَهْل زَمانِه عَمَل الطِّب، فَجعَله الله يُبْرِئ الأَكْمَه وَالأَبْرَص، وَنَبِيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَلَب عَلَى أَهْل زَمانِه الفَصاحَة وَالبَراعَة، فَأَيَّده الله بِالقُرْآن، البَالغ أَعْلَى دَرجَات الفَصاحَة، فَكَانَ مُعْجزَته الخَاصَّة الَّتِي تَحَدَّى بِهَا العَرَب، فَعَجَزوا عَنْ أَنْ يُعارِضُوه.

---

1 - أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين. والدارمي في كتاب المقدمة، باب : ما أكرم الله به نبيه من إيمان الشجر به والبهائم.

2 - أبو عبد الرحمن مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (ت : بعد سنة 70هـ) كان عبدا لأم سلمة فأعتقته، وشرطت عليه خدمة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما عاش، وسفينة لقب له، قيل إنه حمل مرة متاع الرفاق، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «ما أنت إلا سفينة» فلزمه ذلك. تهذيب سير أعلام النبلاء/ 1 : 92.

3 - وردت في نسخة ح : بسطتها.

وَقَد اخْتَلَف الأَئِمَّة فِي وَجْهِ عَجْزِهِم عَنْهُ، بَعْدَ الاتِّفَاق عَلى أَنَّهُم عَجزُوا. فَقِيل : مِنْ بَلاغَتِه وَفَصاحَتِه. وَقِيلَ : مِنْ نَظْمِه الغَرِيب، الخَارِج عَمَّا عَلَيْه العَرَب فِي خُطَبِها وَرسَائِلها وَأَشْعارِها. وَقِيل : مِن اشْتِمَالِه عَلَى دَقائِق العُلُوم، وَحقَائِق الحِكَم وَالمَصالِح. وَقِيل : مِنْ إِخْبارِه بِالمُغَيَّبات. وَقِيل : مِنْ سَلامَتِه عَنِ الاخْتِلاَف وَالتَّناقُض.

وَالصَّحِيح الأَوَّل، وَهُوَ مَذْهَب المُحَقِّقِينَ مِنَ العُلَمَاء، لأَنَّ البَلاغَة هِيَ فَنُّ العَرَب، وَحِرْفَتُهُم الَّتِي بِهَا يَتَبَارَوْن، وَفِي مَيْدانِها يَتَجارَوْن، فَفِيها يَحْسُنُ التَّحَدِّي وَيُطْلَب الإِعْجَاز كَمَا مَرَّ، فَوَجْه إِعْجَاز القُرْآن، هُوَ كَوْنُه فِي الطَّبقَة العُلْيَا مِنَ البَلاغَة، وَالنِّهايَة القُصْوَى مِنَ الفَصاحَة، عَلَى مَا يَعْرِفُه العَرَب وَيَعْتَرِفُون[1] بِهِ، بِمُقْتَضَى السَّلائِق، وَيَعْرِفُه غَيْرُهم مِمَّن تَشَرَّب مَاءَ البَيَان، وَتَشَرَّف بِمَحاسِن اللِّسَان، وَتَصَرَّف فِي تِلْك الحَقائِق، وَتعرَّف مَا لَهَا مِنْ طَرائِق.

وَالجُمْهُور أَنَّ ذَلِك خَارِج عَنْ طَوْق العَرَب، كَمَا خَرَج انْقِلاَب اليَدِ بَيْضَاء وَالعَصَا ثُعْباناً عَلَى تِلْك الحَالَة، عَنْ طَوْق السَّحرَة فِي حَقِّ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وَخَرَج إِبْرَاء الأَكْمَه وَالأَبْرَص مِنْ غَيْر مُعانَاة، عَنْ طَوْق الأَطِبَّاء فِي حَقِّ عِيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

«وَذَهَب النَّظام[2] وَكَثِير مِنَ المُعْتَزِلَة وَالمُرْتَضى مِنَ الشِّيعَة[3]، إِلَى أَنَّ الإِعْجَاز

---

1 – وردت في نسخة ق : ويتعرفون.

2 – إبراهيم بن يسار بن هانئ (ت : 231هـ). قال عبد القاهر البغدادي عند الكلام على النظامية والمعتزلة : ويوهمون أنه كان نظاما للكلام المنثور والشعر الموزون بكلام المعتزلة. الملل والنحل : 53.

3 – هم الذين شايعوا عليا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصا ووصية، إما جليا وإما خفيا، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عن أولاده وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية من عنده وهم خمس فرق : كيسانية، وزيدية، وإمامية، وغلاة، وإسماعيلية، وبعضهم يميل في الأصول إلى الاعتزال، وبعضهم إلى

كَانَ بِالصِّرْفَة، بِمَعْنَى أَنَّ العَربَ صُرِفُوا عَنْ مُعارَضَته مَعَ قُدْرتِهم عَلَيْها، إِمَّا بِسَلْبِ[1] قُدْرَتِهم، أَوْ بِسَلْب دَواعِيهم، أَوْ بِسَلْب العُلُوم الَّتِي لاَبُدَّ مِنْها، فِي الإِتْيَان بِمِثْل القُرْآن، بِمَعْنَى أَنَّها لَمْ تَكُن حَاصِلَة، أَوَ أَنَّها كَانَت حَاصِلَة فَأَزَالَها الله»[2].

وَاعْتُرِض هَذَا القَوْل، أَعْنِي القَوْل بِالصِّرْفَة، بِأَنَّ العَرَب إِنَّمَا كَانُوا يَتَعجَّبُون مِنْ حُسْنِ نَظْمِه وَجَزالَتِه، وَيَرْقُصونَ بِرُؤوسِهِم عِنْد سَمَاعِ نَحْو : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾[3] لِعُلوِّه عَنْ مَرَاقِيهِم، وَبُعْدِه عَنْ مَرامِيهِم، لاَ لِعَدَم تَأَتِّي المُعارَضَة مَعَ سُهولَتِها، وَبِأَنَّ الإِعْجَاز لَوْ قُصِد بِالصِّرْفَة، لَكَان الأَنْسَب تَرْك المُبالَغَة فِي بَلاغَتِه، لأَنَّهُ كُلَّمَا كَانَ أَنْزَل فِي البَلاغَة، وَأَضْعَف فِي بَابِ الفَصاحَة، وَأَدْنَى إِلَى الرَّكاكَة، كَانَ العَجْز عَنْهُ أَبْلَغ فِي خَرْق العَادَة، وَأَدل عَلَى الصِّدْق[4].

وَاعْلَم أَنَّ القُرْآن مَعَ كَوْنِه مُعْجِزا بِبلاَغَتِه، فَكُل مَا ذَكَرْنا أَيْضاً مِن اشْتِماله عَلَى الحِكَم وَالمَصَالِح، وَالإِخْبَار بِالمُغيَّبَات، وَغَيْر ذَلِك، آيَة عَظِيمَة، فَالقُرْآن مُعْجِز مِنْ جِهَات شَتَّى، وَإِنْ كَانَت البَلاغَة هِيَ الوَجْه الأَخَصُّ.

وَقَدْ ذَكَر أَئِمَّتُنا أَنَّ العَرَب، لَمَّا كَانَت عُلومُها ثَلاثَة : الأَوَّل الفَصاحَة <وَالبَلاغَةُ>[5]، الثَّانِي الكَهانَة[6] وَالعَيافَة[7]، الثَّالِث القَصَص[8] وَالأَخْبَار، جَاءَ القُرْآن

السنة، وبعضهم إلى التشبيه. الملل والنحل : 147-146.

1 - وردت في نسختي ق و ك : سلب.

2 - قارن بشرح المقاصد/ 5 : 28.

3 - تضمين للآية : 44 من سورة هود.

4 - قارن بشرح المقاصد/ 5 : 31.

5 - سقطت من نسخة ح.

6 - راجع علم الكهانة عند العرب في كتاب القانون لليوسي بتحقيقنا : 266.

7 - نفسه : 264.

8 - نفسه : 260.

257 / العَظِيم بِمَا يُبارِي هَذِه الثَّلاثَة، فَاشْتَمَل عَلَى الفَصاحَة، الَّتِي خَرَجَت عَنْ طَوْق المَصَاقع اللُّسْن، فَأَصْبَحوا عِنْدَها كَالأَعاجِم اللُّكْن، وَاشْتَمَل عَلَى الإِخْبَار عَن المُغَيَّبَات، وَلاَ يُخْبِر عَنْ شَيْء إلاَّ جَاءَ كَفَلَق الصُّبْح، وَاشْتَمَل عَلَى القَصَص وَالأَخْبَار الصَّحِيحَة الوَاقِعَة، لاَ كَخُرافَات الأَعْرَاب وَتُرَّهاتِها، الَّتِي يُقَدِّرونَها تَقْدِيراً فِي أَسْمَارِها، وَالبَحْث فِي هَذِه المَسْأَلَة يَطُول بِنَا، وَفِيمَا ذَكَرْنَاه كِفايَة.

المَسْأَلَة العَاشِرَة : فِيمَا يَجِب لِلأَنْبِيَاء مِنَ العِصْمَة

اعْلَم أَنَّ الأَنْبِيَاء مَعْصُومُون كُلهُم، وَمَعْنَى العِصْمَة، أَنَّ الله تَعالَى لاَ يَخْلُق لَهُم القُدْرَة عَلَى المَعْصِية أَصْلاً، فَلاَ تَقَع مِنْهُم مُخالَفَة فِي قَوْل وَلاَ فِعْل وَلاَ اعْتِقَاد، أَمَّا الكَذِب فِي الوَحْي فَمَنْفِي عَنْهُم عَقْلا بِدِلالَة المُعْجِزَة، الدَّالَة عَلَى صِدْقِهم. وَأَمَّا غَيْر ذَلِك مِنَ المُخالَفَات، فَمَنْفِي عَنْهُم بِالإِجْمَاع، وَلأَنَّهُم لَوْ صَدَرَت مِنْهُم مُخالَفَة لَتَّبِعُوا فِيهَا، فَتكُون لِلتَّابِع طَاعَة، وَالفَرْض أَنَّها مُخالَفَة، هَذَا خُلْفٌ.

وَلِهَذا ذَهَب المُحقِّقونَ إِلَى أَنَّهُ لاَ تَجُوز عَلَيْهِم الصَّغائِر، كَمَا لاَ تَجُوز عَلَيْهِم الكَبائِر، لاَ عَمْداً وَلاَ سَهْواً، إِذْ لاَ فَرْق، وَكُل مَا نُسِب إِلَى الأَنْبِياء مِمَّا يُوهِم ذَلِك فَمُؤَوَّل، وَهَذا كُله مَذْهَب أَهْل السُّنَّة خِلاَفاً لأَهْل الأَهْوَاء.

وَقَدْ عُلِم مِنْ وُجُوب العِصْمَة لَهُم، أَنَّهُم لاَ يَصْدُر مِنْهُم كَذِب، وَلاَ تَبْدِيل فِي الشَّرْع، وَلاَ كِتْمَان لِشَيْء مِمَّا أُمِرُوا بِتَبْلِيغِه، وَلاَ تَبْلِيغ شَيْء مِمَّا نُهُوا عَنْ تَبْلِيغِه، لأَنَّ ذَلِك كُلَّه مُحَرَّم فَهُو مَعْصِية.

وَإِذَا عُلِم هَذَا فِي حَقِّ الأَنْبِيَاء جُمْلَة، عُلِمَ ثُبوتُه فِي حَقِّ نَبِيِّنَا مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُو خَاتِم الأَنْبيَاء، فَهُو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَحِيل عَلَيْه الكَذِب، وَيَسْتَحِيل عَلَيْه أَنْ يَكْتُم شَيْئاً مِمَّا أُمِر بِتَبْلِيغِه، وَأَنْ يُقِرَّ أَحداً عَلَى مُنْكَر، لأَنَّ السُّكُوت عَلَى مُنْكَر

رِضًى بِهِ، وَيَسْتَحِيل عَلَيْه أَنْ يَقَع مِنْه شَيْء مِنَ المُخالَفَات أَصْلاً، وَفِي الاشْتِغَال بِهذِه المَسْأَلَة مَا يُطِيل أَيْضاً، فَلْنَكْتَف بِهَذا القَدَر.

{الكَلاَمُ فِي السَّمْعِيات}

وَقَد بَقِي مِنْ مَسائِل النُّبوءَات الكَلاَم فِي السَّمْعِيَات، فَإِنَّ النَّبِيَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا عُلِمَ صِدْقُه بِتَصْدِيق الله لَهُ بِالمُعْجِزَات كَمَا مَرَّ، عُلِم أَنَّ كُلَّ مَا أَخْبَر بِهِ فَهُو حَقٌّ، لاسْتِحَالَة الكَذِب عَلَيْه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَنْقسِم ذَلِكَ قِسمَين :

الأَوَّل : مَا يُعْلَم صِدْقُه بِالعَقْل أَيْضاً، كَمَا لَوْ أَخْبَر بِوُجُود الله تَعالَى، وَكَوْنه عَالِماً قَادِرا، أَوْ نَحْو ذَلِك، وَبكَوْنه تَعالَى قَادِراً أَنْ يَنْعَم عَلى عِبَاده، وَأَنْ يُعذِّبَهُم وَأَنْ يُعِيدَهُم كَمَا بَدَأَهُم، وَأَنَّ ذَلِك وَنَحْوه جَائِز، لاَ يَتعاصَى عَلَى قُدْرتِه سُبحَانَه وَتعالَى، إِنْ أَرادَ أَنْ يَفْعلَه.

فَلاَشَكَّ أَنَّ هَذا القِسْم يُصَدَّقُ فِيهِ الرَّسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمُقْتَضى المُعجزَات، فَكَيْف وَقَد شَهِدَت <لَهُ>[1] البَرَاهِين النَّظَرِية، فَقَد تَطابَق فِيهِ العَقْل وَالنَّقْل، وَمِنْ هَذَا القِسْم مَا تَتَوَقَّف المُعْجزَة عَلَى حُصولِه لِلنَّاظِر فِيهَا، كَوُجودِ الله تعالَى وَعِلْمِه وَقُدْرَته وَحَياته، فَلابُدَّ مِنَ النَّظَر العَقْلِي فِيه، وَحَيْثُ ثَبَت عِنْدَ النَّاظِر، ثُمَّ ثَبَت صِدْق الرَّسُول فَأَخْبَر بِذَلِك، فَلاَ إِشْكَال فِي تَصْدِيقِه، لأَنَّهُ قَدْ أَخْبَر بِمَا عَلِمَ كَوْنَه حَقّا، فَهُوَ صَادِقٌ.

القِسْم الثَّانِي : مَا لاَ يُعْرَف إِلاَّ مِنْ تِلْقَاء الرَّسُول، لِكَوْنه لاَ مَجَال لِلنَّظر فِيه، فَيَجب تَصْدِيقه أَيْضا فِيه، لِدلاَلَة المُعْجزَة عَلَى صِدْقه فِي كُلِّ أَخْبارِه، وَذَلِك مِثْل وُقُوع شَيْء مِنَ الجَائِز المَذْكُور فِي القِسْم الأَوَّل.

---

1 - سقطت من نسخة ح.

كَوُقوعِ فِتْنَةِ القَبْر، وَقِيَام السَّاعَة، وَبَعْث النَّاسِ مِنَ القُبُور وَحَشْرِهِم، وَالعَرْض وَالمِيزَان، وَالصِّرَاط وَالحَوْض، وَالجَنَّة وَالنَّار، وَالشَّفاعَة، فَإِنَّ هَذِه الأُمُور وَنَحْوها لاَ مَجَال لِلعَقْل فِي إِثْباتِها، فَإِنَّ مُنْتَهَى النَّظَر فِيهَا جَوَاز الوُقُوع، كَمَا مَرَّ فِي القِسْم الأَوَّلِ.

258 / أَمَّا نَفْس الوُقُوع، وَمْعرِفَة أَعْيانِها وَتفَاصِيلِها، فَلاَ يُعْرَف إلاَّ مِنَ السَّمْع، وَهُو كَلاَم الرَّسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلِذَلِك يُعبَّر عَنْ هَذَا النَّوْع بِالسَّمْعِيَات، وَالكَلاَم فِيهَا طَوِيل الذَّيْل، وَنَحْن إِنْ شَاءَ الله تَعالَى نَخْتصِر ذَلِك فِي جَامِعَة، تكُون خَاتِمَة لِهَذا المَجْمُوع، مُشْتمِلَة عَلَى فَوائِد أُخْرَى هِيَ تكْمِلَة لِهَذا المَوْضُوع.

خَـاتِـمَـةُ

وَفِيهَا مَطْلَبَانِ

المطلب الأول

{أَرْكَانُ الدِّين ثَلاثَة : الإِيمَان والإِسْلاَم والإِحْسَان}

اعْلَم أَنَّ أَرْكَان الدِّين ثَلاثَة : الإِيمَان، وَالإِسْلاَم، وَالإِحْسَان، عَلَى مَا وَقَعَ تَفْسِيرهَا فِي حَدِيث جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَقدَّم ذِكْر الإِيمَان وَالإِسْلاَم، فِي آخِرِ النِّصْف الأَوَّل مِنَ الكِتَاب[1]، وَلاَبُدَّ هَاهُنَا مِن اسْتِيفَاء مَا بَقِيَ مِنَ الكَلاَم عَلَيْهما عَلَى وَجْه الإِيجَاز، وَالاقْتِصَار عَلَى المُهِم، دُونَ التَّعرُّض لِكَثِير مِنَ المَباحِث المَذْكورَة فِي المُطوَّلاَت.

{تَعْرِيفُ الإِيمَان لُغَةً وَشَرْعاً}

فَنقُول : أَمَّا الإِيمَان فَهُو فِي اللُّغَة التَّصْدِيق كَمَا مَرَّ، وَأَمَّا فِي الشَّرْع، فَهُو تَصْدِيق خَاصٌّ عِنْد جُمْهورِ المُحقِّقِينَ، وَالمُرَاد بِهِ التَّصْدِيق بِمَا عُلِم مَجِيء الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِ ضَرورَة، إِجْمالاً فِيمَا يُطْلَب فِيه الإِجْمَال، وَتَفْصِيلاً فِيمَا يُطْلَب فِيهِ التَّفْصِيل، بِمَعنَى أَنَّهُ لاَبُدَّ مِنَ التَّصْدِيق، بِأَنَّ كُلَّ[2] مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُول عَلَى الجُمْلَة حَقٌّ، وَمَنْ أَنْكَر هَذَا فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَتَى وَقَعَ الخَوْض فِي جُزْئِية بِعَيْنِها مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُول، فَلاَبُدَّ مِنَ التَّصْدِيق بِهَا بِعَيْنِها أَيْضاً، وَمَنْ أَنْكرَها فَهُوَ كَافِر، إِنْ كَانَت مِمَّا عُلِمَ مَجِيء الرَّسُول بِهِ ضَرُورَة، وَإِنْ كَانَت غَيْر مَقْطُوع بِهَا، أَوْ كَانَت فِي مَحَلِّ الاجْتِهَاد، وَاخْتِلاَف التَّأْوِيل، فَلاَ يَكْفُر مُنْكِرُهَا.

---

1 - لمزيد البيان والتفصيل لكلام اليوسي في الموضوع يراجع الفصل الخامس : في بيان حكم هذه الكلمة من الجزء الأول

2 - وردت في نسخة ق : كان.

وَاعْتُرِض هَذَا التَّعْرِيف، بِأَنَّ المُسْتَخفَّ بِالشَّرِيعَة، وَالمُلْقِي المُصْحَف فِي القَذر، وَالمُتزَيِّي بزَيِّ الكُفَّار، كَشَدِّ الزُّنَّار وَنَحْو ذَلِك اخْتِيَاراً كَافِر اتِّفَاقاً، وَإِنْ كَانَ مُصَدِّقا لِلرَّسُول فِي كُلِّ مَا جَاءَ بِهِ، فَيبطُل عَكْس التَّعْرِيف، وَإِنْ جُعِلَت هَذِه الأُمُور عَلامَة لِلتَّكْذِيب، لِكَوْنِها مُخالِفَة لِلشَّرْع، وَجَب أَنْ تَكُون المَعَاصِي كُلُّها كُلها كَذَلِك، فَيَكُون الفَاسِق كَافِراً، وَبِأَنَّ صَاحِب التَّأْوِيل فِي الأُصُول إِمَّا أَنْ يُجْعَل مِنَ المُكذِّبِينَ، فَيلزَم تكْفِير كَثِير مِنْ أَهْل القِبْلَة مِنْ أَهْل الأَهْوَاء، وَمِنْ أَهْل الحَقِّ فِيمَا يَخْتلِفُون فِيهِ مِنَ الأُصُول، وَإِنْ لَمْ يُجْعَل مُكَذباً لَزِم أَنْ يُعْذَر كُلُّ مُتَؤَوِّل، فَلاَ يُكَفِّر مَنْ قَالَ بِقِدَم العَالَم، وَبِعدَم حَشْر الأَجْسَاد، وَعدَم عِلْم البَارِي تَعالَى بِالجُزْئِيات، وَنَحْو ذَلِك مِمَّا هُوَ كُفْر بِاتِّفَاق.

وَأُجِيبَ عَنِ الأَوَّل، بِأَنَّهُ بَعْدَ تَسْلِيم صِحَّة وُجُود التَّصْدِيق المُعْتَبَر فِي الإِيمَان، مَعَ وُجُود ارْتِكَاب الأُمُور الَّتِي هِيَ كُفْر بِالاتِّفَاق، يَجُوز أَنْ يَجْعَل الشَّارِع بَعْض المَحْظُورَات عَلامَة عَلَى التَّكْذِيب، فَيُحْكَم بِكُفْر مُرْتَكِبها، كَالاسْتِهزَاء بِالشَّرِيعَة، وَشَدِّ الزُّنَار، وَبَعْضها غَيْر عَلامَة، كَالزِّنَى وَشُرْب الخَمْر، وَمِنَ الجَائِز أَنْ يَكُون بَعْض ذَلِك مُتَّفقاً عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَحَد القِسْمَيْن، وَبَعْضُه مُخْتلَفاً فِيهِ، فَيُخْتلَف فِي التَّكْفِير بِحَسَبِه، وَتَفْصِيل ذَلِك مَوْكُول إِلَى كُتُب الأَحْكَام[1].

وَعَنِ الثَّانِي، بِأَنَّهُ كَذَلِك أَيْضاً التَّأْوِيل يَخْتَلِف، فَرُبَّ نَصٍّ يُعْلَم أَنَّه مُرَاد بِهِ ظَاهِرُه عِنْد الشَّارِع قَطْعاً، فَتَأْوِيلُه تَكْذِيبٌ، وَرُبَّ نَصٍّ لاَ يَكُون كَذَلِك، فَلاَ يَكُون تَأْوِيلُه تَكْذِيباً، وَرُبَّ نَصٍّ يُخْتَلَف فِيه، وَلِهذَا اخْتَلَف العُلمَاء فِي أَهْل التَّأْوِيل مِنْ أَهْل الأَهْوَاء، وَالَّذِي نَحَا إِلَيْه المُحقِّقُون مِنْ أَعْلاَم المِلَّة، تَرْك القَوْل بِتَكْفِير المُتأَوِّلِينَ

1 - قارن بشرح المقاصد/ 5 : 225.

259 / مِنْ أَهْلِ القِبْلَة، تَفادياً عَنْ رُكوبِ الخَطَرِ بِالتَّحكُّم عَلَى النَّاسِ، بِأَمْرٍ عَظِيم بِغَيْرِ بُرْهَانٍ بَيِّنٍ، وَلأَنَّ جَمِيعَهم قَدْ شَهِدُوا شَهادَةَ الحَقِّ، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولوا لاَ إِلَه إِلاَّ الله، فَإِذَا قَالُوها عَصمُوا مِنِّي دِماءَهم وَأَمْوالَهم إِلاَّ بِحَقِّها»[1] الحَدِيث.

فَالعِصْمَة مُتَيَقَّنَة، وَالخُرُوج عَنْها مَشْكُوكٌ، <حَتَّى>[2] قَالَ القَاضِي أَبُو بَكْر البَاقِلاَّنِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَلَى مَا حُكِيَ عَنْه[3] القَوْل عِنْدَنا: «أَنَّ الكُفْر بِالله هُوَ الجَهْل بِوُجودِه» وَرُبَّما قَالَ: «هُوَ الجُحُود بِالله، وَالإِيمَان بِالله هُوَ العِلْم بِوُجودِه، وَلاَ يَكْفُر أَحَد بِقَوْل وَلاَ رَأْيٍ، إِلاَّ أَنْ يَكُون هُوَ الجَهْل بِالله، فَإِنْ عَصَى بِقَوْلٍ أَوْ فِعْل نَصَّ الله وَرَسُولُه، أَوْ أَجْمَعَ المُسْلِمون، أَنَّه <لاَ>[4] يُوجَد ضَرُورَة إِلاَّ مِنْ كَافِر، أَوْ يَقُوم دَلِيل عَلَى ذَلِك، فَقَدْ كَفَر، لَيْس لأَجْل قَوْلِه أَوْ فِعْلِه، لَكِن لِمَا يُقارِنُه مِنَ الكُفْر.

{الكُفْرُ بِاللهِ لاَ يَكونُ إِلاَّ بِأَحدِ ثَلاثَة أُمُور}

فَالكُفْر بِالله لاَ يَكُون إِلاَّ بِأَحَد ثَلاَثَة أُمُور: أَحَدُها الجَهْل بِالله تَعالَى، وَالثَّانِي أَنْ يَأْتِي فِعْلا أَوْ يَقُول قَوْلا يُخْبِر الله وَرَسُولُه أَوْ يُجْمِع المُسْلِمُون، أَنَّ ذَلِك لاَ يَكُون إِلاَّ مِنْ كَافِر، كَالسُّجُود لِلصَّنَم، وَالمَشْي إِلَى الكَنَائِس بِالتِزَام الزَّنَانِير، وَزِيِّ أَصْحابِهَا فِي أَعْيادِهِم، أَوْ يَكُون <ذَلِك>[5] القَوْل أَوِ الفِعْل، لاَ يُمْكِن مَعَه العِلْم بِالله، فَهذَان الضَّرْبَان، وَإِنْ لَمْ يَكُونا جَهْلا بِالله، فَهُما عُلِم أَنَّ فَاعِلَهُما كَافِر مُنْسلِخ مِنَ الإِيمَان» انْتَهَى.

1 - سبق تخريجه في ص: 111.
2 - سقطت من نسخة ك.
3 - وردت في نسخة ح: عليه.
4 - سقطت من نسخة ك.
5 - سقطت من نسخة ح.

قُلْت : وَالحَقُّ إنْ شَاءَ الله تَعالَى هُوَ مَا ذَهَب هَؤُلاَءِ الأَئِمَّة إِلَيْه رِضْوَان الله عَلَيْهِم، وَلَعَمْرِي أَنَّ الاحْتِيَاط فِي مِثْل هَذَا الأَمْر، هُوَ أَهَمُّ شَيْءٍ وَأَوْلاَه بِالمُراعَاة، وَفِي الصَّحِيح عَنْ ثَابِت ابْن الضَّحَاك[1] عَنِ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : «لَعْنُ المُؤْمِن كَقَتْلِه وَمَنْ رَمَى مُؤْمِناً بِكُفْر فَهُو كَقَتْلِه»[2]، وَفِي صَحِيح البُخَارِي أَيْضاً عَنْ أَبِي هُرَيْرة عَنِ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : «إِذَا قَالَ الرَّجُل لأَخِيه يَا كَافِر فَقَدْ بَاءَ بِه أَحَدُهُمَا»[3]. وَفِيه أَيْضاً عَنِ ابْنِ عُمَر[4] رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بِلَفْظ آخَرَ عَنِ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «أَيُّما رَجُل قَالَ لأَخِيه يَا كَافِر فَقَدْ بَاءَ بِه أَحَدُهُما»، وَحَمَلَهُ البُخَارِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى ظَاهِرِه، مِنْ أَنَّ القَائِل يَكْفُر إِذَا لَمْ يَصْدُق.

وَقَد تَمَسَّك الإِمَام الرَّازِي[5] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي هَذَا المَطْلَب، «وَهُو اخْتِيَارُ أَنَّهُ لاَ يَكْفُر أَحَد مِنْ أَهْل القِبْلَة، بِأَنَّهُ لَوْ تَوَقَّف صِحَّة الإِيمَان عَلَى اعْتِقَاد الحَقِّ فِي تِلْك الأُصُول، لَكَان النَّبِي وَمَنْ بَعْدَه يُطالِبُون بِهَا مَنْ آمَنَ، وَيُفَتِّشُون عَنْ عَقَائِدِهم فِيهَا، وَيُنَبِّهُونَهُم عَلَى مَا هُوَ الحَقُّ مِنها، وَاللاَّزِم مُنْتَفٍ قَطْعاً»[6].

قالَ سَعْد الدِّين التَّفْتَازَانِي رَحِمَهُ اللهُ : «وَلِقَائِل أَنْ يُجِيب عَنْ تَمَسُّك الإِمَام بِمَنْع المُلازَمَة، فَإِنَّ التَّصْدِيق بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِي إِجْمَالا كَافٍ فِي صِحَّة الإِيمَان، وَإِنَّمَا يُحْتَاج إِلَى بَيَان الحَقِّ فِي التَّفاصِيل عِنْد مُلاحَظتِها، وَإِنْ كَانَت مِمَّا لاَ خِلاَف فِي تَكْفِير المُخالِف فِيهَا، كَحُدوثِ العَالَم، فَكَمْ مُؤْمِن لَمْ يَعْلَم مَعْنَى الحُدُوث

---

1 – ثابت بن الضحاك بن خليفة بن ثعلبة بن عدي كرب بن عبد الأشعل، الأنصاري «3/ 45هـ». شهد بيعة الرضوان. كان رفيق الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الخندق. الإصابة/ 1 : 2-1 .

2 – أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب : من كفر أخاه من غير تأويل. ومالك في كتاب الكلام، باب : ما يكره من الكلام.

3 – أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب : من كفر أخاه من غير تأويل.

4 – سبقت ترجمته في ص : 24.

5 – سبقت ترجمته في ص : 183.

6 – قارن بشرح المقاصد/ 5 : 229.

وَالحَادث وَالقَديم أَصْلا، وَلَمْ يَخْطُر بِبَاله حَديث حَشْر الأَجْسَاد قَطْعاً، لَكِن إِذَا لاَحظَ ذَلك، فَلَوْ لَمْ يُصَدِّق كَانَ كَافِراً »[1] انْتَهَى.

قُلْتُ : وَفِي اعْتِرَاض السَّعْد بَحْثٌ، وَهُوَ أَنْ يُقَال : إِنَّ كَوْن الإِسْلاَم وَالتَّصْدِيق الإِجْمالِي بِالنُّطْق بالشَّهادَتَيْن كَافِياً، إِنَّمَا هُوَ لِكَوْنِه أَمارَة عَلَى الإِيمَان المَقْبُول، وَلاَ يَكُون أَمارَة إِلاَّ مَعَ الجَهْل بِمَا وَرَاءَه، أَوْ العِلْم بِوُجُود المَطْلُوب مِنَ الإِيمَان، لَكِن كَثِير مِمَّنْ أَسْلَم إِذْ ذَاكَ قَدْ عُلِم مِنْ حَالِه عِلْماً يَقِينِياً، أَوْ ظَنَّ ظَنّاً قَرِيباً مِنَ اليَقِين، أَنَّهُ غَيْر عَارِف بِكَثِير مِنْ تِلْك التَّفَاصِيل المَذْكُورَة فِي عِلْم العَقَائِد، 260 / وَإِذَا لَمْ يَعْرِفْه لَمْ يَعْتَقِد الحَقَّ فِيه، لأَنَّ الاعْتِقَاد فَرْع التَّصَوُّر.

فَلَو كَانَ الإِيمَان[2] مَوْقُوفا عَلَى اعْتِقَاد الحَقِّ فِي هَذِه الجُزْئِيَات، لَكَانَ مِنَ الوَاجِب عَلَى النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ مَنْ بَعْدَه تَنْبِيهَ مَنْ عُلِم مِنْ حَالِه هَذَا مِنَ النَّاس، بَلْ وَمَنْ شَكَّ فِيه أَيْضاً، لأَنَّ الأَصْلَ عَدَم الاعْتِقَاد وَعدَم المَعْرِفَة، فَإِنَّ الجَهْل أَصْل الإِنْسَان، وَلاَ يَجُوز أَنْ يُقَال : يُتْرَك كَمَا تُرِك المُنافِقُون، مَعَ العِلْم بِكُفْرِهِم البَاطِن، لأَنَّ المُنافِقِينَ مُعانِدُون، فَلاَ مَعْنَى لِتَعْلِيمِهِم، وَإِنَّما لَمْ يُقْتَلُوا إِذْ ذَاكَ لِلمَصْلَحَة الَّتِي أَشارَ إِلَيْها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ قَالَ : «لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحمَّداً يَقْتُل أَصْحابَهُ»[3]، بِخِلاَف غَيْرِهِم مِمَّنْ لَمْ يُعانِد، بَلْ جَاءَ مُسْلِماً طَالِباً لِلدِّين، مُرِيداً لِلخَيْر، مُسْتَرْشِداً إِلَى الحَقِّ، فَالوَاجِب تَعْلِيمه وَالنَّصِيحَة لَهُ، كَمَا عُلِّم الفَرائِض مِنْ صَلاة، وَمَا تَصِحُّ بِهِ مِنَ الطَّهارَة، وَغَيْر ذَلك.

فَالإِيمَان الَّذِي هُوَ الأَسَاس، وَلاَ صِحَّة لِدِين وَلاَ عِبادَة وَلاَ نَجاة إِلاَّ بِه، أَوْلَى أَنْ يُعْتَنَى بِتَعْلِيمه وَتَعْلِيم مَا لاَ يَصِح إِلاَّ بِه، وَحَيْث لَمْ يُعلِّمُوهُم ذَلِك، عُلِم أَنَّهُ لَيْسَ دَاخِلاً فِي الإِيمَان، وَلاَ الإِيمَان مَوْقوفاً عَلَيْه، وَهُوَ المَطْلُوب.

---

1 - شرح المقاصد/ 5 : 229.

2 - وردت في نسخة ح : الحق.

3 - أخرجه البخاري في كتاب الوصايا، باب : قولك إذا جاءك المنافقون.

وَيُجَاب بِأَنَّ تَكْفِيرَ أَهْل التَّأْوِيل عِنْدَ مَنْ كَفَّرهُم، إِنَّمَا هُوَ لِمَا وَقَع لَهُم فِي هَذِه الجُزْئِيَات مِنَ النِّزَاع وَالإِنْكَار، وَهَؤُلاَء الَّذِينَ أَسْلَمُوا وَاكْتُفِيَ مِنْهُم بِالتَّصْدِيق الإِجْمَالِي، لَمْ يُعْلَم أَنَّ أَحداً مِنْهُم وَقَع لَهُ نِزَاعٌ فِي جُزْئِية مِنْ تِلْك التَّفاصِيل، وَغَايَة مَا يَقَعُ لَهُم الجَهْل فِيهَا، وَلَيْس الجَاهِل كَالمُنْكِر، وَهذَا هُوَ المَفْهُوم مِنْ كَلاَم السَّعْد أَوَّلاً، وَهُوَ صَرِيحُ كَلامِه آخِراً، وَهَذَا الأَمْر لاَ نِزَاعَ فِيهِ، وَلِذَلِك صَحَّ لَهُ أَنْ يَعْتَرِض بِهِ عَلَى الإِمَام، وَكَذَلِك ذَكَر هُوَ وَغَيْرُه فِي تَعْرِيف الإِيمَان، حَيْث قَالُوا التَّصْدِيق إِجْمالاً، فِيمَا يَطْلُب فِيهِ الإِجْمَال، وَتَفْصِيلاً فِيمَا يَطْلُب فِيهِ التَّفْصِيل.

وَحَاصِلُه أَنَّ الَّذِي لاَبُدَّ مِنْه فِي إِيمَان العَبْد، هُوَ أَنْ يُصَدِّق بِكُلِّ مَا جَاءَ بِه الرَّسُول عَنِ الله تَعالَى، وَيَعْتَقِد أَنَّهُ حَقٌّ عَلَى العُمُوم، ثُمَّ كُلَّما بَلَغَتْه مَسْأَلَة مِنْ هَذَا المَجْمُوع، وَجَب عَلَيْه أَنْ يُصَدِّق بِهَا بِعَيْنِها، لأَنَّها مِنْ جُمْلَة مَا صَدَّق بِه أَوَّلاً، وَأَمَّا مَا لَمْ يَبْلُغه وَلاَ عَثَر عَلَيْه مِنْهَا، فَلاَ يَكُون جَهْلُه بِهَا قَادِحاً فِي إِيمانِه، لأَنَّهُ لَمْ يُنْكِرُه، بَلْ هُوَ دَاخِل فِي ضِمْن مَا صَدَّق بِه إِجْمالاً، وَلاَ يَلْزَم بِالتَّصْدِيق بِهِ عَلَى التَّعْيِين إِلاَّ إِذَا اطَّلَع عَلَيْه، اللَّهُم إِلاَّ مَا تَتَوَقَّف صِحَّة المُعْجزَة عَلَيْه، مِنْ وُجودِ الله تَعالَى، وَكَوْنُه عَالِماً قَادِراً، حَيًّا مُرِيداً، وَنَحْو ذَلِك، وَهذَا أَمْرٌ وَاضِحٌ بَيِّنٌ.

{ظُهُور فِرْقَة سِجِلْمَاسَة المُغَالِية فِي أُمُور الدِّين فِي زَمَن المُؤَلِّف}

وَقَدْ نَجم[1] فِي زَمانِنا قَوْم[2] مِنْ سِجِلْمَاسَة، حَسِبُوا أَنْفُسَهُم قَدْ تَمكَّنُوا فِي العِلْم وَالحَداقَة، وَهُم إِنَّمَا نَبَغُوا فِي الجَهْل وَالحَماقَة، تَصَدَّوْا فِي زَعْمِهِم لِتَعْلِيم النَّاس عَقائِد التَّوحِيد، فَجَعلُوا يُلْقُون إِلَى العَامَّة الحَقائِق الَّتِي يَخُوض فِيهَا المُتكَلِّمُون، وَيُطالِبُوهُم بِالدَّقائِق الَّتِي يَحَار فِي بَعْضِها النَّاظِرُون، ثُمَّ جَعلُوا يَسْأَلُون العَامَّة

---

1 - نجم : ظهر.

2 - مر معنا بحث هذه الطائفة المغالية في أمور العقائد، والوقوف على بعض أعلامها ومن تصدى لبطلان نحلتهم من علماء القرن الحادي عشر الهجري، ومنشأ فتنتهم تاريخيا بشكل مسهب وذلك في الجزء الأول.

عَمَّا يَعْتقِدُون، فَإذَا وَجَدُوا وَاحِداً مِنْهُم جَاهِلاً بِبَعْض مَا يَعْتَقد ضَلَّلُوه وَشَنَّعُوا عَلَيْه، وَرُبَّمَا رَمَوْهُ بالكُفْر، وَإنْ كَانَ غَيْر مُنازِع وَلاَ مُنْكِر مَا عُلِمَ مِنَ الدِّين ضَرورَة، وَحَكمُوا عَلَى غَيْره مِنَ العَامَّة بذَلِك، عَلَى ضَرْب مِنَ القِيَاس، فَأشَاعُوا أَنَّ جُلَّ العَامَّة كُفَّار أَوْ كُلَّهم، وَأَشاعُوا أَنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِف التَّوْحِيد، <أَوْ أَنَّ>[1] مَنْ لَمْ يَقْرَأ التَّوْحِيد فَهُو كَافِر، وَمَنْ لَمْ يَعْرِف مَعْنَى لاَ إِلَه إلاَّ الله فَهُوَ كَافِر اتِّباعاً لِمَا وَقَع فِي فَتْوَى [عُلماءِ][2] بِجايَة[3].

261 / فَدَخَل عَلَى العَامَّة بِذَلِك هَوْلٌ عَظِيمٌ، وَصارُوا فِرَقاً :

مِنْهُم مَنْ يَعْتَقِد أَنَّ [مَعْنَى][4] قِراءَة التَّوْحِيد، هُوَ دَرْس الكُتُب المُؤَلَّفَة فِيه، عَلَى صَنِيع طَلبَة العِلْم، وَإنْ لَمْ يُحْسِن ذَلِك فَهُو كَافِر، وَإنْ كَانَ مُطْمَئِن القَلْب بِالإِيمَان، مَلآن الصَّدْر بِالعِرْفَان.

وَمِنْهُم مَنْ يَعْتَقِد أَنَّ مَعْرِفَة مَعْنَى «لاَ إِلَه إلاَّ الله»، هُوَ أَنْ يَفْهَم مَعْناهَا مِنْ عِبارَتِها، بِقَانُون التَّفْسِير اللُّغَوي، وَإنْ لَمْ يَعْرِف ذَلِك فَهُو كَافِر، وَإنْ كَانَ يَعْرِف أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ لاَ شَرِيك لَهُ، وَأَنَّ مُحمَّدا رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَمِنْهُم مَنْ سَمع ذَلِك، فَتوَهَّم أَنَّ التَّوْحِيد الوَاجِب، غَيْر هَذَا التَّوْحِيد المَعْرُوف، فَجَعل يَقُول هَلْ يَكفِينِي مَا أَعْرِفُ؟، وَرُبَّمَا قَالَ مَا أَعْرِفُه هَلْ هُوَ صَحِيحٌ أَمْ لاَ؟ فَيَشُكُّ وَيَكْفُر، عِيَاذاً بِاللهِ بَعْد أَنْ كَانَ مُؤْمناً، وَهَذِه كُلها أُمُور بَشِيعَة شَنِيعَة، أَدَّى إِلَيْها اقْتِحَام الأُمُور بِلاَ بَصِيرَة.

1 - ساقط من نسخة ح.
2 - سقطت من نسختي ق و ك.
3 - المقصود بعلماء بجاية : عبد الرحمن الوغليسي، ومحمد بن عيسى، راجع الفتوى الصادرة عنهم في حق من ينطق بكلمة التوحيد ولا يعرف معناها في الجزء الأول من الكتاب : 476 وما بعدها.
4 - سقطت من نسختي ق و ك.

ثُمَّ بَنَوْا عَلَى هَذَا الأَصْل أَحْكَام الفُرُوع، فَجعَلُوا يَحْكُمون بفَسْخ أَنْكِحَة النَّاس، وَبأَنَّ ذَبائِحَهم لاَ تُؤْكَل لِكَوْنِهم كُفَّاراً، حَتَّى بَلغني أَنَّ رَجُلاً مِنْ «جْرَاوَة» مِمَّن يَتَشيَّع لَهُم، وَرَد عَلَى بَعْض الأَشْرَاف، فَجِيءَ بالطَّعَام وَعَلَيْه اللَّحْم، وَفِي المَجْلِس جَماعَة مِنَ خِيَّار الأَشْرَاف وَأَعْيانِهم، فَتقَدَّمُوا يَأْكلُون، وَدُعِي الرَّجُل للأَكْلِ فَامْتَنع، فَقالُوا لِمَ تَمْتَنع؟ فَقَال إِنَّ الغُلاَم الَّذِي ذَبَح هَذه الشَّاة كَافِر، أَوْ لعلَّه كَافِر أَوْ لاَ يَعْرف التَّوْحِيد، فقالُوا لَهُ مَا العَبِيد ذَبَحُوها، وَإِنَّما ذَبَحهَا فُلاَن أَحَدُ[1] الأَشْرَاف، فَقالَ وَلاَ آكُلُه أَيْضاً، فَامْتَنَع مِنَ الأَكْل وَبات طَاوِياً.

وَبَلغنِي أَنَّ قَوْم الرَّجُل المَذْكُور، وَهُم قَوْم أَجْلاَف[2] يَرِدُون عَلَى شَيْخ هَذه الطَّائِفَة المُبْتكر لِهَذِه الفِتْنَة، وَقَدْ مَاتَ اليَوْم فَعفَا الله عَنَّا وَعَنْه إِنْ مَاتَ عَلَى الإِسْلاَم، فَيَحْضُرُون مَجْلِسَه، فَإِذَا رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِم جَعلُوا يَلْقُون الأَسْئِلَة عَلَى مِثْلِهِم مِنَ العَوَامِّ.

فَيَقُولُون : أَيْن كَانَ الله؟ وَأَيْن يَبِيت؟ وَأَيْن يقِيلُ؟ وَكَيْفَ هُوَ أَطَوِيلٌ أَمْ قَصِيْرٌ؟ إِلَى غَيْر هَذَا مِنَ العِبارَات البَشِيعَة الشَّنِيعَة، المُوهِمَة التَّجْسِيم، مَعَ مَا فِيهَا مِنَ الوَقاحَة وَسُوء الأَدَب عَلَى الجَنَاب العَظِيم.

وَعلَى هَذَا النَّمَط كَانَ سُؤَال هَذه الطَّائِفَة للعَوام فِيمَا يَبْلُغنا، فَرُبَّما قَالُوا لِلعَامِّي آلله دَاخِل العَالَم أَمَ خَارِجَه؟ أَوْ أَمُتَّصِل بِه أَمْ مُنْفَصِل؟ أَوْ نَحْو ذَلِك، فَيُرَدِّدُون بَيْن أَمْرَين فَاسِدَيْن، فَإِذَا سَمِعَ العَامِّي ذَلِك مِنْهُم، ظَنَّ أَنَّهُ لَيْسَ بِخَارِج عَنِ الأَمْرَيْن، فَرُبَّما اخْتَار وَاحِداً مِنهُمَا فَأَجَاب بِه، فَعِنْدَ ذَلِك يَصِيحُون عَلَيْه وَيُضَلِّلُونَه أَوْ يُكَفِّرونَه، وَهَؤُلاءِ هُمُ الشَّيَاطِين حَقّاً.

---

1 - وردت في نسخة ح : من.

2 - الجلف الجافي في خَلقه وخُلقه، شبه بجلف الشاة أي أن جوفه هواء لا عقل فيه. قال سيبويه : الجمع أجلاف. وفي الحديث : فجاءه رجل جلف جاف. الجلف : الأحمق، أصله من الشاة المسلوخة، شبه الأحمق بها لضعف عقله. لسان العرب/ 9 : 32-31 مادة جلف.

وَلَمَّا انْتَهكُوا حُرْمَة عَوَامِّ المُسْلِمينَ، ابْتَلاهُم الله بانْتِهَاك حُرْمَة الخَاصَّة، فَوقَعُوا فِي العُلمَاء، وَوضَعُوا أَسِنَّة القَدْح عَلَى أَئمَّة زَمانِهم[1]، وَكُلّ مَنْ لاَ يَنْتَحِل نِحْلَتَهم، حَتَّى بَلغنِي أَنَّهُم يَفْتحُون مَجْلِسَهم وَيَخْتِمونَه بلَعْن الفُقهَاء المَعْروفِين بِالعِلْم وَالدِّين، المُنْتَصبينَ لإِرْشَاد المُسلِمينَ، عَلَى مَهْيَع[2] السُّنة، وَعلَى سَنَن أَهْل الفَضْل مِنْ عُلمَاء المِلَّة.

وَرُبَّمَا يَبْلُغُنا عَنْهُم أَوْ عَنْ مَنْ يُشايعُهم مِنَ السُّفهَاء أَنَّهُم يُكَفِّرونَهم، إِمَّا لِكَوْنِهم رَضَوْا بِكُفْر العَامَّة، أَوْ لِكَوْنِهم لَمْ يُكَفِّرُوا العَامَّة، وَنَسَجُوا فِي هَذا المَعْنَى عَلَى مِنْوَال الكَمِيليَّة مِنَ الرَّوافِض[3]، حَيْث كَفَّرُوا جَمِيع الأُمَّة بَعْدَ مَوْت النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ لَمْ تُقَدِّم عَلِياً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ثُمَّ كَفَّرُوا عَلِيا حَيْث لَمْ يَتَقدَّم لِطلَب حَقِّه فِي التَّقْدِيم.

وَكَمَا وَرَد عَن الجُبَّائي أَنَّهُ قَالَ: «المُجْبَر كَافِر، وَمَنْ شَكَّ فِي كُفْره فَهُو كَافِر، وَمَنْ شَكَّ فِيمَنْ شَكَّ فِي كُفْره فَهُو كَافِرٌ»[4]، نَسْأَل الله العِصْمَة مِنْ كُلِّ أَتْبَاع الهَوَى.

262 / وَقَدْ تَقدَّم لَنَا فِي آخِر المَقْصد الأَوَّل[5] شَيْء مِمَّا يَتعلَّق بالكَلام عَلَى هَؤُلاَء، وَلاَ يَسْتَوْفِيه هَذا المِقْدَار، وَإِنَّمَا غَرَضُنا التَّنْبيه فَقَط، وَلعَلَّنا إِنْ نَفَّس اللهُ فِي الأَجَل، نَفْرِد لِذَلِك تَأْلِيفاً مُفْرداً إِنْ شَاءَ الله، ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[6].

---

1 - وردت في نسختي ق و ك: أزمانهم.
2 - واضح واسع بين. وفي حديث علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اتقوا البدع والزموا المَهْيَع: هو الطريق الواسع المنبسط. لسان العرب/ 8: 379-387 مادة هيع.
3 - هم الذين رفضوا إمامة أبي بكر وعمر وأجمعوا على أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نص على استخلاف علي بن أبي طالب باسمه. وأن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن الإمامة لا تكون إلا بنص وتوقيف. وأبطلوا الإجتهاد في الأحكام مع تأكيدهم بأن الإمام لا يكون إلا أفضل الناس، وأن عليا كان مصيبا في جميع أحواله. جامع الفرق والمذاهب الإسلامية: 104.
4 - نص ورد في شرح المقاصد/ 5: 228.
5 - راجع الجزء الأول: 527 وما بعدها.
6 - تضمين للآية: 4 من سورة الأحزاب.

{مَا يَجِبُ بِه الإِيمَانُ شَرْعاً}

وَإِذَا تَصوَّرْت مَعْنَى الإِيمَان، فَلابُدَّ مِنْ مَعْرِفَة مَا يَجب به الإِيمَان شَرْعا، وَهُوَ أَشْيَاء مَذْكورَة فِي قَوْله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الحَدِيث الكَرِيم : «أَنْ تُؤْمِن بالله وَملاَئِكته وَكُتبِه وَرُسلِه وَاليَوْم الآخِر، وَبِالقَدَر خَيْره وَشَرِّه حُلْوِه وَمُرِّه»[1] الحَدِيث. فَهَذِه سِتَّة أَقْسَام :

الأَوَّل : الإِيمَان بالله تَعالَى، وَيَدْخُل فِيهِ الإِيمَان بوُجودِه تَعالَى مُتَنَزِّها عَمَّا لاَ يَلِيق بِه مِنَ الحُدوثِ وَالفَنَاء، وَمُشابَهة الحَوادِث، وَمُتَّصِفا بِالصِّفات الكَامِلَة العُلْيَا، وَالأَسْمَاء الحُسْنَى، كَمَا تَقَدَّم ذِكْرُه فِي المَقْصِد الأَوَّل[2].

وَمِنْ ذَلِك كَوْنه وَاحِدا فِي مُلْكِه، وَكَوْن العَالَم جَمِيعاً صُنْعَه، وَأَنَّ لَهُ الاقْتِدَار التَّام، وَالاخْتِيَار العَام، فَيجب لَهُ عَلَى عَبِيده مَا أَوْجَب عَلَيْهم ، وَلاَ يَجب عَلَيْه لِعَبِيده <شَيْءٌ>[3] إلاَّ مَا تَفضَّل بِه عَلَيْهم، وَلَهُ أَنْ يُثِيب المُطِيع وَيُعاقِب العَاصِي، وَلَهُ أَنْ يَكْشِف عَنْ أَبْصَار أَوْلِيَائِه، فَيَرَوْهُ عَلَى مَا يَلِيق بِجَلاله، وَلَهُ أَنْ يَبْعَث الرُّسُل إِلَى عِبَادِه، لِيُبلِّغُوهم[4] أَمْرَه وَنَهْيَه، وَلاَ حَسَن وَلاَ قَبِيح عِنْدَه إِلاَّ مَا حَسَّنه أَوْ قَبَّحه، إِلَى غَيْر هَذَا مِنَ العَقَائِد.

{الخِلاَف فِي تَفْضِيل الإِنْسان عَلَى المَلاَئِكَة}

الثَّانِي : الإِيمَان بِالمَلائِكَة، وَهُم عِبَاد الله المُكْرَمُون ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[5]، وَهُم مَخْلوقُون مِنْ نُور، وَفِي كَوْن النَّوْع الإِنْسانِي أَفْضَل مِنْهُم، وَهُو المُخْتَار عِنْد بَعْضِهم أَوِ العَكْس قَوْلاَن، ثَالِثهَا الوَقْف.

---

1 – أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب : الإيمان والإسلام والإحسان.
2 – لمزيد التفصيل تراجع ص : 527 وما بعدها من الجزء الأول.
3 – سقطت من نسخة ح.
4 – وردت في نسخة ك : فيلغوهم.
5 – تضمين للآية : 6 من سورة التحريم.

الثَّالِث : الإِيمَان بِكُتُب الله تَعالَى المُنَزَّلة عَلى أَنْبيائِه، وَوَرَد فِي الحَديث : «أَنَّها مِائَة كِتَاب وَأَرْبَعَة كُتُب، وَأَفْضَلُها القُرْآن العَظِيم» ، وَهَلْ يَجُوز تَفْضِيل بَعْض القُرْآن عَلَى بَعْض قَوْلاَن، وَالأَوَّل يَدُلُّ لَهُ حَديث : «قُلْ هُوَ الله أَحَد تَعْدِل ثُلُث القُرْآن، وَقَلْب القُرْآن آيَة الكُرْسِي»[1]، إِلَى غَيْر ذَلِكَ.

الرَّابِع : الإِيمَان بالرُّسُل، وَفِي حَديث أَبِي ذَرٍّ : قُلْنَا يَا رَسُول الله كَمْ الأَنْبيَاء؟ قَالَ : «مِائَةُ أَلْف وَعِشْرُون[2] أَلْفاً»، قُلْتُ : يَا رَسُول الله كَمْ الرُّسُل مِنْ ذَلك؟ قَالَ : «ثَلاثُمِائَة وَثلاثَة عَشَر جَمًّا غَفِيرًا» انْتَهَى، وَفِي حَدِيث آخَرَ : «وَخَمْسَة عَشَر»[3]، وَهَل الرِّسَالَة أَفْضَل مِنَ النُّبوءَة؟ وَهُوَ المَشْهُور، أَو النُّبوءَة أَفْضَل قَوْلاَنِ، وَفِي تَفْضِيل بَعْض الأَنْبياء عَلَى بَعْض قَوْلاَن.

الخَامِس : الإِيمَان بِاليَوْم الآخِر، وَأَوَّلُه مِنْ قِيَام المَوْتَى، وَمَا دُونَ ذَلِك، مِنْ حِين المَوْت هُوَ البَرْزَخ، وَهُوَ مُلْتَحِق بِهِ، وَلِلبَرْزَخ زَمَان وَمَكَان وَحَال، فَأَمَّا البَرْزَخ بِحَسَب الزَّمَان، فَهُوَ مَا بَيْنَ مَوْت الإِنْسَان وَبَيْن أَنْ يُبْعَث لِلحَشْر كَمَا ذَكَرْنَا، وَيَخْتَلِف طُولُه بِاخْتِلاَف النَّاس، وَأَوَّل النَّاس بَرْزخاً أَوَّلُهم مَوْتاً فِي الدُّنْيا، وَأَقْصَرُهُم آخِرُهُم مَوْتاً، وَأَمَّا بِحَسَب المَكَان فَمِنَ القَبْر إِلَى عِلِّيينَ فِي حَقِّ أَهْل السَّعادَة، وَمِنَ القَبْر إِلَى سِجِّين فِي حَقِّ أَهْل الشَّقاوَة، <وَأَمَّا بِحَسَب الحَال، فَإِمَّا مُنَعَّمَة وَإِمَّا مُعذَّبَة، بِحَسَب السَّعادَة وَالشَّقاوَة>[4].

وَيَجب الإِيمَان بِتَولِّي المَلائِكَة قَبْض الأَرْوَاح، عَلَى مَا أَجْرَى الله تَعالَى عَادَته، وَبِأَنَّ الأَرْوَاح تُعادُ إِلَى أَجْسادِها بَعْد المَوْت، وَأَنَّ المَيِّتَ يُسْأَلُ فـ ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ

---

1 - أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب : ما جاء في ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾.
2 - وردت في نسخة ك : وأربعة وعشرون ألفا.
3 - أخرجه الذهبي عن أبي ذر في ذيله على المستدرك/ 2 : 597. وهو طرف من حديث طويل.
4 - ساقط من نسخة ك.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[1].

وَهَذَا القَدْر هُوَ الَّذِي لاَبُدَّ منْه لِكَوْنه قَطْعيا، وَأَمَّا مَا زَادَ عَلَى هَذَا مِنَ 263 الكَيْفِيات كَكَوْن المَيِّت هَلْ تُعَاد/ الرُّوح إِلَى جَميع جَسَده أَوْ إِلَى بَعْضه؟ وَهَل يَكُون إِذْ ذَاكَ حَيًّا حَقِيقَة أَوْ شِبْه النَّائم؟ وَهَل يُسْأَل مَرَّة أَوْ مَرَّات؟ فَهذَا كُلُّه وَنَحْوه مِمَّا تَضْطَرب فِيهِ الآثَار، وَتَخْتَلِف فِيه الأَخْبَار، مَنْ ظَفَر بِشَيْءٍ صَحِيح منْه وَجَب عَلَيْه الإِيمَان به، وَمَنْ لَمْ يَصِّح عِنْدَه شَيْء مِنْ ذَلِك فَلْيُؤْمِن بِهِ إِجْمَالاً، وَلِيَكل تِلْك الكَيْفِيَات وَالتَّفَاصِيل إِلَى الله تَعالَى.

وَيَجِب أَيْضاً الإِيمَان بِبَعْث الأَجْسَاد إِلَى المَوْقِف، إِمَّا بِإِيجَادِها بَعْد العَدَم المَحْض، وَإِمَّا بِجَمْعها بَعْد تَفَرُّق أَجْزائِها،﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴾[2]، وَيَجب الإِيمَان بِالحَشْر، وَهُو أَنْ يُجْمَع الأَوَّلُون والآخِرُون فِي صَعِيدٍ وَاحدٍ، بحَيْث يَسْمَعُهم الدَّاعِي وَيَنْفُذهُم البَصَر، وَالإِيمَان بِمَا يَقَع فِيهِ مِنَ الحِسَاب، وَوَزْن الأَعْمَال بميزَان مَحْسُوس ذِي كَفَّتَيْن، وَبِالصِّرَاط وَهُوَ جِسْر عَلَى مَتْن جَهَنَّم، يَعْبُره الفَائِزُون وَيَزِلُّ عَنْهُ الهَالِكُونَ.

وَفِي هَذَا كُلِّه كَيْفيَات وَأَحْوال اخْتُلِف فِيهَا مُفصَّلة فِي كُتُب الأَئِمَّة، يَنْفَع عِلْمُها وَلاَ يَضُر جَهْلُها بِالعَقِيدَة.

وَبِحَوْض النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهَل هُوَ قَبْل الصِّرَاط أَوْ بَعْدَه؟ أَوْ هُمَا حَوْضَان، أَحَدُهُما قَبْل وَالآخر بَعْد خِلاَف، وَبِشفَاعَته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَهُ شَفاعَات منْها : الشَّفاعَة الكُبْرَى فِي المَوْقِف، لِتَعْجيل الحِسَاب وَهِيَ عَامَّة، وَمِنْها الشَّفاعَة فِي الجَهَنَّمِيِّين، بِإِخْرَاج مَنْ نَفَذ فِيهِ الوَعِيد مِنَ النَّارِ، وَغَيْر ذَلِك.

1 - تضمين للآية : 27 من سورة إبراهيم.
2 - تضمين للآية : 40 من سورة المائدة.

وَالإيمَان بِالجَنَّة وَالنَّار وَأَنَّهما مَخْلُوقَتَان اليَوْم، لِدِلاَلَة الظَّواهِر الكَثِيرَة عَلَى ذَلِك. وَبِرُؤْيَة الله تَعالَى فِي الدَّار الآخِرَة عَلَى مَا يَلِيق بِجَلالِه مِنْ غَيْر تَكْيِيف، وَبِالخُلُود فِي الدَّارَيْن، فَالمُؤْمِنُون يُخَلَّدُون فِي الجَنَّة، وَمَنْ دَخَل النَّار مِنْهُم ابْتِدَاء فَمآلُه إلَى الجَنَّة خَالِداً فِيهَا، وَلاَ يُخَلَّد المُؤْمِن فِي النَّار وَلَوْ كَانْ فَاسِقاً خِلافاً لِلمُعْتزِلَة، وَالكُفَّار يُخَلَّدون فِي النَّار، فَهَذا كُلُّه دَاخِلٌ فِي الإِيمَان بِاليَوم الآخِر، وَأَدِلَّتها مُفَصَّلة فِي الكِتَاب وَالسُّنَّة، لاَ حَاجَة إِلَى التَّطْوِيل بِهَا.

السَّادِس : الإِيمَان بِالقَدَر خَيْره وَشَرِّه، فَعلم أَنَّ الكَائِنَات كُلَّها وَاقِعَة بِقَدَر الله، فَهُو تَعالَى خَالِق الكُلِّ وَمُرِيد الكُلِّ، غَيْر أَنَّهُ يُتَأَدَّب عِنْد التَّفْصِيل، فَيُقَال إِنَّهُ تَعالَى خَالِق كُل شَيْء، وَخالِق السَّماوَات وَالأَرْض، وَالمَلَك وَالإِنْس، وَلاَ يُقَال خَالِقُ القِردَة وَالخَنازِير عَلَى وَجْه الأَدَب، وَإِنْ كَان الكُل بِخَلْقه تَعالَى وَإِرادَته، وَخَالَفَت المُعْتَزِلة فِي الشُّرور وَالقَبَائِح فَنَسَبُوها إِلَى غَيْره تَعالَى، فَقالُوا إِنَّهُ تَعالَى يُرِيدُ مِنَ الكَافِر الإِيمَانَ وَإِنْ لَمْ يَقَع، وَلاَ يُرِيدُ مِنْهُ الكُفْرَ وَإِنْ وَقَع، وَيُرِيدُ مِنَ الفَاسِق الطَّاعَة وَإِنْ لَمْ تَقَعْ، وَلاَ يُرِيدُ مِنْهُ الفِسْق وَإِنْ وَقَع، حَتَّى إِنَّ أَكْثَر مَا يَقَعُ مِنَ العِبَاد خِلاَف المُرَاد.

قَالَ الشَّيْخ سَعْد الدِّين رَحِمَه الله تَعالَى : «وَالظَّاهِر أَنَّهُ لاَ يَصْبِر عَلَى هَذَا رَئِيس قَرْيَة مِنْ عِبادِه»[1] انْتَهَى.

{حِكايَة عَبْد الجَبَّار المُعْتزِلي مَعَ الأُستَاذ الإِسْفرايْني السُّني}

وَيُحْكَى أَنَّهُ دَخَل القَاضِي عَبْد الجَبَّار[2] مِنْهُم دَارَ الصَّاحِب ابْن عَبَّاد[3]، فَرَأَى

1 - قارن بشرح المقاصد/ 4 : 257.

2 - هو أبو الحسن الأسترابذي الهمداني (ت : 415 هـ)، شيخ المعتزلة في عصره، وفي الفروع شافعي المذهب. له : «تنزيه القرآن عن المطاعن» «دلائل النبوة» وهو أجل كتبه. الأعلام/ 2 : 54.

3 - إسماعيل بن عباد بن العباس أبو القاسم الطالقاني (326/ 385 هـ). وزير غلب عليه الأدب فكان من نوادر الدهر علما وفضلا وتدبيرا وجودة رأي، لقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة منذ صباه. له تصانيف منها «المحيط» وكتاب «الوزراء». نفسه/ 1 : 316.

الأُسْتَاذ أَبَا إِسْحَاق الإِسْفَرَايْني[1] أَحَد أَئِمَّة السُّنَّة، فَقَالَ : «سُبْحَان مَنْ تَنَزَّه عَن الفَحْشَاء»، فَقَالَ الأُسْتَاذُ عَلَى الفَوْر : «سُبْحانَ مَنْ لاَ يَجْرِي فِي مُلْكِه إِلاَّ مَا يَشَاء»[2]، وَيُرْوَى أَنَّهُ قَال لَهُ القَاضِي أَيْضاً : «أَرَأَيْت إِنْ مَنعنِي سَبِيل الهُدَى وَسلك بِي سَبِيل الرَّدَى، أَأَحْسَن إِلَيَّ أَمْ أَساءَ؟»، فَقَالَ الأُسْتَاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «إِنْ مَنعَك مَا هُوَ لَكَ فَقَد أَسَاء، وَإِنْ مَنعَك مَا هُوَ لَهُ ، فَهُو يَفْعَل فِي مُلْكِه مَا يَشاَء».

وَالرَدُّ عَلَى المُعْتزِلَة بِالعَقْل وَالنَّقْل، أَمَّا العَقْل فَمَا تَقَرَّرَ مِنْ وُجوبِ عُموم إِرادَتِه تَعالَى لِلكَائِنَات، كَمَا عَمَّت[3] قُدْرَته، وَبيَان ذَلِكَ تَقدَّم فِي المَقْصِد الأَوَّل[4]، وَأَمَّا النَّقْلُ فَالكِتَاب وَالسُّنة وَالإِجْمَاعُ.

264 / أَمَّا الكِتَاب فَقَوْله تَعالَى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾[5]، وَقَالَ تَعالَى : ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[6]، وَقَال تَعالَى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[7]، وَقَالَ تَعالَى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾[8]، وَقَالَ تَعالَى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾[9]، إِلَى غَيْر ذَلِك مِنَ الآيَات وَهِيَ كَثِيرَة.

وَأَمَّا السُّنَّة فَحَدِيثُ الإِيمَان كَمَا مَرَّ تَفْسِيره، وَقَال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «كُلُّ شَيْء

1 - إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهرام، أبو إسحاق عالم بالفقه والأصول كان يلقب بركن الدين. نشأ في إسفراين ثم خرج إلى نيسابور وبنيت له فيها مدرسة فدرس فيها، ورحل إلى خراسان وبعض أنحاء العراق فاشتهر له كتاب «الجامع في أصول الدين». نفسه/ 1 : 61.

2 - شرح المقاصد/ 4 : 275.

3 - وردت في نسخة ق : علمت.

4 - يراجع الجزء الأول ص : 542 وما بعدها.

5 - القصص : 68.

6 - البروج : 15-16.

7 - القمر : 49.

8 - القصص : 56.

9 - السجدة : 13.

بقَضَاء وَقَدَرٍ حَتَّى العَجْز وَالكِيس»[1]، وَقَال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأَبِي هُرَيْرَة : «جَفَّ القَلَم بِمَا أَنتَ لاَقٍ»[2]، إِلَى غَيْر ذَلِكَ.

وَأَجْمَع المُسْلِمُون قَبْل ظُهُور البِدَع، عَلَى أَنَّ «مَا شَاءَ الله كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ»[3]، وَتَفْصِيل شُبَهِهِم وَبَيَانُ الانْفِصَال عَنْها، لاَ يَفِي بِهِ هَذَا المَوْضُوع.

وَأَمَّا الإِسْلاَم فَهُو الاسْتِسْلاَم وَالانْقِيَاد لأَمْر اللهِ تَعالَى، عَلَى مَا مَرَّ مِنَ الخِلاَف في حَقِيقَته، وَيَكُون بِخَمْسَة أَشْيَاء، وَهِي المَذْكُورَة في الحَدِيث : «شَهادَة أَنْ لاَ إِلَه إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحمَّدا رَسُول الله، وَإِقَام الصَّلاة، وَإِيتَاء الزَّكَاة، وَصَوْم شَهْر رَمَضان، وَحَجُّ بَيْت الله الحَرَام»[4]، وَهِيَ مَشْروحَة فِي كُتُب الفُرُوع، فَلاَ مَعْنَى لِلتَّطْوِيل بِهَا هُنَا.

وأَمَّا الإِحْسَان، فَقَد فَسَّرَهُ فِي الحَدِيث، بِما يَرْجع إِلَى المُرَاقَبَة وَالإِخْلاَص، فَقَال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَنْ تَعْبُد الله كَأَنَّك تَرَاه فَإِنْ لَمْ تَكُن تَرَاه فَإِنَّهُ يَراكَ»[5].

وَهَذا اللَّفْظ الكَرِيم يَتضَمَّن جَمِيعَ الصِّفَاتِ المَحْمودَة، الَّتِي تَقدَّم لَنَا شَرْحُهَا، وَيَحْتَوي عَلَى جَمِيع مَقامَات المَعْرِفَة، نَسْأَل اللهَ تَعالَى أَنْ يَجْعلَنا مِنْ أَهْلِهَا بِمنِّه وَيُمْنِه.

1 - أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب : كل شيء بقدر. وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة.
2 - أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب : ما يكره من التبتل والخصاء. والنسائي في كتاب النكاح، باب : النهي عن التبتل.
3 - سبق تخريجه في ص : 144.
4 - أخرجه البخاري في الإيمان، باب : دعاؤكم إيمانكم.
5 - أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب : سؤال جبريل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة.

المطلبُ الثَّانِي
فِي فَوائِد لاَ بَأْس بِالإِلْمام بِهَا

الأُولَى : اعلْم أَنَّهُ تَقدَّم أَنَّ الكَلمَة المُشرفَة، وَهِيَ «لاَ إِلَه إِلاَّ الله» تَقْتَضِي جمَيع العَقائِد الإلَهية نَوْع اقْتِضَاء، وَتقدَّم بَيانُ ذَلك.

فَاعْلَم أَنَّ هَذِه الكَلِمَة المَجِيدَة وَهِيَ «مُحمَّدٌ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» تَقْتَضي أَيْضًا جَمِيع النَّبَويَات، وَمَا يَلْتَحِق بهَا مِنَ السَّمْعِيَات نَوْع اقْتِضَاء، وَبيَانُه أَنَّ مُحمَّدا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا عُلِم أَنَّهُ رَسُول عُلِمَ أَنَّهُ مَعْصُوم، بِمَا مَرَّ مِنَ البَيان، وَيَدخُل فِي ذَلِكَ صِدْقُه فِي أَقْوالِه، وَتَبْلِيغُه مَا أُمِرَ بِهِ، وَامِتْنَاعُ ارْتِكابِه شَيئاً مِمَّا نَهَى عَنْهُ.

ثُمَّ نَقُول : إِنَّ عِصْمَتَه إِنَّمَا هِيَ لِكوْنِه رَسولاً لاَ لِذاتِه وَلاَ لاسْمِه، فَيُعْلَم أَنَّ كُلَّ رَسُول مَعْصُوم كَذلِك، سَواءٌ كَانَ بَشراً أَوْ مَلَكاً.

ثُمَّ إِذَا عُلِم أَنَّ كَوْنَه رَسُولاً يَقْتَضِي أَنْ يَكُون صَادِقاً، فَلاَبُدَّ أَنْ يُعْلَم أَنَّهُ لاَبُدَّ لِلصِّدْق مِنْ مُتَعَلق، فَيُعْلَم أَنَّهُ صَادِق فِي كُلِّ مَا أَخْبَر بِهِ.

وَمِنْ ذَلِك الشَّرِيعَة وَمَا فِيهَا مِن <الأَحْكَام وَوُجود القِيَامَة وَمَا فِيهَا>[1] مِنْ لَدُن المَوْت إِلَى اسْتِقرَار الخَلْق فِي الدَّارَيْن عَلَى مَا مَرَّ.

وَمِنْ ذَلِك وُجُود الأَنْبيَاء وَالرُّسل وَالشَّرائِع المُتَنوِّعَة، وَالكُتُب السَّماوِية، وَوُجُود المَلائِكَة، إِلَى غَيْر ذَلِكَ.

الثَّانِيَة : هَذه الكَلمَة المَجِيدَة، تَتضَمَّن وُجُود الأُلوهِية المَفْهُوم مِنَ الكَلِمَة الأُولَى، لأَنَّ الرِّسالَة أَمْر نِسْبِي، يَقْتَضِي مُرْسِلاً وَهُو الله تَعالَى، كَمَا وَقَعت

1 - ساقط من نسخة ح.

الإِضافَة إِلَيْه، وَالإِضافَة تَقْتَضِي اخْتِصاص المُضَاف بالمُضَاف إِلَيْه، كَمَا تَقُول : عَبْد زَيْد وَدَارُه وَصاحِبه وَمَكْتُوبه، فَلاَ شِرْكَة فِي ذَلك، فَمُحمَّد ﷺ هُوَ رَسُول الله لاَ غَيْر، وَكُلُّ مَا أَتَى بِهِ مِنْ عِبادَة وَغَيْرها فَلِلَّه لاَ لِغَيْره، لأَنَّه لاَ مَعْبُود إِلاَّ هُوَ تَعالَى، كَمَا عُلِم مِنَ الكَلِمَة الأُولَى، وَتَقدَّم ذِكْر مَا بَيْن الكَلِمتَين مِنَ التَّلازُم.

الثَّالِثة : قَدْ عُلِم فِي فَنِّ البَلاغَة، أَنَّ المُضَاف يَكْتَسِب الشَّرَف مِنَ المُضَاف 265 / إِلَيْه، وَذلِك حَاصِل هَاهُنا، فَالشَّرَف هُنَا مِنْ وَجْهَيْن : <الأَوَّل>[1] لَفْظ الرَّسُول، الثَّانِي الإِضافَة إِلَى مُرْسِل خَاصٍّ هُوَ الله تَعالَى، مَلك المُلوك الَّذِي لاَ إِلَه غَيْره، فَيَنْبَغِي لِذاكِرها أَنْ يَسْتَحضِر هَذا المَعنَى، لِيَعْلَم أَنَّ فِيهَا غَايَة التَّبْجِيل وَالتَّعْظِيم لِهَذا النَّبِي الكَرِيم، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[2].

الرَّابعة : الجُمْلة الأُولَى أَرْبَع كَلِمَات، وَالثَّانِية ثَلاَث[3]، لانْتِقَاص رُتْبَة العَبْد عَن الرَّب، وَشَفْعِية الأُولَى فِي مِضْمَار الثَّانِية، وَفَرْدِية الثَّانِية فِي مِضْمَار الأُولَى إِشارَة إِلَى التَّلازُم، وَلَوْلا فَرْدانِيَة الرَّب مَا وُجِدَت شَفْعِية المَخْلُوق، و ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[4]، وَلَوْلاَ شَفْعِية المَخْلُوق مَا عُلِمَت فَرْدانِية الرَّب لأَهْل الاسْتِدلاَل، ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[5].

ثُمَّ الشَفْعِية مَنْسوبَة إِلَى اللهِ تَعالَى بِإِضَافة رَسُولِه، ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾[6]، وَالفَرْدِية ثَابِتَة لِرسُولِه ﷺ فِي الاصْطِفَاء التَّام، وَالحُظْوة[7] الخَاصَّة مِنْ دُون جَمِيع الكَوْن، وَمَجْمُوع الكَلِمتَين

1 – سقطت من نسخة ح.
2 – تضمين للآية : 105 من سورة البقرة.
3 – وردت في نسخة ك : ثلاثة.
4 – تضمين للآية : 22 من سورة الأنبياء.
5 – تضمين للآية : 21 من سورة الذاريات.
6 – تضمين للآية : 62 من سورة التوبة.
7 – وردت في نسخة ك : الحضرة.

سَبْع، وَبِهما كَمُلَت الشَّرِيعَة وَانْتَظَمت مَصالِح الدَّارَيْن، وَالسَّماوَات سَبْع وَالأَرْضُون سَبْع، وَالأَيَّام سَبْع وَغَيْر ذَلْك.

الخَامِسة : تَقدَّم ذِكْر خِلاَف فِي تَفْضِيل الهَيْللَة عَلى الحَمْدلَة وَالعَكْس، وَالإِشارَة إِلَى تَوْجِيه كُلٍّ مِنَ القَوْلَين، وَرَأَيْتُ فِيمَا قُيِّد عَنِ الفَقِيه أَبِي الوَلِيد ابْن رُشْد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّه سُئِل عَنْ ذَلِك، فَأَفْتَى بِتَفْضِيل الهَيْللَة عَلَى الحَمْدلَة، وَأَنَّهُ بَلَغ جَوابُه إِلَى الفَقِيه مَيْمُون بْنِ مَهدي، فَكَتَبَ إِلَى ابْنِ رُشْد[1] :

أَعِدْ نَظراً فِيمَا كَتَبْت وَلا تَكُـن * بِغَيْر سِهام لِلنِّضَال مُسارِعَـا**
فَحظُّك تَسْلِيمُ العُلوم لأَهْلِهـا * وَحَسْبُك مِنْها أَنْ تَكُونَ مُتابِعَـا**

فَأَجَابَه ابْنُ رُشْد :

أَخِلْتَ ابْنَ رُشْد كَالَّذِين عَهِدْتَهم * وَمِنْ دُونِه تَلْقَى الهِزْبَر المُدافِعَـا**
رُوَيْـدك مَا نَبَّهْت مِنِّي نَائِمـا * وَدُونَك فَاسْمَعْها إِذَا كُنْتَ سَامِعَـا**
وَلَوْ أَنْت سَلَّمْتَ العُلُومَ لأَهْلِهـا * لَمَا كُنْتَ فِيمَا تَدَّعِيه مُنازِعَـا**
وَإِنْ ضَمَّنَا عِنْد التَّنازُع مَجْلِسٌ * سَقَيْنَاكَ فِيهِ السُّمَّ لاَشَكَّ نَاقِعَـا**

السَّادسَة : وَقَع فِي بَعْض الأَخْبَار الإِسْرائيلية، ذِكْر لِهاتَيْن الكَلمتَين المُشَرفَتيْن، فَرَأَيْت أَنْ أَخْتِم الكِتَاب بِه، وَإِنْ كَانَ غَرِيباً لِمَا فِيه مِنَ التَّنْويه بِهمَا، وَحاصله عَنْ عَبْد المَلك بْنِ هِشَام، «أَنَّ رَجُلا مِنْ بَنِي إِسْرائِيل كَانَ أَبُوهُ مَلِكًا، وَكَانَ أَزَال اسْمَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصِفَته مِنَ التَّوْرَاة بَغْياً وَحسداً، فَلَمَّا هَلَك وَنَشَأ ابْنُه وَهُو الرَّجُل المَذْكُور، عَثَر عَلَى ذَلِك فِي مَخْزَن كَانَ طُرِح فِيهِ فَردَّه إِلَى التَّوْرَاة.

---

1 - محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي أبو الوليد (520- 595 هـ). الفقيه الأديب العالم الجليل الحافظ، كانت الرواية أغلب عليه من الدراية، درس الفقه والأصول وعلم الكلام، وكان يفزع إليه في الطب والفتوى في الفقه. تعرض للمحنة والنفي وإحراق كتبه. شجرة النور : 146.

ثُمَّ إِنَّ الرَّجُل أُشْرِبَ قَلْبُه حُبَّ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخرَج يَطْلُب أثرَه فِي الأَرْض، فَوقَع إِلَى جَزِيرَة فِي البَحْر فِيهَا حَيَّات هَائِلَة، تَقُول : «لاَ إِلَه إلاَّ الله مُحَمَّد رَسُول الله»، فَقالَ الرَّجُل مِثْل ذَلِك، فَقالَت لَهُ الحَيَّات : مَنْ أَنْت؟ قَالَ : مِنْ بَنِي إِسْرائِيل، فَقالَت لَهُ : لاَ نَعْرِف إِسْرائِيل، فَقَال : مِنْ بَنِي آدَم، فَقالَت : لاَ نَعْرِف آدَم وَلاَ أَوْلادَه، فَقَال : وَمَنْ أَنْتُنَّ؟ فَقالَت : حَيَّات جَهنَّم تَزْفر فِي العَامِ مَرَّتَيْن، فَتُلْقِينا هَاهُنا لِنَسْتَرِيح مِنْ حَرِّهَا.

ثُمَّ إِنَّ الرَّجُل وَقَع إِلَى جَزِيرَة أُخْرى فِيهَا حَيَّات أَعْظَم مِنَ الأُولَى، وَهُنَّ يُشَهِّدْنَ بِالشَّهادَتيْن وَقُلْن لَهُ كَالأُولى، إلاَّ أَنَّهُن لَسْنَ مِنْ حَيَّات جَهنَّم، وَفِيهِنَّ 266 / حَيَّة صَغِيرَة هِيَ مَلِكتهُن، فَسَأَلَتْه تِلْك المَلِكَة[1] أَنْ يَقْرأَ سَلامَها عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ثُمَّ إِنَّ الرَّجُل كَرَّ إِلَى بَيْت المَقْدس، فَصادَف فِيه شَخْصا عَالِماً اسْمُه عَفَّان، فَذكَر لَهُ مَطْلَبه فَقالَ لَه : لَيْس هَذَا وَقْتُه، وَأَنَّهُ بَقِيَ بَيْنَك وَبَيْنَه زَمَان طَوِيل، ثُمَّ اتَّفقَا عَلَى الجَوَلاَن فَانْتهَيا إِلَى قُبَّة فِي البَحْر، فِيهَا جُثَّة سُلَيْمان عَلَيْه السَّلاَم وَخَاتَمه فِي أُصْبُعِه، وَتِنِّينَان يَكْتَنِفَانه، فَأَرَاد عَفَّان أَخْذ الخَاتَم وَمَنَعُه الرَّجُل، فَصَمَّم عَلَى قَصْدِه، فَنَزَل جِبْرِيل عَلَيْه السَّلام بِإِهْلاكِه فَهلَك، وَصَعِق الرَّجُل فَلَمَّا أَفَاقَ أَعْلَمَه جِبْرِيل <عَلَيْه السَّلاَم>[2] : أَنَّهُ إِنَّمَا أَنْجاه الله بِبَركَة مَحَبَّتِه لِمُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثُمَّ إِنَّ الرَّجُل ضَلَّ عَنِ الطَّرِيق، فَوقَع إِلَى البَحْر السَّابِع فِي جَزِيرَة بَاهِرَة الحُسْن، فَرأَى فِيهَا فُرْسانًا يَشْهدُون بِشهَادة الحَقِّ : «لاَ إِلَه إلاَّ الله مُحمَّد رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» فَسَأَلُوه مَنْ أَنْتَ؟ فَتَسمَّى لَهُم وَاعْتزَى وَعَرَّفَهم بِمَطْلِبه، فَعَجبوا مِنْ وُصُولِه إِلَيْهِم، وَسَأَلَهُم فَقالُوا : جِنٌّ مُومِنُون، أُمِرْنا بِسُكْنَى هَذِه الجَزِيرَة، وَقِتَال

1 - وردت في نسخة ك : الحية.
2 - سقطت من نسخة ح.

كُفَّار الجنِّ، وَسَألَهُم كَيْف تَعْرِفُون مُحمَّداً عَليْه السَّلاَم؟ فَقالُوا : «أُمِرْنا أَنْ نَشْهَد أَنْ لاَ إِلَهَ إلاَّ الله وَأَنَّ مُحمَّدا رَسُول الله» فَنَحْن نَعْرِفُه بهذَا، وَأَنَّهُم أَرْكبُوه فَرساً وَأَمَرُوه أَنْ يَدْفَعَه حَيْث يَقِف لِنَائِبهم هُنالك، فَطارَ بِهِ فِي الهَواءِ، وَقَطَع بِهِ نِصْف يَوْم مَسِيرَة مِائَة وَعِشْرِينَ سَنَة، حَتَّى وَقَع عَلَى شَيْخ عَالِم وَدفَعه إِليْه وَعَرَّفَه بِالأَمْر.

ثُمَّ إنَّ الرَّجُل وَقَع إِلَى مَلَك إِحْدى يَدَيْه فِي المَشْرق وَالأُخْرى فِي المَغْرب، وَهُو يَقُول : «لاَ إِلَه إلاَّ الله مُحمَّد رَسُول الله»، فَسأَلَه مَنْ أَنْت؟ فَعَرَّفَه الرَّجُل بحالِه وَمَطْلبه، وَأَخْبَره المَلَك أَنَّهُ مَلَك اللَّيْل وَالنَّهار، وُكِل بِهِما أَنْ لاَ يَسْبِق أَحَدُهُمَا الآخَر.

ثُمَّ إنَّ الرَّجُل وَقَع إِلَى مَلَك إِحْدَى يَدَيْه فِي السَّماءِ وَالأُخْرى فِي البَحْر، فَتساءَلا فَإِذَا بِهِ مَلَك الرِّيح، وَهُو يَشْهَد بِشهَادَتَيْ الحَقِّ.

ثُمَّ إنَّ الرَّجُل وَقَع إِلَى مَلائِكَة أَرْبَعة مُخْتَلِفي الصُّوَر وَالأَلْسِنة، وَأَنَّ كُل وَاحِدٍ مِنْهُم يَقُول آخِر كَلامِه : اللَّهُم اجْعَلْنِي فِي شَفاعَة مُحمَّد يَوْم القِيامَة.

ثُمَّ إِنَّهُ وَقَع إِلَى مَلَكٍ عَظِيم عَلَى جَبَل «قَاف»، وَهُو المُوكَل بِهِ وَبالأَرْض، وَهُوَ يَشْهَد بِشهَادَتَيْ الحَقِّ «لاَ إِلَه إِلاَّ الله مُحمَّد رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، وَذَكَرَ لَهُ أَنَّ مِنْ وَرَاء جَبَل «قَاف» أَرْبَعِين دُنْيَا، وَفِيهَا أُمَّة مِنْ نُور، لَمْ يَعْصُوا الله قَطُّ، وَكُلُّهم يَقُولُون «لاَ إِلَه إلاَّ الله مُحمَّد رَسُول الله».

ثُمَّ إِنَّهُ انْتَهَى إِلَى مَلَكَيْن <آخَرَيْن>[1] عَظِيمَيْن، وَهُمَا يَشْهدَان بِشهَادة الحَقِّ، وَلاَ يَعْرِفَان آدَم وَلاَ ذُرِّيَته، وَإِنَّما يَشْهدَان بِالرِّسالَة لِمُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأَنَّهُما أُمِرَا بِذَلِك».

---

1 - سقطت من نسخة ح.

انْتَهى الغَرَضُ مِنْ حَدِيثِه مُلَخَّصاً، مِمَّا ذَكَرَهُ المُؤَرِّخُون.

وَصلَّى الله وَسَلَّم وَمَجَّد وَكَرَّم عَلَى سَيِّدنَا وَمولاَنا مُحمَّد، عَدَد مَا ذَكَرَهُ الذَّاكِرُون، وَعَدَد مَا غَفَل عَنْ ذِكْرِه الغَافِلُون، وَرَضِيَ الله تَعالَى عَنْ أَصْحَاب رَسُول الله أَجْمَعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُم بِإِحْسَان إِلَى يَوْم الدِّين، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

كَمُل الكِتَاب المُبارَك بِحَمْد الله تَعالَى وَحُسْن عَوْنِه، وَصَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنا وَمَوْلانَا مُحَمَّد وَآلِهِ وَصَحْبِه وَسَلَّم تَسْلِيما، عَلَى يَدِ كَاتِبه لِنَفْسِه وَلِمَن شَاءَ الله بَعْدَه، عَبْد الوَاحِد بْن مُحمَّد الكَرْزابِي كَانَ اللهُ لَهُ، وَغَفَر لَهُ وَلِوالِدَيْه، وَلإِخْوانِه وَلأَحِبَّتِه، وَلأَشْياخِه وَلِجَيمِع المُسْلِمينَ.

وَكَانَ الفَراغُ مِنْهُ ضُحَى يَوْم الثُّلاثَاء فِي آخِر رَجَب الفَرْد عَام ثَمانِية وَثَمَانِين وَأَلْف، عَرَّفَنا اللهُ خَيْرَه وَوقَانا شَرَّه وَضَرَّه، آمِين وَالحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ.
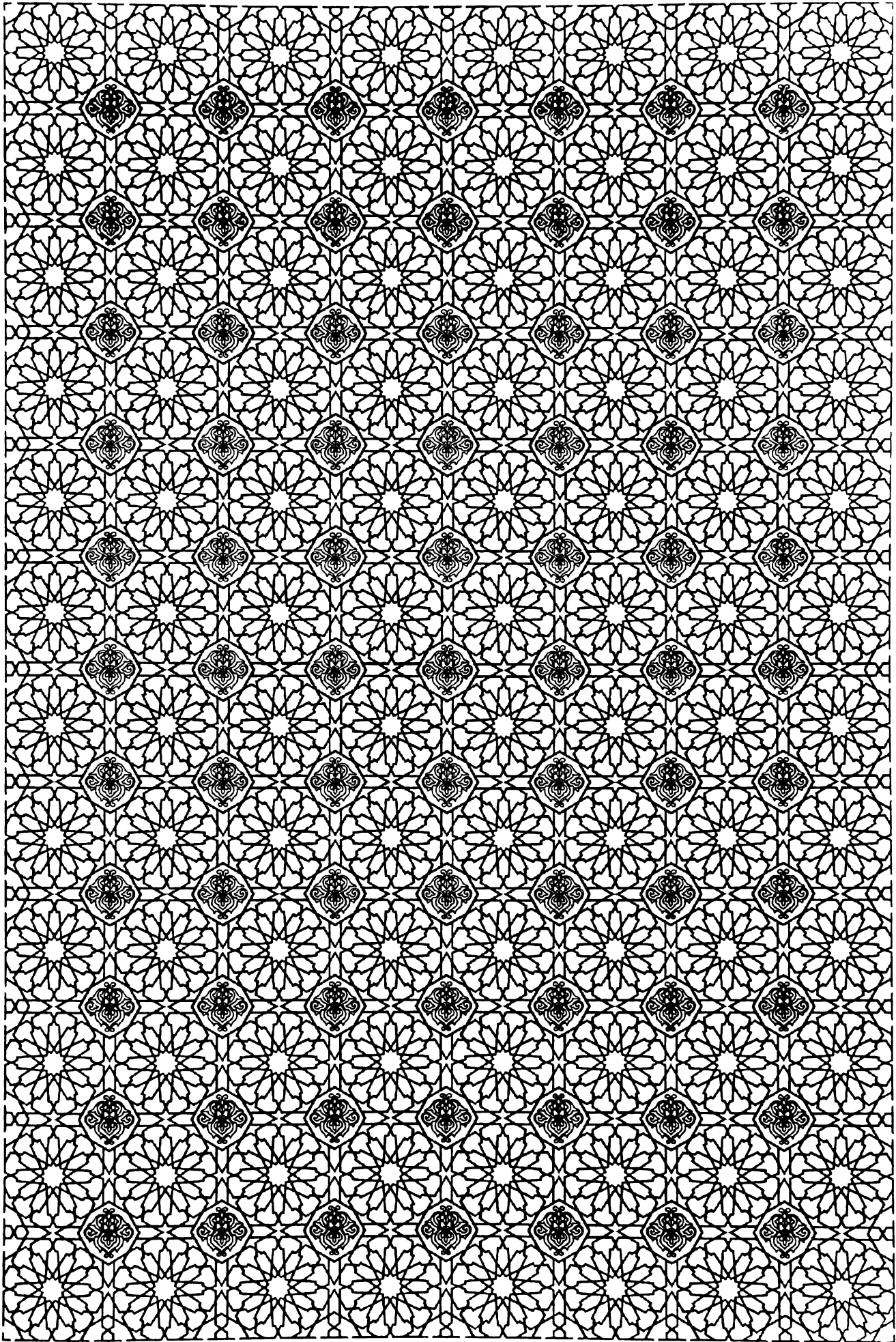
الفهـــارس العامـــة

1. مسرد أوائل الآيات القرآنية.
2. مسرد أوائل الأحاديث النبوية وبعض المأثورات
3. فهرس الشواهد الشعرية
4. فهرس الفرق والملل والمذاهب والنحل
5. فهرس الأماكن والبلدان
6. فهرس الحيوانات
7. فهرس الأعلام
8. فهرس الكتب
9. ثبت المصادر والمراجع
10. ثبت تفصيلي لأبواب الكتاب ومحتوياته

1. مسرد أوائل الآيات

السورة	الآية	النص	الصفحة
	60	﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ .... ﴾	275
	90	﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ .... ﴾	273
الإسراء	1	﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .... ﴾	58-51
	7	﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ .... ﴾	273
	13-14	﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا .... ﴾	281
	44	﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .... ﴾	174
	70	﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ .... ﴾	178
	110	﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ .... ﴾	239
مريم	2	﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا .... ﴾	51
	76	﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ .... ﴾	197
	87	﴿ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا .... ﴾	273
	93-94	﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .... ﴾	279-81
طه	14	﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي .... ﴾	299-147
الأنبياء	22	﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا .... ﴾	355
	23	﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ .... ﴾	301- 296-71
	30	﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .... ﴾	158
الحج	5	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ .... ﴾	139
	6	﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ .... ﴾	140
	11	﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ .... ﴾	78
	24	﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ .... ﴾	275
المؤمنون	14	﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ .... ﴾	131
	84	﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا .... ﴾	209
	100	﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .... ﴾	277
	115	﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ .... ﴾	129

الرحمان	14	﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾	129
الحديد	2	﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾	121
	3	﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾	210-165
	4	﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾	97
	5	﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	209
الحشر	1	﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾	209
	22-23	﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ﴾	210
	24	﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ﴾	210
الصف	1	﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾	209
	2-3	﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾	105
	6	﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾	330
الجمعة	1	﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾	209
المنافقون	1	﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾	95-74
	9	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾	122
التغابن	1	﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾	209-121
الطلاق	12	﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾	147- 129-119
التحريم	6	﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ﴾	348
الملك	1	﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾	121
القلم	4	﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾	327
	44	﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾	314
الجن	19	﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾	51
المدثر	4	﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾	157
النبأ	38	﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾	275
النازعات	24	﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾	127-46
البروج	15-16	﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾	352

2. مسرد أوائل الأحاديث النبوية وبعض المأثورات

المأثورات

3. فهرس الشواهد الشعرية

القافية	عدد الأبيات	الشاعر	الصفحة
قافية – الهمزة –		.	
أسماء	1	....	58
قافية – ب –			
الأجرب	1	عنترة	9
للعقاب	3	أبو يزيد البسطامي	64
قافية – ح –			
البطاح	1	الحماسي	287
قافية – د –			
واحد	1	....	135
فندا	2	....	94
قافية – ر –			
بالخبر	1	ابن رواحة	327
الصخر	1	الجنيد	160
المناظر	2	....	156
أحمرا	1	....	215
قافية – س –			
فَتَنتكس	1	....	264
قافية – ض –			
عوض	1	....	64
قافية – ع –			
مسارعا	2	ميمون بن مهدي	356
المدافعا	4	ابن رشد	356

4. فهرس الفرق والملل والمذاهب والنحل والأهواء والأجناس

5. فهرس البلدان والأماكن

6. فهرس الحيوانات

7. فهرس الأعلام

حرف الألف	
- أبو إسحاق الإسفرايني	352-147-102
- أبو إسحاق الأولاسي	252
- أبو الحسن الأشعري	309-308-103-39-38
- أبو الحسن الشاذلي	251-157-100-95-77
- أبو الدرداء	198-18
- أبو الربيع الكلاعي	170
- أبو العالية	92
- أبو العباس المرسي	252-204-157-93-78
- أبو العباس بن العريف	78-60
- أبو العباس زروق	247-245-85
- أبو المظفر شاه فور الإسفرايني	183
- أبو المنذر الجهني	199
- أبو الوليد ابن رشد	356
- أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	332-238-195-176-168-102
- أبو بكر بن العربي المعافري	312-306-298-288-182- 126-96
- أبو جعفر المنصور	126
- أبو حامد (الغزالي)	178-169-116-109-104-85- 84-43 284-279-272-258-235-203
- أبو حنيفة	127
- أبو حيان	177
- أبو ذر الغفاري	349-327-322-201
- أبو سليمان	15-113

8. فهرس الكتب

9. ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. الكتب المطبوعة

- أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي، تحقيق علي محمد البجاوي دار الفكر
- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي دار الكتب
- الأذكار النبوية للإمام أبي زكرياء يحيي النووي دار القبلة للثقافة الإسلامية المملكة العربية السعودية ط 1. 1412 هـ/ 1991 م.
- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للإمام الشوكاني بيروت دار الفكر
- أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير دار الفكر
- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني دار إحياء التراث العربي ط.1 328
- الأعلام للزركلي طبعة 1979م بيروت دار العلم
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام ناصر الدين البيضاوي طبعة دار الجيل
- البحر المحيط لأبي حيان الندلسي ط 1 1328 ه مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر
- البداية والنهاية لابن كثير تحقيق وتعليق علي شيري دار إحياء النراث العربي بيروت ط 1 1408 هـ/ 1989م
- التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح للحسين بن مبارك مطبعة علي صبيح بميدان الأزهر الشريف 1350 ه/ 1931م
- التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية لأبي عربي مطبعة بريل 1332 هـ

- الترغيب والترهيب لعبد العظيم المنذري ضبط وتعليق مصطفى محمد عمارة دار الفكر 1401 هـ/ 1981 م

- التعريفات للجرجاني بيروت ط 1983م

- تفسير القرآن العظيم لابن كثير دار المعرفة بيروت لبنان ط 1980م

- التفسير والمفسرون للذهبي وهبة القاهرة ط 4 1989 م مطبعة وهبة.

- تلخيص المحصل بهامش محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين للفخر الرازي، دار الكتاب العربي بيروت ط 1 1984 م.

- تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث لابن عمر الشيباني الشافعي. دار الكتاب العربي بيروت لبنان.

- تهذيب سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط مرسسة الرسالة، ط 2 1413 هـ/ 1992 م.

- جامع الفرق والمذاهب الإسلامية لعبد الأمير علي مهنا وعلي خريس المركز الثقافي العربي ط: 2- 1994 م.

- حكم ابن عطاء الله، شرح العارف بالله الشيخ أحمد زروق تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود مكتبة النجاح.

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ط 1 1357 هـ/ 1938 م.

- حياة الحيوان الكبرى للدميري، تصحيح عبد اللطيف سامر، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت ط 1 1416 هـ/ 1995 م.

- الديباج المذهب لابن فرحون، دار الكتب العلمية بيروت.

- رسائل اليوسي، تحقيق فاطمة خليل، دار الثقافة 1981 م.

- رسالة الأنوار ضمن رسائل ابن عربي، تقديم وضبط محمد شهاب الدين العربي دار صادر بيروت ط 1 1997 م.

- الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري تحقيق زريق وعلي عبد الحميد بلطة دار إحياء التراث العربي بيروت.

- الرياضة وأدب النفس لأبي عبد الله محمد بن علي الترمذي مكتبة الآداب الصوفية 1947 أخرجه الدكتور آربري والدكتور علي حسن عبد القادر.

- زهر الأكم في الأمثال والحكم للحسن اليوسي تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر دار الثقافة ط 1 1401 هـ/ 1981 م.

- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للإمام محمد الصالحي الشامي تحقيق مصطفى عبد الواحد القاهرة 1392 هـ/ 1972 م.

- سنن أبي داود السجستاني، تعليق فضيلة الشيخ أحمد سعد علي ط 1 1371 هـ/ 1952 م.

- سنن ابن ماجة تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء الكتب ط، 1372 هـ/ 1952 م.

- سنن الترمذي دار الفكر بيروت ط 2 1402 هـ/ 1983 م.

- سنن الدرامي، دار الكتب العلمية بيروت، نشر دار إحياء السنة النبوية طبع بدمشق عام 1349 ه.

- شجرة النور الزكية لابن مخلوف دار الفكر.

- شذرات الذهب لابن العماد، دار إحياء التراث العربي بيروت.

- شرح العلامة محمد بن ابراهيم المعروف بابن عباد النفزي الرندي على متن الحكم للإمام أبي الفضل أحمد بن محمد بن عطاء الله السكندري تحقيق الشيخ عبد الله الشرقاوي.

- شرح المقاصد للإمام سعد الدين التفتازاني، تحقيق وتعليق الدكتور عبد الرحمان عميرة عالم الكتب بيروت ط 1 1409 هـ/ 1989 م.

- شرح ديوان امرئ القيس تحقيق خالد الفاخوري دار الجيل بيروت ط 1 1409 هـ/ 1989 م.

- شرح ديوان عنترة بن شداد لعبد الرؤوف شبلي وإبراهيم الأبياري بيروت دار الكتب العلمية 1980 م.

- شمس المعارف الكبرى لأحمد بن علي البوني المطبعة الحسنية المصرية ط. 1348 هـ

- صحيح البخاري بيروت دار الجيل

- صحيح مسلم بشرح النووي إعداد رياض عبد الله عبد الهادي دار إحياء التراث العربي بيروت ط 1 1416هـ/ 1995 م.

- صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي بيروت

- طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي المطبعة الحسينية المصرية ط 1

- طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمان السلمي، تحقيق نور الدين شريبة مطابع دار الكتاب العربي ط 1 1953.

- الطبقات الكبرى لابن سعد أعد فهارسها عبد الله عبد الهادي دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان

- علم القلوب لأبي طالب المكي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ط 1 1384 هـ/ 1964 م مكتبة القاهرة

- الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي تحقيق السعيد بسيوني زغلول دار الكتب العلمية بيروت ط 1 1406 هـ/ 1986 م.

- فيض القدير شرح الجامع الصغير لعبد الرؤوف المناري دار الفكر ط 2 1391 هـ/ 1972 م.

- القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام التعلم للحسن اليوسي تقديم وتحقيق وفهرسة حميد حماني مطبعة شالة الرباط ط 1 1419 هـ/ 1998 م.

- قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام مراجعة وتعليق طه عبد الرؤوف سعد دار الجيل ط 2 1400 هـ/ 1980م.

- قواعد التصوف لأبي العباس زروق تصحيح محمد زهري البخار نشر مكتبة الكليات الأزهرية ط 2 1396 هـ/ 1976 م.

- قوت القلوب لأبي طالب المكي، ضبط وتصحيح باسل عيون سود دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط 1 1997/ 1417 م.

- كتاب الزهد ويليه كتاب الرقاق لابن المبارك المروزي، تحقيق حبيب الرحمان الأعظمي دار الكتب العلمية.

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون التأويل لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري تحقيق محمد الصادق قمحاوي مطبعة مصطفى بابي الحلبي ط 1392 هـ/ 1972 م.

- اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة للزركشي تحقيق مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية ط 1 1406 هـ/ 1986 م.

- لسان العرب لابن منظور دار المعارف ط 3.

- لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي والشاذلي أبي الحسن لابم عطاء الله السكندري منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ط 1، 1418 هـ/ 1998 م. دار الفكر بيروت

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين بن أبي الهيثمي بيروت ط 2 1387 ه/ 1967 م

- المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري وفي ذيله تلخيص المستدرك للذهبي دار الفكر بيروت 1398 ه/ 1978 م.

- مسند أحمد بن حنبل وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للتقي الهندي المكتب الإسلامي بيروت ط 4. 1403 هـ/ 1983 م.

- مسند الشهاب، تأليف القضاعي أخرج أحاديثه حمدي عبد المجيد السلفي مؤسسة الرسالة ط 1. 1405 هـ/ 1985 م

- المعجم الصغير للطبراني مراجعة وتصحيح عبد الرحمان محمد عثمان المكتبة السلفية المملكة العربية السعودية ط 1388 هـ/ 1968 م.

- معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، مكتبة المتقي بيروت ودار إحياء التراث العربي.

- المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار للعلامة العراقي على هامش إحياء علوم الدين للغزالي. دار الكتب.

- مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح لابن عطاء الله الاسكندري، تقديم وتحقيق الدكتور محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مدبولي القاهرة. ط 1، 1413 هـ/ 1993 م.

- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة للسخاوي، تحقيق محمد عثمان دار الكتاب العربي بيروت، ط 1، 1405 هـ/ 1985 م.

- الملل والنحل للشهرستاني تحقيق محمد سيد كيلاني دار المعرفة بيروت 1982 م.

- منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين للغزالي، تحقيق محمود مصطفى حلاوي، مؤسسة الرسالة ط 1، 1409 هـ/ 1989 م.

- المواقف في علم الكلام لعضد الدين الإيجي عالم الكتب بيروت.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ودار الثقافة - بيروت - ط: 1971 م.

2. المخطوطات:

- بغية السالك في أشرف المسالك للإمام الساحلي، مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1691 د.

- رسالة جمال الإسلام الغزالي في حديث «لا إله إلا الله حصني وما يتعلق بالكلمة المشرفة» مخطوط الخزانة العامة بالرباط تحت رقم: 2530 د.

- سراج الغيوب في أعمال القلوب، لعليوات. مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 5445

- شرح المعالم في أصول الدين لابن التلمساني. مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 230 ق.

- المتوسط في أصول الدين. لأبي بكر بن العربي. مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 2963 د.

10. ثبت تفصيلي لأبواب الكتاب ومحتوياته